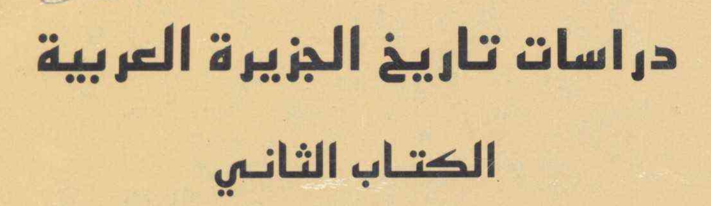


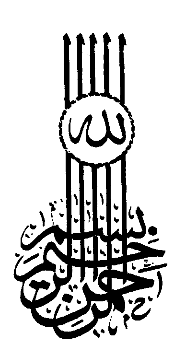


دراسات تاريخ الجزيرة العربية

الكتاب الثاني

الجزيرة العربية قبل الاسلام





دراسات تاريخ الجزيرة العربية

هذا عنوان لسلسلة جديدة من الدراسات فى تاريخ الجزيرة العربية، تحتوي على الأبحاث التى كانت قد قدمت فى الندوتين العالميتين الأولى والثانية اللتين كانتا قد نظمتا في كلية الآداب بجامعة الملك سعود (الرياض آنذاك)، وعلى الأبحاث التي ستقدم للندوات التي ستنظم فيها مستقبلاً بمشيئته تعالى. وكانت الندوة العالمية الأولى قد نظمها قسم التاريخ، بكلية الآداب، بجامعة الملك سعود (الرياض آنذاك) فى جمادى الأولى ١٣٩٧هـ (أبريل / نيسان ١٩٧٧)، وموضوعها مصادر تاريخ الجزيرة العربية ويحوي أبحاثها الكتاب الأول في جزأيه. أما الندوة العالمية الثانية فكان قد اشترك في الاعداد لها وعقدها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بالكلية ذاتها، فى جمادى الاولى ١٣٩٩هـ (أبريل / نيسان ١٩٧٩)، وتناولت موضوع الجزيرة العربية قبل الإسلام، ويضم بعض أبحاثها هذا الكتاب.

أما الندوة العالمية الثالثة والتي نظمها القسمان أيضا وعقدت في الفترة ١٥ - ٢١ محرم ١٤٠٤هـ (٢١ - ٢٧ أكتوبر / تشرين الاول ١٩٨٣م)، وكان موضوعها: الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، فإن أبحاثها ستصدر في الكتاب الثالث من هذه السلسلة إن شاء الله تعالى وفيما يلي عناوين كتب السلسلة:

الكتاب الأول: جزءان:

مصادر تاريخ الجزيرة العربية

مطابع جامعة الرياض (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)

الكتاب الثاني:

الجزيرة العربية قبل الإسلام.

مطابع جامعة الملك سعود (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)

الكتاب الثالث:

الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

سيحوي أبحاث الندوة العالمية الثالثة التي عقدت مؤخراً في ١٥ - ٢١ محرم ١٤٠٤هـ (الموافق ٢١ - ٢٧ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٨٣م).

الجزيرة العربية
قبل الإسلام

الغـــلاف

(١) نقش بالمسند لعجل بن هفعم .

(٢) تماثيل صغيرة من البرونز لجمال .

حفريات جامعة الملك سعود - قرية (الفاو) .

حقوق الطبع

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

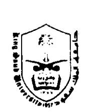
بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين والصلاة والسلام على

أفضل المرسلين سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين

١٤٠٤هـ/١٩٨٤م



مطابع جامعة الملك سعود

دراسات تاريخ الجزيرة العربية

الأبحـاث المقدمة للندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في ٥ - ١١ جمادى الأولى ١٣٩٧هـ، الموافق ١٣ - ١٩ أبريل (نيسان) ١٩٧٩م، قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الرياض (جامعة الملك سعود)، المملكة العربية السعودية.

الكتاب الثاني

الجزيرة العربية قبل الإسلام

وقف على طبعه وتصحيحه

الأستاذ الدكتور عبدالقادر محمود عبدالله   الأستاذ الدكتور سامى الصقار

الدكتور رتشارد مورتيل

بإشراف

الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري

لجنة تحرير الكتاب

أعضاء اللجنة الذين راجعوا الأبحاث وأعدوها للنشر كل في تخصصه:

الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري	(تاريخ الجزيرة العربية القديم وآثارها: رئيس اللجنة)
الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين مختار	(التاريخ القديم والآثار)
الأستاذ الدكتور عبدالقادر محمود عبدالله	(التاريخ القديم والآثار)
الأستاذ الدكتور سامي الصقار	(التاريخ الاسلامي)
الدكتور وفيق محمد غنيم	(التاريخ القديم والآثار)
الدكتور رتشارد مورتيل	(التاريخ الإسلامي)

القسم العربي

* الموضوعات التى عالجتها الأبحاث باللغة العربية. ينظر فى القسم غير العربى للأبحاث المكتوبة بغير اللغة العربية.

تمهيـــد

لله الحمد والشكر اذ أنعم علينا بتقديم الكتاب الثاني من هذه السلسلة والذى يضم بعض البحوث التي قدمت في الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وموضوعها «الجزيرة العربية قبل الاسلام»، والتي انعقدت في ٥ ـ ١١ جمادى الأولى ١٣٩٩هـ، الموافق ١٣ ـ ١٩ أبريل / نيسان ١٩٧٩م. وكان قد اشترك في تنظيمها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف، بكلية الآداب، جامعة الملك سعود (الرياض آنذاك). وكان قد صدر قبل بضع سنوات الكتاب الأول من هذه السلسلة في جزأين وعنوانه مصادر تاريخ الجزيرة العربية (مطابع جامعة الرياض) ويحوي الأبحاث التي كانت قد قدمت في الندوة العالمية الأولى (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

وإني كباحث في الآثار العربية واللغات العربية القديمة والتاريخ العربي القديم لأشعر بالرضى التام عن المستوى العلمي الرفيع الذى ظهرت به الدراسات المنشورة في هذا الكتاب. ولا شك أن كثيراً من هذه الدراسات تعد إضافة جديدة لتاريخ الجزيرة العربية وآثارها قبل الاسلام، يستحق عليها أصحابها منا الشكر والثناء والتقدير.

وإذا كان من حقى أن أوجه الشكر فانني أوجهه لزملائي لجنة تحرير الكتاب الذين بذلوا معى جهداً مضنياً في سبيل تحريره في صورة علمية مشرفة. وأستميح أعضاء اللجنة في أن أقدم باسمهم الشكر خاصة الى كل من الأستاذ الدكتور عبدالقادر محمود عبدالله والأستاذ الدكتور سامي الصقار والدكتور رتشارد مورتيل على متابعتهم طبع هذا الكتاب ومراجعته ليخرج بالصورة الفنية التي خرج بها.

إني لأنتهـز هذه الفرصة لأعبر عن عظيم امتنانى لمعالي مدير الجامعة، الدكتور منصور ابراهيم التركي لتأييده المتواصل للندوة وتشجيعه المتزايد لنا لنمضي قدماً في نشر أبحاثها. ولقد حفزنا اعتزازه بالكتاب الاول من هذه السلسلة وافتخاره به الى القيام بتحسينات عدة في هذا الكتاب. كذلك نشكر كلاً من سعادة الدكتور حمود البدر، وكيل الجامعة وسعادة الدكتور صالح العذل، وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي، لما قدماه لنا من عون في ندواتنـا لا يخفى. ولسعـادة الـدكتـور علي جاد، العميد السابق لكلية الآداب، الذى عقدت في فترة عمادته الندوة الثانية ولعميد كلية الآداب الحالي، سعادة الدكتور عبدالعزيز بن عبداللطيف آل الشيخ، عظيم الشكر لما يسراه لنا من عون أفادنا في كثير من مرافق نشاط الندوة في السابق وحاليا. ونذكر بكل تقدير المنحة التي قدمها مركز البحوث لكلية الآداب التي يسرت نسخ مواد الكتاب نسخا منقحا خفف كثيراً من أعباء طباعته وتكلفتها، وللمركز ومديره سعادة الدكتور عزت عبدالمجيد خطاب خالص الشكر والتقدير. ويطيب لي أن أثني على الجهود القيمة التي بذلها الأستاذ موسى عبدالله آل اسماعيل، مدير عام مطابع الجامعة، لانجاز طباعة الكتاب في زمن مناسب ومستوى رفيع.

وختاماً أسأل الله جل وعلا أن يقبل هذا العمل خالصاً لوجهه. إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصارى

رئيس الندوة ورئيس قسم الآثار والمتاحف

المقدمـــة

هذا هو الكتاب الثاني في سلسلة **دراسات تاريخ الجزيرة العربية**، وموضوعه **الجزيرة العربية قبل الاسلام**، وتتكون أبوابه من الآتي:

أولاً : التسلسل الزمني للتاريخ العربي القديم.
ثانيـاً: الآثار.
ثالثـاً: مادة النقوش.
رابعـاً: عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية (حتى القرن الأول قبل الميلاد).
خامساً: العصور التاريخية (بعد الميلاد حتى ظهور الإسلام).
سادساً: المعتقدات الدينية.
سابعـاً: الحضارة (المجتمع).
ثامنـاً: الحضارة (التجارة والنظام المالي).
تاسعـاً: الحضارة (الرعي والزراعة والري والصناعة).
عاشراً: الحضارة (التعبير عن النفس).
حادي عشر: الجزيرة العربية والبلاد المجاورة.

وقد أجرينا تعديلات طفيفة في عناوين بعض الموضوعات عما كانت عليه في برنامج الندوة المطبوع، وهو تعديل اقتضته الظروف بعد دراسة المادة العلمية دراسة متأنية. وفي اعتقادنا أن ذلك أدى الى تحسين الهيكل العام للمواد.

ولقد اتبعنا نظاماً معيناً في ترتيب مواد الكتاب، مطابقاً لما كنا قد اتبعناه في الكتاب الأول، يمكن تلخيصه فيما يأتي:

(١) جعلت الأبحاث المكتوبة باللغة العربية في شق من الكتاب والأخرى المكتوبة بغيرها (باللغة الانجليزية وفي حالة واحدة باللغة الفرنسية) في الشق الآخر منه، وصنّفت كل مجموعة منها تحت موضوعها الرئيسي، وحسب تسلسلها الموضوعي واتصال بعضها ببعض.

(٢) وضعنا في مقدمة كل شق من الكتاب ثبتين، **الأول** منها عام يجمع الأبحاث باللغتين. وقد وضعت نجمة فوق اسم المؤلف لتشير الى أن بحثه ليس مكتوباً بلغة ثبت المحتويات المنظور فيه وإنما باللغة الأخرى، ولذا لزم البحث عنه في الشق الآخر من الكتاب، **والثاني** يضم الأبحاث باللغة التي كتب بها الثبت.

(٣) حاولنـا أن تكون الأبحاث منتظمة حسب التسلسل الموضوعي والزمني اللازمين. كما قدمنا ـ في الترتيب ـ الموضوعات العامة على الخاصة، ولذا لم نعن بكتابة عناوين فرعية تعين المكان المدروس وتحدد العام والخاص.

تفصيلاً لما أوجزناه في الفقرة الأخيرة، فإن القارىء الكريم يلاحظ أننا نستهل كل قسم بالأبحاث التي تتناول موضوعاً عاماً يتناول الجزيرة العربية قبل الاسلام ككل، مراعين في ترتيبها التسلسل الزمني والموضوعي والتدرج بها من الأعم والعام الى الخاص والأخص عن الجزيرة العربية قبل الاسلام.

كما سيلاحظ القارىء اختلافاً طفيفاً بين عناوين بعض الأبحاث في جزئي هذا الكتاب وبين عناوينها المطبوعة في كتيب خلاصة الأبحاث الذي كنا قد أصدرناه قبيل انعقاد الندوة. وهو اختلاف ناتج عن أن العناوين في كتيب خلاصة الأبحاث كانت مستقاة مما كان قد بعثه إلينا الكتّاب أنفسهم مع خلاصات أبحاثهم حيناً من الزمن قبل وصول تلك الأبحاث، ولما وصلت الأبحاث أخيراً بعناوينها المختلفة قليلاً عما ورد في الخلاصات المقصودة، كان الكتيب تحت الطبع وعلى وشك الصدور، فلم يكن هناك مجال لإحداث أي تعديل فيه. والاختلاف طفيف على أية حال، والعناوين الواردة في هذا الكتاب هي المعتمدة، ولذلك لزمت الإشارة الى هذه المسألة، ولله الفضل والمنّة.

وإلى جانب ما أشرنا إليه، هناك مسائل تحريرية وفنية، وأخرى ينبغي التنبيه اليها وهي :ـ

أولا: المسائل التحريرية

هي نوعان رئيسيان: بعضها تعديلات وبعضها الآخر إضافات في الأبحاث، على هذا النحو:

١ ـ التعديلات

(ا) لزم توحيد تهجئة أسماء الأعلام والبلدان في الكتاب منعاً لتعدد الهجاءات أو استبعاداً لغير المألوف منها الذي يُغرب الأسماء عن مسمياتها المعروفة في الجزيرة العربية قديمًا وحديثاً، واعتمدنا في كتابة الأسماء العربية والاسلامية الواردة في القسم غير العربي من الكتاب التهجئة المتبعة في Encyclopaedia of Islam **(دائرة المعارف الاسلامية)**. ولم نخالف هذه التهجئة الا في حالات ثلاث: الاولى خاصة باسماء بعض مؤلفي الأبحاث العربية حين لمسنا أنهم يفضلون كتابة أسمائهم بصور معينة اشتهروا بها، فأبقينا على هذه الكتابات التي فضلوها واشتهروا بها. والحالة الثانية في تهجئة بعض أسماء البلدان التي سميت بها نقوش وعرفت بها. والحالة الثالثة في بحث كرستيان روبان المكتوب باللغة الفرنسية، إذ فيه يتبع صاحبه تهجئة متبعة في المصنفات الفرنسية، وتركنا ما تركناه من أسماء البلدان كما كتبه خشية أن يغربها التغيير عن مسمياتها المعروفة لدى الباحثين الفرنسيين ومن في حكمهم. فلو كان البحث مكتوباً باللغة الانجليزية لأخضعنا كل أسماء البلدان فيه للطريقة التي اتبعناها في سائر الأبحاث المكتوبة باللغة الانجليزية في الكتاب.

(ب) لزم توحيد كيفية الإشارة للمصادر والمراجع في المتون والهوامش وإزالة التباين بقدر الإمكان في التبويب في الأبحاث، بحيث ينتظم الكتاب نهجٌ واضحٌ متماثلٌ متجانس العناصر. واتبعنا في ذلك الطرق الأكثر وضوحاً والأعم شيوعاً لدى أغلب الباحثين من حيث إيراد اسم المؤلف أولاً، يليه عنوان البحث وسنة صدوره والمواضع المقصودة فيه. ويُعدَّلُ هذا النظام التعديلَ المناسبَ إذا ما كان البحث مقالةً منشورةً ضمن كتاب

أو مجلة. وفي حالة تكرار ذكر المصدر أو المرجع في نفس البحث وحيثما لا يؤدي ذلك الى غموض في الاشارة، استعضنا عن التكرار بما يناسب من عبارات **المصدر نفسه**، **المرجع نفسه**، **الموضع السابق نفسه**، وهكذا. وهي أشياء وإن كانت بدهية إلا أننا رغبنا في الاشارة اليها ههنا للتوضيح. ويقاس على ما وصف اعلاه ما تم في الأبحاث المكتوبة باللغة الانجليزية، وحيث استعملنا عبارات *ibid., loc. cit., op. cit.*، حسب النظام المعروف المألوف لدى الباحثين الأفاضل. واقتضى هذا الاتجاه القيام بتعديلات في عدد غير يسير من الأبحاث. فليعذرنا الباحثون ممن مسّهم ذلك، إذ كان ضرورة فرضتها مصلحة العمل، كما أن مصدراً تاريخياً مهمًا مثل هذا الكتاب يضم خمسة وأربعين بحثاً، يخل به جداً أن تتباين فيه اتجاهات التأليف وطرق الاشارة للمصادر والمراجع فضلاً عن اختلافات التبويب. ولم تكن هذه المهمة سهلة يسيرة ذلك لأننا وجدنا في أبحاث هذا الكتاب، كما كنا قد وجدنا في سابقه، أن هنالك ما لا يقل عن عشرة أنظمة متفرقة متبعة في هذه الابحاث. ونأمل أن نكون قد وفقنا فيها بما يرضى.

(جـ) اتصالاً بما تقدم فإننا حرصنا على أن تكون جميع الإشارات الى المصادر والمراجع في الهوامش. وقد أدى هذا الى نقلنا الاشارات الموجودة في متون بعض الأبحاث الى الهوامش. وقد اقتضى هذا، في حالات فردية، أن ترقم الهوامش ترقيمًا جديداً لزيادتها قليلاً عما كان قد وضعه صاحب البحث. وهناك أبحاث معدودة كانت جميع اشاراتها للمصادر والمراجع مبثوثة في المتون، فنقلنا هذه برمتها للهوامش واستحدثنا لها هوامش جديدة كاملة.

(د) لغرض التنسيق ولتسهيل الطباعة فقد جعلت هوامش كل بحث في نهايته وفي ترقيم متسلسل.

(هـ) تم الحذف أو التعديل لكل عبارات كانت صيغت لمخاطبة المستمعين، ذلك لاختلاف المقام.

٢ ـ الاضافات

(ا) اقتضت حالات معينة أن يبدي المحرر ملاحظات لا غنى عنها حول بعض النقاط في بعض الأبحاث، إما لفتاً لنظر الكاتب لمسألة لم يكن من السهل المرور عليها بلا تعليق، أو تنبيهاً للقاريء الذي ربما لم تكن له خلفية عن الموضوع، أو لربما خسر هذا القاريء بعض الخسارة إذا لم ينبه لما نبه له، وفي سبيل ذلك اضطر المحرر الى شرح بعض النقاط وإضافة بعض المعلومات. وقد جعلنا هذه الإضافات في أضيق نطاق ممكن حتى لا يشعر الكاتب بأن الفرصة أتيحت للمحرر بالتعليق على بحثه دون إتاحتها له بالرد أو التعليق. ولم ندخل هذه الاضافات في المتون أو الهوامش وإنما جعلناها حواشي في ذيول الصفحات وجعلنا لها إشارة خاصة (هكذا: * **المحرر:**) ورقّمناها بحروف هجائية تصحب الواحد منها نجمة (هكذا: *(أ)) لئلا يختلط ترقيم هذه التعليقات مع ترقيم هوامش المؤلف، وهذا تحسين في النظام الذي كنا قد اتبعناه في مثل هذه الحالات في الكتاب الأول، حيث استخدمنا الأرقام، تصحبها نجوم.

(ب) جاء في بعض الأبحاث المكتوبة باللغة العربية ذكر لأسماء أعلام أوروبيين وقد كتبت أسماؤهم بالعربية فقط. فأضفنا أسماء هؤلاء بلغاتهم في مواضعها أو في حواشي المحرر حيثما ناسب، لفائدة لا نظنها تخفى على القراء.

ثانياً: المسائل الفنية

(١) ترقيم اللوحات والأشكال والخرائط

رأينا أنه من الأفضل والأيسر أن نعطي كل فئة من اللوحات والأشكال والخرائط أرقاماً مسلسلة موحدة تبدأ بأولى لوحات أو أشكال أو خرائط القسم العربي وتنتهي بأخراها في القسم غير العربي. تتميز اللوحات والأشكال والخرائط في القسم العربي بكون أرقامها بالعربية وفي القسم غير العربى بكونها بالانجليزية. لذا فهي دائما تبدأ في القسم العربي وتستمر في القسم الانجليزي. مثال ذلك أن أولى لوحات القسم غير العربي Pl. 44 (في بحث K.H. Schmitt-Korte) مستأنفة من **اللوحة ٤٣** (في بحث عبدالمنعم عبدالحليم سيد)، وهي آخر لوحات القسم العربي. وتقاس على ذلك الأشكال والخرائط.

(٢) الخط الأسود

نسبة لعدم شيوع الخط المائل (Italics) في المطبعة العربية فقد استعضنا عنه بالحرف الأسود، وذلك في سور القرآن الكريم وآياته وعناوين المصادر والمراجع وأرقام المخطوطات والنقوش الأثرية وأجزائها علاوة على العناوين الرئيسية والفرعية وأرقام ما حمل أرقاماً من العناوين الفرعية. أما في القسم الانجليزي فإنا استعملناه في حالات محددة هي أرقام النقوش الأثرية وأجزائها فقط.

ثالثاً: تحرير الكتاب

وقد تولت تحرير أبحاث الكتاب لجنة مؤلفة من الأساتذة المذكورة اسماؤهم في غير هذا الموضع، برئاسة الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري رئيس الندوة ورئيس قسم الآثار والمتاحف. والذي لولا جهوده الطيبة التي بذلها لتذليل عقبات كثيرة اعترضت سير عمل الكتاب فلربما تأخر عن الصدور في موعده المقرر. فله منا الشكر الجزيل.

وفضلاً عن ذلك فقد استعانت اللجنة بعدد من الأفاضل الذين تكرموا فراجعوا بعض تلك الأبحاث في مراحل مختلفة من اعدادها. وقاموا بجهد مشكور بهذا الصدد، وهم:

الاستاذ الدكتور حسن ظاظا (اللغة العربية والدراسات السامية)
الاستاذ الدكتور مصطفى كمال عبدالعليم (الحضارة اليونانية الرومانية)
الاستاذ الدكتور أحمد حسن غزال (الآثار اليونانية الرومانية).
الدكتور سعد عبدالعزيز الراشد (الآثار الاسلامية)

ولا يفوت اللجنة أن تشيد بالعون المادي والأدبي الذى قدمه مركز البحوث بكلية الآداب بالجامعة، وبخاصة التشجيع الخالص من مديره سعادة الدكتور عزت عبدالمجيد خطاب، الأمر الذي يسر إعداد الأبحاث في

صورة واضحة سهلت طبعها في مطابع الجامعة. كذلك نثني ثناء طيباً على الأستاذ أحمد أبوالقاسم الحسن، الفني بقسم الآثار والمتاحف، لمعاونته لنا في قراءة أصول الأبحاث المكتوبة باللغة العربية، وعلى كل من السيد زاهد أكبر، السكرتير بأمانة ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية، والسيد يوسف قيراط سكرتير قسم الآثار والمتاحف، بالكلية، على نسخهما كل ما أوكل لهما مما يخص هذا الكتاب، كما نكرر الشكر للأستاذ موسى عبدالله آل اسماعيل، مدير عام مطابع الجامعة، على كل جهوده التي قدمها ليطبع هذا الكتاب بالصورة المشرفة هذه، جزاه الله عنا خير الجزاء، وجزى كذلك العاملين في قسم الكمبيوتر بمطابع الجامعة.

كذلك تشكر اللجنة كل من قدم لها مساعدات في مهمتها وفاتها ذكره في هذا الموضع. والله تعالى الموفق والمسدد للخطوات، له المنّة والفضل. وله الحمد والشكر على كل شيء، وهو ولي التوفيق، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لجنة طبع الكتاب وتصحيحه

ربيع الأول ١٤٠٤هـ
الموافق ديسمبر (كانون أول) ١٩٨٣.

ثبت موحد بالأبحاث

ثبت موحد بجميع الأبحاث *

أولاً: التسلسل الزمني للتاريخ العربي القديم

ثانياً: الآثار ١ـ٧٥

---

* تعنى علامة النجمة الموضوعة أمام اسم المؤلف أن بحثه مكتوب بغير اللغة العربية وأنه فى القسم الخاص بالأبحاث المكتوبة بغير اللغة العربية.

ثالثا: مادة النقوش

رابعاً: عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية (حتى القرن الأول قبل الميلاد)

خامساً: العصور التاريخية (بعد الميلاد حتى ظهور الإسلام)

تاسعاً: الحضارة (الرعي والزراعة والري والصناعة)

عاشراً: الحضارة (التعبير عن النفس)

حادى عشر: الجزيرة العربية والبلاد المجاورة

ثبت بالأبحاث العربية

ثبت بالأبحاث العربية

مقدمو الأبحاث

مقدمو الأبحاث العربية

أسماء مقدمي الأبحاث باللغة العربية وعناوينهم الحالية

١ ـ الأستاذ أحمد حسين شرف الدين

خبير مخطوطات، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

٢ ـ الأستاذ الدكتور جوّاد علي

شقة ٦٠٥، عمارة جميل حافظ، المربعة مقابل سينما الشعب، بغداد، الجمهورية العراقية.

٣ ـ الأستاذ الدكتور حسن ظاظا

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٤ ـ الأستاذ الدكتور رشيد سالم النّاضوري

قسم التاريخ والحضارة، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، الاسكندرية، جمهورية مصر العربية.

٥ ـ الأستاذ الدكتور سيد أحمد الناصري

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

٦ ـ الأستاذ الدكتور شفيق علام

Prof. Dr. Shafik Allam.
Aegyptologisches Institut der Universitaet Tuebingen,
Corrensstrasse 12, D – 7400 Tuebingen, West Germany.

٧ ـ الدكتور صبحي أنور رشيد

المتحف العراقي، بغداد، الجمهورية العراقية.

٨ ـ الأستاذ الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري (رئيس الندوة)

رئيس قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٩ ـ الدكتور عبدالله حسن مصرى

وكيل الوزارة المساعد للشؤون الثقافية ومدير إدارة الآثار، وزارة المعارف، ص. ب. ٣٧٣٤، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٠ ـ الدكتور عبدالمنعم عبدالحليم سيّد

قسم التاريخ، كلية الآداب والدراسات الانسانية، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، المملكة العربية السعودية.

١١- الدكتور عدنان الحديدي

المدير العام، المديرية العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية.

١٢- الدكتور عليّ الدين محيى الدين

Dr. Aliudin Mahiudin, Arabic Department, Faculty of Letters, University of Indonesia, Jakarta, Indonesia.

١٣- الأستاذ الدكتور كمال سليمان الصليبي

رئيس دائرة التاريخ والآثار، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان.

١٤- الأستاذ الدكتور لطفي عبدالوهاب يحيى

قسم الحضارة اليونانية الرومانية، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، الاسكندرية، جمهورية مصر العربية.

١٥- الأستاذ الدكتور محمد سيد غلّاب

عميد معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

١٦- الأستاذ الدكتور محمد علي مختار

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة أم درمان الاسلامية، أم درمان، جمهورية السودان الديمقراطية.

١٧- الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبدالعليم

قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٨- الأستاذ الدكتور مصطفى محمد مسعد

قسم التاريخ، كلية الآداب والدراسات الاجتماعية، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٩- الدكتور معاوية ابراهيم

كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، المملكة الأردنية الهاشمية.

٢٠- الدكتور ناصر بن سعد الرشيد

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢١- الأستاذ الدكتور نقولا زيادة

قسم التاريخ والحضارة، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان.

٢٢ـ **الأستاذ الدكتور هشام الصفدى**

قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية .

٢٣ـ **الأستاذ الدكتور يوسف عزالدين**

قسم اللغة العربية، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية .

ثبوت اللوحات والأشكال والخرائط

ثبت اللوحات

اللوحة ٤١ : (أ) الـزخارف المصرية القديمة التي على هيئة واجهة منزل وأبوابه، وهي أكثر الزخارف شيوعاً بين الزخارف المعمارية المصرية. **٣٨٣**

(ب) زخارف معمارية يمنية قديمة تشبه إلى حد كبير الزخارف المصرية الموضحة في الشكل السابق. **٣٨٣**

اللوحة ٤٢ : (أ) منـظر ورد على الآثار المصرية يمثل البحارة المصريين وهم يصنعون قارباً «بخياطة» ألـواحه بالحبال وقد كتبت فوق المنظر بالهيروغليفية كلمة **سبت** والتي تدل على هذه العملية في اللغة المصرية القديمة.

(ب) النص الهيروغليفي الذي يدل على أن سفن البحر الأحمر المصرية كانت تصنع بنفس طريقة الخياطة (أنظر أ) ويقرأ: **سبت كبنت إم إر بونت**. وترجمته هي : «بناء (خياطة) سفينة (من نوع) **كبنت** هناك (أي على ساحل البحر) لإرسالها إلى **بونت**».

(جـ) سفينة عربية مخيطة أثناء بنائها، وقد ظهر صفان من الخيوط التي تشد ألواحها (الشكل منشور في كتاب : Schoff, *Periplus*,154) **٣٨٤**

اللوحة ٤٣ : (أ) سفينـة مصرية من عصر الـدولـة الحـديثة الفرعونية (عصر الملكة حتشبسوت) وقد استخدمت في البحر الأحمر. ويلاحظ الشكل القائم الزوايا لشراعها.

(ب) سفينـة مصرية من عصر الـدولة القديمة (عصر الملك ساحورع). ويلاحظ شكل الحبال التي شدّت حول بدن السفينة لتدعيمها.

(جـ) سفينة عربية يظهر تأثير الشراع المصرى القائم الزوايا في شراعها ذي الشكل القريب من الشكل المربع، وذلك قبل أن يتحول الى الشكل المثلث الذي أصبح شائعاً في أشكال أشرعة السفن العربية. كما يظهر التأثير المصري أيضاً في تدعيم بدن السفينة بالحبال المشدودة. والشكل منشور في : Boreux, *Études de nautique égyptienne*, fig. 91. **٣٨٥**

اللوحات ٤٤ ـ ٥١ : مشروحة في ثبت اللوحات في القسم غير العربي.

ثبت الأشكال

ثبت الخرائط

الأبحاث

ثانيــاً: الآثـــار

ثبت الأبحاث

الأبحـاث فـى الموضـوع

الحاجة الى مسح أثرى شامل
فى مناطق شمال الجزيرة العربية

عدنان الحديدى

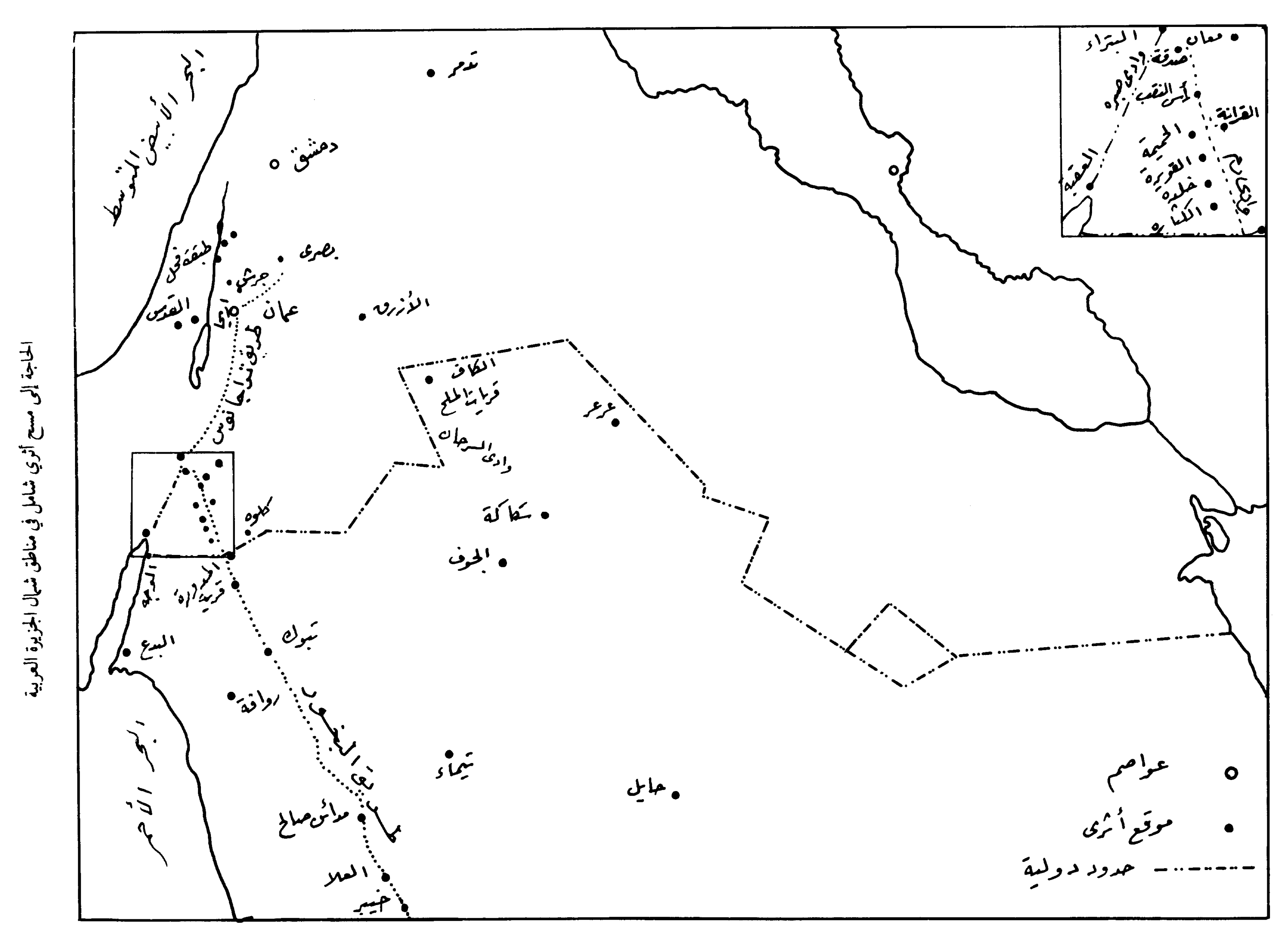
مقدمـــة

أدت التنقيبـات الأثـريـة فى الشـرق الأدنى خلال مائة العام الأخيرة إلى زيادة معلوماتنا التاريخية والفنية عن الحضارات البائدة بشكل لم يسبق له مثيل على أنه ما يزال هناك كثير من المعضلات التاريخية والحضارية التى تفتقر إلى أدلة وبراهين حاسمة. ولعل من أهم الوسائل التى يمكن أن تساعد على حلها هوتنسيق التعاون العلمى بين الأثريين لإجراء المسوحات والبحوث والتنقيبات الموحدة فى مناطق واسعة دون التقيد بالتقسيمات الجغرافية السياسية الحديثة.

ولعـل من أبـرز منـاطق الجـزيـرة العـربيـة التى تكاد تكون غير معروفة أثرياً هى المنطقة الواقعة على جانبى الحدود السعودية ـ الأردنية. ورغم أن الرحالة الأوائل يذكرون بعض المواقع الأثرية الغربية مثل مدائن صالح والعلا فإن افتقـارهم الى معـرفـة أهمية الخزف فى التأريخ آنذاك يجعل استنتاجهم العلمى عديم الجدوى. وباستثناء المسح الأثـرى الـذى قام به الاستـاذان وليـام ريـد (William Reed) وفـريـد وينت (Fred Winnett) [1]، فإن منطقة وادى السرحان لم تحظ باهتمام الباحثين وعلماء الآثار. أما فى الأردن فإن المنطقة الواقعة جنوبى الطريق البر ى الواصل بين بغـداد والحـدود السعـوديـة لا تزال غير معـروفـة أثرياً باستثناء الأزرق. ويذهب نفس القول أيضا بالنسبة للمنطقة الواقعة شرقى وادى رَمْ. وليس من حاجة للتأكيد على أهمية هذه المناطق فى دراسة تاريخ الحضارة العربية منذ أقدم العصـور. فلقـد كانت هذه المنـاطق مسـرحـاً للحروب والهجرات والتفاعل الاقتصادى والتبادل الثقافى والروحانى وامتـزاج الشعـوب والقبـائـل. كان للنقوش التى كشفت فى شمال الجزيرة شأن عظيم وقيمة كبيرة للباحثين فى تاريخ قبائل العرب وكتاباتهم من صفويين ولحيانيين وأنباط.

إن إجـراء مسـح أثـرى شامـل جوى وبـرى فى نحـو مائة وخمسين كيلومتراً من الأراضى الواقعة على جانبى الحـدود السعـوديـة ـ الأردنيـة أمـر ضرورى ومهم ليس بالنسبـة لعلماء الآثار فى المملكتين العربية السعودية والأردنية الهـاشميـة فقـط، وإنـما بالنسبـة لجميـع علماء الآثـار والباحثين المهتمين بتاريخ الجزيرة وحضارتها. ولأن هذا المسح الأثرى سيؤ دى على أغلب الاحتمال الى الكشف عن عدد كبير من النقوش الثمودية والصفوية والنبطية، وخاصة على طول الطـريق التجـارى القـديم المشهـور باسم طريق البخور. كما يتوقع الكشف عن عدد من المواقع الأموية ومحطات القوافل كالحميمة ورأس النقب.

وسوف يستفاد من هذا المسح الأثرى فى دراسة مظاهر عديدة ما تزال بحاجة الى التحليل والتفسير، كالمبانى الحجرية المستديرة المنتشرة فى مناطق شمال غربى الجزيرة وعمل مخططات هندسية لها. ولا بد من أن يكشف المسح الأثرى عن عدد من المواقع التى تعود بتاريخها إلى عصورما قبل التاريخ مثل كلوي وغيرها وكذلك مواقع من العصر الحجرى الحديث (النيوليثى Neolithic)، خاصة فى وادى رَمْ، وهى ذات قيمة كبيرة فى الدراسات المقارنة بين آثار هذه المنطقة ومناطق الخليج العربى المعاصرة لها والمتشابهة من حيث الأسلوب والثقافة.



الخارطة رقم ١ : شمال الجزيرة وكذلك الأردن.

مناطق المسح

تمتد المناطق المقترح مسحها أثريًا داخل مثلث تشكل أطرافه الثلاثة العقبة شمالاً وتبوك جنوباً وسكّاكا شرقاً، وهى الأراضى التى تؤلف جزءا من المنطقة المعروفة تاريخياً باسم مَدْيَن وشمال الحجاز. ورغم أن الحدود التاريخية لهذه المناطق ـــ مَدْيَن وشمال الحجاز ـــ ما تزال موضوع نقاش بين المؤرخين فإن مهمة التعرف على آثارها سوف تكون أدق وأسهل فى الوقت الحاضر نظراً للتطور الكبير الذى حدث خلال نصف القرن الماضى على الأجهزة والأدوات الفنية المستعملة فى المسوحات والاستكشافات الأثرية.

الدراسات والمسوحات السابقة

باستثناء المسح الأثرى الذى قام به الاستاذان فريد وينت ووليام ريد (٢) فى جزء من هذه المناطق وفى منطقة حايل شرقاً عام ١٩٦٧ (٣)، فإن الاستكشاف الوحيد المنشور لمنطقة مدين والحجاز منذ الحرب العالمية الأولى والذى يحظى باهمية اثرية هو الاستكشاف الذى قام به الاستاذ فيلبى (٤).

وقد اهتم قبل ذلك عدد من الرحالة والمستشرقين بتسجيل ملاحظاتهم عن آثار المنطقة خلال القرن الماضى وأوائل القرن الحالى (٥)، ومن بين أبرز هؤلاء الرحالة والمستكشفين بوركهارت (١٨١٢) وروبيل (١٨٢٦) وموريسبى وولشتيد (١٨٣١) ووالين (١٨٤٨) وبيرتون (١٨٧٧) وداوتي (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) وهوبر (١٨٧٨ ـ ١٨٨٣) ويونج (١٨٨٣) *(أ). وكان لإنشاء خط حديد الحجاز (١٩٠٤ ـ ١٩٠٨) أثر كبير فى تسهيل مهمة الرحالة والمستكشفين وإتاحة الفرصة لإجراء الدراسات المهمة لآثار هذه المناطق أمام الاساتذة جوسان وسافيناك (١٩٠٧ ـ ١٩١٠) ومورتز (١٩١٠) وموسل (١٩١٠) *(ب). وكان أول دراسة علمية حديثة تتم فى بعض أجزاء هذه المناطق هو المسح الأثرى الذى قام به الأساتذة بار وهاردنج ودايتون فى شمال غرب الجزيرة العربية عام ١٩٦٨(٦). وشملت أعمالهم المناطق التى تمتد نحو ٣٥٠ كم جنوباً من الحدود الأردنية فى العقبة والمدورة إلى خط العرض عند الوجه على شاطىء البحر الأحمر، ومن هذا الشاطىء غرباً إلى خط طريق تبوك ـ تيماء ـ خيبر شرقاً نحو ٢٥٠كم فى البر الداخلى. ورغم أن هذه المساحة تعتبر صغيرة بالنسبة للمساحة الإجمالية للجزيرة العربية، ولكنها توازى مساحة المملكة الأردنية الهاشمية بأكملها. وركّز هؤلاء الأساتذة ـ نظراً لضيق الوقت والصعوبات المختلفة التى اعترضتهم أثناء قيامهم بعملية المسح ـــ على المواقع التى زارها الرحالة السابقون. فجمعوا من على سطحها كسراً فخارية تمهيداً لتصنيفها حسب مناطقها، واهتموا بجمع النقوش التى عثروا عليها وأخذ نسخ من تلك التى سبق اكتشافها وتسجيلها قصد التأكد من دقة الدراسات التى جرت سابقاً وقيمتها، ورغم أن ما قام به هؤلاء الأساتذة يعتبر عملاً

---

* المحرر:

(أ) تكتب هذه الأسماء بلغات أهلها حسب التسلسل العربي هكذا: Young, Huber, Doughty, Burton, Wallin, Wellsted, Ruppel, Burckhardt.

(ب) تكتب هذه الأسماء بلغات أهلها حسب التسلسل العربي هكذا: Musil, Moritz, Savignac, Jaussen.

علمياً جليلاً وموثقاً أحسن توثيق فإن عدم تمكنهم من توسيع نطاق المسح الأثرى الذى قاموا به يؤكد الحاجة الى إجراء مسح اثرى بيئى شامل وتام للمناطق المنّوه عنها سابقاً.

ولقد أعدت ادارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف فى المملكة العربية السعودية مشروعاً كبيراً ومتكاملاً للمسح الأثري البيئي الشامل، بحيث يتم تنظيم أعمال هذا المسح فى ست مناطق رئيسية قسمت إليها المملكة. وبوشر فعلاً بتنفيذ المشروع منذ عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م. ومن المؤمل أن تنتهى المنطقتان الشرقية والشمالية منها قريباً بعون الله(٧). ورغم الصعوبات التى واجهها فريق المسح، وأبرزها التباين الشاسع فى الظروف البيئية بالمناطق المختلفة فى المنطقة الشمالية وعدم توفر خرائط وصور فوتوغرافية جوية لها بمقياس مناسب يمكن الفريق من تحديد المواقع وتمييزها إقليمياً، فإن نتائج هذا المسح جاءت مرضية ومشجعة وتبشر بنتائج تاريخية وأثرية هامة(٨).

أما بالنسبة للمناطق الواقعة فى الأراضى الأردنية فإن المسح الأثرى العظيم الذى قام به الاستاذان برونو ودومازسكى (١٩٠٤ - ١٩٠٩) *(جـ) لم يكن فى واقع الحال مسحاً شاملاً أو تاماً. إذ ركز هذان العالمان اهتمامهما على الجزء الواقع بين بصرى الشام ومعان. واعتنيا بوجه خاص فى وصف خط الدفاع عن حدود المقاطعة العربية زمن الرومان (*Provincia Arabia*)، واتبعا فى ذلك نهج العلامة الأستاذ مومسن (Mommsen) الذى نشر عام ١٨٩٤ فرضيته القائلة بوجود خط مزدوج يؤلف فيه الطريق التجارى الرئيسى الذى بناه الامبراطور الرومانى تراجان (٩٨ - ١١٧م) بين بُصرى الشام وأيْلة (العقبة) الخط الدفاعى الداخلى. أما الخط الخارجى فكان باعتقادهم يتألف من سلسلة من القلاع الحصينة الواقعة شرق هذا الطريق التجارى الرئيسى على أطراف الصحراء بين فيلادلفيا (عَمّان) ومعان. وتذهب هذه الفرضية إلى القول بأن الرومان لم يهتموا بانشاء مراكز دفاعية جنوب مدينة معان. وأيدت البحوث القليلة التى أجريت على الحدود المجاورة فى سوريا وفلسطين هذا الاعتقاد. على أن الأمر لم يحسم بشكل نهائى، وما زالت الحاجة قائمة إلى مسح ودراسة جدية لإلقاء ضوء ينير أمامنا الطريق للإجابة على هذه المسألة.

وفشل البحث الأثرى الذى قام به أيضا الاستاذان برونو ودومازسكى فى المنطقة التى تقع شرقى طريق تراجان بين العقبة وصدقة فى أن يبين أى دليل على وجود شبكة دفاعية مكثفة لحماية هذا الطريق الرومانى المهم.

على أن المسح الأثرى الذى قام به مؤخراً الاستاذ توماس باركر (Thomas Parker) عام ١٩٧٦ لما يعرف بالتحصينات الدفاعية العربية (*Limes Arabicus*) يشير إلى أن المراكز العسكرية على طول خط طريق تراجان فى القويرة وخربة خلدة وخربة الكثارة كانت بهدف الدفاع عن المنطقة الجنوبية الشرقية للمقاطة العربية زمن الرومان. كما أمكن التعرف على قلاع رومانية شرقى الحميمة على الطريق المؤدية من وادى الحسمة إلى جبال الشراة وذلك فى نقب أشتار وفى خربة القرانة. وبالإضافة إلى القلاع فى الحمام والمطب شمال شرق معان، فإن جميع هذه الحصون

---

* المحرر:

(جـ) Domaszewski, Brünnow.

يؤلف أقصى امتداد معروف لنظام الدفاع عن المقاطعة العربية فى زمن الرومان المحاذى للطريق التراجانى . وعلى ذلك يتوجب علينا أن نفترض أن نحو سبعين كيلومتراً من الطريق الممتد من العقبة باتجاه الجنوب كان متروكاً دون حماية عسكرية ، ولكن صحة هذه الفرضية رهين بما تبينه الدراسات مستقبلاً .

وقد أرجع بعض الأثريين [٩] سبب ظاهرة انعدام وجود تحصينات رومانية فى الزاوية الجنوبية الشرقية من المقاطعة العربية (وهو عكس الحال الذى نجده فى بقية أجزاء هذه المقاطعة التى امتدت فيها القلاع الرومانية فى كثير من الأحيان الى نقاط خارج نطاق التحصينات المؤْأبية والأدومية السابقة) إلى عوامل جغرافية ومناخية . فالطبيعة الجغرافية لهذه المنطقة ، حيث يشكل فيها جبل رَمْ حاجزاً دفاعياً طبيعياً بوجه الغزوات الخارجية على الاراضى الواقعة بين العقبة من جهة وبين الأطراف الجنوبية لجبال الشراة من جهة أخرى (يضاف إلى ذلك أن قسوة الأحوال المناخية السائدة فى هذه المنطقة) كانت تحد من إمكانية إنشاء خط دفاعى فى العمق . ورغم ذلك فقد عثر على أبراج عسكرية نبطية فى صحراء الحسمة لحماية الطرق المتفرعة من الطريق التراجانى . وبما أن الدولة الرومانية قامت على وجه العموم بدمج الحصون النبطية الموجودة فى صحراء النقب وتلك الموجودة فى جنوب الأردن ضمن شبكة الدفاع العسكرية الرومانية على أثر استيلائها على المقاطعة العربية عام ١٠٦م ، فإنه من الصعب تفسير عدم قيام هذه الدولة بدمج التحصينات النبطية فى صحراء الحسمة . ولم تشمل عملية المسح التى قام بها باركر هذه المنطقة على أية حال ولكن البحث المكثف والمسح الشامل الذى نأمل أن يتم فيها سوف يزودنا مؤكداً بالدليل اللازم لتوضيح هذه المسألة . ويعتقد بعض العلماء وفى مقدمتهم الأستاذ جراى (Gray) [١٠] باحتمال وجود سلسلة من القلاع الرومانية من معان باتجاه الجنوب حتى الحجاز كانت مهمتها حماية المحطات الأخيرة على طول الطريق التجارى المعروف تاريخياً باسم طريق البخور، الواصل بين حضرموت واليمن جنوبا وبين بلاد الشام شمالاً . وكانت المقاطعة العربية زمن الرومان قد حلت محل مملكة الأنباط بوجه عام بما فى ذلك المنطقة الممتدة جنوبا حتى مدائن صالح فى الجزيرة العربية .

ولقد كشف المسح الأثرى الذى قام به فريق من معهد الآثار بلندن عام ١٩٦٨ عن عدد من المواقع النبطية فى المنطقة الواقعة جنوب شرق العقبة . وفى الوقت نفسه فإن المبانى الرومانية التى صادفها هذا الفريق كانت قليلة جداً . ففى موقع القرية مثلاً التى تبعد نحو ١٥٠كم الى الجنوب الشرقى من العقبة ، عثر الفريق المذكور آنفاً[١١] على مبنيين نبطيين كبيرين ربما كانا باعتقادهم مركزين اداريين رسميين أو ثكنة عسكرية رومانية[١٢] . وفى وادى شَقَرَى الذى يبعد نحو ١٠٠كم الى الجنوب من القرية فإن بعض المبانى المربعة أو المستطيلة الشكل تعود بتاريخها الى القرن الأول والثانى الميلادى وربما كانت هى الأخرى مراكز عسكرية نبطية أصلاً ثم استعملها الرومان [١٣] . إن هذه الاستكشافات المهمة التى أدى إليها المسح الأثرى المحدود الذى قام به الأساتذة بار وهاردنج ودايتون فى شمال غرب الجزيرة العربية يؤكد الحاجة الملحة الى إجراء مسح جديد أشمل وأوسع نطاقاً فى هذه المناطق العربية لتوضيح واستكمال معلوماتنا الأثرية والتاريخية والبيئية عنها .

إن هدفى من تقديم هذا البحث القصير هو حفز همة دوائر الآثار العربية إلى اتخاذ المبادرة لإجراء المسح الأثرى الذى ورد ذكره أعلاه ، وأرى من المناسب أن اختتمه بمقتطف من كلمات المؤرخ السعودى المرموق الأستاذ محمد بن

عبدالله بن بليهد[١٤]: «وإذا كنّا نعتبر الآثار المادية شواهد ناطقة على ما وصلت إليه الأمم من تقدم فى الصناعة والذوق، ومقاييس الحياة، فيجدر بنا أن ننقب عن البيئات الطبيعية - بقدر الإمكان - بل نشاهدها عياناً - إذا استطعنا ذلك - لنقف على مدى ما أثر فى الفكر العربى فى تلك العصور، ولنكشف تلك المساتير المغلقة فلا تظل مطوية على تعاقب الأجيال، فقد نجد فى دراسة تلك البيئات ومشاهدتها واستيحائها ثروة فكرية لا يقدر قدرها، ومثل علماء الفكر كمثل علماء الطبيعة والاقتصاد، يجد كل واحد منهما بغيته فى بحثها، ألم تر إلى الجزيرة العربية نفسها فى العصر الحاضر وقد اكتشف فى أحشائها من معادن مطمورةَ لفتت إليها الأنظار بعد أن كانت لا تثير من الناحية الاقتصادية أدنى اهتمام».

الهــوامش

(١) F.V. Winnett, *Ancient Records from North Arabia* (Toronto, 1962)

(٢) *BASOR* 168 (1962), 9 – 10.

(٣) *BASOR* 188 (1967), 2 – 3.

(٤) St.J. Philby, *The Land of Midian* (1957).

(٥) Hogarth, *The Penetration of Arabia* (1904)

(٦) P. Parr, G.L. Harding and J.E. Dayton, *Bulletin of the Institute of Archaeology,* nos. 8 – 9 (1970), 10 (1972).

(٧) راجع **أطلال**، العدد الأول (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص٧. وكذلك آدامز - بار - ابراهيم - المغنم، «الاستكشاف الأثرى للمملكة العربية السعودية ١٩٧٦: تقرير مبدئي عن المرحلة الأولى من برنامج المسح الشامل»، **المرجع نفسه**، ص ص ٢١ -٤٧.

(٨) **المرجع نفسه**، ص ص ٣٦ - ٣٧، وكذلك زارنس - ابراهيم - جيرارد - كلارك - البدر - بيدميد، «التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشمالية ١٩٧٠م/١٣٩٧هـ»، **أطلال**، العدد الثاني (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، وكذلك **أطلال**، العدد الرابع (١٤٠٠/ ١٩٨٠م)، ص ١٢٦. وانظر انجراهام - جونسون - الريحاني - الشتلة، «التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الشمالية الغربية»، **أطلال**، العدد الخامس (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ص ٥٣ - ٧٦.

(٩) Graf, *BASOR* 229, (1978).

(١٠) E.W. Gray, in *Proceedings of the African Classical Associations, Rhodesia* 12, 24 – 40.

P. Parr, G.L. Harding and J.E. Dayton (1969). (١١)

P. Parr (1979), 391. (١٢)

P. Parr, G.L. Harding and J.E. Dayton (1971), 27 – 28. (١٣)

(١٤) محمد بن عبدالله بن بليهد، **صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار**، ط٢ (١٣٩٢هـ)، جـ١، ص. ٣.

المراجع العربية

أطلال (حولية الآثار العربية السعودية)،

العدد الاول (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)،

العدد الثانى (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)،

العدد الثالث (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)،

العدد الرابع (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)،

العدد الخامس (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

المراجع الأجنبية

ALTHEIM, F. & R. STIEHL,
Die Araber in der alten Welt (1969).

BRUNNOW, R. & A. VON DOMASZEWSKI,
Die Provincia Arabia, 3 vols. (1904-09).

FRANKEN, H. J.,
«The Other Side of the Jordan» *ADAJ* XV (1970), 5-10.

GLUECK, N.,
«Explorations in Eastern Palestine II», *AASOR* 14-15 (1934-35).

«Explorations in Eastern Palestine III», *AASOR* 18-19 (1937-39).

GRAF, D. F.,
«A Preliminary Report on A Survey of Nabataean – Roman Military Sites in Southern Jordan», *ADAJ XXIII* (1979), 121-127.

GRAY, E.W.,
Proceedings of the African Classical Associations, Rhodesia 12, 24-40.

KIRKBRIDE, A. & G.L. HARDING, G.L.,
«Hasma» *PEQ* 79 (1947), 7-26.

MOMMSEN, TH.,
«Der Begriff des Limes», *Westdeutsche Zeitschrift* 13 (1894), 134-143.

MUSIL, A.,
Arabia Petraea, 2 vols. (1907-04).

The Northern Hegaz (American Geographical Society, 1926).

PARKER, S. TH.,
«Archaeological survey of the Limes Arabicus: A preliminary Report», *ADAJ* XXI (1976), 19-31.

PAAR, P.J., HARDING, G.L. and DAYTON, J.E.,
«Preliminary Survey in Northwest Arabia», *British Institute of Archaeology, Bulletin* 8-9 (1970), 10 (1972).

PHILBY, ST. J. A.,
The Land of Midian (1957).

REED, W.L. & WINNETT, F.V.,
«Report on the Arabian Expedition of 1962», *BASOR* 168 (1962), 9-10.

«Report on the Arcaeological Expedition to Ha'il in Northern Saudi Arabia (1967)», *BASOR* 188 (1967), 2-3.

الموسم الرابع لحفريات قرية (الفاو) :
(تقرير مختصر)

عبدالرحمن الطيب الانصارى

الحفر وأهدافه

بدأ الحفر فى الموسم الرابع فى قرية (الفاو) يوم ١٣٩٩/٣/٢٧هـ وانتهى يوم ١٣٩٩/٤/٢٨هـ. وكانت البعثة من مختصين فى التنقيب والترميم والرسم والتصوير والمساحة، من منسوبى قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود. وتركز الحفر فى الناحية الغربية للتل الكبير المعروف بالسوق والذى تم الحفر فيه خلال المواسم الثلاثة السابقة.

أهداف الحفر فى الموسم الرابع :

بعد حفر التل الكبير ووضوح معالمه كان لا بد من محاولة التعرف على ما يحيط به من جميع النواحي والجهات. وبما أن المدة المخصصة للحفر فى هذا الموسم كانت قصيرة فقد رأينا أن نركز العمل فى الجانب الغربي للسوق أو التل لمعرفة العلاقة بينهما، ولمحاولة الكشف عن امتداد مدخل السوق نحو الغرب (**اللوحة ١**).

سير العمل :

تم العمل بالحفر الأفقي فقسمت المنطقة الى مستطيلات متساوية (٥×٢٠م) من الشرق الى الغرب يفصلها ممر (١م) لتسهيل الحركة، وللاستفادة منه فى رسم وتتبع الطبقات المختلفة فى كل مستطيل على انفراد. وقد تم تقسيم غرب السوق الى ست مستطيلات (أ، ب، جـ، د، هـ، و). وبدأ العمل بإزالة الطبقة السطحية، ثم العمل بالتتابع حتى الأرضيات المعتمدة فى هذا الجزء الى جانب الاحتفاظ بالكسر الفخارية والقطع الأثرية المختلفة التى يتم العثور عليها وتسجيلها تسجيلاً علمياً فى معاثرها.

النتائج والمعثورات

النتائج المعمارية

دلت الحفريات على وجود بقايا جدران تختلف فى ارتفاعها وسمكها وأطوالها. وهى تشكل وحدات مختلفة تحتوي على عدد من الحوانيت غير متساوية المساحات، كما تحتوي هذه الحوانيت على عدد مختلف من المخازن الصغيرة التى كانت على ما يبدو تستعمل للخزن إن وجدت فى نهاية الحانوت أو كمباسط للبيع إن وجدت عند مدخل الغرفة. وقد يحتوي الحانوت الواحد على النوعين فى آن واحد (**اللوحة ٢**). الى جانب ذلك فقد حوت بعض الحوانيت بعض المطاحين والمجارش.

ولقد لوحظ أن بعض الجدران كانت مجصصة بطبقة أو أكثر من الملاط الأبيض، وأن السكان كانوا يهتمون بتبليط الأرضيات.

ومن أهم ما نلاحظه فى هذه العناصر المعمارية أنها قائمة على ما يشبه المنحدر المكون من المواد العضوية التى

قد تصل سماكتها أحياناً ما بين ١٠٠ ـ ٤٠ سم تقريباً من الشرق الى الغرب مما يدل على أنها تراكمت قبل بناء هذه الدكاكين الخارجية.

ولقد أحيطت هذه المبانى من الجهات الثلاث (الشمالية والغربية والجنوبية) بسور من الحجارة الكلسية ذات القطع الكبيرة، ويتوسط السور الغربى بوابة حجرية واسعة. وقد استغلت الأسوار فى بناء وحدات صغيرة من الداخل. كما يوجد مدخل جنوبي يؤدي الى ممر عريض من الوحدات يتجه شمالاً، ويرتبط بممر مدخل السوق الرئيسي. وتتصل الأسوار بالسوق من الناحيتين الشمالية والجنوبية ببرجي السوق في الزاويتين الجنوبية الغربية والشمالية الغربية. وقد استغل البرج الشمالي وأصبح يشكل جزءاً من غرفة كما حفرت به كوة مربعة الشكل أيضاً **(اللوحة ٣)**.

هكذا استطعنا تمييز مجموعة أبنية صغيرة وبسيطة داخل سور مستطيل من الجنوب الى الشمال به بوابات، يضم بداخله العديد من التقسيمات الداخلية، ربطت بممرات ضيقة قائمة جميعها على مواد عضوية. وأهم مواد البناء في هذا الموقع: اللبن والحجارة الكلسية والحجارة النارية وبخاصة في البوابة الغربية وعتبات الأبواب. وقد استخدمت هذه الحجارة من مبان قديمة سواء من المعابد أو شواهد القبور.

مخطط المباني:

كما ذكرنا فالمباني المكتشفة في هذا الجزء محاطة بسور من الحجارة الكلسية من جميع النواحي، يفصلها عند البوابة فى اتجاه السوق شرقاً ممر يبدو أنه أغلق من الناحيتين الشمالية والجنوبية، وذلك بإقامة جدران لحانوت يلتحم مع جداري البرجين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي. ويمكن تقسيم مخطط البناء الى قسمين رئيسيين:

(١) القسم الجنوبي: ويتألف من مجموعتين تفصلها ممرات ويفصلهما عن بعضهما بوابة ومن هذه الوحدات:

(أ) المجموعة الشرقية: ويفصلها عن الوحدة الغربية ممر عريض من الجنوب الى الشمال، وينتهي بمدخل له عتبة حجرية منقولة على ما يبدو من مبنىً آخر، أما العناصر المعمارية في هذه الوحدة فهى اللبن والطين، وكانت معظم الجدران مجصصة. والوحدة المعمارية هنا عبارة عن حانوت واحد، له مدخل ويحتوي على مخزن واحد أو أكثر. وقد عثر في أحد الحوانيت الملاصقة لجدار السوق على دكة أعدت للنوم، تعلو مخزناً مسقوفاً بسعف النخل والخشب. أما الحوانيت الثلاث المطلة على الممر فلها فتحات تفضي الى بعضها مما يدل على أنها تعود فى ملكيتها لشخص واحد. ولا شك أن آثار الدمار التى أحدثتها انهيارات جدران السوق الكبيرة على أجزاء هذه الوحدة أدت الى اضمحلال جدرانها. وقد ترتب على ذلك صعوبة تحديد معالمها.

(ب) المجموعة الغربية: أهم ما يميز هذه المجموعة هو استعمال السور الجنوبي المبني من اللبن والسور الغربي المبني من الحجارة الكلسية كأجزاء من جدران غرفها. ويمكن في هذه المجموعة تمييز خمسة حوانيت، ثلاثة منها فى الناحية الشرقية واثنان في الناحية الغربية، وبين الفئتين ممر ضيق. ولهذه الحوانيت مداخل،

وهي تحتوي على مخازن صغيرة وبعض آثار استعمال الرحي . كما يتصل بهذه المجموعة من الناحية الشمالية الغربية بوابة من الحجارة ذات نسق جيد، وربما كانت تغلق بأبواب من خشب، ذلك لأن آثار المزاليج واضحة على هذه الحجارة (**اللوحة ٤**).

(٢) القسم الشمالي: تقوم معظم جدران هذه الوحدة على السور الغربي لمجموعة المباني. وهو ما نسميه بالسوق الخارجي، والذي يبدو أنه كان على ارتفاع متساوٍ ولم يبق فيه سوى ثلاثة مداميك. ووحدات هذا القسم قائمة في معظمها على مواد عضوية كما هو الحال بالنسبة للقسم الجنوبي. ويفصل هذا القسم عن السور الغربي للسوق الكبير ممر ضيق يسمح بالدخول لبعض الوحدات الصغيرة كما يمكن هنا أيضا أن نميز مجموعتين من الغرف يفصلهما ممر؛ وهما:

(أ) المجموعة الشرقية.
(ب) المجموعة الغربية.

(أ) المجموعة الشرقية: وتتألف من ستة حوانيت، أربعة منها لها مداخل على الممر الفاصل ما بين السوق الكبير وبين هذه المباني. وتحتوي معظم هذه الحوانيت على مخازن في نهايتها الغربية، وللحوانيت عتبات من حجارة مهندمة مأخوذة من مبانٍ أخرى، عبارة عن شواهد قبور وأواني نذرية ومدقات وأكتاف لأبواب. وربما تم هذا الاستخدام الجديد لهذه المعثورات بعد خراب جانب من المدينة في المرحلة الأولى.

(ب) المجموعة الغربية: تتألف هذه المجموعة أيضاً من خمسة حوانيت متجاورة قائمة على السور الغربي للسوق الخارجي، ولها أبواب تطل على الممر المحاذي لها من الناحية الشرقية، ويحتوي كل حانوت على مخزنين قائمين على جدار السور الغربي. أما الحانوت الثالث فقد أقيم مخزناه على الجدار الشمالي للحانوت. ويلاحظ وجود فناء كبير خاص بالمجموعتين السابقتين ولعله كان للتجمع والبيع والشراء (**اللوحة ٥**).

اتضح بعد إنهاء الحفريات في هذا الموقع وجود مخطط لمباني صغيرة في حجمها، غير سميكة في جدرانها، ويتضح من البقايا المهدمة أنها غير مرتفعة، ويعتقد بأنها كانت لسقف بسعف النخل وجريده. وذلك واضح من بعض سقوف المخازن الصغيرة التي عثر عليها في الجزء الجنوبي والتي ربما استخدمت سريراً للراحة فوق المخزن.

ويحيط هذه المباني من الجهات الثلاث (الجنوبية والغربية والشمالية) سور من الحجارة الكلسية، لا سيما وأن مادة الكلس متوفرة في هذا الموقع بشكل واضح كبير، إذ أن الجزء الشمالي والجنوبي من قرية (الفاو) منطقة كلسية واسعة أقيمت فيها القنوات وحفرت فيها الدوائر لزراعة الأشجار.

يرتبط هذا السور من الناحيتين الجنوبية والشمالية ببرجي السوق الكبير. بل إن جدار السور في الناحية

الشمالية استخدم ضمن أحد الحوانيت أيضا، وحفرت به كوة دائرية الشكل.

وتقوم على السور الخارجي في الناحية الغربية وفي مواجهة المدخل الرئيسي للسوق الكبير بوابة واسعة مبنية من الحجر غير مرتفعة. ويعتقد أنها كانت تغلق، إذ ما زالت على العتبات أماكن لتثبيت محاور الأبواب.

المعثورات

اتسمت معثورات هذا الموسم بالنوعية لا بالكمية، فقد كانت الحفريات متركزة في مواقع واحد فقط.

الفخـــار:

من فخار هذا الموسم الخشن والرقيق، ومعظمه مصنوع محلياً. ومن أهم صفاته الخشونة والسماكة وقلة درجة حرارة شوائه. وقـد تم الحصول على جرتين كاملتين من الفخار متوسطتي الحجم، الواحدة منها واسعة الفوهة مستديرة القاعدة (**الشكلان ١، ٢**)؛ أما البدن فهو كروى أو كمثرى.

وقد عثر أيضاً على بعض الكسر وعليها بعض الحروف بالمسند باسم **ربعة**. وهو اسم متكرر في نقوش **قرية** (الفاو)، وخاصة في السوق الكبير.

وعثر أيضاً على جزء من مبخرة من الفخار عليها بعض الزخارف وهى عبارة عن خطوط غائرة، وعلى جزء آخر من مبخرة لونها ضارب للحمرة وعليها بعض الزخارف.

الخـــزف:

لقد عثر على قارورة من الفخار المزجج باللون الأخضر، كمثرية الشكل، ترتكز على قاعدة حلقية مرتفعة، ضيقة الفوهة وقمعية الشكل، وعلى عنقها بقايا وآثار لمقبضين صغيرين ضاعا (**الشكل ٣**). ومما عثر عليه أيضاً غطاء إناء من الخزف، فيروزي اللون، وبه بعض الحزوز الدائرية الشكل. وربما كان هذا الجزء قاعدة لإناء ثم استخدم فيما بعد كغطاء إناء.

معثورات أخرى من غير الفخار والخزف:

والى جانب الفخاريات عثر على العديد من المعادن والمسكوكات وبعض الكسر من أوان من الحجر، وكذلك بعض اللقى من الحجارة من تماثيل وأنواع من الأغطية الرخامية وبعض النقوش كشواهد قبور (استخدمت كعتبات) وبعض النقوش التذكارية. وذلك الى جانب العديد من أغطية الأواني الرخامية والمحلاة.

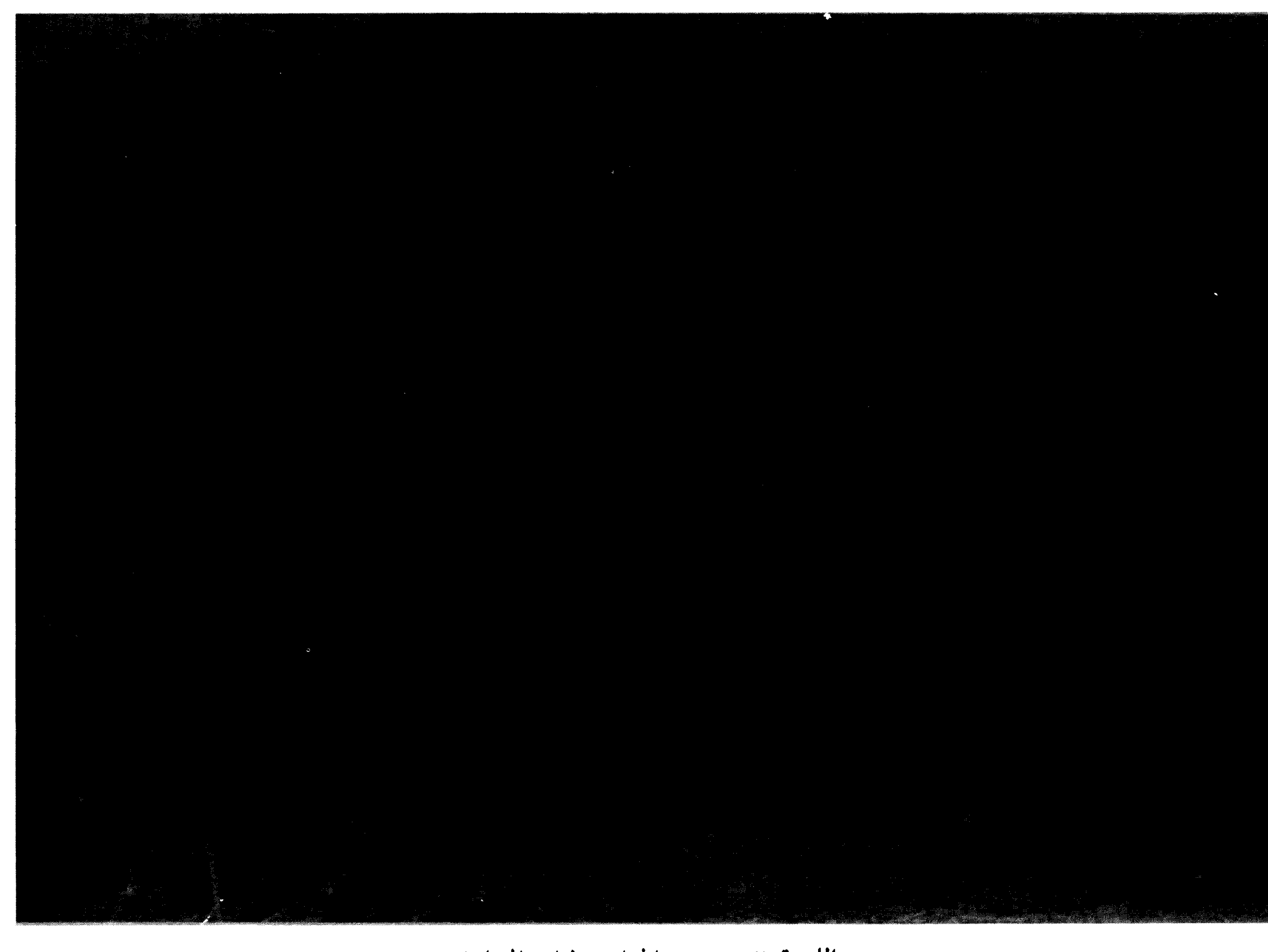
أما المعثورات التي تحمل بعض النقوش أو الحروف العربية الجنوبية فهي عديدة أيضاً. ومن أهمها قاعدة تمثال من الرخام هي بقية لقدمي إنسان، وعلى القاعدة نقش باسم **شرح إل**.

ونقش على حافة بقايا اناء صغير من البرونز بالخط النافر **ثبتم لو فيهمو** (**الشكل ٤**). وربما استخدم هذا

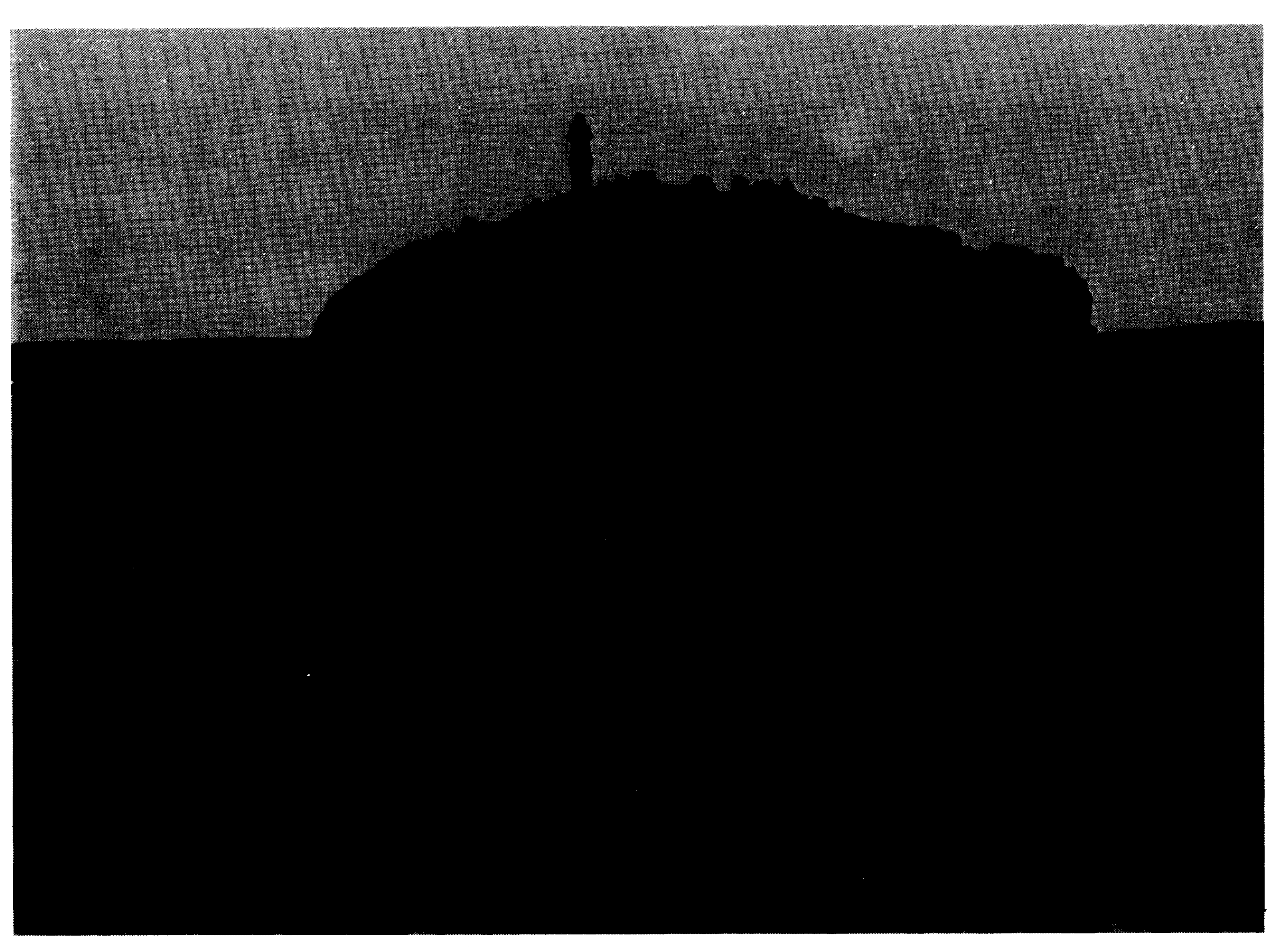
الاناء كهبة لمعبد باسم أحد الآلهة.

ولقد لوحظ في بعض النقوش المكتوبة بالمداد الأحمر على قطع من العظم محاولة لربط الحروف بعضها بالبعض الآخر. غير أن هذه القطع كسر غير كاملة. وهو ما تم اكتشافه لأول مرة حيث لم يسبق الكشف عن كتابات على العظم. وذلك الى جانب بعض أسماء الأعلام المكتوبة على مقابض من الحجر الصابوني.

اللوحة ١ : الموقع قبل الحفر بين التل الكبير والجانبين الشمالي والغربي.



اللوحة ٢ : بعض الحوانيت ذوات المخازن.

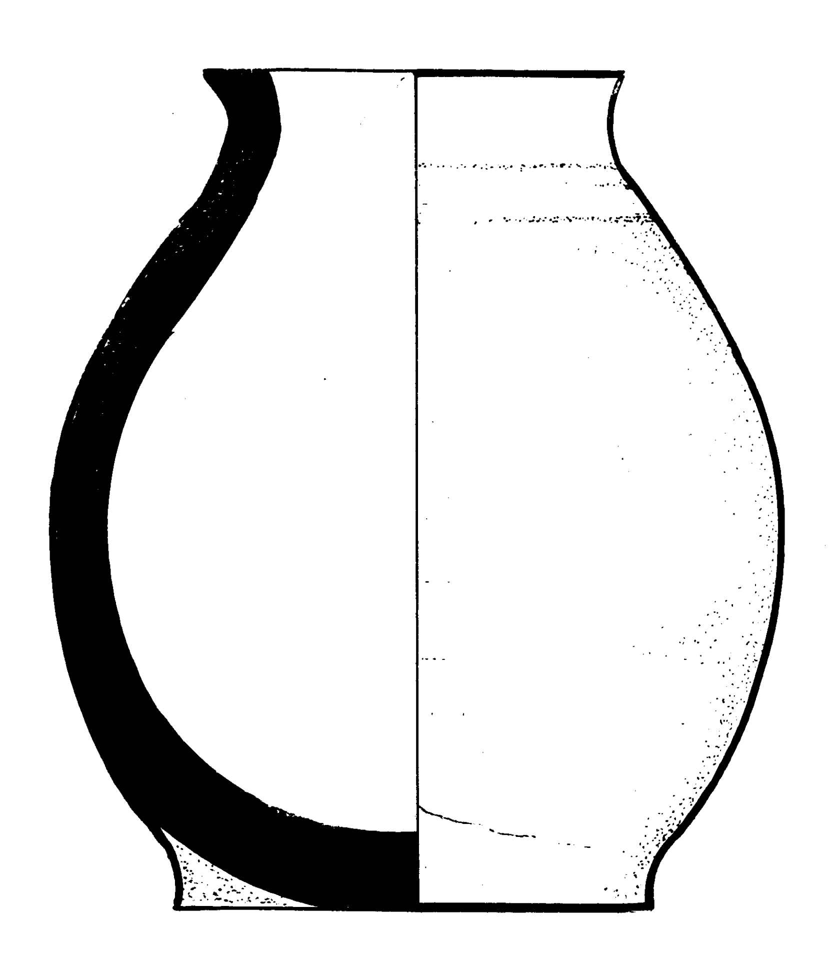


اللوحة ٣ : الركن الجنوبي للموقع ويرتبط ببرج السوق.

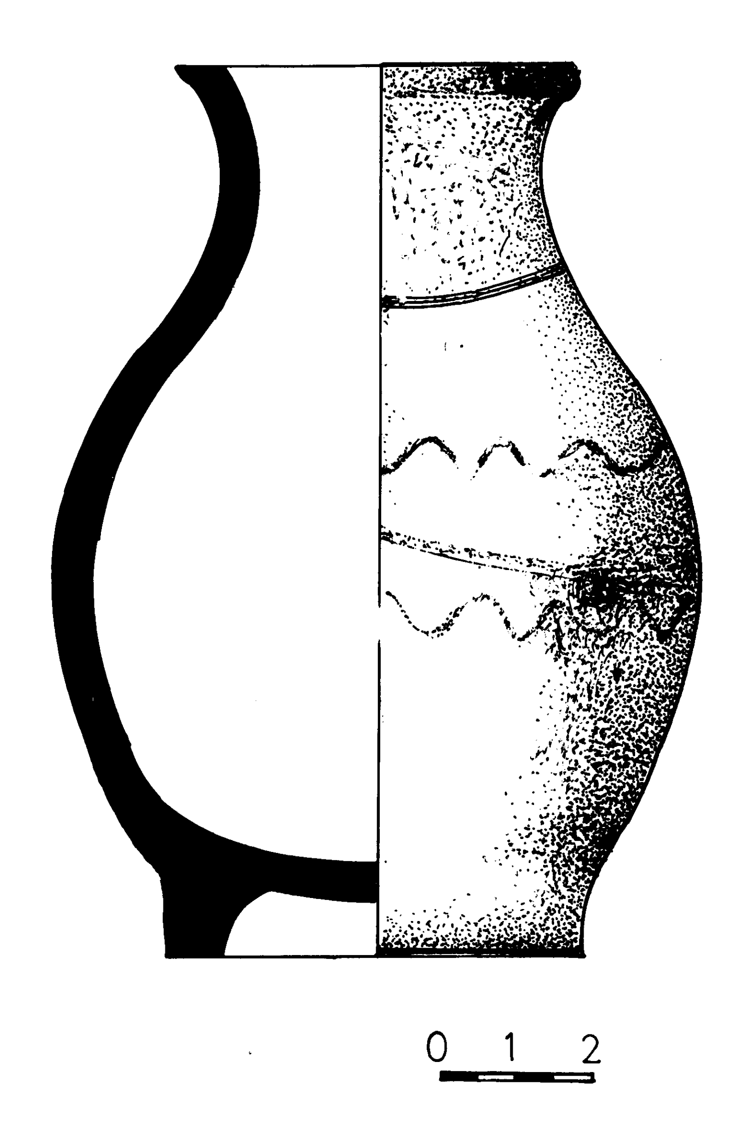
اللوحة ٤ : المجموعة الشرقية في القسم الجنوبي من السوق الخارجية.



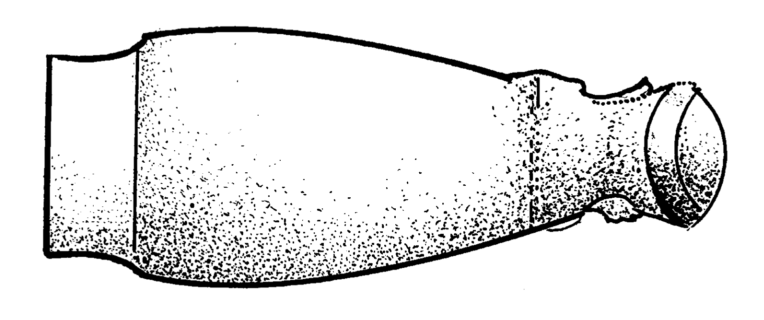
اللوحة ٥ : البوابة الغربية مع جزء من القسم الشمالي للسوق الخارجية.

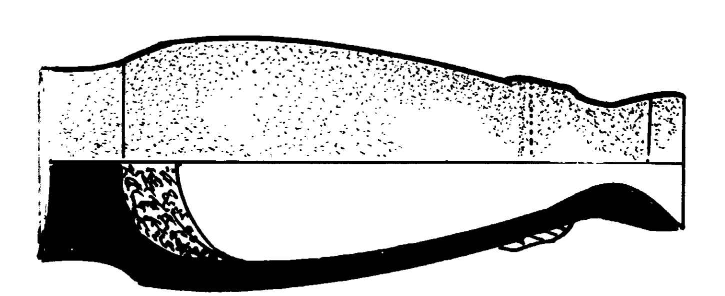


الشكل ١ : جرة فخارية متوسطة الحجم.

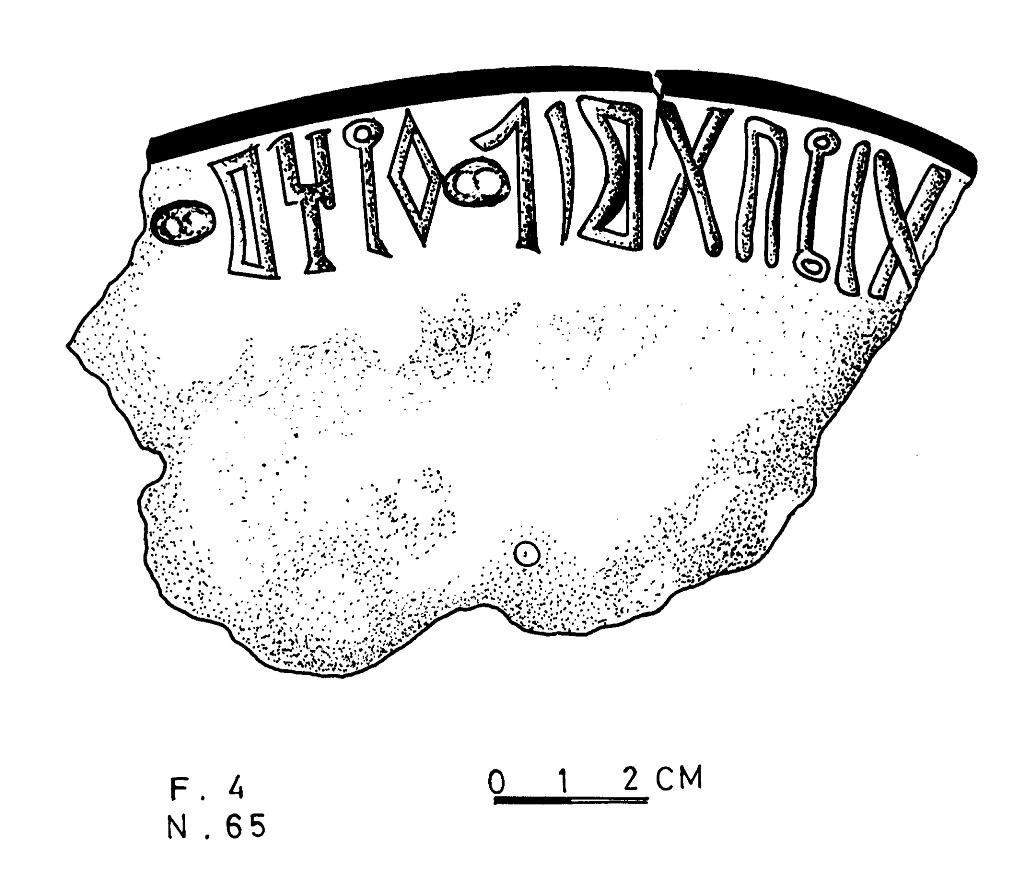


الشكل ٢ : جرة فخارية متوسطة الحجم مخروطية الشكل .





الشكل ٣ : أنفورة صغيرة من الخزف ذات طلاء أخضر.



الشكل ٤ : جزء من صحن معدني على ظهر شفته نص بالمسند الجنوبي يقرأ **ثبتم لوفيهمو**.

أول بعثة أثرية عربية مشتركة في البحرين

معاوية ابراهيم

الأعمال السابقة

تغطي تلال المدافن في البحرين مناطق واسعة تتركز غالبيتها في النصف الشمالي حيث توجد غالبية المستوطنات القديمة والمواقع السكنية الحديثة. وقدر الباحثون عددها بحوالي ١٠٠,٠٠٠ مدفن، إلا أن التقديرات الاخيرة تزيد عن ذلك كثيراً.

بدأ الاهتمام بالمدافن منذ أقدم الأزمنة، إلا أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد اهتماماً ملحوظاً بالكشف عنها.

وردت أول دراسة مدونة عن مدافن منطقة عالي بالبحرين عام ١٨٧٩م من خلال الكابتن ديوراند (Durand) (١). وفي عام ١٨٨٩ زار البحرين ثيودور بنت (Bent) (٢) وحفر أحد تلال عالي ونشر تقريراً تضمن نتائج الحفر وأصدر تقريراً آخر بعد الأول بعشر سنوات(٣) ضمنه صوراً شمسية، ثم جاء الميجر بريدو (Prideaux) عام ١٩٠٦(٤) وأجرى حفريات في عدد من المدافن، وفي عام ١٩٢٩ جاء إرنست مكّاي (Mackay) (٥) وأجرى حفريات بعدد من المدافن ثم قام كورنوول (Cornwall) (٦) عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ بدراسة على الهياكل العظمية بهدف معرفة أصحاب هذه المدافن. ثم عملت بعثة آثار دنماركية منذ ١٩٥٣ وحتى أواخر الستينات وأجرت حفريات في عدد من المستوطنات والمدافن.

أما الطريقة التي اتبعها المنقبون الذين سبق ذكرهم فقد كانت في الغالب أبعد ما تكون عن الاسلوب العلمي؛ إذ كانوا يقومون بحفر خندق في وسط التل بهدف الوصول الى غرفة الدفن مباشرة، وذلك للحصول على ما كانوا يتوقعونه من كنوز، الأمر الذي لم يساعد البعثة العربية على فهم كيفية بناء هذه المدافن.

ظلت آثار البحرين عرضة لأطماع العابثين حتى صدور قانون الآثار عام ١٩٧٠ وتأسيس إدارة محلية للآثار والمتاحف، أخذت على عاتقها مهمة حماية الآثار وتنظيم أعمال التنقيب.

حقل مدافن سار (٧):

يعتبر حقل مدافن سار من أكبر الحقول وهو مرتبط مع حقول أخرى من الجهتين الشمالية والجنوبية، ويقدر عدد المدافن في هذا الحقل بحوالي ١٥,٠٠٠ مدفن، ويتراوح بعدها عن الشاطيء الغربي من ٧٠٠ متر الى ٣ كيلومترات. وهي مشادَة على مرتفع صخري يرتفع كلما اتجهنا الى الشرق، تتراوح المسافات التي تفصل هذه التلال التي تحوي المدافن من ٢ - ٨م، ويتراوح ارتفاعها من ١/ ٢م الى حوالي ٤م. وأما قطرها في الاسفل فيتراوح من ٣ - ٢٥م، وتبدو على شكل قياس، إلا أن بعضها يبدو مفلطحاً أو طولياً، وقد اكتشف حقل مدافن مرتبط بمدافن سار المقبّبة بعد أن ظن في بداية الأمر انه مستوطن.

البعثة الأثرية العربية المشتركة

تنظيم البعثة

تشكلت البعثة بناء على طلب من حكومة البحرين من خلال المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واللجنة الدائمة للآثار، وذلك من أجل انقاذ الآثار المهددة بالزوال من جراء شق الشارع الذي يوصل بين حافة الجسر المزمع إقامته بين دولة البحرين والمملكة العربية السعودية، وقد تشكلت البعثة من مختصين قدموا من البحرين والأردن وسوريا والعراق والكويت، وقد استمر عمل البعثة لموسمها الأول ابتداء من ١/٣ - ١٩٧٧/٤/٣٠، وتم الكشف في هذا الموسم عن ١٤ تلاً، أما الموسم الثاني فقد بدأ في شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٨ لمدة أربعة شهور، وضم فريقاً من الدول المشار إليها أعلاه بالاضافة الى مختصين من هولندا والولايات المتحدة حتى بلغ مجموع المشاركين ٣٥عضواً.

منهج العمل

بعد عدد من الزيارات الميدانية للموقع، تقرر حفر نسبة معينة منتقاة بشكل علمي منهجي وذلك بقصد الحصول على معلومات تفصيلية، ولتحقيق هذه الغاية تم انجاز مسح شامل لجميع التلال الموجودة في مسار الطريق، وعوملت كل تلة وفقاً للأسس المتبعة في حفر المواقع السكنية بحيث أجري لها مسح كونتوري وتم إسقاطها في مربع يتناسب وأبعاد التلة، وتلى ذلك تقسيم المربع الكبير الى مربعات أصغر من ذلك يتناسب عددها مع مساحة المربع الكبير. جرى التنقيب في كل مربع على حدة تبعاً لتسلسل طبقات الردم. وتم توثيقها جميعاً بشكل متسلسل من خلال إعداد مخططات أفقية ومقطعية، وتم توثيق مراحل التنقيب بالتصوير الشمسي.

الحفريات الأثرية

تم الكشف عن ٦١ تلاً خلال موسمي الحفريات، ويشكل مجموع التلال المنقبة ما نسبته ١٢٪ من التلال الموجودة في مسار الشارع، كما وأمكن في نهاية الموسم الثاني الحصول على نسبة تقارب نسبة التلال المحفورة بمنطقة المدافن المترابطة.

وقد أمكن تمييز خمس مجموعات رئيسية من بين المدافن التي تم التنقيب عنها وعرّفت على الوجه التالي :-

١ - تل بمدفن واحد فوق سطح الأرض.
٢ - تل بمدفن واحد مقطوع في الصخر.
٣ - تل بمدفن رئيسي يتصل بمدافن جانبية.
٤ - تل بمدفن رئيسي يتصل بباحة.
٥ - المدافن المترابطة.

وينسجم تقسيم هذه المجموعات مع موقعها المتسلسل ضمن مسار الطريق، واعتمد بالدرجة الأولى على طريقة إنشائها. وبالرغم من أنها جميعها تتبع حضارة واحدة أو فترة زمنية رئيسية واحدة، لكن من المحتمل أن كل مجموعة أو أكثر تمثل مرحلة ضمن حقبة زمنية طويلة.

١ ـ تل بمدفن واحد فوق سطح الأرض (الشكلان ١ ، ٢) : يمثل هذا النوع الغالبية العظمى من المدافن، يتراوح قطرها من ٤ ـ ١٦م، وغالبيتها من ٦ ـ ١٠م، وارتفاعها من ٣٠سم الى ٢,٣٠م. وهي محاطة بجدار دائرى غير منتظم. أما طريقة إنشائها فمتجانسة مما يدل على أنها كانت تنشأ من قبل مختصين، بحيث يتم أولاً تحديد المنطقة التي سينشأ عليها المدفن بعد أن تسوّى المنطقة وتنظف. ويتم إعداد هذا النوع من المدافن على ثلاث مراحل.

المرحلـة الأولى: يتم بها بناء غرفة الدفن باستعمال حجارة مشذبة ومنتظمة من الداخل وخشنة من الخارج تغطى بالأتربة كلما ارتفع بناء المدفن، ويتم بهذه المرحلة أيضا بناء جزء من الجدار الدائري، وتكون طبقات الطمم مائلة ببطيء باتجاه غرفة الدفن وشديدة الانحدار للخارج.

المرحلـة الثانية: تتم بها تعلية طبقات الطمم الأولى بحيث تملأ المساحة المتبقية بين طمم المرحلة الأولى والجدار الدائري، مع إضافة بعض الحجارة للجدار الدائري.

المرحلـة الثالثة: تتم بعـد استعمال المدفن وإغلاقه بحجارة الأغطية، حيث تضاف كميات من الطمم لتملأ الفراغ فوق المدفن مباشرة. وبعد انجاز هذه المرحلة يأخذ التل شكله المقبب الذي نشاهده.

أما غرفة الدفن فغالباً ما تأخذ شكلاً مستطيلاً وباتجاه شرق ـ غرب مع انحراف أحياناً نحو الشمال الشرقي ـ الجنوبي الغربي. وكثيراً ما تتصل في نهايتها الشرقية بحجيرة صغيرة (Alcove) لتشكل حرف (L) باللاتينية أو حجرتين لتشكل حرف (T) باللاتينية.

جوانب حجرة الدفن من الداخل منتظمة عريضة في أسفلها وتضيق كلما علت، ويتراوح عدد البلاطات التي تغطيها من ٢ ـ ٥. وتتضمن غرفة الدفن هيكلاً عظمياً واحداً يتم وضعه باتجاه غرفة الدفن مع وضع الرأس في الجهة الشرقية، وبشكل قرفصائي، أي بثني الركبتين باتجاه الصدر وضم اليدين أمام الوجه. وغالباً ما تكون وجهة الهيكل للشمال أو باتجاه الحجرة الجانبية.

تدل بعض الأدلة على أن مدافن هذا النوع كانت تجهز بالمرفقات الجنائزية، وبخاصة الأواني الفخارية، والتي يعثر عليها غالباً بداخل الحجيرات الجانبية.

ومن التلال التي تمثل هذا النوع والتي تم التنقيب عنها فه تل S. 18 وتل S. 100 وتل S. 97

٢ ـ تل بمدفن واحد مقطوع في الصخر (الشكل ٣) : أهم ما يميز هذا النوع هو كون غرفة الدفن محفورة كلياً أو جزئياً في الصخر. ويتم إعداد هذه التلال على مرحلتين رئيسيتين.

المرحلـة الأولى: تحدد بها المنطقة المراد إقامة المدفن عليها من خلال الصف الأول للجدار الدائري، ثم تحفر الغرفة في الوسط ويتم تلبيس جوانبها بجدران من الحجارة الصغيرة المشذبة يبرز أحياناً فوق سطح الأرض بمدماك أو مدماكين يتم تدعيمها بطبقات من الطمم.

المرحلـة الثانية : وتتم بعد الدفن، وذلك بتغطيته بالحجارة التي تكون مجهزة، حيث يغطى المدفن بطبقة حورية يليها طبقة أخرى رئيسية تشكل الجزء الغالب من حجم التل .

هذا النوع من التلال وجد ممثلاً بأربعة تلال تم التنقيب عنها (هي 377 ، S.261 ، S. 258 ، S.240) . وقد كانت غرف الدفن فيها باتجاه شرق - غرب تتخلل أحدها حجيرة جانبية في الزاوية الجنوبية الشرقية (S.261) . وأما في آخرين (S.258 ، S.240) . فقد عثر على الحجيرة في الزاوية الشمالية الشرقية وفي الرابع (377) وجدت حجيرتان لتشكل حرف (T) باللاتينية .

٣ - تل بمدفن يتصل بمدافن جانبية (الشكلان ٤ ، ٥) : ما يميز هذا النوع هو ارتباط المدفن الواحد بمدافن أخرى جانبية قد تصل من ١ - ١٠ مدافن، ويبدو أنه كان مخططاً لها حتى قبل تشييد المدفن الرئيسي . يتضح ذلك من خلال ارتفاع الجدار الدائري ومن خلال طبقات الردم . وفي بعض الأحيان يكون أكثر من مدفن رئيسي واحد ضمن تلة واحدة يربط بينها مدافن جانبية أخرى .

يبدو أن تلال هذا النوع سارت جنباً إلى جنب مع تلك التلال التي تحتوي على مدفن واحد، وقد يكون سبب ظهورها ذا علاقة وظيفية أو وجود صلة قربى بين أصحابها . وقد لوحظ أن بناة هذه المدافن كانوا يحاولون الإبقاء على الجانب الغربي والشرقي من المدفن الرئيسي خالياً من المدافن، كما أن هذه المدافن تعتبر مرحلة انتقالية بين مدافن النوعين الأول والثاني من جهة ومدافن النوع الرابع من جهة أخرى .

ومن الواضح أن اهتماماً أكثر وضع في المدافن الرئيسية سواء من حيث حجمها الدائري وغرفة الدفن والتي غالباً ما تأخذ شكل حرف (L) أو حرف (T) باللاتينية بينما تظهر الغرف الجانبية بسيطة وتأخذ شكلاً مستطيلاً .

وقد وجد هذا النوع في المواقع الآتية : (تل S. 13) ويحتوي على مدفن رئيسى واحد ومدفن جانبي .
(تل S.44) ويحتوي على مدفن رئيسي واحد ومدفنين جانبيين .
(تل S.137) ويحتوي على مدفن رئيسي واحد وتسعة مدافن جانبية .
(تل S.175) ويحتوي على مدفن رئيسي واحد ومدفنين جانبيين .
(تل S.232) ويحتوي على مدفن رئيسي واحد ومدفنين جانبيين .
(تل S.238) ويحتوي على مدفن رئيسي واحد ومدفنين جانبيين .
(تل S.245-248) وهو عبارة عن : (248) ويحتوي على خمسة مدافن جانبية ،
و (245) ويحتوي على ثلاثة مدافن جانبية .
(تل S.253) ويحتوي على ستة مدافن جانبية .

ويتضح من أسلوب بناء هذا النوع أنه يشكل مرحلة انتقالية بين النوعين الأول والثاني من ناحية والنوع الرابع (تل بمدفن رئيسي يتصل بباحة) من ناحية أخرى . وتوجد غالبية أمثلة هذا النوع في منطقة وسطية من مسار الطريق وبالقرب من أمثلة النوع الرابع .

٤ ـ تل بمدفن رئيسي يتصل بباحة (الشكلان ٦ ، ٧) : يتميز هذا النوع بكبر حجمه ويتشابه مع تلال النوع الثالث من حيث ارتباط المدفن الرئيسي بمدافن جانبية . وتختلف مدافن هذا النوع الرئيسية عن سواها لكون غرف الدفن فيها متصلة بباحات عميقة لها مداخل رأسية ، تبدو على شكل بئر وتؤدي الى غرفة الدفن مباشرة وتفصلها عن الجدار الدائري . إلا أن مثالاً واحداً شذ عن هذه القاعدة، حيث تشكل الباحة فيه ممراً ضيقاً طويلاً يصل بين الجدار الدائري وغرفة الدفن الرئيسية كما في التل 404 ، يحيط بغرفة الدفن الرئيسية جدار دائري قد يصل ارتفاعه الى مترين . والأمثلة التي نقب فيها تضم أكثر من جدار دائري واحد وتتصل بسويات ترابية ثلاث لتشكل بمجموعها مساطب تتدرج تبعاً لارتفاع التلة . إن فكرة إنشاء التل على شكل مساطب تبدأ في تلال المرحلة الثالثة إلا إنها تتطور في هذا النوع من التلال .

أمـا غرفة الدفن فتكون مقطوعة جزئياً في الصخر وتكون مستطيلة باتجاه شرق ـ غرب ، وغالباً ما تتصل بحجيرة مشكلة حرف (L) أو حجرتين مشكلة حرف (T) ، وغالباً ما أعدت مدافن هذا النوع مسبقاً ، وذلك من خلال طريقة بنائها وضخامتها وتناظر المدافن الجانبية حولها ، ومن المحتمل أنها كانت مخصصة لأشخاص لهم مكانة اجتماعية معينة أو لعائلة . وبخلاف المدافن الأخرى فإن عملية الدفن كانت تتم بإنزال الميت في الباحة وإدخاله إلى غرفة الدفن الرئيسية من خلال المدخل الجانبي الذي يوصل بين الباحة والغرفة .

وأما هذا النوع فممثل في التلال التالية :

(التل S.267): يحتوي على ثمانية مدافن ، أربعة منها رئيسية وأربعة فرعية .
(التل 353): تم الكشف عن مدفن رئيسي ولم يستكمل التنقيب في بقية التل ، والذي قد يحوي مدافن جانبية .
(التل S.394): ويحتوي على مدفن رئيسي وثلاثة مدافن جانبية .
(تل 404): ويحتوي على مدفن رئيسي وتسعة مدافن جانبية .

٥ ـ المدافن المترابطة (الشكلان ٨ ، ٩) : تقع في النهاية الشرقية لتلال المدافن ، وهي على شكل تل منبسط تبلغ مساحته حوالي ٥,٠٠٠م ٢ ، تغطيه كسر فخارية وحجارة متناثرة حملتنا على الاعتقاد في بداية الأمر بأننا بصدد مستوطن ، وللتأكد من ذلك حفرنا مربعين تجريبيين وفوجئنا باكتشاف نوع جديد من المدافن اصطلحنا على تسميتها بالمدافن المترابطة (Burial Complex).

قمنـا بإعداد خطة حفر منفصلة بدأت باعداد مخطط كنتوري شبكي بحيث قسم التل إلى أربع حارات رئيسية ، يفصل بينها خطان رئيسيان يتعامدان مع الجهات الأربع ، وقسمت هذه الحارات إلى مربعات ترك بينها فواصل ، ورقمت هذه المربعات بطريقة يسهل معها توثيق العناصر التي يكشف عنها .

كشفت البعثة العربية عن حوالي مائتي مدفن ، كما كشفت عن حقل مدافن آخر يتصل بالحقل الرئيسي من الجهة الشرقية . وقد تبين بعد أعمال التنقيب أن هذا الحقل كان مخصصاً لدفن الأطفال ، إلا أنه تعرض للكثير من لهدم والتخريب .

قياساً على عدد المدافن التي تم الكشف عنها فإنه من المؤمل العثور على ما يزيد على ألف مدفن في هذا الحقل.

ظهرت هذه المدافن على شكل جدران قوسية مشكلة أنصاف دوائر ترتكز على بعضها البعض، ويتوسط كل قوس غرفة دفن باتجاه غرب ـ شرق، ترتكز من أحد جوانبها على جدار قوسي سابق. وأما الجهات الثلاث الأخرى فمبنية بشكل مستقل، وفي أغلب الأحيان يتفرع عنها حجيرة صغيرة تكون إما في طرف غرفة الدفن من الجهة الشمالية الشرقية أو غالباً ما تكون في منتصف جدار غرفة الدفن الشمالي.

يبدو من تجانس هذه المدافن وكيفية إنشائها أنه خطّط لها مسبقاً من قبل مجموعة متخصصة، وبإشراف سلطة مركزية معينة ذات طابع دينى. وقد تمكنت إدارة الآثار والمتاحف والتي أخذت على عاتقها مواصلة أعمال التنقيب في هذه المدافن من العثور على مدفن كامل الاستدارة، ويشكل نواة هذا الحقل الذي ارتكزت عليه المدافن اللاحقة(٨).

اللقى الصغيرة:

١ ـ الجرة الاسطوانية (**الشكل ١٠**): وهي مصنوعة من طينة حمراء شاع استعمالها في جميع أنواع المدافن الأمر الذي يبرر تعريفها بالجرة الجنائزية.
٢ ـ الإناء الكمثري.
٣ ـ الإناء التفاحي.
٤ ـ الفخار الرّمادي.
٥ ـ أوان بأشرطة ملصقة (**الشكلان ١١، ١٢**): وهي عبارة عن أشرطة كانت تثبت على أجسام الجرار بقصد الزخرفة.
٦ ـ الفخار الملون (**الشكل ١٣**): واللون الغالب هو اللون الأسود، وهو عبارة عن أشرطة أفقية وأحياناً تكون هذه الأشرطة عمودية متموجة على شكل أفعى.
٧ ـ أواني الطبخ: لم يعثر على هذه الأواني داخل المدافن، إلا أنه عثر على كميات مكسرة خارج المدافن المترابطة مبعثرة على السطح.

أواني الحجر الصابوني (الشكل ١٤): عثر عليها بمنطقة المدافن المترابطة، وهي عبارة عن أوان صغيرة ومتنوعة مصنوعة من مادة الحجر الصابوني ومزخرفة من الخارج بواسطة دوائر منقطة أو حزوز أفقية، وقد عثر على أمثلة أخرى مشابهة لها في مدافن أخرى فى البحرين وكذلك في مواقع خليجية أخرى كثيرة.

سلال سعف النخيل المغطاة بالقار: عثر على بقايا لأوان مصنوعة من سعف النخيل المطلي بالقار، إلا أنه لم يعثر إلا على ست أوان كاملة، وهي عبارة عن سلال أسطوانية الشكل ترتكز على قاعدة بارزة على شكل صليب وأوان أخرى على شكل كؤوس أسطوانية.

اللقى الـبرونـزيـة (الشكل ١٥): تتضمن أسلحة كرؤوس السهام والحراب والخناجر والأواني، وأدوات الزينة كالخواتم والأساور والأقراط والمشابك.

لقى متفرقة: وتشمل بيض النعام والأصداف. كما عثر على كتلة معدنية على شكل سبيكة قد تكون فضة ممزوجة بالقصدير.

الأختـــام (الشكلان ١٦، ١٧):

عثرت البعثة العربية على ثلاثة وعشرين ختمًا مصنوعة من الاصداف والحجر الصابوني (الستياتيت)، وأختام أخرى عثر عليها في المدافن المتشابكة (المترابطة) بعد انتهاء أعمال البعثة العربية. وقد بلغ عدد الأختام الصدفية اثني عشر ختمًا، وأحد عشر ختمًا من الستياتيت، يضاف إليها الأختام التي عثر عليها بعد ذلك.

وأما الأختام الصدفية فتتدرج من بساطة الصنع الى مرحلة أكثر تقدماً، وقد بدأت بأن كان الصانع يقوم بنشر قاعدة الصدفة لاستعمال الزخرفة الحلزونية الطبيعية على شكل ختم وإبقاء الجزء الخارجي سميكاً ومدبباً بشكل يسمح بثقبه، وقد تطورت هذه الصناعة، ثم أضيف إلى الختم ثقوب محفورة على أبعاد متساوية على سطح الختم المستوي، ثم بدأ الصناع يضيفون أشكالاً حيوانية بما فيها ما يشبه الغزال.

وأما أختام الستياتيت الدائرية المعروفة بالدلمونية فقد اكتشفت في البحرين على نطاق واسع. وأما المشاهد التي كانت تحفر عليها فكانت تمثل غزلاناً ذوات رؤوس ورقاب طويلة. ومن الحيوانات الأخرى التي مثلت على أختام البحرين الثور والماعز والعقرب وما يشبه الأفعى، كما حفر على البعض منها أشكال آدمية في أوضاع مختلفة. وقد ظهرت طبعة القدم على ختمين من أختام سار. وهي ظاهرة تتميز بها أختام الخليج العربي. وقد ظهرت طبعة القدم مع رموز أخرى تدل على العقرب والسرطان والنجم، كما أن القمر (الهلال) وشجرة النخيل وجدا ممثلين في بعض هذه الأختام.

هناك شواهد تدل على أن الأختام كانت تصنع في البحرين. وقد عثر على حجر الستياتيت الخام على سطح مرتفع المدافن المترابطة. ومما يدعم هذا الرأي العثور على ختم غير مكتمل في موقع دراز في البحرين [٩].

الحلـــي:

وتتضمن الخرز المصنوع من العقيق والصدف والبرونز والمشابك والخواتم والأقراط.

ملخـــص:

(١) نعتقد أن ما قامت به البعثة العربية يعتبر أوسع عمل منهجي لتلال المدافن، وتمثل الحفريات مقطعاً يمتد من الغرب الى الشرق في حقل سار.

(٢) يعتمد التصنيف لخمسة أنواع على كيفية إنشاء المدافن وليس على التفاصيل الإنشائية أو الشكل أو اللقى الموجودة بداخلها، ولم يقصد أن تحتل هذه الأنواع تسلسلاً زمنياً دقيقاً. ولكن تبين بأن هذا التصنيف ينسجم إلى حد كبير مع وجود هذه الأنواع، إذ تتواجد غالبية مدافن النوع الأول في النصف الغربي بينما يتواجد النوعان الثاني والثالث في الوسط، والنوع الرابع الى الشرق من الأنواع الثلاثة الأولى. وأما النوع الخامس (المدافن المترابطة) فيتواجد في أقصى الشرق من حقل المدافن. وتشكل مدافن هذا النوع نهايته في هذه الجهة.

(٣) يبدو أن بعض الأنواع من المرفقات الجنائزية، وبخاصة الفخارية منها، كانت تصنع خصيصاً لأغراض الدفن. ونخص بالذكر الجرة الأسطوانية وأخرى على شكل كمثري، والتي توجد في جميع الأنواع. وظهورها في المواقع السكنية المعاصرة قليل جداً، ومن المرفقات الجنائزية الشائعة السلّة المغطاة بالقار.

(٤) هناك بعض المكتشفات التي ظهرت في المدافن المترابطة ولم يكشف عنها في الأنواع الأربعة الأخرى، مثل أواني الستياتيت والأختام المعروفة بالدلمونية. باستثناء مثالين من S.267 (النوع الرابع). أما الأختام الصدفية فقد ظهرت فى جميع أنواع المدافن.

(٥) يظهر أن المكتشفات التي عثر عليها في المدافن المترابطة تماثل المكتشفات التي عثر عليها في المرحلة الثالثة لمعبد باربار، والتي أرخت بطريقة الإشعاع الكربوني (C 14). بنهاية الألف الثالث ق. م، لتعاصر أسرة أور الثالثة ومرحلة إسين لارسا[١٠]. ويتفق هذا التاريخ مع الدراسات التي اجراها جلوب (Glob) [١١] وآخرون لمكتشفات مماثلة من الخليج العربي. وقياساً على التصنيف الذي اتبعناه في مدافن سار فإن الأنواع الأربعة التي سبقت المدافن المترابطة تعتبر أقدم منها ومن المحتمل أنها تمتد لمنتصف الألف الثالث ق. م.

الهـــوامش

(١) E.L. Durand, «Notes on the Islands of Bahrain and Antiquities». A report sent by 1st. May 1879 by the Political Resident, Buschire, to the Foreign Department Government of India.

(٢) T. Bent, «The Bahrain Island, in the Persian Gulf», *Proceedings of the Royal Geographical Society*, XII (1890), 1-19.

(٣) T. Bent, «*Southern Arabia* (London: Smith, Eldar and Company, 1900).

(٤) F.B. Prideaux, «The Sepulchral Tumuli of Bahrain», *Ann. Rep. Arch. Survey of India (Calcutta,* 1912), 60-78.

(٥) E. Makay, L. Harding and F. Petrie, «Bahrain and Hamamieh», *British School of Archaeology in Egypt* XLIII (1929), 1-35.

(٦) B. Cornwall, «The Tumuli of Bahrain», *Asia and the American* XLIII, No. 4 (Connecticut,1943), 230-234.

(٧) M.M. Ibrahim, *Excavations of the Arab Expedition at Sār el – Jisr Bahrain* (1982); «Das Graberfeld von Sar (Bahrain)», *Archiv für Orientforschung* 29 (1983).

(٨) M.R. Mughal, *The Dilmun Burial Complex at Sar, the 1980-82 Excavations in Bahrain* (Bahrain, 1983).

(٩) During – Caspers, «A Dilmunite Seal–cutter's Misfortune», *Antiquity* LI, No. 201 (1977), 54-55.

(١٠) P. Mortensen, «Om Barbartempelets Datering», *Kuml* (1970), 385-398.

(١١) P.V. Glob, «Temple ved Barbar», *Kuml.*, (1954), 142-153; «Oen Med de Hundred Tusinde Grav-hoje», *op. cit.,* 92-105; «Bahrains Oldtidshovestad», *op. cit.,* 164-169.

المـراجع

BENT, T.,

«The Bahrain Island, in the Persian Gulf», *Proceedings of the Royal Geographical Society* XII, (London, 1890), 1-19.

Southern Arabia (London: Smith, Eldar and Company, 1900).

CORNWALL, P.B.,

«The Tumuli of Bahrain», *Asia and the American* Vol. XLIII, No. 4 (Connecticut: 1943), 230-234.

DURAND, E.L.,

«Notes on the Islands of Bahrain and Antiquites». A Report sent 1st May 1979 by the Political Resident, Buschire, to the Foreign Department, Government of India, 1879.

DURING – CASPERS, E.C.,

«A Dilmunite Seal–cutter's Misfortune», *Antiquity* LI, No. 201 (1977), 54-55.

GLOB., P.V.,

«Temple ved Barbar», *Kuml.* (1954), 142-153; «Oen Med de Hundred Tusinde Gravhoje», *op. cit.,* 92-105; «Bahrains Oldtidshovestad», *op. cit.,* 164-169.

IBRAHIM, M.M.,

Excavations of the Arab Expedition at Sār el – Jisr Bahrain (1982).

«Das Graberfeld von Sār (Bahrain)», *Archiv Für Orientforschung* 29 (1983).

MACKAY, E., HARDING, L. and PETRIE, F.,

«Bahrain and Hamamieh», *Brit. Sch. of Arch. in Eygpt* XLVIII (London, 1929), 1-35.

MUGHAL, M.R.,
The Dilmun Burial Complex at Sar, the 1980-82 Excavations in Bahrain (State of Bahrain, Ministry of Information – Directorate of Archaeology and Museums).

PRIDEUAX, F.B.,
«The Sepulchral Tumuli of Bahrain», *Ann. Rep. Arch Survey of India* (Calcutta, 1912), 60-78.



اللوحة ٦ : المدفن S. 100 (النوع الأول) .



اللوحة ٧ : هيكل عظمي داخل المدفن S. 18 (النوع الأول).



اللوحة ٨ : المدفن 106 (النوع الأول).



اللوحة ٩ : التل S. 258 (إلي اليسار) والتل S. 261 (إلى اليمين) (النوع الثاني) .



اللوحة ١٠ : التل S. 240 (النوع الثاني).



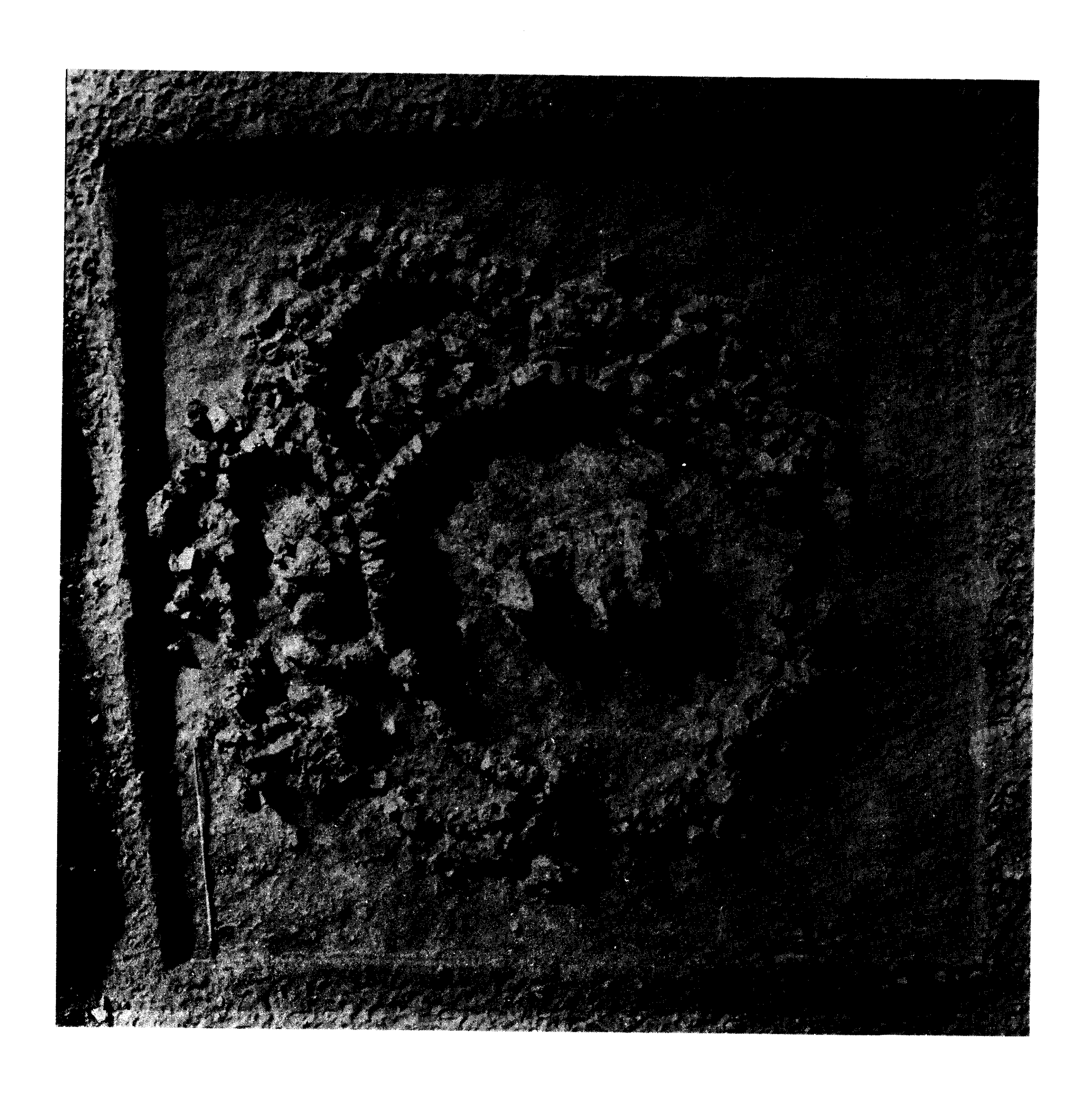
اللوحة ١١ : منظر عام للمنطقة الوسطي من الحفريات. ويظهر في المقدمة التل S. 232 (النوع الثالث).



اللوحة ١٢ : التل S. 253 (النوع الثالث) .



اللوحة ١٣ : التل S. 238 (النوع الثالث) .



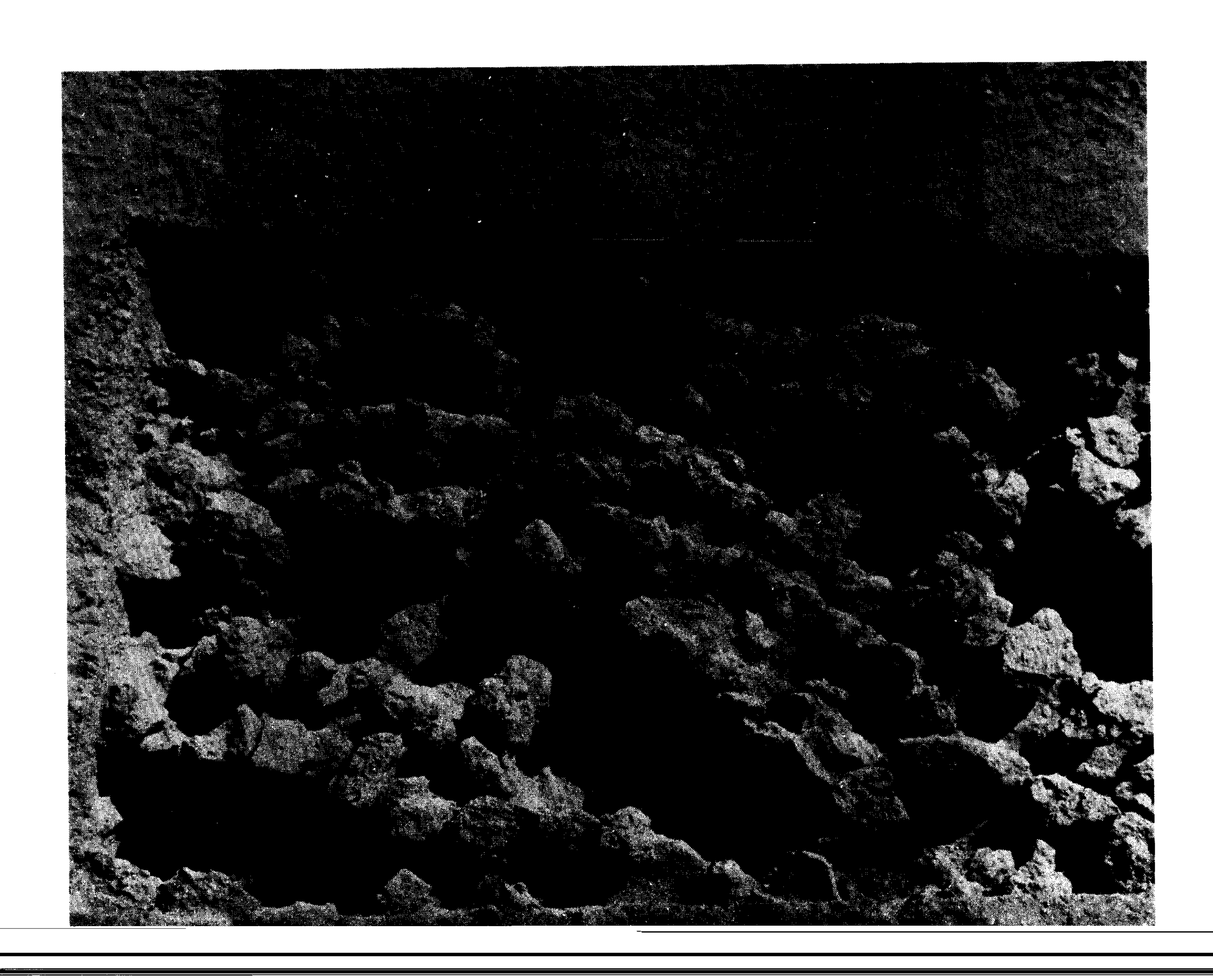
اللوحة ١٤ : التل S. 44 (النوع الثالث) .



اللوحة ١٥ : التل S. 404 (النوع الرابع).



اللوحة ١٦ : أحد المدافن الجانبية رقم (٧) ـ التل S. 404 (النوع الرابع).





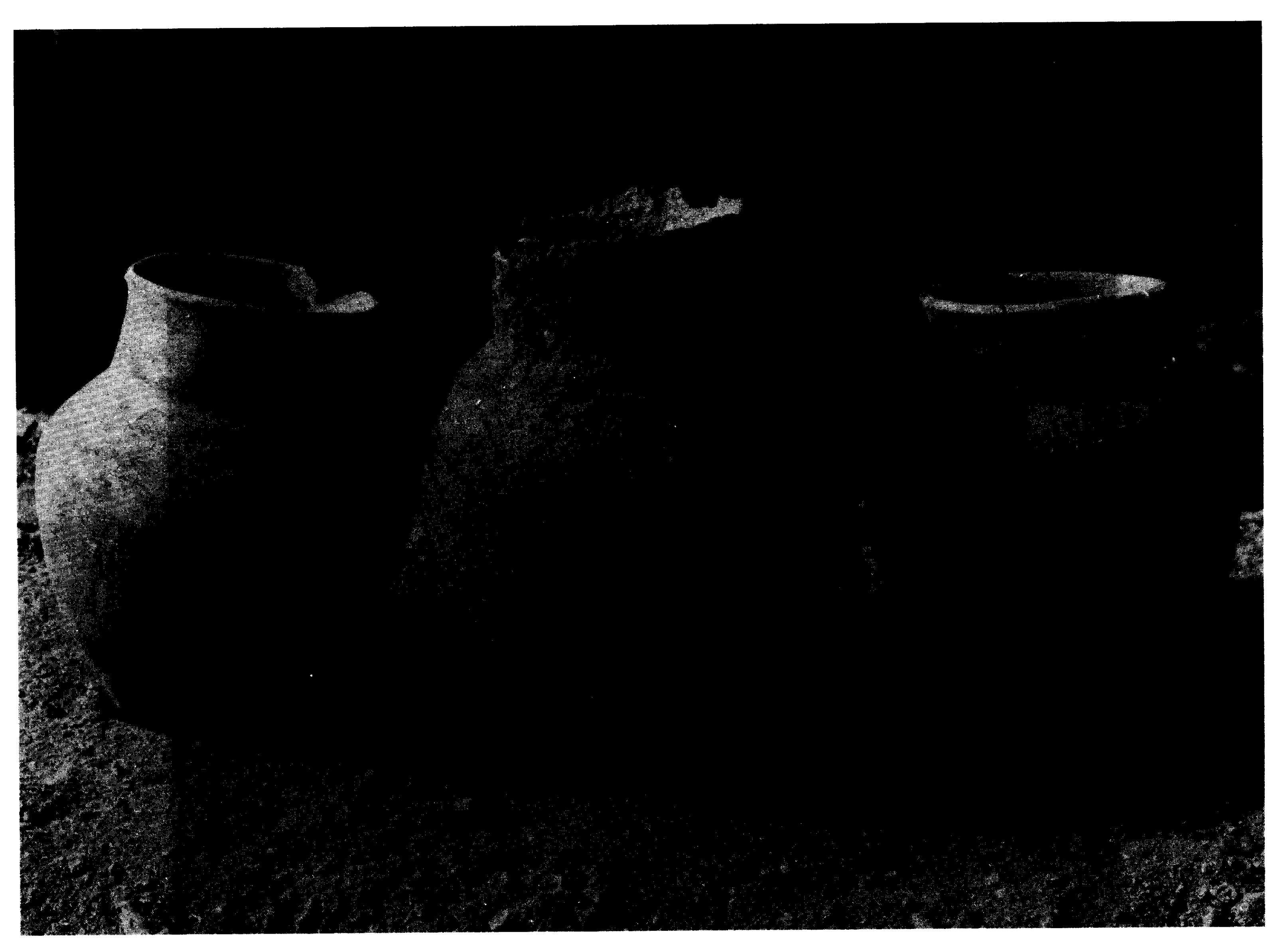
اللوحة ١٨ : مربع تجريبي ظهرت فيه المدافن المترابطة (النوع الخامس).



اللوحة ١٩ : حقل صغير لمدافن الأطفال (النوع الخامس).

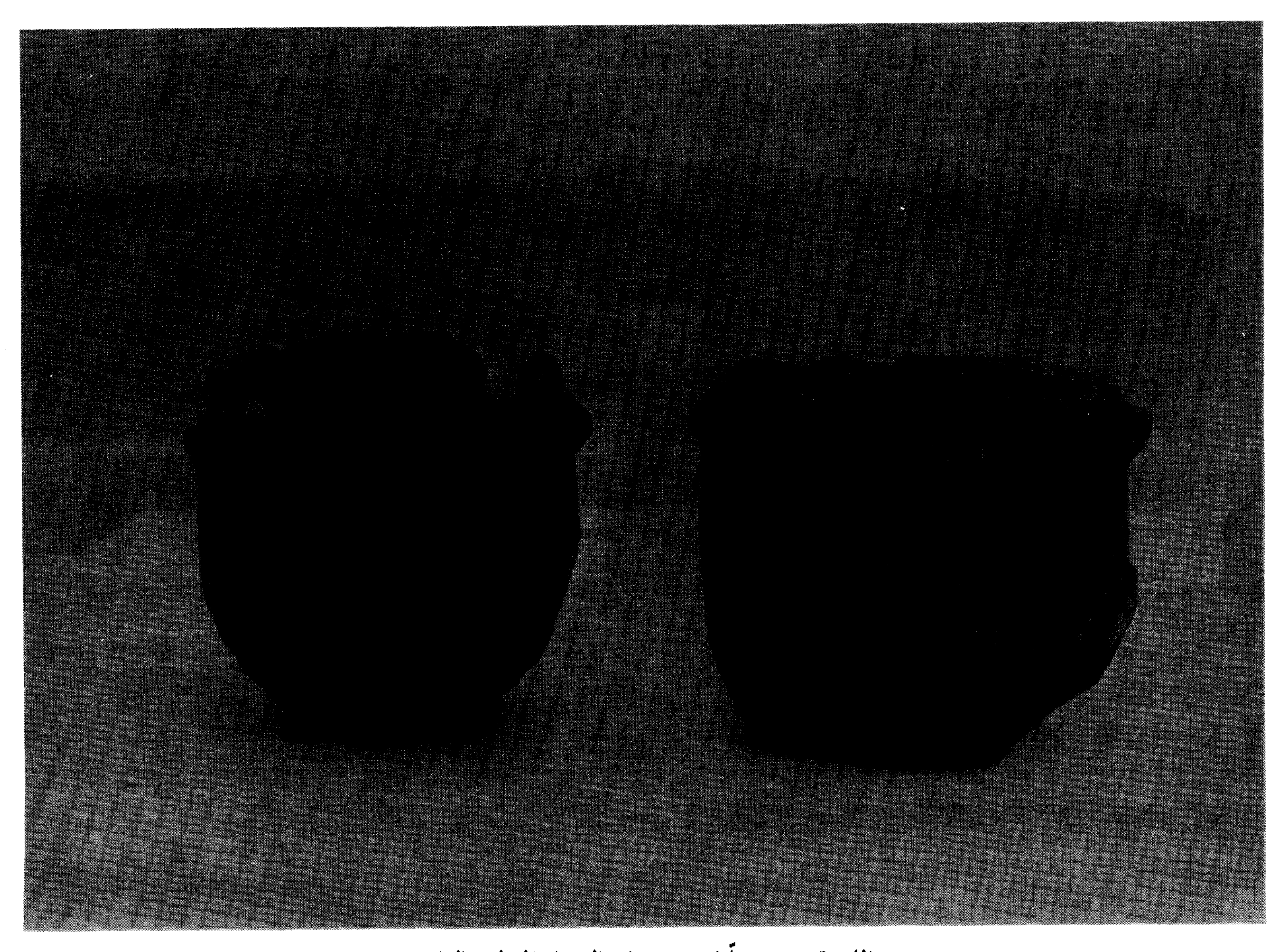


اللوحة ٢٠ : مجموعة من المربعات التي تم الكشف فيها عن امتداد واسع للمدافن المترابطة (النوع الخامس).

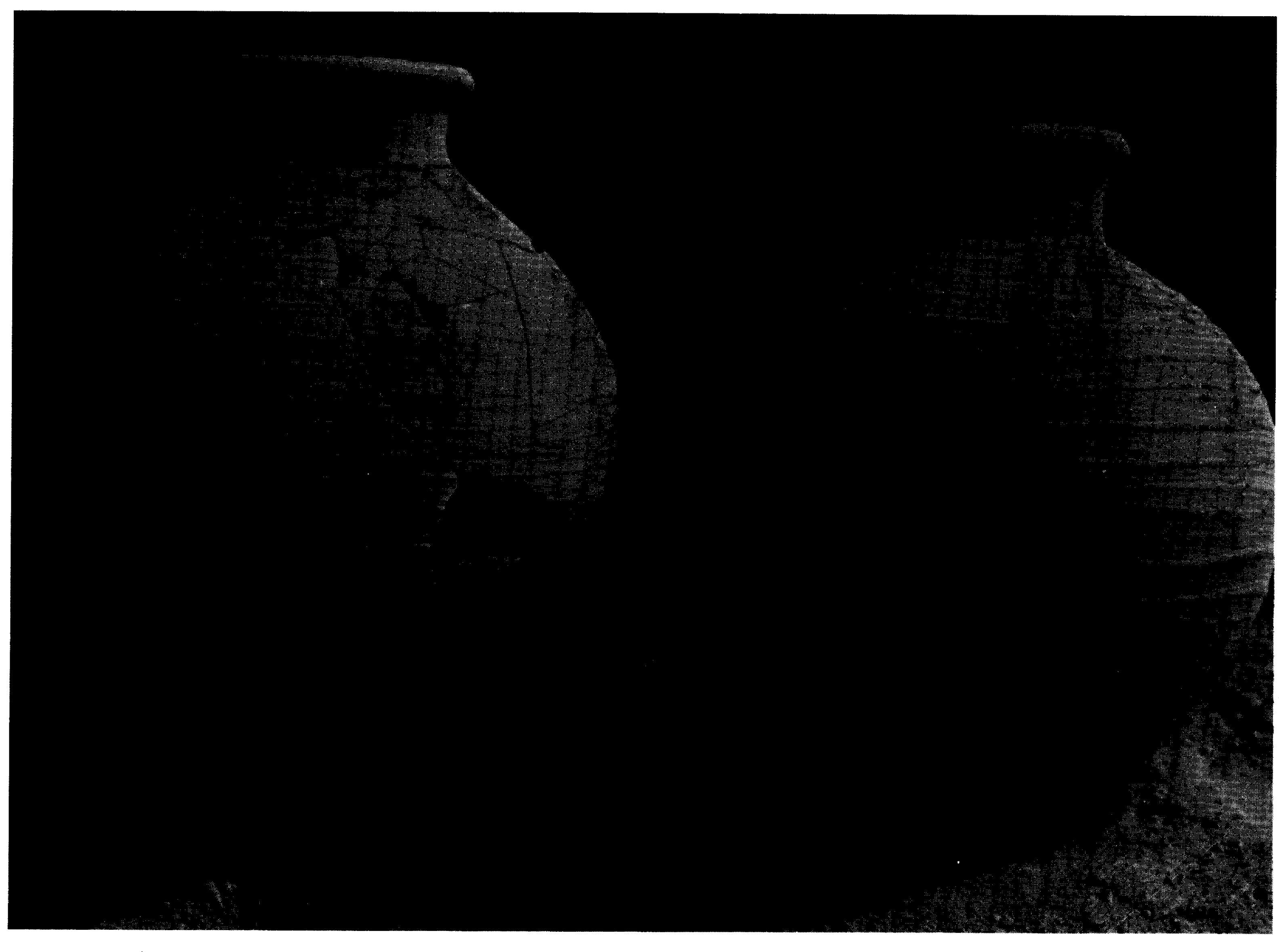


اللوحة ٢١ : جرار كمثرية الشكل.

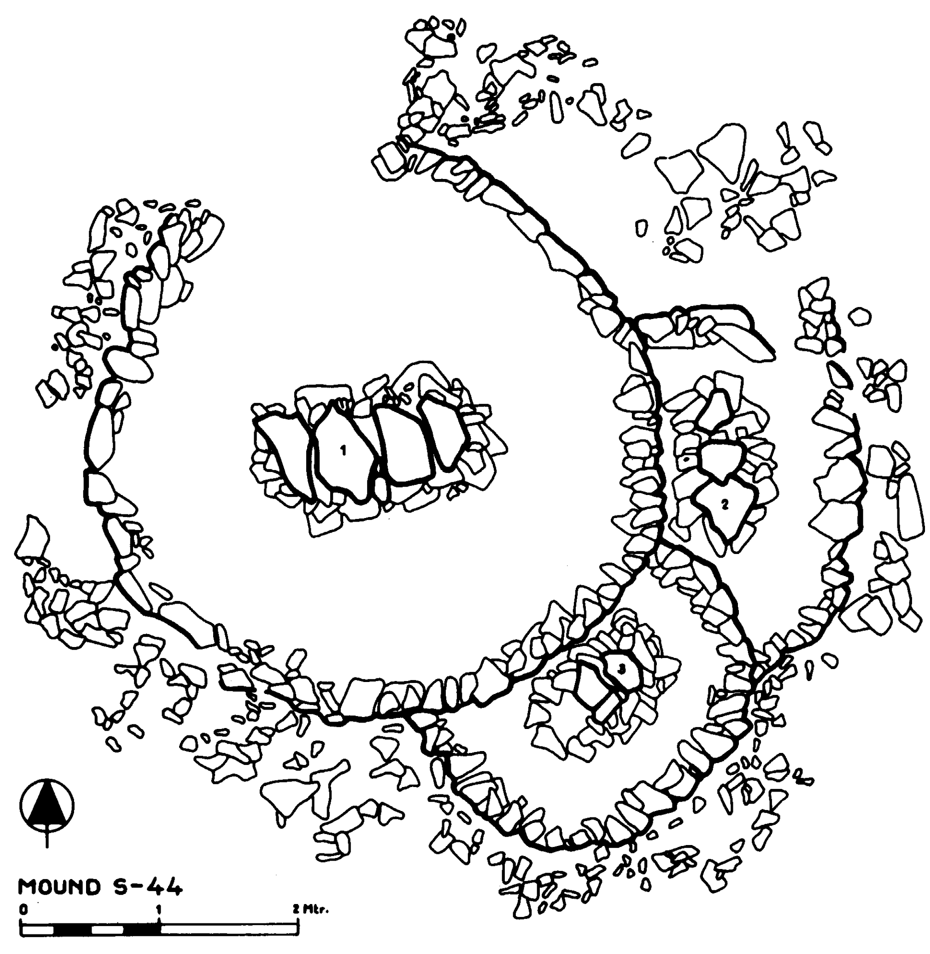
اللوحة ٢٢ : جرار أسطوانية شائعة الاستعمال.



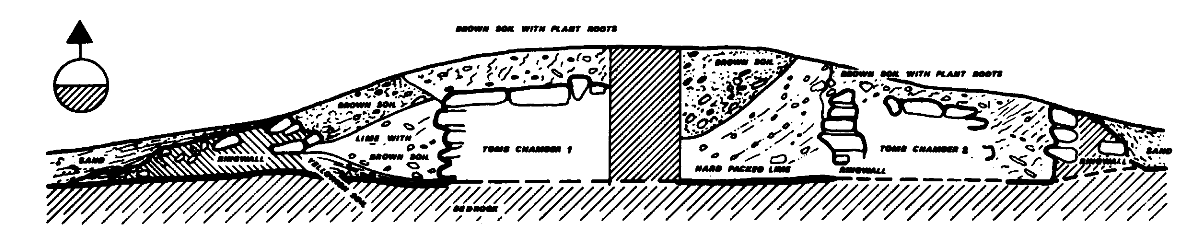
اللوحة ٢٣ : سلّتان من سعف النخيل المغطى بالقار.



اللوحة ٢٤ : جرتان كبيرتان مزينتان بأشرطة طينية ملصقة .

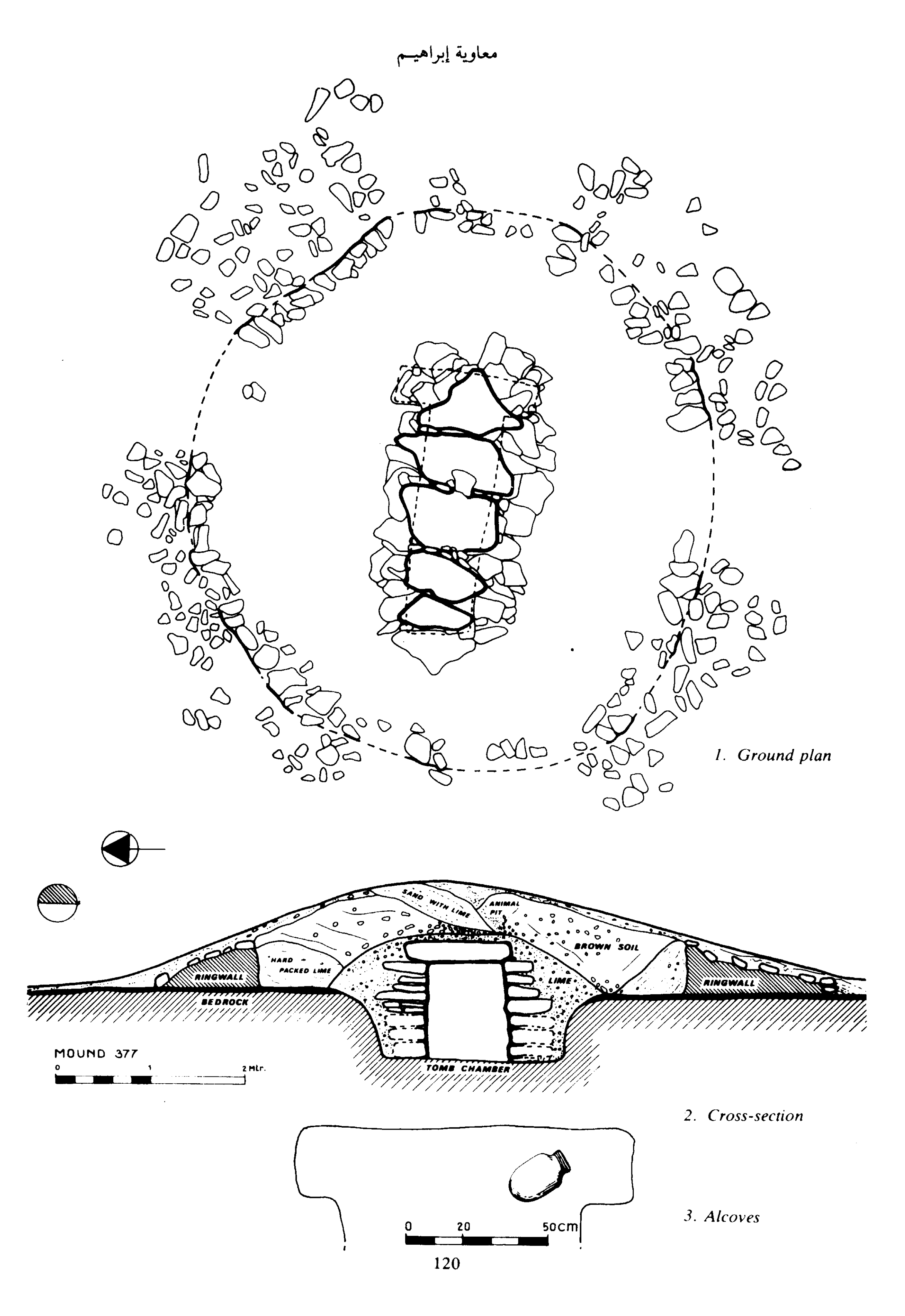


1. *Ground plan*

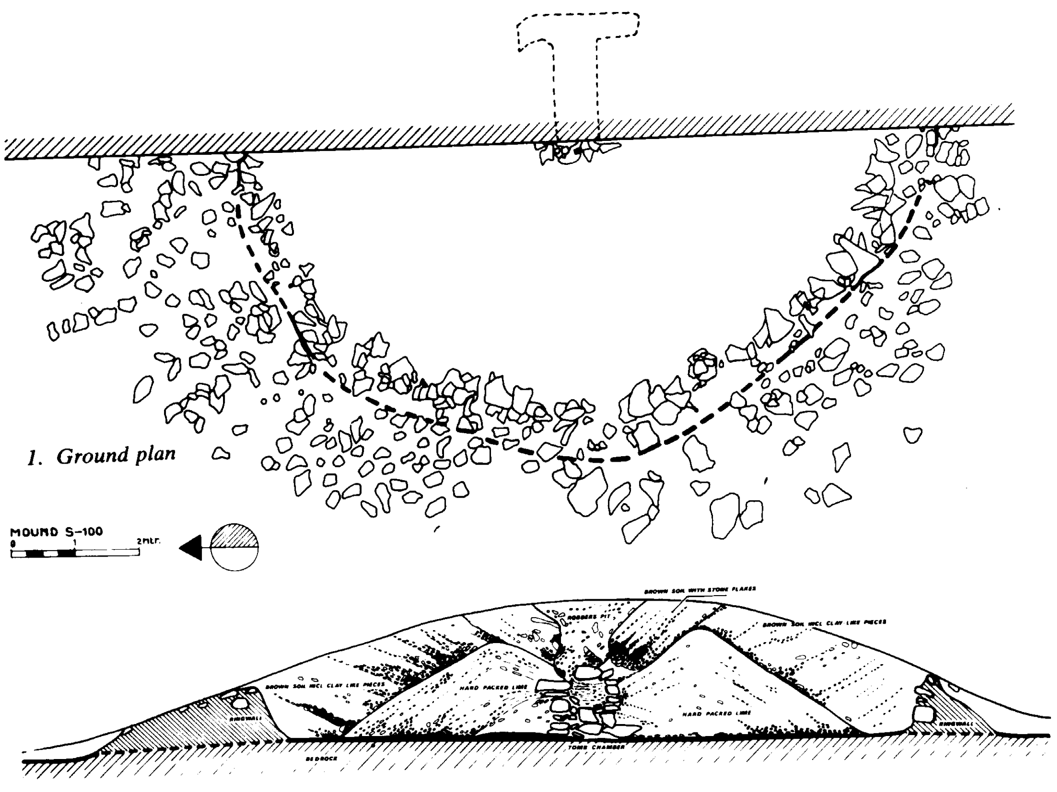


2. *Cross-section*

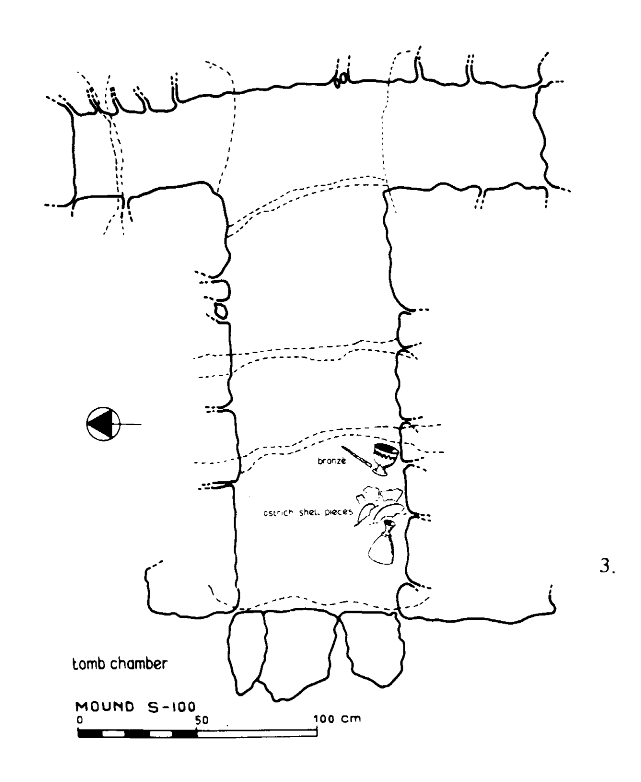
الشكل ٥ : تل بمدفن واحد فوق سطح الأرض.



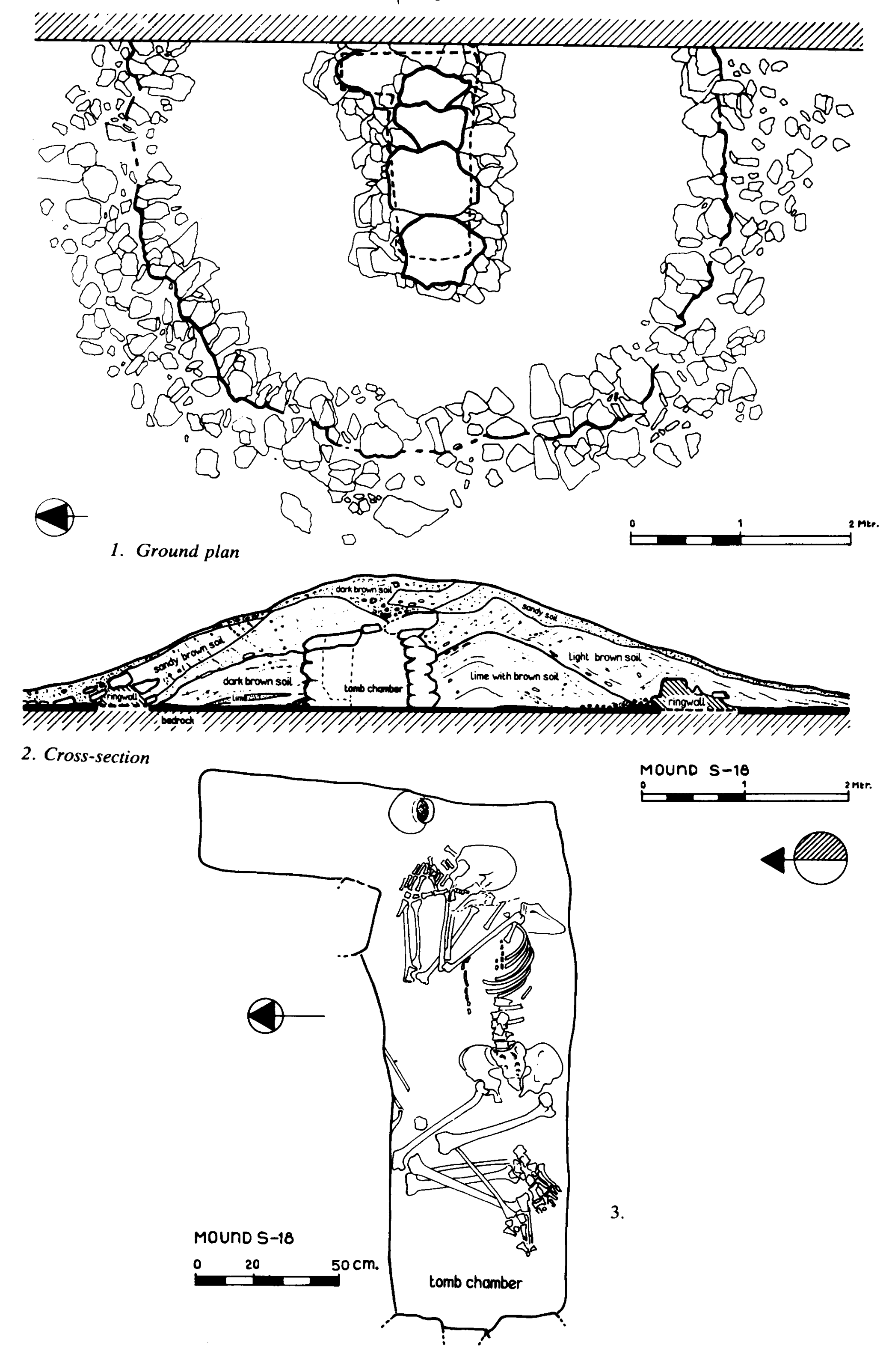
الشكل ٦ : تل بمدفن واحد فوق سطح الأرض.



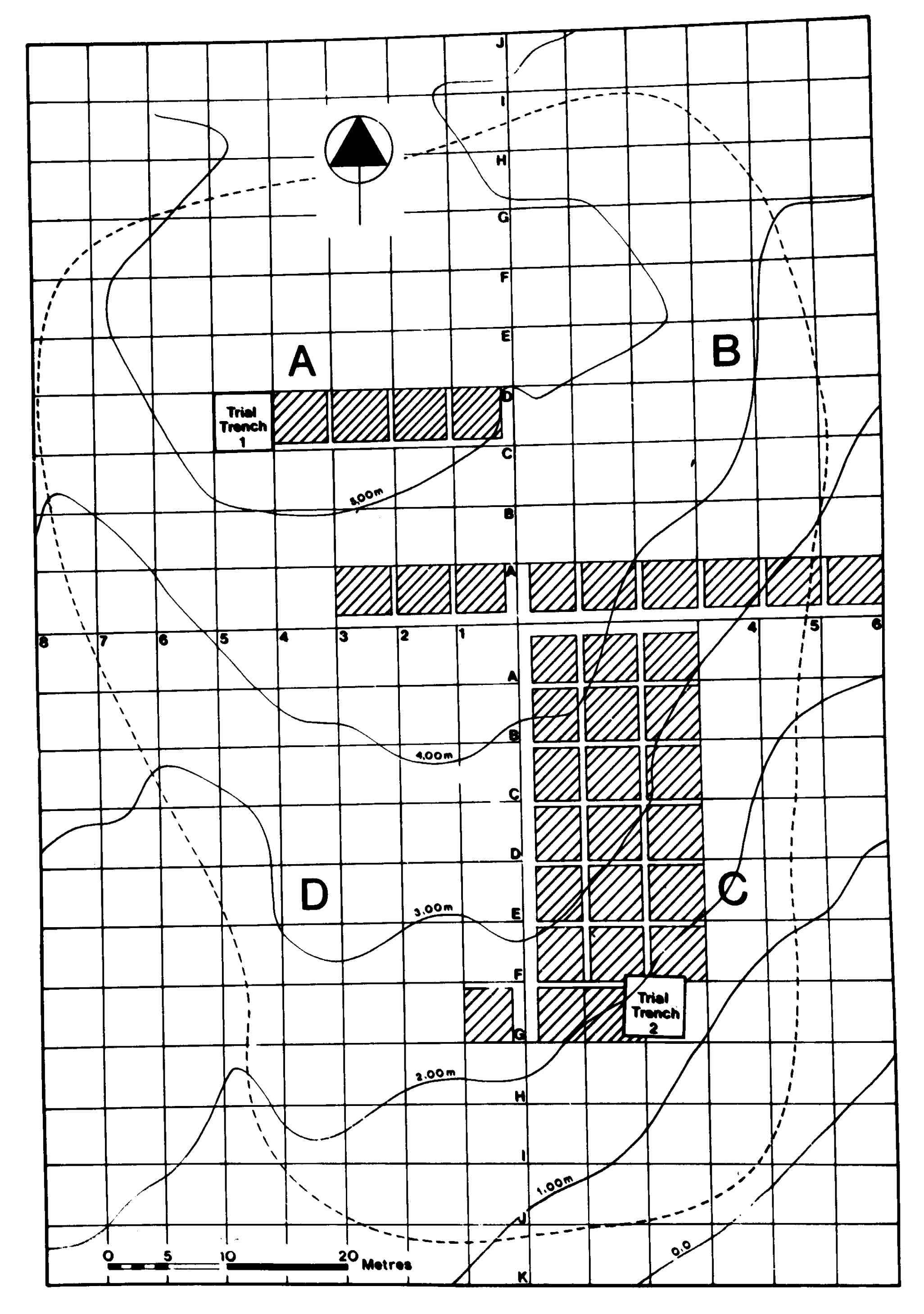
2. Cross-section



الشكل ٧ : تل بمدفن واحد مقطوع في البحر.



الشكل ٨ : تل بمدفن يتصل بمدافن جانبية.



BURIAL COMPLEX

Ground plan showing squares excavated until March 1979

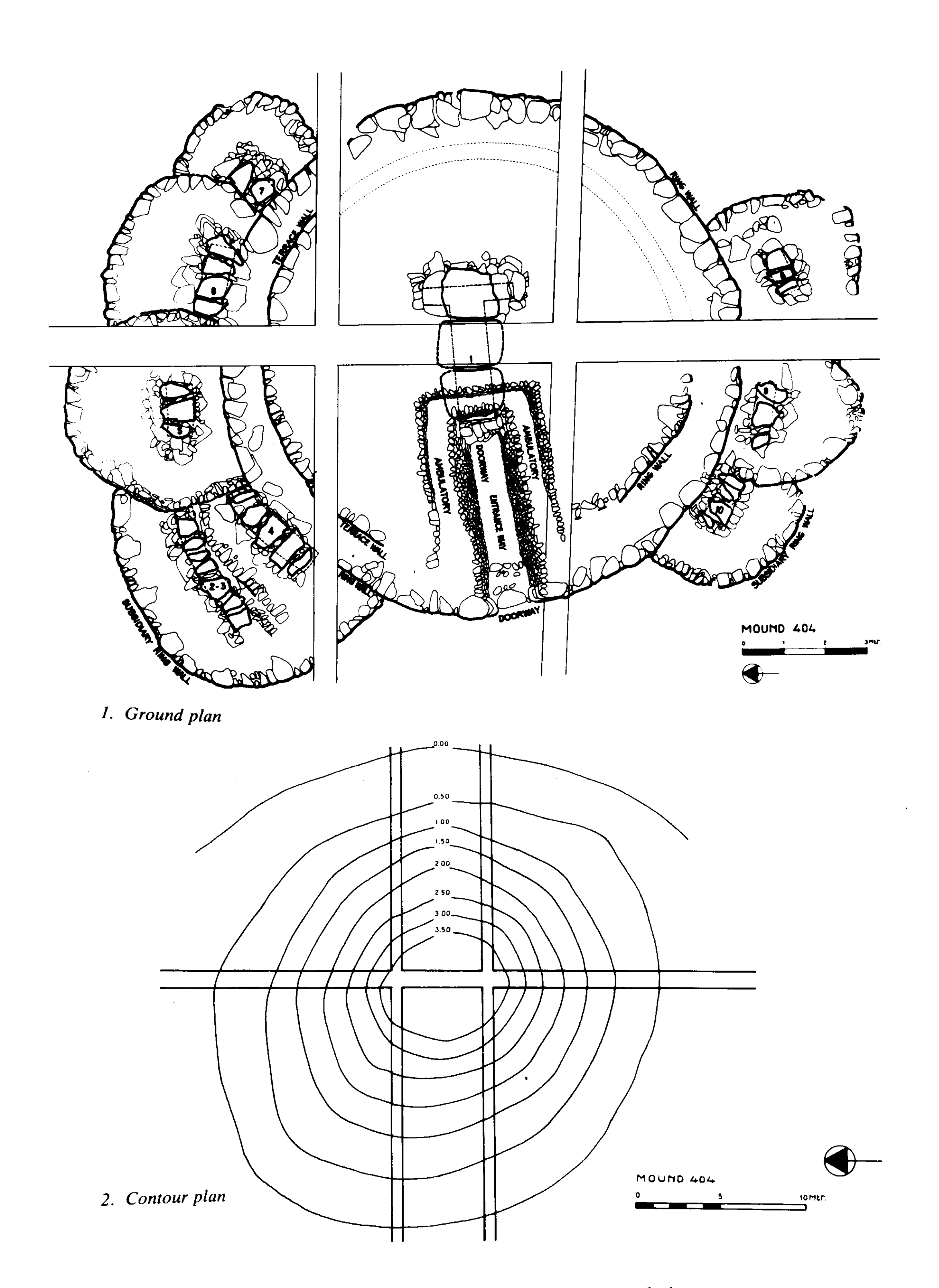
الشكل ٩ : تل بمدفن يتصل بمدافن جانبية .

MOUND 404

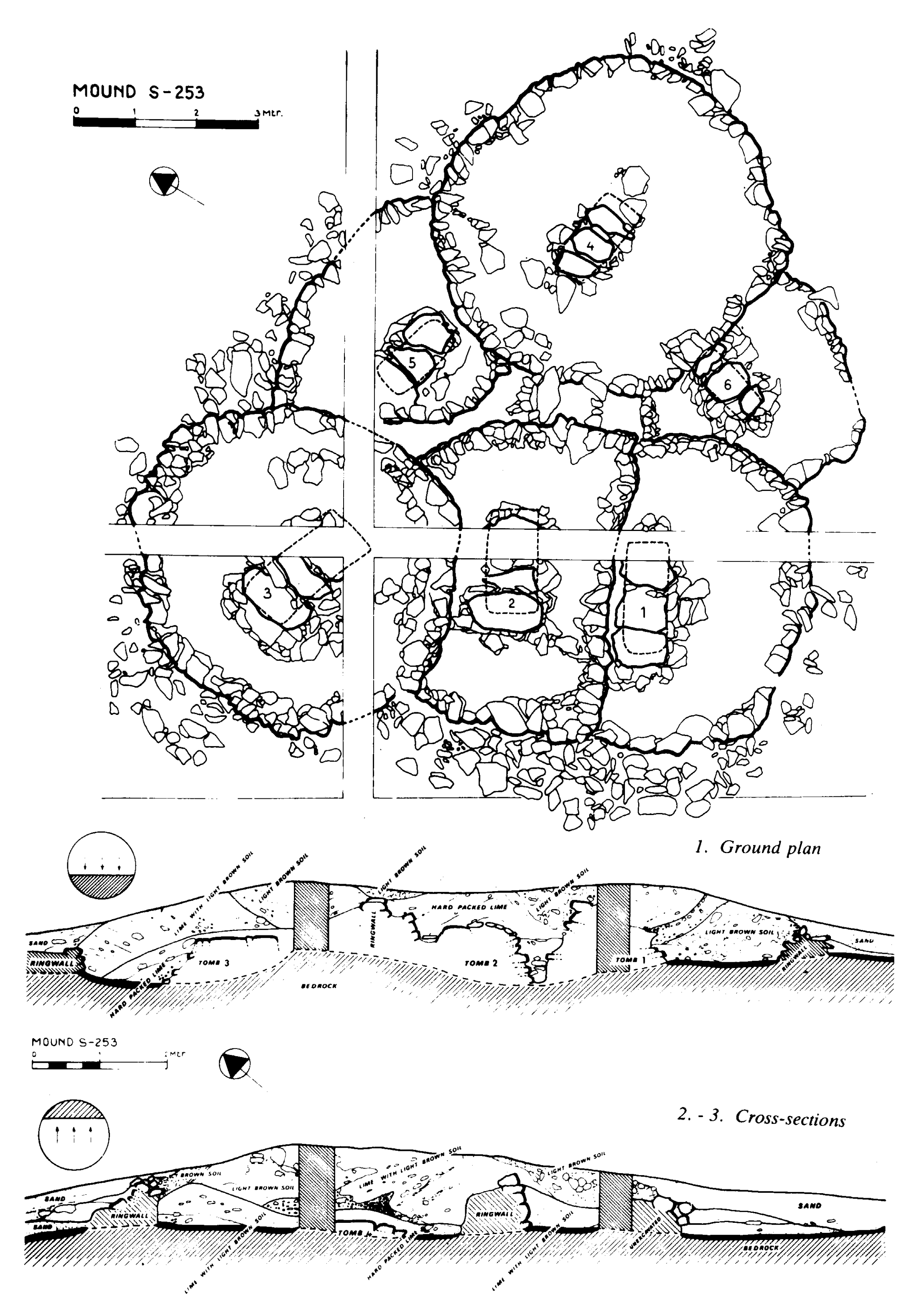
1. Three dimensional drawing of 404 looking east
Drawn by Hubert de Haas

2. Cross-section

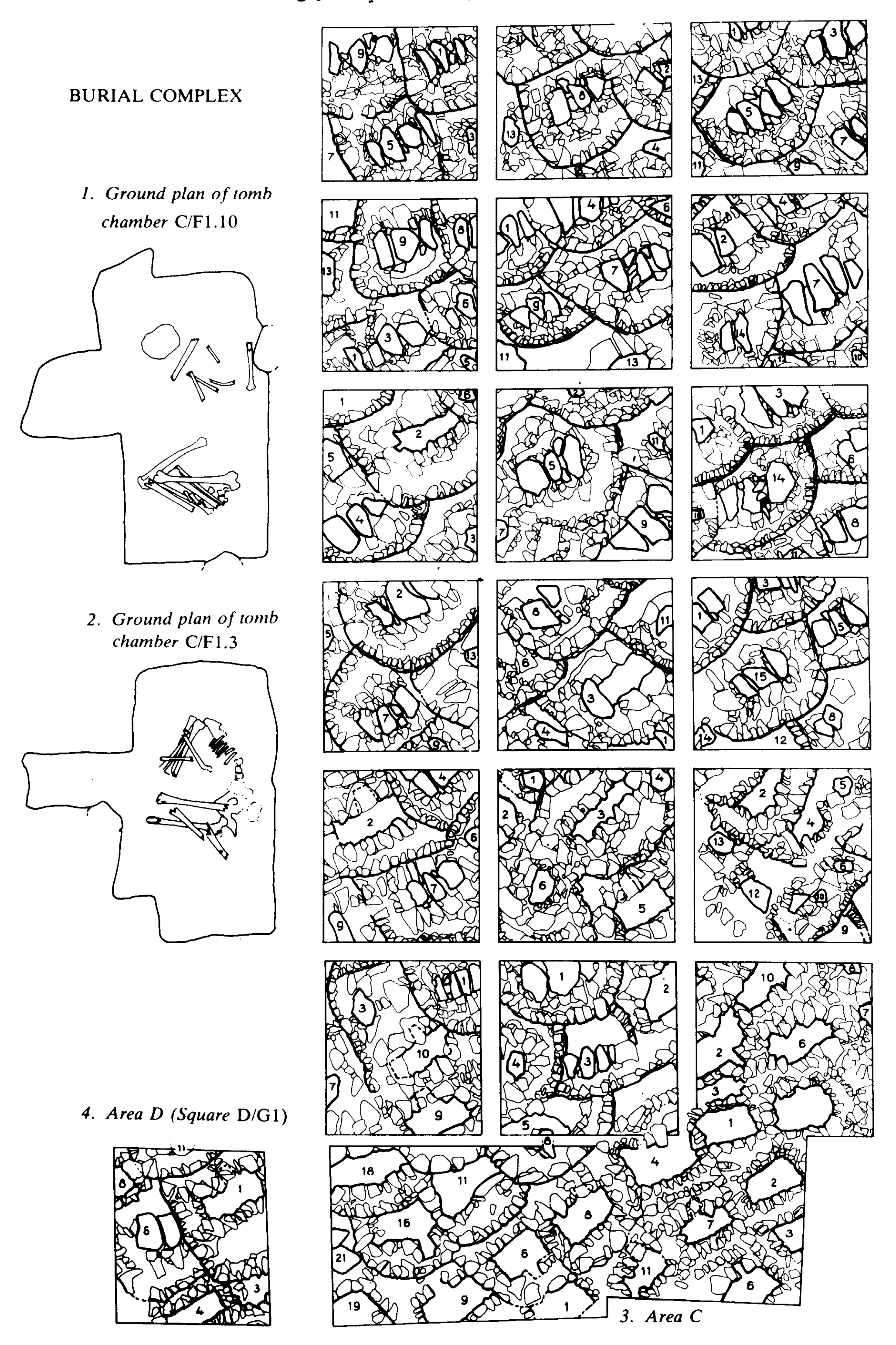
الشكل ١٠ : تل بمدفن رئيسي يتصل بباحة .



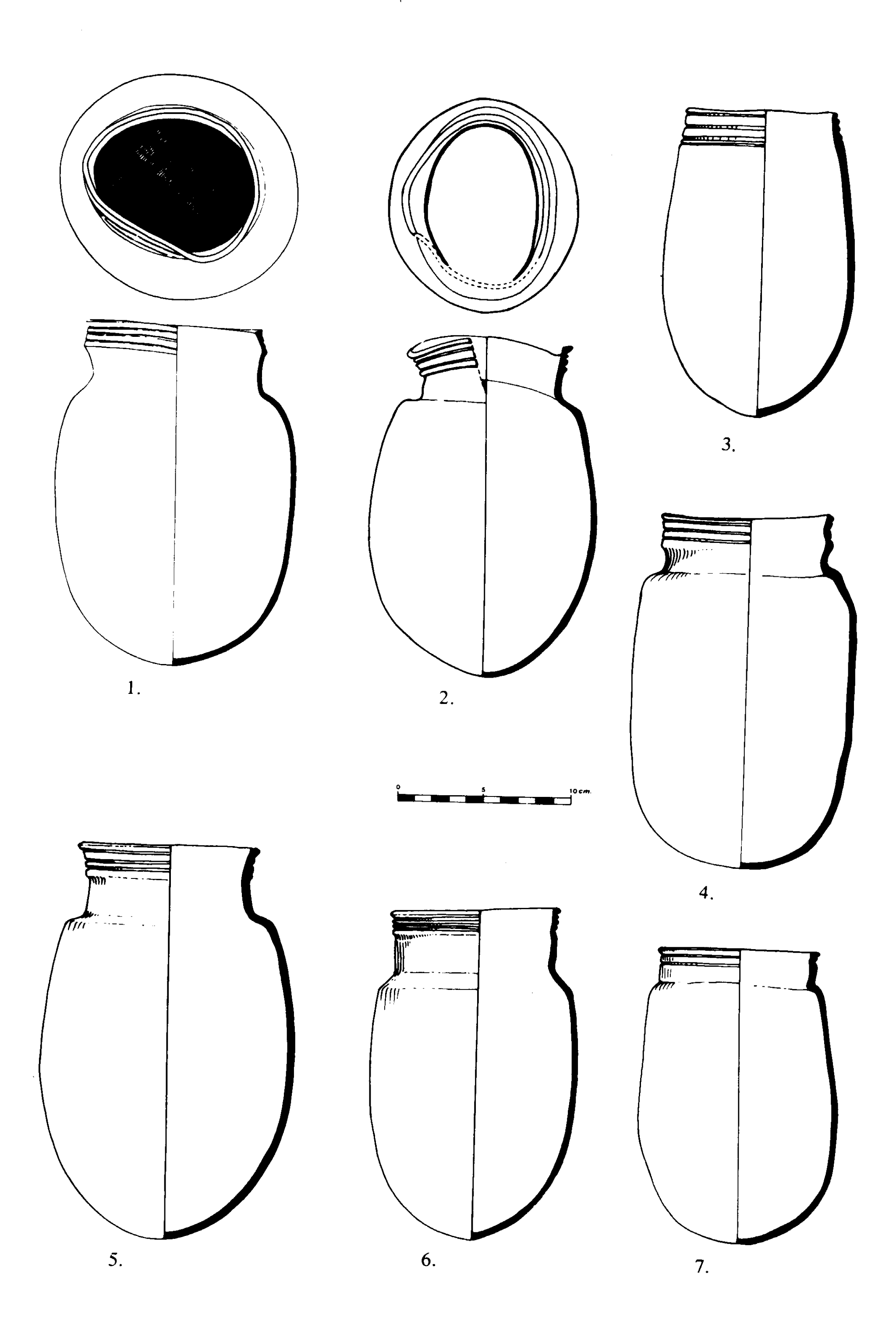
الشكل ١١ : مقطع وواجهة منظورية للتل 404.



الشكل ١٢ : مخطط شبكي وكونتوري لموقع المدافن المترابطة.

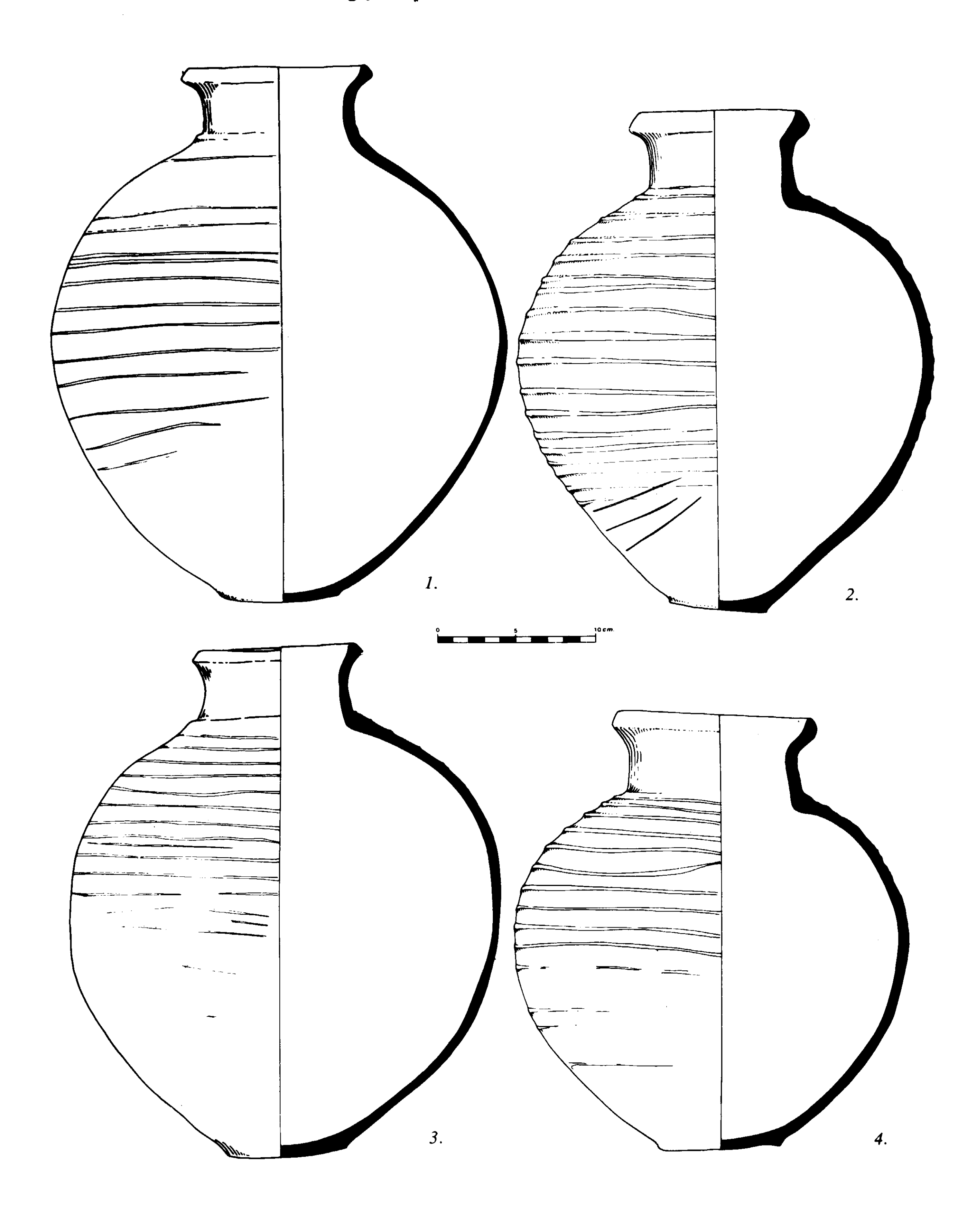


الشكل ١٣ : المدافن المترابطة التي تم الكشف عنها في منطقة C .



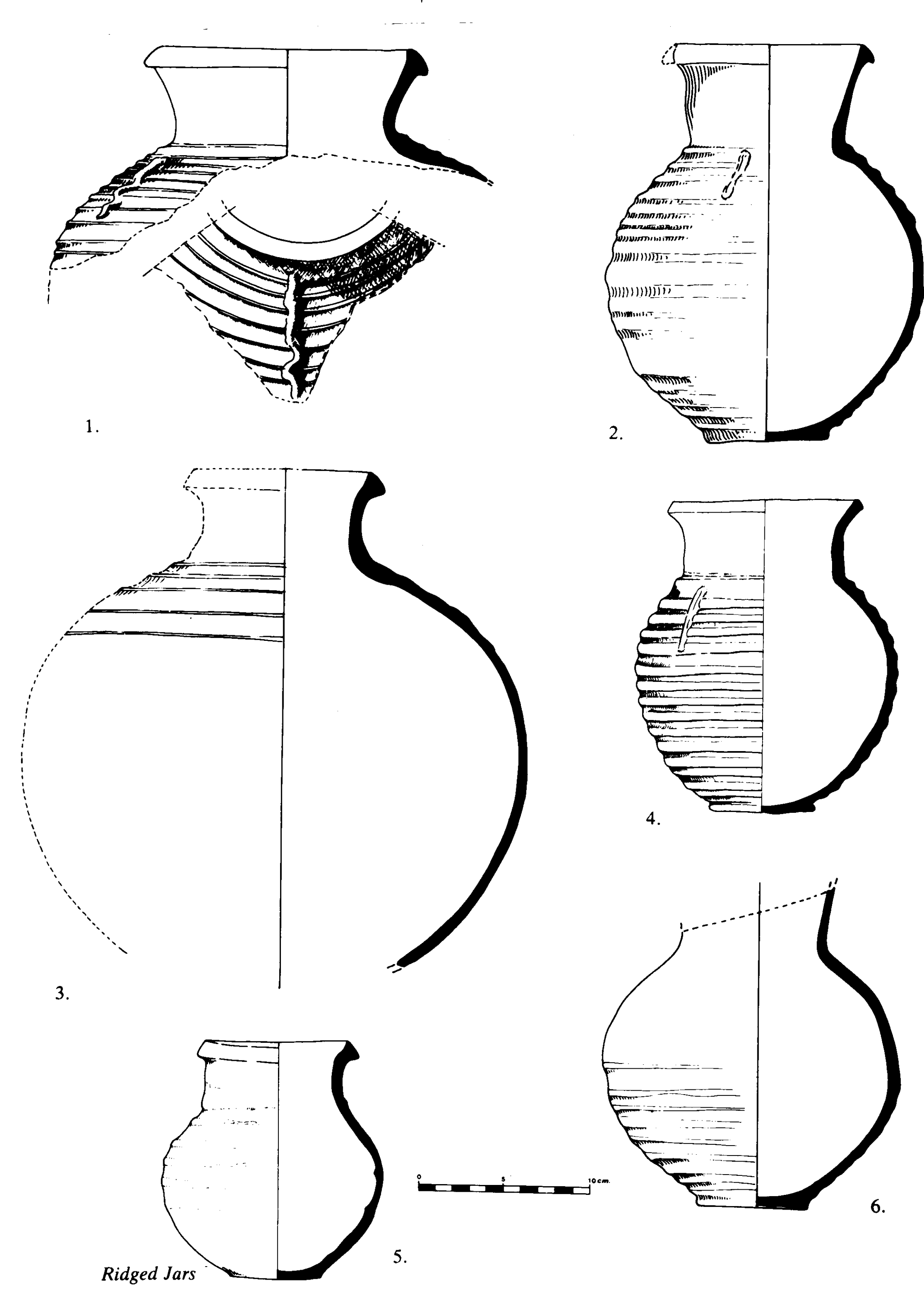
Cylindrical Jars

الشكل ١٤ : جرار أسطوانية .

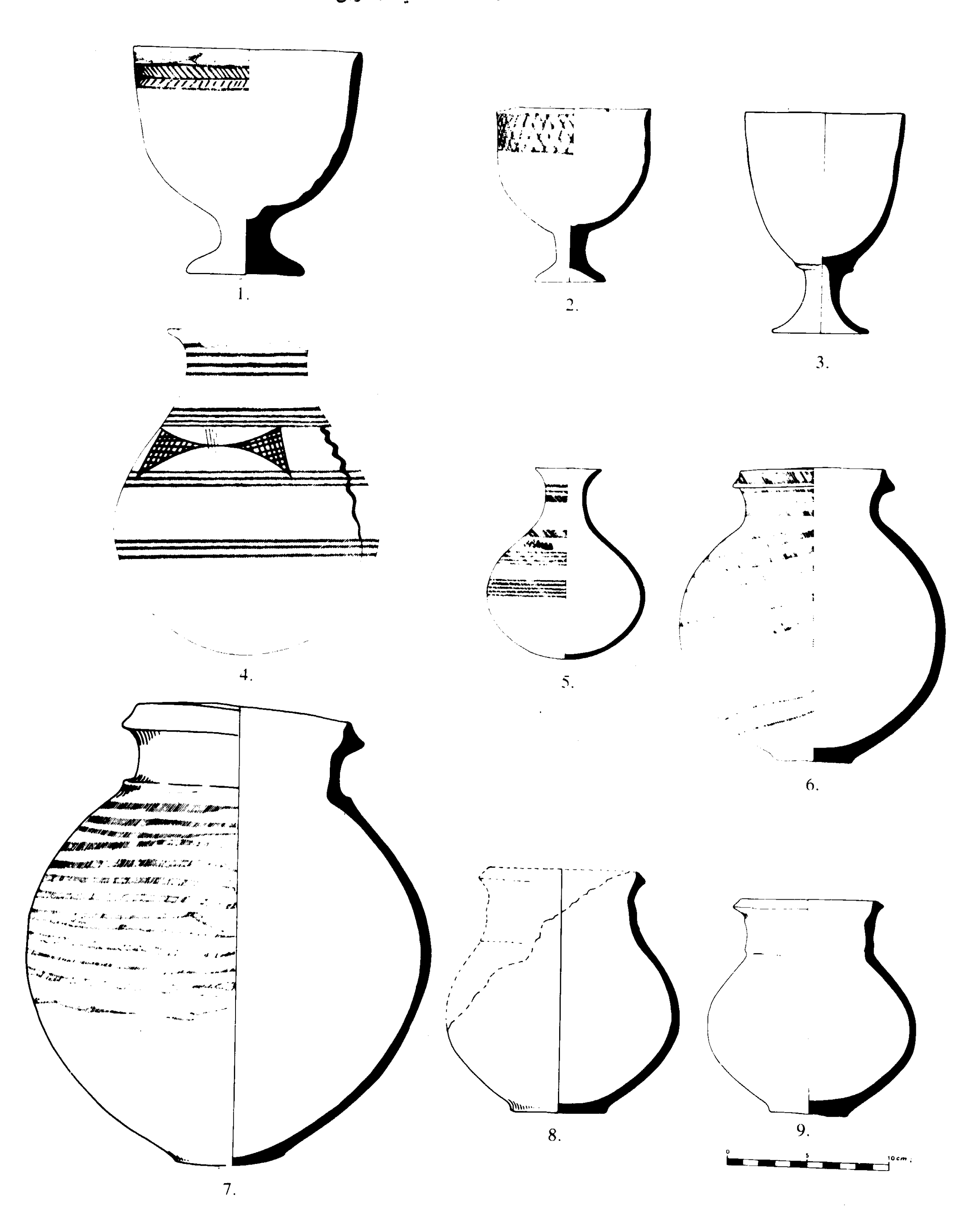


Ridged Jars

الشكل ١٥ : جرار بأشرطة ملصقة على سطحها الخارجي .



الشكل ١٦ : جرار بأشرطة ملصقة على سطحها الخارجي .



·Goblets and Painted Pottery

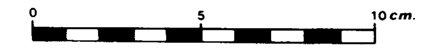
الشكل ١٧ : أواني ملونة.

1. 2.

3. 4.

5. 6. 7.

Steatite Vessels and Piece of Unworked Steatite (No. 7)



الشكل ١٨ : أواني من الحجر الصابوني .

1.

2.

3.

4.

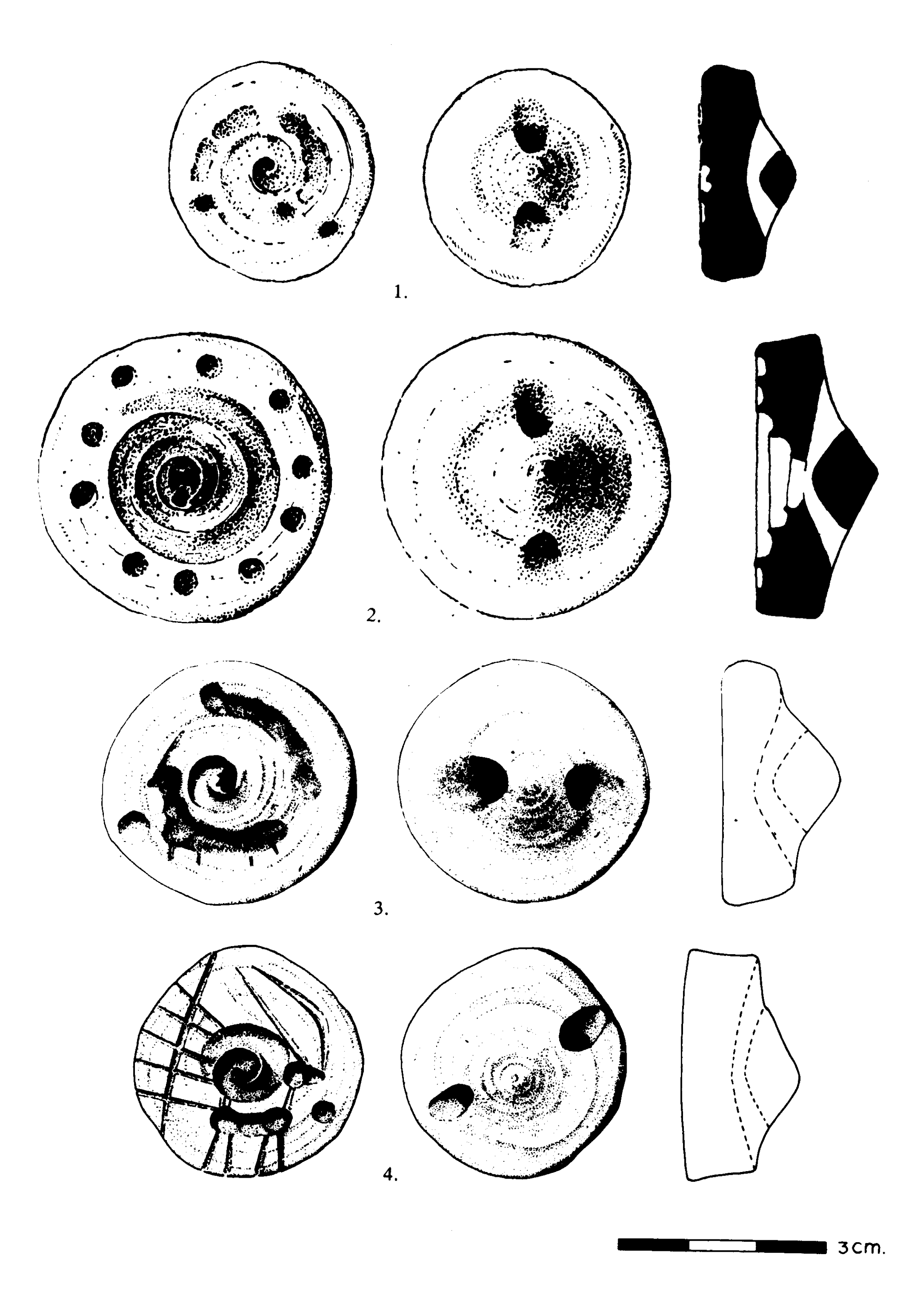
5.

6.

0 5 10 cm.

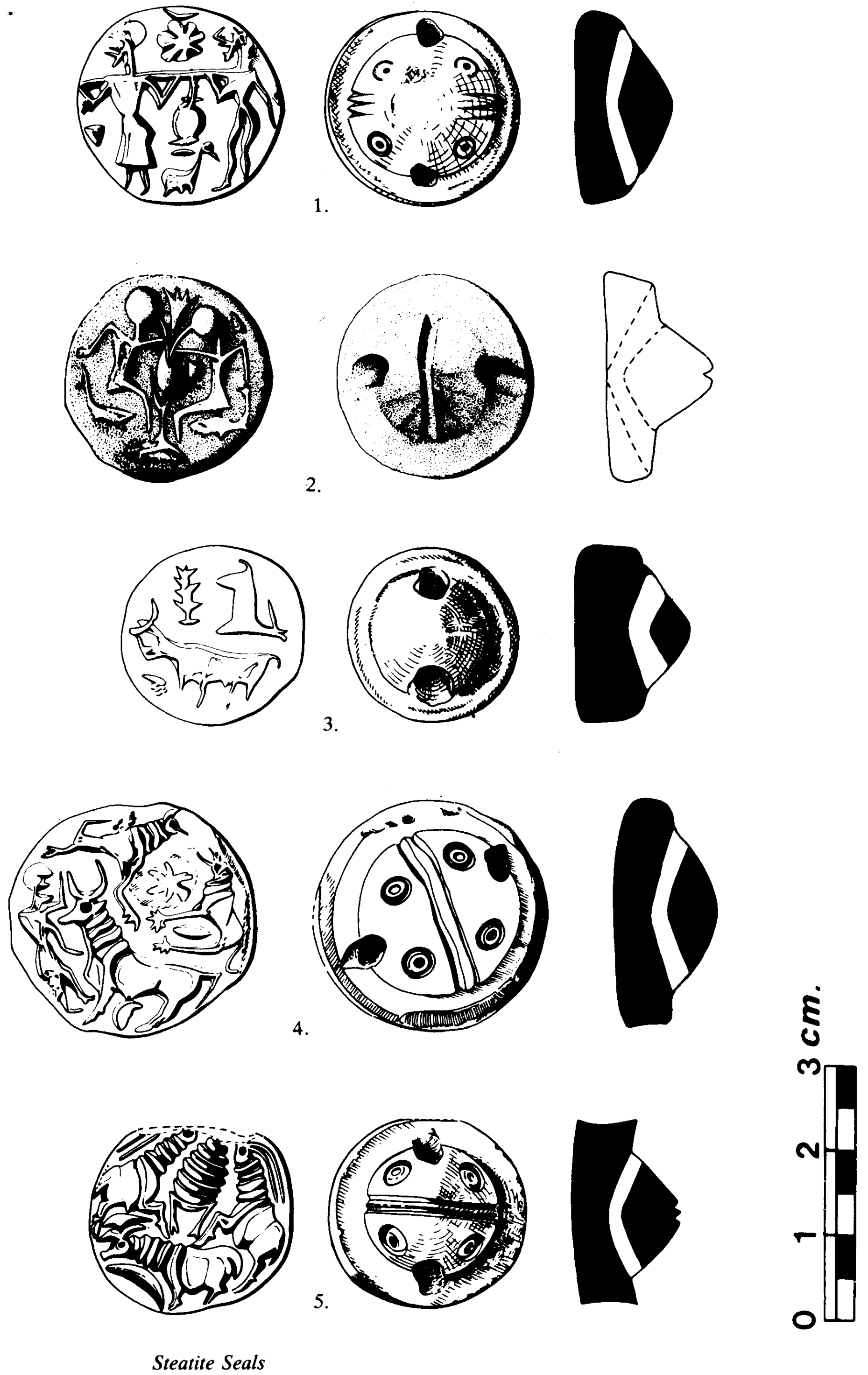
Bronze Weapons

الشكل ١٩ : رؤوس سهام وحراب وخناجر من البرونز.



Shell Seals with additional engraving on flat face (Nos 2 - 4)

الشكل ٢٠ : أختام صدفية.



Steatite Seals

الشكل ٢١ : أختام من الحجر الصابوني.

حول أرض مَدْيَنَ من حيث تحديد موقعها ودورها التاريخى المبكر

رشيد سالم الناضورى

تتميز أرض مَدْيَنَ بموقعها الجغرافى فى شمال غربى شبه الجزيرة العربية فى مكان استراتيجى فريد، يقع على مشارف التقاء الهلال الخصيب بشبه جزيرة سيناء ووادى النيل الأدنى من ناحية، وشبه الجزيرة العربية فى جزئها الشمالى الغربى من ناحية أخرى.

وقد كان لهذا الموقع المهم آثاره التاريخية، فى المجالات الاقتصادية والبشرية والسياسية والحضارية فى تاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم منذ عصور ما قبل التاريخ، وأثناء العصر التاريخى وينبغى الإشارة فى هذا الصدد إلى أنّ موقع أرض مَدْين لا يقتصر على النطاق البرى فقط، ذلك لأن أرض مَدْين تطل على خليج العقبة والجزء الشمالى الشرقى من البحر الأحمر، ولذلك كان لهذه المنطقة نشاطها التاريخى فى النطاق البحرى أيضاً.

ويلاحظ أن تعبير مِدْيَنْ (Midyan) أومَدين (Madyan) ينطبق على مدينة مدين وعلى أرض مدين أيضا، كما يقال مثلاً تعبير الشام وتعنى سوريا كما تعنى دمشق أيضاً. وقد تعددت الآراء بالنسبة لأصل هذه التسمية ويتجه الرأى الكلاسيكى إلى أن هذا الاسم يعود الى اسم **مديان** أو**مدان**، أحد أبناء ابراهيم عليه السلام. ولكن اتجه البعض إلى القول بأن هذا الاسم يرجع إلى أصول مصرية هيروغليفية، فهومشتق من اسم أحد المواقع المصرية فى صعيد مصر فى نواحى إقليم طيبة، وهوموقع «كوم مضو»، وهوموقع المدامود. وربما كان أيضا مشتقاً من اسم قبائل المجاي، والتى أشارت إليها النصوص المصرية. وهم حرس الصحراء الذين كانوا يعملون فى سيناء والنوبة، وربما كان لهذه العناصر صلة بقبائل المعازة الساميّة العربية. والواقع أن هذه الآراء ليست نهائية بأى حال من الأحوال، لأنها فى حاجة ماسة إلى تكامل لغوى وأثرى. هذا وقد اختلف العلماء بطريقة ملحوظة كما يتضح من كتاباتهم بالنسبة للتحديد الدقيق لموقع أرض مدين وكذلك بالنسبة لتعيين عاصمة هذا الاقليم. فهناك المدرسة التاريخية المعتمدة على العهد القديم وهناك المدرسة الكلاسيكية، وهناك المدرسة الجغرافية والتاريخية العربية، ثم أخيرا هناك المدرسة الأثرية.

أما بالنسبة لأنصار المدرسة المعتمدة على العهد القديم والتلمود، فقد اتجهوا الى توسيع دائرة أرض مدين إذ أشارت بعض نصوص العهد القديم إلى أنها تمتد حتى حدود غزة. وأشار بعضها الى امتدادها حتى مَوْأب، واتجه البعض الآخر الى امتدادها حتى أدُوم واتجه رأى رابع الى مدها حتى آمور فى سوريا. أما من حيث امتدادها تجاه الغرب، فقد ذهبت المدرسة العبرية الى اعتبار أرض مدين ممتدةً داخل شبه جزيرة سيناء بل حتى أرض فاران شمال التيه.

وقد اعتمدت المدرسة الغربية فى خرائطها على المدرسة العبرية، ولذلك يلاحظ فيها أنها أدخلت شرقى سيناء فى نطاق أرض مدين. وبينما تتجه المدرسة الكلاسيكية إلى إطلاق اسم الاقليم النبطى على أرض مدين فإن المدرسة الغربية قد اكّدت تسميتها بأرض مدين.

وقـد تميـزت القبـائـل المَدْينية بأنها كانت قبائل نشطة فى المجال الاقتصادي التجاري والتعديني ، ولذلك امتد نشـاطهـا الاقتصـادي بل والحضـاري فى محيط تلك المنطقة الممتدة شمالاً حتى موقع مدينة العقبة وجنوباً حتى موقع المُـوَيْلِح . أمـا حدودهـا الغربية فكانت حدودها البحرية في الساحل الشرقي لخليج العقبة ، ذلك بالنسبة للمَدْينيين المستقرين فى المحطات التعدينية والتجارية ، أما بالنسبة للمَدْينيين البدو فقد كان انتشارهم فى وادي عربة شمالاً وفي شرقي سيناء وجنوباً في شمال وشمال شرقي الحجاز . وكان لموقع أرض مدين وطبيعة بيئتها أثر كبير في تشكيل تاريخها ، فهي تقـع على طريق القـوافـل التجـارية البر ية الوافدة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة اليمن ، والمتجهة نحـو الشـمال ، نحـو فلسطـين والشـام ، كما أنها تقع في طريق الهجرات الساميّة الشمالية الغربية الكنعانية والأمورية والعـربيـة الشـماليـة ، والمتجهة إلى فلسطين وإلى شبه جزيرة سيناء ووادي النيل الأدنى ، كما تطل مدين أيضا على الطريق البحري الموصل بين مواقع البحر الأحمر ابتداء من عصيون جابر حتى الجنوب .

وكان سليمان عليه السلام قد أظهر اهتماماً خاصاً بهذا الطريق البحري ، ولذلك كله فمدين تمثل محطة تجارية برية وبحرية مهمة فى هذا الطريق التجاري الرئيسي . ولذلك توفرت فيها وسائل تزويد التجار بالجمال والماشية وكافة لوازمهم في رحـلاتهم التجـاريـة الطويلة . ومن الأهمية الإشارة أيضاً إلى أن أرض مدين قد توفرت بها بعض المعادن كالـذهب والفضـة والنحـاس والرصاص والقصدير والزنك والهيماتيت بالاضافة إلى وجود الفير وز والكبر يت وغيره من المواد . وقد أدى ذلك إلى نشوء نشاط اقتصادي معدني يتضمن تصنيع هذه المواد ، وبخاصة النحاس ، وتشكيله في صور سبـائـك تصلح لصنـاعـة السلاسل والأساور وغيرها من الأدوات المعدنية . وقد أشارت النصوص إلى هذا الانتـاج المعـدني عنـد المـدينيـين ، وكـذلـك أشارت نصوص القرآن الكريم الى نشاط المدينيين التجاري وكيف أن شعيب عليه السلام (Jethro) * كان يحثهم على اتباع أمر الله سبحانه وتعالى بضرورة توخي العدالة في كافة أعمالهم التجارية .

وقد كان لهذه السمة الاقتصادية النشيطة فى حياة المدينيين نتائجها الحضارية المباشرة وغير المباشرة فى منطقة الشـرق الأدنى القـديم . فقـد كان لتلك المعـامـلات التجـارية المستمرة بين الشمال والجنوب فى غربي شبه الجزيرة العربية عبر أرض مدين من ناحية وبين إقليم مدين وشبه جزيرة سيناء ووادي النيل الأدنى من ناحية أخرى ، وبين إقليم مدين وفلسطـين من ناحيـة ثالثـة نتـائجهـا الحضـاريـة في مجال الكتـابـة المـدينية . فقد اتجه الرأى المبني على الـدراسـات المقارنة الى إعتبارها بمثابة حلقة الوصل بين الكتابة البـروتوسينائية والكتابة الثمودية . ويتضح ذلك فى وجود وجه شبه فى طريقة التعبير بالرموز بين هذه الكتابات .

*** المحرر:**

هو «يثرى» فى رواية ابن جرير عن ابن عباس ، وأنه صاحب مدين ، والواضح من قول المؤلف أنه يقبل هذا الاسم اسـماً لسيـدنـا شعيب عليـه السـلام . ولكن أكثـر المفسـرين لا يصفـون صهر سيدنا موسى بأنه سيدنا شعيب ، عليهـما السـلام . ويـرى المحـرر فارقـاً فى الـزمن بين هذين النبيّين . ولينظر فى **مختصر تفسير ابن كثير** (اختصـار وتحقيق محمـد على الصابونى . الطبعة السابعة ، بيروت : ١٤٠٢هـ/١٩٨١م) ، جـ٣ ، ص١٠ ، للمزيد عن هذا الاسم .

ومن النتائج الحضارية الهامة أيضا الاتجاه الى اعتبار أرض مدين وموقع وادي شرمة (الخارطة المرفقة) بالذات بمثابة حلقة الوصل الاقتصادي والحضاري بين السومريين والمصريين فى عصور ما قبل الأسرات. فقد قامت هيئة الآثار السعودية أخيراً بمسح أثري لهذه المنطقة، وكشفت عن وادي شرمة. واتجه الرأي إلى هذه النظرية الجديدة القائلة بإمكانية استخدام الطريق البري بين بلاد الرافدين ووادي النيل الأدنى عن طريق وادي شرمة، وأن الصلات الحضارية والاقتصادية بين المصريين والسومريين قد تمت عن هذا الطريق بدلاً من الطريق البحري عبر الخليج والبحر العربي وباب المندب والبحر الأحمر حتى وادي الحمّامات. والواقع ان تحقيق مكانة أرض مدين كمحطة تجارية وحضارية في منطقة شمال غرب شبه الجزيرة العربية، كمكان لقاء للهجرات البشرية والقوافل التجارية وما يتصل بها من صلات حضارية، ليساعد فى تدعيم هذه النظرية. وكان الرأي التقليدي يقوم على أساس وجود رسوم لبعض السفن السومرية فى بعض الآثار المصرية كيد سكين جبل العركي وغيرها، مما يدعم إمكانية استخدام الطريق البحري. وأعتقد أن ذلك يصبح ممكناً بعد الوصول إلى وادي شرمة، ومنه يمكن استخدام الطريق البحري حتى موقع القُصير على الشاطيء المقابل لبحر الأحمر.

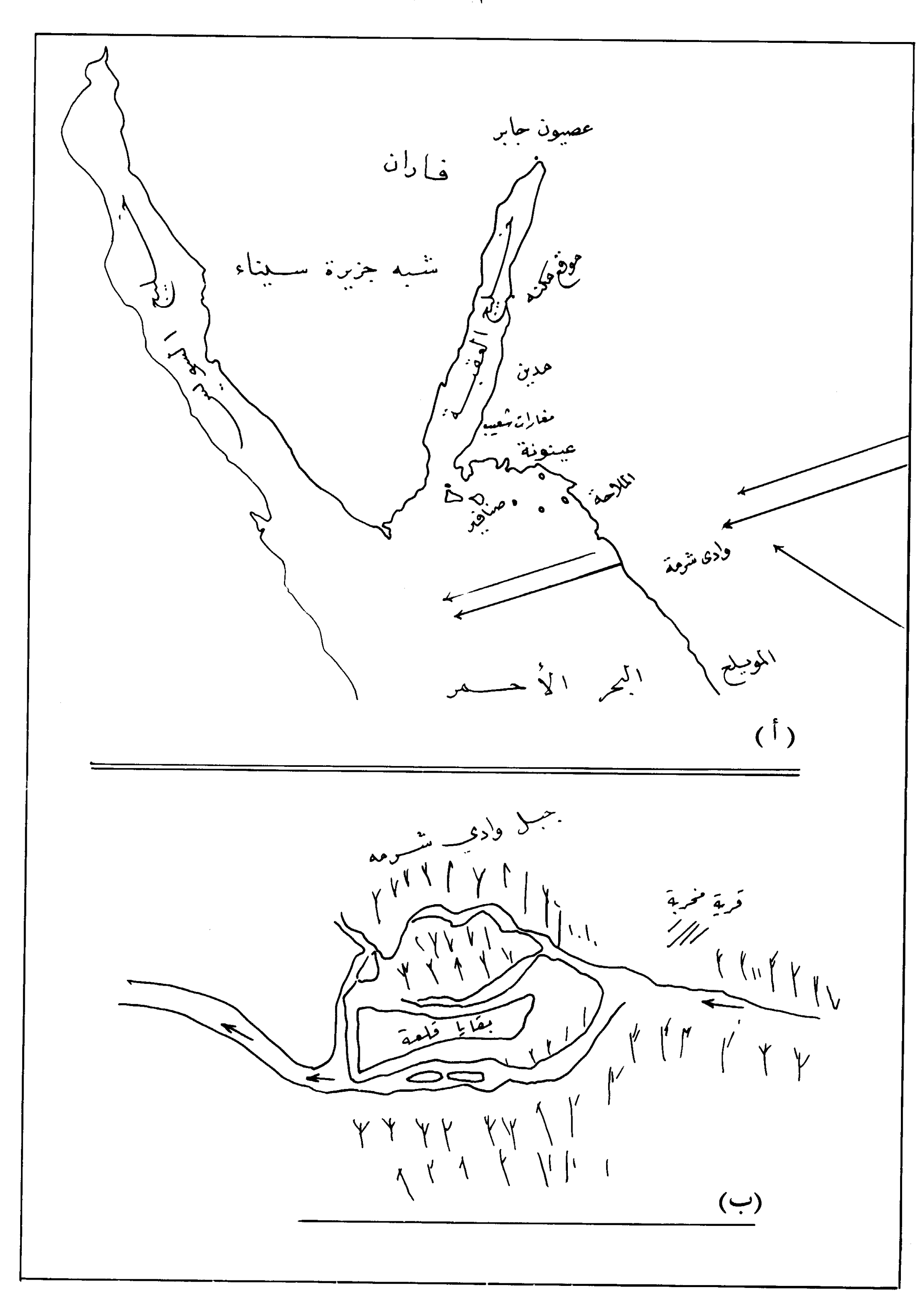
ويلمس المؤرخ أيضاً أن أرض مدين كانت مكاناً لنشاط عدد من الأنبياء والرسل الكرام مثل ابراهيم واسماعيل وشعيب وموسى عليهم السلام. وقد أشارت نصوص العهد القديم وآيات القرآن الكريم الى هذه الحقيقة التاريخية.

أما بالنسبة للمدرسة الأثرية ونشاطها التنقيبى في أرض مدين فلا يزال علماء الآثاريتطلعون بشغف الى متابعة البحث الأثري فى هذه المنطقة، متابعين فى ذلك ما سبق أن قام به الرحالة الكلاسيكيون والعرب والأوروبيون من رحلات دراسية لهذه المنطقة. ومن البعثات الأثرية التى عملت فى هذه المنطقة بعثة المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية بالقدس، والتي قامت بالحفر فى موقع عصيون جابر قرب قمة خليج العقبة، حيث تمكنت هذه البعثة من اكتشاف عدد من مناجم النحاس، وكذلك مواقع صهره وتصنيعه فى وادى عربة. وقد اتجهت هذه البعثة إلى تأريخ آثار هذا الموقع عن طريق الدراسات المقارنة للشقف والأواني الفخارية التى تميزت بفخارها الخاص، مما يدعم القول بأن هذه المنطقة تمثل وحدة حضارية مستقلة بذاتها تؤرخ بحوالي نهاية الألف الثالث ق.م. وكذلك قام الأثري اللألماني ف. فرانك (F. Frank)، بالحفر في تل الخليفة على بعد حوالي نصف كيلومتر من ساحل البحر الأحمر. وقد اعتبر فرانك هذا الموقع الأثري هو موقع عصيون جابر.

ومن المواقع التى تسترعي الانتباه موقع مدين العاصمة. ويغلب أن شعيب (Jethro)، عليه السلام يقيم به. وقد اتجه الرأي الى أن موقع ماكنه Makné هوموقع مدين. ولكن من ناحية أخرى اتجهت الأنظار الى موقع مغاير شعيب والتى لا تزال تحمل اسم شعيب عليه السلام. وقد ذكر الرحالة فيلبي (Philby) أنه عثر في هذا الموقع على مجموعة من المقابر النبطية مختلفة الأحجام والمنحوتة فى الصخر، وتبلغ حوالي ثمانين مقبرة نبطية. وهي تالية بطبيعة الحال لعصر شعيب عليه السلام بحوالى ١٥٠٠ سنة. ولا شك أن ذلك يتطلب التنقيب عن الآثار السابقة على العصر النبطى.

ومن المواقع البحرية موقع المويلح وجزيرة صنافير حيث يوجد نص مصري قديم يغلب على الظن انتماؤه إلى عصر الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة المصرية القديمة .

والواقع أن المؤرخ يجد نفسه أمام ضرورة أثرية ملحة وهي حتمية القيام بالبحث الأثري فى مواقع مثل مغاير شعيب عليه السلام وواحة البدع وواحة ماليحة وعينونة ومغاير الكفار وواحة شرمة . وجميعها مواقع أثرية فى أرض مدين حتى يمكن حسم هذا الموضوع والقاء الضوء على تاريخ هذه المنطقة الهامة فى الشرق الأدنى القديم **(انظر الخارطة ٢)** .



الخارطة رقم ٢ : (أ) شمال غرب الجزيرة العربية وشبه جزيرة سيناء .
(ب) وادي شرمة .

رابعاً: عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية
(حتى القرن الأول قبل الميلاد)

بحث فى الموضوع

عبدالله حسن مصري، ٧٩ ـ ٨٨
ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها.

ما قبل التاريخ فى شرق المملكة العربية السعودية وشمالها

عبدالله حسن مصرى

الأهداف الرئيسية التى يركز عليها هذا البحث تتلخص فى الآتي :

(١) تبيـان العـلاقـة الـوثيقة بين ظواهر الاستيطان البشرى فى المنطقتين الشرقية والشمالية خلال فترة ما قبل التاريخ وبين الأحوال المناخية والبيئية السائدتين آنذاك .

(٢) إلقاء الضوء على كثافة الاستيطان البشرى فى المنطقتين إبان تلك الفترة .

(٣) معـالجـة موضـوع الاتصال بين مستوطنات تلك الفترة مع مستوطنات وشعوب المناطق الواقعة شماليها وشرقيها خارج الجزيرة العربية .

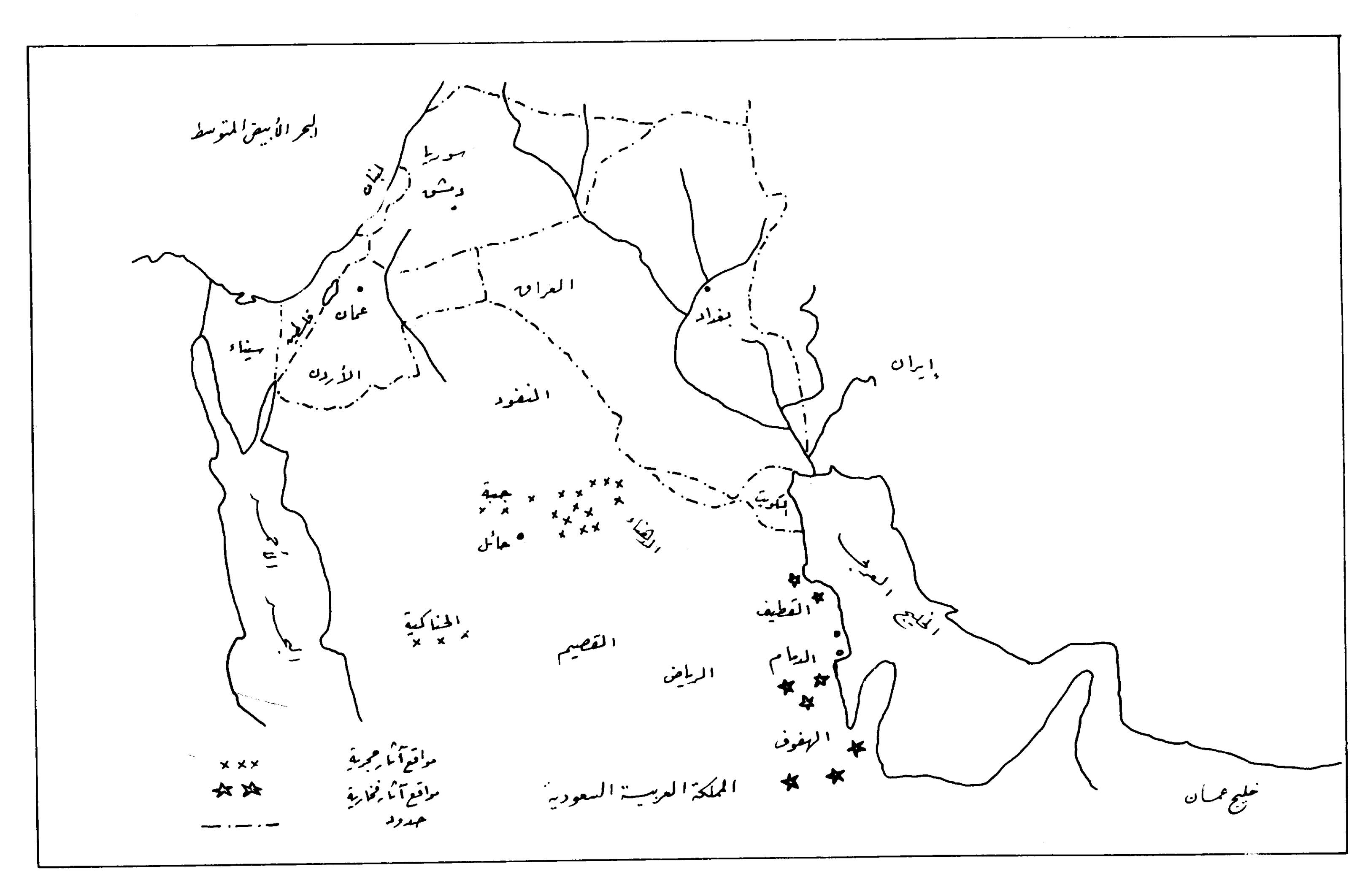
(٤) وأخيراً، استعراض بعض نتائج الأبحاث التحليلية التى تمت مؤخراً والتى حاولت تفسير ظاهرة الاتصال هذه .

وقبـل الخـوض فى المـوضـوع يلزم أن أحـدد ما أعنيه بفترة ما قبل التاريخ فى المنطقتين . فهي تشير الى الفترة اللاحقة لانحسار الجليد وحتي فترة ظهور الحضرية فى الاستيطان ، وهذا يعني بالنسبة للمنطقة الشرقية من حوالى ٨٠٠٠ق. م إلى ٣٠٠٠ق. م وبالنسبة للشمالية من حوالي ٨٠٠٠ق. م إلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد .

وتلزم الاشارة أيضا إلى أن ما سأورده أدناه ينطلق أساسا من واقع البحث الميدانى الذى توليته عن موضوع ما قبل التاريخ فى المنطقة الشرقية من جهة ، ثم على نتائج أبحاث المسح الأثرى الشامل للمنطقة الشمالية من جهة أخرى .

ودخولاً فى جوهر الموضوع أبدأ بالآتي :

أولاً : لقـد مضت فترة طويلة على اكتشـاف آثـار جمة تعـود الى عصـر ما قبـل التـاريخ فى المنطقتين الشرقية والشـمـاليـة ، ولا أعني آثـار فترة العُبيـد بالشـرقيـة فحسب ، ولكنى أخص بالـذكـر أيضـا عشرات بل ومئات المواقع الاستيطـانيـة التى عثـر عليهـا ونشـرت أخبـارهـا منـذ أكثـر من خمسـين سنـة (انظـر الخارطة ٣) . وكانت كافة آثار المستـوطنـات هذه من آثـار العصر الحجرى ، أى أنها غير فخارية أوما قبل الفخارية . وعبر الزمن الذى انطوى منذ اكتشاف هذه الآثار لم يبر ز اهتمام واضح من الأوساط العلمية للكشف عن فترة ما قبل التاريخ فى الجزيرة العربية أو تحليلهـا . ولكن عنـدمـا اكتشفت آثـار فخـاريـة تعـود لفـترة ما قبل التاريخ فى المنطقة الشرقية ـ وهنا أعنى آثار فترة العُبيد ـ وذلك فى أوائل الستينات من هذا القرن ، وجدنا أن تلك المنطقة وثبت فجأة لتحتل مكانا بارزا بين المواضيع الهامة فى آثار الشرق الأدنى .



الخارطة رقم ٣: مواقع المستوطنات من العصر الحجري في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها.

ولعلنـا لا نجـد حرجـا فى تفسـير ذلـك الاهتـمام السـريـع بالمنطقة إذا ما علمنا أن تلك الآثار الفخارية التى اكتشفت فيها تعود الى فترة من أهم فترات النهوض الحضـارى فى الشرق الأدنى ، إن لم يكن فى الكون عامة ، تلك هي فترة العُبيد التى عرفت أولا فى جنوب الرافدين امتدادا من الألف السادس ق . م وتكونت عنها انطلاقة الحضارة الانسانية الأولى على أرض سومر.

ومنذ البداية ، اختلف العلماء والمختصون حول تفسير ظاهرة وجود آثار فترة العُبيد فى المنطقة الشرقية . فهل كانت نتيجـة لتأثـير من وجـودهـا فى جنـوب الـرافـدين؟ أم أنها كانت امتدادا لفترات محلية سابقة فى عهد العصور الحجرية التى أسلفنا ذكرها؟ وبصرف النظر عن صحة أى من هذين الاتجاهين فانه يتضح لنا أن تفسير موضوع ما قبل التاريخ فى المنطقة الشرقية أضحى رهيناً لتفسيراتنا لتلك الفترة فى جنوب الرافدين . ونتيجة لذلك برز شيء من التغـافـل أو التجـاهـل من جانب المهتمـين من العلماء عن الآثـار السـابقة لظهور الفخار فى المنطقة الشرقية ، اذا ما استثنينا الأبحاث التى تولاها ماكلور (Mclure) [١] وأبحاث البعثة الدانمركية فى قطر[٢] .

وقبـل أن استطـرد الحـديث عن نتـائـج اكتشـاف عصـر الفخـار فى المنطقـة الشرقية أود أن انتقل الى المنطقة الشمالية . فما نعرفه عن فترة ما قبل التاريخ فى هذه المنطقة إبان ظهور عصر الفخار فى المنطقة الشرقية وبعده لا يوضح بأي شكل من الأشكال وجود الفخار سواء الوارد من أرض الرافدين أو من بلاد الشام .

فجميـع مواقـع فترة ما قبـل التـاريـخ فى المنطقـة الشـماليـة والتى اكتشفت ابتـداء من أبحـاث هنـري فيلد (H. Field) فى الثلاثينات من هذا القرن وحتى الأبحاث حديثة العهد لم تسفر عن سوى مواقع من العصر الحجرى .

هذا على الـرغم من أن المنطقـة الشـمالية توفرت لها آنذاك أسباب الاتصال بالمنطقتين الآنفتي الذكر ، طبقا لما كان عليه الحال بين المنطقة الشرقية وجنوب الرافدين . ولكن الحقيقة الماثلة هى أنه ليس هناك ثمة أدلة على ظهور الفخار فى المنطقة الشمالية بتأثير خارجى سواء من جنوب الرافدين أو بلاد الشام خلال فترة ظهور الفخار فى المنطقة الشرقية ، وذلك على الرغم من أن المنطقة كانت فيما يبدو على اتصال ببلاد الشام منذ الألف السادس قبل الميلاد أخذاً بتشابه صناعة الأدوات الحجرية ، وعلماً بأن صناعة الفخار كانت قد ظهرت فى بلاد الشام منذ الألف السابع قبل الميلاد .

وهنا يلح التساؤ ل الآتي : لماذا لم يظهر الفخار بين شعوب المنطقة الشمالية إبَّان فترة ظهوره فى المنطقة الشرقية على الرغم من تشابه الظروف المهيأة لظهوره فى كلتا المنطقتين؟

ولعـل السبب ، وهـو ما أرغب فى عرضـه هنـا ، يكمن فى ظروف بعيـدة عن اتصـال ثقافى أو هجرات متبادلة ـ وإنـما يمكن بالتحـديـد ـ فى أحـوال المنـاخ والبيئـة . ومـا يدعـونى الى الـتركيز على هذا الأمر هو نتائج الأبحاث الحقلية . ففى المنطقة الشرقية ، وفى أحد مواقع فترة الفخار وهو موقع عين قناص شمال الهفوف ، أثبتت التحليلات أن ذلـك المـوقـع شهـد تعـاقب فترات ما قبل الفخار وما بعده ، أى أنه عاش به أقوام محليون على نمط حياة العصر

الحجرى وأعقبهم مباشرة أقوام استخدموا الفخار ـ فخار فترة العبيد ـ والمهم فى هذا، أنه لم يبرز اختلاف فى الصيغة المعيشية ما بين الفترتين باستثناء ظهور الفخار.

ولكن الجديد بالملاحظة هو أنه كانت هناك فترات مناخية متغايرة ما بين حين وآخر ابتداء من باكورة الاستيطان فى الموقع خلال العصر الحجرى وحتى انقطاع أي اثر للسكنى خلال فترة ظهور الفخار.

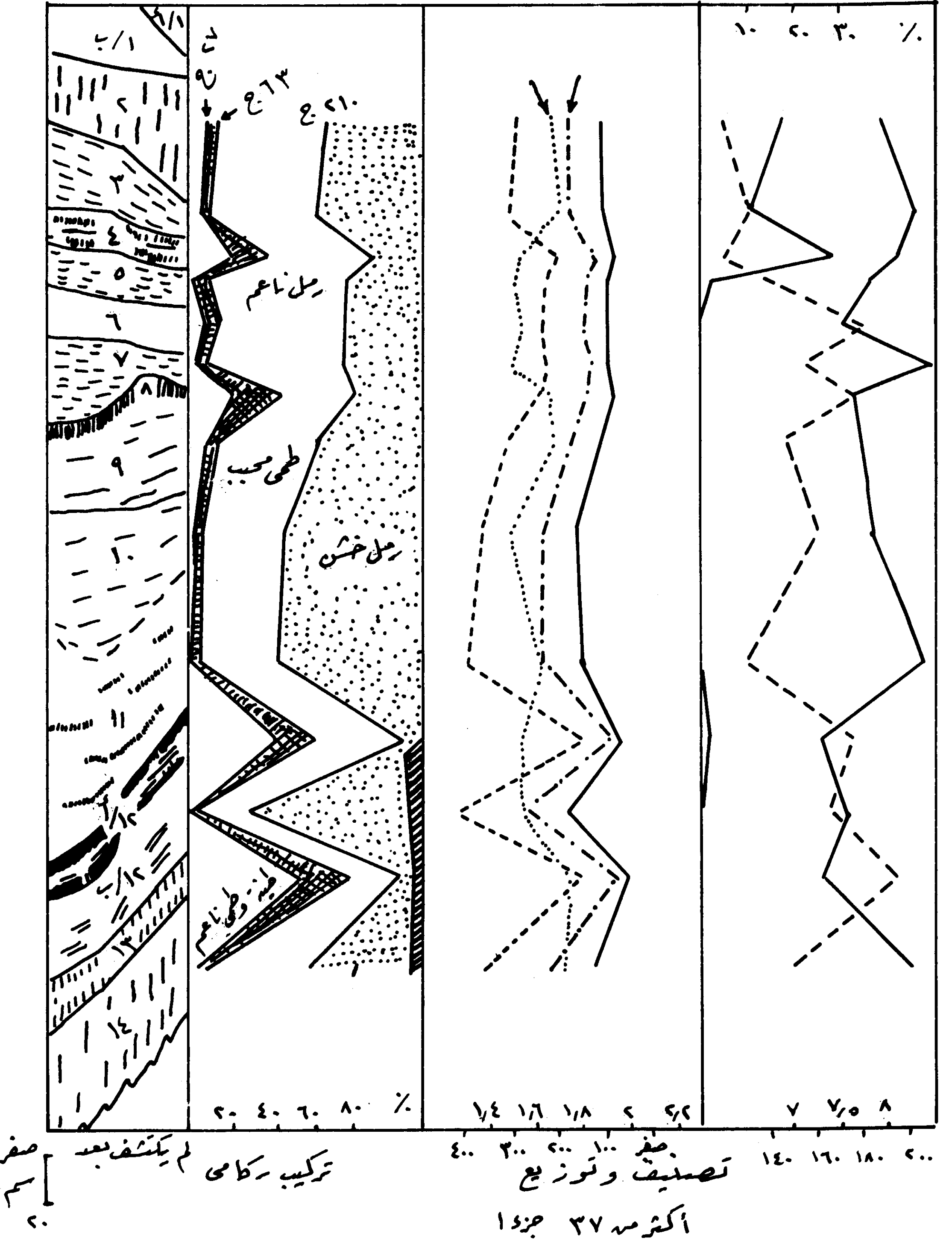
وجاء هذا الاستنتاج نتيجة تحليل علمي للتربة المصاحبة للطبقات الترسبية فى الموقع، حيث اتضح أن فترات مطيرة تليها فترات جفاف نسبي قد تعاقبت فى منطقة الموقع على مدى ألفي سنة ـ وهى فترة الاستيطان بالموقع (**الشكل ٢٢**). ويستنتج من هذا أن عوامل المناخ فى المنطقة الشرقية كانت ذات تأثير بالغ على امكانية المعيشة فى المنطقة من عدمها ـ ويعنى ذلك أنه ربما اضطرت أقوام المنطقة الى هجرات متتالية نحو بيئات أكثر صلاحية. ولذا فانه من المحتمل أن أقوام العصر الحجرى فى الشرقية عاشوا تحت وطأة أحوال مناخية وبيئية اضطرتهم للارتحال الموسمى أو شبه الموسمى الى مناطق شمالية أكثر ملاءمة للعيش، وهذا قد يفسر اتصالهم بجنوب الرافدين وتأثيرهم فيه بالاضافة الى تأثرهم به وظهور الفخار فى صناعتهم المحلية. ومما يعزز هذه النظرية أن التحليلات التى تمت مؤخرا على مواقع من عصر الألف الثالث قبل الميلاد، وعلى مواقع من العصر الاسلامى المبكر والوسيط قد أثبتت أحوالا مناخية مشابهة لتلك التى ذكرناها إبان فترة ما قبل التاريخ[٣].

أما فى المنطقة الشمالية، فلقد جرت أبحاث تحليلية للتربة فى مناطق عثر فيها على مواقع عصر حجرى تعود للألف السادس أو الخامس ق.م مصحوبة بآثار نقوش صخرية قديمة ـ أهمها موقع جبة شمال غرب حائل، وموقع الحنّاكية غرب المدينة المنورة ـ وأكدت هذه التحليلات توفر أسباب مناخية أكثر استقرارا عن أحوال المنطقة الشرقية. وأعنى هنا خاصة التحليلات التى أجريت على تربة بقايا البحيرة القديمة قرب موقع جبة.

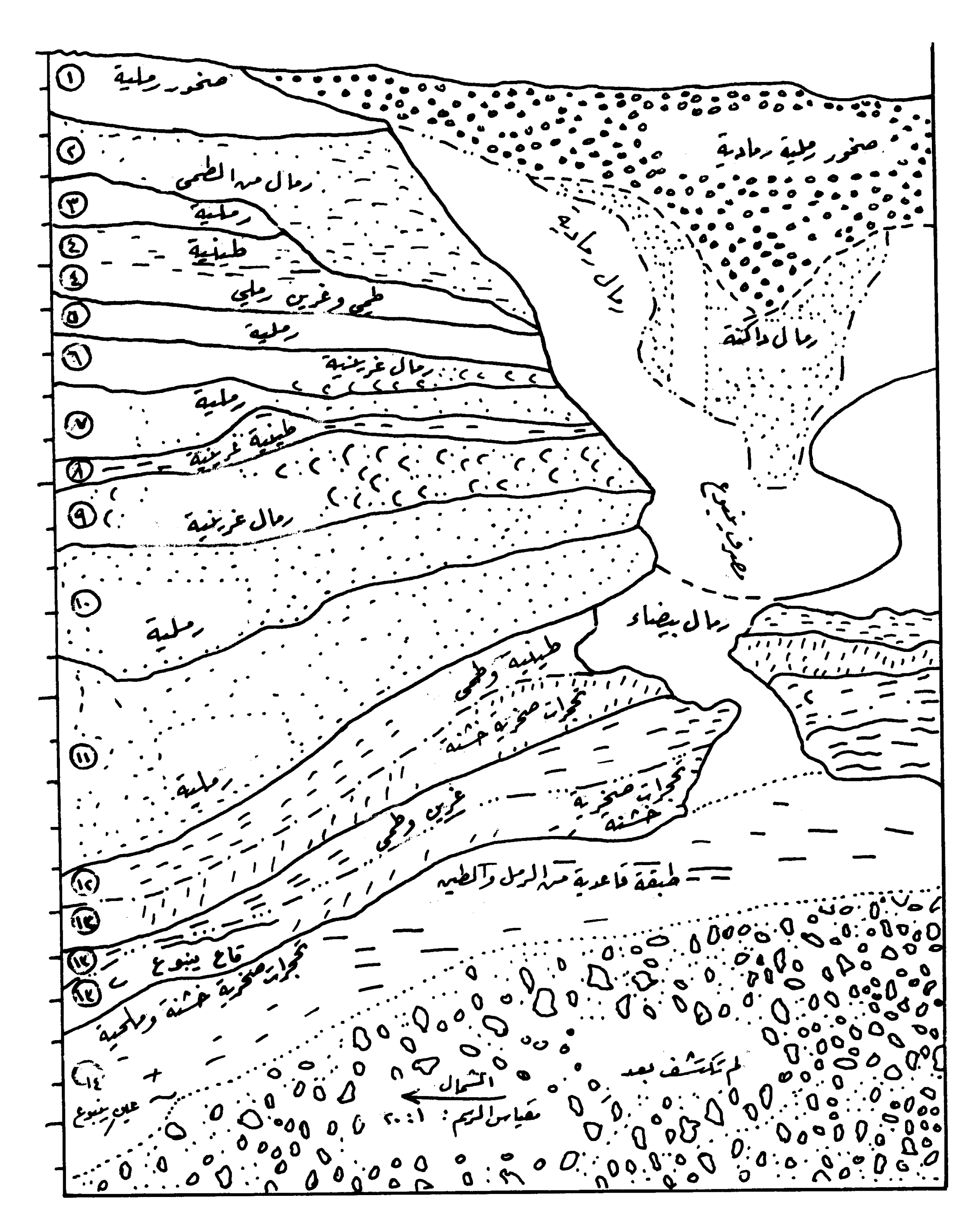
ولعلي لا أبالغ فى التحليل عندما استنتج من هذه الحقائق أن سبب ظهور الفخار فى المنطقة الشرقية والتحامها بجنوب الرافدين يعود الى عوامل مناخية وبيئية فى المقام الأول، وأن تأخر ظهور الفخار فى المنطقة الشمالية ـ رغم توفر ظروف الاتصال ـ يعود أيضا الى ذات الأسباب مع فارق عدم الملاءمة والاضطرار الى الهجرة والارتحال فى الحالة الأولى، وملاءمة الأحوال المعيشية وعدم الحاجة الى التنقل المتتابع فى الحالة الثانية.

ثانياً: إننا عندما نتحدث عن الاستيطان البشرى فى المنطقة الشرقية والمنطقة الشمالية ابان فترة ما قبل التاريخ يتعين علينا أن نحدد الكثافة والانتشار للمواقع التى تحمل تلك الصبغة فى كلتا المنطقتين لكي يتبين لنا الفارق بينهما فيما يتعلق بظهور الفخار من عدمه. ففى المنطقة الشرقية، من خلال أبحاث المسح الأثرى الشامل وما سبقه من أعمال استكشافية تمكنّا من حصر ما لا يقل عن مائة وسبعين موقعًا من العصر الحجرى سابقا لظهور الفخار أو ما يشابه فترة (س) طبقًا للتصنيف الدانمركى لآثار قطر.

ولكن إبّان فترة ظهور فخار العبيد فى المنطقة نجد أن عدد مواقع العصر الحجرى يتقلص الى أقل من عشرين



الشكل ٢٢ : صورة المعثورات الرّكامية للتراصف الطبقي : رواسب عين قنّاص.



الشكل ٢٣ : حفريات عين قنّاص: الجزء الشرقي.

موقعًا ـ والعجيب فى الأمـر أن صنـاعـة الأدوات الحجرية التى تظهر فى مواقع العصر الحجرى غير الفخارية تتشابه تماماً مع صنـاعـة الأدوات الحجـريـة فى المـواقع الفخارية من فترة العبيد. وهذا ما يدعونا الى التكهن بأنه فى ذات الفترة التى ظهر فيها الفخار فى مواقع معينة بالمنطقة الشرقية كانت هناك أقوام تعيش على نمط العصر الحجرى فى الفـترة نفسهـا وليس ببعيـد عن مناطق مواقع الفخار، وفى ذلك ما يؤكد أن سبب ظهور الفخار فى المنطقة قد يرجع الى مسببات بيئية ومناخية اختلفت تأثيراتها فى إطار المنطقة الشرقية ذاتها.

وعنـدمـا نتعـرض للحديث عن المنطقة الشمالية وكثافة سكانها ابان فترة ما قبل التاريخ (وهى الفترة المعاصرة لفترة ظهور الفخار فى المنطقة الشرقية)، نجد مواقع للسكنى كثيفة فى أنحاء حائل وشمال النفود، ووادى السرحان، وتؤول جميعهـا الى فترة العصـر الحجـرى الأعلى، وفترة العصر الحجرى الحديث. والبعض منها ـ كما أسلفنا ذكره أعـلاه ـ يقـترن بنقـوش تماثيلية معقدة (مثل جبة والحناكية) شبيهة بما عرف في فلسطين(٤) وشمال إفريقيا. والبعض الآخر الأحدث تاريخا ـ يتشابه مع فئات العصر الحجرى فى الأردن مثل موقع البيداء غير الفخارى. وإذا وددنا أن نحصر تعداد مواقع فترة ما قبل التاريخ الحجرية فى المنطقة الشرقية بمختلف أدوارها فان ما هو معروف ومؤكد لدينا ليزيد على الاربعمائة موقع، جميعها، بالطبع، لا فخارية.

وخـلاصـة القـول هنا تنحصر فى أن الاستيطان البشرى فى المنطقة الشمالية استمر على نمط العصر الحجرى عبر عدة آلاف من السنوات دون ظهور الفخار على الرغم من توفر الفرصة لظهوره عبر اتصالات المنطقة ببلاد الشام.

واعتقـد أن هذا يبرز الاستنتـاج أنـه ربما كانت الأحوال المعيشية المعتمدة على ظروف المناخ والبيئة فى المنطقة كانت مناسبة لحد ما بحيث أنها لم تستدع الهجرة والتنقل المتتابع مثلما حدث فى المنطقة الشرقية وأدّى الى استحداث طرق معيشية تعتمد على استعمال الفخار.

ثالثاً: عندما كنت مضطلعاً بالبحث عن أسباب ظهور الفخار فى المنطقة الشرقية إبَّان فترة العبيد الراجعة لما قبـل التـاريـخ، وجـدت أن نتائج الأعمال الحقلية والتحليلات العلمية التى توليتها كانت تشير الى التصور الآتي، وذلك بصرف النظر عن ظروف منطقة جنوب الرافدين:

إن الأقـوام الـذين عاشـوا فى المنطقة الشرقية بعد عصر انحسار الجليد ـ أى ما بعد ٨٠٠٠ق. م ـ قد عاصروا ظروفا مناخية وبيئية سريعة التغير والتقلب، خلال فترة تتراوح بين خمس وعشر سنوات، مما اضطر الكثيرين منهم الى الهجرات الموسمية الى مناطق شمالية اكثر مواءمة لمتطلبات المعيشة، وهذا بالتالى أدّى الى نزوحهم الى منطقة جنوب الرافدين التى ربما كانت فى ذات الوقت تشهد نزوحا بشرياً إليها من شمال الرافدين.

ولعل الأقوام النازحين من تلك المنطقة جلبوا معهم تقنية صناعة الفخار الذى عرف فيها منذ الألف التاسع قبـل الميـلاد. وبـالتحـام شعـوب هذه المناطق مع شعوب محلية ربما كانت أصيلة فى جنوب الرافدين، يمكننا تعليل

ظهـور فترة العبيـد الفخـاريـة هنـاك . ولم تلبث بعض الأقـوام النازحة من شرق الجزيرة أن عادت إليها عبر فترات متعـاقبـة أمكن خلالهـا ظهـور الفخـار فى المنطقة الشرقية . وربما استمر هذا المنوال على مر مئات السنوات الى حين انقطـاعـه فى أواخـر الألف الـرابـع قبـل الميـلاد . وتجـدر الإشارة هنا إلى أن الفترة المعروفة بعصر الورقاء فى جنوب الرافدين لم تظهر فى المنطقة الشرقية على الاطلاق . ولعل سبب ذلك ـ كما يعرف الجميع ـ يعود الى أن فترة الورقاء كانت باكورة التجمع الحضرى فى المدن مما قد أدى الى تقلص حركات الهجرة المتعاقبة بين المنطقة الشرقية وجنوب الرافدين . وبذلك نأتى الى نهاية حقبة معينة من تاريخ الاتصال الحضارى بين المنطقتين . والأدلة المتوفرة لدينا الآن لا تكفى لايجاد تعليل مناسب عن سبب انقطاع ذلك التلاحم .

بيـد أن الـترابـط بين المنطقـة الشـرقيـة وجنـوب الـرافـدين لا يلبث أن يعود إلى الوجود بعد بضع مئات من السنـوات ولكن على شكـل مخالف تمامـا لما عهدناه ابان فترة ما قبل التاريخ . وبذلك أعنى فترة الألف الثالث قبل الميـلاد ومـا يليهـا ، والتى شهدت خلالها المنطقة الشرقية اتصالات حضارية مكثفة شملت جنوب الرافدين وجنوب غربي ايـران ، وبـلاد السنـد وأفغـانستـان وذلـك فى زخم علاقـات تجاريـة ربما لم يشهد الخليج العربى مثيلها حتى حاضرنا . والجدير بالذكر أننا فى هذه الآونة نشاهد بداية تألق مناطق الخليج العربي كالبحرين (المعروفة بديلمون) وساحل الامارات العربية وعمان التى ربما كانت ماجان القديمة ، حيث النحاس والمعادن النفيسة التى طالما تحدثت عنها مدونات السومريين فى جنوب الرافدين وأساطيرهم .

والحديث عن الألف الثالث قبل الميلاد فى المنطقة الشرقية لا يكتمل دون ذكر جزيرة تاروت التى تواجه ساحل مدينـة القطيف . فهنـاك أثبتت أبحـاثنا وجود اتصال حضارى واسع مع كافة المناطق التى أسلفنا ذكرها ، ابتداء من أوائل الألف الثالث ق . م ، وربما أن تاروت كانت أسبق اتصالاً بالمقارنة مع البحرين ، أوساحل الإمارات أوعمان .

ومـا يهمنى التأكيـد عليـه فى استعراضى لأحداث الألف الثالث ق . م فى المنطقة الشرقية هو اختلاف النوعية والنتائج بالنسبة للاتصال الخارجي جوهراً وتفصيلاً مقارنة بما حدث قبل تلك الفترة ابان فترة العبيد وما تلاها (فترة الورقاء) .

وبـاستعـراض آثـار المنطقـة الشمالية أثناء الألف الثالث ق . م وما بعده نجد أنه لم يطرأ تغير جذرى على حياة الأقوام هناك ، فكما تدل مكتشفات المسح الأثرى ، يبدو أن النسبة العظمى من المستوطنات البشرية كانت لا تزال فى خضم ثقـافـة العصـر الحجـرى ، وربما يشهد على ذلك بقايا الدوائر الحجرية ومجموعات الأعمدة الحجرية فى وادى السرحان وغيرها من مواقع الألف الثالث فى الشمال .

رابعاً : وأخيرا ، فقد ظهرت مؤخرا أبحاث علمية تنشد تفسيراً بديلاً لظاهرة وجود الفخار فى المنطقة الشرقية خلال فترة ما قبل التاريخ ـ وأخص بالذكر هنا بحث العالمة جوان أوتس (J. Oates) (٥) التى أوردت فيه أن سبب وجـود فخـار العبيـد فى المنطقـة الشـرقية يرجع إلى اقتحام أقوام منطقة جنوب الرافدين لسواحل الخليج طلبا لتعزيز متطلبـاتهم الحضـاريـة من المواد الخام غير المتوفرة فى جنوب الرافدين ، مثل المعادن الصخرية والموارد المائية وغيرها .

وقد بنت هذه العالمة تفسيرها هذا نتيجة لتحليلات أولية أجريت على الفخار المكتشف فى المنطقة الشرقية ومقارنته بما هو معروف من فخار العبيد فى جنوب الرافدين. ويبدو أن تلك النتائج أشارت الى أن المصدر الرئيسى لمختلف أنواع الفخار العبيدى الذى وجد فى المنطقة الشرقية يعود إلى واحد من المواقع الرئيسية فى جنوب الرافدين. أى أن ما تعـرفنـا عليـه من فخـار فترة العبيـد فى المـواقع الشرقية ربما كان قد صنع أصلاً فى بلاد الرافدين ثم نقل الى المنطقة الشرقية عبر رحلات استكشافية وشبه استيطانية لأقوام من الرافدين.

واننى اذ استعرض هذا الاتجاه فى تفسير ظهور الفخار العبيدى فى المنطقة الشرقية . . . لا أجد حرجا فى رفض مدلولاته بناء على ما أوردته أعلاه.

ولقد بينت رفضي لهذا التفسير فى الرد على مقال العالمة المذكورة(٦) واكتفى هنا بالقول بأن مؤشرات تاريخ الاستيطان البشرى فى المنطقة الشرقية خلال فترة ما قبل التاريخ وما سبق ظهور الفخار العبيدى لدليل قاطع على أن جهـويـة الاتصـال الثقـافى بين شرق الجـزيرة وجنوب الرافدين كانت من الجنوب الى الشمال، وأن مسببات العلاقة الحضارية ربما كان أقرب إلى عوامل البيئة والمناخ منها الى الاستكشاف واستغلال المواد الخام.

وفى الختام، أود أن أكرر ملاحظات استنتاجي فى هذا البحث كالآتى:

(١) أن ظهور فترة العصر الفخارى فى المنطقة الشرقية - فترة العبيد - تعود إلى عوامل مناخية بيئية فى الأساس.
(٢) أن تأخر ظهور الفخار فى المنطقة الشمالية حتى أواخر الألف الثالث أوحتى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد يعود للأسباب ذاتها.

الهــوامش

(١) H.A. Mclure, «The Arabian Peninsula and Prehistoric Population», in H. Field (ed.), *Field Research Projects* (Miami, 1971).

(٢) H. Kapel, «The Atlas of the Stone Age - Cultures of Qatar», *Jutland Archaeological Society Publications* (Denmark,1967).

(٣) معلومات بلغت فى رسالة خاصة من كيرتس لارسن (Curtis Larsen).

(٤) أنظر E. Anati, *Rock Art in Central Arabia* (Bibliothèque du Muséon, 1968)

(٥) J. Oates, T.E. Davidson, D. Kamilli and H. Mckerrell, «Seafaring Merchants of Ur?», *Antiquities* 51, No. 203 (Nov., 1977), 22 - 34.

(٦) *Antiquities* (1978).

المـــراجع

1. ADAMS, R. and PARR, P. et. al.,
   "Preliminary Survey Report. Northern Province", *ATLAL* 1 1977).
2. ANATI, E.
   Rock Art in Central Arabia, 4 Volumes (louvain: Bibliothèque du Muséon. 1968).
3. KAPEL, H.,
   The Atlas of the Stone Age – Cultures of Qatar (Denmark: Jutland Archeological Society Publications, 1967).
4. LARSEN, CURTIS,
   Private Communication, 1979.
5. MCLURE, HAROLD A.,
   «The Arabian Peninsula and Prehistoric Population», H. Field, ed., *Field Research Projects* (Miami: *Cocount Grove,* 1971).
6. MASRY A.H.,
   Prehistory in North Eastern Arabia. Field Research Projects (Miami: Coconut Grove, 1974).
7. OATES, J., DAVIDSON, T.E., KAMILLI, D. and MCKERRELL, H.,
   "Seafaring Merchants of Ur?", *Antiquities* 51, no. 203, (Nov. 1977), 22 – 34.
8. PARR, P. and ZARINS, J., et al,
   "Preliminary Survey Report: Northern Province", *ATLAL,* 2 (1978).

خامساً: العصور التاريخية (بعد الميلاد حتى ظهور الاسلام)

بحث في الموضوع

لطفي عبدالوهاب يحيى، ٩١ - ١٠٣
الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية حتى القرن الأول الميلادي.

الوضع السياسي فى شبه الجزيرة العربية حتى القرن الأول الميلادي

لطفي عبدالوهاب يحيى

عرفت شبه الجزيرة العربية قبل القرن الأول الميلادى ثلاثة أنواع من التكوينات السياسية اختلف كلّ منها عن الآخر باختلاف الموارد الاقتصادية التى قام عليها، وهى موارد ارتبطت بشكل أساسي بالظروف الجغرافية والتاريخية التى سادت كلّ قسم من أقسام شبه الجزيرة. والتكوينات الثلاث هي: التكوين القبلى الذى ظهر أساساً فى مناطق البادية، والإمارات أو الممالك الصغيرة التى ظهرت فى شمال شبه الجزيرة، ثم الممالك الكبيرة التى وجدت فى القسم الجنوبي.

وأبدأ بالحديث عن التكوين القبلي. لقد انتشر هذا التكوين فى مناطق البادية بشكل خاص، حيث كانت القبيلة تشكل الصيغة أو الرابطة التى تعطى سكان كل منطقة كيانهم السياسى التنظيمى القائم بذاته. وإلى جانب عوامل محتملة أخرى، كان الوضع الاقتصادي للبادية هو الدافع إلى استمرار هذا التكوين، بحيث أصبح هو الشكل الدائم فى هذا القسم من أقسام شبه الجزيرة فى العصور القديمة. فالموارد الاقتصادية هنا، إما موارد رعوية غير دائمة تضطر أصحابها إلى التنقل الدائم وراء المرعى، أو إلى شن غارات على الواحات القريبة منهم، أو موارد زراعية متناثرة بين الواحات وتخوم الدول المجاورة ذات الامتدادات الخصبة المترامية، أو موارد تجارية تقوم فى خير أحوالها على تقديم الحماية أو الخدمات للقوافل العابرة التى تمرّ بها هذه القوافل، أكثر مما تقوم على التحكُّم فى السلع ذاتها أو في بدايات الخطوط التجارية ومصبَّاتها[1]. وفى ضوء هذا الوضع الذى لا يتوفر فيه المورد الاقتصادي الدائم أو الراسخ أو الذى يغطي امتداداً مكانياً متصلاً، تصبح الوحدة الصغيرة وهى القبيلة، هي التكوين السياسي المناسب.

وتذكر لنا النصوص الآشورية عدداً من هذه القبائل التى كان الملوك الآشوريون يحتكون بها فى أثناء حملاتهم على المناطق الواقعة غربي وادى الرافدين. وفى أحد هذه النصوص يصف سرجون الثاني (٧٢١ ـ ٧٠٥ق. م) بعض هذه القبائل بأنهم «العرب الذين يعيشون بعيداً فى الصحراء والذين لا يعرفون حكاماً أو إداريين». ويبدو واضحاً من هذا أن كاتب النصّ يشير إلى تنظيم سياسي بسيط بالمقارنة مع التنظيمات الأكثر اتساعاً أو تفصيلاً. وهو يبرز هذا المعنى فى الحقيقة، حين يحرص على أن يسبق هذه الأسماء بلفظة **ايميلو** التى تعني قبيلة فى الأكدية، بينما يشير بعد ذلك إلى أنه تسلّم هدايا من عدد من الحكام، يصفهم بأنهم «ملوك الساحل والصحراء» فى تمييز واضح عن القبائل التي سبق حديثه عنها[2].

وإذا كان الشعر الجاهلى، الذى يمدّنا بقدر لا بأس به من المعلومات عن التنظيم السياسي القبلي، لا يغطى إلا فترة محدودة قد لا تزيد كثيراً على قرن من الزمان، قبل ظهور الدعوة الإسلامية فى القرن السابع الميلادى، إلا أننا نعرف شيئا من الرواية العربية عن هذا التنظيم قبل القرن الأول للميلاد، كما يصوّرها لنا القرآن الكريم، فى حالة عدد من القبائل من بينها عاد وثمود[3]. وفى هذا الصدد نجد فى القبيلة مجلسين أحدهما يتكون من أعيان

القبيلة والآخر يضمّ عامة القبيلة. والمجلس الأول يظهر لنا وفى يده السلطة الحقيقية فى القبيلة، وهى سلطة جماعية تقوم على الشورى وتتسع للرأي ونقيضه. وفى حدود فكرة الشورى، نجد فى إحدى المناسبات تصويراً نابضاً فى القرآن الكريم لنقاش يدور فى هذا المجلس (أو الملأ حسب التسمية القرآنية)، يتعاقب فيه الفريقان المتعارضان إدلاء بالرأي، وردًّا عليه، واعتراضاً على الردّ، وردًّا على الاعتراض، وهكذا. وفى مناسبة أخرى، حين تتأزم المناقشة، يطرح موضوع النقاش على العامَّة من أفراد القبيلة ليدلوا برأيهم فيه. ولكن مع ذلك يبدو أن رأي المجلس الأول كان هو النافذ دائماً، حتى حين يطرح الأمر على التجمع الذى يشمل عامّة القبيلة، وهو رأي نلمس كذلك من التصوير القرآني، أنه كان يجمع بين الصلاحيات التشريعية والتنفيذية، أي أن هذا المجلس كانت له سلطة اتخاذ القرار وتنفيذه(٤).

وأمام سلطات هذا المجلس يبدو أن رئيس القبيلة أو زعيمها كانت سلطاته محدودة، أو أن رئاسته كانت تغلب عليها الصفة الأدبية أكثر من الصفة العملية. يظهر هذا واضحاً من وصف سرجون الثاني للقبائل العربية التي اجتاحها فى النّص الذى أسلفت الإشارة إليه. والشيء ذاته نراه فى التصوير القرآنى الذى لا يذكر رئيس القبيلة إطلاقاً، وهو أمر له مغزاه إذا أدخلنا فى اعتبارنا أن القرآن الكريم يحرص على ذكر سلطة الحاكم فى تكوين سياسي آخر، إزاء رأى المجلس الذى يناظر المجلس المذكور والذى يتخذ نفس التسمية. وفى ضوء هذا الاعتبار نستطيع أن نقول إن رئيس القبيلة، الذى كان بالضرورة أحد أعيان القبيلة، كانت سلطته تعادل ما يمكن أن نسميه سلطة «الأول بين الأقران»(٥).

على أن التكوين القبلي لم يقتصر على نظام القبيلة الواحدة، وإنما تعدّاه إلى نظام التجمعات القبلية، التى يتكون كل منها من مجموعة قبائل لها رئيس أو زعيم عرف باسم الملك. ونحن فى الواقع نسمع عن هذه التجمعات القبلية بشكل تدريجى منذ القرن العاشر ق. م. ففى أسفار **العهد القديم** نسمع فى عهد سليمان عليه السلام (٩٧٠ - ٩٣٧ق. م) عن «ملوك العرب» وعن «ملكة سبأ» التى يرد ذكرها كذلك فى القرآن الكريم، والتى تثبت النصوص، وتدعمها الملابسات التاريخية، أنها كانت ملكة لتجمع قبلي عربي فى الشمال ولم تكن ملكة على مملكة سبأ التى قامت فى جنوب شبه الجزيرة(٦).

وقد واكب هذا الاتجاه نحو التكوين القبلي المركّب ازدياد فى التنظيم، بحيث يصبح التجمع القبلي قوّة حقيقية. ونحن نستطيع أن نستنتج مدى الزيادة فى هذا التنظيم، من عدد من النصوص الأكدية التى يرد فيها ذكر العرب فى سجلات الملوك الآشوريين ومن عدد من النصوص الواردة فى أسفار **العهد القديم** وهي نصوص تشير الى حجم هذه التجمعات وقوتها وثروتها، كما تشير إلى الظروف التاريخية التي كانت تفرض على هذه التجمعات، أن تكون قوّة حقيقية. ففى سنة ٨٥٣ق. م، وهي السنة السادسة من حكم الملك الآشورى شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ق. م)، نسمع فى النَّص الذى يروى انجازات هذا الملك، عن «جندبو» ملك العربية، الذى كان ضمن «١٢ ملكا» كوّنوا حلفا يرأسه أحدهم (وهو ملك دمشق)، للتصدى للملك الآشورى فى موقعة القرقار. والنص يلقي أكثر من ضوء على الموضوع الذى نحن بصدد الحديث عنه. فجندبو هنا ليس زعيم قبيلة مثل تلك

القبائل التى «تعيش بعيداً فى الصحراء وليس لها حكام أو إداريون»، وإنما هو ملك يضعه النّص على قدم المساواة مع ملوك دمشق وحماة وأرواد، وهو يشترك فى الحلف بقوة قوامها ألف محارب من راكبى الجمال، وهي قوّة كبيرة نسبياً إذا قارناها بالقوات التى اشترك بها حكام بعض مدن الحلف، والتى بلغت ٥٠٠ جندي فى إحدى الحالات، ولم تزد عن مائتين فى حالة أخرى[٧]، وحقيقة أن الملك الآشورى يذكر أنه انتصر على هذه القوات المتحالفة، ولكن مجرّد تفكير هذا التجمع القبلى العربى الذى يتزعمه جندبو فى الاشتراك في حلف يتصدّى للقوة الآشورية يشير إلى مدى القوة، ومن ثم التنظيم، الذى كان يتصف به هذا التجمع.

وفى الفترة ذاتها يذكر أحد اسفار **العهد القديم** أن «العرب» اشتركوا مع الفلسطينيين فى الهجوم على مملكة يهوذا على عهد ملكها يورام (٨٥١ ـ ٨٤٣ق.م)، وقد بلغ من عنف هذا الهجوم أن فتحوا المملكة وهاجموا قصر الملك وسبوا نساءه وأسروا كل أبنائه، فيما عدا واحد منهم ونهبوا كل أمواله[٨]. والنتيجة التي أسفر عنها هذا الهجوم لا يمكن أن تشير إلى قبائل عربية متفرقة، وإنما تشير إلى مجموعات قبلية على قدر كبير من التنظيم. وفى الواقع فإن هذا التنظيم الذى نجده، سواء فى مهاجمة المملكة العبرية أو التصدى للدولة الآشورية، يشير إلى السبب الذى جعل العرب يقدمون على هذا التكوين السياسي القبلى المركّب. فالمنطقة التي يتحدث عنها كل من النصّين تقع قرب نهاية الخط التجاري الذى تتبعه القوافل المحملة بسلع الجنوب من البخور والطيوب، ومن هنا فالقبائل العربية الموجودة فى هذه المنطقة أصبحت ذات مصلحة اقتصادية تدفعها إلى التّجمع إذا أحسّت بخطر يتهدّد هذه المصلحة. وقد كان فى اتجاه الملك الآشورى لمهاجمة دمشق (أحد المنافذ الطبيعية لخطّ القوافل)، كما كان فى نوايا ملك يهوذا للسيطرة على هذه المنافذ[٩]، ما يكفى لأن تتجه القبائل العربية إلى تطوير تكوينها السياسي من نظام القبيلة الواحدة الى نظام التجمع القبلى الذى يصبح، فى هذه الحالة، قوة على مستوى التحدِّى القائم.

وفى هذا النظام، نظام التجمع القبلي، نجد الى جانب الملك مجلسا من أعيان القوم، يشير إليهم القرآن الكريم بنفس الاسم الذى أشار به إلى المجلس المناظر فى نظام القبيلة الواحدة، كذلك يشير نصّ أكدي من عهد الملك الآشورى أسارحدُّون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ق.م)، إلى مجموعة من «الزعماء» فى أحد التجمعات القبلية هم بالضرورة أعضاء هذا المجلس[١٠]. ولنا أن نتصوّر أن هؤلاء الزعماء هم رؤساء القبائل التي يتكوّن منها التجمع، أو رؤساء هذه القبائل ورؤساء العشائر التى تنقسم إليها. ولا تتحدث النصوص عن مجلس آخر يعادل مجلس العامة فى نظام القبيلة الواحدة، وإن كان هذا لا ينفى احتمال وجود مثل هذا المجلس على مستوى كل قبيلة من القبائل المكوّنة للتجمع القبلى، أو حتى على مستوى التجمع القبلى ذاته، فإن كثرة أعضائه فى التجمع القبلى لا تقف بالضرورة عائقا أمام انعقاده، فقد وجدت تنظيمات تقوم على أساس من دولة المدينة فى بلاد اليونان، وكان مجلس العامة فيها يضمّ كافة المواطنين، رغم وصول عددهم كذلك إلى عدة آلاف (قد تصل إلى ٢٥ أو ٣٠ ألفاً فى بعض الأحيان).

على أي الأحوال، وبغض النظر عن وجود مجلس واحد أو مجلسين، فإن سلطة الملوك فى هذا التنظيم، يبدو أنها فاقت إلى حد كبير ما كانت عليه سلطة رئيس القبيلة فى نظام القبيلة الواحدة، بل يبدو أنّ القدر الأكبر من السلطة، تركّز فى يد الملك على حساب «الملأ» أو مجلس الأعيان. وفى هذا الصدد يبدو من تصرّف ملكة سبأ (التى

رأينا أنها كانت ملكة لتجمع قبلي، فى شمال شبه الجزيرة)، أن اجتماع مثل هذا المجلس كان ضرورياً على الأقل إذا كان هناك أمر خطير يخص مستقبل المدينة أو المنطقة التي تمثل الإطار المكانى لهذا التجمع، وأن نوعاً من الحوار كان يدور بين الملك وأعضاء المجلس فى داخل هذا الاجتماع. ولكن يظهر بوضوح أن مثل هذا الحوار كان لا يخرج عن الصفة الاستشارية بينما كان الملك يملك القرار الأخير. فملكة سبأ حين تقرّر الذهاب إلى مملكة يهوذا لمقابلة الملك سليمان عليه السلام تعترف بمفردها، قبل أن تعود إلى بلادها، بإله هذا الملك، وقد كان الاعتراف بإله أو آلهة مملكة من الممالك - كما سنرى - بمثابة الاعتراف السياسي بهذه المملكة، سواء على مستوى اتفاق حسن الجوار أو على مستوى السيطرة من جانب والتبعية من جانب آخر. كذلك نستنتج من أحد النقوش، أن الحصول على منصب الملك أصبح هدفاً يجعل بعض الزعماء يعملون من أجله، حتى ولو أدى هذا إلى تدبير انقلاب يطيح بملك المدينة، وهو أمر يشير إلى أن السلطات (والمزايا المتعلقة بها) التي أصبحت مركزة فى يد الملك، كانت على قدر غير قليل من الأهمية[١١].

ونحن نستطيع أن نتعرف على نوعين أو ثلاثة من هذه السلطات: فمن الناحية السياسية، كان للملك أن يعقد اتفاقات سياسية مع الدول المجاورة، كما رأينا فى حالة ملكة سبأ. ومن الناحية العسكرية، كان الملك هو صاحب القيادة العليا، كما حدث فى حالة جندبو الذى رأيناه يقود ألف محارب فى موقعة القرقار، كما كان يملك فى بعض الأحيان أن يفوّض أو يعيّن غيره ليتولى مهمات القيادة العسكرية كما حدث حين أرسل ياتع، أحد الملوك العرب، اثنين من رجاله لقيادة قواته ليقفوا مع شمش شوموكين، الأخ الثائر على آشور بانيبال. كذلك كان الملك، على الأقل فى بعض الأحيان، يتمتع بالسلطة الدينية أو سلطة الكاهن، فى التجمع القبلي، وهي سلطة يبدو أنها كانت على قدر كبير من الأهمية ولا سيما فى تدعيم السلطة السياسية للملك. وهو أمر نلحظه من حرص حزائيل، ملك أدوماتو (دومة الجندل أو الجوف) على استعادة تماثيل آلهته من الملك الآشورى أسارحدّون (٦٨٠ - ٦٦٩ق. م)، وهو حرص وصل، حسبما يذكر سجلّ الملك الآشورى، إلى درجة تخطت الاسترضاء إلى الاسترحام[١٢].

هذه، إذاً كانت سلطات الملك. وفيما عدا ذلك، فقد كان مبدأ الوراثة واردا فى انتقال السلطة من ملك إلى ملك. فحين يموت الملك حزائيل نجد ابنه ياتع يجلس على عرشه، وإن كان قسم آخر من النص الذى نعرف منه هذا الوضع، يذكر أن الملك أسارحدُّون هو الذى أجلسه على العرش[١٣]. ولكن، على أي الأحوال، يبدو أن الوراثة لم تكن أمراً أساسياً، أو على الأقل كانت أمراً يمكن تخطّيه فى بعض الأحيان. وأشير هنا إلى ما أسلفت ذكره، عن محاولات الانقلاب التي كان يقوم بها بعض الزعماء للإطاحة بأحد الملوك والجلوس مكانه، كذلك نجد أنه فى حالة الملوك الذين تقع تجمعاتهم القبلية فى منطقة نفوذ الملوك الآشوريين كان يحدث فى بعض الأحيان أن يعيّن الملك الآشورى ملكًا على مدينة عربية بدلاً من ملك آخر، إذا عاداه ذلك الملك الآخر[١٤].

وتبقى فى نهاية الحديث عن النظام السياسي فى التجمعات القبلية مسألة الملكات. إن أسماء عدد من الملكات

ترد بشكل متواتر فى النصوص التي تشير إلى هذه التجمعات. وفى هذا الصدد تظهر بعض هذه الأسماء وحدها، فى إشارة واضحة إلى أنّ التجمع المعني تجلس على رأس السلطة فيه ملكة ولا يشاركها فى هذه السلطة أحد، مثل الملكة سمسي والملكة زبيبي اللتين تظهر كل منهما تحت اسم «ملكة العربية»، ومثل **يفع** *(Iap'a)* ملكة مدينة دهراني (ربما ظهراني) و**بايلو** *(Bailu)* ملكة مدينة **إيهيلو** *(Ihilu)* ومثل ملكة سبأ[١٥]. كذلك تظهر بعض هذه الملكات مع أزواجهن الملوك، مثل عادية زوجة ياتع. ومن الجدير بالذكر أن هذه الملكة الأخيرة، بعد أن هزم الملك الآشورى آشور بانيبال قوات زوجها ياتع، واضطر زوجها إلى الفرار، تصدّت للملك الآشورى الذى يذكر أنه هزمها فى معركة دامية «وقبض عليها حية وأخذها أسيرة إلى بلاد آشور[١٦]». وهو أمر قد يشير إلى دور أساسي قامت به هذه الملكة بصفتها الشرعية كملكة وليست مجرد زوجة تابعة للملك.

ولكن تبدو لنا هذه الملكات، فى بعض الأحيان، وكأنهن لسن بالضرورة زوجات للملوك الذين تذكرهم النصوص، فنجد فى المدينة الواحدة ملكا وملكة دون أن يكونا زوجين. وفي هذه الحال نجد النصوص تشير إلى هذه الملكات ومعهن لازمة محدّدة، هذه اللازمة هي تماثيل آلهتهن. وفى هذا الصدد نجد ملكتين تظهران بهذه الصفة فى النّص الذى سبقت الإشارة إليه والذي نجد فيه حزائيل يستعطف الملك الآشورى أسارحدّون. ففى هذا النص يذكر الملك الآشورى أن أباه سنحاريب سبق أن غزا مدينة أدوماتو وأخذ منها تماثيل آلهتها و**إسكالاتو** *(Iskallatu)* ملكة العرب، وأخذ الملكة وتماثيل آلهتها ونقلها إلى آشور. وحين يستعطف حزائيل، ملك المدينة أسارحدّون أن يعيد إليه التماثيل، يعيدها الملك الآشورى، ولكنه لا يعيد معها الملكة إسكالاتو، وإنما يبعث بامرأة أخرى، أصلها من أدوماتو، ولكنها شبت فى قصر الملك الآشورى، هي **تاربوا** *(Tarbua)*، ويرسل معها تماثيل آلهتها ويجعلها ملكة على المدينة (إلى جانب حزائيل)[١٧].

ومن هذا النص الذى لا نستنتج منه أية علاقة زوجية بين حزائيل وبين أي من الملكتين يبدو أن بعض النساء اللاتى يرد ذكرهن تحت اسم «ملكات» كان لهن فى الواقع دور آخر فى المدن التى تضم التجمعات القبلية، لا يرتبط بالمعنى التقليدى لهذه التسمية، هذا الدور هو التوجيه الروحي أو الدينى لهذه التجمعات. ويؤكد وجود هذا الدور الدينى للمرأة نقش ثمودى يشير إلى امرأة مهمتها التوجيه أو الإرشاد إلى الطريق السويّة[١٨]، ومن الواضح أن هذه المرأة كانت كاهنة، وهو نقش تؤيده بعض النقوش اللحيانية لنساء كُنَّ يقمن بهذا الدور، وكان اللقب الذى تحمله كلّ منهن هو **أفلكة** أو **أفكلت**[١٩]، وقد وجد من الملكات اللحيانيات من كنّ يحملن هذا اللقب مثل الملكة تى ايلحينو[٢٠]. واعتماداً على هذه النقوش ذهب باحث حديث إلى أنَّ الملكات العربيات كنَّ يقمن بالتوجيه الروحى، بينما كان تصريف الأمور السياسية فى أيدي أزواجهن[٢١]. ولكن إزاء النصّ الذى سبقت الإشارة إليه والذى لا تبدو فيه الملكة صاحبة الدور الدينى زوجة للملك، فإني أرى أنّ لقب الملكة فى هذه الحال لا يشير بالضرورة إلى مدلول الحكم أو أن من تحمله هي زوجة للملك، وإنما يعنى «الكاهنة» فحسب، وربما كان ذلك نتيجة تطور كانت فى بدايته الملكة (بالمفهوم السياسى للكلمة) هى صاحبة هذه السلطة الدينية، ثم انتقل هذا الدور إلى نساء أخريات مع بقاء لقب الملكة مرتبطاً بالدور الدينى، بعد انفصال هذا الدور عن العمل السياسى - وهو أمر نجد له شبيهاً فى العصور القديمة؛ فحين تطوّر نظام الحكم فى المدن اليونانية من النظام الملكى إلى النظام

الأرستقراطى، وزعت سلطات الملك بما فيها سلطته الدينية، بين عدد من الوظائف فى ظلّ النظام الجديد، ومع ذلك بقي لقب الملك يحمله من يشغل الوظيفة المرتبطة بالسلطة الدينية، وهي وظيفة الكاهن أو الكاهن الأكبر فى المدينة دون أن يكون لهذا اللقب أي مدلول سياسي(٢٢).

ويبدو أن الدور الدينى الذى كانت تقوم به هذه الكاهنات كان على قدر كبير من الأهمية سواء فى داخل الكيان السياسي الذى نحن بصدد الحديث عنه، أو فى العلاقة الخارجية بين هذا الكيان وغيره من الكيانات الأخرى. ففيما يخصّ الداخل يلاحظ الأستاذ فان دون براندن (Van den Branden) أن التوجيه الروحي كان يشكل ركناً أساسياً فى حياة المجتمعات الشرقية، ويربط فى هذا الصدد بين النصّ الثمودى السابق الذكر وبين مقدمة المجموعة القانونية للملك حمّورابي التى يرد فى تقديمها «هذه أحكام قانونية وضعها حمّورابي، الملك الحكيم، وجعل البلاد تتبع على هديها، الطريق السويّة والاتجاه السليم»، كما يلاحظ الباحث نفسه أن ابن الأثير يذكر أن مدينة الحِجر كانت بها كاهنة يلجأ إليها الناس لتحل لهم مشاكلهم(٢٣). وربما كان هذا الدور الداخلي يدور حول الفصل فيما إذا كانت تصرفات أفراد القبيلة تتمشى مع العرف والتقاليد المرعية، وإذا ما كانت بعض المواقف العامة تفوز برضى الآلهة ورعايتهم أو تثير غضبهم، وهو أمر ربما يكون استنتاجه وارداً إذا ما تذكرنا حرص النصوص التى بين يدينا على الربط بين صاحبات هذا الدور وبين وجود تماثيل الآلهة فى حوزتهن. هذا إلى جانب شؤون التنبؤ التي كانت تلعب فى حياة العرب (والساميين عموماً) دوراً أساسياً وهى شؤون يبدو أن الاتجاه السائد كان يميل إلى تفضيل المرأة على الرجل فى القيام بها(٢٤).

أما فيما يخص العلاقات الخارجية فإن قصة العلاقة بين الملك سليمان وملكة سبأ تشير في وضوح إلى أن المشكلة بينهما كانت تدور حول اعتراف ملكة سبأ بالله رب سليمان عليه السلام. وفي هذا الصدد توضح الإشارات التي وردت فى القرآن الكريم وفى **العهد القديم** إلى أنّ هذا الاعتراف كان هو الأمر الحاسم فى العلاقة بين هذين الحاكمين، وأنه كان أهم من الهدايا الثمينة التى حملتها ملكة سبأ إلى سليمان عليه السلام، إذ بقدر ما كانت الهدية تعبّر عن سياسة حسن جوار مؤقتة، كان الاعتراف بالله رب سليمان عليه السلام يمثل سياسة اعتراف أو ولاء دائم. وواضح أن ملكة سبأ تتصرف فى هذا الموقف بصلاحياتها الدينية أو الروحية، أى كانت تقوم بدور الكاهنة، إلى جانب وضعها كملكة(٢٥).

وأنقل الحديث الآن إلى النوع الثانى من التكوينات السياسية التى عرفتها شبه الجزيرة العربية فى الفترة السابقة للقرن الأول الميلادى، وهو الإمارات أو الممالك الصغيرة التى وجدت فى القسم الشمالي من شبه الجزيرة. وقد ازدهر فى هذا القسم فى العصر الميلادي عدد من هذه التكوينات، ولكن المثال الوحيد الذى نجده منها قبل القرن الأول الميلادى هو مملكة الانباط التي قامت فى القسم الشمالي الغربى لشبه الجزيرة حول المدينة التى عرفت فى نصوص التوراة باسم **سيلع** أي «الصخرة»، والتى عرفها الكتاب الكلاسيكيون باسم **بترا** (Petra)، وهي الترجمة اليونانية للفظة ذاتها، كما أنها الاسم الذى لا تزال المدينة تعرف به حتى الآن فى صورته العربية «البتراء». والأنباط، الذين كانوا فى بدايتهم قبائل بدوية متنقلة، استولوا من الإيدوميين فى القرن السادس ق.م. على المنطقة السهلية

التي تشرف عليها المدينة (وهي المنطقة التي تعرف الآن باسم وادي موسى)، ثم ما لبثوا أن استولوا على المدينة ذاتها التي كانت تشغل موقعًا أساسياً على الخط التجارى الذى كان يصل بين جنوبي شبه الجزيرة، حيث بداية الخطوط التجارية لقوافل الطيوب والبخور، وبين الموانىء السورية فى الشمال، وقد وصل الأنباط، نتيجة لهذا الموقع التجارى الحيوي الذى تميزت به عاصمتهم، إلى قدر ظاهر من الازدهار الاقتصادى مكنهم من توسيع حدود مملكتهم على حساب جيرانهم. ففى ٨٧ق. م. أدخلوا ضمن هذه الحدود دمشق ومنطقة البقاع أوجوف سورية *Koele Syria*، حسب تعبير الكتّاب اليونان، وهو اتجاه توسعي استمروا فيه ليضمّوا المنطقة الشمالية من الحجاز (مدائن صالح)، قبل أن تدخل هذه المملكة فى دائرة نفوذ الامبراطورية الرومانية لتصبح ولاية رومانية بشكل رسمى فى ١٠٥م. على عهد الامبراطور **ترايانوس**[٢٦].

وفيما يخصّ وضع الملك فى هذا التكوين السياسي، فنحن لا نعرف الشيء الكثير عن مسألة وراثة العرش قبل عهد الحارث الثاني (١١٠ - ٩٦ق. م.) ولا أي نظام كان متبعاً فيها، ولكن الأمر يصبح أكثر وضوحاً منذ عهد خلفه عبودة أو عبيدة الأول (٩٥ - ٨٧ق. م. وهو **أوبوداس** *Obodas* عند الكتاب الكلاسيكيين) حيث تصبح وراثة العرش للابن الأكبر، حسبما تثبت مجموعات العملة والنقوش التي تم العثور عليها[٢٧]. وفى هذا الصدد فإننا نجد أن صور الملكات تظهر على العملة النبطية ابتداء من عهد عبيدة الثالث (٣٠ - ٩ق. م)، الأمر الذى يدل على وضع رسمي لزوجة الملك، بأنها تشارك الملك فى الحكم بوصفها زوجة له. كما نجد صورة أم هذا الملك تظهر على العملة كذلك فى الفترة التى لم يكن قد بلغ فيها سنّ الرشد، مما يدل على حصول الملكة على حق الوصاية الرسمية على ابنها منذ هذا التاريخ على الأقل[٢٨].

على أن عهد هذا الملك (عبيدة الثالث) لم يقتصر على هذا التطور فى مركز الملكة (سواء بوصفها زوجة للملك أو أمًّا له) وإنما شهد تطوّرًا آخر يشير إلى ترسيخ النظام الملكي، من ناحية القاعدة النظرية على الأقل، هذا التطور هو تأليه الملك. ويدلّنا على ذلك نصّ لمؤرخ الحوليات اليوناني أورانيوس (Ouranios ؛ ربما عاش فى فترة تلي فترة عبيدة بقليل) يذكر فيه أن «عبيدة الملك. . الذى. . أُلّهوه كانت مقبرته تقوم فى عبودة *(Eboda)*، عابدة *(Abdeh)*». ويختم العبارة بقوله: «وهذا التأليه لابدَّ أنه تم مؤخرا»[٢٩]، وهي عبارة ترجح أن التأليه قد تمّ بعد وفاة هذا الملك. ويؤيد هذا النص الذى قدمه المؤرخ أورانيوس بصدد تأليه الملك عبيدة الثالث عدد من النقوش، وأحد هذه النقوش تم العثور عليها فى عابدة (المكان الذى جاء ذكره فى النص)، وهونقش يحتوى على جملة قصيرة هي «إن عبيدة حيّ»[٣٠]، ومؤرخ بالعام ٩٩ (ربما بتأريخ بُصرىٰ ومن ثمّ يعادل عام ٢٠٥م). وهناك كذلك نقش آخر وجد على تمثال فى البتراء، جاء فيه أن «هذا التمثال هو تمثال عبيدة الإله»[٣١].

هذا عن منصب الملك، أما عن السلطات المتعلقة بهذا المنصب، فيذكر لنا الكاتب اليونانى سترابون (Strabon) ما يشير إلى أن الملك لم يكن يتبع النظام الفردى فى الحكم، وأنه كان يقدّم تقريراً عن أعماله أمام مجلس شعبي، بل إن هذا المجلس، حسبما يذكر سترابون، كان يناقش الأسلوب الذى يتبعه الملك فى حياته الخاصّة، فى بعض الأحيان[٣٢]. والحديث يبدو، لأول وهلة، كنوع من التذكر للنظام الديمقراطي الذى ساد بعض المدن اليونانية فى فترة سابقة، كما لاحظ أحد الباحثين المعاصرين[٣٣]. كذلك فمن جهة أخرى قد يبدو هذا مناقضا

لممارسة تأليه الملوك التي، إن لم تكن تشير بشكل حاسم إلى الحكم الفردي، فإنها على الأقل توحي بذلك. ولكن مع ذلك فإن نظام الحكم لم يكن فرديًا، فالملك لم يكن يتمتع بسلطة مطلقة بالمعنى الذى كان شائعاً فى الملكيات الشرقية التي عاصرتها المملكة النبطية لفترة من الوقت على الأقل، مثل دولة البطالمة فى مصر، ودولة السلوقيين فى سورية، وفى الحقيقة فإنّ النظام الملكي النبطي، وإن لم يصل إلى الديمقراطية الواضحة الكاملة التي عرفتها المدن اليونانية، إلا أنه كان يتبع نمطًا يمكن أن يوصف بأنه جماعيّ، أوبتعبير أكثر تفصيلا، كان النظام الملكى النبطى نظاماً توزّع فيه السلطات ويعتمد فى النهاية على موافقة شعبية وإن لم يكن بالمعنى المباشر لهذه التسمية.

وفى هذا الصدد نجد أنه كانت هناك وظيفة تنفيذية رئيسية عرفت في النصوص والنقوش اليونانية التي تتعلق بالدولة النبطية باسم ايبيتر وبوس *(Epitropos)*، وهي تسمية تعني الحاكم التنفيذى أو القائم بالأعمال الذي توكل إليه الأمور، وكان لقب هذا الموظف عند النبطيين هو «أخو الملك» ـ وهو لقب لم يكن يعني أن حامله كان بالفعل أخاً للملك، أو أنه كان ينتمي مجرد انتماء إلى الأسرة المالكة ـ وهو أمر تؤكده عدة نصوص ونقوش(٣٤)ـ ولكن مع ذلك فإن التسمية فى حد ذاتها، سواء فى صورتها اليونانية أو في صورتها النبطية، تشير إلى أن شاغل هذه الوظيفة كان يتمتع بصلاحيات واسعة وبنفوذ كبير. ويبدو أن الخط الفاصل بين صلاحيات هذا الحاكم التنفيذى وصلاحيات الملك لم تكن محدّدة إلا من ناحية العرف أو الممارسة فحسب، ومن هنا كان من الممكن، فى بعض الحالات، أن تتضاعف سلطة الحاكم التنفيذى على حساب سلطة الملك، إذا كان هذا الحاكم التنفيذى على شيء من الطموح أو قوة الشخصية.

ومثل هذا الوضع وجد فعلا فى حالة عبيدة الثالث (٣٠ ـ ٩ق. م.)، فقد كان هذا الملك ضعيف الشخصية، بينما كان الذي شغل منصب الحاكم التنفيذي فى عهده، وهو شلّاء* (**سيلايوس**، ***Syllaeus***، عند الكتاب الكلاسيكيين) صاحب شخصية قوية وطموح كبير كما يشير إلى ذلك الكاتب اليوناني سترابون. وقد بلغ من طموحه حسبما يذكر لنا المؤرخ اليهودي يوسفوس (Josephus) أنه كان يخطط لكي يحلّ محلّ عبيدة كملك على الأنباط، وأن هذا التخطيط ربما كان، على الأقل بشكل جانبي، وراء تفكيره فى الزواج من سالومي أخت هيرودوس ملك اليهودية، حتى يكتسب صفة الامتزاج بالدماء الملكية(٣٥).

ولم يكن الحاكم التنفيذى هو المظهر الوحيد من مظاهر توزيع السلطة فى نظم الحكم الملكى النبطي، فالملك، إلى جانب ذلك لم يكن حكمه مباشرا على شعبه، وإنما كان يتم ذلك من خلال رؤساء للأقاليم *(Strategoi)*؛ حسب التسمية اليونانية التى تبنّاها الرومان). ومن خلال عدد كبير من النقوش التى تركها هؤلاء الرؤساء، والتى تم العثور عليها على امتداد المسافة من دمشق إلى الحجر، أمكن التوصّل إلى أن رؤساء الأقاليم هؤلاء، لم يكونوا سوى شيوخ قبائل (أوعشائر فى بعض الأحيان) هم غالباً من البدو الرحّل، وأن سلطاتهم المحلية فى المناطق التى كانوا يوجدون فيها، وإن كانت تخضع لاعتمادها رسمياً من جانب الملك، إلا أنها لا توحى بأنهم كانوا موظفين

*** المحرر:**
هو «صالح».

بالمفهوم الدارج للكلمة، وإنما زعماء محليين يتوارثون رئاسة القبائل أو العشائر التي ينتمون إليها. (٣٦) وقد كانت السلطة الحقيقية فعلا فى أيدى هؤلاء الرؤساء، ومن ثمّ نستطيع أن نقول إن الحكم النبطي كان حكمًا جماعيًا أو لامركزيًا فى يد مجموعة من رؤساء القبائل الذين يدينون بالولاء لرئيس عام لهم، توافق على شخصه كل القبائل والعشائر، وهو الملك، الذي كان مضطرا إلى اللجوء إلى قدر كبير من الحكمة في معاملة هؤلاء الرؤساء المحليين، تارة بالحزم، وتارة أخرى باللين.

وأنقل الحديث الآن إلى النوع الثالث من التكوينات السياسية التى عرفتها شبه الجزيرة العربية قبل القرن الأول الميلادى، وهو النوع الذى كانت تشكّله الممالك التي قامت فى جنوبي شبه الجزيرة. وقد كان الأساس الذى قامت عليه هذه الملكيات أكثر ثباتا واستقرارا وأقل اعتمادا على الظروف العارضة من الممالك الشمالية، فقد كانت هذه الممالك الجنوبية تعتمد على أساس اقتصادي قوى مستمر، تمثّل فى ثلاثة موارد رئيسية: أولها زراعة منتظمة تقوم على مساحات واسعة من الأراضى الخصبة، وقدرٍ كافٍ من الأمطار الموسمية الغزيرة؛ وثانيها مساحات واسعة من الغابات الطبيعية والنباتات التي تنتج الطيوب والتوابل، وهي سلعة لم يكن للعالم القديم غَناء عنها. أما ثالث هذه الموارد فهو التجارة التي كانت تتميز عن تجارة القسم الشمالي من شبه الجزيرة فى أنها تجارة يوجد الجزء الأكبر من مقوماتها فى البلاد فعلاً، وهو ما سبقت الإشارة إليه من الطيوب والتوابل، هذا إلى جانب موقع يتحكم فى بدايات الخط التجارى البرى من الجنوب إلى الشمال، والخط التجارى البحرى بين الشرق والغرب عند ملتقى المحيط الهندى والبحر الأحمر.

وقد أدّى هذا الأساس الاقتصادى الراسخ إلى بقاء هذه الممالك طوال العصر القديم (بغضّ النظر عن وصول إحداها إلى مركز القوة على حساب الأخريات) دون أن تندثر واحدة منها كما حدث فى بعض الممالك والإمارات الشمالية، ومنها مملكة الأنباط التي سبق الحديث عنها. كذلك تميّزت هذه الممالك العربية الجنوبية بقدر واضح ممّا يمكن أن نسميه التوافق أو التكامل السياسي فيما بينها. وربما كان هذا انعكاساً لما كان بين هذه الممالك من تكامل اقتصادى؛ فبعض هذه المناطق تنتج نوعًا من الطيوب أو التوابل وبعضها ينتج نوعًا آخر، وكلها تصبّ عند بداية خط القوافل البرىّ الذى يمر فى مناطق حددتها التضاريس الطبيعية وجعلتها أنسب من غيرها، ومن ثمّ لم يكن هناك بديل لها. وهكذا كان لابد من قدر من التكامل، بصورة أو بأخرى، بين هذه الممالك جميعا، اتخذ شكل تبادل السيادة أو تتابعها على المنطقة من حين لآخر كما حدث فى حال السيادات السبئية والمعينية والحميرية(٣٧).

وكان نظام الحكم الذى ساد فى هذا القسم من شبه الجزيرة ملكيًا. ويبدو أن الملكية كانت فردية مطلقة فى المرحلة الأولى من مراحل ظهورها. وهي مرحلة ترجع إلى القرن السابع ق.م. على أقل تقدير فى بعض أجزاء المنطقة. ونستنتج هذا من أن الملك كان يجمع بين منصبه الملكي ومنصب الكاهن الأعلى أو المكرّب، في واحدة على الأقل من الممالك التى قامت فى المنطقة، وهي مملكة سبأ فى مرحلتها الأولى (حوالى ٦٠٠ - ١١٥ق.م.) - وهو وضع له مغزاه، إذا أدخلنا فى اعتبارنا أن الدين كان يعتبر الدعامة التي تعطى النظام الملكي قاعدته الشرعية فى العصر القديم بوجه عام. ولنا أن نتصور فى ظل هذا الوضع أن يكون هذا الحكم الملكي وراثياً كذلك، فهو أمر

وارد، لا سيما إذا كان الحكم من النوع الفردى المركزى.

ولكن يبدو أن هذا النظام الملكي الذى يقوم على الحكم الفردي المركزى (سواء فى سبأ أو الملكيات الأخرى) لم يبق على ما كان عليه. ففي سبأ على سبيل المثال، فَقَد الملك صلاحياته الدينية ابتداء من ١١٥ق.م. لتتركز فى أيدي رجال الدين الذين كانوا يشكلون طبقة لا يستهان بقوتها، إذا بنينا حكمنا على العدد الهائل من المعابد التى يذكر الكاتب الروماني بلينيوس (Plinius) أنها كانت موجودة في بعض مدن المنطقة فى أواسط القرن الأول الميلادي، وهي فترة غير بعيدة عن التاريخ المذكور. كذلك يذكر لنا سترابون (أواخر القرن الأول ق.م. وأوائل القرن الأول الميلادى) أن النظام الملكي لم يكن وراثيا آنذاك، فيقول في هذا الصدد إنَّ ابن الملك لم يكن هو الذى يخلف أباه على العرش، وإنما أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية. وبذلك تكون ركيزة الوراثة قد انتزعت كذلك من صلاحيات النظام الملكى[٣٨].

ومثل هذا النظام ليس فى الواقع شيئا معدوم النظير فى العصور القديمة فقد عرفته الدويلات اليونانية حوالي القرن الثامن ق.م. فى المرحلة التي عاصرت تطوّر نظام الحكم من الحكم الملكى إلى الحكم الأرستقراطى. فقد بدأت الطبقة الأرستقراطية بانتزاع صلاحيات الملك، الواحدة بعد الأخرى، وكان من بين هذه الصلاحيات النظام الوارثى والسلطة الدينية. ونحن نستطيع أن ندرك ما حدث فى الممالك العربية الجنوبية فى هذا الصدد إذا عرفنا مدى قوة الطبقة الأرستقراطية هناك، وهو أمر نستنتجه مما يذكره الكاتب بلينيوس ذاته حين يعرّفنا أن ثلاثة من المناطق العربية الجنوبية (وهي مناطق السبئيين والمعينيين والحضرميين)، كانت فيها ٣٠٠٠ أسرة تحتكر حقّ امتلاك أشجار الطيوب والإتجار فيها بشكل وراثى، وهو أمر غير غريب عن مناطق العربية الجنوبية، فامتلاك الأراضى بشكل جماعي، أو الإدارة الجماعية لقطع واسعة من الأراضى الزراعية، أمر معروف لنا من النصوص التي عثر عليها فى المنطقة[٣٩]. ومعنى هذا فى الواقع أن الطبقة الأرستقراطية الثرية كانت طبقة لا يمكن أن يتجاهلها الملك، بل لا يمكن إلا أن تزحف على صلاحيات النظام الملكي، بما في ذلك النظام الوراثى للعرش، بحيث يتحول الملك إلى مجرّد قرين مميز رسميًا فحسب بين أقران مساوين له من الناحية العملية، فالملوك كانوا من نفس طبقة الأسر التي تملك هذا الحقّ الاقتصادى الوراثي.

وفى ضوء هذا الوضع تتحوّل سلطة الملك (الذى كانت الطبقة الأرستقراطية تختاره بطريقة أو بأخرى من بين صفوفها) إلى ممثل لهذه الطبقة التي ينتمى هو نفسه إليها، يحافظ على مصالحها وينمِّى هذه المصالح إزاء أية ظروف معاكسة. ولعلّنا نفهم من خلال هذا التصور ما يذكره لنا الكاتب اليونانى أرتميدوروس (Artemidores. اشتهر فى أوائل القرن الثاني ق.م) من أن الملك عند السبئيين، رغم كونه المرجع «فى القضايا وكلّ شيء»، إلا أنه «كان لا يملك أن يترك قصره (لعلّه يقصد: أن يترك العرش)، وإذا تركه فإن العامّة، حسب نبوءة معينة، ترجمه حتى الموت»[٤٠]. ولنا أن نتصوّر أن هؤلاء العامة هم أتباع أو أجراء الطبقة الأرستقراطية المالكة لهذا المورد الإنتاجى الأول في البلاد. كذلك لنا أن نتصور شيئا من المبالغة فى مسألة الرجم. ولكن يبقى المعنى واضحاً حتى بعد هذه التحفظات، وهو أن تنازل الملك عن عرشه، أو تركه له بشكل أو بآخر، قد لا يناسب الطبقة التي اختارته إذا جاء ذلك فى وقت غير مناسب لها، ومن ثمّ فمثل هذا التنازل كان مفترضاً فيه ألا يتم، إلّا بموافقة هذه الطبقة.

اختصارات

ANET: Pritchard, J.B. (ed.) *Ancient and Near – Eastern Texts, Relating to the Old Testament* (2nd ed, Princeton: 1955).
Ant: Josphephus, *Antiquities*
AR: Luckenbill, D.D., *Ancient Records of Assyria and Babylonia* (New York: 1968).
CIS: Corpus Inscriptionum Semiticarum.
FHG: Mueller, *Fragmenta Historicorum Graecorum* (1841 – 70).
Geog.: Strabon, *Geographica.*
N.H.: Plinius, *Naturalis Historia.*
RAO: Clermont – Ganneau, *Receuil d'Archéologie Orientale.*

الهوامش

(١) عن تقديم الخدمات للقوافل، انظر Strabon, XVI 4:4, 19; Plinius, *H.N.*XII, 65

(٢) *AR*, II, 17 – 18; *ANET*, 286

(٣) **الأعراف: ٦٥-٧٥**

(٤) المجلس الأول يظهر فى القرآن الكريم تحت اسم «الملأ»، **الأعراف: ٦٠، ٦٦، ٧٥، ٨٨، ٩٠، هود: ٢٧**، المناقشة النابضة فى **السورة ذاتها: ٧٣-٧٦**، المجلس الثانى أومجلس العامة يظهر فى **السورة ذاتها: ٧٥** (فى حالة قبيلة ثمود)، ونحن نستنتجه من المقارنة بين «الذين استَكْبَروا» و«الذين استُضْعِفُوا»، ويبدو واضحاً من المطابقة بين هذه الآية والآيات السابقة أن «الذين استَكْبَروا» هم المجلس الأول، كذلك فإن المقارنة بين هؤلاء وبين «الذين استُضْعِفوا» ليست بمعنى الذين كفروا والذين آمنوا، وإنما بالمعنى الطبقى إذ أنّ العبارة التالية بعد «الذين استُضْعِفوا» وهي «لِمن آمنَ منهم» تفيد أن الذين استُضْعِفُوا كان من بينهم من آمن ومن لم يؤمن.

(٥) التكوين السياسي الآخر أعني به التجمع القبلي، مثل مملكة سبأ (أنظر أدناه) وفيها تظهر الإشارة إلى منصب الملكة بشكل محدَّد. سورة **النمل: ٢٢، ٣٧**.

(٦) تظهر سبأ كمدينة فى شمالي شبه الجزيرة من النصوص الآشورية التى تضعها ناحية الغرب فى طريق الآشوريين من وادي الرافدين إلى المنطقة السورية. راجع بعض هذه النصوص فى: *ANET*, 283, 284, 286 وقارن Strabon: *N.H.* XVI,41:21 الذي يجعل المناطق التي يقطنها الانباط والسبئيون أولى المناطق التي تلي سورية مباشرة فى اتجاه الجنوب. هذا ويتحدث سترابون عن سبأ الموجودة فى جنوبي شبه الجزيرة والمنتجة للطيوب والبخور في مكان آخر من دراسته، راجع الكاتب ذاته: XVI,4:19. وعن تفاصيل الموضوع، راجع دراستنا، **العرب فى العصور القديمة** (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨)، ص٣٨٠. كذلك يبدو واضحًا أن سبأ الشمالية تشكل تجمعًا قبليًا من نص في *ANET*, 283 (النص ذاته فى *AR* I, 779) يشير إلى اجتياح الملك الآشورى تجلات بلاسر الثالث للمنطقة الغربية من سورية، وفيه يرد اسم مدينة إيزاسى *(Ezasi)* ثم تَلَفٌ فى النص، وبعده تظهر جملة «العربية فى منطقة (أو إقليم) سبأ» ـ الأمر الذى يجعلنا نرى أن سبأ تشكل تجمعًا قبلياً يشمل منطقة بأكملها تتخذ من مدينة سبأ مركزا لها.

(٧) *AR* I, 610; *ANET*, 278 – 9

(٨) سفر **أخبار الأيام الثاني، إصحاح ٢١ : ١٦-١٧ وإصحاح ٢٢ : ١** .

(٩) نستطيع أن نفهم تخوف التجمعات القبلية العربية (والفلسطينيين) من مملكة يهوذا، إذا رجعنا قبل عهد يورام بقليل لنرى الملك سليمان (٩٧٠-٩٣٧ق. م.) عليه السلام يتجه إلى سياسة بحرية في البحر الأحمر تأخذ الأهمية التجارية من الخطوط البرية التي تمر بالمناطق التي تقطنها التجمعات العربية (والتي تنتهي إلى الموانىء الفلسطينية). عن سياسة سليمان عليه السلام البحرية، واتخاذه ميناء عصيون جابر (قرب ميناء أيله) راجع سفر **الملوك الثالث، إصحاح ٩ : ٢٦-٢٧**، في نفس الاتجاه قارن محاولة سليمان عليه السلام إغراء الملك الفينيقي حيرام، ملك صور، باستخدام الطريق البحرية بدلاً من طريق مصر، راجع، نجيب ميخائيل ابراهيم، **مصر والشرق الأدنى القديم** (الاسكندرية ط١، ١٩٥٩)، جـ٣: **سورية** .

(١٠) *AR* II,550 – 2; *ANET*, 292

(١١) عن سلطات ملكة سبأ راجع **سورة النمل : ٣٢-٣٣**، عن اسلامها لله، إلَه سليمان عليه السلام، **السورة ذاتها : ٤٤**، وقارن **العهد القديم، أخبار الأيام الثاني، إصحاح ٩ : ١-٢، ٨، ١٢**، وعن الزعماء القبليين راجع النص المشار إليه في الحاشية السابقة.

(١٢) عن تفويض ياتع لاثنين من رجاله ليقودا قواته، النص في *ANET*, 298 . عن استرحام حزائيل للملك الآشوري بصدد استعادة تماثيل الآلهة، النص في *ANET*, 291 .

(١٣) عن وراثة ياتع للعرش، النصّ في *AR*II,550 – 2 ، وعن إجلاس الملك الآشوري لياتع على العرش، النصّ في *ANET*,292 .

(١٤) حين انهزمت قوات ياتع أمام القوات الآشورية يعمد أحد القائدين اللذين كانا على رأس قوات ياتع إلى استرحام الملك الآشوري آشور بانيبال، فيعفو هذا عنه ويعينه ملكا على العربية بدلاً من ياتع.

(١٥) الملكة سمسي في *AR* I,777 – 9 والملكة زبيبي في *AR* I,772 ، وعن الملكتين الأخريين، **المرجع نفسه**، II, 520 وملكة سبأ، انظر عاليه، حاشيتي ٥، ١١ .

(١٦) *ANET*, 298; *AR* II, 1084

(١٧) *ANET*, 291

(١٨) الإشارة إلى محتوى النص في : Alb. Van den Branden, *Histoire de Thamoud* (Beyrouth: Publications de l'Université Libanaise, Section des Études Historiques, VI, 2ème éd., 1966), 37.

(١٩) F.V. Winnett, *A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions* (Toronto: 1937), 17.

(٢٠) A. Borger, «Assyriologische und altarabische Miszellen», *Orientalia* XXVI (1957), 10.

(٢١) **الموضع السابق نفسه**. ومع ذلك تجدر الإشارة إلى الملاحظة القيمة التي أوردها الأستاذ بورجر، **المرجع نفسه**، ص٩، حيث يرى أن اسم اسكلاتو (Iskallatu) الذى ورد في النص الآشورى على انه اسم للملكة العربية، (راجع اعلاه، وكذلك حاشية ١٧)، هو في الواقع تحريف للفظة **أفكلاتو** *Aphkallatu* (**أفكلت**) وهو لقب ديني.

(٢٢) Aristoteles, *Athenaion Politeria*, 3.

(٢٣) Van den Branden, *op. cit.*, 37, n.154.

(٢٤) عن شؤون التنبؤ وتفضيل النساء على الرجال فيها راجع: Toufic Fahd, *La Divination Arabe*, (Leiden: 1966), 98.

(٢٥) عن المصادر راجع حاشية ١١ أعلاه.

(٢٦) راجع R. Dussaud, *La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam* (Paris:1950), 21 - 4. عن استيطان الأنباط. وعن اسم «سيلع» فى العهد القديم راجع نبوءة اشعيا، إصحاح: ١، ٤٢ : ١١، وكذلك سفر الملوك الثاني ١٧ : ٧. عن اسم Petra عند الكتاب الكلاسيكيين راجع أمثلة Strabon, XVI, 4:21,23 - 4 وفي Plinius, *NH*, VI:44. عن توسعهم فى سورية راجع: Ph.K. Hitti, *History of the Arabs* (7th ed. London:1961), 68

(٢٧) راجع دراسة لهذه النقوش في A. Kammerer, *Pétra et la Nabatène* (Paris:1929),171 - 6

(٢٨) R. Dussaud, *Monnaies Nabatènes*, 214 ff. .

(٢٩) *F.H.G.* IV, 525.

(٣٠) مقتبس فى Kammerer, *op. cit.*, 379

(٣١) Clermont - Ganneau, «Statue du Dieu Obodas», *RAO* II, 266

(٣٢) Strabon, XVI, 4: 26

(٣٣) Kammerer, *op. cit.*, 380.

(٣٤) عن اللقب *RAO I, 61, II, 380, VIII, 144; CIS* II, no.231 وعن عدم ارتباط اللقب بالدماء الملكية، انظر النصوص في *CIS* II, 231, 243, *RAO* VII, 309 . راجع مناقشة هذه النصوص فى Kammerer, *op. cit.*, 381

(٣٥) Strabon, XVI, 4:21, Josephus, *Ant.* XVI, 7:9 - 10; XVII,3:4 - 5; *Bell. Jud.* I,24, 28 - 32

(٣٦) *RAO* I, 62, II, 185 - 9, V, 147, VII, 379

(٣٧) راجع: Ign. Guidi, *L'Arabie Anteislamique* (Paris, 1921), 64 - 84; Hitti, *op. cit.*, 49 - 66 عن عرض موجز للمسار السياسي لهذه الممالك.

(٣٨) عن انتزاع السلطة الدينية من الملك راجع Hitti, *op. cit.*, 54 ؛ عن كثرة عدد المعابد انظر Plinius, *NH*, VI, 153 عن نظام اعتلاء العرش انظر Strabon, XVI, 4:3

(٣٩) عن الأسر المحتكرة انظر Plinius, *NH*, XII, 54 وعن الملكية الجماعية أو الإدارة الجماعية للأراضى راجع النص فى مجموعة **Halévy 147** والمناقشة فى ص٢٧٨ من دراستنا المذكورة فى حاشية ٦ أعلاه.

(٤٠) مقتبس في: Strabon, XVI, 4:19

سادساً: المعتقدات الدينية

الأبحاث فى الموضوع

أديان العرب قبل الإسلام

جـــواد علـــي

يرجع علمُنا بأديان العرب قبل الاسلام إلى موردين:

١) مورد اسلامي، جُمِعَ ونُقِدَ وصنِّف في الاسلام.

٢) ومورد يعود عهده إلى ما قبل الاسلام، وفيه ما يعود عهده إلى ما قبل الميلاد، مثل بعض النصوص الآشورية، واليونانية والعربية، ثم ما يعود عهده إلى فترة ما بعد الميلاد حتى ظهور الاسلام، وهذا المصدر الأخير هو الكتابات التي عثر عليها علماء الآثار، وفي ضمنها الصور التي لها صلة بالآلهة والدين.

والمورد الاسلامى معروف، وقد تحدثت عنه بإسهاب في كتابى **تاريخ العرب قبل الاسلام**[١]، وفى كتابى الثاني، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام**،[٢] وهويتناول الحالة الدينية للعرب قبل الاسلام، فيجعل العرب ما بين مشرك، يتعبد للأصنام أوللشجر، أوللجن، وما بين يهودي أونصراني، أومجوسي، وما بين متحنّف رافض لعبادة الأصنام، أو زنديق لا يقر بوجود إله.

أما المورد الثاني، وهو الذى يعود عهده إلى ما قبل الاسلام، فأهم مصدر فيه هو الكتابات، فقد موَّنتنا بمادة غزيرة عن عقائد العرب قبل الاسلام لم تعرف الموارد الاسلامية من أمرها الشيء الكثير، وهي، وإن كانت من حيث مادتها ذات علاقة بأمور شخصية، مثل كتابات نذور أوشواخص قبور، أوأعمال بناء، أوتعيين حدود وأملاك، أو تسجيلات لقوانين، أولحروب، وليس بينها نص واحد في موضوع ديني بحت، إلا أنّها قدمت مع ذلك للباحثين فى تاريخ العرب لما قبل الاسلام مادة غزيرة لا تقدر بثمن، عن نواحي الحياة من جميع وجوهها، وفي جملتها الحياة الدينية.

فمن بين ما أمدتنا به من مادة: أسماء آلهة لا تعرف الموارد الاسلامية من أمرها شيئا، مثل: **المقة**، إله سبأ الرئيس، **وسن**، إله حضرموت الكبير، **وعم**، إله قتبان الأكبر، **وعشتر ونكرح وقينن/ قينان**، إله قبيلة سخيم[٣] **وحلفن/ حلفان**، **وكهلن**، أى «الكاهل»، ويرمز إلى القمر، وهو من آلهة معين والعرب الشماليين الغربيين، وأهل قرية (الفاو)، إذ عثر على اسمه مدونا فى كتاباتهم[٤]، **وأثرت** من آلهة قتبان[٥].

وأمدتنا كذلك بأسماء مركبة في تركيبها اسم إله مثل: **إل يفع***[أ]، **وقه إل**، **وقه إيل**، **وشرح إل**، **وشرح إيل**، **وإل فخر**، **وايل فخر**، **وإل تعلى**، **وجرم إل**، **وإس إل**، **وأوس إيل**، وما شابه ذلك وتتألف هذه الأعلام من اسم إله ومن لفظة أخرى ذات صلة به، فتمكنّا بذلك من استنباط أسماء الآلهة منها. ولفظة **إل** هي اسم اله في الأصل يعنى: «القادر والحاكم»؛ يظهر أنه من أقدم معبودات الساميين، ولعله في الأصل إله السماء، وهو رأس الآلهة عند

---

* **المحرر:**

(أ): «**إيل يفع (يافع)**».

الكنعانيين[٦]، وزوجه هى الإلهة «إلهة البحر» في النصوص الأوغاريتية[٧]. وقد نعت **إل** بنعوت عدة هي «أبي البشـر» و«خـالق الخلق» و«الخالد» و«الملك» و«الثور» (أي القوي) و«الحكيم»، و«الطيب» و«الرحيم»، و«الكهل»، ويعتبر عنـدهم مرجـع الآلهـة حين يختلفون ويتنازعون فيها بينهم، حيث كان يعتقد أنه يسكن بعيدًا عنها عند منبع النهـرين ووسـط مجارى المحيطـين[٨]، وهـو **إيلو** (*ilu, elu*) فى الأكادية بمعنى «الإله»[٩]، **إلوهيم** فى العبرانية[١٠]، حيث تحول من اسم إله خاص الى معنى عام هو «إله» و«الله» فى العربية[١١].

ويظهر من دراسة أسماء الآلهة أن منها ما هو اسم واحد من ثلاثة كواكب تعبد لها العرب الجنوبيون، هي القمر والشمس وعشتر، وهي عبادة كانت معروفة في العراق كذلك وأن منها ما ليس باسم علم، وإنما هو نعت لإله مثل: **ذت حمم** أى «ذات الحميم» عند سبأ. وذات الحميم[١٢]، نعت الشمس، ومثل **ثهون**، ومعناها: «المتكلم»، كما فى: «المقـة ثهـون»، و«المقـة» إلـه سبأ الكبير، و«**ثهون**» نعت له، وكما في **المقة ثور بعل** ولفظة **ثور** نعت للإله[١٣]، ومثـل **هوبس**، فإن اللفظـة نعت للإلـه، وإن بدت في شكـل اسم علم وتعني: «اليابس»[١٤]، ومثل **سمع** بمعنى «سميـع»، نعت من نعـوت القمـر، و«سميـع» و«مجيب» من صفـات الله في الاسلام[١٥]، ومثل **ذت صنتم**، **وذت وحين**، **وذت غدون**، **وذت برن**، **وذت ضهون**، **وذت حشولم**، وغير ذلك وكلها نعوت من نعوت الشمس[١٦].

والصفـات بالطبـع أكثـر عددًا من الأسـماء الحقيقيـة للآلهة. نجد ذلك في الكتابات الجاهلية وفي غيرها من كتابات الشعوب، بل نجد ذلك في كل الأديان. فنعوت الإله، أو ما يعبر عنه بالأسماء الحسنى في الاسلام، كثيرة بينما الاسم واحد هو «الله»، ولذلك يجب الاهتمام بهذه النقطة في بحثنا عن أديان العرب قبل الاسلام، لئلا نخلط بين الأسماء وبين الصفات.

وتحتاج بعض الألفاظ مثل: **ورفو**، **وبلو**، **وحلفن**، **ومنضحت**، **ومتقبط** إلى دراسة. وقد ذهب بعض علماء العربية الجنوبية الى أنها تعنى آلهة متخصصة فى بعض الأعمال، فـ **ورفو** في نظرهم هو إله حراسة الحدود، **وبلو** إله البـلاء والبلوى والنـوازل والمـوت، **وحلفن** هو إلـه القسم والحلف، **ومنضحت** هو إلـه الـري والمـاء، **ومتقبـط** إلـه الحصـاد. وهـو ظن لا يفيـد في نظـري يقينـا، ومن الجـائز فى رأيي ألا تكون هذه الألفاظ أسماء آلهة، وإنما هي مجرد مصطلحات أريد بها أمور أخرى[١٧].

ولكن عبـادة الآلهـة المتخصصـة مثل عبادة إله المطر، أو إله الرعد والبرق، أو إله البحر، أو إله الحصاد أو إله البـلايـا، عبـادة مألـوفة، نبعت من البيئة ومن الظروف التي أحاطت بالانسان، فجعلته يصنع مثل هذه الآلهة التي تخيلها خياله، ومن ضعفه وشعوره بالغوامض فليس يستبعد وجود مثل هذه الآلهة عند العرب.

ولا أرى أنّ في أجـوبـة بعض المستشـرقـين عن ألفاظ مثل: **أبحمي**، **وأب رضو**، **وأبشعر**، **وأب شفق**[١٨]، أجـوبـة علميـة مقنعـة. ولهذا أقترح على السادة العلماء دراستها مجددًا مع مقارنتها بما ورد عند غير العرب من مثل هذه الحالات.

ونجد فى نظرية ابن الكلبي عن مصدر الأصنام عند العرب الشماليين أنّ فيها شيئاً من الصحة ، وذلك لورود كثير منها في الكتابات التدمرية والنبطية والديدانية والثمودية واللحيانية والصفوية . والظاهر أنها أصنام زحفت من الشمال نحو الجنوب ، ولكنها لم تجد لها حظًا كبيراً عند العرب الجنوبيين . وموضوع كيفية توزُّع الأصنام وانتشارها موضوع مهم جدًا ، لم يدرس بعدُ أرجو أن يقوم من ينهض به . فنحن اليوم فى حاجة ماسة الى وضع دراسة تستند على ورود الأصنام في الكتابات ، وعلى الروايات التي يرويها أهل الأخبار عن مبدأ ظهور هذه الأصنام ، وعن القبائل التي تعبّدت لها ، لنكوّن من هذه الدراسة رأيًا في كيفية توزع معبودات العرب قبل الاسلام ، وكيفية انتشارها في الجزيرة العرب ، وكيفية تصورهم لها على مر العصور الماضية قبل الاسلام ، وعن مدى تأثر العرب بعضهم ببعض .

لقد تجمع لدى علماء العربية الجنوبية من أسماء آلهة العرب الجنوبيين ، ما ينيف على مائة اسم إله ، غير أن أكثر هذه الأسماء ليست في الواقع أعلاماً ، وإنما هي صفات ونعوت للثالوث : القمر والشمس وعثتر ، ولذلك فكثرة ورود الألفاظ المتعلقة بشخصية الآلهة لا تدل على كثرة الآلهة حتماً . ومن الرموز أو الرسوم التي لها صلة وتماس بأمور الدين ، صورة الهلال وأمامه قرص ، إشارة الى القمر والشمس ، أو الهلال والكوكب المشير إلى عشتر ، وقد عثر على مثل هذه الصورة فى الحبشة(١٩) ، وكان ذلك بتأثير العرب الجنوبيين الذين كانوا قد أقاموا دولة أكسوم في بلاد الحبشة ، وفي مواضع من العربية الجنوبية . ويلاحظ أن الهلال والكوكب هو رمز إلى الاسلام في هذه الأيام ، وتزين به رءوس قباب المساجد والمآذن*(ب) .

ويشير رأس الثور ذو القرنين الى القوة والقدرة ، وهو يعبر عن الإله القمر الأب . وهناك رموز أخرى ذات صلة بالعقيدة ، أنبِّه إلى ضرورة دراستها لما لها من أهمية في دراسة عقائد الجاهليين .

وجاءت الكتابات الديدانية والثمودية والصفوية واللحيانية بأسماء آلهة لم يصل خبرها إلى علم أهل الأخبار ، غير أن بعضها مذكور فى كتاب **الأصنام** لابن الكلبي ، مع شيء من التحريف ، أو نسبتها إلى قبائل أخرى ، وهي لذلك تستحق الدراسة المقارنة ويجب دراسة هذه الأسماء بحماس ، لأنها تمثل حلقة بين عبادة الساميين الشماليين وبين الساميين الجنوبيين بالإضافة الى الطابع المحلي .

وتنتظر الآلهة عمومًا قيام العلماء بدراستها ومقارنتها مع آلهة الشعوب الأخرى ، وذلك لبيان أثر عقائد هذه الشعوب بعضها في بعض ، وللوقوف على تطور عقائد الإنسان منذ أقدم أيامه . فإن ورود اسم إله مثل «**إل**» عند الساميين عموماً ، في أي شكل من الأشكال ، يدل فى الواقع على أنه كان من أقدم معبودات تلك الشعوب ، وكذلك قل عن **عشتار**، **عشتر**، **وشمس**، **وبعل**. وفى ورود أسماء عدد عديد من أسماء الآلهة في الكتابات الجاهلية ضمان لظهور مثل هذه الدراسة التي تشير الى تأثر الأمم بعضها ببعض ، ووجود حقب تعبّد فيها الإنسان لمعبودات

* **المحرر:**
(ب) كذلك اتخذته بعض الدول الاسلامية شعارًا لها ، كما هو الحال في الدولة العثمانية والدولة التركية الحديثة ، وفي تونس والجزائر وباكستان ، ومصر في عهد الأسرة الخديوية ، وليبيا في عهد الأسرة السنوسية .

كانت لامعة، ثم اندثرت. فاسم الإله إل وإن لم نجد له مكاناً في كتابات*(ج) العرب الجنوبيين مثلاً، إلا أن ذكره بقي خالـدًا فيهـا في الأعـلام المـركبـة، مثل إل يفع وإل شرح وإل ـ وقه وغير ذلك. وفي هذه الأسماء عندهم وعند غيرهم دلالة على ما كان له من مقام عند شعوب الشرق الأدنى، وعلى ما أصابه فيما بعد من ذبول وخفوت ذكر.

وتؤيـد إشـارات الآشوريين الى أصنام العرب، الرواية الاسلامية التي تصف الأصنام بأنها كانت تماثيل من حجـارة، وأن بعضـاً منهـا مثل «هُبَل» على هيئة بشر، كما تؤيدها الأحجار التي ترمز إلى الآلهة التي عثر عليها علماء الآثـار في مواضـع من جزيـرة العـرب. ولا نملك في الـوقت الحـاضر دراسة علمية ناضجة عن أصنام عرب ما قبل الاسلام، وما جاء فى **الأصنام** لابن الكلبي من وصف فيه غموض ونقص، وما عندنا من تماثيل مستخرجة من باطن الأرض لا صلة ثابتـة لها بالآلهـة. ولهـذا فنحن بانتظـار عثور العلماء على أصنام تستخرج من المعابد أو من غيرها، تشير الى أنها كانت معبودة، لنستخرج منها مثل هذه الدراسة*(د).

وبفضـل ورود أسـماء الآلهـة في الكتـابات، وبفضل تمكن العلماء من تقدير أعمار مادة الكتابات، سيكون في وسـع العلماء كتـابـة تاريـخ علمي لتطـور الـدين عنـد عرب ما قبل الاسلام، من فترة قبل الميلاد فما بعده إلى قبيل الاسلام، لا عند العرب الجنوبيين وحدهم بل عند كافة العرب الذين تركوا لنا آثاراً مكتوبة أو محفورة، كما سيكون في وسعنـا ربـط عقـائـدهم هذه ومقارنتها بعقائد من عاصرهم من الشعوب، ولا سيما الشعوب الساميَّة التي تتقارب عقائدها وثقافتها ولغاتها الى حد كبير، مكونة رابطة ثقافية لا يمكن الطعن فيها أبدًا.

ويلاحظ من الكتابات أن معبودات العرب الجنوبيين، تكاد تكون مجموعة خاصة مستقلة، نبعت من صميم البيئـة العـربيـة الجنـوبية، وقد أثرت بعض التأثير فى الأكسوميين، ولكنها لم تؤثر في بقية العرب، مع أنهم سكنوا في العربية الشمالية واستوطنوا بها وأعطوهم قلمهم، القلم المسند الذى كتب به أكثر العرب قبل الاسلام. فآلهة العرب الشماليين آلهة لا ترد أسماؤها في الكتابات العربية الجنوبية*(هـ)، وهي نابعة من المحيط الذى ظهرت فيه مع تأثرها

---

* المحرر:

(جـ) في اعتقـاد المحـرر أن (إل) ظهـر بوضوح في أسم المعبود الرئيسى للسبئيين، وهو المقه. فهو اسم مركب من إل ومقـه، التي على وزن «مفعـل» بمعنى «الفـاعل» من الفعل «وقى، يقي» فهو «موق». فيصبح الاسم المركب بمعنى «الواقي». انظر التعليق الذى يلي.

(د) أثبت الكشف عن معبد ربما كان لحور في قرية (الفاو) عاصمة كندة وجود أصنام من البرونز لحر بوقراط وغيره من الآلهـة. انظـر عبدالـرحمن الطيب الأنصـاري، **قريـة (الفـاو)، صورة للحضارة العربية قبل الاسلام في المملكـة العـربيـة السعودية** (لندن ١٤٠٢/١٩٨٢م)، ص ص٢٥ـ ٢٦. كذلك انظر **المرجع نفسه**، ص٢٣ عن المعبودات، ومن بينها إل، التي عرف المزيد عنها من **قرية (الفاو)**.

(هـ) لا شك أن المعبودات الجنوبية وجدت بين عرب الشمال مثل الديدانيين واللحيانيين والثموديين والصفويين مثل **إل، وَدْ، عشتر، وكهل**. فهو تراث ديني مشترك.

بالتيـارات الفكـريـة التي كانت تظهر في العراق وفي بلاد الشام . أظهرت الكتابات الجاهلية أن العرب كانوا يتكلون على الآلهة اتكالاً كبيراً ، فهم إذا حاربوا حملوا أصنامهم معهم ، فقد ورد في نصوص آشورية أن الآشوريين لما هزموا الأعراب في عدة معارك ، أسروا أصنامهم التي كانت معهم ، وهي : **عثر سماين وعشتر قرمية** ***(da-tar qurru ma-a)*** **ودبلات و** ***(dda-a-a)*** **دايا ونوهيا وابيريلو**، وسجنوها عندهم . فلما تصالحوا مع اسرحدون ، أعاد إليهم أصنامهم بعد أن كتب عليها كتابة تفيد بتفوق إله آشور على تلك الأصنام[٢٠] . وهم إذا قاموا بعمل كَرَّسوه لإله من آلهتهم ، وإذا بنوا بيتًا تيمَّنوا بجعله في حماية آلهتهم ، وإذا بنوا قبراً ، ذكروا اسم إله ليحميه من اعتداء الناس عليه بتغييره أوبنبشه أو بدفن غريب فيه .

وقـد كان الحـج إلى بيـوت الآلهـة معروفًا عند الجاهليين ، وفي الموارد الإسلامية إشارات الى الحج إلى «بيت الله» بمكة . وقد أشارت تلك الموارد الى «الكعبات» التي كان العرب يحجون إليها قبل الإسلام[٢١] ، ولم أجد بين النصوص العربية الجنوبية ما يفيد حجهم إلى موضع معين ، أو إلى كيفية الحج عندهم ، ولكن وجود شهر عندهم اسمـه **ذحجتن** «ذو الحجـة» لدليـل يشـير إلى وجـود الحـج عندهم ، كما أن **شهر ذاللت** أي «شهر الآلهة» يؤيد هذا الرأي ، وهو شهر كُرِّس للآلهة ، فهو شهر حرام[٢٢] .

والمعبـد هوبت أي «بيت» فى العـربيـات الجنوبية ، فهوبيت الآلهة ، وهذا التعبير معروف عندنا حتى اليوم ، فالمسجـد هو«بيت الله» . وكـان المكـرّبـون والملوك ، وسراة الناس يتقربون الى الآلهة ببناء البيوت لها ، وبإصلاح ما يخرب منها ، وهي إن انقرضت في هذا اليوم ، فلا نعرف من خططها كثيراً ، الا أن علماء الآثار تمكنوا من حفر أسس بعض المعابد ومن الوقوف عليها ، ووضعوا خرائطها وفقا لهذه المخططات .

وبالمعبد مستودعات لخزن ما يتصدق به المتصدقون من الصدقات ، وما يرد إليه من الضرائب المفروضة على أمـوال المتعبـدين للآلهـة زكـاةً لأمـوالهم ، ويشـرف على جميـع هذه الـزكـاة وعلى أخذ الأعشار والنذور وعلى إدارة الأوقاف ، موظفون يعيِّنهم المعبد يقال لهم **اربى** .

ويرأس المعبد **رشـو**، ويعبر عنه بلفظة **شوع** في المعينية **وأفكل**. وتقابل هذه اللفظة لفظة *apkallu* في الأكادية .

وفى شرائع أهل الجاهلية حرام وحلال ، ونجس وطاهر ، جاء في نص أن من يتصل بامرأة فلا يجوز له دخول المعبـد ما لم يتطهـر ، فإذا دخـل المعبـد وهـونجس أوبملابسه التي اتصل بها بالمرأة يكون قد ارتكب إثماً . وقد فرض المعبد غرامة على رجل لأنه دخله وهو نجس[٢٣] ، وجاء في نص آخر ، أنه لا يجوز للكاهن دخول المعبد إذا كان قد أصاب دم ذبيحة ملابسه ، فعليه إزالة نجاسة الدم عنها ، حتى يباح له دخول المعبد .

وليس في وسع أحد التحدث عن رأي عرب ما قبل الاسلام بالبعث وبالحساب وبالكتاب من خلال دراسة كتاباتهم ، لأن الكتابات التي وصلت إلينا لا تتحدث عن ذلك . ولعل قائلاً سيقول : إذًا لم كانوا يتقربون الى آلهتهم

بالنذور وبالقرابين وبناء المعابد وبالحاصل الأول من الزرع (**فرعم**)، وبما شابه ذلك إذا كانوا لا يؤمنون بيوم آخر؟! وجوابي على ذلك: إنهم إنما كانوا يفعلون ذلك استعطافًا لآلهتهم، لتمنَّ عليهم بالصحة والسلامة، ولتجنبهم الأمراض والعلل، ولتنجيهم من الأوبئة، ولتدفع عنهم الأرق والارهاق وحسد الحساد، واصابة العين، ولتعطيهم غلة وافرة، وأمطارًا غزيرة، وأولادًا ذكوراً أصحاء، ولتبعد عن زرعهم الجراد وبقية آفات الزراعة، ولتهلك أعداءهم، وتنزل المرض بمن يعتدى على أملاكهم ومقابرهم، وما شاكل ذلك مما هو مذكور في كتاباتهم، وكل هذه أمور دنيوية، وليس فيها أى تنويه بوجود عالم آخر يخلف هذا العالم.

نعم، قد يقال لقد عثر على أدوات وآلات يستعملها الانسان في حياته الدنيا في قبور في مواضع ما من جزيرة العرب. ويدل وجودها في هذه القبور على اعتقادهم بأن الميت سيستفيد منها في قبره، تماما كما كان هو اعتقاد قدماء المصريين، وقد تدل على وجود الإيمان لديهم بالحياة الأخرى. غير أني أرى مع ذلك أن من غير العلم في الوقت الحاضر، التحدث عن الحشر والنشر والقيامة عند عرب ما قبل الاسلام، ما دمنا لا نملك نصوصا منهم مدونة في هذا الموضوع، وما دمنا لم ندرس أثر هذه المخلفات في عقيدة البعث.

ومما يؤسف له أسفًا عظيماً، أن علماء الآثار لم يعثروا حتى الآن على مقابر ملكية، ترينا ما دفن فيها من متاع وشراب وأكل، لنستدل بوجوده على عقيدتهم في النشور والبعث والقيامة. وما دمنا لا نملك شيئاً مما ذكرته في الوقت الحاضر، فإن من الصعب علينا التحدث عن هذا الموضوع حديثا علميًا مقنعًا، وأملنا في المستقبل، علَّه يعطينا شيئًا يحمل إلينا الجواب.

وتلعب الطقوس الدينية مثل الذبائح والنذور **والفرع**، أي تقديم البكر من الناتج الى الآلهة، دورا مهما في الحياة الدينية عند العرب قبل الاسلام. وقد تمكنّا بفضل الكتابات من الوقوف على شيء منها، ولكنها لا تزال بكرا من حيث البحث، تنتظر قيام العلماء بالبحث عن نصوص جديدة، وقيامهم بدراسة مقارنة بينها وبين الطقوس الدينية عند بقية الساميين.

وللدم دور خطير في أديان البشر، حتى كان منهم من يضحي بقرابين من البشر ارضاء للآلهة. وفي المعابد مذابح تذبح عليها القرابين، ومذابح حريق تحرق عليها هذه الذبائح، وفي معابد الجاهليين توجد مثل هذه المذابح كذلك.

والكتابات الجاهلية وإن كانت كما قلت في أمور ليست لها صلة مباشرة بالدين، لكنها تقدم لنا على حالها هذا شريطاً تاريخياً متسلسلا لعقائد العرب قبل الاسلام في الدين، بسبب تنوعها وتسلسل تواريخها وأعمارها. ففي الكتابات القديمة منها أسماء آلهة مات ذكرها، فلم يصل عن خبرها إلى ذاكرة أهل الاسلام أي شيء. وفي الكتابات المدونة في عهود تعود إلى قبيل الميلاد وبعده أسماء آلهة جديدة، لم تكن معروفة عندهم قبل الميلاد، مثل الإله «**ذي سمي، ذي سموى**» «رب السماء»، وقد ظهر اسمه قبل الميلاد[٢٤] بقليل، وبقي معبودًا إلى ما بعد الميلاد. وفي ظهوره في هذا الوقت دلالة على ظهور عقيدة التوحيد عند العرب الجنوبيين[٢٥].

والإله **ذي سموي** هو الإله **بعل سمن** «بعل السماء»، رب السماء، عند الصفويين، ورب **شمن**، **بعل شمن** عند أهل تدمر، وهو إله السماء*(و)، وفي هذه التسمية دلالة على ألوهيته للسماء عندهم، وابتعاد العرب الجنوبيين عن مسميات آلهتهم القديمة، وعن عقائدهم فيها، ولا سيما بعد الميلاد، حيث زاحمت اليهودية والنصرانية العقيدة العربية الجنوبية وقوضت الثقافة القديمة، وأوجدت نزاعًا فكرياً أثر على اليمن أثراً كبيراً، أدى الى اضطرابات سياسية انتهت بدخولها في نفوذ الفرس.

ورحمنن (أي الرحمن) كان ممن عرف العرب بعد الميلاد. وهو **رحمنه** *(Raḥman-a)* في تدمر[٢٦]، وقد نعت بـ **رحمنن بعل سمن**[٢٧]، «رب السماء» كما نعت بـ **رحمنن بعل سمين وأرضن** أي «الرحمن رب السماء والأرض»، وفي هذا النعت دلالة واضحة على التوحيد الذي اكتسح مكانة الآلهة العربية القديمة، وحل محل عشتر والمقه ونكرح، وهوبس، حتى اختفت هذه الآلهة القديمة من الكتابات اختفاء تاماً عند ظهور الاسلام.

ونجد في الموارد الاسلامية في حديثها عن «مسيلمة»، أنه نعت نفسه بالرحمن، وأنه دعا إلى عبادة الرحمن، وأنه عرف برحمان اليمامة، فلما نادى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أهل مكة إلى عبادة الرحمن، قالوا إنما أخذ علمه من رحمان اليمامة[٢٨].

وقد ذهب المستشرقون إلى القول بأثر اليهودية والنصرانية في ظهور هذه المعتقدات الجديدة في اليمن. وتحتاج هذه الفترة الى توسع في دراستنا عنها، لنرى مصادر هذا التطور الذى وقع في اليمن بعد الميلاد، وهل هي من منبع يماني قديم أم من منابع جاءت بتأثير العوامل الخارجية على العربية الجنوبية، وفي جملة ذلك أثر السياسة والتبشير؟!

وليس فى كتابات الجاهلية سند يفيد عن كيفية دخول اليهودية أو النصرانية الى جزيرة العرب وزمنه، وقد عثر على كتابة من كتابات القبور في «بيت شعاريم» في جنوب شرقى حيفا، ورد فيها: **منحيم قولن حمير**، أي «مناحيم قَيِّل حِمْير»، يظن من فحصها أن مناحيم هذا كان يهوديًا، من حمير، وقد جاء إلى فلسطين، فمات بها، ودفن في هذه المقبرة المخصصة للأحبار. ويرجع الباحثون تاريخ الكتابة المذكورة الى حوالى سنة **٢٠٠** للميلاد[٢٩]، وإذا صح هذا الرأي فإن معنى هذا أن اليهودية كانت قد وجدت سبيلها الى اليمن قبل هذا الوقت.

وعثر في اليمن على نص مكتوب بالمسند ورد فيه: **تبرك سم رحمنن ذى بسمين ويسرال والهمو رب يهود**[٣٠]، أي «تبارك اسم الرحمن الذي في السماء وإلهه رب يهود»*(ز)، غير أن من العلماء من يشك في صحة نقل كلمة «إسرائيل»[٣١].

---

* **المحرر:**

(و) لقد وصف **كهل** معبود قرية (الفاو)، والتي كانت تسمى باسم «قرية ذات كهل»، بالوصف، **كهل ذي شمن** مكتوبًا بمادة سوداء على أحد جدران غرف المنطقة السكنية.

(ز) كذا في البحث.

ولم يصل إلى علمي أن أحداً عثر على نص جاهلي نصراني، فيه شيء من أمور الدين أوكلام له صلة بالنصرانية، نعم جاء في نص أبرهة المرقم بـ CIH 241; Glaser 618 : **بخيل و. دا ورحمت رحمنن ومسحهو ورح. دس**(٣٢)، أي «رد بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس»، وجملة **وقدسو بعت مرب كبهو قسسم ذبمستالم**، أي «وقدسوا بيعة مأرب وكان بها قسان يقومون بخدمتها»(٣٣)، وجملة: **وقدس بعتن**(٣٤)، أي «وقدس البيعة». والبيعة لفظة معروفة عند النصارى العرب الشماليين كذلك، ولكن أبرهة رجل حبشي نصراني وكان حاكماً على اليمن فهو ليس بيماني من أهل اليمن.

وأشير الى البسملة النصرانية في كتابة للسميفع أشْوع، جاء فيها: **بسم رحمنن وبنهو كرشتش غلبن**(٣٥)، ومعناها: «بسم الرحمن وابنه المسيح الغالب»، وقد كان هاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى اليمن، فحارب ذا نواس بتكليف من الحبشة، وعين ملكًا على اليمن، ولكن الأحباش ثاروا عليه وقتلوه، وحل أبرهة محله(٣٦).

ولكن فى الموارد النصرانية من بيزنطية وسريانية حديث عن النصرانية في جزيرة العرب، وعن تأسيس الكنائس فيها، وعن قيام المبشرين بالتبشير بين القبائل وفي القرى والمدن وعن مساهمة كنائس جزيرة العرب، مثل كنيسة قطر، فى المجامع الكنسية التي انعقدت للنظر في أمور الكنيسة.

وفي الموارد الاسلامية حديث كذلك عن كيفية دخول النصرانية جزيرة العرب، وعن مذاهب النصارى العرب، وهوحديث استقي من موارد يهودية ونصرانية، ومزج بالأساطير التي بقيت راسخة في أذهان رواة الأخبار عن النصرانية في جزيرة العرب قبل الاسلام، فدوِّن في كتب أهل الأخبار والتاريخ، أما الكتابات الجاهلية فلم تتحدث عن هذا الموضوع بعد.

وتوجد روايات نصرانية عن تعذيب نصارى نجران، دوّنها شهود عيان من النصارى. فهي مهمة من هذه الناحية. كما أن فى روايات وهب بن منبِّه عن التعذيب أهمية، وهي تستند بصورة عامة على حوادث واقعية عن موارد يهودية ونصرانية.

وليس في الكتابات العربية الجنوبية خبر عن داعية دعا الى عبادة الأصنام كالذى ذكره ابن الكلبي عن عمرو ابن لحي، ولا عن أشخاص دعوا الى تغيير دين قومهم ولذلك فعلمنا عن هذه الأمور صفر.

وطابع الحياة الدينية عند العرب الجنوبيين طابع متميز، هوطابع الاستقرار والحضارة، ويظهر أثره على هندسة المعابد، وفى الادارة المسيّرة لها، وفي الزكاة المفروضة على المتعبدين لها، من فرع وعشور وغير ذلك، وفي الصدقات التي كانوا يتقدمون بها إلى الآلهة رأساً أو الى المعابد، ثم في دخول المعبد في الحياة العامة للمجتمع، وتنظيمه إياها في مجتمعات دينية ذات طابع سياسي، ودخوله الأسواق بيعًا وشراء باسم المعبد، ومساعدته للحكومات في شق الطرق وبنائها وفي دفع تكاليف الحروب من أموال المعبد التي كانت تعادل أموال الدولة في بعض الأحيان.

ولم تقتصر الرئاسة الدينية على الرجال وحدهم بل نالتها النساء كذلك، فقد أشير الى رشوت أي «كاهنة» في نصـوص المسنـد، ولكننـا لم نعثـر على ذكـر «مُقرِّبة» في هذه النصوص. وفي أخبار أهل الأخبار عن «كواهن» تكهنَّ باسم الآلهة، مما يدل على أن الجاهليين كانوا لا يتورعون من تولي المرأة مركزا دينياً عندهم.

هذا عرض موجـز لموضـوع طويـل عريض لم يدرس بعـد دراسـة كافيـة عن عقائد العرب قبل الاسلام، فيه ثغـرات وفجـوات، وفيـه أسئلة لا يمكن الاجـابة عنها الآن، لعدم توافر مواد الإجابة، أرجو أن تنهض معاول علماء الآثار، وقراء الكتابات القديمة بالاجابة عليها في المستقبل الذى ارجو ألا يكون بعيداً.

الهـــوامش

(١) جـ٥.
(٢) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٦ (١٩٧٠).
(٣) **المرجع نفسه**. A. Grohmann, *Arabien,* 245 .
(٤) A. Jamme, «New Hassean and Sabaean Inscriptions from Saudi Arabia», *Oriens Antiquus* VI (1967), fascicolo 2, 181.
(٥) جواد علي، **المرجع نفسه**، ص٢٩٩.
(٦) موسكاتي، ص١٢٧، P. Hastings, 299 .
(٧) موسكاتي، ص٢٧٣.
(٨) **المرجع نفسه**، ص٢٧٢.
(٩) **المرجع نفسه**، ص٣٥٣.
(١٠) **المرجع نفسه**، ص١٩٤، *Reallexikon* (Zweiter Band), 352 .
(١١) موسكاتي، **المرجع نفسه**، ص١٩٥.
(١٢) *Handbuch* I, 188, Ilmukah, 56 .
(١٣) **الموضع السابق نفسه**.
(١٤) D. Nielsen, *Die altarabische Mondreligion,* 107 .
(١٥) جواد علي، **المرجع نفسه**، ص٢٩٩.
(١٦) **المرجع نفسه**، ص٣٠١.
(١٧) **المرجع نفسه**، ص٢٩٥.
(١٨) A. Grohmann, *op. cit.,* 246. .
(١٩) دتلف نلسن، ص٣٦.
(٢٠) جواد علي، **المرجع نفسه**، جـ١، ص٥٩٢ وما بعدها.

(٢١) المرجع نفسه، جـ٦، ص٤٠١.
(٢٢) خليل يحي نامي، نص١٢.
(٢٣) **Glaser 1052; Hofmus 6, CIH 523**.
(٢٤) *Handbuch I,* 88, **REP 4141, 4142**.
(٢٥) جواد علي، المرجع نفسه، جـ٦، ص٣٠٦.
(٢٦) المرجع نفسه، ص٣٠.
(٢٧) المرجع نفسه، ص٣٠٦.
(٢٨) المرجع نفسه، ص٨٦. *Shorter Encyclopaedia,* 416.
(٢٩) S.D. Gottein, *Jews and Arabs,* 42, *Die Araber* III, 16.
(٣٠) **Glaser 394 - 395,** *Revue des études juives* 23 (1891), 122.
جواد علي، المرجع السابق، جـ١، ص٥٤١.
(٣١) Marglιouth, 68
(٣٢) السطور الأولى من النص.
(٣٣) السطر ٦٦ وما بعده.
(٣٤) السطر ١١٧.
(٣٥) **Istanbul 3904, REP VI, II, 376;** *Le Muséon* LXIII, 3-4 (1950), 272
(٣٦) جواد علي، المرجع نفسه، جـ٣، ص٤٧٦ وما بعدها.

الكعبـــة

أسماء، وعماراتٍ، ومعبدًا لا معبودًا، وتاريخًا قبـــل الإســـــلام

عبدالقدوس الأنصاري*

أولاً: أسماء الكعبة قبل الإسلام

تَمَكَّنْتُ نتيجة بحثى فى مختلف المراجع، من جمع عشرة أسماء للكعبة قبل الاسلام. أنا مُورِدُها فى هذا البحث الخاص بذلك الذى هو ضمن البحث العام عن الكعبة قبل الإسلام.

وقد ورد بعض هذه الأسماء في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوىّ الشريف، وفى الشعر العربيّ الجاهليّ، وفي المخضرم، وفى المراجع اللغوية وغيرها.

من تلك الأسماء اسم «الكعبة» ورد فى القرآن المجيد مرتين فى سورة **المائدة**. . فى الآيتين **٩٥، ٩٧**.

وورود هذا الاسم فى الذكر الحكيم يحمل فى طياته أنه كان اسماً معروفاً مُتَداولا في الجاهلية لهذا البيت العتيق.

وقد ورد اسم «الكعبة» نَصًّا فى حديث نبوي صحيح أوله: «أراني ليلةً عند الكعبة فرأيت رجلا آدم. . الخ»[١]. . كما ورد أيضا أنه «لما ظهر رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوم فتح مكة دخل المسجد الحرام والأصنامُ منصوبةٌ حول الكعبة فجعل يطعن بِسِيَةِ قَوْسِه في عيونها ووجوهها، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا»، «ثم أمر بها فَكُفِئَت - أي أُلْقِيت على وجوهها - ثم أُخرجت من المسجد فَحُرِّقَت»[٢].

وورد فى كتاب الأزرقي عن عبدالله بن مسعود أن الأصنام حول الكعبة كانت **٣٦٠** صنماً، وذكر أنه كان فى يده قضيب[٣] وأنه كان يشير إليها بقضيبه فتتساقط على ظهورها.

واسم الكعبة متـداول كثـيرا في الأحاديث النبوية، وفي كلام العرب المنثور، وفي المراجع اللغوية والتاريخية، والأدبيـة، وفي السـيرة النبـويـة، وغـير ذلك، وبَدِيهِيٌّ أن المَعْنِيَّ بهذا الاسم هو نفس «البيت الحرام» بمكة. وتقول المـراجـع اللغـويـة المعتمـدة: «إن اسم الكعبـة مشتق من مادة التكعيب في اللغـة العـربيـة وهـو: التربيع، أومع الارتفاع. قالوا: ومنه الكعب سُمي بهذا الاسم لنتوئه وخروجه من جانبي القدم»[٤].

هذا وقد بَحَثْتُ مليا فى جملة من دواوين الشعر الجاهلي، وكُتُب الأدب واللغة والتاريخ، وكُتُب السيرة النبوية وغيرها، لعلي أعثر على بيت أو أبيات من الشعر الجاهلي فيها اسم «الكعبة» نَصّاً فلم أوفّق بَعْدُ إلى طلبتي، ولا أزال مَعْنِيا بهذا البحث ولن أزال إن شاء الله.

---

* **المحرر:**
رحم الله الشيخ عبدالقدوس الأنصاري رحمة واسعة وغفر له، فقد لقي ربه في **١٤٠٣/٦/٢٢**هـ قبل صدور هذا الكتاب.

وأذكر أني في شرح ديوان حسان بن ثابت رضى الله عنه الذى راجع طبعتَه الاستاذ حسن كامل الصير في ـ وهـو شاعـر مصـرى معـاصر ذو اطلاع واسع على اللغة والشعر العربي ـ وجدت في شرح ذلك الديوان قصة تاريخية مضمـونهـا أن نفـرا من شبـاب قريش في الجـاهليـة بينهم أبـولهب اتفقوا على سرقة الغزال الذهبي المحفوظ فى جُبِّ الكعبة الذي هو خزانتها المحفورة في باطنها قرب بابها الشرقي، فلما حققوا هدفهم ذلك دار بينهم حوار مسهب ورد فيه اسم الكعبة نصا مُرادا، وجاء دَوْرُ تسجيل الحادث الذى كان له دويُّه في الاوساط القرشية، إذ ذاك شعرا، فرأينا شاعر الجماعة ومسجل الحادث، أبا مسافع، وكان واحدا منهم، مشاركا لهم في تنفيذ خطتهم، رأيناه يعدل في شعره عن ذكـر اسم الكعبـة الى ذكـر اسم (البيت). ولعـل ذلـك ناشىء عن خفة هذا الاسم على طبيعة الشعر العربي الموزون المُقَفَّى بالنسبة لاسم (الكعبة).. قال:

أبـلغ بني الـنـضـر أعـلاهـا وأسفلهـا ... أن الـغـزال وبـيـتِ الله والـرُّكْـن
أمْـسَـت قِيَـانُ بني سَهْـم ٍ تَقَـسَّـمُـهُ ... لم يُغْـلَ عنـد نَدَامَـاهُـنَّ بالـثَّـمـن[٥]

وأخيـرا عثـرت على اسم «الكعبـة» نصـا في قصيـدة مطولة يتحدث فيها الشاعر جُمَاعَةُ البارقيُّ عن هجرات بعض أهل اليمن من الجنوب إلى الشمال. فقد ورد في هذه القصيدة المسهبة التي تبدو على نسجها الصنعة قوله:

واحْـتَـوتْ مِنْهُـمُ خُزاعـتُـهـا الـكعـ ... ـبـةَ ذاتَ الـرسـوم والآيـات
أخـرجـتْ جُرْهُـمَ بن يَشْـجُـبَ منهـا ... عنـوة بالـكـتـائـب المـعـلمات

وقـد راجعت العـديـد من المصـادر الشعـريـة والادبيـة واللغوية، وغيرها لعلي أعثر على ترجمة للشاعر جُمَاعَة البـارقي لأعلم هل هو جاهـلي أو إسـلامي.. فاذا كان جاهليـا أكون قد عثرت على ضالتي المنشودة في شعره هذا، وهى وجـود اسم الكعبـة فى شعـر جاهـلي.. ولكني عُدْتُ بِخُفي حُنَيْنٍ.. ولكوني وجدت مع البيت الذى فيه اسم «الكعبـة» اسم ناظمـه في كتـاب **صفـة جزيـرة العرب** للهمداني فقد تتبعت اسمه في مختلف المصادر والمراجع حتى وجدته أيضا فى كتاب **الاكليل** للهمداني أيضا.. فانشرح صدرى لهذا الكشف العلمي، لأني أدركت من طبعة هذا الكتـاب فى جزأيـه: الأول والثـاني أن ناشره ومحققه الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحَوَالي يترجم فى هوامشه لكل من وردت أسـماؤ هم فى **الاكليـل**. فتتبعت اسم جُمَاعَـة البـارقي أولا في فهـارس الجـزء الأول من **الاكليـل** فوجدته فى فهارس الجزء الثاني منه معزوا فيه وجوده فى الجزء الأول في الصفحة **٢٢٦** من كتاب **الاكليل**، فتتبعت تلك الصفحة وما والاها من قبلها ومن بعدها، فلم أجد شيئا عن الشاعر، ومن ثم رأيت ان أقوم بكشف عام للكتاب في طبعته الأولى.. وبعـد لأيٍ وجـدت اسم الشـاعـر جُمَاعَـة البـارقي في الصفحـة **١٢٦** من الجزء المذكور، ولما نظرتُ ما فى التعليق عليـه وجـدت محقق الكتـاب يقـول عن الشاعر ما نصه: «لا أعرف عن أحوال جُمَاعة البارقي شيئا، إلا أن المؤلف أورد قصيدته التي بها هذان البيتان في كتابه: **صفة جزيرة العرب**»[٦]. وقد ارتاح خاطري إلى هذه النتيجة التى توصـل إليهـا الاسـتـاذ الأكـوع بعد تحريات ودراسات مكثفة وهي تماثل النتيجة التي توصلت إليها بعد تحريات ودراسات واسعة أخرى.

واسم «الكعبة» لا ريب أنه معروف ومُتَدَاوَل قبل الإسلام لدى عرب الجاهلية يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وذِكْرُه في القرآن المجيد الذي نزل بلغة العرب الفصحى فيه دليل قاطع على تداول الجاهليين لهذا الاسم العربي

القَحّ الذى نطق به القرآن الحكيم أسوة باسم «البيت» في نفس المعنى المشار اليه وبذاته.

وكـان فى بلاد العـرب «كَعَبَـات» أخرى مذكورة، غير هذه الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام بيده تنفيذا لأمر الله جل جلاله. وقد أمره جل وعلا أن يُؤَذِّنَ في الناس بالحج، ففعل. ونعتقد أن هذه «الكَعَبَات» الأخرى التي أقـامهـا العـرب في أنحـاء بلادهم هُنَّ «تقليد» منهم للكعبة المقدسة في مكة، فهي كَعَبَاتٌ بنيت على تقاليد الشرك لدى عرب الجاهلية. وبمجرد ظهور الاسلام اندثرت وأصبح كلها أثراً من الآثار يحكى أنها كانت في المكان الفلاني في الزمن الفلاني وبناء فلان من العرب. وبعض هذه الكعبات الجاهلية ورد اسمها مجموعا في الشعر الجاهلي. قال الشاعر الأسود بن يعفر:

أهـل الخَـوَرْنَـق والـسَّـدِيـر وبـارِقٍ	والـبـيـتِ ذي الـكَـعَـبَـات من سنـداد

ومن أسماء الكعبة التي وردت في القرآن الكريم مرات متعددة اسم «البيت». ورد هذا الاسم موصوفا بالعتيق وبالحرام، وبالُمحرَّم، ومضافا إلى ياء المتكلم الذى هو «الله» جل جلاله، وذلك في **البقرة (١٢، ١٢٧، ١٥٨)، آل عمران (٩٦، ٩٧)، المائدة (٢)، الأنفال (٢٥)، ابراهيم (٣٧)، الحج (٢٦، ٢٩، ٣٣)، الطور (٤)، قريش (٣)**[٧]. وقد فسر ابن كثير الآية فى سورة **الطور**، وهي قوله تعالى: «والبيت المعمور» بأنه «كعبة أهل السماء السابعة»[٨].

وكما ورد اسم «البيت» في القرآن المجيد، فكذلك ورد في الأحاديث النبوية الشريفة، مما هو مدوَّن في أماكن وروده بالكتب المختلفة من كتب حديث نبوي شريف، وسيرة نبوية، وتاريخ، ولغة، وبُلْدَانِيَّاتٍ، وكذلك ورد اسم البيت في الشعـر الجـاهـلي.. بكثرة، لَعلّه لخفته في نطاق وزن الشعر العربي الأصيل وسهولة اندماجه في تعبيراته، لأنه اسم ثلاثي ساكن الوسط.. خفيف على الوزن الشعري فى شتى بُحُورِه.

ولعل من أقدم من يُعْزَى إليه الشعر من عرب الجاهلية هو التُّبَّعُ أسعد أبو كرب الذي قال بعض المؤرخين: إنه عاش في القرن العاشر قبل الهجرة.. وإنه قَدِمَ إلى مكة من احدى غزواته في العرق مارًا في طريقه منها بيثرب، متجهـا إلى بلاده (اليمن) جنوب كُلٍّ من يثـرب ومكـة.. وقـد رَوَوْا أنـه عَظَّم الكعبـة وأكـرم أهلها.. وأطعمهم وأسقاهم، وكسا الكعبة أول من كساها، ورد ذلك في حديث نبوي كريم.. ولما انتهى من زيارته لمكة وأزمع النزوح منها إلى اليمن قال هذا الشعر مباهيابما صنع لمكة وللكعبة:

وكـسـونـا الـبـيـت الحـرام الـذي	حَرَّم الله مُلاء مُعَـصَّـيًـا وبُـرودا
وأقـمـنـا به من الـشـهـر عشـرًا	وجـعـلنـا لـبـابـه إقـليـدا
وخـرجـنـا منـه نَؤُمُّ سُهَـيْـلاً	ورفـعـنـا لواءنـا المـعـقـودا[٩]

ويُعْـزَى إلى شحْنَـة بن الأحنف الجُـرْهمي أنـه قال حينـما نصب عمرو بن لُحَيّ الأصنام حول الكعبة يستنكر شحْنَة عليه ذلك، وينذره بسوء عاقبة قومه من جراء هذا الذى قام به مُغَيِّرًا به دين إبراهيم عليه السلام، من عبادة الله الواحد الأحد، إلى عبادة الأصنام والأوثان في بلد الله الحرام، وفي بيته المحرم.

قال يخاطب عمرو بن لُحَيّ فيما رووه:

يا عمرو إنك قد أحْدَثْتَ آلهةً   شَتَّى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربٌّ واحد أبدًا   وقد جَعَلْتَ له في الناس أربابا
لَتَعْرِفَنَّ بأنَّ الله في مَهَلٍ   سَيَصْطَفي دونكم للبيت حُجَّابا(١٠)

ويُنْسَب إلى مُضاض بن عمرو الجرهميّ مُباهيا بولاية جرهم على البيت فيما سبق قوله:

فنحن عمرنا «البيت» كنا وُلاتَه   ندافع عنه من أتانا وندفع(١١)

هذا وقد تحفظنا في ذكر ما نُسب من الشعر الى تبع، وشحنة الجرهمي ومضاض الجرهمي بالنظر لما قاله ابن الكلبي: «ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام»(١٢).

وقال قيس بن منقذ بن عبيد بن خاطر بن حُبْشِيَّة بن سلول الخزاعي.. (واسم حُبشية من أسماء خزاعة). قال:

تَلَيْنَا بـ«بيت» الله أول حلفة   وإلا فأنصاب يَسُرْن بغبغب(١٣)

وقال أبوطالب بن عبدالمطلب:

أحضرت عند «البيت» رهطي ومعشري   وأمسكت من أثوابه بالوصائل(١٤)

وقال الحُصين بن الحُمام المُري أحد بني سهم بن مرة، (وهو شاعر جاهلي) ذكر ذلك أبوالفرج الأصبهاني في **الأغاني**:

أبونا كِتَّانيٌّ بمكة قبره   بمعتلج البطحاء بين الأخاشب
لنا الرُّبع من بيت الحرام وراثةً   ورُبْعُ البطاح عند دار ابن حاطب(١٥)

وقال أبو قيس بن الأسلت، (وهو شاعر جاهلي) ذكر ذلك **الأغاني** لأبي الفرج الأصبهاني في ترجمته:

فقوموا فَصَلُّوا ربكم وتَمَسَّحُوا   بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مُصدَّق   غداة أبي يَكْسُوم هادي الكتائب(١٦)

ومن أسماء الكعبة قبل الاسلام: «الْبَنِيَّةُ» على وزن غَنِيَّة.. قالت سُبَيْعةُ بنت الأحَبِّ أو «الأجب» في ذلك:

ولقد غزاها تُبَّعٌ   فكَسَا بَنِيَّتَهَا الْحَبِيرْ(١٧)

وفى **رحلة العبدريّ** يقول صاحبها: «ويقال للكعبة: الْبَنِيَّةُ، اسم لها مشتق من البناء»[١٨]، وفى **لسان العرب** لابن منظور: «والْبَنِيَّةُ على فَعِيلة: الكعبة، لشرفها إذ هي أشرف مَبْنًى». وفي حديث البراء بن معرور: رأيت أن لا أجعل هذه البَنِيَّةَ مِني بِظَهْرٍ- يريد: الكعبة وكانت تُدعى «بَنِيَّة إبراهيم عليه السلام»، لأنه بناها. وأورد هذا الاسم أيضا الشيخ محمد المكي بن الحسين فى كتيبه[١٩].

ومن أسماء الكعبة «الدَّوَّار» بتشديد الواو، وتخفيفها مع فتح الدال المهملة قبلها وضَمِّها.

و«الدَّوار» فى كتاب **الأصنام** لابن الكلبى هو: الطواف حول الأصنام والأوثان وهذا نص كلامه:
«وكانت للعرب حجارة غُبْرٌ منصوبة يطوفون بها، ويَعْتِرُون عندها - أي يذبحون الغنم عندها - يسمونها الأنصاب، ويسمون الطواف بها الدَّوار»[٢٠].

ويبدو من تحليل معنى كلمة «الدوار» بهذا المعنى الجاهلي أنها تقابل كلمة (الطواف) حول الكعبة المشرفة.. ذلك الطواف الخالص لعبادة الله في أصله وهدفه الأسمى.

وفي **لسان العرب** لابن منظور: أن «الدُّوَّار بالضم وتشديد الواو بعد الدال المهملة المضمومة، وقد يفتح، هو صنم كانت العرب تنصبه، يجعلون موضعا حوله يدورون به.. واسم ذلك الصنم والموضع الدّوار. ومنه قول امرىء القيس (في معلقته):

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأن نعاجه عَذَارَى دَوَارٍ في مُلَاء مُذَيَّل[٢١]

ومن أسماء الكعبة أيضا «القادس».. وفي **لسان العرب** «القادس: البيت الحرام» وقد ورد مثل ذلك أيضًا عن «القادس» اسْمًا للكعبة، في كل من كتاب **أخبار مكة** للأزرقي و**معجم متن اللغة** لأحمد رضا، وفى كتيب الشيخ محمد المكي ابن الحسين أيضا رواية عن أحد مراجعه أنها سميت بذلك من التقديس والتطهير[٢٢]. ومن أسمائها أيضا «نَاذِر» وذلك على ما ذكره كتاب **أخبار مكة**، ثم كتاب **مرآة الحرمين** وكتيب **أسماء الكعبة المشرفة** لمحمد المكي ابن الحسين[٢٣]، كما أن من أسمائها أيضا «القرية القديمة»[٢٤].

وربما كان بوسعنا أن نضيف إلى تلك الأسماء القديمة للكعبة اسم (القبلة).. فقد ورد هذا الاسم في شعر رَجَزِيّ لشاعر جاهلي، يتحدَّثُ عن بعض تقاليد الجاهلية القريبة من الاسلام.. ألا وهي إجازة الإفاضة للناس من المزدلفة إلى منى.. قال:

خَلُّوا الطريق عن أبي سَيَّاره وعن مَواليه بني فزاره
حتى يُجيز سالما حِمَارَه مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد أجار الله من أجاره

وكان أبوسيارة الذى يطلب الشاعرُ أن يُخَلِيَ الناسُ الطريق عنه، يقوم في الجاهلية بإجازة الإفاضة للناس، وهو على حمار أسود[٢٥] أو أتَانٍ.

وقد سَمَّى الله الكعبة «قِبْلَةً» في قوله جل من قائل: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا»(٢٦). وقال عبدالمطلب مخاطباً المولى، جل وعلا، لما اقترب أبرهةُ من مكة يريد هدم الكعبة في أبيات مشهورة:

إن كنت تاركهم وقِبْلَتَنا فأَمْرٌ مَّا بَدَا لَكْ

أما اسم «المسجد الحرام» فهو من الألقاب القرآنية، جُعِلَ عَلَمًا على حريم الكعبة المحيط بها، وهو محل الطواف. ولم يكن يُعرف بالمسجد في زمن الجاهلية، إذ لم يكن لهم صلاة ذات سجود. والمسجد مكان السجود(٢٧).

وكان جواد علي عزا لفظة «مسجدا» هكذا بالألف في آخرها - إلى الانباط الذين فسدت لغتهم العربية، وكانت سَلفا في ذلك للعامية المولدة بعد انتشار الاسلام على المعمورة. قال: «وترد لفظة مسجدا في الكتابات النبطية، وتعني المسجد»(٢٨).

ويتراءى لي أن صيغة «مسجدا» بالألف في آخرها، إذا كان لَفْظَهَا الحقيقي في النبطية فهي عربية الجذم، داخَلَها التزام الألف في آخرها، كنوع من أنواع تحريفات العامية وتصرفاتها العشوائية في اللغة الأم «الفصحى»، التي نشاهد العديد من أمثلتها في عامية العالم العربي اليوم، وقبل اليوم.

ومما يراه جواد علي أن «المسجد» و«المسجد الحرام» و«الحرم» يعني بها الجاهليون «الحرم» الذي أحاط بالكعبة، ولا تُعرف حدوده في الجاهلية على وجه واضح معلوم(٢٩).

وهذا الرأي يقارب إلى حد بعيد قول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره **التحرير والتنوير**، وهو القول الذي مر بنا آنفا. ولكنه خصصه لاسم «المسجد الحرام»، ولم يفرد في ذلك المعنى، صيغة «المسجد» ولا صيغة «الحرم»، على أن ابن كثير لم يُقِر هذا التفسير، لصيغة «المسجد الحرام»، فهو يفسر اسم المسجد الحرام بالكعبة، وروى عن الإمام الشافعي: أن الغرض إصابة عَيْنَ الكعبة، وفي حديث أبي البراء: أن النبي صلى قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله يحب أن يُحَوِّل نحو الكعبة فنزلت: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ»؛ فَصُرِفَ إلى الكعبة(٣٠).

وقد قرر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، هذا الرأي بِأَخَرَةٍ، فقال: «والجمهور على أن المراد بالمسجد الحرام هنا: الكعبة، لاستفاضة الأخبار بأن القبلة صُرِفَت إلى الكعبة، وأن رسول الله أُمِرَ بأن يستقبل الكعبة، وأنه صلى إلى الكعبة يوم الفتح وقال: هذه القبلة»(٣١).

وجاء فى **القاموس المحيط** للفيروزآباديّ اسمان آخران للكعبة هما: اسم «الحَمْسَاء» قال ما نصه: «والحُمْسُ: الأمكنة الصلبة، جمع أحمس وهو لقب قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم في الجاهلية لتحمسهم في دينهم، أو لالتجائهم بالحَمْسَاء وهي الكعبة لأن حجرها أبيض إلى السواد»(٣٢). و«المُذْهَبُ» أيضا من الأسماء التى سميت بها الكعبة فيما أورده صاحب **القاموس المحيط** فيه (مادة: الباء).

وأورد الشيخ محمد المكي بن الحسين أن من أسماء الكعبة عن الزبير بن بكار اسم «الإِلاَل» ـ ككتاب . . وفَسَّرَ بذلك قول النابغة الذُّبياني في البيت التالي[٣٣]. وعندما درست ديوان النابغة الذبياني هذا على شيخنا العلامة الشيخ محمد الطيب بن اسحاق الأنصاري رحمه الله فَسَّرَ لنا «إِلاَلاً» بأنه جبل بعرفات، وبيت النابغة هو:

بِمُصْطَحِبَاتٍ من لِصَافَ وثَبْرَةٍ يَزُرْنَ إِلاَلاً سَيْرُهُنَّ التَّدَافُعُ

وسياق بيت النابغة هذا يدل على أن المقصود بإِلاَلٍ هو: (جبل بعرفات) وقد أيَّد هذا المعنى **القاموس المحيط** (مادة: أَلّ) وغيره.

ثانيا: عمارات الكعبة قبل الإسلام

هنَّ أربع عمارات:

أولاها العمارة التي أقامها إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام. وهى المعنية بقوله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِّلْعَالَمِينَ»[٣٤]. ولما أكمل إبراهيم هذه العمارة الأولى لبيت الله المحرم، أمره الله عز وجل بقوله: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»[٣٥]. فاستجابت له البشرية، وبدأ الحج إلى مكة من يومئذ حتى يوم الناس هذا. . واستمر وفود ضيوف الرحمن إلى بيته المحرم زهاء أربعة آلاف عام. . أي منذ أَذَّنَ إبراهيم في الناس بالحج.

وثانية العمارات وثالثتها: عمارتا العماليق وجُرْهُم. . ولوجود القبيلتين اليمانيتين فى مكة في آن واحد. . اختلط الأمر فى أولى العمارتين، على رواة الأخبار، فمنهم من قال بسَبْقِ عمارة العماليق لجرهم، ومن الرواة من قال بعكس ذلك. . وأيًّا ما كان الأمر فالعمارتان ثابتتان للكعبة في كل عهد من عهديهما.

والعمارة الرابعة عمارة قريش قبيل بعثة رسول الله سيدنا محمد بن عبدالله ﴿ﷺ﴾ ببضعة أعوام. وهذه العمارة هي العمارة الرابعة للكعبة قبل الإسلام.

١ ـ عمارة إبراهيم عليه السلام

من الأمور التاريخية المُسَلَّم بها أن أول عمارة للبيت الحرام كانت على يد خليل الله ونبيه أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. والذى رفع وقوع هذا الحادث العظيم إلى حد اليقينيات أن الله جلَّ وعلا نص عليه في كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. . وذلك إذ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِّلْعَالَمِين». وإذ يقول: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»[٣٦]. وكان العرب أهل الجاهلية متواترة لديهم من الأسلاف إلى الأخلاف هذه الحقيقة التاريخية جيلا بعد جيل. . وكان العالم القديم يعرف كثير منه هذه الحقيقة، وسجلت عن ماضي تاريخه العريق. وقد نشأت من معرفتهم لهذه الحقيقة قضية تعظيمهم للكعبة، لا كما يقول به بعض

المستشرقين الذين اعتبروا أنفسهم أوصياء على تاريخ العرب والاسلام، فهم يُفَصِّلون لهما ما يشاءون من ثياب لا تتفق وحقيقــة قوامهــا، وهم يملون على القـراء في هذا الصــدد ما تمليـه عليهم عواطفهم المجـردة، ليجعلوا منهـا بأساليبهم، شبه العلمية، حقائق واقعية. وما هي في الواقع إلا بنات عواطفهم وأمزجتهم الخاصة. . كُتِبَتْ ونشرت لأغراض غير علمية دقيقة ولا شريفة.

وأهل البيت أَدْرَى بما فيه. . وأهل مكة أدرى بشعابها. . وتاريخ العرب وتاريخ الاسلام، بحمد الله، ليسا كغيرهما من التواريخ، فهما واضحان مبيّنان. سجل عناصرهما شِعْرُهم ونثرهم، وسجلها في عهد الإسلام كلام الله المحفوظ الصـادق الأمـين، وسجلهـا حديث رسـوله الصادق المصدوق، وعُني بتحقيقهما وتدوينهما الرواة الثقاة. . وسجلوا فيه حقائقهما بغير الْتِفَاتٍ إلى حُبٍّ أو كره، أو تقدير، أو تحدير، أو صداقة، أو عداوة. .

وهـذا المـوضـوع كبـير وهـام، ونـرجو أن يوفقنا الله سبحانه لخوض غماره، والوصول بهذا الخوض المزمع إلى أعماقه، لإبراز الحقائق المشرقة إن شاء الله.

وكـان البـارىء، جلّ وعـلا، أمـر نبيـه وخليله أن يبني الكعبـة في مكـان مُعَيَّنٍ من وادي ابراهيم، وكان ابنه ومعـاونـه النبي إسـماعيـل قد شب فاستعـان به على أعـمال البنـاء. . كان إبراهيم يبني الكعبة بحجر الدَّبَش، غير المنحوت، بناء (رَضْمًا) أي إنه كان يضع الحجارة فوق الحجارة بدون ملاط من طين أو مَدَرٍ أو قَصَّةٍ - نُورة - فلما بلغ في بنيـانـه لها حَدّا، احتـاج معـه إلى شيء يقـوم عليـه بسبب ارتفاع البناء تدريجيا، اتخذ من حجر المقام الذي لا يزال موجـودا أمـام باب الكعبـة تقـريبـا، مما يلي حجر إسماعيل موقفا له. فالمقام أثر من الآثار التاريخية المحترمة. . وكان إبـراهيم طلب من اسـماعيـل إحضـاره له. لهذا الغرض، ففعل. . والمقام - لغة - هو الموقف. . وكان إبراهيم يُحَوِّلُ حجر المقام هذا، من جهة إلى جهة، حسب اقتضاء عملية البناء لِجُدُرِ الكعبة.

ولم يجعل إبراهيم في بنائه للكعبة بابًا لها، ولا قُفْلا، ولا سقفا. كان بناؤه مثال البساطة التامة. . وفي بعض هذا يقـول حَبْرُ الأمـة الاسـلاميـة عبـدالله بن عباس رضي الله عنهما: «والله ما بَنياه - أي البيت الحرام - [والضمير راجـع إلى إبـراهيم وإسـماعيـل] بِقَصَّـةٍ - نُورَة - ولا مَدَرَةٍ، ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يُسَقِّفَانه، ولكنهما أعلماه فطافا به»[٣٧].

ودَعْماً لبناء البيت وتمكيناً له من البقاء أطول زمن ممكن وضع إبراهيم الْجَلَامِيدَ الضِّخَام التي وصفها المؤرخون والعـرب بأنهـا «مُنْكَـرَةٌ» لضخـامتهـا المتنـاهية وأشكالها غير العادية. والأساس القوي للبيعة وسيلة عُمْرَانية معروفة لطول أمد بقائه. وإذا كان إبراهيم عليه السلام لم يُعْنَ بضخامة البيت وروعة بنائه وزخرفته. . فذلك لأمور اعتادها الأنبيـاء. . فيـما يبنـونـه من المعـابـد لأنهم يريـدون بها وجه الله، وأن تُؤدي فيها شعائر عبادة الله، من قبل المؤمنين فحسب. . ولنـا دليـل قائم، في بنـاء المسجد النبوي على الشكل البسيط المتواضع الذي بناه عليه رسول الله محمد ابن عبدالله، «حفيد إبراهيم» عليه السلام الذى بنى الكعبة المقدسة قبل مولده، بنحو ألفي عام. . وإبراهيم عليه السلام كان قد رآى في حياته الحافلة عظمة المباني التي أقامها الناس على الأرض، لأغراض عديدة، منها ما يتعلق

بعقـائـدهم وديـانـاتهم . . فلم يُؤَثِّرْ عليه ذلك وبنى الكعبة هذا البناء الحجري الذى لا تزال عليه منذ ذلك التاريخ السحيق حتى الآن، ببعض تعديلات لم تُخْرِجْها عن طبيعة البناء العام الأول حتى الآن.

الكعبة مركز الأرض

هذا وجـديـر بالمنـاسبـة أن نذكـر هنـا تلك البحـوث العلمية الفلكية التى أَبْدَتْ مؤخرا أن الكعبة هي مركز الأرض، وقد بنيت في قلب مكة المكرمة . . وهي بحوث تناولها علماء محترمون بالدراسة وأثبتوا نظريتهم هذه فيها. وإذا أضفنـا إلى ذلـك ما هومقـرر في التـاريخ وقبل الاسلام وفي الاسلام من أن الحجر الأسود هوعلامة بدء طواف الطـائفـين حول الكعبـة . . وأن هؤلاء الطـائفـين إنـما يبـدأون طوافهم منـه جاعلين الحجر الأسود عن أيسارهم، ويسـير ون هكـذا، في سائـر طوافهم، حول الكعبة حتى يختموا طوافهم بالحجر الأسود أيضا في إطار مسيراتهم وهو على أيسـارهم، فإذا قارنّـا بين نظـريـة مركـزية الكعبة للأرض، وعملية الطواف الذي يمشي فيه الطائفون صوب اليسار، وأضفنا إلى ذلك كله نظرية دورة الكرة الأرضية العامة من هذه الناحية، فنكون حينئذ قد أدركنا جزءا من سِرِّ الطواف صوب اليسار خلافاً للتَّيامُنِ الذي عليه آداب الاسلام في الأعمال والأحوال ومختلف الشؤ ون الإسلامية الهامة.

وقـد رفـع إبـراهيم البيت إلى السـماء تسعـة أذرع. وجعل عرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعا، من الركن الأسود إلى الركن الشامي الذي عند الحجر من وجهه، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي فيـه الحجـر اثنـين وعشـرين ذراعـا. وجعـل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني واحد وثلاثين ذراعا، وجعـل عرض شقهـا اليـماني من الـركن الأسود، إلى الركن اليماني عشرين ذراعا، فلذلك سميت الكعبة لأنها على خِلْقَةِ الكعب، وجعل بابها بالأرض غير مبوب(٣٨).

٢، ٣ ـ عمارتا العماليق وجُرْهُم

سبق لنـا أن بينـا الاختـلاف الذي حدث في أي القبيلتين بنى الكعبة قبل الأخرى، وأوضحت أسباب ذلك الاختلاف آنفا. ونضيف إلى ذلك الآن ان المعلومات التي تلقيناها عن هاتين العمارتين كانت ضئيلة وغامضة، تبعا لغمـوض تاريـخ القبيلتـين في حكمهما لمكة. وربما كان ذلك بسبب عدم وجود مدونين لتاريخها السحيق . . ولَما كان بينهـما من حروب أهليـة شعـواء في مكـة . . وقـد أدى الخـلاف الناشب بينهما إلى زوال حكمهما معا . . في ظروف لم نتمكن حتى الآن من استيعـاب معـرفتهـا، وكـل ما وصـل إلينا من المعلومات عن عمارة الكعبة في عهد جُرْهُم أنهم «زادوا في فناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام»(٣٩).

ولسنـا ندري إن كانت هاتـان العـمارتـان: العمليقية، والجرهمية، قد أُدْخِلَ عليهما ربط حجارة البناء بالملاط والقَصـــة والْمَــدَرِ أم لا. كما لم يصـل لعلمنـا ما إذا كان حدث بالبيت خلل اقتضى التـرميم، ومتى كان وكيف كان ذلـك؟. ويـذكـر الأزرقي عمارتي العـمالقـة وجـرهم ذكـراً عابـراً خاليـاً من كل تفصيل، فيقول عن البيت بعد بناء

إبراهيم: «ثم انهدم فبنته العمالقة ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم، وانهم أعادوا بناءه على بناء ابراهيم عليه السلام، وان اسم بانيه لهم هو: أبوالجدرة فسمي «عمراً الجادر» وسُموا بني الجدرة» (٤٠).

ولم يصل لعلمي من الشعر العربي القديم أو الذي قُبيل الاسلام ذكر لبناء العماليق للكعبة مما جعلني أميل الى أن بناءهم لها ربما كان اقدم عهدا وأسبق وقوعا من بناء جرهم الذين أخذت خزاعة زمام حكم مكة وولاية البيت منهم عنوة، والذين ذكر الشعر الجاهلي بناءهم للكعبة على ما سيأتى هنا.

وقد نص الشعر العربي الجاهلي على بناء جرهم للبيت الحرام. . ومن ذلك قول زهير بن أبي سُلمى المُزَني في معلقته الميمية:

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم(٤١)

وقول ميمون بن قيس، أعشى بني قيس بن ثعلبة:

فإنى وثَوْبَيْ راهب اللُجِ والتي ... بناها قُصَيٌّ والمُضَاضُ بن جرهم(٤٢)

هذا وإن الواو في اللغة العربية حرف عطف لا يقتضي الترتيب الزمنيَّ فيما عُطِفَ بها. . وعليه فتقديم «قريش» و«قصي» في البيتين على «جرهم» ليس معناه مطلقًا أن بناء قريش وقصي الذي نرى أن المَعْنيَّ به «بناء قريش» هو سابق في الزمن لبناء جرهم، فإن الأمر بالعكس من ذلك كما هو معلوم ومعروف. . بالبداهة من التاريخ. فإن عمارة قريش للكعبة حدثت في عهد الجاهلية الأخير ـ المُوَالي في الزمن لظهور دين الاسلام فى مكة وبلاد العرب ثم العالم، بخلاف عمارة جُرْهُم، فإنها أقدم من ذلك بقرون.

الكعبة في عهد خُزَاعَةَ

ويبدو أن خُزاعة لم تقم بعمارة البيت الحرام طيلة عهد حكمها لمكة الذي ذكروا أنه يناهز ثلاثمائة عام. . كما لم يرد فى الكتب التي لدينا أنها قامت بترميم الكعبة طيلة تلك المدة المديدة. . التي يُضاف إلى طولها الزمن الذي بُنيت فيه في عهد العماليق وجرهم. . ونستبعد أن لا يكون حدث بالكعبة أيُّ خلل طيلة تلك المدة في العهد الخُزاعي. . ويتراءى لنا أن السيول الدائمة الفيضان على أرجاء مكة بصفة عامة، وعلى الوادي الذي يقوم فيه بناء الكعبة بصفة خاصة، لا بد أن تكون فَعلت أثـرًا ما من الخلل في عمارة الكعبة. . في زمن خُزاعة، الذي لم يُذكر عنه أنه حدثت به عمارة أو ترميم للكعبة. . وإنما لم يَصِلْ إلينا علم ذلك بسبب ما كان يحدث من الحروب الداخلية بين خُزاعة وقريش، وبقايا جرهم، والعماليق، فغطَّت تلك الأحداث الدامية على ما يتعلق بأمور العُمران عامة، هذا إذا فرضنا أنه حدث شيء من ذلك فِعلا، حسب ما يتراءى لنا من مقارنة الأحداث التاريخية ببعض فيما مضى وفيما بعد.

خـزاعـة والأصنـام

وفي عهـد خزاعـة برزت ظاهـرة انحـراف كبـير في عقيـدة العرب التوحيدية . فإن كبير مكة ، عمروبن لُحَيٍّ الأَزْدِيَّ ، هو الذي قام بتحقيق هذه الظاهرة الخطيرة ، رأسًا ، وباهتمام بالغ ، وبمساع جدية كبيرة متواصلة . . وقد نجح ابن لُحي في خُطته ، إذ وجد من القبائل العربية عامة ، وفي مقدمتها قبيلة قريش ، استعدادا لهذا التغيير ، ولهذا التحريف لدين الله الحق . . وكان قد ذهب إلى ديار الشام في رحلة استشفاء ، فوجد أصناما لقوم يعبدونها هنالك ، فطلب منهم أن يعطوه بعضهـا ، لِيُـدْخِـلَ عقيـدة الشِّـرك بالله تعـالى ، المستوردة هذه ، إلى بلاد العرب . . فوافقوا وسلموه أصناما منها هُبَل ، وجاء بها إلى مكة ونَصب بعضها بداخل الكعبة ، ونصب بعضها حولها ، وأرسل الباقي إلى أنحـاء بلاد العـرب ، وحسَّن لهم عبـادتهـا من دون الله ، بزعم أنها تمنحهم الغيث والصحة والأمان والسعادة في حياتهم الدنيا .

وكـان عمـروبن لُحي بن حارثـة الأزدي نازع الحـارث بن مُضـاض الجُرهميّ ولاية الكعبة ، وقاتل جرهما ببني إسماعيل ، فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ، ونفاهم عن بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم ، وهو أبوخُزاعة(٤٣) .

وهكذا حَوَّل عمروبن لُحي بيت الله الذي بناه خليله إبراهيم ، لنشر توحيد الله في الأرض وللجوء اليه تعالى ، الى «مستودع» للأصنام المعبودة من دون الله . وقد بَقِي كذلك طيلة أمد الجاهلية إلى ان فتح النبي ﴿ﷺ﴾ مكة ، فكـان من أول ما بدأ به أن كسـر الأصنـام الموجودة به وحوله . . فجعل يطعن بسية قوسه عيونها ووجوهها ، ويقول : «جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» ، ثم أمر بها فكُفِئَتْ ثم أُخْرِجَتْ فُحُرِّقت(٤٤) .

وقال في ذلك راشد بن عبدالله السُّلَمِيُّ :

قالـت هَلُمَّ إلـى الحـديث فقلـتُ: لا! ... يأبـى الإلــه عليـك والإسـلامُ
أو ما رأيـتِ مُحمَّـداً وقـبـيـله ... بالـفـتـح حين تُكـسَّـر الأصـنـامُ
لرأيـتِ نور الله أضـحـى ساطـعـاً ... والـشِّـرك يَغـشـى وَجْـهَـه الإظـلامُ

وقد رآى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، أيضاً بداخل الكعبة صُور الأنبياء ، ومنهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام ، فأنكـر ذلـك الصنيـع أن يكـون من النبي الكـريم إبراهيم صلى الله عليهما وسلم ، وأمر بطَمس الصـور المـوجـودة داخـل الكعبـة على جُدرانهـا بدون استثناء . كما رآى قَرْنَي الكبش الذى فدى الله به اسماعيل من الذبح ، فأمر بسَترها بخمار لئلا يشغلا المصلي بالكعبة ، وأبقاهما في مكانهما من جدار الكعبة .

وذلك مما يدلنا على أن للآثار الصحاح مكانة في دين الاسلام . وقد بقي هذان القرنان في مكانهما من الكعبة حتى هدم عبدالله بن الزبير الكعبة لكي يقوم ببنائها على قواعد إبراهيم ، فلما لمسهما هَمَدَا بمكانهما ، على غرار تلك الثيـاب وحبـالهـا المعلقـة عليهـا ، والتي كان هذا المؤلف قد شاهدها في سَرْبٍ انفتح بالمُناخة بالمدينة عن هوة عميقة

تُوصِلُ إلى بيوت تحت الأرض كانت لا تزال واقفة في صفين، بينهما ممرٌ معلقة به على متْن حبال غليظة، تلك الثياب الملونة.. فلما مَسَّهُما بعضُ الهابطين إلى السَّرب العميق، ومنهم المؤلف نفسه، هَمدت وتحولت إلى هباء منثور، ولم يَبْقَ لها أي أثر في الوجود هي وحِبَالُها معًا.

هذا وقد أبدى كل من الشيخ حسين عبدالله باسلامة المكيُّ مؤلف كتاب **تاريخ الكعبة المعظمة** وجواد علي صاحب كتاب **تاريخ العرب قبل الإسلام** نظرية قيمة تقول بأن «باقوم» *[أ] الذي عهدت إليه قريش بعملية بناء الكعبة هو وأعوانه من أخوانه المسيحيين هم الذين قاموا برسم تلك الصور على جدار الكعبة رأسًا لا بألواح متنقلة.. وذلك لأنهم مسيحيون [٤٥]. ومن عادة البنائين من هؤلاء رسم مثل هذه الصور فيما يقومون ببنائه من المعابد، تزيينا لها بما هو ضمن عقيدتهم المسيحية كما هو مشاهد في كنائسهم القديمة والحديثة في أرجاء الأرض التي بنوا فيها هذه المعابد.

٤ ـ عمارة قريش

كانت عمارة قريش للكعبة هي رابعة العمارات قبل البعثة المحمدية. وكان سبب هذه العمارة الرابعة، الحريق الذى حدث بالكعبة على اثر تجميرها ـ أي تبخيرها ـ من قبل امرأة قرشية، وعلى اثر هطول أمطار غزيرة، ودخول السيل إلى الكعبة، لقد تضافر الحريق والمطر والسيل على إضعاف جدران الكعبة، فاضطرت قريش للنظر والتشاور في أمر هدمها، تمهيدا لبنائها من جديد. وسهَّل لهم ذلك وجود الخشب اللازم لتسقيفها في حطام السفينة التي انكسرت إما في ساحل الشُعَيبة أو ساحل جُدَّة، ويضاف إلى ذلك أيضا وجود نَجَّار رومي أو قِبطي اسمه باقوم*[ب] وأعوان له من المسيحيين. وقد قام ببناء الكعبة تحت إشراف سَرَاة قريش بالحجارة من مكة وضواحيها. وقد أُخِذَتْ حجارةُ بنائها من سبعة أَجْبُلٍ بعضها فى مكة، وبعضها في ضواحيها، حققها أبو الوليد الأزرقي في كتابه **أخبار مكة**، وزاد تعريفا بها، بحسب الوقت الحاضر، الأستاذ رُشدي الصَّالح مُلْحِس، محقق كتاب أبي الوليد الأزرقي وناشِرُهُ بمكة نشراً عِلْمِيًّا.

وقد تعاونت قُريش، وترافدت في نفقة البناء، ورَبَّعوا القبائل القرشية أَرْبَاعًا. ثم اقترعوا عند هُبل صنمِهم الأكبر، بجوف الكعبة حيث وضعه عمرو بن لُحي عندما قَدم به من الشام، وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يومئذ غلاماً أو شاباً ولم ينزل عليه الوحي بعد على كلتا الروايتين.

إن رواية أبي الوليد في كتابه **أخبار مكة** تقول إن رسول الله كان يومئذ غُلاما. وتقول رواية سيرة ابن هشام: إن رسول الله كان يومئذ شابًّاً عمره خمس وثلاثون سنة. وربما كانت هذه الرواية أرجح، وقد أقرها وأيدها ابراهيم

---

* **المحرر:**

(أ) تركيب الاسم مصري كما سبق أن ذكر في تعليق المحرر رقم (ي)، ص ٢٢٦.

(ب) انظر التعليق (أ).

الحربي ولكنه زاد عشرة أيام على تلك السنة، بالنسبة لبناء قريش للبيت(٤٦).

وكان عليه السلام ينقل الحجارة على رقبته. وعندما اجتمعت لقريش أدوات البناء وما يحتاجون إليه عمدوا إلى هدم الكعبة، ثم بنائها بعد الهدم.

وقد هدموها حتى أساسها الى أن وصلوا فى حفرهم الى حجارة الأساس الضخام المنكرة، وهي القواعد التي بنى عليها ابراهيم عليه السلام البيت، فوقفوا عندها وشرعوا فى البناء، وكانوا استقصروا حين بنوا البيت عن قواعد ابراهيم. وكان طول الكعبة فى السماء تسعة أذرع فاستقصرت قريش طولها وكرهت أن يكون البيت بغير سقف. ولما بلغوا السقف خيرهم باقوم الرومي فى أن يجعلوا سقفها مكبسا أو مسطحا فقالوا له: «ابن بيت ربنا مُسَطَّحًا»، فبنوه مسطحا وجعلوا فيه ست دعايم فى صفين، وفي كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامى الذى يلي الحِجْر إلى الشق اليماني، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الأرض الى اعلاها ثمانية عشر ذراعًا. وكانت قبل ذلك تسعة أذرع يَد، وهكذا زادت قريش فى ارتفاعها عن بناء ابراهيم تسعة أذرع أخر، وبنوها من أعلاها الى أسفلها بمدماك من حجارة، ومدماك من خشب. وكان الخشب خمسة عشر مدماكًا، والحجارة ستة عشر مدماكا، وجعلوا ميزابها يسكب فى الحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم المعجمة من تحت)، حِجْر اسماعيل. وجعلوا درجة من خشب فى بطنها، فى الركن الشامى يُصْعَدُ منها الى ظهرها، وزوقوا سقفها وجدرانها (والمُزَوِّق لها هو باقوم الرومي وأعوانه من إخوانه فى الدين المسيحى) من بطنها ودعائمها. وجعلوا (أي باقوم وأعوانه) صور الأنبياء وصور الشجر، وصور الملائكة، فكان منها صورة ابراهيم خليل الرحمن شيخٌ يستقسم بالأزلام، وصورتا عيسى بن مريم وأمه، وصورة الملائكة أجمعين.. ولما دخل رسول الله ﴿ﷺ﴾ أمر بطمس تلك الصور كلها: أمر بغسلها بماء فَمُحيت كلها.. وهكذا أعاد الرسول الى الكعبة مكانتها وقدسيتها الحقة على ما بناها عليه أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام وأعدها له.

وقد جعلت قريش للكعبة بابًا واحدًا مرتفعا أربعة أذرع وشبرا، وكان يُفتح ويُغلق، وكانوا قد أخرجوا ما كان فى البيت من حلية ومال، وقَرْنَي الكبش، وجعلوا ذلك عند أبى طلحة عبدالله بن عبدالعُزَّى بن عثمان بن عبدالدار ابن قُصَي وأخرجوا هُبل، وكان على الجُب الذى فيه نَصَبه عمرو بن لُحي، فى الكعبة، ونُصِبَتْ عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت فردُّوا ذلك المال فى الجب وعلقوا فيه الحُلية وقرني الكبش، وردوا الجُبَّ فى مكانه فيما يلى الشق الشامي، ونصبوا هُبل على الجُب كما كان قبل ذلك وجعلوا له سُلَّما يصعد عليه الى بطنها، وكسوها حين فرغوا من بنائها، حِبرَاتٍ يمانيةً(٤٧).

ثالثاً: الكعبة معبدًا، لا معبودًا، قبل الإسلام

كانت الكعبة معظمة لدى عرب الجاهلية تعظيم تقدير وتكريم، لا تعظيمهم عبادة لها، وقد وصف الله الكعبة فقال: «إنَّ أولَ بَيْتٍ وُضِعَ للناس لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِّلْعالمين». ولم يكن عرب الجاهلية وحدهم يتخذونها معبدًا، بل شاركهم غيرهم من الأمم القديمة كفارس واليهود والهنود والصابئة فى ذلك على ما ورد فى بعض أمهات التاريخ والبلدانيات الاسلامِيِّيْن.

وعندما تولى عمرو بن لُحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي الذى هو أبو خُزاعة[٤٨] حجابة البيت بعد جرهم التى ظفر بها ونفاها من بلاد مكة قام بتغيير دين اسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان، وسيَّب السَّائبة، ووصل الوَصِيلة وبحر البَحِيرة، وحمي الحامي. ويقول ابن الكلبي عنه: «ثم انه مرض مرضاً شديدًا فقيل له: إن بالبلقاء، من الشام حَمَّةً[٤٩] إن أتيتها بَرَأْتَ، فأتاها فاستحم بها، فَبَرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة»[٥٠].

ويُفهم من كلام صاحب كتاب **الأصنام** أن التغيير لدين اسماعيل كان أمرًا «شبه رسمي» أدْخِلَ فيه العرب أفواجا، ومنهم أهل مكة، بالنظر لمكانة من تولى أمر هذا التغيير، وهو عمرو بن لُحي حاجب الكعبة إذ ذاك.

على أن مبادىء الشرك كانت موجودة قبله لدى أبناء اسماعيل، على ما تحدث به ابن الكلبي قبل ذكره لقصة عمرو بن لُحي، حيث قال مبديا مبادىء تحول أبناء إسماعيل إلى الشرك[٥١]: «حدثنا أبي وغيره ـ وأثْبَتُّ حديثهم جميعاً ـ أن إسماعيل بن إبراهيم (صلى الله عليهما) لما سكن مكة وَوُلِدَ له بها أولاد كثير، حتى ملأوا مكة، ونفوا من كان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضا، فتفسحوا في البلاد، والتماس العيش». وبعد هذه المقدمة التمهيدية قال: «وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظْعن من مكة ظَاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم، وصبابة بمكة، فحيثما حَلُّوا، وضعوه وطافوا به، كطوافهم بالكعبة، تَيَمُّنًا منهم بها، وصبابة بالحرم، وحُبًّا له، وهم بَعْدُ، يعظمون الكعبة ومكة، ويحجُّون ويعتمرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام».

«ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما اسْتَحَبُّوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل، غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانْتَجَثُوا ـ استخرجوا ـ ما كان يعبد قوم نوح (عليه السلام) منها، على إرثٍ بقي فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يَتَنَسَّكُونَ بها: من تعظيم البيت والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة، ومزدلفة، وإهداء البُدْن، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم ما ليس منه».

ويَمضى بنا ابن الكلبي قُدُمًا في قصة نزوع العرب إلى عبادة الأوثان، وخلط عبادتها ببقايا من دين إبراهيم وإسماعيل، يعتنقونها، كتعظيم الكعبة والحج إليها والاعتمار. فيقول رافدا لنا بالمزيد من شرح مبادىء تحول العرب الجاهليين الاسماعيليين عن الدين الحق: دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ويبسط القول حيال هذه الانحرافات المتفرعة عن الانحراف الأساسي الأول الذى اتجهوا اليه بادىء ذي بدء.. يقول: «فكانت نزار تقول إذا ما أهَلَّتْ:

لَبيك اللهم لبيك لبيك
لا شريك لك، إلا شريك هو لك
تملكه وما ملك

ويُوَحِّدُونَهُ بالتلبية، ويدخلون معهم آلهتهم، ويجعلون مِلكها بيَده. . يقول الله (عز وجل) لنبيه ﴿ﷺ﴾: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»، أي ما يوحدونني بمعرفة حقِّي، إلا جعلوا معي شريكا من خَلْقي.

«وكانت تلبية عَكٍّ: إذا خرجوا حجاجا، قَدَّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركبهم. . ويقولان:

نحن غُرَابَا عَكٍّ

فتقول عَكٌّ من بعدهما:

عَكٌّ إليكَ عانية عبادُك اليمانية
كيما نحج الثانية

«وكانت ربيعةُ إذا حجت فقضت المناسك ووقفت في المواقف، نفرت في النفر الأول، ولم تُقِم إلى آخر التشريق».

وهكذا حمل الينا أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي التفاصيل الدقيقة التى أفضت ببني إسماعيل ومن لَفَّ لَفَّهُمْ من عرب الجاهلية الى انحرافهم تدريجيا من عبادة الله وحده، إلى عبادة الأصنام والأوثان، من دون الله. . وفي نفس الوقت قدم لنا معلومات قيمة بأن عرب الجاهلية مع انحرافهم الشديد عَبْرَ الزمن، إلى الوثنية، فقد بقيت لهم بقايا، من الحنيفية الحقة، وظل تعظيمهم للكعبة تعظيم احترام وتكريم، لا تعظيم عبادة، لأنهم لو عظموها بعبادتها لورد ذلك فى نصوص أخبارهم وأشعارهم بدون مُواربة، ولما كان الحج والاعتمار اليها، على أنهم قد خلطوا شعائر الحج بالتلبية المذكورة آنفا، وهى تنبؤ نا باعتناقهم لمبدأ الوثنية، مع اعتقادهم بأن الأوثان والأصنام التي يعبدونها من دون الله هِي مِلْكٌ لله (جل وعلا عن الشريك بأي حال من الأحوال).

ومما يؤيد النظرية التي عرضها ابن الكلبي فيما يتعلق بتمسك الاسماعيليين بِبَوَاقٍ لديهم من دين اسماعيل ذلك الدعاء الذى دعا به عبدالمطلب بن هاشم وهو آخذ بحلقة باب الكعبة حينما حَزَبَهُ غزو أبرهة الأشرم لمكة، بقصد هدم البيت الحرام، فانه جهر شعرًا، بالاستغاثة بالله وحده فى قوله، وهو يدعو الله ويستنصره على أبرهة وجنده، ومعه نفر من قريش:

لاهُمَّ إنَّ العبد يَمْـ نَعُ رحله فامنع رِحَالَكْ
لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحَالُهُمْ غَدْوًا مِحَالَكْ
إنْ كُنْتَ تاركهم وَقِبْلَـ تَنَا فَأَمْرٌ مَّا بَدَا لَكْ (٥٢)

كما قال عبدالمطلب أيضا قبل ذلك بمناسبة إزماعه لحفر بئر زمزم. وضَرْبِهِ عليها بالقِداح:

لاهُمَّ أنت الملك المحمودُ رَبِّي وأنت المُبْدِىء المُعِيدُ
مِن عِندكَ الطارفُ والتليدُ فاخْرِجْ لنا الغَدَاةَ ما تُرِيدُ (٥٣)

هذا ومما يسترعي النظر، قول ابن الكلبي في معرض حديثه عن التقاليد العربية في الجاهلية[٥٤]:
«واستهترت العرب في عبادة الأصنام. فمنهم من اتخذ بيتا، ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرا أمام الحرم وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب فإذا كانت تماثيلَ دَعَوْها: الأصنام والأوثان، وسمُّوا طوافهم الدُّوار.

«فكان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذه رَبًّا، وجعل ثلاث[٥٥] أثافي لِقدْرِه، وإذا ارتحل تَركه، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون ويذبحون عند كُلِّها، ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها: يحجونها ويعتمرون إليها.

«وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها، وصَبَابَةً بها».

ففي قوله: «وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها: يحجونها ويعتمرون إليها» دلالة واضحة على مدى تمسكهم ببقايا من دين إبراهيم عليه السلام وعقدهم النيات على الحفاظ والتحنث والتشبث بهذه البقايا ذات العمق في أغوار جوانحهم. وبرغم عبادتهم للأصنام والأوثان واستهتارهم بعبادتها، فإنهم لا يزالون يرونها دون مكانة الكعبة في التبجيل، لِما استقر في عقولهم الباطنية من أنها أصنام هم واضعو أكثرها وناصبوه للعبادة لتُقَرِّبهم إلى الله زُلْفَى.. أما الكعبة فإنها تراث أبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل، لم يُشركوها مع أصنامهم وأوثانهم في العبادة، بل أبقوها على احترامهم لها وتكريمهم، دون الزَّحف بها إلى مرتبة العبادة. فلها الحج إليها، والاعتمار ليس غير. ولها دعاء الله عندها بدون إنكار، ولا تردد.. وقل مثل ذلك في الحَجَر الأسود وحَجَر المَقام، والمُلْتَزَم، وحِجْر إسماعيل. وكلها مواضع مقدسة مخصصة لعبادة الله تعالى.

وحين بعث الله نبيه محمدًا بالهدى ودين الحق، أنقذ الله به العرب وغيرهم من ضلالة عبادة الأصنام. وقد أمر الرسول بتكسير الأصنام المُجمّعة في الكعبة وحولها، فلم يدع منها صنما قائما، وقد ألقاها على وجوهها ثم حَرَّقها، وعَوَّضَ الله تعالى العربَ عن ضلالتهم العمياء بالهُدَى والنور المبين.

ومن علامات بقاء الكعبة في نظرهم فى مكانتها التي وضعها إبراهيم عليه السلام على الأرض أنهم في جاهليتهم كانوا يسمونها «بَنِيَّةَ إبراهيم»، وكانت وظيفتها لديهم عبادة الله عندها والتوجه إليه سبحانه إذا انتابتهم كارثة.. أو حَزَبَهُمْ أمر، كما فعل عبدالمطلب عندما أيقن بقرب نجاح غزوة أبرهة التي كان يهدف بها إلى هدم الكعبة، ليتخذ من القَلِيس كعبة للعرب بدلاً عنها، وكان العرب يسمون أبناءهم بنسبة عبوديتهم إلى أصنامهم؛ فهناك عبدالعُزَّى وعبديغوث، وعبدوَدٍّ، وزَيْدُ مَناة، وتَيْمُ اللاَّت، وعبدياليل، وعبدرُضَىً، وعبدكُلال. ولم نسمع من بين أولئك العرب من سَمَّى ابنه بعبدالكعبة أو عبدالحجر الأسود، أو عبدمقام إبراهيم. وبمقارنة ذلك بالأسماء السابقة نَفهم جليا أن عرب الجاهلية ما كانوا يعتقدون ربوبية الكعبة، ولا الحجر الأسود، ولوكانت الكعبة في أنظارهم أحد أربابهم، لقالوا «عبدالبيت»، أو «عبدالبَنِية»، أو «عبدقادس» كما قالوا: «عبد ود»، و«عبدالعزى» وما أشبه. فلما لم يقولوا ذلك علمنا أن مكانة الكعبة لديهم لا تتجاوز حقيقتها الإبراهيمية، وقل مثل ذلك في مكانة

الحَجَـر الأسـود لديهم، فهي نفس مكـانـة الكعبة تماما . . وهذا يَنْقُض ما ذهب إليه ولهوزن (Welhausen) فيما رواه جواد علي: حيث نقل عنه (بتأييد قَوْلَهُ التالي عن الحجر الأسود والكعبة:

«وهذا التقديس الزائد ـ أي للحجر الأسود ـ يحملنا على التفكير في أسبابه، وفي الميزة التي مَيَّزت هذا الحجر على الأصنام، وهي في طبيعتها حجارة مثله. لقد ذهب «ولهوزن» إلى أن ـ قدسية البيت عند أهل الجاهلية لم تكن بسبب الأصنـام التي فيـه، بل كانت بسبب هذا الحجـر، لقـد كان هذا الحجـر مُقـدسـا في ذاتـه، وهو الذي جلب القـدسيـة للبيت، فصـار البيت نفسـه مقـدسا في حد ذاته، بِحَجَرِهِ الذى هومنه، ولعله شهاب «نيزك» أوجزء من معبود مقدس قديم» [٥٦].

وقد أضاف جواد علي إلى ما ذُكر قولُه:

«وقـد ذهب بعض المستشـرقـين إلى أن البيت لم يكن إلا بمثـابـة إطـار للحجـر الأسـود الـذي كان من أهم معبودات قريش، لأنه يمثل بقايا حجر قديم، كان مقدسا عند قدماء الجاهليين، غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد» [٥٧].

نعم إن الحجر مقدس، والكعبة مقدسة عند جاهليي العرب ولكنه ـ كما قلنا آنفا ـ تقديس لم يكن مطلقا من لون العبـادة ولا من طرازهـا وشكلهـا، بدليـل ما أوردناه قبل هذا من القرائن على ذلك؛ إنه تقديس للمعبد الأول للهدى على وجه الأرض، حيث بقي رَسِيسٌ من هذه العقيدة كامنا في بيئات العرب قاطبة، حتى جاء الاسلام. وكـان مما حدث لديهم من التحـريف في هذا الجـانب، إدخـال الأصنـام المعبـودة لهم من دون الله في جوف الكعبة وحولها إمعانا في عبادتها. . وتلبيتهم عند حجهم إلى البيت، تلك التلبية المشوبة بالشرك الأكبر في عبادة الله الواحد الأحـد. ولست أدري من هو الـذي جعـل المستشـرقـين أوْصِيَاء على تاريخ عرب الجاهلية حتى يَخْلُقُوا في عباداتهم وتقاليدهم ما لم يسمعوا به وما لم يسمحوا به، وما لم يذكروه فى أسانيدهم من جِيلٍ عن جِيلٍ قبله، وهكذا.

إنَّ قُدسية الكعبة لديهم ناشئة عن بناء إبراهيم أبي الأنبياء لها، وقُدسية الحجر الأسود آتية من وضع إبراهيم عليه السلام له بيده في هذا الموضع الذي هوفيه عبر التاريخ من جدار الكعبة الخارجي، ثم من أين للمستشرقين أن الحجـر الأسـود نَيْـزَكٌ؟ ثم من أين لهم أنـه بقـايـا حجر معبود مقدس قبله؟ قضية منطقية أنه لوكان حجرا نيزكيا فلا يمكن أن يكون في نفس الوقت بقية حجر معبود مقدس لقدماء العرب الجاهليين. هذا خلل في التفكير. . ونلاحظ أن وِلْـز قال أيضـا بهذا التقـديس نفسـه عن الحجـر الأسـود. وزاد قولـه: عنـه: «وكـان هذا الحجـر النيـزكي يُعَـدُّ رَبًّا» [٥٨]. . وهذا قول يجمع في نطاق تعبيره بين قول من قال من المستشرقين: إنه نيزك، ومن قال: كان بقية حجر قديم معبود مقدس. ويسمى هذا المنطق «سَفْسَطَةً» لدى المناطقة ثم يقول:

«وكـانت الكعبـة بيت مكـة المقـدس، سحيقة القِدَم آنذاك. وهي معبد مربع صغير من الأحجار السوداء، وكان حَجَر زاويتها حَجَرا نيزكيا، وكان هذا الحجر النيزكي يعد ربا وكان كل الآلهةالقبلية في بلاد العرب في حمايتة» [٥٩].

وبعـد فإن علماء العـرب والاسـلام الأثْبَـاتَ مَدْعُـوُّون إلى أن يُفَلُّوا هذه الآراء الاستشراقية، وأن يُولوا ذلك

عناية بالغة حتى يكشفوا لنا الغطاء عما تنطوي عليه من خُزَعْبَلَات وهذيان، وأهداف غير علمية تَفَتَّقت بها مخيلاتهم وخيالاتهم الغربية خلافا لحقائق الأمور التي هي بمنأى بعيد جدا عن بيئاتهم وحيوانهم ومنابع تفكيرهم. لقد آن لعلمائنا أن يتجهوا هذا الاتجاه الحميد ليرفعوا عنا أثقال هذه البحوث وأغلالها التى من شأنها إحداث البلبلة التي ربما تكون ضمن أهدافها أو في طليعة أسباب نشرها وإبرازها.

وبينما ترى ولز يقول: إن الكعبة معبد صغير في بداية كلامه عنها، إذا به يتحدث عن حجرها الأسود حديثا عجبًا، فإنه بدون مقدمات يشيد بأنه «يُعَد رَبًّا» ولا يتورع عن القول بأن «كل الآلهة القبلية في بلاد العرب في حمايته». . وربما كان هذا الرأي يراد من ورائه تسديد طعنة نجلاء إلى صميم دين الإسلام الذي يقدس هذا الحجر ولكنه لا يعبده، ويقرر أنه حجر لا ينفع ولا يضر، وربما أدى هذا القول الغامض إلى اضطراب أذهان قرائه عن مفاهيم الاسلام، لأنه يرى ذلك في الحجر الأسود أيضا، على حد زعم ولز ومن شايعه من المستشرقين والمستغربين. . والمؤكد أنه لو كان الحجر الأسود رَبًّا يعبد لما أبقاه الإسلام، وإذن لكان مصيره مصير بقية الأصنام. . ولكن الله سلم، وأنجى هذا الحجر الذي وضعه إبراهيم عليه السلام في مكانه ليكون علامة بداية الطواف للطائفين عبر الأجيال، فلم يَمُر به أي دور من أدوار العبادة من قَبْلِ الاسلام حماية له من هذه التهمة هو والمقام، وقد تفطن لذلك مثقف مكي معاصر هو الأستاذ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط فقال: «ومما هو جدير بالذكر والالتفات أن العرب في جاهليتها مع عبادتهم الأحجار، وبالأخص حجارة مكة والحرم، لم يُسمع عنهم أن أحدا عَبَد الحجر الأسود، أو حجر المقام مع عظيم احترامهم لهما ومحافظتهم عليهما»(٦٠).

وبعد أن أورد هذه الحقيقة الدامغة أضاف إليها فيما يلي من كلامه قوله: «كما حفظ بيته الحرام من عبادتهم أيضا»(٦١) ثم قال:

«ولقد تَأَمَّلْنَا في سر ذلك وسببه، فظهر لنا أن ذلك من عصمة الله تعالى. فإنهما لو عُبِدا من دون الله في الجاهلية، ثم جاء الاسلام بتعظيمهما باستلام الركن الأسود، والصلاةِ خلف المقام لقال المنافقون وأعداء الدين: إن الإسلام أَقَرَّ احترام بعض الأصنام، وإنه لم يَخْلُصْ من شائبة الشرك، ولتمسك بعبادتهما مَن كان يعبد أحدهما من قَبْل.

«فلهذا حفظ الله تعالى هذين الحجرين الكريمين، كما حفظ بيته الحرام من عبادتهم أيضا، ولا يخفى أن هذه نقطة دقيقة لا يتنبه لها كل أحد»(٦٢).

ونقول إن مما يدل على أن العرب في جاهليتهم لا يعتقدون بربوبية الحجر الأسود والكعبة أن من أَيْمَانِهِمْ: «لا وربِّ البيت والحَجَر»(٦٣).

رابعاً: من تاريخ الكعبة قبل الإسلام

١ ـ ميزاب الكعبة قبل الإسلام

لم يكن في بناء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام مكان لوضع ميزاب، ولذلك لم يوضع في تلك العمارة ميزاب

للكعبة، إذ لم يكن في بنائه سَقْف ولا سطح. وإذا كانت العماليق وجرهم بنوه من بعد إبراهيم عليه السلام كما نصت عليه الروايات، فلسنا ندرى حقيقة هذا البناء ولا تفاصيله، إذ لم تَكْشِف لنا اللثام عنه روايات الأخباريين التي بين أيدينا الآن.

ويوجد في عبارة وردت في كتاب **أخبار مكة**، في الفصل الذي عنوانه «ما جاء في الصلاة في وجه الكعبة»، نصٌ يدل على أن الميزاب كان موجودًا في الجاهلية منذ بناء قريش قبيل الاسلام للبيت، ونص العبارة: «قال عبدالله ابن عمرو بن العاص: البيت كله قبلة، وقِبلته وجهه، فإن أخطأك وجهه فقبلة النبي ﴿ﷺ﴾. وقبلة النبي ﴿ﷺ﴾ ما بين الميزاب إلى الركن الشامي الذي يلي المقام»(٦٤). والواقع أن الميزاب كان موجودا في سطح الكعبة منذ بناية قريش في العهد الجاهلي الأخير فحسب، فقد قال الأزرقي: «وجعلوا - أي قريش - ميزابها يسكب في الحِجْر»(٦٥) بكسر الحاء وسكون الجيم.

وينص حسين عبدالله باسلامة على أن: «أول من وضع ميزابا للكعبة قريش حين بنتها سنة **٣٥** من ولادة النبي ﴿ﷺ﴾، حيث كانت قبل ذلك بلا سقف، كما تقدم تفصيله»(٦٦).

٢ - المطاف والطواف بالبيت قبل الإسلام

يقول **لسان العرب** وطاف بالبيت وأطاف عليه: دار حوله. قال أبو خراش:

تطيف عليه الطير وهو مُلَحّبٌ ... خلاف البيوت عند محتمل الصرم

وقوله عز وجل: «وَلْيَطَّوَّفُوا بالبيتِ العَتيقِ» هو دليل على أن الطواف بالبيت يوم النحر فَرْضٌ(٦٧). ثم قال: والمطاف: موضع المطاف(٦٨) بالبيت وهو الدوران حوله»(٦٩).

ويقول ابن الكلبي: «وكان العرب في جاهليتهم يطوفون بمعبوداتهم من الأصنام والأوثان ويُسمون طوافهم الدوار»(٧٠)، ويضيف الى ذلك أنهم كانوا ينحرون ويذبحون عند كلها، ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون إليها.

وعلى هذا فيمكن لنا أن نستنتج من طوافهم حول الأصنام وتسميته «الدوار»، أن أصل هذا الطواف لديهم ربما كان معروفا ومخصصا بالكعبة وحدها، ثم لما عبدوا الأصنام واسْتُهْتِرُوا بعبادتها على ما أفاد ابن الكلبي عندما تضلعوا بالروح الجاهلية، نقلوا الطواف من الكعبة إلى الأصنام والأوثانَ، وفَرقوا بين الدوران بها، والطواف بالكعبة في الاسم، لاختلاف سبب الطوافين.

ومن «الطواف» اشتقوا في لغتهم كلمة «المطاف» لأن صيغة مَفْعَل إذا جاءت من كلمة ذات اشتقاق دلت على الموضع الذى يحدث فيه ذلك الفعل. فالمطاف بمعنى محل الطواف مثل المدار والمجال بمعنى موضع الدوران والجولان. وهكذا بقي اسم «الطواف» خاصًا بالدوران حول البيت وحده. ومطاف البيت الذي هو حول البيت في الجاهلية كان فضاء رحباً، وكان المطاف ذا فائدتين مزدوجتين لعرب الجاهلية، فكانوا يطوفون في المطاف حول الكعبة، ويتخذون منه أيضا مكان سَمَر ومذاكرةٍ فى شؤونهم الخاصة والعامة، ولم يكن المطاف مكانا محددا كما هو

حاله في الاسلام. وذلك أنه في زمن الجّاهلية لم يكن للمسجد الحرام سُورٌ يحدد المطاف كما حدث فى عهد الاسلام(٧١).

٣ ـ آثار بالكعبة وحولها قبل الإسلام

الحجر الأســود

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «إن الحجر الأسود جاء به جبريل إلى إبراهيم عليهما السلام من السماء». وليس معنى ذلك أنه نَيزك كما يزعم بعض المستشرقين ومن سار على دربهم، فالنيزك «جسم صغير أو كبير القَد شارد في الفضاء يَعبر الأجواء الأرضية» (٧٢)، والحجر الأسود لم يرد في التاريخ أنه عبر الأرض الى الفضاء من تلقاء نفسه ثم التُقِط. وإنما ورد غير ذلك في التاريخ. كما قدمناه آنفا. وجعله نيزكا محض افتئات من المستشرقين خاصة فانهم لم يحللوه كما لم يشهدوا ولم يشهد سواهم سقوطه من الجو.

وقد نص المؤرخون على أن جبريل الأمين قدمه الى أبي الانبياء لكي يضعه فى موضعه من الكعبة، ليكون علامة بدء الطواف بالكعبة منه. ولسنا ملزمين بأن نصدق تأويلات غير مسندة ونُهْمِل ما أثبته تاريخنا العريق الحصيف المسلسل لمجرد تخيلات وهمية غريبة مستوردة من الخارج. وقد كشف لنا الرواة الأثبات أنه كان حجرا أبيض اللون ناصع البياض، ولكن الحرائق التى أصابت الكعبة أحالته إلى لونه الأسود.

وعلى صفته المذكورة آنفا ظل تقديسه لدى الناس من عهد ابراهيم حتى الآن. ولم يكن قط تقديس عبادة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام كما يزعمون، فالروايات التاريخية الحقة تثبت عكس ذلك تماما. ومن هؤلاء المستشرقين الزاعمين كارل بروكلمان فى كتابه المشايع لزميله المعروف: «هنرى لامنس اليسوعي» في كثير من آرائه ومنها رأيه فى عبادة الحجر الأسود(٧٣).

حِجْرُ إسماعيل والحطيم والمُلْتَزَم

حِجْرُ إسماعيل: هوما يحيط به جدار قصير بشمال الكعبة على شكل نصف دائرة. وكان ابراهيم جعله عريشا إلى جانب الكعبة، وكان حظيرة لغنم اسماعيل على ما ذكره أبو الوليد الأزرقي في كتابه **أخبار مكة** وقد أورد ذلك غيره من المؤرخين أيضا.

والحطيم «هو نفس حِجْر إسماعيل، وقد استُدل على هذا بما ورد في حديث الصحيحين من أن المراد بالجَدْرِ هو حِجْر اسماعيل». وقد جاء في **معجم البلدان** لياقوت الحموي، أن الحطيم هو الجدر، والجدر كما ذكرناه آنفا هو حِجْر إسماعيل نفسه.

وقد عللوا تسمية الحِجْر بالحطيم بأن الناس كانوا يزدحمون على الدعاء فيه ويَحْطِمُ بعضهم بعضا. وقد جلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحِجر، وأرسل إلى رجل من بنى زهرة قديم، فسأله عن بنيان الكعبة، فقال:

«إن قريشا تَقَوَّت في بنائها، فَعَجَزوا واستقصروا، فبنوا وتركوا بعضها في الحِجْر، فقال عمر: صدقت»[٧٤].

وقيل إن الحطيم اسم مشترك يُطْلَق على ثلاثة مواضع: حِجْر إسماعيل، والملتزم، وما بين زمزم والمقام والكعبة.

ورووا عن ابن الزبير أنه مر بعبدالله بن عباس بين الباب والركن الأسود، فقال: ليس ها هنا الملتزم.. الملتزم دُبُر البيت.

«والحطيم» على وزن فَعِيل بمعنى مفعول، مثل جريح بمعنى مجروح، أو فعيل بمعنى فاعل مثل حكيم: حِجْر الكعبة المُخْرج منها، وهو حِجر إسماعيل نفسه كما قدمناه. وفى **تاريخ العرب قبل الاسلام** لجواد علي ذلك أيضا. وأضاف قوله: «وفي الصِّحاح عن ابن عباس: الحطيم: الجدار يعني جدار حِجر الكعبة. والحطيم بين الركن وزمزم والمقام»[٧٥].

وكانت الجاهلية تَتَحالَفُ وتَحْلِفُ عنده[٧٦]، كما كانت الجاهلية تتحالف عند الملتزم بالأيْمان، وتدعو على الظالم، وتعقد الحلف[٧٧]. وفي الناحية الشمالية الغربية «الحِجْر» أو «الحطيم»[٧٨] وقال أبو زيد: «فعلى هذا حطيم الجدار من الكعبة والفضاء الذي بين الباب والمقام، وعلى هذا اتفق الأقاويل والروايات»[٧٩]. هذا وقد لَخَّص كتاب **تاريخ الكعبة المعظمة** الأقوال المتعلقة بما يُسمى الحطيم بقوله: «نعلم مما تقدم أن الحِجر يُعرف بالحطيم أيضا، قديماً وحديثاً. كما أن الملتزم يعرف بالحطيم أيضا، وما بين زمزم والمقام والكعبة يسمى بالحطيم»[٨٠].

هدايا الكعبة.. والمعاليق بها قبل الإسلام

يبدو من كلام المؤرخين المسلمين أن أولى الهدايا التى قدمت الى الكعبة هي هدايا فارس فى صدر الزمان، فقد أهدت الدولة الفارسية إلى الكعبة لؤلؤا وجواهر، وقالوا: إن ساسان بن بابك هو الذى قدم تلك الهدايا الى البيت الحرام، كما قدم اليها أيضا غزالين من ذهب دفنا فيها بعد، بزمزم، ثم استخرجهما منها عبد المطلب وبقيا بالكعبة حتى سرق أحدهما نفر من شباب مكة الجاهليين، منهم أبو لهب، وابنه، وأبو مسافع وآخرون فى قصة أوردناها فى غير هذا المكان من هذا البحث، وقد ذكر المؤرخ المسعودي فى كتابه **مروج الذهب** صدور ذلك من ساسان، وقال عنه: إنه «أول ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون اليه، كرجوع ملوك المروانية إلى مروان بن الحكم، وخلفاء العباسيين الى العباس بن عبدالمطلب»[٨١].

ومن أقدم الآثار بالكعبة ذلك الجُبُّ ـ أي البئر ـ التى حفرها إبراهيم عليه السلام إبان بنائه للكعبة وقد جعلها مخزنا أمينا في داخل الكعبة لهداياها على يمين الداخل، وعمقها ثلاثة أذرع، توضع فيه هداياها وتحفظ بها، فلا يصلها سارق أو عاد أو غاصب، ثم قُدّر أن حارس هذا الجب أو هذه الخزانة، الجُرْهُمي، قد استهواه بريق ذهب الجب فاستغل حراسته للجُب، فأخذ هداياه الثمينة، وقد انتظر مليا حتى هدأ الناس فى منازلهم بعد الظهيرة فنزل إلى الجب وجمع ما فيه وصعد به إلى أعلاه ليأخذه إلى بيته فى غفلة من الناس. وحدث أن هبطت عليه صخرة من

فم الجب عاقته عن الصعود وظل معلقا حتى أخرجه الناس وأخذوا ما حمله من الجب وأعادوه إليه . . وربما كان هذا هو الحادث الثالث من الأحداث التى حصلت بالكعبة فى عهدها الأول القديم .

وبسبب حادث السرقة هذه التى لم تنجح من الجُب لقَّبَهُ عرب الجاهلية «بالأخسف» أو «الأخشف» ، إشارة الى حادث اللص الجرهمي الذي أخفق فى سرقته لهداياه ، إذ حاصرته الصخرة الساقطة عليه من أعلى الجب وعاقته عن تنفيذ بغيته .

وقد مكث المال الذى فى هذا الجب ، ينمو بتتابع الهدايا إليه ، وقد ورد في كتاب الأزرقي . . قوله : «وذكروا أن النبي ﴿ﷺ﴾ وجد بالجب سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى الى الكعبة . . فلم يحركه» [٨٢] . ويرى إبراهيم الحربي أن قريشا حفرت الجب فى جوف الكعبة . وهذا نص قوله : « وكان البيت يُكَرَّم على وجه الدهر ويُهدى له ، فحفرت قريش فى جوفه حفيرة يجعلون هداياهم فى تلك البئر» [٨٣] .

وهـذا الـرأي لا يتفق مع آراء أغلب الاخبـاريين الذين قالوا : إن الذى حفر الجب هو إبراهيم عليه السلام ، اللهم إلا إذا كان مقصد إبراهيم الحربي ، الحفر الثاني للجب عند بناء قريش للبيت ، فهذا صحيح .

ومن الآثـار العتيقـة فى البيت العتيق قَرْنـا الكبش ، كبش الفداء الذي فدى الله به إسماعيل من الذبح ، وكان تعـريضـه للذبـح بأمر الله تعالى لنبيه إبراهيم عليهما السلام ، قبل بنايته للكعبة ، وإسماعيل يومئذ غلام ـ وقد أثبت أكابر الرجال الثقات ، بالأسناد المسلسلة أن القرنين المشار إليهما كانا مثبتين في جدار الكعبة ، وأن النبي ﴿ﷺ﴾ لما رآهما أمـر عثـمان بن طلحـة الحَجَبيَّ بسـترهما بخِـمَار ، لكيـلا يَشْغَـلا المُصَلِّي في الكعبة ، ولكنه لم يأمر باخراجهما من الكعبـة ، كما فعـل مع الأصنـام والصـور ، بل استبقاهما في مكانهما من الكعبة ، وظلا به إلى عهد الخليفة عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما .

وقد تحدث عبدالله بن شيبة عنهما ، فأكد أنهما هما قرنا كبش الفداء وأنه رآهما ، وقد روى الأزرقي حديث النبي ﴿ﷺ﴾ لعثـمان بن طلحـة . ونص هذا الحـديث الشـريف ، الـذي خاطب به رسول الله عثمان بن طلحة هو : «إنى رأيت قرني الكبش في البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون في البيت شىء يَشْغَلُ مُصليا» ؛ قال عثمان : وهو الكبش الذى فُدي به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . كما تحدث عمرو بن قيس بقوله : «كان قرنا الكبش في الكعبـة ، فلما هدمهـا ابن الـزبـير وكشفهـا وجدوهما في جدار الكعبة مَـطْليين بِـمَشْقٍ ـ المشق : الـمُـغْرة الحمراء ـ قال : فتناولهما فلما مَسَّهما هَـمَدا من الأيدي» [٨٤] .

ويقول جواد علي : «ورَمَز القرنان إلى قرني الكبش الذى ذبحه ابراهيم الخليل» [٨٥] . ويقول إنه نقل ذلك عن الازرقي . والذي وجدته فى **تاريخ مكة** للأزرقي لا يقول بذلك وانما الذى فيه أن القرنين هما قرنا الكبش الذي فُـدِي به اسماعيل بن ابراهيم . وقد روى العلماء الاسلاميون والمؤرخون هذا القول عن الأزرقي ولم يشيروا إلى أنه قال : إن القرنين رَمْـزٌ إلى قرني الكبش .

وربما كان جواد علي تبع في هذا القول كدأبه المنهج الذي اختطه المستشرقون عندما يعالجون قضايا التاريخ العربي بالتفكير الغربي في جاهلية العرب وفي إسلامهم محاولة منهم لتزييف تاريخ العرب والاسلام، إذ ينصبون أنفسهم أوصياء مُفَوضين على هذا التاريخ العربي أجمع، فيرسمون لكل ذلك مخططات نابعة من البيئة الاستشراقية الغربية النزعة والعناصر التى لا تمت إلى بيئة العرب ولا مفاهيمهم ولا تاريخهم بسبب أوصلة وذلك لأن القرنين المذكورين قد ثبت أثريًا وتاريخيا أنهما هما قرنا الكبش الذى فُدي به اسماعيل، وقد احتفظ العرب بهما طيلة ألفي عام ونيِّف الألف كأثر قديم محترم، حتى جاء الاسلام فشوهدا على ما هومعروف لدي قريش إبان جاهليتهم. وفي طليعة من شاهدهما وأمر بسترهما بخمار لئلا يشغلا المُصلي بداخل الكعبة عن صلاته لما لهما من تاريخ عريق سيدُنا محمد رسول الله ﴿ﷺ﴾. وقد رآهما كثير ون من الصحابة والتابعين وقرر بعضهم بأنهما قرنا الكبش بذاتهما. وإذن فما قَرَّره جواد علي هورأي مُكَيَّفٌ بمنهج المستشرقين فى معالجة تاريخ هذه البلاد على أسوأ الفروض والاحتمالات.

ومما يدعم أنهما قرنا كبش الفداء تواتر ذلك لدى عرب الجاهلية عبر القرون الخالية الى أن جاء الاسلام، فأقر ذلك رسول الله الصادق المصدوق وأثبته الصحابة العدول، فى حياته ﴿ﷺ﴾ وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى أيضا.

وقصة همود القرنين حينما مُسَّا تؤيد روايات المؤرخين فى كونهما قرني كبش الفداء حقيقة لا مجازًا ولا رمزاً، وذلك لعراقة قدمهما مع شدة حفظهما بجوف الكعبة بَعيدين عن اللمس، والمس والهواء معًا. وكنت قد حظيت بمشاهدة تجربة من هذا القبيل، وأنا يافع، بالمدينة المنورة، ولعلها كانت المبدأ الخفي لهوايتي لدراسة الآثار فيما بَعد مبكرا، وقد شهد تلك التجربة كثير ون من أبناء المدينة إذ ذاك، فقد كان بعض العمال يحفرون أساسًا للنُّصُب التذكاري الذى أزمعت الحكومة العثمانية إقامته بمناسبة تعيينها للشريف علي حيدر باشا أميرا لمكة المكرمة وذلك فى القسم الشمالي الشرقي من المَناخة بالمدينة، وبينما هم منهمكون فى هذا العمل إذ انفتحت تحتهم هوة كبيرة، وهبط من سطح الأرض تراب كثير، كشف مَهيلُه عن سَرْبٍ تحت الأرض كبير مندّىً، فنزل من نزل الى هذا السرب، وكُنْت أحد النازلين إليه، فما راعنا إلّا صَفَّان متقابلانٍ من الغرف على جانبي ممر طويل. والغرف صغيرة متقابلة، وهى أشبه بغرف الأربطة أو بيوت العمال: كل غرفة أمام الأخرى وبينهما ذلك الممر المعلق فيه حبل غليظ سميك، وعليه ثياب نساء مزخرفة باقية على حالها، وكأنما قد نُشِرَت قبيل ظرف وجيز. فتقدم بعض الحاضرين ولمسها لمسا خفيفا هينا بأطراف أصابعه، فما كان منها إلا أن تساقطت تساقط الثلج الذائب، ومعها الحبل المعلقة عليه، وهَمدا هُمودا تاما على أرض الممر. والسبب فى ذلك قِدمُها وهي فى هذه الحالة في مكان رطب بعيد عن الشمس والهواء، وقد نَشَرْتُ عن هذا الاستكشاف الأول من نوعه بالنسبة إليَّ، في كتاب **آثار المدينة المنورة**(٨٦) بعد ما تخرجت من مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة، بسبع سنوات.

هذا ومن تعاليق الكعبة قبل الاسلام على ما رُوي لنا، المعلقات التى نظمها شعراء جاهليون معروفون من أهل الجزيرة العربية مهد العروبة والاسلام. وهى سبع معلقات أوعشر، وقد سماها العرب معلقات، لأنهن علقن بالكعبة فى الجاهلية القريبة من عهد الاسلام تقديرا لروعة لغتهن وأسلوبهن العربي الممتاز، على ما ورد في المراجع

التاريخية والأدبية العربية. وكانت هذه القصائد تُلقى فى ثلاثة أسواق عربية هي: سوق عكاظ، وسوقا مجنة وذي المَجَاز. وهذه الأسواق الثلاثة تقع في أماكن قريبة من مكة المكرمة وتحوز القصيدة الملقاة في سوق من هذه الأسواق استحسان الجمهور العربي المستمع لها في السوق الملقاة فيه، فتفوز بتقدير يتمثل فى «تعليقها» في الكعبة بعد أن تكون كتبت على الحرير المصري بأحرف من الذهب، وموضوعات المعلقات غالبا هي: الحب والحرب. وربما الحِكَمُ والصيد ومغامرات الشاعر في رحلاته، وهي من الشعر العربي الموزون المقفى. وقد أقر ابن عبدربه تعليق القصائد السبع فى الكعبة ومثله آخرون ونفاه ابن خلدون ومثله آخرون(٨٧). ولم يرد اسم المعلقات فى مادة (علق) لا في **القاموس المحيط** ولا في **لسان العرب** ولا فى كثير من مراجع الشعر العربي والأدب العربي القديمة.

كسوة الكعبة قبل الإسلام

أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني روايات متعددة فى أول من كسا الكعبة قبل الاسلام. ومن هذه الروايات ما يقول: إن أول من كساها اسماعيل، وثانية الروايات تقول: إن أول من كساها عدنان، وثالثتها تقول: إنه تُبَّعُ أسعد أبو كرب ثم قال: «ويجمع بين الأقوال الثلاثة (إن كانت ثابتة) بأن اسماعيل أول من كساها مطلقًا، وأما تُبَّعُ فأول من كساها الأنطاع والوصائل ـ الأنطاع: بُسُطٌ من الجلد، والوصائل: ثياب حِبَرَةٌ من عَصَبِ اليمن ـ وأما عدنان فلعله أول من كساها بعد اسماعيل»(٨٨). وقد كسيت الكعبة قبل الاسلام بِكُسًا مختلفة النسج واللون. وكان أول من كساها بالديباج خالد أو نتيلة بنت جناب قبل الاسلام. ويقول الحافظ ابن حجر: «إن كسوة خالد أو نتيلة لم تشملها كلها، وإن كان فيما كسواها شيء من الديباج».

وروى الحافظ ابن حجر العسقلاني أيضا أنه: «كانت الكعبة في الجاهلية مبنية بالرَّضْم ليس فيها مُدَرٌ، وكانت قدر ما تقتحمها العَنَاق ـ العَنَاق: الأنثى من أولاد المعز ـ وكانت ثيابها توضع عليها، تُسْدَلُ سَدْلا، وكانت ذات ركنين كهيئة هذه الحلقة: ▭، فأقبلت سفينة من الروم حتى إذا كانوا قريبا من جُدَّة انكسرت»... الخ(٨٩). وذكر الحافظ أيضا أن الدَّارَ قُطْنِيَّ روى في **المؤتلف**: أن أول من كسا الكعبة الديباج نتيلةُ بنت جناب والدة العباس بن عبدالمطلب، كانت أضلّت العباس حينئذ فنذرت، إن وجدته، أن تكسو الكعبة الديباج ... الخ(٩٠). وورد أن اسمها نتيلة بنت حبان (٩١).

وقد عقد أبو الوليد الأزرقي بابًا عنوانه: «ذكر من كسا الكعبة في الجاهلية»، جاء فيه بسنده عن عم أبي محمد، إلى «أبي هريرة عن النبي ﴿ﷺ﴾: أنه نهى عن سب أسعد الحِمْيَرِيِّ وهو تُبَّع، وكان هو أول من كسا الكعبة». وفي رواية عن محمد بن إسحق قال: «بلغني عن غير واحد من اهل العلم أن أول من كسا الكعبة كسوة كاملة تُبَّعٌ وهو أسعد، أُرِيَ فى النوم أنه يكسوها فكساها الانطاع ثم أُرِيَ أن يكسوها فكساها الوصائل، وجعل لها بابا يُغلق. قال أسعد في ذلك:

وكسونا البيت الذي حَرَّم الله	مُلاء مُعَصَّباً وبُرُودا
وأقمنا به من الشهر عشراً	وجعلنا لبابه إقليدا
وخرجنا منه نَؤُمُّ سُهَيْلاً	قد رفعنا لواءنا معقودا(٩٢)

وروى أبو الوليد بسنده عن النُّوار بنت مالك بن صرمة أم زيد بن ثابت قالت: «رأيت على الكعبة قبل أن ألد زيد بن ثابت وأنا به نسء - أي حامل - مطاوف خَزّ خضراء وصفراء وكرارًا - خَيْشًا رقيقا واحدثها كر - وأكْسِيَة من أكسية الأعراب وشقاق شعر».

وروى عن عمرو بن الحكم السُّلَمِيّ قوله: «نذرت أمي بدنة تنحرها عند البيت وجللتها شقتين من شَعر ووبر، فنحرت البدنة وسترت الكعبة بالشقتين، والنبيُّ يومئذ بمكة لم يهاجر فأنظر الى البيت يومئذ وعليه كُسًا شتَّى من وصائل، وأنطاع وكرار، وخز، ونمارق عراقية - اى ميسانية - كل هذا قد رأيته عليه».

ورَوَى أن ما بقي من كسوتها «يُجعل فى خزانة الكعبة، فإذا بَلِي منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب آخر. ولا ينزع مما عليها شيء من ذلك، وكان يُهدى إليها خلوق ومجمر، وكانت تطيب بذلك فى بطنها ومن خارجها».

ويفيد بأن قريشا كانت تَرَاقَدُ في الجاهلية فى كسوة الكعبة فيضربون من ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قُصِيٍّ بن كلاب حتى نشأ أبوربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكان يختلف الى اليمن يتجر بها، فَأَثْـرَى في المال، فقال لقريش: أنا أكسووحدي الكعبة سَنَةً، وجميع قريش سَنَةً. فكان يفعل ذلك حتى مات. . يأتى بالحِبَرَة الجيدة من الجَنَدِ - بفتح الجيم والنون - من أرض السكاسك باليمن، ومسجده يُعَدُّ من المساجد الشريفة اختطه معاذ بن جبل الصحابيُّ. وهي اليوم مدينة صغيرة بين تَعِز وإبّ بنصف يوم - فيكسو الكعبة، فسمته قريش، «العدل» لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها(٩٣).

ومما هو جدير بالتنبيه هنا للمناسبة القائمة، ما وقعت فيه **دائرة معارف القرن العشرين** لمحمد فريد وجدي، رحمه الله، من سهو واضح فقد ورد فيها ما نصه: «أول من كسا الكعبة في الجاهلية هو تبع ابوبكر أسعد ملك حمير سنة ٢٠ قبل الهجرة»(٩٤).

ومحل السهو فى قوله عن لقب*(جـ) أسعد: أنه «أبوبكر» وصحة لقبه المتفق عليه، لدى المؤرخين هو «أبوكرب». وقوله أيضا: أنه «أول من كسا الكعبة في الجاهلية سنة ٢٠ قبل الهجرة». . وذلك أن التُّبَّع أسعد أباكرب عاش قبل هذا التاريخ (أي سنة ٢٠ قبل الهجرة) بنحو عشرة قرون.

ونحن نربأ بالعلامة محمد فريد وجدي، أن يقع عامدًا فى هذا الخطأ الواضح، ولا بد إذن أن يكون منشأ الخطأ، إما من الطابع أو من الناسخ أو منهما معا. . على ما يبدو. . والله أعلم.

وقد وقع كتاب **مرآة الحرمين** لابراهيم رفعت باشا فى خطأ آخر، حيث ورد فيه ما نصه عن تبع المذكور آنفًا: «أنه كسا الكعبة قبل الهجرة، بقرنين»(٩٥).

---

* **المحرر:**
(جـ) أي كنيتُه.

سِدَانَةُ الكعبة قبل الإسلام

فى **لسان العرب** لابن منظور(٩٦): «السَّادن خادم الكعبة وبيت الأصنام، والجمع السَّدَنَة»، ومضى ابن منظور إلى أن قال: «كانت السِّدانة واللواء لبني عبدالدار في الجاهلية. فأقرها النبي ﴿ﷺ﴾ لهم في الاسلام». ثم أوضح ابن منظور الفرق بين السادن والحاجب لُغَة.. فقال: «إن الحاجب يحجب وإذنه لغيره، والسادن يحجب وإذنه لنفسه». ولكنه رجع عن هذه التفرقة عقب إقرارها مباشرة، فقال: «والسَّدْنُ والسِّدانَة: الحجابة، سَدَنَه يَسْدُنُه. والسَّدَنَة حُجَّاب البيت وقَوَمَة الأصنام في الجاهلية، وهو الأصل».

وقد فصل لنا القول في موضوع السَّدَنَة قبل الاسلام ابن ظهيرة القرشي المخزومي فقال: «وكانت السِّدانة قَبْلِ قريش لِطَسْم قبيلة من عاد، فاستخفوا بحقه أيضا ـ أي بحق البيت ـ فأهلكهم الله، ثم وَلِيَتْه خزاعة بعد جرهم دهرًا طويلا حتى صار الأمر إلى أبي غبشان، فباع مفتاح البيت من قُصَيٍّ بن كلاب بزقٍّ من خمر، فقيل في ذلك: «أخَسُّ من صفقة أبي غبشان» فذهبت مثلاً، وصارت حجابة الكعبة من بعد خُزاعة لِقُصَيّ، وانتهى إليه أمر مكة بعد ذلك، فأعطى ولده عبدالدار السِّدانة، وهي الحجابة، وأعطى عبدمناف السِّقاية والرِّفادة، ثم جعل عبدُالدار الحِجابة إلى ولده عثمان»(٩٧).

ويرى جواد علي أن السدانة والحجابة وراثيتان تنتقل بالإرث من الآباء إلى أكابر الأبناء، وتنحصر في الأسرة، فتكون من حقها ومن نصيبها، ولا يمكن انتزاعها منها إلا بقوة لا يمكن التغلب عليها. ومن واجب العشيرة التي تنتمي هذه الأسرة إليها الدفاعُ عنها إن حاول غريبٌ انتزاعَها منها(٩٨).

والذي مرَّ بنا أن السِّدانة والحجابة لفظان مترادفان لُغويا، فهما بمعنى واحد. والرأي الذى قال به جواد علي، وهو أن الحجابة والسدانة وراثيتان تنتقل بالإرث من الآباء إلى أكابر الأبناء وتنحصر في الأسرة، هذا الرأي نقضه بنفسه بعد بضعة أسطر فقال ما نصه:

«غير أن الحق لا يستوجب ولا يشترط أن تكون السِّدانة في أسرة من القبيلة أو الموضع الذي فيه بيتُ الصنم أو الأصنام، فقد كان كثير من سَدَنَة الأصنام من قبيلة لا تنتمى إليها من يقع بيت الصنم في أرضها»(٩٩). ثم ضرب الأمثال لهذا النقض ببني أنعم السَّدَنَة في جُرَش، وبني الغطريف السدنة في قُدَيْد، وبني شيبان في نخلة، وآل أُمامة في تَبَالة وهكذا.

وكتفريع لرأيه حيال وجوب أن تكون السدانة في أسرة من القبيلة أو الموضع الذي فيه بيت الصنم أو الأصنام نراه يقول: «لقد كانت سِدانة الكعبة في بني عبدالدار»(١٠٠)، ويبدو أن حديث جواد علي هنا غير مستوعب لمن كانوا سَدَنَةَ الكعبة قبل بني عبدالدار، قبل الاسلام. وقد سدَّ هذا الفراغ، نوعا ما، ابن ظهيرة فيما نقلناه عنه في مطلع هذا البحث.

أحْدَاثٌ بالكعبة قبل الإسلام

فيما قبل الاسلام وقعت أحداث بالكعبة من أهمها وأقدمها إزماع التُّبع أسعد أبى كرب أو ابنه حسان بن

أسعد أبي كرب هدم الكعبة ونقل حجارتها إلى اليمن، ليكون البيت اليمني كعبة محجوجة للناس بدلا من كعبة مكة.

ولعل الباعث على هذه الخطة هو داء الحسد الذي كان قديما في البشر. ولعل معه دافع المصلحة الاقتصادية التي كثيرا ما تدفع الناس الى رسم خطط شتى. فلربما كان يجول في خاطر أسعد أو ابنه على اختلاف الرواة أنه إذا هُدمت الكعبة المكية، وأقيمت بدلا منها كعبةُ اليمن تنصرف التجارة والرخاء والتطور الى البلد الذى حُوّل اليه حج الناس.

وبَدَهيٌّ من التاريخ أن هذه الخطة مُنيت بالاخفاق. وبقيت في حَيِّز النيات التي لم تظفر بالبروز إلى حيز الوجود.

فقد روى الاخباريون أن الحَبْرَيْنِ اللذين أحضرهما تُبَّع هذا معه في رحلته من المدينة (يثرب) قادما من غزوة له بالعراق في طريقه إلى بلاده (اليمن) قد نصحاه وأقنعاه بأن الخطة التي نوى تنفيذها تجلب له الشؤم والهلاك، فإن الكعبة بيت الله في حرم الله، وخير له أن يُكرمه وأن يُعظمه، ويُكرِّمَ جيرانه، فذلك أجلب للسعادة إليه، وأبقى لملكه، وأيمن لرحلته. وقد عدل فعلا عن رأيه الأول، وحل محله في التنفيذ الرأي الثاني، فدخل مكة وعظَّم الكعبة وكساها من ثياب اليمن الفاخرة، وأطعم جيرانها، وظل أمدا قصيرا بين ظهرانيهم، وكل همه إبراز ظاهرة الاعتراف بقدسية الكعبة وفضل جيرانها. ثم بعد ذلك ارتحل إلى بلاده (اليمن). ولعل ذلك الحادث الذي أزمع تُبَّع تنفيذه كان الرَّسيس والباعث الباطني الذى حفز أبرهة، وقد ملك اليمن من بعد التُّبع أسعد أو حسان ابنه بنحو عشرة قرون. وفعلاً حاول أبرهة تنفيذ خطة هدم الكعبة ونقل الحج بعد ذلك إلى البيت الفخم البناء، الذى أقامه فاخر البناء في صنعاء، وقد تقدم نحو مكة من الجنوب بجيش عرمرم مشترك، يَدْعَمُ هيبته الفيل والمُلك الضخم الطويل العريض. وسار قُدما حتى بلغ مشارف مكة أو مداخلها وقد ذُعر أهل الحرم من مقدم هذا الجيش العرمرم الذى لا قِبَل لهم بدفعه إلى الوراء، واضطرب مجتمعهم، وتَجسَّدت هذه الظاهرة فى انزعاج قريش عامة وسيد مكة عبدالمطلب بن هاشم خاصة، لما أيقنوا بأن أبرهة قادم لا محالة لتحقيق هدفه الخطير، وقد لجأ عبدالمطلب إلى الله جل وعلا وحده، وتشبث بحلقات باب الكعبة، ورفع دعاء حارًا مخلصاً إلى الله سبحانه يدعوه في أبيات شعرية بليغة أعلن فيها أن الله القوي القدير هو وحده القادر على هَزْم جيش أبرهة ودحره، وحماية بيته المحرم وبلده المحرم من مكره الكُبَّار.

وكان ما هو مذكور في القرآن الحكيم، من إهلاك الله لجيش أبرهة الأشرم بالحجارة التي هي من سجّيل، التى ألقاها عليهم طير أبابيل، وقد جعل الله كيدهم في تضليل، فجعلهم كعصف مأكول. وسارت ذكريات الحادثة الرهيبة التى كانت إرهاصا بليغا لنبوة محمد ﴿ﷺ﴾، الذى كان مولده عليه الصلاة والسلام في عام الفيل نفسه. سارت تلك الحادثة الرهيبة مدوية فى أرجاء الجزيرة العربية جمعاء.

وهكذا وَأدت قدرة الله وحده فكرة هدم الكعبة مرتين؛ مرة فى عهد التبع أسعد أبي كرب أو ابنه ملك اليمن

حسَّان، ومرة في عهد أبرهة الأشرم، الذى تحدى قدرة الخالق العظيم، فأرداه ودمَّر جيشه في اللحظات التي كان فيها على شفا جَنْيِ النصر المؤزر الذى سعى إليه.

بئر زمزم قبل الإسلام

مما أُثِـرَ عن العـرب في كلامهم أن كثـرة الأسـماء للمسمي الـواحد دليل على شرف المسمى وأهميته. وقد ذكر المؤرخـون أسـماء عديـدة لبئـر زمـزم حسب ما يلي تبيـانه: هَزْمَةُ جبريل، سُقْيَا الله إسماعيلَ، بركة، سيدة، نافعة، مضنونة، صافية، بَرَّةُ، عَوْنَة، بشرى، عِصْمة، سالمة، ميمونة، مباركة، كافية، عافية، مُغَذِّيَة، ظاهرة، حَرَمِيَّة، مُؤْنِسَةُ، طعام طُعْمٍ، شِفاء سُقْمٍ، سابقة، ظبية (سميت بهذا تشبيها لها بالظبية وهي الخريطة)، تَكْتُم، شُبَاعَةَ، إيصال، شَرابُ الأبرار، قرية النمل، هَزْمَةُ إسماعيل، حَفِيرَةُ العباس، نقْرَةَ الغراب.

وشرح الأزرقي اسمها هذا، «نقرة الغراب»، بأن عبدالمطلب لما أُمر بحفر زمزم ونُبِّه على ذلك وقيل له: «عند نقرة الغراب الأعصم»، جاء إلى المسجد ليتعرف موضع الحفر بما رآى من العلامات، فبينما هو على ذلك إذ نُحرت بقـرة عنـد الحَـزْوَّرَة، فانفلتت من الذابح تجرى حتى غلبها الموت في موضع زمزم، فَجُزرَت في ذلك الموضع، فأقبل غراب يهوى حتى وقـع في الفـرث، فبحث عن قريـة النملة، فقـام عبدالمطلب فحفر هناك، هزمة جبريل. ومعنى «الغراب الأعصم» لغة: الغراب الذي في جناحه ريشة بيضاء.

واسم «زمـزم» مختلف في سبب تسميـة بئـر زمـزم به، فقيـل: لكثـرة ماء البئـر - والـزمـزمة عند العرب الكثرة والاجتماع. أو أن أصل تسميتها بزمزم هو من صوت الماء، أو لأن الفُرس كانت تحج في الزمن الأول، فتزمزم عليها. والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء على ما قاله المسعودي، ورُوي أن عمر رضي الله عنه كتب إلى عُمَّاله بأن ينهوا الفرس عن الزمزمة. وأنشد المسعودي في كتابه: **مروج الذهب**:

زمـزمـت الـفُـرس على زَمْـزَمِ   وذاك في سالـفـهـا الأقْـدَم[١٠١]

وقد زاد ياقوت الحموي في أسماء زمزم: «زُمَّم، زُمْزَم، وزمازم، وركضة جبريل»، وهي كما نرى بمعنى هزمة جبريـل السـابق ذكـرهـا. ففي **لسـان العـرب**: «وجاء فى الحديث فى زمزم: أنها هزمة جبريل عليه السلام. أي ضَرَبَ برجله فانخفض المكان فنبع الماء، وقيل: معناه أنه هزم الأرض أي كسر وجهها عن عينها حتى فاضت بالماء الرُّواء»[١٠٢]، وفيه أيضا: «ركض الأرض والثوب: ضربهما برجليه معاً»[١٠٣]. و«هزمة الملك» و«الهزمة» و«الركضة» شيء واحد. والاسمان الأخيران اختصار للسابقين: «هزمة جبريل»، و«ركضة جبريل»، فليسا باسمين مستقلين، كما أن «الشُّباعة» و«شُبَاعة». هما في الواقع اسم واحد.

فهـذه ثمانيـة وثـلاثون اسما لبئر زمزم. وأغلب هذه الأسماء اسلامية وأقلها - فيما يبدو - جاهلي؛ مثل «زمزم»، ومثـل «شبـاعـة»: الاسم الذى ورد نص صريح عن ابن عباس يقول فيه (وراويه أبوالطفيل): «سمعت ابن عباس يقـول: كانت تسمى فى الجـاهليـة شُبـاعـة، يعنى زمـزم»[١٠٤]، ومثـل «المضنـونـة» التى روى الـزبـير عنها: «أن عبدالمطلب قيل له: احفر المضنونة، ضننتُ بها على الناس إلا عليك»[١٠٥].

وذكر ياقوت أن المضنونة اسم جاهلي للكعبة[١٠٦] ، وقد ورد اسم زمزم في الشعر الجاهلي، من ذلك قول مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبدشمس، يمدح عبدالمطلب :

فأيُّ مناقب الخيرا ... ت لم تشدد به عَضُدَا
ألم تَسْقِ الحجيج وتنـ ... حر المدلاية الرفدا
وزمزم من أرومتها ... وتفقأ عين من حسدا[١٠٧]

وزمزم بئر سحيقة الْقِدَم، استنبط ماؤ ها في عهد الطفولة المبكرة لإسماعيل بن إبراهيم حينما كان هو رضيعا في حضانة أمه هاجر في مكة عندما قدم بهما والده إليها، واستبقاهما في وادي ابراهيم، وقد نال اسماعيل ظمأ شديدٌ، وكانت أمه وحيدة في الوادي، ليس معها فيه عريب. فصارت، من شدة هلعها على ابنها أن يموت ظمأ وجوعاً، تسعى بين جبلي الصفا والمروة، وقد تركته وحيدا يَتَشَحَّطُ من الجوع والظمأ في مكانه، وقد تحملت مشقة السعي بين الجبلين، لعلها ترى أحدا بالوادي. قال ابن عباس: قال أبو القاسم ﴿ﷺ﴾: فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروة. ثم حدث أن سمعت صوتا ولم يكن معها أحد غيرها فقالت: «قد أسمع صوتك فأغثني إن كان عندك خير». فخرج لها جبريل عليه السلام فاتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر، فظهر ماء فوق الأرض، حيث فحص جبريل. يقول ابن عباس: قال أبو القاسم ﴿ﷺ﴾: فَحَاضَتْهُ، - أي حاطته وجمعته، ومنه اشتق الحوض الذى هو مجتمع الماء - أم اسماعيل بتراب ترده، خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بِشَنَّتِهَا - أي قِرْبتها الخَلِقَة الصغيرة - يقول أبو القاسم ﴿ﷺ﴾: «ولو تركته أم إسماعيل كان عينا معينا يجري، ويقول ابن عباس: فجاءت أم إسماعيل بشنتها فاستقت وشربت ودَرَّت على ابنها. . . فبينما هي كذلك إذ مر ركب من جرهم، قافلين من الشام في الطريق السفلى، فرآى الركب الطير على الماء، فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادي من ماء ولا أنيس. قال ابن عباس: فأرسلوا جَرِيَّيْنِ حتى أتيا أم إسماعيل، فكلماها، ثم رجعا إلى ركبهما، وأخبراهم بمكانها، فرجع الركب كلهم حتى حَيَّوْهَا فردت عليهم، وقالوا: لمن هذا الماء؟ قالت أم إسماعيل: هو لي، قالوا: أتأذنين لنا أن نسكن معك عليه؟ قالت: نعم. . قال ابن عباس: قال أبو القاسم ﴿ﷺ﴾ أَلْفَى ذلك أم إسماعيل وقد أَحَبَّت الأُنْسَ. فنزلوا وبعثوا إلى أهليهم فقدموا وسكنوا تحت الدَّوح»[١٠٨]. واعترشوا عليها العُرُش، فكانت معهم هي وابنُها.

كانت تلك قصة ظهور ماء بئر زمزم في الزمن السحيق.

ثم كان أن اندثرت واختفى مكانها، حتى إذا قضى الله على جيش الفيل وسلَّم بيته الحرام وأنجاه وأنجى مكة وأهلها من كيد أبرهة وجيشه العرمرم، عندئذ أمر عبدالمطلب جدُّ النبي ﴿ﷺ﴾ الأول، وهو نائم في حِجر إسماعيل بأن يحفر زمزم، وأكَّد عليه الطلب وأري مكانَها، وعُيِّن له في المنام، فأزمع أن يقوم بحفرها برغم المعارضة الشديدة له من قريش. وقد وجد في بطن أرضها (أرض زمزم) سيوفا قديمة، فبنى على زمزم حوضا، كما فعلت جدته (هاجر أم إسماعيل) من قبله بقرون عديدة. فكان عبدالمطلب يسقي الحاج من ذلك الحوض، وكان حفره لزمزم في موضعها الذي هي فيه الآن، وقد حفرها بين صنمين: أساف ونايلة.

هذا ولقد ذكرنا آنفا قصة ظهور ماء زمزم عبر التاريخ السحيق منذ عهد إنزال ابراهيم عليه السلام لهاجر وابنها إسماعيل بأرض مكة المكرمة في بطن الوادي، ثم حدث انطمار بئر زمزم فيما بعد، حتى قيض الله عبدالمطلب ابن

هاشم فاحتفرها مرة ثانية في العهد الأخير من الجاهلية القريب من الاسلام، ولا تزال ثَرَّةً تفيض بالماء المبارك حتى الآن، فربما تكون بذلك أقدم بئر ظهرت على وجه الأرض واستمر الماء فيها منذ نحو ثلاثة آلاف سنة. هذا مع ملاحظة الظرف الذى انطمرت فيه في العهد الجاهلي، قبيل الاسلام.

الهوامش

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، جـ١، ص٢٥٤.
(٢) ابن الكلبي، **الأصنام**، ص٣١.
(٣) الأزرقي، **أخبار مكة**، جـ١، ص٧٠.
(٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان** (مادة: كعب)، ابن الكلبي، **الأصنام**، ص٢٦، جواد علي، **تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٥، ص٧٢. **المحرر**: يرجى ملاحظة أن المؤلف يرجع لهذه الطبعة مرة وللطبعة المفصلة مرة أخرى حين لا يكون مؤلف الكتاب قد نقض في الطبعة الجديدة رأيا له أبداه في الطبعة الأولى.
(٥) شرح **ديوان حسان بن ثابت**، ص ص٢٨٢-٢٨٩.
(٦) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص ص٣٧٢، ٣٧٣، **الإكليل**، جـ١، ص١٢٦.
(٧) انظر محمد فؤاد عبدالباقي، **المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم** (مادة: بيت).
(٨) ابن كثير، **تفسير القرآن الكريم**، جـ٦، ص٤٢٨.
(٩) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص٨٠، ياقوت الحموي، **المصدر نفسه**، جـ٤، ص٢٨٤.
(١٠) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٦، ص٨٠، المسعودى، **مروج الذهب**، جـ٢، ص٣٠.
(١١) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص٤١.
(١٢) ابن الكلبي، **المصدر نفسه**، ص١٢.
(١٣) **المصدر السابق نفسه**، ص٢٩.
(١٤) **الموضع السابق نفسه**.
(١٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، جـ١، ص١٠٤.
(١٦) **المصدر السابق نفسه**، ص٦١. وأبو يكسوم هو أبرهة. وكان يكنى «أبا يكسوم».
(١٧) **المصدر السابق نفسه**، ص٢٦.
(١٨) العبدرى، **رحلة العبدرى**، ص١٨٠.
(١٩) ابن منظور، **لسان العرب**، جـ١٤، ص٩٥ (مادة: بنى). ونَصُّ كلامه: «والبنية هي فعيلة: الكعبة لشرفها إذ هي أشرف مبنى». وانظر الشيخ محمد المكي بن الحسين، **أسماء الكعبة المشرفة**، ص١٠.
(٢٠) ابن الكلبي، **المصدر نفسه**، ص٤٢.
(٢١) ابن منظور، **المصدر نفسه**، جـ٤، ص٢٩٧، (مادة: دور).

(٢٢) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص ص١٨٨، ١٨٩، أحمد رضا، **معجم متن اللغة**، (مادة: **قدس**)، الشيخ محمد المكي بن الحسين، **المصدر نفسه**، ص١٣.
(٢٣) الأزرقي، **الموضع السابق نفسه**، ابراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، جـ١، ص٣٦٣، الشيخ محمد المكي ابن الحسين، **الموضع السابق نفسه**.
(٢٤) الأزرقي، **الموضع السابق نفسه**، الشيخ محمد المكي بن الحسين، **الموضع السابق نفسه**.
(٢٥) جواد علي، **تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٥، ص٢٢١ عن مراجعه، وغيره من المراجع.
(٢٦) **البقرة: ١٤٤**.
(٢٧) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، جـ١، ص٢٥.
(٢٨) جواد علي، **المرجع نفسه**.
(٢٩) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٤، ص٤٦.
(٣٠) ابن كثير، **المصدر نفسه**، جـ١، ص٣٣٩.
(٣١) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، **المصدر نفسه**، جـ٢، ص٢٥.
(٣٢) الفيروز آبادى، **القاموس المحيط** (مادة: **حمس**).
(٣٣) الشيخ محمد المكي بن الحسين، **المرجع نفسه**، ص١٤.
(٣٤) **آل عمران: ٩٦**.
(٣٥) **الحج: ٢٧**.
(٣٦) **البقرة: ١٣٧**.
(٣٧) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص ص٢٥، ٢٧.
(٣٨) **المصدر السابق نفسه**، ص٢٧.
(٣٩) المسعودى، **مروج الذهب**، جـ٢، ص٢٣.
(٤٠) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص ص٢٥، ٥٣.
(٤١) ثعلب، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، ص١٤، **المعلقات العشر الطوال**.
(٤٢) **ديوان الأعشى**، ص١٥.
(٤٣) ابن الكلبي، **المصدر نفسه**، ص٨.
(٤٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**.
(٤٥) الشيخ حسين عبدالله باسلامة، **تاريخ الكعبة المعظمة**، ص٧٨، جواد علي، **تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٥، ص١٧٣.
(٤٦) ابراهيم الحربي، **المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، ص٤٩٤.
(٤٧) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص ص ١٠٤ - ١٠٦، وغيره فيما يتعلق بمحو كل الصور التى كانت في جوف الكعبة على جدارها وسقفها. وكان الأزرقي قد روى أنه عليه السلام أمر بطمس كل الصور إلا صورة عيسى بن مريم وأمه. وهي رواية لم يرتضها العلماء الأثبات نقاد الروايات الحديثة، وردوها على الأزرقي.
(٤٨) ابن الكلبي، **المصدر نفسه**، ص٨.

(٤٩) **الحَمَّة**: عين فيها ماء حار ينبع، يستشفى بها المرضى (**القاموس المحيط**: مادة: **حم**).
(٥٠) ابن الكلبي، **الموضع السابق نفسه**.
(٥١) ابن الكلبي، **المصدر السابق نفسه**، ص ص٦، ٧.
(٥٢) ابن هشام، **المصدر نفسه**، جـ١، ص ص**٥٢، ٥٣**.
(٥٣) الأزرقي، **المصدر نفسه**، جـ٢، ص٣٧.
(٥٤) ابن الكلبي، **المصدر نفسه**، ص٣٣.
(٥٥) **كذا**، هذا والنص المطبوع هو كما دوّنا ـ والذى يبدو في سياق الكلام أن الصحة: «وجعل ثلاثاً أثافيَّ لقدره».
(٥٦) جواد علي، **تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٥، ص٢١٩.
(٥٧) **الموضع السابق نفسه**.
(٥٨) هـ. ج. ولز، **معالم تاريخ الإنسانية**، جـ٣، ص٦٢٥.
(٥٩) **الموضع السابق نفسه**.
(٦٠) محمد طاهر الكردي المكي الخطاط، **مقام إبراهيم عليه السلام**، ص١٠٧.
(٦١) **الموضع السابق نفسه**.
(٦٢) **الموضع السابق نفسه**.
(٦٣) الشيخ محمد المكي بن الحسين، **المرجع نفسه**، ص٢٧.
(٦٤) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص٢٣٩.
(٦٥) **المصدر السابق نفسه**، ص١٠٤.
(٦٦) الشيخ حسين عبدالله باسلامة، **المرجع نفسه**، ص١٨١.
(٦٧) ابن منظور، **المصدر نفسه**، (مادة: **طوف**).
(٦٨) **كذا**. ويبدو أن صحته: «موضع الطواف».
(٦٩) **الموضع السابق نفسه**.
(٧٠) ابن الكلبي، **المصدر نفسه**، ص٦.
(٧١) محمود شكرى الألوسي، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، ص٣٣٤، محمد طاهر الكردي المكي الخطاط، **المرجع نفسه**، ص٨٢.
(٧٢) إدوار غالب، **الموسوعة في علوم الطبيعة**، جـ١، ص٥٩٢. وفي **الموسوعة الميسرة** (مادة: **نيزك**) أنه «شهاب غير تام الاحتراق تصل أجزاؤه إلى الأرض». وفي غيرها أيضا.
(٧٣) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الاسلامية**، جـ١، ص ص٢٥، ٣٤.
(٧٤) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص٢٣٦.
(٧٥) جواد علي، **تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٥، ص٢١٨.
(٧٦) **الموضع السابق نفسه**.
(٧٧) **الموضع السابق نفسه**.

(٧٨) **الموضع السابق نفسه**.

(٧٩) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، (مادة: **المُلْتَزم**).

(٨٠) الشيخ حسين عبدالله باسلامة، **المرجع نفسه**، ص١٦١.

(٨١) المسعودي، **المصدر نفسه**، جـ١، ص٢٦٥.

(٨٢) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص١٦٣، ونقل عنه الشيخ حسين عبدالله باسلامة، **المرجع نفسه**، ص٣٣٠، وجعل الأوقيات سبعين فقط.

(٨٣) إبراهيم الحربي، **المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، ص٤٨٦.

(٨٤) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص١٤٧.

(٨٥) جواد علي، **المرجع نفسه**، ص١٧٢.

(٨٦) عبدالقدوس الأنصارى، **آثار المدينة المنورة**، ط٣، ص١٩٣؛ ط١، ص١٢٢.

(٨٧) راجع وليم ديورانت، **قصة الحضارة**، جـ٣، ص١٥، محمد فريد وجدي، **دائرة معارف القرن العشرين**، جـ٦، ص٥٤٣، ابن عبدربه، **العقد الفريد**.

(٨٨) الحافظ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، جـ٣، ص٤٥٩.

(٨٩) **المصدر نفسه**، ص٤٤١.

(٩٠) **المصدر نفسه**، ص٤٥٩.

(٩١) الشيخ حسين عبدالله باسلامة، **المرجع نفسه**، ص٢٣٠. **ولعله خطأ مطبعي لاسمها: «نتيلة بنت جناب» الذي ورد في فتح الباري قبله**.

(٩٢) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص ص١٦٥، ١٦٦.

(٩٣) **المصدر السابق نفسه**، ص ص١٦٥ ـ ١٦٧.

(٩٤) محمد فريد وجدي، **المرجع نفسه**، جـ٨، ص١٤٨.

(٩٥) إبراهيم رفعت، **مرآة الحرمين**، جـ١، ص٢٨١.

(٩٦) ابن منظور، **لسان العرب** (مادة: **سدن**).

(٩٧) ابن ظهيرة، **الجامع اللطيف في فضل مكة وأصلها وبناء البيت الشريف**، ص١١٤.

(٩٨) جواد علي، **تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٥، ص١٨٨.

(٩٩) **الموضع السابق نفسه**.

(١٠٠) **الموضع السابق نفسه**.

(١٠١) ابن ظهيرة، **المصدر نفسه**، ص ص٢٧٢ ـ ٢٧٤.

(١٠٢) ابن منظور، **المصدر نفسه**، (مادة: **هزم**).

(١٠٣) **المصدر السابق نفسه**، (مادة: **ركض**).

(١٠٤) الأزرقي، **المصدر نفسه**، ص٤١.

(١٠٥) راجع محمد المكي بن الحسين، **المرجع نفسه**، ص٢٨.

(١٠٦) ياقوت الحموي، **المصدر نفسه**، جـ٤، ص٥٥٩.

(١٠٧) الأزرقي، **المصدر نفسه**، جـ٢، ص٣٧. ولهذه الأبيات رواية أخرى في ابن هشام، **المصدر نفسه**، جـ١، ص١٥٩. وبدلا من كلمة «المدلاية» وردت فى تلك الرواية «الدلاقة». وفسرت بأنها الإبل التي تمشى متمهلة لكثرة سمنها.

(١٠٨) الأزرقي، **المصدر نفسه**، جـ١، ص ص٣٠ - ٣٣.

المصادر والمراجع

(١) **القرآن الكريم**.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الحافظ،
فتح الباري بشرح صحيح البخارى (القاهرة: المطبعة السلفية).

(٣) إبن ظهيرة القرشي المخزومي، محمد جار الله بن محمد نورالدين بن أبي بكر بن علي،
الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف (القاهرة: عيسى البابي الحلبي).

(٤) إبن عبدربه، أبوعمر أحمد بن محمد،
العقد الفريد.

(٥) إبن كثير القرشي، عماد الدين أبوالفدا،
تفسير القرآن الكريم (بيروت: دار صادر).

(٦)ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب،
الأصنام.

(٧) ابن منظور،
لسان العرب (بيروت: دار صادر).

(٨) ابن هشام،
السيرة النبوية.

(٩)الأزرقي، أبو الوليد،
أخبار مكة (مكة: المطبعة الماجدية).

(١٠) الأعشى،
ديوان الأعشى.

(١١) الألوسي، محمود شكرى،
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب.

(١٢) الأنصارى، عبدالقدوس،
آثار المدينة المنورة.

(١٣) باسلامة، حسين عبدالله،
تاريخ الكعبة المعظمة.

(١٤) بروكلمان، كارل،
تاريخ الشعوب الاسلامية (ترجمة نبيه أمين فارس).
(١٥) ثابت، حسان بن،
شرح ديوان حسان بن ثابت (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب. تحقيق سيد حنفي حسنين. مراجعة حسن كامل الصيرفي).
(١٦) ثعلب،
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى.
(١٧) الحربي، إبراهيم،
المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة (الرياض: دار اليمامة، تحقيق حمد الجاسر).
(١٨) الحسين، محمد بن المكي بن،
أسماء الكعبة المشرفة (دمشق: المطبعة التعاونية).
(١٩) الحموي، ياقوت،
معجم البلدان.
(٢٠) الخطاط، محمد طاهر الكردي المكي،
مقام إبراهيم عليه السلام (القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م).
(٢١) ديورانت، وليم،
قصة الحضارة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٩م).
(٢٢) رضا، أحمد،
معجم متن اللغة (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٥٨-١٩٦٠م).
(٢٣) رفعت باشا، ابراهيم،
مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٥م).
(٢٤) عاشور، محمد الطاهر بن،
التحرير والتنوير (تونس).
(٢٥) عبدالباقي، محمد فؤاد،
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م).
(٢٦) العبدرى الحيحي، محمد بن أحمد بن علي بن احمد بن مسعود،
رحلة العبدري (المغرب).
(٢٧) علي، جواد،
(أ) **تاريخ العرب قبل الإسلام** (بغداد: المجمع العلمي العراقي).
(ب) **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** (بيروت: دار العلم للملايين؛ بغداد: مكتبة النهضة). طبعة مفصلة عن السابقة.

(٢٨) غالب، إدوار،
الموسوعة في علوم الطبيعة (بيروت).
(٢٩) الفيروز آبادي،
القاموس المحيط.
(٣٠) المسعودي،
مروج الذهب (بيروت: دار الأندلس).
(٣١) مسلم،
صحيح مسلم (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. تحقيق وتصحيح محمد فؤاد عبدالباقي).
(٣٢) الهمداني،
(أ) **الإكليل** (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية. تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي).
(ب) **صفة جزيرة العرب** (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر. تحقيق محمد بن علي الأكوع).
(٣٣) وجدي، محمد فريد،
دائرة معارف القرن العشرين (القاهرة).
(٣٤) ولـز، هـ. ج.،
معالم تاريخ الإنسانية (ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد).

عبادة الأرواح (القوى الخفية) في المجتمع العربي الجاهلي*(أ)

علي الدين محيي الدين

نظـرة تمهيديـة

يتنـاول هذا البحث عبـادة الأرواح، وهي من معتقـدات العـرب قبـل الإسـلام. إن المشكـلات التي تواجه الباحث في مثل هذا الموضوع هي عدم توفر نصوص مكتوبة أو آثار تدلنا بشكل تفصيلي على مكونات الموضوع، هذا من جهـة، ومن جهـة أخـرى فإنـه وإن كانت هنـاك مصادر مكتوبة فإنها لا تتحدث عن الديانة العربية القديمة إلا قليلا. إن السبب في هذا أنه لما جاء الاسلام قضى على كل أثر أو بقية من بقايا الوثنية.

وقد وجدت آثار في المناطق التاريخية الواقعة ببلاد العرب الجنوبية، ولكن كثيرا منها قد خرب مع توالي الزمن واندثر.

إن الأدب العـربي الجـاهـلي، الذي يمكن اعتباره مصدرا مهما لدراسة حياة العرب قبل الاسلام، لا يتناول هذا الموضوع بصورة عميقة. ومع ذلك يمكننا أن نستنتج بعض المعلومات من القرآن الكريم ومن أخبار الرواة التي وردت في الكتب الكلاسيكية*(ب)، مثل **القاموس المحيط، ولسان العرب، وتاج العروس**.

إن بعض المستشـرقـين الغـربيين قد أظهروا اهتماما بالغا بمعتقدات العرب قبل الاسلام ومن بينهم روبرتسن سميث (W. Robertson Smith) وونسنـك (A.L. Wensinck) وغـوستـاف لوبـون (Gustave Lebon) ومـولـر (D.H. Müller) وفيلهاوزن (Wellhausen) ونيلسن (D. Nielsen) وغيرهم.

عبادة الأرواح: فكرة عامة

وردت عبـادة الأرواح في أشكـال متعـددة مثـل الشـامـانيـة (Shamanism)، والطـوطميـة (Totemism)، والسحـريـة أو «الفتشيـة» (Fetishism)، وعبادة المظاهر الطبيعية (Animism) أو عبادة الطبيعة (Nature-worship)، وعبـادة الأسـلاف (Ancestor-worship)، وعبـادة الأمـوات (Necropolatry)، وعبـادة الأرواح (Spiritism) أو (Polydemonism)، وعبادة الملائكة، ويمكن تسميتها Angelism، وعبادة الجن (Demonism) وغير ذلك.

والشامانية ربما جاء من كلمة شامان *(Shaman)* الروسية، ومعناها الكاهن العرّاف الذي يظن أنه يستطيع أن يشفي المريض بفضل ما يملك من قوة سحرية، مثل ما هو معروف في أندونيسيا بشكل عام باسم *(Dukun)*، أو ما يعرف في منطقة آتشية (Acheh) بسومطرة الشمالية بشكل خاص باسم *Saman*، وهو شخصية دينية لها مركز مهيب.

---

* المحرر:

(أ) قدم هذا البحث باللغة العربية.

(ب) كذا بالأصل. يبدو أن الكاتب يسمي المعاجم اللغوية والمصادر العربية الأصلية بهذا الاسم. وهي تسمية لا يقول بها أحد ممن يكتب بالعربية، لكنها ترد فيما يكتب باللغات الأوروبية هكذا Classical Arabic Sources، وعلّ هذا ما يقصده المؤلف.

وقد تكون من كلمة *Shemen* التي معناها «صنم» أو «معبد». كما أنها قد تكون من أصل غير هذا أو ذاك.

وبفضل القوى السحرية التي يعتقد أنه يملكها الشامان *(Shaman)*، فإنه يظن أنه يتصل بالأرواح والقوى غير المرئية، ويأمرها بما يشاء. وبهذه الطريقة يستطيع ممارسة أعمال الطبيب.

والطوطمية (Totemism) من Totem، وهو الحيوان أو النبات. أو الشيء الذى تقدسه بعض الجماعات أو القبائل البدائية، باعتبار أن لهم به صلة مقدسة. وترجع صلة الإنسان بالحيوان الى أقدم العصور التي عاشا فيها معا على ظهر الأرض. ولذلك نشأت بينهما صلة روحية أنشأها الخيال، وتجلت هذه الصلة في إكبار الإنسان للحيوان وتقديسه، حتى جعل منه معبودات. ولقد اعتقد الإنسان في الحيوان آنذاك اعتقادات متعددة، منها أن للحيوان روحا مثل روحه، وأنها تبقى بعد موته وتكون قادرة في الحالتين على عمل الخير والشر. فكان من الطبيعي أن يتقرب الانسان الى قوة الخير وأن يسترضى قوة الشر، وأن تكون وسيلته الى ذلك القرابين والتقديس وعبادة الحيوان لذاته، أو لأن روحا مقدسة تحل فيه أو ربما أنه رآى في الحيوان رمزا أو صورة لمعبوده، أو قوة هي أعلى منه لا يراها.

إن الباعث على عبادة الحيوان أولا كان الخوف الممزوج بالاعجاب والرهبة من قوة المخلوق العجيبة، ثم تطورت الفكرة في الحيوان، فصار يمثل المعبود والصورة المادية للصفات المقدسة، فكان من ذلك أن صار الثور والكبش بما لهما من مقدرة عظيمة على الانتاج يمثلان بعض آلهة الطيبة والبعث من كل عام. وفي هذا الصدد لم يكن في مقدرة المعبودات أن تحتفظ بالحياة الدائمة إلا بانتقال الأرواح من جسد إلى جسد(١).

وقد تشمل الطوطمية كذلك توسعا لبعض المظاهر الطبيعية، مثل المطر والشمس. و«الطوطم» بين الجماعة هو الرابط الذى يربط بين أفرادها، وكأن بينهم صلة رحم. وفي هذا الصدد يرى الاستاذ روبرتسن سميث (Robertson Smith) أن الطوطم كان إحدى المعتقدات العظمى الكثيرة، وفي كتابه، عن القرابين عند الساميين، رأى الاستاذ سميث وجود الصلة بين المعبودات والناس مع وجود الصلة بين المعبودات والحيوانات المقدسة، علاوة على الصلة التى تقوم بين أعضاء القبائل وحيوانات معينة(٢).

والسحرية أو «الفتشية» (Fetishism) هي عبارة عن تقديس للجمادات التي لا حياة فيها، باعتبار أن بها قوة سحرية وقوى غير مرئية ملتصقة بها على الدوام.

وإذًا فتلك الجمادات إنما هي عبارة عن مساكن أو مستقرات لتلك القوى الخفية، وإذا تقرب صاحب هذه العقيدة الى تلك الأشياء الجامدة، فإنه لا يقصدها لذاتها، وإنما يقصد بها القوة الخفية الرهيبة (الروح) التي تكمن فيها. فالمعبود - في الحقيقة - ليس تلك الأشياء الجامدة، وإنما «الروح» التي تسكن في تلك الأشياء.

وعبادة المظاهر الطبيعية (Animism) أو عبادة الطبيعة (Nature-worship)، إنما وجدت على أساس الاعتقاد بوجود «أرواح» لها تأثير فعال في كل الكائنات الطبيعية، أو قوى هي فوق القوى الطبيعية (Supernatural). إن خوف الإنسان من القوى الهائلة التي يحس بسيطرتها عليه أمر طبيعي، وهو يرجو نيل حمايتها ويأمل عطفها ورعايتها

له، وهذا كله من المشاعر العامة عند أغلب الشعوب في جميع أنحاء العالم.

من بين الأرواح ما يكون في جسم، ومنها ما لا يكون في الأجسام، ويمكن تسميته بالروح (Spirit).

وقد قسّم بعض العلماء[٣] هذه العبادة الى ثلاثة أنواع وهي:
١ ـ عبادة النفس سواء فى الإنسان أو في الحيوان، ومنها عبادة الأموات.
٢ ـ عبادة الأرواح (Spiritism).
٣ ـ وعبادة القوى الكامنة في الكائنات الطبيعية (Naturism).

وكلمة Animism مشتقة من الأصل اللاتينى *Animus, Anima* أي «نفس» أو«روح» أوقوة غير منظورة، ولكنها محسوسة مثل *Anima mundi* أي «روح العالم»، أو القوة الحية في العالم. وقد جاءت من جذر الكلمة *An* بمعنى «يتنفس» أو«يهب» أو«ينفث». و**الأنيما** هذه غير مادية، ولكنها لا تنفصل عن المادة، وهي تمنح المادة شكلها وتمدها بحركاتها الديناميكية.

وفكرة الـ*Anima* تشبه الى حد كبير فكرة الـ*Mana* فى الفلسفة الاندونيسية القديمة في (جزيرة جاوا خاصة) التي كانت تعتقد بوجود قوة أونفس أو «روح» في كل ما هوموجود، سواء في الأشجار، أوفى الأحجار، أوفي الجبال، أوفى البراكين، أوفى الحيوانات... وكذلك الإنسان كفرد وكمجتمع. وهذه القوة الخفية هي الـ*Mana* (**المانا**)، وعلى قدر كمية **المانا** وطريقة تنظيمها يتوقف قدر ما يتخذ الكائن أو الموجود شكله المعين ونوعه ونوعيته. فالحديد تتوافر فيه كمية كبيرة من هذه **المانا** منتظمة بشكل كثيف وصلد، والخشب فيه كمية أقل ومنظمة بشكل آخر... وهكذا، وهذا ما يجعل الحديد يختلف عن الخشب.

والإنسان المريض يحتاج الى إعادة تنظيم كمية **المانا** في جسده وإضافة كمية أخرى، حتى يشفى والمجتمع الانساني كذلك يجب اعادة تنظيم **المانا** فيه من وقت لآخر، حتى يتطور الى مجتمع أفضل.

ومن بين الأشكال التي اتخذتها عبادة «الأرواح» كذلك، هي عبادة الأسلاف (Ancestor-worship). ويعتقد كثير من المفكرين أن الذى دعا الإنسان في المجتمعات الوثنية إلى هذه العبادة، هو الشعور بالحب والتقدير للأبطال والزعماء والرؤساء الذين ينشرون حمايتهم على الجماعة في حياتهم، والأمل في أن يواصل أولئك الأبطال بسط جناح الحماية على الجماعة والدفاع عنها، كما كانوا يفعلون أثناء حياتهم.

ويرى البعض أن تمجيد الأبطال هو الذى أدى الى ظهور هذه العبادة، ويرى آخرون أن شعور الخوف والرهبة من الأبطال والرؤساء، هو الذي أوجد هذه العبادة. واستمر كثير من الأمم الوثنية على عبادة الأسلاف حتى أيامنا هذه. ومن عبادة الأسلاف يتألف الدين الرئيسي في الصين واليابان، ذلك لأن أتباع هذه العقيدة يؤمنون أن إرادة أسلافهم أوأجدادهم تسيطر على إرادة الأحياء، فالإنسان منهم يشعر بالصلة الوثيقة التي تربطه بالأجيال السابقة.

والملاحظ أن عبادة الأسلاف تؤدى بالجماعة الى الاعتقاد بأنهم من أصل واحد، أي أن قبيلتهم أو جماعتهم تنحـدر من صلب جد واحـد، أو كائن جبـار عظيم كما تقـول الأساطير الشعبية المنتشرة بين أبناء القوميات الصغيرة (Nationalities ؛ أو *Suku-Bangsa* باللغـة الأنـدونيسيـة). وهي القـوميـة المعـروفـة باسم *Batak* التي تقطن منطقـة Tapanuli بسومطرة الشمالية.

ونحن نرى أن هذه الفكـرة جاءت أسـاسـا من الفطـرة الانسـانية نفسها، وهي حب التجمع والالتئام، أي اجتماعيـة الانسـان وروحـه المـدنيـة لكـونـه كائنا اجتماعيا. ومهما تعددت الآراء والنظريات بخصوص منشأ عبادة الأسلاف فإن أساس هذه العقيدة هو الاعتقاد بخلود الروح وخاصة روح السلف. . وهذا ما دفع بقدماء المصريين الى بنـاء مقـابـرهم مثـل المنازل، ودفن الآلات المنزلية مع الميت، حيث يعتقدون بأن الروح سوف تحل به ثانية بعد أربعين يوما*[جـ]. وقد تكون عادة الاحتفال بمضي أربعين يوما على الوفاة (الأربعين) هي من آثار تلك العقيدة ومخلفاتها.

ومن آثار عبادة السلف عند المفكرين، حلق الرأس وإحداث جروح في الجسد واحتفالات دفن الموتى ولبس المسوح، والعناية بالقبور والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها، أو علاقات خاصة بالميت أو الموتى للتقديس[٤].

كما أن زيارة القبور*[د] لها صلة كذلك بعبادة الأسلاف، حيث كان القدماء يقدسون قبور أسلافهم ويتعبدون لها.

وعبـادة الأصنـام (idolatry) نفسهـا ذات صلة بعبـادة الأرواح، حيث كان الـوثنيـون يخاطبـون أصنـامهم ويتوسلون إليها ويستشيرونها في الأفراح، وفي الأتراح، لتصورهم أن لها روحا وأنها تسمع وترى.

وقـد تخيـل الأقـدمـون الأرواح في أشكال مختلفة، وأنها قد تحل في بعض الحيوانات كما في الأشجار. ولذا نظر الى تلك الأشيـاء نظـرة تقـديس مخلوطـة بالخـوف، فلقد كانوا يتجنبون قطع تلك الأشجار أو إلحاق الضرر بها. كما كانـوا يتصـورون ذلـك بالنسبة لبعض الأماكن التي يعتقدون أنها «مسكونة» بأرواح، خبيثة شريرة في الأغلب. وقد بقيت هذه المعتقدات في كثير من المجتمعات حتى الآن. ونحن في إندونيسيا نجد ذلك أيضا. فنرى الناس يقولون عن بعض الأشجـار مثـلا كأشجـار التمـر الهنـدى أو أشجار الساغو، أن بها روحا وأن لها حارسا خفيا من الأرواح، وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الأماكن المهجورة أو بعض الآبار، حتى أن هناك كلمة شهيرة باللغة الإندونيسية هي *Angker, Angkar* (بالجاوية) وتعني بالعربية «مسكون» أي تقطنها روح أو شبح أو عفريت.

---

* المحرر:

(جـ) المقـابـر عنـد قدمـاء المصـريين هي بيوت الموتى التي يواصلون فيها حياتهم الثانية، بعد الموت الأول، وليست مساكن للأرواح.

(د) يقصد المؤلف زيارتها في المجتمعات غير الاسلامية.

واتخـذت عبـادة الأرواح أشكـالا أخرى كعبادة الجن (Demonism) أو تعدد الجن (Polydemonism) ، وذلك توددا لتلك القوة الخفية الرهيبة التى يتوهم الإنسان أنها تستطيع أن تلحق به الأذى، أو أنه يستطيع استخدامها إذا فهم أسرارها واستطاع «استئناسها» لأغراض هي في الغالب شريرة.

وكـذلـك عبـادة المـلائكـة (Angelism) كأرواح سماويـة، وعبادة النجوم والكواكب وغير ذلك . . . والسبب الـرئيسي لهذا الاعتقـاد هو ارتبـاط معيشتهم بالطبيعـة حيث تتوقف حياتهم على المطر كما يتوقف سير قوافلهم على النجوم والكواكب السيارة، مثل الكلدانيين وكهنة بابل الذين عبدوا الكواكب وأتقنوا فن الاسترشاد بالنجوم.

عبادة الأرواح عند قدماء العرب

مقدمـــــة

هناك عدة عوامل ومؤثرات تؤثر في تطور المعتقدات وفي تشكيلها بل وفي نشوئها، ومن هذه العوامل الأوضاع الجغـرافيـة والطـوبـوغرافية . فمعتقدات سكان الجبال غير معتقدات سكان السهول والوديان، وهي غير تلك التي يعتقـدهـا سكـان الصحارى والبوادي الفسيحة الممتدة إلى ما لا نهاية . وكذلك الحالات النفسية والطباع والأمزجة تؤثر في تلك المعتقدات، فالأمم الهادئة ذات الحياة الرتيبة الوديعة، في العصور القديمة، تتصور آلهتها على غير ما تتصـوره تلك الأمم التي تحيـا حيـاة صاخبـة أو قاسيـة، أو تتميـز بطباع ديناميكية أو بأمزجة حادة . ولذا نجد اليونان يتصـورون آلهتهم كالبشـر تنفعـل وتتعـاطف وتغضب وتكـرع الخمـر وغـير ذلـك، بينما نجد الجاويين في اندونيسيا يلجأون الى التأمل الباطني، ويتصورون المعبود قوة خفية يمكن الاتصال بها، بل والاندماج معها من خلال ذلك التأمل الباطني الهادىء.

وشكـل المجتمـع كذلـك له تأثير بعيد المدى في نشوء المعتقدات وتطور الأفكار الدينية وتشكيلها . فالمجتمع الزراعي في تصوراته يختلف عن المجتمع الذي يعيش على الرعي، أو على التجارة . والنظام الاجتماعي نفسه يؤثر تأثيرا كبيرا في ذلك، فمجتمع القبائل يختلف في أفكاره وفي طريقة تصوره عن المجتمع الذى تسوده حكومة مركزية، والمجتمع الوثني الذى يميل الى الليبرالية المطلقة قد تنتشر فيه مذاهب تعدد الآلهة، بينما المجتمع الموحد يميل الى عكس ذلك.

والعـوامـل الخـارجية أيضا لها أثرها في تكوين عقلية شعب ما، وبالتالي في تكييف أفكاره ومعتقداته . ويتضح ذلـك جليـا في الفلسفـة الجـاويـة التي تقسم النفس الى خمسـة أنـواع : منهـا *Alu āma* (أي **اللّوامة**) و*Sūpiah* (أي **الصـوفيـة**) والكلمتـان، كما هو ظاهـر مأخـوذتـان من العـربيـة، ليس من ناحية الشكل فحسب، ولكن من ناحية المضمون كذلك.

المجتمع العربـي وبيئتـه

المجتمـع العـربي القـديم قام أساسا في الجزيرة العربية . والجزيرة في عمومها صحراء ممتدة فسيحة ليس فيها أنهار دائمة الجريان، وإنما فيها أودية يسيل فيها الماء أحيانًا.

وهذه الصحراء في نظر الناظر أمامه تمتد بعيدة الى أن تلتقي في خط واحد مع السماء الزرقاء الصافية، هو خط الأفق، وهذا الانبساط الممتد له أثره على نفسية السكان الرحبة وعلى انطلاقهم وشعورهم بالحرية التي لا حد لها، إنهم يشعرون باللانهاية فوقهم حيث يلمسون عمق تلك السماء الزرقاء، وأمامهم حيث يرون الأفق ويسعون نحو السراب دون اللحاق بقطرة ماء.

وهذه الشمس اللافحة تفرض حرارتها على البيئة والطبيعة في النهار، والقمر الرائع يسطع في الليالي المقمرة، والنجوم تتلألأ في القبة الزرقاء وتهدي القوافل.

إن هذه البيئة الجغرافية والظروف الطبيعية قد أثرت بلا شك في تكوين العقلية العربية والتفكير الديني، حيث سرح العربي في تلك اللانهاية الممتدة بلا حدود إلى خط الأفق، وطاف بخياله في أعماق السماء باحثا عن سر ذلك الامتداد وهذا العمق.. إذًا لا بد وأن هناك قوة خفية خلف ذلك الامتداد ووراء هذا العمق.

ثم إن تلك الشمس اللافحة تهيمن على ذلك الانبساط وتلفح بوهجها وجه الإنسان ووجه الرمال، ولذا فقد تكون هي أيضا مصدرا لهذا الوجود. والقمر الوضاء في الليالي المقمرة وأشكاله المختلفة التي يتقلب بها من هلال وتربيع وبدر، قد يكون هو الآخر قوة هذا الوجود. والنجوم المنتشرة هنا وهناك في السماء الصافية.. وهذه النجوم التي تظهر في أماكن معينة وأوقات محددة، أو التي تظهر في أوضاع خاصة وتستعين بها القوافل في رحلاتها، هي أيضا قوة غريبة لهذا الوجود. ومن هنا ظهرت عبادة الشمس وعبادة القمر وعبادة النجوم في العصور السابقة للإسلام، كما انعكست في طبيعة العربي في البادية في الجاهلية. وهذا ما وصفه أحمد أمين: «والعربي عصبي المزاج، سريع الغضب يهيج للشيء التافه، ثم لا يقف في هياجه عند حد، وهو أشد هياجا إذا جرحت كرامته أو انتهكت حرمة قبيلته...» والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء، وفي الحق أن العربي ذكي(٥).

وهذا المزاج في الحقيقة قد تشكل من تلك الظروف الطبيعية القاسية، ومن الجو الحار المتوهج نهارا والبارد القارس ليلا... وكذلك من ظروف المجتمع القبلي، حيث الغارات والحروب بين القبائل، وانعكس في تعدد التصورات بالنسبة للقوى الخفية التي تسيطر على الوجود وفي تغير المعتقدات وتعدد الآلهة والأصنام، بل وفي الثورة على ذلك الإله أو الصنم. ونشير بهذه المناسبة الى قصة بني ثعلب، فقد كان لهم صنم يعبدونه، فبينما هم ذات يوم إذ أقبل ثعلبان يشتدان، فرفع كل منهما رجله وبال على الصنم، وكان للصنم سادن، يقال له غاوي بن ظالم، فلما رآى ذلك قال:

أرب يبول الثعلبان برأسه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم حطم الصنم...

ويحكى أنه كان لرجل صنم، وكان يأتي له بالخبز والزبد فيضعه عند رأسه ويقول له: أطعم. فجاء ثعلب ذات يوم وأكل الخبز والزبد، ثم بال على رأس الصنم. فقام الرجل وضرب الصنم فكسره(٦).
والقصتان تشيران الى عصبية المزاج والذكاء في نفس الوقت.

ولقـد أثـر النظـام الاجتـماعي على أفكار العرب ومعتقداتهم كذلك. فالمجتمع متعدد القبائل، وبالتالي كان لكـل قبيلة صنمهـا وتصـوراتهـا الخـاصـة عن ذلـك الصنم. وكـان العـربي القـديم يحترم رئيسه الى حد التبجيل والتقديس، حتى أنه سار اعتقاد فى الماضى أن دم الرئيس يشفي من مرض الكلب[٧].

وتأثـر العـرب كذلـك بمؤثـرات خارجيـة بسبب احتكـاكهم بالأمم المجـاورة، وخـاصـة عن طريق القوافل التجـاريـة، كما أن الـوثنيـين منهم قد تأثـروا كذلك بوثنية غيرهم، وأثروا في غيرهم أيضا. وقد ذكر هيرودوت عربا يقيمون في المدن الفلسطينية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، أسماهم *Arabioi* كانوا يعبدون الأصنام.

فكرة الروح عند قدماء العرب

فى الحقيقة إننا لا نستطيع أن نوضح بشكل عام كيف كان العرب القدامى يتصورون الروح، وكيف توصلوا إلى ذلك المفهوم عن الروح، ذلك لعدم توافر نصوص أو آثار توضح بشكل تفصيلي هذا الموضوع، ومع ذلك يمكننا أن نستنتج من القـرآن الكـريم، ومن أخبـار الـرواة التي وردت في الكتب الكلاسيكية*[هـ]، مثل **القاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس**. وقد كانت مسألة الروح من المسائل الهامة التي شغلت أفكار العرب في عصر الرسول عليـه الصـلاة والسـلام حتى سئـل عنهـا، وذلـك ما جاء ذكـره في القـرآن الكـريم في قوله تعالى: «وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ العِلْمِ إلَّا قَلِيلاً»[٨].

وقـد تصـور العـرب أن الروح شيء مخالف للجسد، أي مخالف للمادة، وأن الروح هي مصدر الحياة بالنسبة للأنفس، كما جاءت الروح كذلك باسم النفس. وذكرت الكتب الكلاسيكية التي أشرنا إليها، أن بعض العرب قد تصوروا «النفس طائرا ينبسط في الجسم فإذا مات الإنسان أو قتل، لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره». ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبدا مستوحش، ويوجد في الديار المعطلة ومصـارع القتلى والقبـور، وأن النفس لم تزل عنـد ولـد الميت ومخلفـه لتعلم ما يكـون بعده فتخبره. وقصد بالنفس هنا روح الميت التي قد يخلط بينها وبين الجن[٩].

وفي شعـر لشـدّاد بن الأسـود بن عبـدشمس بن عبدمالك، يرثي به صرعى قريش في معركة بدر يظهر لنا أن المشـركـين كانـوا يعتقـدون أنـه إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ أو جزء منه ليصبح طيرا هامة، ترجع الى رأس القبر كل مائة سنة[١٠].

ويقـول الـرواة أن «العـرب تزعم أن روح القتيـل الـذى لم يدرك بثأره، تصبـح هامة فتزقو عند قبره، تقول: «اسقوني، اسقوني... فإذا أدرك بثأره، طارت»[١١].

وفي **المُنجـد** أن الهـامـة نوع من البـوم الصغير، تألف القبور والأماكن الخربة، وتنظر من كل مكان أينما دُرْتَ

---

* **المحرر:**

(هـ) انظر التعليق (ب) أعلاه.

دارت رأسها «وإذا قيل أصبح فلان هامة، فذلك يعني أنه مات».

ومثل الهامة أيضا كلمة «الصدى»، وهونوع من البوم عظيم الرأس أينما درت أدار رأسه قبلك. وهويأوي إلى الأماكن الخربة المظلمة. ويسمى أيضا الهامة، وكان عرب الجاهلية يزعمون أنه يحلق فوق رأس المقتول ولا يزال يصيح في رأسه إذا لم يؤخذ بثأره: «اسقوني، اسقوني... حتى يقتل قاتله... ولذلك قيل له الصدى»[١٢].

فالهامة والصدى إذاً هما عبارة عن الروح أو النفس التي انفصلت عن الجسد بعد الوفاة أو القتل، وهي تسكن القبور والأماكن الخربة وتحلق فوق الجثة.

ويعتقد قدماء العرب أن الأرواح تستطيع أن تتشكل بأشكال مختلفة، وقد تحل في بعض الحيوانات، حتى أن العرب قبل الاسلام كانوا يتشاءمون ويخافون من عدد من الحيوانات، مثل الغراب والبومة والحيّات والسحالي والعفاريت، وما زال ذلك الشعور سائدا حتى يومنا هذا في المجتمع العربي وغيره من المجتمعات الأخرى. كما أن العفريت ليس بمعنى العفر فقط أي ذكر الخنزير أو الرجل الخبيث، وإنما يعنى كذلك القوي المارد من الشياطين[١٣].

وهذا شكل آخر من تصور قدماء العرب للروح، أولتلك القوة الخفية الرهيبة. وكما تحل الأرواح في بعض الحيوانات تحل كذلك في بعض الأشجار. ومن هنا نظر إليها العربي القديم بتبجيل وتقديس ممزوج بخوف ورهبة، وهو لا يجرؤ على إلحاق الأذى بتلك الأشجار خوفا من انتقام الروح الكامنة فيها.

أشكال لعبادة الأرواح لدى قدماء العرب

ذكرنا أن عبادة الأرواح اتخذت أشكالا مختلفة لدى الأمم القديمة في أنحاء العالم. وهوما حدث كذلك في المجتمع العربي القديم، ولا يمكننا القول بسيادة مذهب أوعقيدة واحدة من عبادة الأرواح بين جميع العرب. فلم يكن لهم مجتمع موحد ولا سلطة واحدة ذات عقيدة واحدة، بل كان العرب بدواً وحضراً، والبدوقبائل متعددة، وكل قبيلة تشكل مجتمعًا قائمًا بذاته له عاداته وتقاليده الخاصة، كما أن له معتقداته وأصنامه. على أنه بالطبع هناك تأثر وتأثير فيما بين تلك القبائل، إما عن طريق الجوار أو الاتصال التجارى أو الاندماج أو الحماية أو الحروب أوغير ذلك... أما الحضر فهم سكان مدن وقرى ولهم مجتمعهم الخاص الذى يتميز ببعض الاستقرار والنظام، وله عاداته وتقاليده... وبين البدو والحضر كذلك تأثير متبادل عن طريق الاحتكاكات الاجتماعية والاقتصادية.

وهذا التباين والتنوع في المجتمع العربي القديم، عكس كذلك تنوعا وتعددا في أشكال عبادة الأرواح.

ومن بين تلك الأشكال السحر وعبادة الجماد واتخاذ التمائم والتعاويذ والرقى. وكان الجاهليون يحملون بعض بقايا الحيوان مثل سن ثعلب أو هرة أو كعب أرنب أوغير ذلك. وقد قدسوا تلك الأشياء في الحقيقة لاعتقادهم أن فيها قوة خفية ساحرة تجلب إلى أصحابها أو حامليها السعد، وتبعد عنهم الشر والأذى والحسد.

وأشار القرآن الكريم الى السحر الذى كان سائدا في المجتمع العربي قبل الاسلام[١٤]. وكان الكهان ورجال الدين يمارسون السحر ويتنبأون بالغيب ويتكهنون للناس، وكان السحر مرتبطا بأولئك الكهنة ورجال الدين في تلك الأيام، حتى أن الكفرة رموا النبي ﴿ﷺ﴾ بالسحر.

وهذا الشكل من العبادة، أى عبادة بعض الجمادات التي أشرنا إليها، وممارسة السحر والكهانة إنما هو قريب من الفتشية (Fetishism) عند الجماعات البدائية التي تعتبر أن بعض الجمادات عبارة عن مسكن أو مقر لقوة خفية أو قوة سحرية.

والطوطمية حققت شكلها كذلك في المجتمع العربي القديم، حيث تسمت بطون وعشائر وقبائل بأسماء حيوانات، مثل ما حدث عند غيرهم من الساميين أيضاً. فكلمة كلب مثلا اسم قبيلة عند العرب، كما أنه اسم للأشخاص ومن ذلك القبيلة الشهيرة بنوكلب بن وبرة، وكذلك بنوكلب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وبنويربوع ابن حنظلة، والعكرمة (وهي أنثى الحمام) سمي بها الإنسان، كعكرمة مولى ابن عباس وعكرمة بن أبي جهل[١٥]، وكذلك العنبس (الأسد)، والعنابس من قريش هم أولاد أمية بن عبدشمس الأكبر، وهم ستة: حرب وأبوحرب وسفيان وأبوسفيان وعمرو وأبوعمرو. . . وسمّوا كذلك بالأسد والأوس أيضا (وهو الذئب)، كان اسم قبيلة معروفة هي قبيلة الأوس، وكذلك ثعلب حيث نسمع عن بني ثعلب.

وورد أيضا أن بعض القبائل كانوا يتبركون بالناقة، مثل بني إياد، وكيف لا والناقة أداة انتاج في غاية الأهمية في حياة الصحراء الجافة.

وكما سمى العربي القديم نفسه باسم الحيوان، فإنه سمى الحيوان باسم الإنسان كذلك. روى أبو الفرج ابن الجوزى قال: «زعموا أن أسدا وثعلبا وذئبا اصطحبوا، فخرجوا يتصيدون، فصادوا حمارا وظبيا وأرنبا، فقال الأسد للذئب: أقسم بيننا صيدنا، فقال: الأمر أبين من ذلك، الحمار لك والأرنب لأبي معاوية (يقصد الثعلب)، والظبي لي. فخطفه الأسد فأطاح رأسه. ثم أقبل على الثعلب وقال: قاتله الله ما أجهله بالقسمة، هات أنت يا أبا معاوية. فقال الثعلب: يا أبا الحارث (يقصد الأسد) الأمر أوضح من ذلك، الحمار لغدائك والظبي لعشائك، والأرنب فيما بين ذلك. فقال له الأسد: قاتلك الله ما أقضاك، من علمك هذه الأقضية؟ قال: رأس الذئب الطائح عن جثته»[١٦].

كما عبد العرب كذلك النجوم، فيرجع بعض المستشرقين عبادة أهل العربية الجنوبية الى عبادة ثالوث سماوي هو: الشمس والقمر والزُّهرة. وورد أن بعض العرب مثل كنانة قد عبدت القمر، وأن تيمًا عبدت الدبران *(Aldebaran-Taurus)*، وكلباً عبدت الشِّعرى *(Sirius)*. وعبادة الأموات وكذلك عبادة السلف، كان لها حظ عند العرب، وقد أشار القرآن الكريم إلى مسألة زيارة القبور[١٧]، كما أمر النبي ﴿ﷺ﴾ بتسوية القبور ونهى عن اتخاذها مساجد أو مواضع للصلاة، مما يدل على أن عرب الجاهلية كانوا يقدسونها ويعبدون أرواح الذين يرقدون في هذه القبور. ولعل في عبارة «قبر ونفس» أو «نفس وقبر» الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي، فإن النفس هي الروح[١٨].

ويـرد في القرآن الكريم أن بعض العرب كانو يعبدون الملائكة، ويرون أنها بنات الله وأنها إناث[١٩].

ومنهم من عبد الجن[٢٠]، وكان منهم من يرى أن هناك نسبا بينهم وبين الله، نشأ من المصاهرة وهوما ورد في قولـه تعـالى: «وَجَعَلُوا بَيْنَـهُ وَبَـيْنَ الجِنَّـةِ نَسَبًا، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ»[٢١]. وقال البيهقي عن مجاهد، قال: قال كبار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن.

وجاء في حياة الحيوان للدميري في مادة «الجن»: «أنها أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة، وهم خلاف الإنس، والواحد جِني، وسميت بذلك لأنها لا ترى».

وكـانت مواطن الجن في نظـر الجـاهليـين هي الأمـاكن الخربة الموحشة والمناطق الخالية غير المطروقة، وذكروا بعض أسـمائهـا مثـل «بـرهـوت» و«يـبر ين» و«صيهـد»[٢٢]، وزعموا أن «يبر ين» تلك هي في الأصل مقر عاد، فلما هلكت سكنتهـا الجن. والى جانب المكـان المنـاسب اختارت الجن كذلك الزمان المناسب وهو الليل وقت الظلام، فإذا انبثق الصباح اختفت. وكان المسافرون إذا مروا ليلا بالأماكن التي اعتقدوا أن الأرواح تسكنها، حيوها قائلين: «عِمُوا ظَلاَمًا» وذلك توددا إليها وطلباً لعطفها.

وكـما سكنت الجن الأمـاكن الخـاليـة والخربة، أقامت كذلك في المقابر، وعاشت تحت الأرض أيضا. واعتقد الناس أن للجن مجتمعا ولهم رؤ ساء وملوكا، وأن منها الطيب والشرير، وفُسِّر حدوث الرياح والزوابع بفعل الجن.

ومع أن الجن مثل الملائكة من الأرواح باعتبارها قوة غير مرئية، فان العرب يعتقدون بإمكان الاتصال بها بل والزواج منها، واستطاعة استخدامها في أغراضهم. ويمكنها التشكل في أشكال مختلفة مثل صور الحيوانات.

وهناك قصص عن علاقة الجن بالإنسان. فيذكر أن الشاعر تأبَّط شراً حمل كبشا تحت إبطه وسار به إلى الحي، فأخـذ يبـول عليـه في الطـريق، حتى اقترب من المكان المقصود رمى به، فإذا هو الغول. وكلمة «الغول» وردت في **المنجد** بمعنى الداهية أو الهلكة أو حيوان لا وجود له. وجاء في المثل: «الغضب غول الحكم»، أي مهلكه.. وفي **حيـاة الحيـوان**، ورد أن كل ما اغتـال فأهلك فهـو غول. والتغوّل بمعنى التلوّن. والتلون والتشكل هما من صفات الجن كما ذكرنا. والغول كما يقول المحققون شيء يخوف به ولا وجود له. وقد سموا الغول «خيتعورًا» وهو كل شيء لا يدوم على حالـة واحـدة، ويضمحـل كالسراب. وتزعم العرب أنه إذا انفرد الرجل في الصحراء ظهرت له في خلقة الإنسان فلا يزال يتبعها حتى يضل الطريق فتدنو منه وتتمثل له في صور مختلفة فتهلكه روعا.

ويحكى أن رجلا من بني سهم قص في عهد الاسلام، أنه كان بـ«تبالة» يراجع نخلا له، وبين يديه جارية له فصـرعت، فأدرك أن الجن هم الـذين صرعـوهـا، فوقف عليهـا قائـلا: يا معشـر الجن أنا رجل من بني سهم، وقد علمتم ما كان بيننا وبينكم في الجاهلية من الحرب، وما صرنا إليه من الصلح والعهد والميثاق ألا يغدر بعضنا ببعض، ولا يعـود إلى مكـروه صاحبـه، فإن وفيتم وفينـا، وإن غدرتم عدنا إلى ما تعرفون. فخافت الجن من هذا التهديد، وأفاقت الجارية، ولم يصبها بعد ذلك مكروه[٢٣].

ويرجعون فقدان الأطفال والرجال والنساء إلى سرقة الجن . . . إلا أن هناك جنا طيبا يساعد الانسان .

ويحكى أن الشاعر عبيد بن الأبرص شاهد حية فسقاها فلما ضل جمل له وتاه ، نادى هاتف بصوت مسموع سمعه عبيد بن الأبرص ، مشيرا إلى مكان الجمل التائه ، فذهب إليه وعاد بجمله . وكان هذا الهاتف هو صوت الحية التي هي جان من الجن . وقد وردت كلمة الجان في **حياة الحيوان** على أنها حية بيضاء ، وقيل الحية الصغيرة .

وقيل عن بعض القبائل أنهم ينتسبون إلى الجن ، مثل بني مالك وبني شيصبيان وبني يربوع بن حنظلة الذين عرفوا ببني السعلاة . والسعلاة أو السعلاء هي أخبث الغيلان ، قال السهيلى : السعلاة ما يتراءى للناس بالنهار ، والغول ما يتراءى للناس بالليل[٢٤] ، وإذاً «فالسعلاة» أيضا هي روح غير منظورة مثلها مثل الغول .

وينسبون إلى الجن أفعالا كثيرة مثل الأمراض والأوبئة والجنون (جن الرجل جنونا فهو مجنون) . فكانوا يعتقدون أن سبب المرض روح شريرة حلت في المريض ويمكن شفاؤه بطرد تلك الأرواح ، وهذا مما يمارسه الكهنة والسحرة . ومن وسائل طرد الأرواح الشريرة استخدام عظام الموتى أو خرق الحيض . وتسمى هذه الأشياء بالنفرات . ومن النفرات أيضا تغيير أسماء الأطفال بأسماء قبيحة أو بأسماء حيوانات ، وذلك لإبعاد الجن عنهم . قال أعرابي : لما ولدت قيل لأبي نَفِّر عنه فسماني قنفذا وكَنَّاني أبا العداء[٢٥] .

وجاء في **حياة الحيوان** أن هناك دابة عظيمة في البحر تمنع المراكب الكبيرة عن السير ، وهذه الدابة اسمها «حوت الحيض» أو «الفاطوس» ، فإذا أشرف أهل السفينة على العطب رموا له بخرق الحيض فيفر ويبتعد . ووصف هذا الحيوان بأنه لا يقرب مركبا فيه امرأة حائض . وقد يكون الحيوان المذكور هو من خلق مخيلة العرب القدامى أو من سماعهم عن أمم أخرى ، باعتبار أنه نوع من الجن الذي يسكن البحار .

ويرى بعض المستشرقين (مثل نولدكه) أن العرب لم يعبدوا الجن بالرغم من أن هناك اسم «عبدالجن» ، ويرى آخرون (مثل روبرتسن سميث) أن فكرة الجن هي تطور لنظرة الطوطمية . ويرى جواد علي أنها نوع من أنواع الأنيميزم (Animism) .

ويذكر **كتاب الأصنام** لابن الكلبي ، أن بني مليح من خزاعة كانوا ممن عبدوا الجن . والحقيقة أن عبادة الأصنام كانت في أحد جوانبها تمثل شكلا من أشكال عبادة الأرواح أو لها صلة وثيقة بالاعتقاد بالأرواح .

فكثير من عبدة الأصنام كانوا يقدمون لها بعض الأطعمة كالخبز والزبد ، وهذا يدل على اعتقادهم بأن بها نوعًا من الجن أو تسكنها روح من الأرواح .

الهـــوامش

(١) عبدالرزاق حميدة، **قصص الحيوان في الأدب العربي**، ص١٢.

(٢) Robertson Smith, «Sacrifice among the Semites», in William A. Lessa (ed.), *Reader in Comparative Religion,* 47

(٣) جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**.

(٤) **المرجع السابق نفسه** .

(٥) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ٣٧، في وصف العربي الجاهلي.

(٦) القصتان وردتا في كمال الدين الدميري، **حياة الحيوان الكبرى**.

(٧) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ٣٩.

(٨) **الإسراء**: ٨٥.

(٩) جواد علي، **المرجع السابق نفسه**، راجع كذلك، **بلوغ الأرب**.

(١٠) **بلوغ الأرب**، جـ٢، ص ص١٩٩، ٣١٢.

(١١) **القاموس المحيط**، **لسان العرب**، **تاج العروس**.

(١٢) **المنجد**، (مادة صدى).

(١٣) الدميري، **حياة الحيوان الكبرى**.

(١٤) **الفلق**: ٤، **الأنبياء**: ٣، وغيرهما.

(١٥) الدميري، **المرجع نفسه**.

(١٦) الدميري، **المرجع نفسه**.

(١٧) **التكاثر**.

(١٨) جواد علي، **المرجع نفسه**، جـ٥.

(١٩) **سبأ**: ٤٠، **الصافات**: ١٤٩، ١٥٠.

(٢٠) **سبأ**: ٤١، **الأنعام**: ١٠٠.

(٢١) **الصافات**: ١٥٨.

(٢٢) جواد علي، **المرجع السابق نفسه**.

(٢٣) جواد علي، **المرجع نفسه**، عن الأزرقي.

(٢٤) الدميري، **المرجع نفسه**.

(٢٥) جواد علي، **المرجع نفسه**.

الحنيفية والحنفاء

محمد علي مختار

لفظة الحنيف وجمعها الحنفاء مشتقة من حنف أي مال، وما زلنا في السودان نقول للشخص الغاضب الذي يميل الغضب وجهه إلى جهة معينة، أنه حنف أو «حانف وشه». فالحنفاء مالوا عن الوثنية واتجهوا نحو «الحنيفية» في تاريخ ديانة العرب في الجاهلية.

وسبّب هذا الاتجاه حيرة بين المؤرخين المحدثين وبين المستشرقين منهم بصفة خاصة. وهذه الحيرة وهذا البحث المضني عن نشأة هذا الاتجاه عند العرب، وبخاصة قريش وأهل مكة قبل الاسلام، تشكك بصورة قوية في قول من قالوا أنهم كانوا مسيحيين. ومن الأسس التي بني عليها هذا الزعم، أن البارز بين هؤلاء الحنفاء عرفوا باطلاعهم على كتب أهل الكتاب، وتزيٍّ بعضهم بزيّ بعض أهل الكتاب. لكن هل كل من قرأ كتبا في عقيدة من العقائد أومذهب من المذاهب أو قلد بعض أهل الكتاب في زيهم برهن على أنه منهم لولم نجد ما يدلّ على مذهبه وأقواله وأفعاله المتصلة بذلك؟ ألا نعتقد أن هذا يقدم برهانا كافيا؟.

بناء على هذا فالشك في القول بأن الحنفاء كانوا مسيحيين حقيقة قائمة. لوكانت هناك أدلة مقنعة على اعتناقهم المسيحية لما كان هناك للمحدثين دافع لهذا البحث المضني عن حقيقة معتقدات الحنفاء. والذي نعرفه هو أن الرواية العربية ـ هذا البحث في الحنفاء ينحصر في المصادر والروايات العربية ـ تحدثت عن جري أهل الحنيفية قبل الإسلام هؤلاء وراء دين سابق للوثنية يقوم على التوحيد لا تعدّد الآلهة، وهودين إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل اللذين رفعا قواعد البيت الحرام كما جاء في قوله تعالى: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسماعيلُ...» الآية[1]. وذكرت الروايات أن الحنفاء كانوا لا يصدقون زعم قريش راعية الوثنية أنهم بنو ابراهيم. تذكر الرواية العربية أن من كانوا من سلالة اسماعيل طردوا مع أخوالهم من قبيلة جُرْهُم بعد انتصار قبيلة خُزاعة (وكلا القبيلتين من اليمن) من مكة[2]. وذكر أنهم تفرقوا وأن بعضهم بقي في تهامة وبعضهم ذهب الى جهة أو جهات أخرى من جزيرة العرب، يحملون معهم ديانة جدهم اسماعيل[3]. ونجد في هذه الرواية العربية ما يدل على انتشار هذه الديانة في أنحاء الجزيرة في الشعر وغيره، من ذلك قول الشاعر أبي ذؤيب الهذلي:

فنمْنمَ في صُحفٍ كالرِّيا ‍ ‍ ‍ ‍ طِ فيهن إرْثُ كِتاب يَحْيي

ويقول الشارح أن المقصود هو إرث دين إبراهيم[4]، بل تحدث الرسول عن امرأة معاصرة له وذكر أنها من ولد إسماعيل. كان سعي الحنفاء متجها إلى هذه الديانة وقد خرج جماعة بعد نقاش بينهم حول الوثنية باحثين عن هذه الديانة، وسوف نتعرض لهم في مكان آخر من البحث.

لم يقتصر ما ورد في الرواية العربية على هذا الجري وراء هذه الديانة التي كان يحملها من طرد من مكة من سلالة إسماعيل، بل ذكرت الرواية كما سنرى تفاصيل عن رأي بعض الحنفاء في ديانة العرب قبل الاسلام، وما يقبل منها وما يرفض.

وإذا كانت الـروايـة العـربيـة قد وضحت عقيـدة الحنفـاء وموقفهم من الدين الجاهلي، فإنها على العكس لم توضح موقفهم من المسيحية بالصورة نفسها، ومن هنا يتضح أن شك المحدثين في نصرانية أولئك الحنفاء له ما يسنده من الرواية العربية.

هنـاك ملاحظـات أخـرى تضعف من القول بنصرانية الحنفاء، فلو أنهم كانوا نصارى حقًا لكانت الهوة بينهم وبين مجتمعهم الوثني كبيرة، ولانعكس ذلك على وضعهم في المجتمع، وفي حديث الناس عنهم، وفي جهودهم هم للدفاع عن دينهم، ونشره بين الوثنيين، إذ لا يعقل أن يتخذوا فقط موقفا سلبيا من الوثنية. ولو افترضنا أنهم كانوا عاجزين عن التعرض صراحة وجهرا للوثنيين، لكان الأولى بهم والأجدر أن يتركوا بلادهم ويذهبوا إلى الشام، أو إلى أي بلد نصـراني آخـر ليعيشـوا بضمـير ديني مطمئن مستقـر. أمـا الذى حدث فإنه لم تكن هناك هوة بينهم وبين مجتمعهم، مما يدل على أنـه لم تكن هنـاك جفـوة بينهم وبين ذلك المجتمع. وتذكر بعض الروايات بالفعل أنه كانت لهم مكـانـة بين قومهم وأن صلتهم المعـروفة بالنصرانية هي صلة ثقافة واطلاع على الكتب الدينية السابقة، والذي قوى صلتهم بقومهم الوثنيين بالاضافة الى عدم وجود مظهر مسيحي بارز يثير السخط والاستفزاز، هو أن حنيفيتهم لم تكن صارخـة، ولم يعـرفـوا بعنف العـداء للوثنيـة بمكة أو غيرها كالطائف، ولم يكن لهم وضوح العقيدة وتكاملها الـدافـع إلى الصـراحـة التـامـة في عدائهم للأوثان، كما أصبح الحال بعد ذلك في الاسلام. لو كان عداؤ هم فعالا ونضـالهم حاضـرا، لما تمتعـوا بالحيـاة المستقـرة المطمئنـة التي عاشـوهـا بين قومهم مكرمين محترمين، كما سنرى أثناء الحـديث عن بعض الشخصيـات الحنيفيـة. فقد كانت لأمثال ورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت، الشاعر الثقفي الجاهلي المعروف، مكانة تعادل غيرهم من رجال الوثنية في بلادهم وبين العرب الوثنيين.

شيء آخـر هو أن اعتنـاق أولئـك المثقفـين العـرب في الجـاهلية الذين كانوا يقرأون الكتب بلغتها الأجنبية لا يمكن أن يكون كاعتناق البسطاء من الأحباش الذين تحدث عنهم الأب لامانس (Lammens) دون وعي أو فهم، وربما كان ذلك في الأصل لأسباب نفعية أو عاطفية. والنصرانية من يعقوبية ونسطورية كانت تقوم على أساس عقلي معقد، لهذا لا غرابة في ما ذكره لامانس من أن معرفتهم الدينية لم تكن صحيحة[٥]. فاعتناق أولئك الحنفاء المثقفين كان يستـدعي معـرفتهم لعقـائـد اليعـاقبـة أو غيرهم، أي معـرفة اللاهوت المسيحي. وهذا لا يجدونه في التوراة أو الإنجيل اللذين ربما اطلعوا عليهما، وليس هناك ما يذكر عن معرفتهم بذلك اللاهوت، ثم هو لا يتفق مع عقليتهم العربية البسيطة التي يدل كل ما ذكر عنهم على تمسكهم بها.

المستشرقــون

من كل هذا يبدو أن الحنفاء كانوا قد حنفوا حقيقة عن الوثنية أو ابتعدوا عنها، ولكن بأسلوب هادىء بعيد عن الإثـارة، ولـذا احتفظـوا بمكـانتهم في المجتمع الوثني. فهم لم تكن لهم ديانة محددة المعالم، ولكنهم كونوا مجموعة من المفكرين المستقلين. لم تستطع أبحاث المستشرقين أن تجزم بنصرانية الحنفاء، رغم ما ورد من روايات عربية في هذا الصـدد. فلامـانس يذكـر أن الحنفاء تلك الجماعة الصغيرة من المعاصرين لمحمد ﴿ﷺ﴾، وقفت مثله حسب زعم لامـانس في عدم استطـاعة التمييز بين اليهودية والنصرانية بوضوح، وتمييزها عن معتقداتها الخاصة. ولامانس على طريقته يقبل ما ذكرته الرواية العربية من وجود هذه الفئة المسماة بالحنفاء، ولكنه لم يقبل ما ذكرته نفس المصادر عن

معتقدات الحنفاء المبتعدة عن الوثنية، وبحثها عن ديانة إسماعيل، واكتفى بالإشارة إلى معتقداتهم الخاصة. وهذا يحمل على كل حال معنى صفتهم الدينية المتميزة.

أمـا مونتقمـرى واط (M. Watt) فيؤكـد فكرة الله عند الوثنيين العرب، ويعنى بالذات أهل مكة، ويرى هذا المؤلف أن عبـارة «رب البيت» التي كان يستعملهـا العـرب كثـيرا في القسم، تدل على أن المكيـين الذين كانوا أكثر تفتحـا من غيرهم، كانـوا يعتـبرون أنفسهم عبـاد الله الـذي هورب البيت أورب الكعبة التي كانوا يستعملونها بينما كانوا يستعملون من عبارات دينية. ويربط واط ظهور كلمة «الله» بين المكيين باتصالهم بالنصرانية. لكن يقول أن الوثنية العربية كانت قوة تقوم عليها التقاليد الاجتماعية عندهم[٦]. ومعنى هذا أن التأثير النصراني كان في نطاق بنية المجتمع وتقاليده. وإذا كانت فكرة «الله» انتقلت إلى الوثنيين ولم تخرجهم عن وثنيتهم، بل امتزجت بها كما وضحت الآية الكريمة «وَمَا نَعْبُدُهم إلاّ لِيُقَرِّبُونا إلَى الله زُلْفَى» فلا بد أن من كانوا يحملون لواء الفكرة بجدارة هم الحنفاء، لأنهم على عكس الوثنيين المكيين لم يمزجوا الفكرة بالوثنية بل أبعدوها عنها.

نرجع أخيرا إلى كارل بروكلمان (C. Brockleman)، لنجده يكتب بأن العرب ككثير من الشعوب البدائية، كانـوا يؤمنـون بإلـه هوخالق الكـون وهـو الله. ولم يأخـذ العـرب فكـرة «الله» ـ كما ظن النـاس غالبـاً ـ من اليهـود والنصـارى. ويـذكـر أن قبيـل الاسلام اتضح أن هذا الدين لم يعد يرضي ضمير العرب الديني، كما كان الحال من قبـل، وأنـه كلما تدهـورت أهميـة الـدين الوثني كلما زادت قيمة المزاج الديني العام المرتبط بالله[٧]. ونقول أن الحنفاء كانوا يمثلون هذا التطور في صورته المثلى منفصلا عن الوثنية.

هذه الأبحـاث كما نرى توضـح وجـود اتجـاه بين المكيـين والعـرب أنفسهم، يقوم على القلق المتصل بأحوال الوثنية. ومن البديهي أن ممثلي هذا الاتجاه الفعليين هم جماعة من المثقفين، وأولئك هم الحنفاء. وخير من عبّر عنهم جبر يللي (Gabrieli) الايطالي في قوله: «إنهم كانوا يمثلون اتجاهاً مبهماً»[٨]. وأنا أعرض آراء هؤلاء المستشرقين كما هي دون نقد أو معارضة إنما أفعل ذلك ليكون رأيهم واضحاً للدارسين.

ممثلو الحنيفية: ورقة بن نوفل ومعاصروه

ذكـرنـا قبـل قليـل رأى بروكلمان القائل بأن الدين الوثني لم يعد يرضي ضمير العرب قبيل الاسلام. ولم يذكر المؤلف إن كان قد استنتج هذا الرأي استنتاجاً أم أنه بناه على بعض الروايات. ومهما يكن فإنه ليس وجود الحنفاء وحدهم هو الدليل على عدم رضى العرب عن وثنيتهم، بل إن الروايات تذكر أن بعض الشخصيات البارزة كانت تسعى الى تعديل مفهومها الديني.

بعض الـروايـات تحاول أن تجعـل من عبـدالمطلب جدّ الـرسـول ﴿ﷺ﴾ ابـراهيم الخليل الجديد، كما يذكر ديمومبينس (Demombynes)[٩]. وتذكر رواية عربية أنه هجر دين عبادة الأصنام وآمن بالله الواحد[١٠]. وأورد ابن هشام أشعارا له تتحدث عن هذا الاتجاه المعادي للوثنية، وتتصل بحادث الفيل المعروف. ويذكر قبل سرد الأبيات

أن عبدالمطلب انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر (خبر الفيل)، وأمرهم بالخروج من مكة . . . تخوفا من معرة الجيش (شدته) . ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبدالمطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمَّ إن العبد يمـ ـنع رحلَه فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهُم ومِحَالُهم غدرًا مِحَالك

وزاد الواقدي :

إن كنت تاركهم وقبلَـ تَنا فَأُمُر ما بدا لك

وزاد السهيلي :

وانصُر على آل الصليبِ وعابديه اليوم آلك

لا نستطيع أن نجزم بصحة كل هذه الروايات . لكن هناك روايات أخرى توضح الصلة بين بعض الحنفاء وقريش، وتهتم الرواية بصلة ورقة بن نوفل خاصة بقريش وبعبدالمطلب بالذات . كل هذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن هناك شيئا من الصحة في رأي بروكلمان الذي ذكرناه، وبالتالي أن ما قيل عن تعديل عبدالمطلب لمفهومه الديني متأثراً بهذا التيار من الخط الذى سبق البعثة النبوية بفترة، وكان إرهاصاً أومقدمة لها، لا يخلومن صحة . لكن عبدالمطلب الزعيم لا بد وأنه احتفظ بإقامة كل الطقوس .

من الشخصيات التي تعرضت لها الرواية أبوسفيان بن حرب . قال ابن خلدون : وتحيّن الأمر (النبوة) لنفسه كثير من رؤساء العرب يظنه فيه، ونفروا إلى الرهبان والأحبار من أهل الكتاب ببلدتهم يسألونهم علم ذلك، مثل أمية بن أبي الصلت الثقفي وما وقع له في سفره إلى الشام مع أبي سفيان ومفاوضته أبا سفيان وقتا لما وقع عليه من ذلك، يظن أن الأمر له أو لأشراف قريش من بني عبدمناف، حتى تبين له خلاف ذلك [١١] . وهذا قد يلقي ضوءا على الآية الكريمة : «لَوْلَا أُنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رجلٍ مِن الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» (أي مكة والطائف) . ورواية ابن هشام تذكر أن أبا سفيان خرج مع أمية بن أبي الصلت في تجارة إلى الشام، وأن أمية كان يقرأ عليهم سفرًا . . . ثم يذكر أبوسفيان أن أمية قال له : «هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه تناهى علم الكتاب تسأله؟ قلت : لا أرب لي فيه، والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به، ولئن حدثني بما أكره لأجِدَنّ منه» [١٢] . وهذا يوضح أن أباسفيان كان يبحث الأمور الدينية، ولكن لم يصل إلى رأي . وتدل غير هذه، كالرواية التي أوردها البخاري، على صلاته على أعلى المستويات بالشام وبلاد الروم .

بل إن البعض ذكروا أن السيدة خديجة نفسها، كانت تقرأ الكتب قبل الاسلام . وربما أغرى من زعم هذا أنها كانت ثرية ومن أسرة مثقفة، فإن عمها ورقة بن نوفل كان يقرأ الكتب، وأخته التي كان عبدالمطلب يريدها زوجة لابنه عبدالله في البداية، كانت تقرؤها أيضا . وهذان كانا ابني عم خديجة . ثم إن السيدة خديجة كانت تحدث الرسول وتطمئنه . وهذا يدل على معرفتها الكتب الدينية المسيحية وغيرها . لكن معرفة خديجة ببعض الأشخاص من المتعلمين ليس دليلا كافيا لضمها إلى الحنفاء .

ورقةُ بن نوفل

نأتي الآن إلى ورقة بن نوفل. وأول ملاحظة عن الحنفاء البارزين أمثال ورقة هي اختلاف أمزجتهم، الذى أدى الى اختلاف مسلكهم واتجاه كل منهم. فزيد بن عمرو كان صريحا متطرفا زاهدا شديد الانفعال، ولهذا جابه الـوثنيـة كرجـل عمل وقول معا. بينما ابن الحويرث كان دبلوماسيا طموحا للسلطة، لذا اتجه الى السيطرة على مكة عن طريق قيصر الروم. أما ورقة فكان حكيما محبا لقومه ذا صلات حسنة بهم، فكان يكتفي بعقيدته، ولا يرى نفسه في مستوى ادعـاء النبـوة أو الـزعامة الدينية التامة، وكان حسب ما أخبرته كتب النصارى ينتظر ظهور نبي في زمنه. وكـان هنـاك أشخـاص آخـرون من الحنفاء من صنف ورقة. لقد اهتم الرواة بأخبار ورقة أكثر من غيره، وذلك لأنه كان على صلة بخديجة رضي الله عنها والرسول ﴿ﷺ﴾ في بداية الوحي، ثم مات بعد ذلك بقليل حسب الرواية، بل إن ورقـة كان على صلة بأسـرة الـرسـول ﴿ﷺ﴾ منـذ طفولته، فقد ورد في سيرة ابن هشام أنه لما قدمت حليمة السعدية مرضعة الرسول ﴿ﷺ﴾ مكة تحمله، أضلها في الناس وهي مقبلة به نحو أهله، فالتمسته فلم تجده، فأتت عبـدالمطلب فقـالت له: «إني قد قدمت بمحمـد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكـة أضـلني، فوالله ما أدري أين هو؟ فقـام عبـدالمطلب عنـد الكعبـة يدعـو الله أن يرده، فيـزعمـون أنـه وجـده ورقـة بن نوفـل بن أسـد ورجل آخر من قريش. . . » الخ [١٣]. وذكرت قبل ذلك في رواية ابن هشام أيضا، أن عبدالمطلب كان يريد زواج ابنه عبدالله من أخت ورقة.

أبـرز ما يوضـح الصلة بين ورقـة والرسول ﴿ﷺ﴾، هو اتصال السيدة خديجة به واتصاله بالرسول ﴿ﷺ﴾. ويـروى أن الاتصـال بدأ قبـل نزول الـوحي. قال ابن اسحـاق: «كـانت خديجـة بنت خويلد قد ذكـرت لورقة بن نوفـل. . . وكـان ابن عمهـا وكـان نصـرانيا قد تتبـع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرى فيه إذا كان الملكان يظلانه، فقال ورقة: «لئن كان هذا حقا يا خديجة، إن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الامة نبي ينتظر، هذا زمانه، أوكما قال، فجعل ورقة يستبطىء الأمر ويقول حتى متى؟ فقال ورقة في ذلك:

لَـجِـجْـتُ وكنـت فـي الذكـرى لَـجُـوجًـا ... لِـهَـمٍّ طـالـمـا بعـث الـنَّـشـيـجَـا
وَوَصْـفٍ مـن خـديـجـةَ بـعـد وصـفٍ ... فقـد طـال انـتـظـاري يـا خـديـجـاَ
ببطـن الـمـكَّـتَـيْـن عـلـى رَجَـائـي ... حـديـثَـك أن أرى مـنـه خـروجـا
بـما خـبَّـرْتِـنَـا مـن قـولِ قَـسٍّ ... مـن الـرهـبـان أكـرَهُ أن يعـوجَـا
بأنَّ مـحـمـدًا سـيـسـود فـيـنـا ... ويَـخْـصِـم مـن يـكـونُ لـه حـجـيـجـا [١٤]

هذا الشعر يوضح مدى اهتمام ورقة بنبوة محمد ﴿ﷺ﴾، ويوضح الاتصالات المتكررة به من جانب خديجة، وسؤ ال الرهبان، وجزم ورقة بسيادة محمد ﴿ﷺ﴾ [١٥].

هنـاك الـروايـة المتصلة بفـترة نزول الـوحي، فقد ذهبت خديجة الى ابن عمها ورقة، فأخبرته بما أخبرها به الرسول من أمر الوحي، فقال ورقة: «قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاء

الناموس الأكبر الذى كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت. . . »[١٦] وتذكر الرواية التي أوردها ابن هشام، أن الرسول ﴿ﷺ﴾ كان يطوف بالكعبة، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف فقال: « يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﴿ﷺ﴾، فقال ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر. . . »[١٧].

وهكذا نرى ورقة لا يعتزل الحياة كما يفعل المسيحيون الأتقياء في ذلك الزمن، ولكن نجده مهتما بشؤون مكة ونشاطها الديني، منتظرا ظهور النبي العربي الجديد. وهذا يضيف شكا آخر في الزعم بأن ورقة كان نصرانيا.

ومن الشخصيات التي نهجت نهج ورقة أمية بن أبي الصلت، وقد رأينا من قبل صلاته ببعض الشخصيات القرشية الكبيرة كأبي سفيان وصداقته له، وأنه كان يرى أن النبوة ستكون في مكة أو في الطائف. وهذا يوضح عدم انفصاله عن بيئته ومجتمعه، مع ابتعاده عن الوثنية بصورة بعيدة عن العنف.

هناك أيضا خالد بن سنان العبسي من قبيلة عبس، وقد قيل أن الرسول ﴿ﷺ﴾ قال لبنت خالد: «بنت نبيٍّ ضيعَهُ قومُه». وسواء كان نبيا أو لم يكن، كما يرى البعض، فإنه كان يمثل هذا الاتجاه الحنفي [١٨] على طريقة ورقة.

زيد بن عمرو بن نفيل بن أسد بن عبدالعزى

يمثل هذا الرجل الحنفية كدين مبهم، كما وصفها بعض المستشرقين وتعرضنا لرأيه من قبل، فلم يوصف بأنه نصراني أو له صلة بهذا الدين. قيل عنه أنه وقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان. وقيل عنه «ونهى عن قتل الموءودة، وقال أعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه»[١٩].

قبل أن نتحدث عن موقف زيد هذا، نتعرض لأمر أثاره بعض شراح السيرة وأعني السهيلي صاحب **الروض الأنف**. فتساءل كيف وفق الله زيدًا إلى ترك أكل ما ذبح على النصب وما لم يذكر اسم الله عليه، وجعل الجواب على وجهين: الأول، أنه ليس في الحديث المتصل لمقابلة زيد لمحمد ﴿ﷺ﴾ حيث قدمت سفرة، وكان ما قدم فيها من لحم مما ذبح على النصب، أن رسول الله أكل منها، وإنما في الحديث أن زيدا قال حين قدمت السفرة: لا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه. والوجه الثاني، أن زيدا فعل ذلك برأي رآه، لا بشرع متقدم، والأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة. فإن كان الرسول ﴿ﷺ﴾ أكل مما ذبح على النصب، فإنما فعل ذلك أمراً مباحاً[٢٠].

نعود للتعليق على موقف زيد فنراه نتيجة لاتجاهه النضالي الواضح، يحدد موقفه من الوثنية بصورة واضحة، وبذكر ما يرفضه من تقاليد تلك الديانة. لهذا لا غرابة أن يواجه القوم بالعداء، وعلى رأسهم عمه الخطاب. وهذا ما حدث للمسلمين حين جابهوا الوثنية علنا بالعداء. ولهذا وجد التكريم من نبي الاسلام. وقال ابن اسحق:

«وحدثت أن ابن سعد بن زيد وعمر بن الخطاب وهو ابن عمه قالا لرسول الله: أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال نعم، فإنه أمة لوحده»[٢١] .

ونـذكـر في ختـام الحـديث عن زيـد شخصية شبيهة به من حيث النضال ومواجهة الوثنية، وذلك هو قُس بن ساعـدة خطيب العـرب المشهـور والـذي أبـدى الـرسـول اعجـابه به، وكان يسأل وفد إياد عن خطبة له سمعها في عكاظ، وبلغ من إعجابه أنه احتفظ في ذاكرته بلون جمله الأحمر، ووصف ﴿ﷺ﴾ كلامه بأنه معجب موثق. ومما ورد في الخطبة التي وجد بين وفد إياد من تذكرها وألقاها أمام الرسول: «أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه، أن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا». وهكـذا ترى هجـومـه العلني على دين مكة والعرب. علّ هذا القدر يكفي لعرض الاتجاه المناضل للوثنية في مقابل الاتجاه المسالم الذى يمثله عثمان بن الحويرث الآتي ذكره.

عثمان بن الحويـرث

يمثل عثمان الاتجاه الثالث بين الحنفاء، وهو الاتجاه الدبلوماسي والتطلع الى الحكم بهدف تغيير الوثنية. ولما كنت قد تحدثت في موضع سابق عن هذه الشخصية بالتفصيل[٢٢] فأكتفي هنا بفكرة عامة. كان عثمان من أظرف قريش وأعقلهـا، اتصـل بقيصـر الـروم في إحـدى رحـلاته إلى الشام، كما كان يتصل به أمثال أبي سفيان في رواية البخارى. قال عثمان لرجال قريش بعد عودته أن قيصر ملّكه عليهم، وقد كتب قيصر إلى عمرو بن جفنة في شأن عثمان بن الحـويـرث، وأمـره أن يحبس له من أراد حبسه من تجار قريش، لكن أمر عثمان انتهى بالفشل، لأن مكة لم تكن كالشام، حيث استطاعت الدولة البيزنطية تكوين إمارة عربية موالية لها. ويقال إن أمير الشام عمرو بن جفنة هو الـذى سمّ عثـمان. واهتـمام القيصـر بعثـمان لا نستنتـج منه نصرانية هذا الحنيف، فلم يكن أمراء الشام الموالون لبيزنطة والروم كلهم مسيحيين.

الهــوامش

(١) **البقـرة**: ١٣٧.
(٢) ابن هشام، **السيرة**، جـ١، ص ص١١١ - ١١٢.
(٣) ابن الأثير، **الكامل**، جـ١، ص١١.
(٤) السُّكرى، شرح **أشعار الهذليين**، ص ص٩٩ - ١٠٠.
(٥) Lammens, *l'Islam*, 30.
(٦) M. Watt, *Muhammad at Mecca*, 26.
(٧) C. Brockleman, *History of Islamic Peoples*, 9.

(٨) Gabrieli, *Mahomet,* 57.

(٩) Demombynes, *Mahomet,* 57.

(١٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، جـ١، ص١٠٧٤.

(١١) ابن خلدون، **المقدمـة**، جـ٣، ص١٧٠، ابن كثير، **البداية والنهاية**، جـ١، ص٢٢١.

(١٢) ابن كثير، **المصدر نفسه**، ص٢٢١.

(١٣) ابن هشام، **السيرة**، جـ١، ص١٦٥.

(١٤) **الموضع السابق نفسه**.

(١٥) **المصدر السابق نفسه**، ص٢٥٤.

(١٦) **المصدر نفسه**.

(١٧) **المصدر نفسه**.

(١٨) المؤلف، **دراسات في تاريخ العرب** (١٩٧٦م).

(١٩) ابن هشام، **المصدر نفسه**، ص٢٣.

(٢٠) **الموضع السابق نفسه**.

(٢١) **المصدر السابق نفسه**، ص٢٤٠، يمكن الرجوع لكتابنا **دراسات**، هناك تفصيلات لم نكررها هنا.

(٢٢) المؤلف، **المرجع نفسه**، ص٣٧، وما بعدها.

المصادر والمراجـــع

أولاً: العربيـــة:

١ ـ ابن الأثيـــر،

كتاب الكامل (بيروت، ١٩٦٥م. وطبعة ١٣٤٩هـ).

٢ ـ ابن خلـدون،

العبر وديوان المبتدأ والخبر.

٣ ـ ابن كثيـــر،

البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٦٦م).

٤ ـ أبو سعيد السّكري،

شرح أشعار الهذليين (مكتبة العروبة).

٥ ـ محمد بن جرير الطبري،

تاريخ الأمم والملوك (طبعة المستشرقين).

٦ ـ محمد علي مختار،
دراسات في تاريخ العرب (مكتبة النهضة العربية، ١٩٧٦م).

ثانياً: الإفـرنجيـة:

1. BROCKLEMANN, C.,
History of Islamic Peoples (London, 1949).
2. GABRIELI, F.,
Mahomet (Paris: ed. Albin Michel, 1965).
3. GAUDEFROY – DEMOMBYNES, M.,
Mahomet (Paris: ed. Albin Michel, 1957).
4. LAMMENS, H.,
L'Islam: Croyances et institutions (Beyrouth: Imprémerie Catholique, 1943).
5. WATT, M.,
Muhammad at Mecca (Oxford, 1953).

سابعا: الحضارة (المجتمع)

بحث في الموضوع

حسن ظاظا، ١٧٧ - ١٨٦
المجتمع العربي القديم من خلال اللغة.

المجتمع العربي القديم من خلال اللغة

حسن ظاظا

اللغة هي مجموعة رموز صوتية إرادية يستعملها المجتمع الإنساني لتبادل الأفكار. ولها في كل مجتمع نظام خاص يجعل منها مميزاً قومياً لهذا المجتمع، وآلة أساسية من آلات حضارته. وهي في مسيرتها مع الحضارة تتقاسمها قوتان متعارضتان: قوة تأتيها من صفتها القومية، وكونها تراثاً للأسلاف، وشاهداً على تاريخ طويل، وهي قوة كابحة محافظة، تأبى التحوير والتغيير، والأخرى قوة تأتيها من طبيعة الفكر وقانون الحضارة، قوة منطلقة متقدمة، لا تستطيع الوقوف أو الجمود. ولا تسلم لغة من اللغات من بصمات هاتين القوتين، وآثار الصراع الدائم بينهما، وهو كما نرى صراع تاريخي وحضاري يدعو المؤرخ إلى الاستفادة منه، إذ يجد فيه دائماً حقائق خاصة بالمجتمع الذي يؤرخ له، قد لا يجد مثلها في الوثائق المكتوبة، أو الآثار الباقية من الماضي.

والاستفادة من اللغة في اكتشاف تفاصيل حضارية دقيقة للأمة عمل علمي أوسع وأعمق مما يسميه اللغويون «علم التأصيل» (Etymology) أو علم اللغة التاريخي (Historical Linguistics) هي مسح حضاري للغة نفسها، من حيث كونها سجلا للحياة المادية والروحية للمتكلمين بها منذ البداية، وكذلك من حيث اتصالهم بأمم أخرى كثيرة، متعاونين معها، أو خاضعين لها، أو مستوردين منها الأفكار، وبالتالي الألفاظ.

واللغة العربية من وجهة النظر هذه تتضمن ما لا يحصى من الأسرار الحضارية التي تحتاج إلى أجيال من اللغويين المهتمين بهذا الموضوع للكشف عنها ووضعها في مواضعها من تاريخ المجتمعات العربية القديمة، وهي مجتمعات ما نزال نجهل تماما متى بدأت، وكيف، بعد أن تحولت هذه البدايات إلى صخور ورمال ونفط، وبقايا من أساطير.

وللغة العربية في مجموعة اللغات الساميّة وضع عجيب، من شأنه أن يزيد مهمة الباحث صعوبة وتعقيدا. فعلى مستوى الوثائق المكتوبة، نجد أنها أحدث هذه اللغات، تبدأ نقوشها مع القرن الرابع الميلادي فقط، أي بعد النقوش الأكادية بنحو ألفين وخمسمائة سنة، وبعد النقوش الكنعانية والآرامية بما يقارب الألفي سنة. وعلى مستوى البحث اللغوي والأدبي المقارن، يبدو بوضوح أنها أقدم اللغات السامية جميعا. فحتى الأكادية تمثل بجانب العربية خطوة جديدة في التطور اللغوي، وانحرافاً عن النمط الساميّ الأصيل في النطق، وفي تصريف الفعل على الخصوص، حيث يبدو الأثر السومري بارزا. أمّا الكنعانية والآرامية والسبئية وما تولّد عنها من لغات ولهجات فإنها على ضوء علم اللغة التاريخي والمقارن، تشغل بالنسبة للعربية نفس المكان الذي تشغله في أوروبا الفرنسية أو الانجليزية بالنسبة للاتينية واليونانية. ومن هنا كان منطلق الرأي القائل بأن النشأة الأولى للساميين جميعاً كانت في شبه الجزيرة العربية، ومن هنا أيضا وضع الباحثون في اللغات السامية اللغة العربية الفصحى في رأس جدول التفرعات اللغوية لهذه المجموعة، واعتبروها أقرب اللغات السامية المعروفة شبهاً بالسامية الأم المندثرة، وتعاملوا معها على أنها النموذج الحاوي لجميع الخصائص القديمة لهذه العائلة اللغوية.

أما من الناحية الأدبية فإن الوثنية السامية القديمة لا تزال تدعونا إلى مزيد من الدراسة المقارنة بالوثنيا العربية، من حيث المعتقدات والأساطير والطقوس والأعياد والتقاليد في الحرب والسلم، وعند التقاضي، والبيع والشراء ونحو ذلك. وهي دراسة تبدو صعبة جدا، ومستحيلة في بعض الميادين لأسباب أهمها:

أولاً: أن التدوين والتأليف والرواية لم تظهر بكامل ثرائها عند العرب إلاّ بعد الإسلام، وكان الاتجاه الضروري في تلك الفترة هو محاولة دفن تراث الجاهلية في النسيان، والتهوين من شأن ما كانت تتميز به من ظواهر دينية واجتماعية وثقافية.

ثانيا: أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا أمة موحّدة، بل لم يكونوا شعوبا وقبائل متعايشة سلميا، ومن هنا لم تنشأ بينهم دولة مستقرة، فيما عدا كيان حكومي في بعض أطراف شبه الجزيرة شمالا وجنوبا.

ثالثا: تعرض العرب على طول حياتهم الوثنية في شبه الجزيرة قبل الاسلام إلى تيارات دينية أجنبية تأتيهم من كل مكان: من فارس وبابل وآشور، وكنعان ثم من اليونان والرومان، مع رشح مسيحي ويهودي يجمع هو أيضا في تياراته مخلفات جاهلية متعددة المصادر. ونحن نعرف ان كبير أصنام مكة، وهو هُبَل، قد طرأ من الشام عندما ذهب إليها عمرو بن لُحيّ مستشفيا في عيون «الحمّة»، ووصفت الرواة تمثال هُبَل بأنه صغير، مصنوع من العقيق، يمثل شابا واقفا، وأن إحدى ذراعيه انكسرت فرممته قريش بذراع من ذهب. وهكذا رآى كثير من الباحثين أن الاسم «هُبَل» تعريب للاسم أبولو *(Apollo)* إله الشمس والشعر والفن في الحضارة اليونانية والرومانية.

والمعبود قيس، الذي يطالعنا في أسماء مثل: امرىء القيس، وعبدالقيس وقيس، هو المعبود «قيشون»، أو «بعل قيشون»، السوري الأصل أيضا، بينما ودّ جنوبي الأصل، وربما العُزَّى أيضا.

وهناك كلمات عربية ليس لها معنى ديني، وإن كانت تدعو إلى ربطها بمعتقدات دينية قديمة في المنطقة، منها اسم «تهامة» لمنطقة من شبه الجزيرة متاخمة للبحر الأحمر. وتهامة تذكرنا باسم معبودة سومر القديمة *(Tiamat)*، إله الشواطىء ومصايد الأسماك، وبلفظة عبرية وردت في قصة التكوين وهي *(tehôm)*، التي تشير إلى الخليط الأول من الماء واليابسة، ومن السماء والأرض في اليوم الأول من الأيام الستة التي خلق فيها العالم. ومن هذه الكلمات: «إياة» بمعنى «نور الشمس وأشعتها»، وقد استعملها طرفة بن العبد في وصف أسنان حبيبته بالبياض واللمعان بقوله:

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشَّمس إلا لِثَاتِهِ ... أسِفَّ - وَلَمْ تَكْدِمْ عليه - بِإِثْمَدِ

وفي مجموعة الآلهة القديمة لما بين النهرين تطالعنا **إيا**، ولها مع إله الشمس البابلي **شمش** *(šamaš)* صلات وحكايات. وكلمة الأزلام في الجاهلية العربية، وهي عيدان فيها رموز وعلامات معينة كانوا يستفتحون بها، أي يستشيرون آلهتهم فيما سيقدمون عليه من أمور، ومن المحتمل جدا أن يكون عددها سبعة، تمثل النجوم السبعة في برج الثور *(the pleiades)* والثور السماوي المجتمع كان هو نفسه في وثنية الشرق الأوسط إلها حارسا، وهؤلاء السبعة

كانـوا مؤلّهـين أيضـا، بهم سمّيت «بئـر سبـع» ومنهم استعمـل الكنعانيون، والعبريون من بعدهـم، كلمة šebūáh بمعنى اليمين والقسم، إذ كانوا يدعون لمعاقبة الكاذب، أو للشهادة على القضية وحراسة الحق فيها. هذه الأزلام مأخوذة من مادة **slm** في الكنعانية والبابلية، **ص ن م** في العربية، **ز ل م** في الآرامية، بمعنى «الصورة»، «والتمثال»، «والشخص»، ومنـه في لهجـات الشـام*(أ) الآن «زلمـة» بمعنى رجـل. فهـذه الأزلام كانت رموزا وثنية للمعبودات، وكانت من أجل ذلك تستشار، ويؤخذ برأيها، إن صح هذا التعبير.

والهَـدي، وهـو ذبيحـة تقـدم إلى المعبود نذرا أو عند الحج، أصلها من الكلمة السامية الغربية **هـ و د** بمعنى الشكر، والاعتراف بالفضل، ومن هذا المعنى جاء اسم النبي هود، أي «شاكر» أو «شكر»، والهدية بتأخير حرف العلة من الـوسـط إلى الآخـر منه أيضا، وكذلك الهِداية من الضلال لأنها كشف وتوضيح وتوصيل إلى الهدف، كما كان الهَدي يصل إلى المعبد في القديم.

وعلى ذكـرالهَـدي، نجد كلمة «الحج» عند العرب، ونجد طقوس الحج القديم وشعائره في الجاهلية تتضمن طرائف لغـويـة تردنـا إلى حضـارات ساميّـة منـدثرة تماما في العصور التاريخية لشبه الجزيرة. من ذلك لفظة «الحج» نفسها. فالأصل السامي العام **ح و ج** معناه الخط الدائري، وكان الساميّون إذا وصلوا إلى معابدهم تحلقوا في دوائر يرقصـون وينشـدون ويهللون فرَحـاً بالوصول بالسلامة، والاجتماع في بيت المعبود. ومن هذه الحلقة: **حوج**، سمي هذا الطقس «الحـج». والـرقص، في الكنعـانيـة **ر ق د**، وهي تتصل بمادة **ر ك ض** في العربية، يشعرنا بأنها خطوات إيقاعية ملحنة بدقة على نغمات للأدعية والابتهالات، ومقطعة تقطيعاً موسيقياً متوازناً هو التهليل، أو الهلهلة، وهي نوع من الشعر المنضبط بالحركة والسكون ضبطاً حسابياً دقيقاً، لعل المُهلْهِل كان ممن برعوا فيه في الجاهلية العربية الأخـيرة، وسنعـود إلى طرف من هذا الحـديث في مكـانـه من هذه الأوراق. والتهليـل في الأصول اللغوية القديمة للسـاميـين معنـاه الجهـر، والتمجيد العلني، والهتاف الملحّن، ومن هنا سمى اليهود الزبور ـ أي مزامير داود ـ تهلّيم «أي أناشيد التمجيد وأهازيج التعظيم لله». كما اتسع مدلول لفظة «حج» عندهم فأصبح معناها العيد على العموم.

وكان الحج في الجاهلية يَعْرِف الإِحْرَام*(ب)، كما كانت تعرفه الشعوب الساميّة الأخرى في حجها، وهو حالة تنسّـك قريب من الحـداد، انتظـاراً لتجـلّي المعبـود وعفوه عن عباده. وهنا تذبح الذبائح، ويقبل الساميّون في الشام والعـراق وشبـه الجـزيـرة على خطـوة ختـامية في الحج، وهي الخروج من حالة الإحرام. وكان ذلك يتم في حفلات إبـاحيـة صاخبـة جدا، تصـدح فيهـا الموسيقى، وتشرب فيها الخمور بكثرة، وتتصدر هذه الحفلة فرقة من خادمات المعبد، وهن راقصات شابات تديرهن امرأة مدربة على هذا اللون من الطقوس، فيرقصن رقصات يمثلن فيها لقاء

*** المحرر:**

(أ) وكذلك في لهجة العراق.

(ب) وذلك بلا شك استمرار لسنة سيدنا إبراهيم عليه السلام، احتفظ بها في مناطق مختلفة، تجاوزت الحنيفية إلى الوثنية في حالات.

المعبـودين تموز وعشـتر وت ، أولقـاء إسـاف ونائلة في الجاهلية العربية ، وكانت كل فتاة من أولئك الراقصات تسمى الخربع أي « الصغيرة اللينة» ، وتؤدي رقصتها التعبيرية في صمت (mime) ، بإشراف زعيمتهن هذه *(mimos)* التي تركت في معجمنا العربي كلمة «مومس» ، من الآرامية ، **موموس** عن اليونانية . وهي تختلف عن البَغِيّ ونحوها من الألفـاظ ، في أنهـا كانت تشغـل وظيفـة من وظـائف المعبـد الجاهلي هي الدعارة الطقسية لفك الإحرام ، وكانت لها ولفتياتها خيام عليها رايات مميزة ، على مقربة من مكان الحج ، كما ورد وصف ذلك في كلام مرويٍّ عن عائشة حول مباذل الحج في الجاهلية .

وهناك أيضا طقوس المعاهدات والأحلاف وتوكيد ذلك بالأيمان . كان الكاهن يدعو الطرفين في اتفاق ما ، إلى الحضـور في مكـان معـين بالقـرب من صنم يقـوم هذا الكاهن على سدانته . فيحضر الطرفان ومن معهما من الوفود الشهود ، ومع كل منهما ذبيحة أو ذبائح يتم نحرها بحيث تخلط دماؤ ها في مجرى واحد . ثم تقسم كل ذبيحة قسمين يوضع أحدهما عن يمين الدم والآخر عن يساره ، كل هذا والكاهن ـ عند الذبح والقطع والتقسيم ـ يلعن الحانث في اليمـين ، ويـدعـو عليـه بنفس مصير الضحية . وبجانبه مساعده قد أشعل ناراً ، وراح يلقى فيها بالملح مع كل لعنة فيتطاير شرر بصوت عظيم ، وهو يصيح : «النار النار، الدم الدم ، الهدم الهدم» ، ويردد الحاضرون ذلك . ويسمى مسـاعـد الكـاهن هذا : «المهـوّل» . ومن تقسيم الـذبـائـح ، سمي هذا النـوع من العقد : القَسَم . بعد ذلك يسير الطـرفـان المتعـاقـدان كل منهـما من الجهـة المخالفة للآخر . وسمي الحلف لهذه المخالفة في السير ، والحاء والخاء في السـاميّـة القـديمـة واحد . فيخوض كل منهما الدم نحو الآخر ، وتنغمس قدماه فيه ، ومن هنا وصفت اليمين الرهيبة باليمين الغموس ، واكتفت المعاجم بالمعنى المتحضر جدا والمتأخر جدا من أنها اليمين التي تغمس صاحبها في الإثم . حتى إذا توسط الطرفان هذا الطريق الدموي مد كل منهما يمينه وصافح الآخر ، ودعا بالويل على الكاذب والحانث وأشهد المعبود على قوله . ومن المصافحة باليمين جاء اسم اليمين . وأحياناً ، خصوصاً إذا كان الاتفاق يتضمن أكثر من نقطـة ، كان الحجـام يحز بمشـرطـه على ذراع كل منهما ، كلما عدّ الكاهن نقطة من نقط الاتفاق ، ثم يلحس كل واحـد الـدم من ذراع صاحبـه ، وهذا هو أصل تسمية بنود المعاهدة : «شروط المعاهدة» . ومن الدعاء بالويل جاءت لفظة الآل .

وليس هذا الأمر خاصاً بالعرب ، بل هو عام عند السَّاميّين ، وقد بقيت منه صورة في التوراة عن العهد المبرم بين ابراهيم وربه وفيه : (١)

«وقال : أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين لأعطيك هذه الأرض ميراثا لك . فقال : اللهم يارب ، بمـذا أعلم أني أرثهـا . فقـال له : خذ عجلة ثنيـة ، وعنـزاً ثنيـة ، وكبشـاً ثنيـاً ، ويمامة ، وجوزلاً . فأخذ له جميع هذه وشطرها أنصافاً ، ثم جعل كل شطر قبالة صاحبه ، والطائر لم يشطره . فانقضت الجوارح على الجثث ، فجعل أبرام يزجرها . ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع سبات على أبرام ، فإذا برعب ظلمة شديدة قد وقع عليه . . فلما غابت الشمس ، وخيم الظـلام ، إذا تنّـور دخـان ، ومشعـل نار سائـر بين تلك القطـع . في ذلـك اليوم بتّ الرب مع أبرام عهدا . . . » فنرى هنا الذبائح المقسومة ، وطريق الدم ، ونار التهويل .

أما في ميدان الأدب، فإن هذه الجاهلية الأخيرة السابقة مباشرة للاسلام لا تعيننا على تصور الجاهلية الأولى ببـذخهـا وفخـامتهـا وتـراثهـا الفكري، إلا بشكل محدود ومجدب جدا. كانت هذه الفترة عصر قحط، أدى إلى أن يستقـر النـزاع القبـلي ليكـون الوضع الدائم للمجتمع. وانهارت الممالك المزدهرة قديما في الجنوب والشمال، وفرضت على أكثـر العـرب تبعيـة سيـاسية أجنبية للفرس أو الروم، كما حفلت طرق تجارية أخرى لا تمر بشبه الجزيرة العربية بالقوافل التي تنقل التجارة بين الشرق والغرب، بمأمن من الحروب والغارات والمنازعات فكثرت المجاعات، وساد الفقـر، وانهـارت الكهـانة القديمة فلم يبق منها إلا ظل باهت كله جهل وشظف، كما تقلص ظل العربية الفصحى أمـام التمـزق القبـلي، فسادت لهجات بعضها قريب من الفصحى وبعضها بعيد، بحيث أصبحت الفصحى ميزة للخـاصـة من العـرب، الكهنـة والعـرافـين والأطباء والشعراء. وكانت تستعمل كلغة دولية بين العرب في الأسواق والمنافرات والوفود وفي موسم الحج. وفرضت سدانة الكعبة على قريش أن تبقى اللغة القديمة العريقة لغتها على طول الأزمان، على الرغم من ندرة من ظهر في قريش من الشعراء قبل الاسلام. كانت العربية الفصحى مقدسة إذاً في تلك الجاهلية الأخيرة، ثم أعادها القرآن الكريم أكثر حيوية وتألقا، ووضعها حيث كانت قبل آلاف السنين، لغة عامة للعرب.

ونحن نعـرف أن العـرب مذكـورون في نقوش ووثائق قديمة جدا عند الأمم المجاورة، من العراق إلى أرض كنعان إلى كتابات المصريين واليونان والرومان. أما تراث أولئك العرب الأوائل فقد ضاع معهم، وأضاع ما بقي منه إهمال الـرواة في ظل الإسـلام لحفـظ ما أثـر عن هذه الجـاهليـة، كما قال أبوعمرو بن العلاء برواية يونس بن حبيب البصري: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير».

ومـع ذلـك فمن المرجـح أن العـرب الأوائـل قد أورثـوا الأمم الأخـرى بعض ملاحمهم، ومنـذ عهـد فولتير والباحثون يرجحون أن القصة الشعرية عن أيوب، ليست، بشكلها في الكتاب المقدس اليهودي، إلا ترجمة لملحمة عربيـة. ويسـوقـون لذلـك ما لا يحصى من الشـواهد مثل اسم أيوب نفسه، وكونه من مادة آب بمعنى رجع، وهي عربية قحة لا توجد في العبرية، ومنها إغفال نسبه، ولو كان من بني اسرائيل لذكروه باسمه واسم أبيه والسبط الذي ينتمي إليـه، ومنهـا أن «أرض عوص» المـذكـورة في القصـة العـبرية تقع في شمال شبه الجزيرة العربية، ويذكر علماء الأنسـاب أنهـا تحمـل اسم عوض بن ارم، ومنهـا أن الشيطان، وهو اسم غير معروف في العبرية وشائع في العربية، يأخـذ في القصـة دورا رئيسيـا باسمـه هذا، ولا يرد ذكره في غير سفر أيوب من الكتب المقدسة الاسرائيلية، وكذلك اسـماء أصـدقـاء أيوب ومواطنهم: أليفاز التيماني، بلدد الشوحي، صوفر النعماني. هذا إلى جانب المحتوى الفكري للسفر كله الذي يشبه خواطر حكماء العرب أكثر مما يشبه خطب أنبياء اليهود. ولأن أيوب لم يكن يهوديا فإنه لم يوصف في الكتاب المقدس بأنه نبي ولا كاهن، ولا ملك، بل مجرد رجل صالح مستقيم.

من الـراجـح أن يكـون العـرب على مدى الآلاف من السنـين التي عاشوها في شبه جزيرتهم قد تغنوا بأشعار دينيـة وملحميـة طويلة، شأنهم في ذلـك شأن بقيـة السـاميين وعلى أوزان غير ما نعرف من شعرهم الموزون المقفى هذا. وقد ذكروا كلاماً غامضاً هو أن المُهلهِل بن ربيعة قد سُمي بهذا الاسم لأنه أول من هلهل الشعر، وأن اسمه الأصـلي: أمـرؤ القيس بن ربيعـة، أوعدي، أوربيعـة. أما كيف «هلهل» الشعر، فيقولون أنه رققه، أوأرسله غير

منقح كالثوب المهلّهَل، أي الممزق، أولقوله في بيت شعر خاطب به زهير بن خباب بن هبل الكلابي:

لَمّا تَوَغَّلَ في الكُراعِ هَجِينُهُم ... هَلْهَلْتُ أثْأرُ مَالِكاً أو صُنْبُلا

والفعل هَلْهَلَ في اللغة العربية يدل على ترجيع الصوت، مثل هلّل. أما الثوب المهلهل فهو من الهلال، لأنه ممزق، يبدو ماتحته على شكل الأهلة في ظلام الليل.

وليس ببعيد أن تكون العرب قد جرت على قول الشعر في الحقب السحيقة من حياتها بأوزانه القديمة المنتشرة عند بقية الساميّين. وهي لم تكن أوزاناً حسابية بالحركة والسكون والتزام حرف للقافية، على ما هو معروف في القصيد العربي، وإنما كانت نوعاً من التقسيم في عناصر الفكرة أو الصورة، ينتج تقسيماً كمياً للألفاظ التي تعبر عن ذلك، على نغم أقل رتابة وتكراراً من أوزان القصيدة المعروفة. فهكذا كان شعر البابليين في ملاحمهم، والكنعانيين في أساطير رأس الشمرة، والعبريين في شعرهم المودع في الكتاب المقدس، مثل مزامير داود، ونشيد الأناشيد، ومراثي إرميا، وحماسيات موسى، وسفر أيوب.

من المحتمل أن يكون الرجز قد وجد منذ أقدم العصور إلى جانب هذه الأوزان الملحمية، لتأمين حاجة المجتمع العربي للهتاف والتهليل والترجيع الجماعي المنتظم، في الحرب، والسفر، واستنباط المياه من الآبار، وفي أراقيص الأطفال، وزفاف العرائس، وتشييع الموتى. ومع ضعف السلطتين الملكية والكهنوتية في المجتمع العربي في الجاهلية الأخيرة اتسع الشعراء في الشعر الجماعي والإيقاعي، ونوعوا أوزانه، وبرع فيه شعراء من أمثال امرىء القيس بن ربيعة، الذي سمي المهلهل (آنف الذكر)، بينما اندثر النوع الشامخ الضخم المعقد القديم، ولم تبق منه إلا ذكريات باهتة، هي التي خدعت أولئك الجاهليين المتأخرين فوصفوا القرآن الكريم بأنه شعر، جهلا منهم بالفرق الدقيق بين ذلك الشعر المندثر وهذا القرآن المعجز. ومن خلال هذه الذكريات الباهتة أيضا، كان عبيد بن أبرص يتحلل من قيود العروض أكثر من مرة في معلقته، ومع ذلك لا يرى معاصروه بها بأسا.

بدأها بقوله في رواية أبي زيد القرشي في **جمهرة أشعار العرب**:

عَيْناكَ دمعُهما سَرُوبُ ... كأنَّ شأنَيْهِما شَعِيبُ

وتبدأ عند باقي رواة المعلقات بقوله:

أقْفر من أهله ملحُوب ... فالقُطْبِيَّات فالذُّنُوب

ثم يرد فيها مثل قوله:

لا يَعِظُ النَّاسُ مَنْ لا يَعِظُ الدَّهْرُ وكم يُرَى شَائناً حَبِيبُ

وقوله:

فكلُّ ذِي نعمةٍ مَخْلُوسُهَا ... وكلُّ ذِي أملٍ مكذُوبُ

فمثل هذه الانحرافات عن حسابات الخليل بن أحمد في العروض العربي، لم تخدش الأذن الموسيقية العربية القديمة، ولم تأت الشكوى منها إلا متأخرة جدا، بعد أكثر من خمسمائة عام على لسان أبي العلاء المعري، في قوله في اللزوميات:

وقـد يُخْطِىء الـرأيَ امـرؤ وهو حازمٌ كما اختـلَّ في وزن القـريض عَبيـدُ

هنـاك مجاهـل كثـيرة جدا في أرجـاء اللغـة العربية تدعونا إلى أن نعتبر المعجم العربي هو أيضا منطقة حفائر للتنقيب عن حضارة القوم.

أسـماء القمـر مثـلاً: منهـا عنـد الساميين ي رح، و رخ، ومع اختفاء هذه الكلمة في العربية فقد أخذنا منها التاريخ، أي حساب الزمن مع و رخ، مع القمر - وعلى ذكر التاريخ كان من الأسماء التي تطلق على الموقت، الذي يقـوم بهذا الحسـاب، اسم **القلمس** وهـو تعـريب لليـونـانيـة *calendas*. يقـول الفـير وزآبادي في **القاموس**، في مادة **قلمس**: «ورجـل كنـاني من نسأة الشهـور كان يقف عنـد جمرة العقبة ويقول: اللهم إني ناسىء الشهور، وواضعها مواضعها، ولا أعاب ولا أجاب، اللهم إني قد أحللت أحد الصَفَرَيْن، وحرّمت صَفَرَ المؤخر، وكذلك في الرَجَبَيْن يعنى رَجَباً وشعبان، انفروا على اسم الله تعالى. وذلك قوله تعالى: إنَّما النَّسِيءُ زيادةٌ في الْكُفْرِ»(٢).

ولسنـا بحـاجـة إلى الإشـارة إلى أن **القلمس** ليس لفظـاً فريداً في بابه من حيث المجيء من اليونانية، فهناك آلاف من الألفـاظ التي استعـارتهـا العـربية من اليونانية منذ الجاهلية، نذكر منها: **إقليد**: **مفتاح**، وجاء منها «مقاليد الأمور»، و«أسطورة» *(istoriya)* *(جـ). أما «السطر» في اللغة العربية فهو ساميٌّ خالص، ومعناه النظام أو الترتيب، و«إبليس» *(diabolos)*، وكـان معنـاهـا القـديم في اليـونـانيـة الكاذب المخادع، و«الإقليم» *(klima)* أي البقعة من الأرض المتميـزة عن غيرهـا في جوهـا وطبيعتهـا، و«البيطـار» من *(ippiyatros)* أي معـالج الخيل، و«الحلزون» من *(helix)* وهـو كل ما يدور لولبيـاً، و«الطقس» *(taxis)* و«الفـردوس» *(paradisos)* و«القـرن» من الـزمـان *(khronos)* و«القنينة» *(kannion)*.

وكانت الثروة اللفظية من المعرّب كثيرة لدرجة أن أفردها بالتأليف كثير جداً من العلماء القدامى والمحدثين، والرجوع إليها ضروري للمسح الحضاري للمجتمع العربي من خلال اللغة، ولا أرى وأنا بين يدي هذه النخبة من علماء العالم أنه من اللائق أن أطيل في موضوع يعرفه كثير منهم مثلي وزيادة.

هنـاك أيضـا أسـماء الأعلام، وهي وحدها متحف حافل بالآثار الحضارية والسياسية والدينية للأمة العربية، فالقبائل التي تسمى بني أسد، وبتحريف صوتي الأزد، وكذلك يربوع، وثعلبة، وعبس (وهو الأسد أيضا) ونميرة،

* **المحرر:**

(جـ) يرى المحرر عروبتها في مماثلتها لأرجوزة وأمثالها، وفعلها رجز (وزن فَعَلَ)، ويكون فعل الكلمة المذكورة هو سَطَرَ.

وبكر، وكليب، ما علاقتها بالعقائد الطوطمية القديمة؟ وما نوع العلاقة القائمة بين القبائل العربية على ضوء الأساطير الدينية البائدة؟ وهل لأسماء هذه القبائل دخل في مواقف معينة تقفها من غيرها. الأوس مثلاً من أسماء الذئب، والخزرج ريح تأتي من اليمن، هل وراءهما قصة؟

ومع اليمن نتذكر وادياً أسطورياً تسكنه الجن هو عبقر، الذي إليه ينسب كل فن جميل دقيق، منذ أن كانت الحضارة اليمنية على أرفع مستوى من المهارة. فلماذا سمي أولئك الجن عبقر؟ هل هذه العين في بداية الكلمة عنعنة، والأصل أبقر أي على هيئة البقر؟ وعلينا أن نقارن آلهة كثيرة في وثنية الشرق القديم تنتمي إلى هذه الفصيلة من ذوات الأربع؟ وإن كان الزمن قد تطاول فوضع العباقرة في أبعد مسافة من البقر.

وتطالعنا على سبيل المثال طائفة من أسماء الأعلام للأشخاص والمدن والمواضع، تأتي على صيغة المضارع، منها **يزيد ويعرب ويشكر ويشجب وتماضر ويعيش ويموت ويحيى**، وفي أسماء المواضع **ينبع وتعز وتدمر وتبوك** ونحوها، فهذه تتبع التفسير العام في التدين والتفاؤل والتشاؤم المنتشر في أسماء بقية الساميين، مثل **يعقوب**، أي «المولود عقب أخيه عيسو»، أو «الذي سيعقب نسلاً كثيراً»، و**إسحق** (بالعبرية **يصحق** «يضحك») و**يوسف** (ومعناه في العبرية «يزيد»)، ومثل **بختنصر** (بالكلدانية وهو اسم إله) **خُدُرّي** (الحدود)، **أُصُر** (ينظر، يحرس) وفي الأسماء العربية للأشخاص نجد معنى التفاؤل واضحاً في **يزيد ويعيش ويحيى ويشكر ويعرب** التي تفيد كثرة الخير، فيقال بئر عربة، أي صافية الماء كثيرته. أما التسمية **بيموت ويشجب** التي معناها الهلاك فلدفع العين الشريرة. **وتماضر** من المضر وهو النعيم والسمن والخصب، منه أيضا اسم مضر.

وأما في أسماء المواضع فيغلب أن يكون الاسم للدعاية السياحية والتجارية، وقد لوحظ أن كل هذه المواضع كانت محطات للقوافل وكانت أسماؤها ترمي إلى جذب المسافرين وإعطائهم انطباعاً حسناً عن البلدة: فينبع تعتبر من أحسن الأسماء جذباً للقوافل المتجهة نحو الشام في رحلة الصيف. وتَعِز معناها «يبعد منالها على الغزاة وقطاع الطرق»، فهي المحطة الآمنة، وهي تذكرنا باسم غزة في الشمال، الذي كان نطقه السامي القديم **عزة** أي «العزيزة المنيعة»، أما الغين فجاءتنا بدل العين من تحريف يوناني، لعجز اليونان عن نطق العين. وتدمر في لهجة أهلها بمعنى «تتمر» في الفصحى، أي «يكثر نخيلها وتمرها»، وقد ترجم الرومان الاسم إلى *(Palmyra)* بنفس المعنى وتبوك، في العربية الفصحى، معناها «تبيع وتشتري»، أي تنشط فيها حركة التجارة واختلاط الناس بعضهم ببعض. ومن هذه التسميات خارج الدائرة العربية **يبوس**، وهو الاسم الفلسطيني الأصلي لمدينة القدس، وهي من أصل سامي عربي مشترك **أ ب س** بمعنى «سمن وامتلأ»، فهي محطة القوافل التي تمنح النازلين بها من المئونة ما يكفيهم وزيادة، ويعوضهم عن مشاق السفر، وكان لها إله اسمه **شاليم** تنسب إليه فيقال **أورشليم**، وجرى الناس على تفسير اسم هذا الإله بأنه إله السلام. لكن السلام بمعنى تعايش الناس بدون حرب يعتبر من الأفكار الجديدة نسبياً، وأغلب الظن أن **شاليم** هذا كان إلها للسلامة، أي سلامة الوصول وسلامة استئناف السفر. ومن المدن غير العربية التي جاءت على وزن الفعل المضارع مدينة «ترضه» المندثرة تماماً الآن، وكانت على مقربة من نابلس، وصيغتها عبرية تقابل لفظة «ترضى» في العربية، وهي التي اتخذها يربعام بن نباط عاصمة لمملكته بعد أن أعلن العصيان على الدولة اليهودية في أورشليم، على أثر موت سليمان بن داود عليهما السلام في القرن التاسع قبل الميلاد، وأقام حولها

مملكتـه التي سماهـا اسـرائيل . ويبدو أنها كانت على خط التجارة القادم من دمشق وحلب وبعلبك والمتجه نحو بلاد موأب في شرقي الأردن ثم إلى مصر، وهي تعني محطة القوافل ذات العيشة الراضية ، ولم تستطع الحفائر حتى الآن تحديد موقعها بالضبط .

أمـا **يثـرب** ، فليس على الأرجـح من تلكم الأوزان ، بل الزائد فيها هو حرف الباء في النهاية ، وهذا أيضا من حفريات الاشتقاق العربي المشكلة حتى الآن . فالباء ليست من حروف الزيادة في تصريف الكلمات العربية ، ومع ذلك نجدها في اسم **زينب** الذي يأتي من الزين أو الزينة ، **وعقرب** من الفعل عَقَرَ، أي أصاب في أسفل الرجل ، **وثعلب** الـذي نجـد بجـانبـه ثعل (**شوعال** بالعبرية ، **تعلا** بالسريانية) . وقد تأتي الميم بدل الباء ، وهي من حروف الشفة الشديدة القرب من الباء ، فنقول «رجلٌ شدقم» أي عظيم الشدقين ، وقد تأتي واو قبل الباء أو الميم في مثل **عرقـوب** ، وهـو العـرق الواصل إلى الكعب ، وأصلها من كلمة عرق ، وكذلك **حلقوم** للحلق ، **وبلعوم** للزور الذي عن طريقـه يتم البلع . والظـاهـر أن الباء أو الميم تفيدان في مثل هذه الصيغ التعميم والشيوع والبعد عن التحديد . وتكـون **يثـرب** على هذا القـول من المكـان الوثير ، أي المريح الذي يجد فيه الانسان الخصب والأمن والكفاية ، من الأصل الثلاثي **ى ث ر** أو **و ث ر** .

ولا بد لمن يقـوم بهذا التنقيب المعجمي أن يتسلح بكثـير من الفضـول وحب الاستطـلاع والاستفسار، حتى تعود مواد اللغة أمامه حية متحركة قديرة على ذكر قصة حياتها . خصوصاً إذا وجد نفسه أمام مجموعة من المترادفات . ونضرب مثلاً بالألفاظ الحضارية التي تتقارب معانيها جداً وهي : «الفخار» ، «الصلصال» ، «الخِرس» ، «الحنتم» .

«فالفخار» هو أواني الطين المحروق ، والمادة **ف خ ر** معناها رفع الصوت ، والطنين والرنين والمفتخر هو الذي يطنطن بأمر من الأمور، ويجهر بمكارمه ويعلنها ، وطنين الفخار هو العلامة على أنه جيد الصنع وأنه خرج من النار سليماً غير مشعور أو مشروخ . أما «الصلصال» فهو هذا الإناء قبل إحراقه ، لكن بعد أن يجف فيكون له صليل ورنين عنـد النقـر عليـه ، وعلى هذا جاءت الآيـة «خَلَقَ الإِنْسَـانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّار»[٣] . أما «الخِرس» فكلمة سامية شمالية للفخار: **حرس** بالعبرية والفينيقية . وأما «الحنتم» فهو الفخار المطلي المزجج بالسليكون والأكاسيد المعدنية ، وكان في الغالب بني اللون أو أخضر داكناً ، والأحتم «الداكن اللون والأسود» ، ومن هنا نجد في المعاجم أن «الحنتم» هو القدر الخضراء ، وهو بالطبع شرح يعوزه الشمول لغوياً وحضارياً ، كما يحتاج إلى تحديد الفرق بينه وبين الفخار، فالأول يأخذ اسمه من صوته لأنه أهم علامة على خلوه من العيوب ، والثاني يأتيه اسمه من لونه لأنه ميزة اكتسبها بمعالجة تقنية كيماوية زائدة على الفخار البسيط .

والتنقيب المعجمى للكشف عن طبقات الحضارة المادية والروحية المتراكمة بعضها فوق بعض ، لا يمكن أن يتم على يد باحث واحد ، فالبحث اللغوى المقارن وحده يتطلب فرقة من العلماء ، يملك كل منهم عدداً لا بأس به من اللغـات تتكـامـل مع ما يملكـه زملاؤ ه ، على أن تتنوع اهتماماتهم وراء حقل اللغة ، فيكون بعضهم متبحراً في الأدب والآخـر في الـدين ، والثـالث في التاريخ ، والرابع في الفنون الجميلة ، وغيره في العمارة ، أو البحرية أو الحيوان والنبـات والمعـادن والأحجـار، أو في المأثـور الشعبي والأسـاطـير ، إلى آخر ما يضمه معجم أمة من الأمم من دلائل حياتها وحضارتها . وتبقى بعد ذلك صعوبات تستوقف الباحثين ، وتثير أكثر من سؤ ال .

من ذلك لفظة من غريب اللغة العربية هي (**خيتعور**). بحثها العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي في مقال نشره بمجلة **لغة العرب**[٤]، فذكر أن دواوين اللغة تقول عنها: «. . . كل ما لايدوم على حالة واحدة، ويتلون، ويضمحل. . . وشيء كنسج العنكبوت يظهر في الحر ينزل من السماء كالخيوط البيض في الهواء. . . والخيتعور دويبة سوداء تكون على وجه الماء لا تثبت إلا ريثما تطرف. . .» ويذكر أنها في العراق تسمى **جليلو** أو الإكليل، لأنها تبدو على شكل خيط أبيض لامع في أشعة الشمس. ثم ذكر أنه رآى هذه الدويبة السوداء التي ترفرف على وجه الماء في رحلة له من جرف الفرات إلى جرف الخابور سنة **١٩٠٤**م، فسأل عن اسمها في المنطقة فقيل له إنها «الزخرف». ومر سنة **١٩٠٨**م بالفرات فقيل له ان اسمها «البعصوصة». ورجع إلى معاجم اللغة فأفادت أنها ـ أي البعصوصة ـ دويبة صغيرة كالوزغة، بيضاء لها بريق من بياضها، قال أبو عبيدة، ونقله الجوهرى. وبعد بحث طويل تبين للأب أنستاس ماري الكرملي أن «الخيتعور» هو الاسم العربي القديم لحشرة قصيرة العمر جداً تسمى باليونانية *ephemeros* أي بنت اليوم الواحد و *éphémère* بالفرنسية و *ephemeral* بالانجليزية، واسمها العامي في بغداد **جليلو**، **كليلو** آت من سريانية الآشوريين في العراق. وكانت العرب تضرب بها المثل في سرعة الزوال، ودوام الحركة مع كل ريح، يقول الشاعر:

كل أنثى، وإن بدا لك منها   خالص الودّ، ودّها خيتعورُ

ويبدو لي أن الكلمة من أصل مركب كنعاني هو **خوط** أي «خيط» و **أور** أي «نور»، فهذا الاكليل، أو «خيط النور»: **خوط أور**، أصبح «خيتعور». ويبقى بعد ذلك أن نتأكد هل هو ما يسمى ***ephemeros*** أو شيء آخر يسميه الفرنسيون «خيط العذراء» (fil de la vierge) من فصائل العنكبوت الدقيق يفرز هذه الخيوط فلا تكف عن التنقل والتحرك مع الريح وتبدو في ضوء الشمس لامعة بيضاء كالإكليل. ولكن المهم وراء هذا أن الرشح الأجنبي في مادة اللغة يبدو وكأنه شيء دائم منذ الأزل، فمهما أوغلنا في غريب المعجم العربي، قابلتنا ألفاظ تشهد بأن شبه جزيرة العرب، في الجاهلية الأولى البائدة، لا الجاهلية الأخيرة البائسة، كانت ملتقى لحضارات شتى تتفاعل معها وتترك عليها بصمات، هي الشاهد الوحيد الباقي من تلك الحضارات.

الهوامش

(١) سفر التكوين ١٥: ٧ ـ ١٨.
(٢) التوبة: ٣٧.
(٣) الرحمن: ١٤.
(٤) المجلد الثاني، جـ٢ (حزيران ١٩١٢م).

ثامناً: الحضارة (التجارة والنظام المالي)

الأبحاث في الموضوع

التجارة في عصر ما قبل الإسلام

محمد السيد غلاَّب

عصر ما قبل الإسلام، أو الجاهلية، هو العصر الذي سبق البعثة المحمدية، تعرف نهايته ولا يعرف أوله، وهو مثل عصر ما قبل التأريخ، تعرف نهايته ولا يعرف أوله. غير أننا في هذا البحث سنقتصر على العصر الذي يطلق عليه المؤرخون العصر الاغريقي الروماني، وهو العصر الذي سادت فيه الإمبراطورية الرومانية والثقافة الإغريقية، وتزاوج فيه التنظيم اللاتيني أو الروماني مع الفكر الإغريقي، والذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة **الروم**، إذ قال: «غُلِبَتِ الرُّومُ؛ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ؛ فِي بِضْعِ سِنِينَ»*[أ].

وكانت مراكز القوى العالمية في ذلك العصر في يد الامبراطورية الرومانية من الغرب والامبراطورية الفارسية من الشرق. كما ظهرت دولة الحبشة في الجنوب مؤثرة ومتأثرة بالدولة العربية الجنوبية في اليمن.

وتذكر الآداب الكلاسيكية طرفاً من أنباء شبه الجزيرة العربية، تتسم بشيء كبير من الغموض، مختلطاً بشيء من الروعة والإعجاب، ربما كانا ناشئين عن كثير من الجهل بأحوالها. وقد ورد ذكر بلاد العرب التي كانت تفوح كلها بالعطر والطيوب في تاريخ هيرودوت[1] (٤٨٥ ـ ٤٢٥ ق. م) وكتابات ديودور الصقلي (٤٤ ق. م)[2] وبلينيوس (٢٣ ـ ٧٢م) واسترابون[3]. وبيّن موقعها من أقطار العالم بطليموس في خريطته المشهورة وفي كتابه المعروف في الجغرافيا (١٥٠ ـ ١٦٠م).

وكان الكلاسيكيون يقسمون بلاد العرب إلى العربية الصحراوية *(Arabia Deserta)* والعربية الحجرية *(Arabia Petraea)*، والعربية السعيدة *(Arabia Felix)*. أما العربية الصحراوية فقد كان يسيطر عليها الفرثيون، وكانت العربية الحجرية تحت سيطرة روما، والعربية السعيدة هي بلاد اليمن التي تمتعت أكثر من غيرها بقسط أوفر من الاستقلال. إلا أنه لم يكن مستقلاً تمام الاستقلال في العصر الكلاسيكي من بلاد العرب إلا كِنْدَة التي قامت دولتها في وسط شبه الجزيرة (نجد الآن) وبلاد الحجاز. وكان الكلاسيكيون يعرفون مكة التي أوردها بطليموس بصيغة **مكروبا** وهي صيغة مشتقة من الاسم السبئي **مكرب** ومعناها «مقدَّس» أو «حَرَم». ويُستفاد من هذا أنها منذ أول نشأتها، كانت حرماً آمناً للعبادة فقط، وهذا يتفق مع آيات القرآن الكريم: «إِنَّ أَولَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ»*[ب]. كما ورد اسم «**يثربا ولتربا**» في جغرافية بطليموس[4].

---

* **المحرر**:

(أ) الروم: ٢ ـ ٤.

(ب) آل عمران: ٩٦.

إذا أردنـا أن ندرك أهميـة شبـه جزيـرة العرب التجارية، علينا أن ننظر إلى خريطة العالم القديم، فإننا سنرى نطـاقـاً صحـراويـاً عريضـاً يمتـد من المحيـط الأطلنطي حتى حدود الصـين الغـربية، ويفصل بين إقليمين غنيين كبير ين، هما إقليم البحر المتوسط وما وراءه شمالاً، والإقليم الموسمي وما وراءه جنوباً. هذان الإقليمان يمثلان أيضا أكـبر تكتلين سكـانيـين في العـالم، وينتج كل منهـما محاصيل تختلف عن محاصيل الآخر، وكل منهما محتاج لمحاصيل الآخر، أي محتاج للتبادل التجاري معه.

غير أن العنـايـة الإلهيـة كسرت حدة عقبة الصحراء الكئود، بشق ذراعين مائيين كبير ين يتجهان من الشمال إلى الجنـوب، هما الخليـج العـربي والبحر الأحمر، وهذان الذراعان المائيان يقتر بان اقترا باً شديداً من ذراع ثالث له اتجاه شرقي غربي، هو البحر المتوسط.

وهكـذا تهيأ المسـرح: طريقـان مائيـان يصنعـان طريقين بحريين يعبران عقبة الصحراء الكئود. ثم برزخان بريـان كبـيران، برزخ السـويس من ناحية وبرزخ شرقي البحر المتوسط وأعالي الفرات من ناحية أخرى، جعلا من أقليمهما أهم معبر ين بريين للتجارة العالمية.

هذا الـوضـع الطبيعي لتـوزيـع المـاء واليـابس، وموقع شبه جزيرة العرب بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وعلى مشـارف ما بين النهـرين وسـوريـا وبـرزخ السـويس، جعل شبه الجزيرة في طريق التجارة العالمية بين الشرق والغـرب، بل جعلهـا هذا المـوقـع جزءاً منهـا. هذا إلا أن سواحـل شبـه الجزيرة الجنوبية تكون البر الغربي لحوض ملاحي كبير هو بحر العرب والمحيط الهندي.

هذا ولا يفصل جزيرة العرب عن قارة إفريقيا إلا مضيق باب المندب الضيق. غير أن قلب شبه الجزيرة قفار مجدبـة أو سهـوب قليلة المرعى، ومن ثم لم تلعب دوراً يذكـر في النشـاط التجـاري لشبـه الجزيرة، واقتصر دور شبه الجزيرة على كونها ممراً للتجارة عن طريق البحر الأحمر وظهيرة أرض الحجاز من ناحية، أو عن طريق الخليج العربي من ناحية أخرى، وأخيراً هناك نشاط تجاري محلي بين سواحل شبه الجزيرة الجنوبية وساحل الهند شرقاً، أو سواحل شرق إفريقيا غرباً.

وقد كانت الصحراء السورية التي تستقبل قدراً قليلاً من الأمطار يسمح بنمو الحشائش ورعي الحيوان، مهيأة لتكون معبراً للتجارة بين شرقي البحر المتوسط وبين أرض ما بين النهرين. كذلك كان شمال سيناء معبراً للتجارة بين فلسطين ومصر، وأرض مَدْين في شمال الحجاز. هذه المنطقة كانت تموج بطرق القوافل في السنوات التي كانت تسقط فيها الأمطار ما يكفي حياة الرعي والاستقرار النسبي، ولكنها كانت تضطرب اضطراباً شديداً عندما يقل المطر عن معـدلـه السنـوي، مما يدفـع القبـائل إلى التحرك ولأن تهدد طرق القوافل. ولقد كان شمالي الجزيرة البوابة التاريخية للهلال الخصيب الذي كان يمتد من رأس الخليج العربي على شكل هلال، موازياً لنهر الفرات ثم أرض الجزيرة التي تتوسطها مدينة حلب، ثم جنوباً بغرب موازياً لساحل البحر المتوسط الشرقي. كانت بلاد الهلال الخصيب (وهو تعبـير استخـدمـه المؤرخ الكبير برستد Breasted) مستقراً لحضارات زراعية عريقة ومستمرة، وكانت تحف به أرض

سهوب ومراع، تتأثر بأدنى تغير في مقدار الأمطار التي تسقط عليها، وتسكنها قبائل بدوية وشبه بدوية، لهذا عندما يتوفر العشب والكلأ لحيوان الرعي، تموج بالحركة وعندما يقل المطر وتنكمش مساحات الكلأ، تغير هذه القبائل على الأراضي الزراعية في الهلال الخصيب.

من هذا نرى أن طرق القوافل جميعاً، سواء ما كان منها في بادية الشام بين الموانيء والأسواق السورية والعراق، أوما كان منها في جنوب فلسطين وفي أرض سيناء ومدين، بين موانيء البحر المتوسط الجنوبية الشرقية والخليج العربي، هذه الطرق جميعها كانت تتأثر بذبذبة المناخ. وهذه ظاهرة مناخية أشار إليها القرآن الكريم (سورة **يوسف**)، وذكرتها كتب التاريخ ووقرت في ذاكرة الشعوب.

ومهما يكن من أمر، فقد تأثرت طرق القوافل ومراكز العمران في بادية الشام بأحداث تاريخية تجعل بعض الطرق تزدهر على حساب الأخرى، وتساعد على ازدهار بعض المدن وذبول أخرى. وربما كانت فترات الازدهار معاصرة لفترات المطر الوافر، وفترات الذبول معاصرة لفترات الجفاف. كما لا يمكن فصل النشاط التجاري في شمال شبه الجزيرة عن حالات الأمن أوحالات الاضطراب التي تسود البلاد، والتجارة نشاط اقتصادي يحتاج لقدر كبير من الأمن. بينما يعرقل الاضطراب طرق القوافل، وقد يودي تماماً بالنشاط التجاري[٥].

لقد كانت آسيا الصغرى والساحل السوري ودلتا النيل من ناحية، وإيران من ناحية أخرى هي مراكز الحضارة والتجارة الرئيسية، بينما كانت العراق وسوريا الشرقية وما بينهما من بادية مناطق للنفوذ الإيراني والروماني وكانت أيضا مناطق للصدام بينهما، وهذا ما يفسر قيام دويلات صغيرة فيها، كانت بمثابة أرض عازلة بين القوى الكبرى في ذلك الحين.

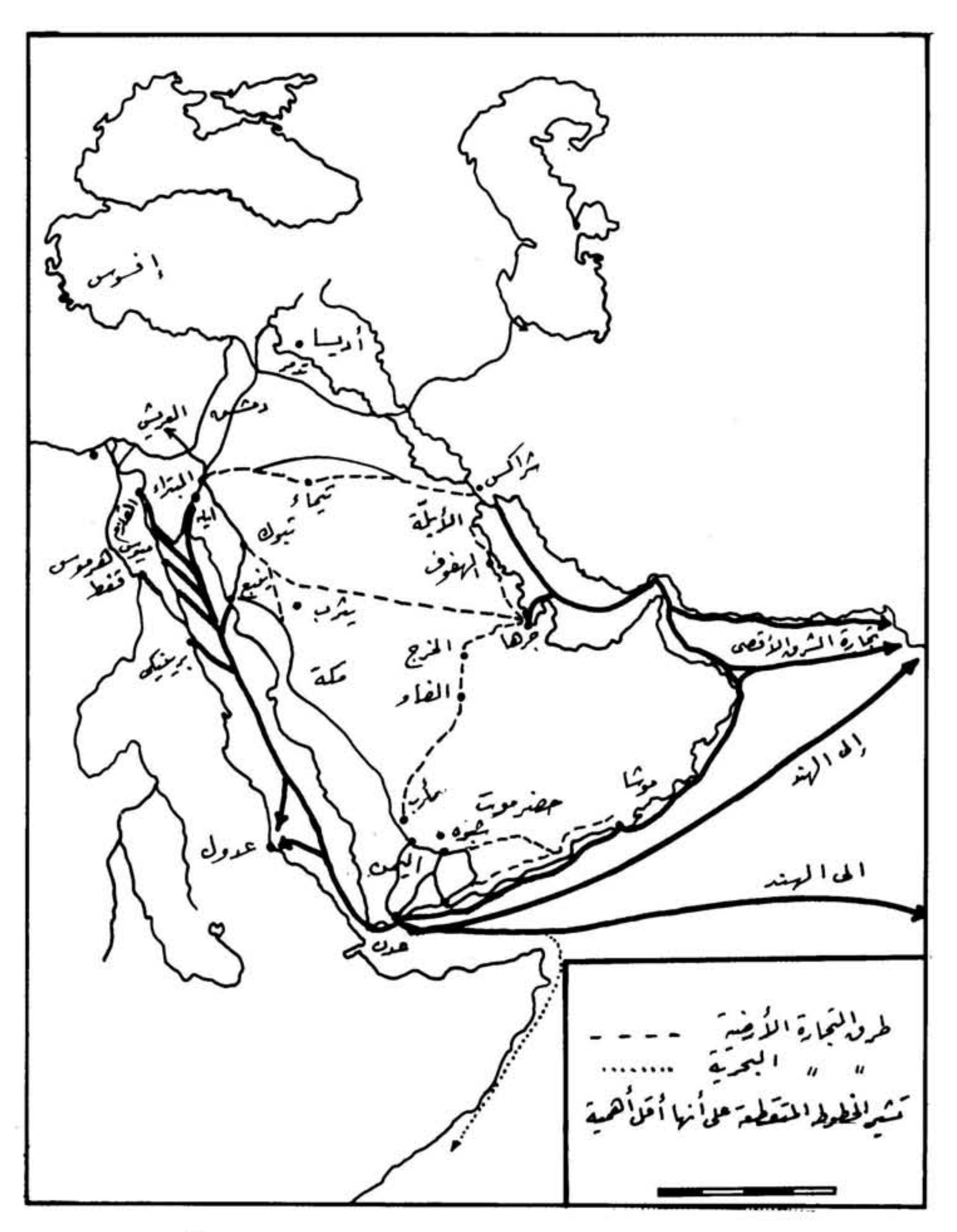
وسنتحدث الآن عن أهم الطرق التجارية وما كانت تحمله من تجارة:

أولاً: طريق البحر الأحمر وظهيره

كان البحر الأحمر وظهيره من أهم طرق التجارة وأقدمها بين مصر وبلاد بونت في عهد الأسرات المصرية القديمة، ثم بين مصر وبلاد اليمن في العصر البطلمي وما بعده. ولا حاجة بنا للحديث عن التجارة المصرية القديمة، ويكفي أن نشير هنا إلى بعثة الملكة حتشبسوت البحرية إلى **بلاد بونت**، فقد سجلتها على جدران الدير البحري بالأقصر. غير أنه لا يعرف على وجه التحديد **بلاد بونت** هذه، ومن المرجح أن تكون البلاد التي تحيط بمضيق باب المندب شرقاً وغرباً، أي اليمن والصومال في الوقت الحاضر.

ولقد ظل اهتمام المصريين بالتجارة مع الجنوب عن طريق البحر الأحمر حياً طوال التاريخ، وأدى هذا إلى شق قناة تصل النيل بالبحر الأحمر، وكانت هذه القناة تحفر وتنشط التجارة فيها في أوقات قوة مصر، وتضمر وتهمل التجارة عن طريقها في أوقات ضعفها، من أيام سَاحُورع (٢٧٤٣ ـ ٢٧٣١ ق.م.) حتى العصر الحديث. وكانت

أرسينوي وكليزما (القلزم) سابقتين للسويس منذ أيام البطالمة. وقد نشطت التجارة في البحر الأحمر في عصر البطالمة بصفة خاصة، فقد كان عهد ازدهار اقتصادي في مصر، فأعيد حفر قناة النيل البحر الأحمر وشيدت ميناء أرسينوي أو كليـزمـا، كما استخـدم طريق تجاري بري آخـر في مصـر، يصل بين ثنية قنا والبحر الأحمر، وقامت **قفط أو كوبتوس** *(Coptos)* مركزاً تجارياً على النيل ومثلها **لوكوس ليمن** *(Leucos Limen)* أو القصير الحالية على البحر الأحمر وكذلك **برينيكي** *(Berenike)* أو رأس بناس الحالية، **وميوس هرموس** (أبو شعر الحالية).



الخارطة رقم ٤ : طرق التجارة في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام.

وكانت هذه الموانيء تتاجر مع موانيء عربية مقابلة لها هي الوجه وينبع وجدة.

وقد أولى بطلميوس فيلاد لفوس الثاني اهتماماً خاصاً بالتجارة مع جنوب غرب شبه الجزيرة والحبشة[٦]. وكان يستورد منها الطيوب والبخور والعاج والرقيق والفيلة.

وكان للبطالمة محطات تجارية على طول ساحل البحر الأحمر حتى جزيرة سوقطرة *(Dioscorida)*، ولم يتوغل البطالمة وبنو عمومتهم من الإغريق كثيراً في المحيط الهندي، وقنعوا بالذهاب إلى عدن، ملتقى التجار الهنود والاغريق والعرب. وقد ترك لنا مؤلف كتاب **الطواف حول البحر الإريثري** (٥٠ - ٦٠م)[٧] وصفاً مجملاً لسوق موزا وهي سوق مخا اليوم إذ قال: «كان يردها من البضائع أنواع الأقمشة الأرجوانية ناعمها وخشنها، وألبسة خيطت على الزي العربي، ذات ألوان قد تكون بسيطة أو عادية أو مطرزة أو موشاة بالذهب والزعفران.... لأن البلاد لا تنتج من الحنطة إلا اليسير إلا أنها تفيض خمراً.... وتصدر حاصلات أرضها: فاخر المر والصمغ المعيني والرخام اللين، وسائر ما أسلفنا القول فيه وذلك من عوباليت (الأُبُلّة) وأقصى الشمال».

بلاد اليمن

بلاد اليمن هي العربية السعيدة المذكورة في كتابات الكلاسيكيين. وقد كانت اليمن بما تستقبله من أمطار شبه موسمية صيفية، وما تجري فيها من أنهار، وبتربتها الخصبة وتنوع التضاريس بها، موطناً لأقدم المدنيات المستقرة في شبه الجزيرة العربية.

وترتبط المدنيات اليمنية بأحوال المطر والجفاف أو بذبذبات المناخ في أجزاء اليمن المختلفة، إذ أن اليمن تنقسم إلى الهضاب المرتفعة من ناحية والسهل الساحلي ووادي حضرموت من ناحية أخرى. ويمكن أن تقسم الهضبة إلى ثلاثة مستويات: الهضبة الداخلية أو الجوف المعيني وتقع في الشمال الشرقي، وهي تقع في ظل المطر الذي يسقط على مرتفعات صنعاء، وعلى ارتفاع ١٢٠٠ متر. هذه المنطقة تقع الآن في نطاق الإقليم شبه الصحراوي. الجوف الجنوبي أو مأرب على مستوى ١٢٠٠ - ٢٠٠٠ متر، وهو أكثر حظاً من المطر الذي يسقط على قمة صنعاء وبقية المرتفعات اليمنية، مما يزيد على ٢٠٠٠٠ متر (صنعاء على ارتفاع ٢٣٠٠متر) وهي تتمتع بالحرارة المعتدلة وبغزارة المطر[٨].

وقد بنيت الآثار معظمها من الكتابات المرقومة على الصخر، تتابع ثلاث فترات من المدنية، كل منها مرتبط بمستوى تضاريسي من المستويات الثلاثة التي ذكرناها. فالمدنية المعينية ترجع إلى حوالي ٨٠٠ق. م، وأهم مراكزها قرناو شمال الجوف. وقد تحطمت هذه المدينة على يد الآشوريين الذين قدموا عن طريق الحجاز، وقد أزاح الآشوريون أمامهم المعينيين حتى استقروا في سهول مأرب. وقد نجا المعينيون من أزمة جفاف المناخ التي حدثت في القرن السابع ق. م التي سببت اضطراب الجو في اليمن، حيث أنهم كانوا يسكنون الهضبة. وأخيرا ظهرت قوة الحميريين في جنوبي اليمن وظلت مأرب عاصمة لهم حتى الغزو الحبشي عام ٥٢٢ - ٥٢٥ق. م.[٩] وهذا الغزو أزاح العاصمة نحو صنعاء، وهذا يتفق مع الجفاف الحاد الذي حدث في أواخر العصر الكلاسيكي.

وتبدو بلاد اليمن وحضرموت في كتابات الكلاسيكيين بلاداً مليئة بخيرات البلاد المدارية، فهي عند استرابون (٢٠م) تنتج المر والبخور والقرفة والبلسم، وهذه نباتات مدارية وطبية. وهذا في حد ذاته دليل على تغيير المناخ، فهذه البلاد الآن لا تنبت إلا الذرة والدخن والسمسم والنخيل.

ولم يكن وادي حضرموت يتمتع بأي ميزة تجعله صالحاً للسكن، بل لقد كان له من اسمه نصيب، فهو وادي الموت، وقد ورد اسمها بهذه الصيغة في سفر التكوين باللغة العربية، ويصفها الجغرافيون الإغريق واللاتين بأنها تنفث السموم، شديدة الرطوبة مرتفعة الحرارة. ولكنها كانت غنية بنباتات مدارية رطبة أهمها البخور، وكانت المصدر الرئيسي للبخور في العالم القديم، حتى حل بها الجفاف في القرن الثالث الميلاديّ، ومن ثم اتجه التجار الإغريق نحو الهند لإحضاره منها، وذلك في وقت اشتد فيه الطلب على هذه السلعة، حيث أن الدولة الرومانية كانت قد اعتنقت المسيحية، التي تحتاج طقوس كنائسها للبخور.

وقد دخل العرب الجنوبيون بأنفسهم في هذه التجارة، وبدأوا البحث عن التوابل والبخور لسد حاجة التجارة الرومانية ابتداءً من القرن الأول الميلادي كما أدى الجفاف الذي حل في ذلك الحين إلى خروج القبائل العربية الجنوبية نحو الساحل الإفريقي الإثيوبي، وكان من أثر ذلك تأسيس دولة أكسوم على يد عرب اليمن*(جـ). كذلك وقعت هجرات جماعية أخرى من عرب الجنوب (القحطانيين) نحو الخليج العربي وشمال شبه الجزيرة، وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

ثانياً: التجارة في شمال شبه الجزيرة

كانت طرق التجارة في شمال شبه الجزيرة العربية تتأثر بعدة عوامل أهمها:

١ - مناطق القوة السياسية، ومن ثم القوة الشرائية في شرقي البحر المتوسط وإيران.

٢ - مدى امتداد النشاط التجاري خلال العصر الإغريقي الروماني والعصر الساساني.

٣ - حالة الأمن في منطقة الهلال الخصيب وتأثرها بتحركات القبائل، أو بمعنى آخر تأثرها بذبذبات المطر في هذا الإقليم.

وقد كان نشاط الإغريق التجاري حتى القرن الرابع الميلادي مقصوراً على شرقي البحر المتوسط، وكان طريق التجارة الرئيسي هو الطريق المعروف بالطريق الملكي الذي يبدأ من أفسوس على الساحل الغربي لآسيا الصغرى إلى بوابة قيليقية، حتى سوريا. وبعد غزوات الإسكندر الأكبر انفتح الإغريق على العالم بأسره، ووصلت التجارة الإغريقية إلى الهند وإلى قلب آسيا. وكانت مملكة بكتريا (عام ٢٥٦ق.م) الإغريقية في وسط

---

* المحرر:

(جـ) لا يعرف بالتحديد من هو مؤسس أكسوم أو مؤسسوها. ولا يجوز أن يُجزَم بأن مؤسسيها هم عرب الجنوب. هذا مع الإقرار التام بالصلات الحضارية الوثيقة بينها وبين اليمن وتأثرها الشديد بحضارة اليمن.

آسيا، تقوم بدور كبير في تنشيط التجارة بين الشرق والغرب، واستمرت التجارة مع الهند حتى بعد سقوط هذه المملكة في يد بعض الجماعات القادمة من الصين في القرن الثاني ق. م. ثم قامت مملكة يونانية أخرى في بارثيا (شمال إيران) هيمنت على جزء من طريق الحرير الكبير.

وقد كان التنافس بين قوة فارس وقوة روما أو بيزنطة لا يقتصر على ميدان القتال فحسب، بل كانت التجارة وبسط النفوذ السياسي من أهم الميادين التي امتدت إليها المنافسة. وقد رأينا كيف توغل النفوذ الإغريقي إلى وسط آسيا، وهدد إيران في عقر دارها. غير أنها عندما استعادت ايران قوتها مرة أخرى وامتدت الممالك الإغريقية المتقدمة في وسط آسيا، وتعاملت مباشرة مع الصين، وبمعنى آخر انحسر المد التجاري البري، بدأت بيزنطة في إحياء طرق الهلال الخصيب وطرق بادية الشام وشمال شبه جزيرة العرب وسيناء.

وقد كانت الصحراء السورية مهيئة بشكل مناسب مناخياً لنشاط طرق التجارة، وكذلك كانت شمال سيناء ومرتفعات مدين وشمال الحجاز. كانت أرض الجزيرة منتجعاً مثالياً للبدو عندما يحل الجفاف في بادية الشام، وكانت القبائل العربية تتبع بعضها بعضاً إلى أرض الاستيبس*(د) التي تصل بين شطري الهلال الخصيب، ولم تكن أرض حَرّان الواقعة بين الفرات ورافده الخابور مطلقاً أرض استقرار. كما كانت عملية نقل التجارة بين شرقي البحر المتوسط والخليج العربي من ناحية، وما بين مدن الساحل السوري عن طريق الواحات التي تقع شرقي جبال لبنان الشرقية وبين اليمن (رحلة الشتاء والصيف) من ناحية أخرى، عملاً مربحاً للعرب شغلهم عن ذبذبات المناخ التي أتت بالجفاف منذ القرنين الأولين للميلاد.

ظلت التجارة إذاً تلعب دوراً رئيسياً في حياة العرب في عصر ما قبل الاسلام، ومع التجارة تتدفق الأفكار ومعالم الحضارة. ومن ثم وجد مركب ثقافي معين على صلة بحضارة فارس وبيزنطة، وعلى إلمام بالديانات المنزلة، والأفكار الدينية المختلفة من يهودية ونصرانية وصابئة ومجوسية. ومن ثم تهيأت بلاد الحجاز لبعثة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

وكان العرب إما تجاراً أو ناقلين للتجارة، أو حماة لمسيرها، وظل هذا الدور الحضاري العربي من نصيب العرب حتى العصر الحديث، ومن ثم قامت عدة مراكز تجارية هامة مثل أورخا على حافة أرض الجزيرة العليا، ونشطت حلب كمركز تجاري على الطريق الملكي الذي يصل أفسوس على بحر إيجة ومدن أعالي العراق. كما كانت تجارة موانيء البحر المتوسط السورية تخترق الفتحات الطبيعية في الجبال السورية، وتصل إلى الواحات التي تحف بهذه الجبال من الشرق، فكانت أنطاكية واللاذقية وطرطوس وطرابلس تتصل عبر الممرات الجبلية بمدن حماة وحمص ودمشق، كما كانت تتصل بها مدن نصيبين وأورفة وماردين من ناحية أخرى.

* المحرر:

(د) كتابة بالعربية لكلمة steppes ولعل الكاتب يقصد (السهوب).

ووجدت ثلاث مدن صحراوية تتوسط طرق التجارة التي تعبر الصحراء، هي تدمر في الشمال والبتراء أوسلع وتيماء في الجنوب. وكانت المنافسة شديدة بين تدمر في الشمال وبين البتراء التي اعتمدت على مواردها المائية الجوفية. وكانت البتراء عاصمة للأنباط، وهم عرب متأغرقون، كانوا يسيطرون على جنوبي فلسطين ومثلث النقب، وازدهرت دولتهم في القرنين السابقين لميلاد المسيح عليه السلام، وكان نفوذهم يمتد إلى غزّة، كما كانوا على اتصال بمدينة رينوكولورا (*Rhinocolura*، العريش)[١٠].

وكان العرب الأنباط ينقلون التجارة من غزة على البحر المتوسط إلى الأُبلّة على الخليج العربي، كما كانت تتوقف قوافلهم في تيماء، وتتصل بتجارة العرب الكبيرة بين الشام واليمن المعروفة برحلة الشتاء والصيف. وقد ساعد على نمو هذه التجارة النشاط الذي دب في التجارة الهندية، في القرن الثاني للميلاد، فأدى هذا إلى ازدهار طريق الأُبلّة البتراء وغزة، إلا أن دولة الأنباط سقطت عندما غزاها الامبراطور الروماني تراجان عام ١٠٦م*[هـ]. فحلت تدمر ودمشق مرة أخرى محل كل من البتراء وتيماء، كما أن الحيرة وباتنا ورثتا شراكس و**أبولوجوس** (الأُبلّة)*[و]، كمركز التقاء سفن البحر بقوافل البر.

وأدى جفاف شمال الجزيرة العربية إلى تحرك طرق القوافل بين البحر المتوسط والخليج العربي نحو الشمال حيث قامت دولة الغساسنة ودولة اللخميين بوصفهما دولتي صدام بين الفرس وبيزنطة، وحلتا محل دولة الأنباط.

ثالثاً: تجارة الخليج العربي

كان الخليج العربي ميداناً رائعاً للملاحة بين جنوب غرب آسيا والشرق الأقصى، لاسيما وأنه كان مدرسة قديمة للملاحة، بسبب وجود مصايد اللؤلؤ فيه واعتماد أهله على البحر. وكان النشاط البحري الكبير للخليج في العصر السابق للاسلام مباشرة، تمده تقاليد بحرية عريقة. ويرجع المؤرخون هذا النشاط البحري إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، منذ أيام الحضارة السومرية، وقد وجدت آثار عصر ما قبل الأسرات في مصر، ما يدل على قيام الاتصال البحري بين الخليج العربي والبحر الأحمر منذ أكثر من سبعة آلاف عام[١١].

وقد اشتغل أهل الخليج بتجارة البخور والتوابل واللؤلؤ منذ أقدم العصور. ولكن هذه التجارة كانت تتأثر بالظروف الدولية المحيطة بالخليج. ففي عصر الفرس الأخمينيين انتكست تلك التجارة، لأن الأخمينيين كانوا

---

* **المحرر:**

(هـ) في عام ١٠٦م حول الامبراطور تراجان دولة الأنباط إلى ولاية رومانية باسم الولاية العربية (*Arabia Provincia*).

(و) كذا بالأصل ولا يمكن أن ترث الحيرة مركز الأُبلّة في استقبال سفن البحر، لأن الأُبلّة تقع على فم الخليج بينما تقع الحيرة على الفرات في داخل البلاد على مسافة لا تقل عن ٣٠٠ كيلومتر من فم الخليج ثم إن الأُبلّة بقيت عامرة حتى الفتح الاسلامي.

أصحاب امبراطورية كبيرة تدخل فيها المنطقة الممتدة من الهند إلى مصر، وهم عملوا على تنشيط الطرق البرية، كما أن أمراء الفرس في شمال إيران كانت لهم مصلحة في تنمية طرق التجارة بين الصين ووسط آسيا من ناحية، وبيزنطة من ناحية أخرى[١٢].

هذا وقد تأثرت تجارة الخليج العربي بحالة العراق السياسية، فطالما كان العراق ميداناً للقتال بين سكان هضبة إيران وسكان شبه جزيرة العرب وطالما كانت هضاب إيران مبدأ للقبائل الرعوية الفائضة في استبس*[ز] تركستان، عرقل ذلك نمو المدن التجارية على الفرات*[ح]. غير أن زمام القوة كان في يد الشعوب الساميّة ما يقرب من ألفي عام قبل أن ينتقل إلى يد فارس. وقد استطاعت فارس أن تتغلغل ثقافياً وسياسياً في بلاد العرب، كما كان للفرس تجارة رابحة تركت أثرها في نفوس جميع العرب حتى بلاد اليمن. ويدل العثور على نقود فارسية ترجع إلى القرن الثالث ق. م[١٣] في اليمن على هذا الأثر التجاري. وفضلاً عن ذلك امتد النفوذ السياسي الفارسي إلى اليمن فظل قائماً حتى دخل عاملهم عليها في الدين الإسلامي.

وكان لعملية الإرساب التي يقوم بها روافد نهر دجلة لروم رأس الخليج العربي سبباً في نشأة عدد من الموانىء، بعضها يتلو البعض الآخر، فكلما انحسر الخليج أوزادت الرواسب لحقته ميناء، فقامت أور، والوركاء، والأُبُلّة والبصرة القديمة وعبادان والمحمرة والبصرة الحديثة، وكذا كان رأس الخليج وهو حافة الصحراء في نفس الوقت دائماً موضعاً لقيام ثغر بحري صحراوي ومستودع لتجارة الشرق والغرب[١٤].

غير أن الخليج العربي كان يعاني من منافسة البحر الأحمر له كطريق للتجارة، إذ أن المصريين والإغريق والسوريين والفينيقيين، اهتموا بتجارة البحر الأحمر كطريق من طرق التجارة مع الجزيرة العربية، ونشط الأنباط في نقل تجارة الحجاز واليمن. ولم يستعد الخليج العربي نشاطه إلا بعد قيام الدولة الساسانية (حوالي ٢٢٥ ـ ٢٢٦م)، والأسرة الساسانية جاءت من جنوب غرب إيران، وهذه كانت على دراية بالحياة البحرية في الخليج، فبنوا أسطولاً قوياً وأعادوا الأمن إلى الخليج وقضوا على القرصنة وحولوه إلى بحيرة فارسية، وأصبحت التجارة وصيد اللؤلؤ فيه مأمونين. ومن هنا يبدأ عهد طويل من التعاون العربي ـ الفارسي من أجل الحصول على جزء من تجارة الشرق والغرب ومنافسة البحر الأحمر فيها.

وقد تجسد التنافس بين الذراعين البحريين الكبيرين في التنافس بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على التجارة. فبينما أنشأ البطالمة خطاً شبه منتظم للتجارة بين خليج عدن وشرقي البحر المتوسط، نشط هذا الطريق بعد

*** المحرر:**

(ز) أنظر (د) أعلاه.

(ح) كذا، بالأصل، وقد فات الكاتب أن معظم المراكز التجارية والحضارية في جنوب العراق، كانت تقع على الفرات بدءاً بمدينة أور وبابل والوركاء ثم الحيرة وهي التي ذكرها هو في الاسطر التالية، علماً بأن أور والوركاء لا علاقة لهما بنهر دجلة.

اكتشاف استخدام الرياح الموسمية، حوالي منتصف القرن الأول الميلادى، إذ بعرب الخليج يصلون إلى الصين حوالي عام ١١٦م. وكان هؤلاء العرب هم أول من أنشأ علاقات تجارية مباشرة مع الامبراطورية الصينية. وكان الصينيون في الوقت نفسه يعملون على اكتشاف الغرب، فتلاقى الشعبان العربي والصيني، وبدءا عصراً من النشاط التجاري المزدهر، فشارك عرب عُمان والحسا والبحرين قرب نهاية العصر الجاهلي مشاركة فعالة في التجارة مع الشرق الأقصى[١٥].

ويتحدث الكتاب العرب عن وصول التجارة الصينية إلى ميناء الحيرة القديمة بالقرب من كربلاء، على الفرات في وقت ليس من السهل تحديده ولكنه لا يمكن أن يكون متأخراً عن القرن السادس الميلادي. ويتحدث المسعودي (في القرن العاشر الميلادي) عن تغيير مجرى نهر الفرات في بلاد بابل بقوله: «كان النهر يمر بالقرب من الحيرة ولا يزال مجراه باقياً حتى الآن واسمه العتيق، وعليه كانت موقعة القادسية بين الفرس والعرب (٦٣٢م). وكان النهر يصب في المستنقعات حتى يصل إلى الخليج ومن ثم إلى بحر العرب. وكان يصل إلى مكان النجف الحالية وكانت سفن الصين والهند تصل إلى ملوك الحيرة»[١٦].

لقد كان الخليج العربي طريقاً هاماً لتجارة الصين والهند التي كانت تحملها بعدئذٍ السفن صاعدة في الفرات حتى تقترب من البحر المتوسط. ومن ثم كان قيام طريق الهلال الخصيب التجاري الكبير، ونشأة مدن تجارية كانت بمثابة المستودعات الضخمة بين بيزنطة ودولة الساسانيين، وأشهر هذه المدن هي حلب في الشمال والحيرة في الجنوب، وقد سبقت الحيرة مدينة البصرة كما أنها حلت محل مدينة أقدم منها كانت مزدهرة في القرن الرابع الميلادي اسمها **باكناي** *(Bacnae)*. وقبل الاسلام مباشرة ذوت الحيرة بسبب الحروب بين بيزنطة وفارس واضطراب القبائل العربية على حدود الهلال الخصيب. يضاف إلى هذا تغير مجرى نهر الفرات الذي كان يترك الموانىء القديمة موزعة في حافة الصحراء. ويذكر المسعودي فيضان دجلة الكبير*[ط] عام **٩٢٥م**[١٧]. وحلت سيراف ومسقط محل موانىء دجلة والفرات، ومنها كانت القوارب تنقل البضائع إلى القطيف التي بدأت منذ القرن السابع الميلادي تأخذ مكانتها كمنفذ لتجارة نجد ومكة*[ي]. أصبح طريق جرها وسط نجد، مكة وشمال الحجاز بديلاً عن طريق بابل[١٨] عَبْر الصحراء السورية غير أن ميداناً آخر كان أشد اجتذاباً لهم، ألا وهو شرق إفريقيا، إذ كان ساحل شرق افريقيا وجزره بما في ذلك جزيرة مدغشقر وبلاد الزنج كلها ميداناً لتجارة الخليج وساحل حضرموت. وكانت هذه البلاد مصدراً لتجارة التوابل والرقيق، وقام بهذه التجارة العرب والفرس معاً. وقد وصلت هذه التجارة ذروتها في الفترة ما بين القرن الرابع إلى الثالث عشر الميلادي، أي قبل الإسلام. وما بعده، إلى حدود بيزنطة. وقد استمرت التجارة الصينية والإفريقية بعد ظهور الإسلام[١٩].

*** المحرر:**

(ط) كذا بالأصل، ولم يذكر الكاتب صلة فيضان دجلة عام **٩٢٥م** بتغيير مجرى الفرات الذي يتحدث عنه وعن أثره على مكانة الموانىء الواقعة عليه.

(ي) كذا بالأصل، ولم يذكر الكاتب مصدره القائل بأن «القطيف منفذ لتجارة مكة»، وهو أمر مستبعد، إذ المعروف أن منفذ مكة التجاري هو ميناء «الشعيبة» الواقع جنوبي جدة، ثم حلت جدة محلها بعد ظهور الاسلام، أي في القرن السابع الميلادي.

الهــوامش

(١) Herodotus, XVI: 4, 23.

(٢) Diodorus Siculus, *Bibliotheca Historica*, II: 1, 35; 49, 2 - 3.

(٣) *Op. cit.*, 4, 25.

(٤) *Op. cit.*, 7, 31.

(٥) انظر فيما يتعلق بآراء هنتينجتون عن ذبذبة المناخ وأثره في التاريخ على سبيل المثال:
E. Huntington, *The Pulse of Asia* (New York, 1912); *The Mainsprings of Civilisation* (New York, 1945); *Palestine and its Transformation* (1910); and S.S. Visher, *Climatic Changes, their Nature and Causes* (New Haven, 1922).

(٦) Charlesworth, *Trade and Commerce of the Roman Empire* (Cambridge, 1924).

(٧) في الترجمة الانجليزية W.H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea* (New York, 1912), 20.

(٨) S. Huzayyin, *Arabia and the Far East* (Cairo, 1942).

(٩) Helprecht, *Exploration in Bible Lands during the XIVth. Century* (Edinburgh, 1905), 727 - 72; «Arabia» in *Encyclopaedia of Islam* I (1913), 377 - 380; D. O' Leary, *Arabia before Mohammed*, 80 - 103.

(١٠) M.S Ghallab, *The Inter-relations between the Judaea Plateau and the Maritime Plain of Palestine* (Unpublished Thesis). (Manchester, 1949). وأيضاً «الجغرافيا الطبيعية لاقليم النجب»، **مجلة الجمعية الجغرافية المصرية** (١٩٥٦م).

(١١) E.J. Baumgartel, *The Cultures of Pre-historic Egypt* (Oxford, 1955).

(١٢) J.T. Renaud, «Memoire sur le commencement et la fin du royaume de la Mesène et de la Kharasène et sur l'époque de la redaction du periple de la mer Erythrée», *Journal Asiatique* VI (1861), 161 - 262.

(١٣) G.F. Hill, «The Ancient Coinage of Southern Arabia», *Proceedings of the British Academy* 10 (1915), 82 - 83.

(١٤) S.A. Huzayyin, «Les Villes septentrionelle de l'Orient Arabe, distribution Géographiques», في **كلية الآداب** (الجامعة المصرية) مجلد ٢، جـ١ (١٩٣٦م)، ص ص ١٧٠ - ١٧٥.
R. Turner, *The Great Cultural Traditions* (New York - London 1941), 1, 131 - 135.

(١٥) أنظر S.A, Huzayyin, *Arabia and the Far East* (Cairo, 1942)

(١٦) المسعودي، **مروج الذهب**، جـ١، ص ص ٢١٥ - ٢١٦. R. Turner, *op. cit.*

(١٧) المسعودي، **المصدر نفسه**، ص ص ٢٢٤ - ٢٢٦.

(١٨) E.L. Monroe «Arabia from Incense to Oil», *Dara* 2nd. year (Riyadh, March 1967), 8 - 28.

(١٩) فيما يتعلق بتجارة العرب مع شرق افريقيا انظر فضلو حوراني، **العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى** (ترجمة السيد يعقوب بكر. فرانكلين ـ الانجلو مصرية، ١٩٥٨م).

تجارة الجزيرة العربية مع مصر
في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني

مصطفى كمال عبدالعليم

كانت الجـزيـرة العـربيـة تحتـل في العـالم القـديم مكانة خاصة في مجال انتاج المواد العطرية من بخور وطيوب وأفاويه. وكانت من ناحية أخرى تصدر ما يرد إليها من إنتاج غيرها من البلاد مثل الهند.

وقـد زاد الاهتـمام بالجـزيرة العربية منذ أن قام الاسكندر الأكبر بغزواته في الشرق. وكان الاسكندر نفسه قد أدرك أهمية البحار المحيطة بامبراطوريته، وأنه من الأهمية بمكان الربط فيما بينها بحيث يتصل المحيط الهندي وبحر العرب عن طريق البحر الأحمر بالبحر المتوسط.

وكان من الطبيعي أن يهتم الاسكندر تبعاً لذلك بالتعرف إلى الجزيرة العربية واستكشاف سواحلها الجنوبية والخليج العربي. ومن الصعب الظن بأن الاسكندر أسقط من حسابه الاعتبارات الاقتصادية التي أملت عليه أيضا الاهتمام بأمر الجزيرة العربية. بل أنه عزي إليه اهتمامه الشخصي بالمواد العطرية والأرض التي تنتجها.

وإذا كان الاغريق قد عرفوا قبل عصر الاسكندر بعض المعلومات من جغرافييهم ومؤرخيهم، وخاصة هيرودوت[١]، عن الجـزيـرة العـربيـة وعن المـواد العطـريـة، فإنهم بلا شك اكتسبـوا، بفضـل جهـود علماء مكتبـة الاسكنـدريـة ومؤلفيهـا وتجـار الاسكندرية، معرفة أوسع وأكثر شمولاً عن تلك المنطقة من العالم، والتي منها كانت تأتيهم هذه المواد العطرية والتي شكلت جانباً أساسياً في تجارة العصر الهلينستي[٢].

وكـانت السفن التجـاريـة التي كانت تأتي إلى موانىء السـاحـل الغربي للجزيرة العربية وبخاصة اليمن لا تستطيع تجاوز مضيق باب المندب جنوباً. ولذلك اقتصرت المعلومات التي توافرت لدى ربابنتها على مناطق محدودة من الجـزيـرة العـربيـة. وما كانت هذه المعلومات المتيسرة لترضي ملوك مصر البطالمة الذين انتهجوا سياسة اقتصادية قوامهـا تجارة خارجيـة تزداد نجـاحـا إذا حقق هؤلاء الملوك هدفـاً فشل في تحقيقه فراعنة مصر، وهو أن تصل سفنهم مباشرة إلى الهند وما وراءها. ويتخلصون بذلك من الخضوع للوسطاء في جنوب الجزيرة العربية، الذين احتكروا لأنفسهم التجـارة في المـواد العطـريـة التي تنتجها الجزيرة العربية أو التي تأتي إليها من الهند وغيرها. لذلك كان من الطبيعي أن يشجـع ملوك البطـالمـة دوائر الاسكندرية العلمية والعاملين في حقلي الكشف الجغرافي والتجارة البحرية على بذل المزيد من الجهد حتى ينفتح الطريق الملاحي المباشر إلى الهند أمام السفن البطلمية[٣].

وكـانت معلومـات علماء مكتبـة الاسكنـدرية وما حفظته تلك المكتبة من تقارير ربابنة السفن والتجار لا تكاد تتجـاوز منطقـة حضـرمـوت التي أشـار إليهـا إراتوسثينيس (٢٧٣ - ١٩٢ق. م) اشارة موجزة مما يدل على أنها كانت

معلومات مصدرها روايات كان يتناقلها تجار وملاحون اعتادوا سماعها من تجار وعرب وهنود كانوا يلتقون بهم في موانىء اليمن السعيدة[٤].

وكان فراعنة مصر يطلقون على أرض اليمن وما يقابلها من شواطىء أفريقيا عبر البحر الأحمر اسم أرض **بونت***[أ] واسم الأرض المقدسة إذ كان يأتيهم منها البخور الذي يحرقونه في معابدهم أو يقدمونه قرابين لآلهتهم[٥]. وكذلك استمرت لهذه المنطقة أهميتها في العصر الهلينستي وأصبحت تعرف باسم أرض المواد العطرية من بخور وغيره *(Aromataphoros Chora)*[٦]. ونعرف من المصادر الاغريقية أن البخور والطيوب والأفاويه كانت تتجمع في أرض سبأ، وتعبر أرض معين وتمر بيثرب وددان (العلا) والحجر وتيماء ثم أيلة على خليج العقبة حيث ينقلها الأنباط إلى عاصمتهم البتراء. ومن هذه المدينة يخرج طريق إلى غزة أو إلى أرسينوي (السويس). ومن غزة يتجه طريق آخر شمالاً إلى موانىء فينيقيا التي كانت جزءا من اقليم سوريا المجوفة *(Coele-Syria)*. وكانت فلسطين أيضا أحد مناطق هذا الاقليم. وقد أدرك البطالمة الأوائل أهمية هذا الاقليم الاقتصادية والاستراتيجية، وقاوموا محاولة السلوقيين استعادته، وترتب على ذلك سلسلة من الحروب بين الأسرتين عرفت باسم الحروب السورية[٧].

وأثناء فترة احتفاظ البطالمة بإقليم جوف سوريا، ولأهمية المواد العطرية في تجارة مصر الخارجية أقاموا في غزة التي كان استرابون يسميها رأس طريق البخور موظفا لقبه المشرف على ادارة البخور *(ho epi tês libanotikes)*[٨].

وكان على البطالمة أيضا مواجهة الأنباط الذين كانوا بحكم موقعهم حول خليج العقبة حريصين على ألاّ تفلت من أيديهم التجارة العربية التي كانت تأتي إلى عاصمتهم. ولم يتردد الأنباط الأقوياء في تحدي سفن البطالمة ومهاجمتها. وقد أعد الملك بطلميوس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٦ق. م) سفنا حربية خاصة لوقف إغارات الأنباط على سفنه. واهتم باخضاع أدوميا وشرق الأردن لتأمين التجارة العربية التي كانت تمر **بفيلادلفيا** (عمّان)، وتذهب منها إلى ميناء **بطلميوس** (عكّا) على شاطىء فينيقيا. إلى جانب ذلك اهتم الملك بطلميوس الثاني بحفر قناة تربط النيل بالبحر الأحمر، وأنشأ عددا من الموانىء على الساحل المصري لذلك البحر. وليمعن في إحكام مواجهته للأنباط أوعز إلى إغريق من مدينة **ميلينوس**، الواقعة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، بتأسيس مستوطنة باسم **أمبيلوني** على الشاطىء العربي في أرض لحيان. وكان بطلميوس قد وثق علاقات الصداقة مع اللحيانيين ثم المعينيين والتي كانت إلى مدينتهم ددان تنتهي طرق التجارة القادمة من جنوب الجزيرة. ولم تكن هذه القوى العربية في شمال الحجاز لتسلم بمنافسة الأنباط لها في هذه التجارة، لذلك تعاونت مع الملك البطلمي وربطت مدينتها ددان بمستوطنة أمبيلوني لتنقل منها السلع العربية الثمينة مباشرة إلى ميناء **ميوس هرموس** البطلمي دون المرور بأرض الأنباط الذين كانوا يفرضون عليها ضرائب عالية قبل خروجها من البتراء. ولابد أن يكون البطالمة قد نشطوا علاقاتهم الاقتصادية المتسمة بالود مع دولة سبأ في جنوب شبه الجزيرة. وقد عثر في الجيزة بمصر على نقش بالخط المعيني كتبه تاجر معيني اسمه زيد إيل بن زيد، من عهد الملك بطلميوس الثاني، والذي كان قد

*** المحرر:**

(أ) انظر ص ٢٥٤ تعليق المحرر رقم (ز).

أصبح كاهناً في أحد المعابد المصرية. وقد قام هذا التاجر الكاهن باستيراد كميات من المر والبخور بسفينة كان يمتلكها مقابل نوع من المنسوجات كانت تصنع في معبده. وإذا كان قد ورد في البردي البطلمي ذكر اللبان المعيني فإن ذلك يعني أنه جاء فيما يرجح عن طريق ددان(٩).

ولا شك أن سياسة بطلميوس الثاني التجارية المدعمة بالقوة العسكرية أحيانا وبالجهود العلمية في مجال الكشف الجغرافي وإنشاء الموانىء أتت أكلها، فظهرت المواد العطرية إلى جانب سلع أخرى في موكب الاحتفال الذي نظمه الملك في الاسكندرية في عام ٢٧٤ ق.م. بمناسبة عيد **البطوليميايا**. فقد ذكر أثينايوس الذي أورد وصفاً كاملاً لهذا الاحتفال نقلا عن كالكينوس: «.... وكان بعض الغلمان ينثرون العطور على النظارة... وجمال حُمِّل بعضها ثلثمائة رطل من اللبان ومائة رطل من المر ومائتي رطل من الزعفران والقاسيا والقرفة والسوس وكل أنواع التوابل والأفاويه...»(١٠) وكتب ثيوقريطس يمدح بطلميوس الثاني «.... شيد المعابد وملأها بألوان من الطيب الزكي والبخور العطر....»(١١).

وبعد أن فقد البطالمة ممتلكاتهم في بحر إيجة في القرن الثاني ق.م، وجهوا اهتمامهم إلى البحر الأحمر والتجارة مع الجزيرة العربية، ونجحوا نتيجة لجهود مكثفة من التعرف إلى الطريق المباشر إلى الهند دون التوقف في أرض اليمن، وذلك بفضل ما وفق إليه هيبالوس من معرفته سر الرياح الموسمية حوالي عام ١١٦ ق.م. ووصل فريق من ملاحي الاسكندرية إلى جزيرة سوقطرة، وأطلقوا عليها اسم جزيرة الأخوين *(Dioscridou Nesos)* ولعلهم استقروا بالجزيرة، واختلطوا بسكانها، ووصلت سفن البطالمة أيضا إلى أكيلا في عُمَان، وهو الميناء الذي تبحر منه السفن إلى الهند. ونعرف ان الدولة على عهد بطلميوس أوليتيس وفرت حوالي عام ٦٥ ق.م. الحماية العسكرية لسفنها المبحرة في المحيط الهندي. وظهر، فضلا عن ذلك، في النقوش موظف يحمل لقب «حاكم طيبة والمشرف على البحر الأحمر والمحيط الهندي».

وواضح أن هذا الموظف كان مكلفاً(١٢) بمراعاة مصالح البطالمة في التجارة القادمة عبر هذين البحرين، وبخاصة فيما يتصل بالمواد العطرية التي حرص البطالمة على جلبها إلى مصر، والتي تزايد الاقبال عليها لاستخدامها في شتى الأغراض الدينية والحياة اليومية.

ونعرف من برديات العصر البطلمي(١٣) الكثير عن هذه المواد وأنواعها وأسمائها، سواء أكانت في حالتها الخام في شكل بخور أو توابل أو مصنعة في شكل عطور ودهون. كما وأن البطالمة كانوا يعيدون تصدير جانب منها كتجارة **ترانسيت** أو بعد تصنيعها في مصانع الاسكندرية.

وعلى سبيل المثال نقرأ في احدى البرديات المؤرخة في عام ١١٢ ق.م(١٤)، وهي عبارة عن قائمة حسابات عن بخور *(hymiama)* ومر، وفي قائمة بمحتويات أحد المخازن الخاصة بوزير مالية الملك بطلميوس الثاني، استوردت من سوريا يرد ذكر أربع وزنات من اللبان المعينى وخمس وزنات من اللبان الجرهائي ووزنة من المر وعدة مكاييل من القاسيا وكميات غير معروفة من العطور وكميات من القرفة(١٥). وفي وصفة طبية ذكر البلسم(١٦). ونجد

إشارات في بعض البرديات إلى استخدام كميات كبيرة من المر في الأغراض الدينية المتصلة بالمعابد أو في أعمال الدفن[١٧].

وقد فرض البطالمة على المواد العطرية لدى دخولها إلى موانىء مصر مكوسا جمركية مرتفعة. والمعروف أن المراكز الجمركية انتشرت في الموانىء المصرية في البحر الأحمر والبحر المتوسط. وقد وقف استرابون بنفسه على عمل الجمارك ولاحظ أنه كانت تحصل بها رسوم جمركية مزدوجة عند دخول هذه السلع إلى الموانىء *(eisagogika)* ورسوم أخرى عند خروجها منها *(exagogika)*. وهذا ما كان يحدث في الاسكندرية وبلوزيوم[١٨].

وقد لاحظ استرابون ارتفاع قيمة الرسوم الجمركية لأنها كانت تحدد بالنسبة لقيمة السلع المستوردة *(ad valorem)*. وحقيقة أن استرابون كان يكتب عن مصر في أول عهدها بالاحتلال الروماني عام ٣٠ ق. م، بعد سقوط حكم البطالمة. ولكن ما كان سائدا في أيام البطالمة استمر فيما يرجح في الفترة الأولى من حكم الرومان لمصر[١٩].

كان كل من ميناء برينيكي وميناء ميوس هرموس على البحر الأحمر تستقبل السفن القادمة من الجزيرة العربية والمحملة بالسلع التي كان من بينها المواد العطرية. وعن طريق الطرق التي تربط النيل بالبحر الأحمر تنقل السلع إلى موانىء النهر. ففي الجنوب ميناء عند أسوان، وحيث يوجد به مركز جمركي وفي الدلتا بالقرب من الاسكندرية جمرك عند شديا. وعند مصبات فروع الدلتا موانىء أخرى. وكانت قيمة الضريبة الجمركية تقدر بربع قيمة المواد المستوردة. ولكن عند تصديرها كانت تفرض عليها ضريبة نجهل قيمتها. وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك رسوم أخرى تحصل مقابل نقل السلع الشرقية على الطرق والقنوات[٢٠].

وداخل مصر كانت المراكز المدعمة بقوة عسكرية موزعة بعناية على النيل كما نفهم من الوثائق البردية. فإلى جانب المركزين اللذين سبق ذكرهما، كان هناك مركز جمركي عند هرموبوليس التي تقع عند نهاية الاقليم الطيبي وبداية مصر الوسطى، وكان هناك مركز جمركي آخر عند هرمونثيس، ومركز ثالث في إقليم طيبة، ومركز رابع عند قفط، وكان يستقبل القوافل القادمة عبر الصحراء من ساحل البحر الأحمر، ومراكز أخرى في مناطق كثيرة بإقليم الفيوم. ويمكن أن نتصور أن سفينة قادمة من الجزيرة العربية إلى ساحل البحر الأحمر وتنزل حمولتها في ميناء برينيكي فيدفع عن هذه الحمولة ضريبة الربع. ويدفع أيضا رسوم مقابلة حراسة القافلة التي تنقلها عبر الصحراء إلى جانب ضريبة ٢٪ عند أسوان أو قفط ومثلها في هرموبوليس، ثم ضريبة أخرى عند وصولها إلى أرسينوي عاصمة مديرية الفيوم[٢١].

ومعنى ذلك أن البطالمة كانوا يحصلون على أرباح طائلة من التجارة في المواد العطرية. ولذلك كان من الطبيعي أن يتخذوا إجراءات معينة ليضمنوا تحكما دقيقا في تداول تلك المواد حتى قبل دخولها إلى موانىء مصر. وقد سبق الاشارة إلى الموظف المكلف بالاشراف على تجارة المواد العطرية *(....epi tês libanotikes)*، والذي كان مقره غزة فيما يرجح، وذلك في الفترة التي كانت فيها منطقة جوف سوريا تحت سيطرة البطالمة. وسبقت الإشارة أيضا

إلى أن حاكم الاقليم الطيبي في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الأول ق.م . ، كان يشرف على البحرين الأحمر والهندي . وفي وثيقة بردية من عام ١٣٠ ق.م . نقرأ بوضوح أن حاكم طيبة عين موظفا مهمته الاشراف على المحاجر وحماية القوافل القادمة من تلال قفط ، والتي تحمل شحنات من المواد العطرية *(libanotika phortia)* (٢٢) .

واضح إذاً دخول هذه السلع إلى مصر، سواء أكان ذلك عن طريق جنوب سوريا أو عن طريق موانىء البحر الأحمر، كان يخضع لإشراف دقيق من الدولة . وهذا يعني أن المواد العطرية بعد دخولها الموانىء كانت تخضع لما خضعت له سائر احتكارات الملك الأخرى . وسنتبين أن التجارة في هذه المواد ستصبح احتكاراً ملكياً . وهذا يجعلنا نتساءل عن علاقة مستوردي هذه المواد بالدولة (؟) .

تتحدث بردية من عصر الملك بطلميوس إيوارجيتيس الثاني وتعود إلى عام ١٤٦ ق.م . عن خمسة من أصحاب السفن *(naukleroi)* ، ولعلهم كانوا شركاء في ملكية سفينة ، أرادوا أن يبحروا بها إلى أرض البخور *(Aromataphoros Chora)* ، واقترضوا من مدير أحد البنوك في الاسكندرية مبلغا من المال . وكانت مدة القرض عاماً واحداً . والتزموا بسداد القرض في الموعد المحدد وإلا فإنهم يغرمون غرامة مقدارها خمسون في المئة من قيمته . والمهلة المعطاة لسداد الدين معقولة ، لأن الرحلة من ميناء ميوس هرموس إلى جنوب الجزيرة العربية والعودة كانت تستغرق ستة أشهر أو سبعة(٢٣) .

وقد سبقت الإشارة إلى زيد إيل بن زيد التاجر المعيني الكاهن في معبد مصري ، وأنه كان يمتلك سفينة خاصة كان ينقل بها البخور والمواد العطرية من الجزيرة العربية إلى ساحل البحر الأحمر، ويستبدلها بالنسيج الذي كان ينتجه معبده .

وقد ينهض هذان الشاهدان دليلا على أن استيراد المواد العطرية كانت عملية حرة متروكة للأفراد . ولكن كان على هؤلاء أن يدفعوا ضرائب جمركية عالية عند وصول هذه السلع إلى الموانىء المصرية ، فتكون هذه الضرائب مبلغا تحصل عليه الدولة مقابل السماح بدخول هذه السلع إلى مصر .

ونورد قصة إيودوكسوس، وكان من مواطني مدينة كيزيكوس (على بحر مرمرة)، الذي قدم إلى الاسكندرية على عهد الملك بطلميوس إيوارجيتيس الثاني الذي كان يطمع في أن تصل السفن البطلمية إلى المحيط الهندي . وقد حدث أن ألقت الأمواج على شاطىء البحر الأحمر بأحد الهنود، الذي وعد، بعد أن تعلم الإغريقية، بأن يدل البحارة البطالمة على الطريق إلى الهند . وكان هذا الهندي دليل حملة صحبته إلى الهند . وكان إيودوكسوس من بين أفرادها . ونجحت الحملة في مهمتها وعاد إيودوكسوس إلى مصر بشحنة من السلع الثمينة شملت الطيوب والأفاويه والأحجار الكريمة . ولكن الملك سلبه شحنته . وقام إيودوكسوس برحلة ثانية إلى الهند مكلفاً من الملكة كليوباترة التي خلفت إيوارجيتيس، ولكن عند عودته إلى الاسكندرية سلبت منه شحنته مما أثار دهشته من هذا التصرف . ونحن ندهش لدهشته اللهم إلا إذا كان يجهل أن هذه السلع تخضع للاحتكار الملكي(٢٤) .

على أي حال فإن المواد العطرية بعد أن تدخل إلى مصر كانت تحمل إلى الاسكندرية، فيودع جانب منها في المخازن الملكية، ويسلم إلى المصانع الملكية كمية منها وربما كان يعطى للمعابد نصيب منها. ومن المخازن الملكية كانت الدولة تعيد تصدير بعض المختزن وتربح خزانة الملك ضريبة التصدير التي كانت تفرض على تجارة الترانسيت. ويصنع في مصانع الملك العطور والدهون والأدوية التي تدخل في تركيبها المواد العطرية. وقد يكون من الطريف أن نشير إلى أنه في عهد الحكم الروماني، فيما روى المؤرخ بلينيوس، وربما كان ذلك سائدا أيضا في عصر البطالمة، كانت تفرض رقابة مشددة على مصانع العطور الامبراطورية في الاسكندرية. ويفتش العمال لدى خروجهم من المصنع تفتيشاً دقيقاً حتى لا تتسرب ولو كمية ضئيلة من هذه المواد. وكانت المصانع تحت إشراف موظف مسئول[٢٥].

ومن المثير حقاً أن نقرأ في برديات زينون وكيل أبوللونيوس وزير مالية بطلميوس الثاني عن أواني العطور والدهون *(hinia)*، والتي تختم بختم يكون علامة على ضمان صحة الكمية التي بالإناء وجودته[٢٦] ويحمل عبارة *(libanon asphrarismenon)* أو عبارة *(smyrnes asphragismenes)*. ويذكر برومونيون مدير أحد البنوك في مدينة منديس، المدينة المشهورة في العالم الإغريقي بجودة عطورها، في رسالة إلى زينون أنه يرسل إليه عشر أوان *(hini)* من الألباستر والتي ختمها بخاتمه الخاص[٢٧].

أما عن تداول المواد العطرية[٢٨] في داخل مصر فإننا نستند إلى بعض البرديات التي توضح كيف كان يتم بيع هذه المواد.

بردية محفوظة بجامعة السربون[٢٩] يعود تاريخها إلى عام ٢٤٧ ق. م.، وهي عبارة عن رسالة صادرة من كريسيلاوس، الذي كان يعمل وكيلا لوزير المالية، إلى أرثيمادوروس (ويبدو أنه كان الملتزم) والذي كان مسئولا عن تحصيل الضريبة المفروضة على بيع العطور، يخبره أنه أرسل إلى قرية في مديرية هراقليوبوليس شحنة من البخور *(libanotika phortia)* ومعها شخص ليحصل الثمن. ولكن ارثيما دوروس اعترض على مهمته بحجة أنه، أي ارثيمادوروس، هو الذي يجب أن يتسلم الثمن. ويتعجب كريسيلاوس من هذا التصرف فيبعث بشخصين آخرين وكلفهما بتنظيم البيع وإجبار تجار التجزئة الذين تسلموا كميات من البخور أن يدفعوا ضريبة الربع *(tetarte ton myron)* على المواد العطرية.

البردية الثانية ترجع إلى عام ٢٤٨ ق. م. وهي مثل البردية السابقة وإن كانت من إقليم آخر يتضح منها إصرار الدولة على تحصيل ضريبة الربع تحت إشراف مباشر من موظفيها[٣٠]. وهاتان البرديتان تذكراننا بالاجراءات التي كانت تطبقها الدولة بمقتضى نظام احتكار بيع الزيت، إذ كانت تخصص لكل قرية كمية منه، وتحدد سعر بيع الجملة وسعر بيع التجزئة، ويودع في البنك الملكي ثمن البيع مضافاً إليه ضريبة الربع، وبعد ذلك يجري توزيع الأنصبة، فيكون للملك نصيبه مضافاً إليه الضريبة، ويكون للملتزم نصيبه وكذلك يحصل التجار على أنصبتهم[٣١]. ويبدو في البردية الأولى أن أرثيمادوروس كان يتعجل الحصول على نصيبه دون انتظار الانتهاء من كل هذه الاجراءات.

وثمة بردية طريفة جاءت أكثر تفصيلاً بالنسبة لأسعار المواد العطرية في أحد أقسام مديرية الفيوم وتكاليف النقل وتشترط التعليمات التي تضمنتها عدم إلزام المشتري بدفع أكثر مما هو مطلوب ويكون البيع من خلال موظفي الدولة وخصوصاً المسئولين عن شؤون الأمن والقائمين بأعمال الشرطة المحلية. ونجد شبهاً لذلك في طريقة بيع الزيت الذي كانت الدولة، كما أسلفنا، تحتكره كذلك. ومن المهم مراجعة هذه البرديات في ضوء بردية قوانين الدخل[٣٢] التي تعود إلى عصر الملك بطلميوس الثاني مما تضمنته من تعليمات تخص احتكار الدولة لانتاج الزيت وطريقة بيعه حتى يطمئن الباحث إلى أن الملوك البطالمة احتكروا صناعة العطور والمنتجات العطرية واتبعوا بشأن إنتاجها وبيعها نفس الطريقة التي اتبعوها تقريباً في احتكارهم لتجارة الزيت، مع ملاحظة أن الذين كانوا يبيعون العطور وما شاكلها إنما كانوا يمارسون عملهم بتصريح خاص من الدولة. ولا نستبعد وجود مصانع خاصة لتصنيع العطور، ولكن يجب أن نعترف أنها كانت تخضع لإشراف دقيق من الدولة وتخضع أيضا لنظم الاحتكار.

وقد يكون من المهم حقا أن نشير إلى أن تجارة المواد العطرية كانت تخضع لنوع من الاحتكار في بلاد العرب نفسها. فيحدثنا ثيوفراستوس (٣٧١ - ٢٨٧ ق. م)[٣٣] عن جمع المر واللبان من مختلف المناطق، وعن نقل المحاصيل إلى معبد الشمس الذي كان أكثر معابد السبئيين قداسة، وحيث يقوم على حراستها مسلحون أشداء. ويسجل صاحب كل محصول في لوحة الكمية التي يريد بيعها وثمن بيع المكيال منها وبعد أن يتم البيع يؤول إلى كهنة الشمس ثلث الثمن ويترك الثلثان لصاحب المحصول.

وبدراسة البرديات المتعلقة باحتكارات الملك البطلمي عموماً نجد أنه كان حريصاً على أن يجني أكبر قدر من الربح نظراً لأن الاحتكار يمس التصنيع والتصدير والاتجار في المواد التي يحتكرها الملك والذي كان يعمد إلى بيع المواد المحتكرة في مزاد علني، ولذلك فإن السعر الذي كان الملك يفرضه مرتفعاً بطبيعته لأنه يشمل إلى جانب ثمن السلعة الضرائب وأنصبة الملتزمين. وعلى الدولة مراقبة عدم التلاعب بمصالحها. ولكن عندما تعلو الشكوى من تصرفات الملتزمين وجباة الضرائب عندئذ قد يعمد الملك إلى إصدار منشور أو مرسوم يحذر فيه التجار من البيع بأكثر من السعر المحدد[٣٤].

هذا ما كان عليه الحال في العصر البطلمي. فماذا آلت إليه الأوضاع بالنسبة للمواد العطرية في العصر الروماني؟

بعد فتح الرومان لمصر في عام ٣٠ ق. م. اتبع أباطرة روما سياسة تجارية كان هدفها توفير الأمن للتجارة مع الأقطار البعيدة في الشرق. إذ أن هذه التجارة بدأت تلعب دوراً مهماً في العلاقات التجارية مع الامبراطورية الرومانية في عصر الامبراطور أغسطس. ومن ثم كانت حملة أيليوس جاللوس[٣٥] إلى بلاد اليمن عام ٢٤ ق. م. وكان هدفها الظاهرى إخضاع العرب لإرادة روما أو التوصل إلى اتفاق معهم. أما الهدف الحقيقي فقد كان ضمان أمن طرق التجارة مع الجزيرة العربية مصدر السلع الثمينة التي عرفتها روما عن طريق مصر والاسكندرية. وإذا كان بطالمة مصر قد نجحوا في عام ١١٦ ق. م. كما أسلفنا في اكتشاف سر الرياح الموسمية واجتياز مضيق باب المندب للذهاب إلى الهند مباشرة فإنه قدر للرومان أن ينتفعوا بهذا الكشف العظيم. خاصة وأن الطريق التجاري القديم

الذي يسير عبر الخليج العربي ويصل إلى بالميرا (تدمر) في سوريا قد أصبح غير آمن بسبب تأزم الموقف بين روما وبارثيا[٣٦].

ونجد صدى الاكتشاف البطلمي في كتاب **دليل الملاحة في البحر الأحمر**[٣٧] والذي اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ كتابته وإن كان مؤلفه المجهول استطاع أن ينفذ من مضيق باب المندب دون التوقف بأرض اليمن. وزاد نشاط الاسكندرية واستمرت تلعب دورها كوسيط في نقل تجارة المواد العطرية إلى روما وعالم البحر المتوسط. وبفضل تجار الاسكندرية استقر الأمر نهائياً لطريق الملاحة المباشر بين مصر والهند. وربما صادف ذلك عهد الامبراطور دومينيانوس الذي نسب البعض إلى عصره كتاب **دليل الملاحة في البحر الأحمر** الذي أشرنا إليه[٣٨]. ومن المهم أنه بفضل هذا الكتاب أمكن التعرف على الموانىء العربية على الساحل الشرقي للبحر الأحمر وما كان يخرج منه من صادرات وما يأتيه من واردات. وكذلك أعطى المؤلف المجهول بياناً مماثلاً عن الموانىء التي تقع على شواطىء شبه الجزيرة العربية شرق أرض اللبان أوحضرموت. ولم ينفرد المؤلف المجهول لهذا الكتاب بتلك المعلومات بل إن كُتّاب العصر الروماني أدلوا بدلوهم في هذا المجال مما انعكس أثره على تزايد اهتمام روما وامبراطوريتها بتجارة المواد العطرية والتي كانت تنتج الكثير منها الجزيرة العربية وتشاركها الهند وبلاد أخرى إلى الشرق منها.

لأمر ما توقف انتاج المناطق الجنوبية من الجزيرة للبخور والمواد العطرية أوعلى الأقل ضعف انتاج هذه المناطق لتلك المواد. ولم تعد حضرموت قادرة على أن تمد طلاب هذه المواد بكميات ضخمة منها بل فاقتها في ذلك الهند وماليزيا وغيرهما، وقدمت هذه البلاد إلى جانب المواد العطرية مواد جديدة مثل الفلفل والزنجبيل[٣٩]. وقد لاحظ بلينيوس[٤٠] إسراف الرومان في استخدام المواد العطرية والتوابل التي عرفها الرومان رغم ارتفاع ثمنها، وقال إن اليمن لا تستطيع أن تنتج في عام واحد تلك الكميات الضخمة من البخور والعطور التي أمر الامبراطور نيرون بحرقها في جنازة زوجته بوبيا، وقال إن الهند ابتلعت في عام واحد ما لايقل عن خمسين مليون سستركس أي ما يساوى اثنين وعشرين مليون دولار أو يزيد*(ب). وقد قال البعض بنظرية تغير المناخ في الجنوب العربي مما أضعف قدرته على انتاج المواد العطرية بكميات ضخمة، ولم تعد النسمات التي كانت تهب من ساحل حضرموت معبقة برائحة البخور على بحارة السفن المارة بالقرب من الساحل فتصيبهم بنوع من الدوار، قادرة على إحداث هذا الاثر مرة أخرى[٤١]. ولكن بعض المؤرخين يفضل عدم الأخذ بنظرية التغيير المناخي ويقول يجب تلمس الأسباب التي أدت إلى ضعف انتاج الجنوب العربي للمواد العطرية. ويرى هذا النفر من المؤرخين احتمال أن يكون أهل الجنوب العربي قد أهملوا الحفاظ على هذه النباتات وكان أكثرها نباتاً برياً، وقد يكون السبب المقنع هو ما شجر من خلافات بين دول الجنوب والحروب التي قامت بينهم فلم تعد الطرق التي كانت تسير عبرها القوافل في أرض قتبان لتذهب إلى مأرب طرقاً آمنة، وفضل التجار الهنود الذين كانوا يأتون بسلعهم إلى موانىء الجزيرة أن يذهبوا بها رأساً إلى

---

* المحرر:

(ب) يرى المحرر ضرورة أخذ شرق إفريقيا في الاعتبار كمصدر من مصادر بعض هذه العطور، وبخاصة أن تجارة قريش وإيلاف الحبشة قبيل الإسلام يوحيان بشيء من هذا.

ساحل إفريقيا الشرقي لتذهب إلى مصر عبر النيل لتصل إلى الاسكندرية . ومع ذلك فإنه من الطريف ملاحظة أن ميناء موزا (Muza ؛ مخا الحديثة) كان على حسب ماروى مؤلف كتاب **دليل الملاحة في البحر الأحمر** مزدحماً بأصحاب السفن العرب، وكان أهلها لا يرحبون بالسفن الأجنبية، ويفضلون أن يمدوا القوافل التي تسير على طول الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية بمنتجات الهند وإفريقيا فلا يعطون للسفن الإغريقية نصيبا منها[٤٢]

وكان أصحاب السفن الرومان يقدمون هدايا ثمينة لحكام تلك المناطق ليسمحوا لهم بالفوز بنصيب من تجارتها[٤٣]. وقد يعترض البعض بأن هذا المصدر كان يتحدث عن فترة باكرة. وقد نوافقهم على ذلك غير أن الصورة التي رسمها مؤلفه يمكن أن تكون قائمة في فترات متأخرة، ثم تدهورت الأوضاع للأسباب التي أسلفنا ذكرها. ويجب أن نذكر أن الامبراطور تراجان عندما ضم مملكة الأنباط وحوّلها إلى ولاية رومانية عام ١٠٦ ق. م. كان يريد أن يزيد في أهمية طريق البحر الأحمر كطريق تجاري يعوض الطرق البرية في آسيا، خاصة وأنه عمل على الاهتمام بالطرق التي كانت تربط بين ساحل البحر الأحمر ووادي النيل[٤٤]، وعمل على إحياء القناة التي تربط النيل بالبحر الأحمر والمعروفة باسمه.

وأياً كان الأمر فلا تزال مصر على عهد الرومان تستقبل سفناً وقوافل محملة بالمواد العطرية. ومازال استهلاك هذه المواد قائماً ومستمراً، وتشهد على ذلك مجموعة من البرديات. وتعدّد إحدى البرديات التي تعود إلى القرن الأول الميلادي أسماء المواد العطرية التي تستخدم في البخور أو التطيب أو في تركيب العقاقير[٤٥]. ومازال البخور يستخدم في المعابد وفي الأغراض الدينية وفي أعمال التحنيط[٤٦]. وقد نجح الرومان على أي حال في إعادة النشاط التجاري إلى البحر الأحمر واجتذبوا إليه جانباً من التجارة العربية إلى جانب التجارة الهندية، وكانت تجبى في موانيء مصر على ذلك البحر الضريبة المعروفة باسم *(vectigal maris rubri)* وكان المسئول عن تحصيلها موظف يحمل لقب *(parsleptes tes Erythras thalasses)* وذلك على عهد الامبراطور أغسطس[٤٧].

وتوضح بقايا بردية[٤٨] محفوظة في جامعة أكسفورد أنه لا يزال يرد إلى مصر المر المعيني وكذلك نوع من الكمون. نظراً لحالة البردي فإننا لا نستطيع أن نقطع بأن الذي كان يدفع عن المواد العطرية هو في الواقع ضريبة جمركية أم كانت ضريبة مرور داخل مصر وذلك نظراً لانخفاض قيمتها. وكان من حق الأفراد كذلك استيراد المواد العطرية في سفنهم وعلى مسئوليتهم الخاصة مع إلزامهم بدفع ضرائب جمركية[٤٩]. وهذا يتمشى مع سياسة الرومان التي خفضت من نظام الإحتكار الذي كان سائداً في العصر البطلمي.

ومن بعض قطع الأستراكا*(جـ) عرفنا أنه كان تحصل في الفنتين ضريبة نوعية على مواد البخور والعطور المستوردة بها قيمته الثلث[٥٠]. ومن إحدى البرديات نعرف أنه كان على تجار المواد العطرية في أرسينوي دفع ستين دراخمة في الشهر في أواخر القرن الثالث للميلاد. وفي نفس المدينة كان تاجر المراهم يدفع ستة وثلاثين دراخمة[٥١].

---

* **المحرر:**

(جـ) *Ostraca*. وهي قطع الفخار المنقوشة بكلمات أو ببضع سطور قصيرة.

وتوضح بعض البرديات أنه كان في استطاعة أحد الأشخاص في إقليم الفيوم أن يحصل في عام ١٦١ ق.م. على امتياز تصنيع العطور وتسويقها، وأن هذا الشخص نفسه كان يتمتع بحق النصف في بيع العطور والتوابل والمركّبات العطرية في أحد أقسام الإقليم، وأنه طبقاً لتوقيعه في أسفل البردية يبيع ربع امتيازه مقابل ٤٥ دراخمة. وهذا يعني أن الحكومة الرومانية كانت تسيطر على عملية انتاج المواد العطرية وتصنيعها وتوزيعها. وقد منح أحد الأشخاص امتياز ممارسة العملية بأكملها، كما أنه كان من الممكن أن يفوز بها مجموعة من الأشخاص مقابل مبلغ إجمالي يدفع للخزانة(٥٢). وفي رأي البعض أن الأواني المختومة والتي تحتوي على مواد عطرية كانت تخضع للاحتكار من قبل الحكومة(٥٣). وقد يفسر هذا أن بعض التجار كانوا يتقدمون بطلب للسماح لهم ببيع العطور والمنتجات العطرية(٥٤). واختلف في أمر إطلاق الحرية للمصانع الخاصة لإنتاج المواد، وبينما يرى البعض أن حرية الإنتاج كان مسموحاً بها من الإدارة الحكومية وأن وجود مثل هذه المصانع لا يعني عدم وجود مصانع خاصة.

وقد أسلفنا أن باعة العطور ومنتجاتها كانوا يدفعون ضرائب شهرية تتفاوت من منطقة إلى أخرى(٥٥)، وكانت الحكومة الرومانية تفرض ضرائب نوعية على الأراضي المنتجة لنباتات عطرية(٥٦). فإذا أضفنا إلى ذلك المكوس الجمركية التي كانت تدفع عند دخول هذه المواد العطرية إلى مصر أو في المراكز الجمركية الداخلية فإن ذلك قد يعني تدخل الدولة في تجارة المواد العطرية بشكل أو بآخر. وتكفى الإشارة إلى وصف الإشراف على مصانع العطور الذي نقلناه عن بلينيوس. وكل ذلك يدل على اهتمام الدولة بتجارة المواد العطرية وعدم تركها حرة تماماً، بل إن الامبراطورية اهتمت بهذا النوع من السلع التجارية حتى أن أصناف العطور والبخور والأفاويه والطيوب صنفت في قوائم رسمية لتوضيح الضرائب التي تفرض على بعض الأنواع عند دخولها موانىء مصر قادمة من الجزيرة العربية أو الهند أو من شرق أفريقيا. وقد اضطر الامبراطور ماركوس أوريليوس بين عامي ١٧٦ و ١٨٠م إلى اتخاذ هذه الخطوة ليضع حداً للخلاف بين جباة المكوس الجمركية والتجار عندما يأتون بسلعهم إلى الموانىء المصرية.

ويبدو أن روما في نهاية القرن الثاني للميلاد فقدت بعض الاهتمام بتجارة الشرق. ودخلت مملكة أكسوم إلى المنطقة العربية لتزاحم السبئيين والحميريين للسيطرة على تلك التجارة وغزت بعض مناطق السبئيين حتى وصلت إلى ظفار. ثم حمل على الأحباش السبئيون والحميريون وأجلوهم عن بلادهم في عام ٢٦٥م. وكان من المهم لمملكة أكسوم كسب ود روما وتأييدها في مشاريعها في بلاد العرب الجنوبية. ويبدو أن روما اطمأنت إلى قدرة أكسوم على حماية طرق الملاحة في البحر الأحمر وإلى قيامها بدور الوسيط في تجارة السلع القادمة من الشرق سيما وأن أكسوم كانت قد نجحت في القرن الثالث الميلادي في بسط سيطرتها على كلا جانبى البحر الأحمر عند مدخله الجنوبي.

الهـــوامش

(١) ذكر هيرودوت في **الكتاب الثالث** فقرة ٩٧ : أن العرب كانوا من بين الشعوب التي لم تدفع جزية للملك الفارسي ، وأنهم كانوا يقدمون عوضاً عنها هدية قدرها ألف تالنت من اللبان كل عام . ويذكر في الفقرة ١٠٧ من نفس الكتاب أن بلاد العرب تقع بعيداً في أقصى البلاد المأهولة ، وأنها البلاد الوحيدة التي ينمو بها اللبان والمر والقاسيا والقرفة واللادن . ويشرح في الفقرة نفسها طريقة جمع اللبان وفي الفقرة ١٠٩ طريقة جمع القاسيا وفي الفقرة ١١١ طريقة جمع القرفة . ويقول أن القرفة ليست من نباتات الجزيرة وإنما كانت تأتي بها الطيور العملاقة من البلاد التي نشأ بها الإله ديونيسوس ، ويقصد بها الهند .

(٢) انظر على سبيل المثال Theopharstus, *H.P.* IX: iv; Erathosthenes in Strabo, *Geog.*,XVL: iv, 2-4.

(٣) ابراهيم نصحى ، **تاريخ مصر في عصر البطالمة** (القاهرة ، ١٩٧٦م) ، جـ٣ ، ص ٤١ ، ص ٤٥ وما يليها ، وجـ٤ ، ص ٢٦٢ وما يليها ؛ مصطفى كمال عبد العليم ، «دور البحر الأحمر في تاريخ مصر في عصر البطالمة» ، في **سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث جامعة عين شمس** (القاهرة ١٩٧٩م) وعن «البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة» ، ص ٢٥ وما يليها .

(٤) Eratosthenes, *loc. cit.*.

(٥) E. Naville, *Deir El Bahri* Vol. 11, ll; Abdel-Aziz Saleh, «Some Problems Relating to the PWENT Reliefs at Deir El-Bahri», *J E A* 58 (1972), 140 - 153. قارن تعريفه لمنطقة **بونت** . انظر أيضاً ، عبدالمنعم عبدالحليم سيد ، **الكشف عن موقع ميناء الأسرة الثانية عشرة الفرعونية في منطقة وادي جواسيس على ساحل البحر الأحمر** (الاسكندرية ، ١٩٧٨م) ، ص ٨ وما يليها .

(٦) Tomaschek, «Aromataphoros», *P.W.*.

(٧) ابراهيم نصحي ، **المرجع نفسه** ، جـ١ ، ص ٨١ وما يليها ، جـ٣ ، ص ٤٨ ؛ مصطفى كمال عبدالعليم ، «بطلميوس الثاني والاحتفال بعيد البطوليميايا» ، **حوليات الجمعية التاريخية المصرية** ، المجلد ١٩ (١٩٧٢م) ، ص ص ٢٩٧ - ٣٢٤ ، وبخاصة ص ٣١٤ وما يليها .

(٨) **المرجع السابق نفسه** ، ص ٣١٥ .

(٩) مصطفى كمال عبد العليم ، «دور البحر الأحمر في تاريخ مصر في عصر البطالمة» ، ص ص ١٤ ، ١٥ .

(١٠) Athenaeus, *Deipnosophists:* V. 197. كليكينوس كاتب اغريقى من جزيرة رودس كتب عن الاسكندرية عام ١٥٥ ق.م. في كتابه .

(١١) محمد صقر خفاجة ، **شعر الرعاة** ، ص ٩٠ وما يليها .

(١٢) *O.G.I.S.:* 132, 186 . وقد أعيد نشر النقش الثاني (186) في : A. Bernand, *Les Inscriptions Gréques de Philae,* Tome 1 (Paris, 1969), 306, 311, No. 53.

(١٣) عن برديات العصر البطلمي المتعلقة بموضوع المواد العطرية أنظر : M.K. Abdelalim, *Alexandrian Trade in Aromata in Greco-Roman Times* (M.A. Thesis, unpublished. Alexandria University, 1952).

(١٤) .*P. Tebt. 112.*

(١٥) .*P. Cairo Zenon 59536.*

(١٦) .*P.S.I.* 297.

(١٧) .*P.S.I.* 328.

(١٨) .Strabo, XLII: i, 130.

(١٩) A. Andreades, «Les droits douane prelevés par les lagides sur commerce exterieur», *Mélanges, G. Glotz,* (Paris, 1932) I, 7 - 78, p. 9.

(٢٠) راجـع بصـفـة عامـة : A. Bouche-Leclercq, *Histoire des Lagides* (Paris, 1906), Tome 111, 321, C. Preaux, *L'Economie Royale des Lagides* (Bruxelles, 1938), M.I. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Hellenistic World,* 3 Vols. (Oxford, 1941).

(٢١) A. Bouche-Leclercq, *op. cit.,* 323.

(٢٢) *O.G.I.S.:* 132, Year 130 B.C. *Cf.* C. Preaux, *op. cit.,* 364; E. Bevan, *History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty* (London, 1927), 155.

(٢٣) *S.B.* III, 7196; R. Bogaret. «Banquiers, Courtiers et Pret Maritime à Athens et à Alexandrie», *Chronique d'Egypte,* X: 79 (1927), 140 - 156.

(٢٤) Strabo, 11: 3,4; *M. Rostovtzeff, op. cit.,* 926.

(٢٥) Pliny XII: 32.

(٢٦) *P. Cairo - Zenon 59069*

(٢٧) *P.S.I. 323*

(٢٨) R. Taubenschlag, *The Law of Greco- Roman Egypt in the Light of the Papyri 332 B.C. - 640 A.D.* 2nd. ed. (Warsawa, 1955), 670.

(٢٩) *P. Sorbonne inv. 578 = SB 7176;* P. Collart, Y.P. Jouguet, «Petites recherches sur l'economie . *politique des Lagides», Raccolta Lumbroso* (1925), 109 - 134

(٣٠) Mari -Trèse Langer, «Quelques Papyrus inédits de la Bibliothéque Bodlèene», *Chronique d'Egypte* (1948), 109 - 121.

(٣١) C. Preaux, *op. cit.,* 367, *P. Tebt. 35. Cf. P. Tebt. 703.*

(٣٢) *P. Revenue Laws XL*

(٣٣) Theophrastus, *Enquiry into Plants,* IX: iv. 6.

(٣٤) S.L. Wallace, *Taxation in Egypt From Augustus to Diocletian,* (Oxford, 1938), 181.

(٣٥) Strabo, XVI. 22 ff.

(٣٦) M. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empre* 2nd,ed. (Oxford, 1963), Vol. 1., 95.

(٣٧) W.H. Schoff. *The Periplus of the Erythraean Sea,* 2nd. ed. (Delhi, 1974). * **المحرر**: انظر بحث نقولا زيادة عن هذا المؤلف في هذا الكتاب.

(٣٨) M. Rostovtzeff, *loc. cit*

(٣٩) S.A. Huzayyin, *Arabia and the Far East, their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman Times & Irano-Arabian Times* (Cairo, 1942), 244.

(٤٠) عن المواد العطرية الهندية التي شاع استعمالها في روما انظر .Pliny, XII: 19, 25,26, XXI

(٤١) S.A. Huzayyin, *loc. cit.*

(٤٢) *The Peripulus,* 21.

(٤٣) *Op. cit.*, 28.

(٤٤) يذكر استرابون أن شحنات المواد العطرية كانت تصل من الجزيرة العربية إلى ميناء لويكي كومي الذي كان يسيطر عليه الأنباط، ومنه تنقل إلى البتراء عاصمتهم ومن ثم إلى العريش... ولكن على عهده كانت تلك الشحنات القادمة من الجزيرة العربية والهند تفرغ في ميناء ميوس هرموس (القُصير)، ثم تنقل على الجمال إلى مدينة قفط ومن ثم تذهب إلى الاسكندرية. Strabo XVI: 4, 23 والمعروف أن استرابون زار مصر في بداية الحكم الروماني لها.

(٤٥) *.P. OXY. 1088;* انظر أيضا *P. Tebt. 273, P. Oxy. 234, 1142, P. Lond. CXCI*

(٤٦) *BGU. 1*

(٤٧) U. Wilcken, Grundzüge, 190; *Cf.* L. C. West, «Phases of Commercial Life in Roman Egypt», *JRS* 7 (1917), 45 - 58.

(٤٨) يرجح فلكن الذي عثر على هذه البردية في جامعة أكسفورد أنها جزء من بردية *P. Oxy. 36* وقد نشرها تحت عنوان «Ein Nomos Telonikos» في *Archiv für Papyrus Forschung,* 111, 185 - 200.

(٤٩) *P. OXY.* 36. توضح البردية أنه إذا رغب القائم على تحصيل الرسوم الجمركية على سفينة لتاجر ما فإنه على هذا التاجر أن يفرغ حمولتها، وإذا وجد سلعاً غير تلك التي أوضحها التاجر في إقراره الجمركي فإن الشحنة تصادر. أما إذا لم يجد شيئا مخالفاً فعلى هذا المحصل أن يدفع للتاجر أجر تفريغ شحنته. وعلى التاجر الحصول على إقرار مكتوب من محصلي الضرائب الجمركية حتى لا يتعرضوا إلى أي اتهام.

(٥٠) *T.O.* No 20, *Archiv 176,* No. 32; *W.O. II,* 296 - 300, 1460.

(٥١) *BGU. 1: 9.1.; 1087. Cf.* Wallace, *op. cit.*, 209.

(٥٢) *P. Fayum,* 93.

(٥٣) S. De Ricci, «Bulletin Epigraphique de l'Egypte Roman», *Archiv 11, 443,* No. *C 3 364;* M. Rostovtzeff, *Archiv IV,* 313, 315.

(٥٤) *P.S.I. 692;* R. Taubenschlag, *op. cit.*, 384 and No. 8.

(٥٥) راجع حاشية ٥٠.

(٥٦) *P. Lond. CXIX; cf.* U. Wilcken, *Ostraca* I, 258 - 9.

تعامل العرب التجاري وكيفيته في العصر الجاهلي

ناصر بن سعد الرشيد

مقدمـــة

عاش العرب في جاهليتهم قبائل متفرقة ومجتمعات متباينة فهناك المجتمع الرعوي وهناك المجتمع التجاري وهناك المجتمع الزراعي واشتهر كل قطر من أقطاره بنشاط يناسب طبيعته، والذي يهمنا في هذا البحث هو النشاط التجاري الذي مارسه العرب في جاهليتهم، ومدى نجاحهم في هذا النشاط وما صاحبه من أعراف تجارية ورخاء اقتصادي وعادات في البيع والشراء ومجالات هذا النشاط.

وحيث أن قبيلة قريش هي القبيلة التي عرفت بهذا النـوع من النشاط أكثر من غيرها، فأحسب أنه من الصواب بمكان أن نركز البحث على نشاط هذه القبيلة التجاري، وتعاملها مع غيرها من العرب في جزيرتهم، أو تعـاملهـا مع جيرانها من غير العـرب كفارس والروم والحبشة، دون أن نهمل نشاط القبائل الأخرى في الجزيرة والعناصر من غير العرب التي مارست نوعاً من النشاط التجاري في جزيرتهم كاليهود مثلاً والأنباط*[أ].

وأحسب أن من تمام البحث أن نشير إلى أسواقهم وما يجرى فيها من نشاط، بيد أن إشارتي إلى هذه الأسواق ستكون إشارة ضمنية لضيق مجال الحديث، ولأن المختصين من الباحثين قد كتبوا ما فيه الكفاية عن هذه الأسواق، ومن أراد التفصيل فعليه مثلاً بكتاب: **أسواق العرب** للاستاذ سعيد الأفغاني[١].

وأحسب أن من تمام البحث أيضـاً أن نذكر عملاتهم ونوع بيوعهم ذكراً مفصلاً. لو لم يسبقني إلى ذلك الدكتور جواد علي فانظر إلى كتابه في ذلك[٢]، ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر حجم ما لدي من مادة أرى أن من واجبي أن أضغطها وأقدمها مركزة ومختصرة ما أمكن ذلك، والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل.

خصائص أقطار العرب من حيث التجارة

حظيت بلاد العرب بموقع تجاري ممتاز بين البلاد الأخرى المجاورة فهي تقع في طريق التجارة الدولية في ذلك الزمن، فشمالها يرتبط بالدولتين العظميين في ذلك الوقت فارس والروم، وجنوبها يقع بين الحبشة والهند. أضف إلى ذلك ما قام في وسطها من مراكز ومحطات تجارية تربط بحارها بعضها ببعض وشمالها بجنوبها. ومن أشهر هذه المراكز

---

* **المحرر:**
(أ) يرجّح أهل الاختصاص أن الأنباط قوم من العرب.

مكـة المكرمة .ويثرب وتيماء. وبلاد العرب رغم أهميتها كانت مختلفة أصقاعها وطبيعتها، فاختلفت نتيجة لذلك خصائصها التجارية ومرافقها، فبعضها قاحل لا يصلح للزرع، وبعضها معشب خصب يصلح للزرع وللضرع، وبعضها يصلح للرعي والتنقل، فاليمن وعمان تصلحان للزرع، ونجد وتهامة للرعي والنشاط التجاري، ولذلك يقـول الألوسي(٣): «وأمّا أهل اليمن وعمان والبحرين فكانت تجاراتهم كثيرة ومعايشهم وافرة، لما في بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة وغير ذلك من أسباب الثروة والغنى، وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم في الثروة والتجارة، لما أن الغالب على أرضهم الرمال فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب في رفاهية العيش ورواج التجارة».

ونتيجة لاختلاف طبيعة هذه الأقطار، فقد اختلف كل قطر بما يصدر وينتج واشتهر بذلك عن غيره، فعرفت اليمن مثلا بالورس والعقيق وعرفت كذلك بالبرود، وعرف الشام بالرياط، ومصر بالأردية، واشتهرت الطائف بالجلود والدباغة والخمرة. يقول الأصمعي:(٤) «أربعة قد ملأت الدنيا ولا تكون الا في اليمن: الورس والكندر والخطر والعقيق». وقالوا: «برود اليمن وريط الشام وأردية مصر»(٥)، وقال الهمداني عن الطائف(٦): «مدينة قديمة جاهلية، وهي بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة».

ولعل اختلاف أقطار جزيرة العرب ما جعل حركة التجارة مستمرة، كل قطر يستورد ما ليس عنده، وقد التفت الهمداني إلى هذا الاختلاف وعده رحمة ولطفاً من الله ـ وإنه لكذلك ـ يقول(٧): «ولولا أن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه غيرهم، لبطلت التجارات وذهبت الصناعات، ولما تغرب أحد ولا سافر رجل، ولتركوا التهادي وذهب الشراء والبيع والأخذ والعطاء، إلا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات ومنع الآخرين، ليسافر هذا إلى بلد هذا ويستمتع قوم بأمتعة قوم، ليعتدل القسم وينتظم التدبير».

أما ابن الأزرق فينظر إلى الجزيرة بصورة عامة، ويرى أن العرب فيها أقدمهم ومتأخريهم في الجاهلية بنوا حضارة وأسسوا صناعات وزاولوا بعض الحرف التجارية التي تدر عليهم أرباحا، والتي تسهم في إنعاش صادراتهم يقـول(٨): «وأما اليمن والبحرين والحجاز والجزيرة وإن ملكها العرب إلا أنهم تداولوا ملكها آلافاً من السنين، واختطوا أمصارها ومدنها، وبلغوا المبالغ من الحضارة والترف، كعاد وثمود والعمالقة وتبّع والأذواء، فطال أمد الملك والحضارة ورسخت الصناعة فلم تبل ببلاء الدولة، فبقيت مستجدة حتى الآن. واختصت بذلك كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير، والله وارث الارض ومن عليها».

تجارة العرب قبل قريش

أحسب أن التجـارة صاحبت العـرب في عصورهم المختلفة وأصقاعهم المتباينة حتى اشتهروا بين الأمم الأخرى بأنهم قوم تجارة ورحلة في سبيلها، حتى قال اسطرابون عن العرب(٩): «العرب تجار وسماسرة وقوم تجارة

وبيع وشراء، وبذلك لم يكونوا أمة حرب لا بالبر ولا بالبحر». ومن درس تاريخ التجارة والممالك التي ازدهرت فيها هذه الصناعة فلن يفوته أن يشير إلى ممالك تدمر وسبأ ومعين وما وصلت إليه من معرفة بالتجارة، وما كان لهم من مكان مرموق في تجارة الشرق خاصة وتجارة العالم عامة «حتى ذكرتهم التوراة ووصفت ثروتهم وتجارتهم»[١٠]، وعن نشاط مملكة تدمر التجارى تكلم صاحب كتاب: **أسواق العرب فقال**[١١]: «وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر وجنوب أوربة صادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النفائس التي يحملها التدمريون من بلاد الشرق أثمن ما يتغالى به الملوك القياصرة». وقال ولفنسون في حديثه عن مملكة تدمر[١٢] «قبلة التجار من الهند والفرس والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوربة. . وكانت روما التي خضع لنيرها أغلب العالم القديم تهاب قبائل تدمر وتتودد إليها وتقدم إليها الهدايا وتوفد إليها الوفود. . وعرفت تدمر كيف تستثمر في ظروف منافسة الدولة الفارسية والدولة الرومانية لمصلحتها التجارية».

أما المعينيون فلم يكونوا أقل حظاً في التجارة من الأمم العربية الأخرى، فقد ازدهرت في مملكتهم التجارة وساعد في ذلك امتداد نفوذهم حتى شواطىء البحر المتوسط وموانىء خليج العجم[١٣].

أما سبأ فكان لها نشاط تجاري واسع ومرموق، فقد ذكرت التوراة أن ملكتها «قدمت إلى سليمان (١٢٠)*[ب] وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة»[١٤]. وكان أهلها يحملون ما يصل إليهم من بضائع الحبشة والهند إلى مصر والعراق والشام وكان لهم نفوذ تجارى واسع في هذه الممالك، وينقل صاحب **أسواق العرب** عن نيكلسون عن مولر قول مولر[١٥]: «قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين موانىء بلاد العرب الشرقية والهند محملة بالبضائع، وكانت منتجاته الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقردة والطواويس) تنقل إلى ساحل عمان. ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دراية بالخليج الفارسي، حيث كانوا ييممون شطر مصر يبيعون فراعنتها وأمراءها بضائعهم. وقد كانت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البرى للتجارة بين اليمن وسورية، وكانت القوافل تقوم من **شبوت** (شبوة) في حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ثم تتجه شمالاً إلى **مكربة** (مكة فيما بعد)، وتظل في طريقها من البتراء حتى غزة المطلة على البحر الأبيض المتوسط؛ وظل رخاء السبئيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك عبر البحر على طول شواطىء حضرموت وخلال مضيق باب المندب، وكانت نتيجة هذا التغير الذى يظهر أنه حدث في القرن الأول للميلاد، أن أخذت قوتهم تتضعضع شيئاً فشيئاً. . .».

وظلت الممالك اليمنية تسيطر على التجارة في تلك الأقطار حتى القرن السادس الميلادي حيث تحولت التجارة إلى قريش ومكة ثم المدينة، كما ظلت أيضاً محتفظة بعلاقتها التجارية مع الحبشة والهند تستورد ما عندها من عاج وأبنوس وتصدر لها بالمقابل سلعها، وحين بنى أبرهة الحبشي كنيسة في اليمن استخدم شيئاً من هذه المستوردات في بنائها، يقول الصالحي[١٦]: «واستذل أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة، وبناها بالرخام المجزع والأبيض والأحمر

---

* **المحرر:**

(ب) عشرين ومائة.

والأصفر والأسود، وحلّاه بالذهب والفضة وفصل بينها بالجواهر وجعل فيها ياقوتة حمراء عظيمة، ونصب فيها صليباً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والأبنس، وكان يوقد فيها بالمندل ويلطخ جدرها بالمسك». ويقول ابن كثير[١٧]: «وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس».

وهناك نشاط تجاري واسع في مكة قبل قريش، فهي بجانب كونها محطة تجارية هامة في طريق تجارة المالك اليمنية الأولى مع الشام ومصر والعراق[١٨]، فقد مارست أنواعاً كثيرة من التجارة، وكان العرب يتنقلون منها في تجاراتهم إلى غيرها من المراكز التجارية وإلى الأمم الأخرى المجاورة كالحيرة واليمن والشام. وتجلى هذا النشاط في حياة العمالقة وخزاعة وجرهم وغيرها من القبائل التي قطنت مكة قبل قريش أو معها، يقول المؤرخ صاعد في كتابه **طبقات الأمم** وهو يتكلم عن الأخبار ونقلتها وكيف تصل إلى العرب من المسالك المجاورة، وكيف ينقلها العرب إلى قاطني مكة بعد أن يعودوا من تجاراتهم[١٩]: «قال أبو محمد الهمداني: ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم، وذلك أن من سكن بمكة من العمالق وجرهم وآل السميدع بن هونة وخزاعة أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الحيرة وجاوروا الأعاجم من عهد أسعد أبي كرب وبختنصر حووا على الأعاجم وأخبارهم وأيام حمير ومسيرها في البلاد».

هذا وقد ضمت كتب التاريخ معلومات هامة عن ثروة زعيم خزاعة عمرو بن لحيّ وعن تنقلاته في الشام في تجارته[٢٠]، وأنه كان له عشرون ألف بعير يفقأ عشرين منهن حسب أوابد العرب في ذلك الوقت[٢١]، ولعظم تجارته فقد عم في سنة من السنوات «جميع حاج العرب بثلاثة أثواب من برود اليمن»[٢٢]، وأنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة في كل سنة[٢٣].

نشاط الأمم الأخرى التجاري

كانت هناك عناصر غير عربية مارست أنواعاً من التجارة في جزيرة العرب وكان لها استقرار سكني فيها، أو كانت لهم مراكز يستخدمونها في أوقات اتجارهم مع العرب. ولعل أبرز هذه العناصر هم:

١ ـ الأنباط*(جـ)

كانت للنبط أسواق في جزيرة العرب وكانوا يجلبون من الشام أمتعته، ويحملون إليها من الجزيرة نتاجها خاصة الزيت ودقيق الحوّاري، ويرتادون العراق حينا يرجعون منه بالتمر والأدم ونحوها من حاصلات تلك البلاد[٢٤]. وكان أشهر أسواقهم في المدينة، بل أن لهم سوقاً فيها عرف باسمهم ذكره ابن سعد في معرض حديثه عن هاشم بن عبد مناف في بعض أسفاره إلى المدينة قال[٢٥]: «نزل بسوق النبط فصادف سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها فباعوا

---

* المحرر:

(جـ) راجع هامش المحرر رقم (أ).

واشتروا» . فيبدو لي أن هذه السوق كانت تقوم في وقت معلوم من السنة يجتمع فيها تجار النبط ويقومون بمهمة نقل الأخبار من الشام إلى المدينة وربما العكس، فمن هؤلاء التجار علم الرسول ﷺ بتجمع الروم على الحدود، فأخذ أهبته وأخفى جهته في غزوة تبوك»[٢٦].

٢ ـ اليهود

امتاز اليهود عن غيرهم من العناصر الأخرى بأنهم استوطنوا جزيرة العرب في جنوبها وفي خيبر والمدينة، واستطاعوا أن يقوموا بأعمال تجارية وزراعية رابحة، بل إنهم سيطروا على بعض المراكز التجارية كالمدينة وخيبر مثلاً مستغلين التحريش بين القبائل العربية وإشغالها بالحروب حتى تحتاج إلى ما عندهم من السلع وحتى يخلو الجو التجاري لهم، يقول صاحب **تاريخ اليهود في جزيرة العرب***[د] [٢٧]: «كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز، حتى صار لبعضهم شهرة عظيمة وصيت بعيد كأبي رافع الخيبري الذي أرسل بضاعته بوساطة القوافل إلى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة، ويمكن أن يقال إن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال الحجاز».

وأشاعوا الربا في جزيرة العرب، بل يظن أنهم أول من تعاطاه وأشاعه بين العرب في جزيرتهم، وكانت لهم تجارة في الطائف، وذلك أن بعض اليهود الذين طردوا من اليمن أتوا إلى الطائف فأقاموا بها، وخرج الإسلام على الطائف وهم فيه، فوضعت عليهم الجزية، يقول البلاذري[٢٨]: «كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب، فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية».

وكان يهود المدينة يتحكمون في تجارتها، وبخاصة تجارة السلع الضرورية، ويتحكمون في دائنيهم، ويشتطون في رهنهم، حتى صاروا يرهنون الصبية ويطلبون رهن النساء. وفي قصة أبي نائلة سلطان بن سلامة ما يوضح ذلك وهي[٢٩] أن أبا نائلة سلطان بن سلامة أتى أحد أشراف اليهود وأغنيائهم كعب بن الأشرف، وكان أخاه من الرضاعة، فقال له: «إني قد أردت طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك، فقال كعب: أترهنوني نساءكم؟ قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم؟ قال كعب: أترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعوهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه الوفاء».

ويكاد اليهود يحتكرون تجارة الذهب وحرفة الصياغة في المجتمعات العربية التي يقطنونها، وقد باع علي بن أبي طالب رضي الله عنه تعالى الإذخر لصائغ من بني قينقاع حتى يستعين به في وليمة عرسه. روى مسلم رحمه الله: «عن علي أنه لما أراد أن يبني بفاطمة ـ رضى الله عنها ـ قال: وعدت رجلاً صواغا من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بإذخر أردت أن أبيعه من الصواغين وأستعين به في وليمة عرسي»[٣٠]. وقال ابن المنير[٣١]: «وفي معاملة

* **المحرر:**

(د) لم يذكر الكاتب هذا الكتاب في كشف مصادره، ومؤلفه هو اسرائيل ولفنسون.

الصواغ تنبيه على أنها صنعة جيدة لا تجتنب معاملة صاحبها لا من حيث الدين ولا من حيث المروءة، وربما أكثر الفساد في صنعته ويتعاطاه أرذال الناس كاليهود».

٣ ـ الروم والأحباش

تبادل العرب التجارة مع هذه الأقوام ورحل إليها العرب كما سنبين ـ إن شاء الله ـ وهناك إشارات قليلة إلى أن هذه الأقوام كان لها مراكز في مكة المكرمة خاصة، يرعون فيها شؤون تجارتهم وربما تجسسوا لأقوامهم، يقول أحمد أمين(٣٢): «ووصل المكيون قبيل الاسلام ـ عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه ـ إلى درجة عظيمة في التجارة، وكان على تجارة مكة اعتماد الروم في كثير من شؤونهم حتى فيما يترفهون به كالحرير، وحتى استظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية والتجسس على أحوال العرب. كذلك كان فيها أحابيش ينظرون في مصالح قومهم التجارية».

٤ ـ الفـرس

توطدت علاقة العرب بفارس وتبادلوا التجارة معها ووفدوا على ملكها(٣٣). بل إنهم كانوا يفرحون بانتصارهم على الروم خاصة بعد أن بُعث رسول الله ﷺ(٣٤). ويتمثل نشاط الفرس التجاري في جزيرة العرب بلطيمتهم التي كانوا يرسلونها إلى الأسواق خاصة سوق عكاظ، والتي سبق لي أن عالجتها بشيء من التفصيل في كتابي **سوق عكاظ**(٣٥).

نظرة العرب للتجارة

كانت حياة العرب في جاهليتهم حياة قبلية تشب فيها الحروب وتقوم الغارات، وعلى مغانمها كان يعيش بعض العرب ويرون أن أشرف شيء يمكن أن يقوم به العربي هو الدفاع عن الذمار والأخذ بالثأر، ولذلك فإنهم لا يرون حرفة التجارة شرفاً مؤثلاً، بل إنهم كانوا يعيرون بعض القبائل خاصة قريشا بكونها قبيلة تجار لا يعرفون الحروب ولا يخوضونها ويتوقونها خوفاً على تجارتهم، وأن تجارتهم شغلتهم عن أمور الحرب وممارستها، ولعل احتقار التجارة طبع البدوي الذي يعيش من سيفه ورمحه، وليس غريباً أن يأتي زعيم عظيم من زعماء طيء فيعير قريشاً بالتجارة ويرى أنهم ليسوا أهلاً للحرب. يروي الطبري في معرض حديثه عن فتوحات سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه في بلاد فارس أن النعمان بن قبيصة الطائي «وكان على مرابطة كسرى سأل عن سعد بن أبي وقاص فقيل له: رجل من قريش، فقال: أما إذا كان قرشياً فليس بشيء، والله لأجاهدنه القتال، إنما قريش عبيد من غلب، والله ما يمنعون خفيراً ولا يخرجون من بلادهم الا بخفير(٣٦)» ويقول شاعر في مكة(٣٧):

ولا مرتــع للعــين أو مُتَــقَــنَّصٌ ... ولـكــن تجرا والــتــجــارة تحقــر

ويقول ابن الزبعري في قومه(٣٨):

ألهــى قصــيــاً عن المـجــد الأســاطــير ... وقــولهــا رحــلت عيرٌ أتــت عيرُ

وفي محاورة مع معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ قال له زيد بن صوحان بن معاوية(٣٩) : «كم تكثر علينا بالإمرة بقريش، فما زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجار» .

وعقد ابن خلدون في مقدمته فصلين عنون أحدهما «الفصل الحادي عشر في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك» . ثم قال : «وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء، ولابد فيه من المكايسة ضرورة فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها، وهي أعني خلق المكايسة بعيدة عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والأشراف. وأما ان استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والغش والخلابة وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولاً ، فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم جلاله، إلا أنه من النادر بين الوجود»(٤٠). وثانيهما بعنوان «الفصل الخامس عشر في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة»(٤١).

ويأتي ابن الأزرق بعيد ابن خلدون فيرى رأيه في التجار، لا يشذ عنه قيد أنملة؛ يقول(٤٢) : «إن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة ذلك لأن التاجر لابد له في محاولة التجارة من عوارض حرفتها الناقصة عن المروءة والمكايسة والمضايقة وممارسات الخصومات وذلك ما ينطبع في النفس من آثارها المذمومة إذ أفعال الخير تعود بآثار الخير، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك» .

إذاً فإن سبب احتقار العرب للتجارة في جاهليتهم معروف، ولكن الأسباب التي ذكرها كل من ابن خلدون وابن الأزرق وكونهما قصراها على المروءة وما يتبع هذه الحرفة من حلف ومكايسة، فالمروءة تختلف باختلاف الأعراف. ويعجبني في هذا الصدد قول ابن المنير(٤٣) : «الظاهر أن الصناعة التي يصير تعاطيها عند أهل العرب علماً على دناءة الهمة وسقوط المروءة قادحة فيمن يتعاطاها في زمن يقرر ذلك العرف ومكانه» .

والأغرب أن نظرة الجاهلي للتجارة تسري في العروق حتى عهد المتنبي الذي يعد بحق امتداداً لذلك العربي في جاهليته فيقول راثياً أم سيف الدولة(٤٤) :

ولا من في جنازتها تجار ... يكون وداعها نفض النعال

وهذه الأسباب كلها مفاهيم جاهلية جاء الإسلام فأزالها، وجعل حرفة التجارة من أشرف الحرف إذا التزم التاجر بتعاليم الإسلام وآدابه في ممارسته لتجارته، ولذلك عدها الألوسي «من أشرفها وأعلاها قدراً»(٤٥)، وورد في الحديث : «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»(٤٦).

قريش والتجارة

بعد أن استقر الأمر لقريش في مكة المكرمة وتم لها السيطرة على الحرم وتدبير شئون الحج، وذلك بعد أن أقصى قصي خزاعة، بدأ عهد جديد هو عهد الاتجار، وكانت قبيلة قريش مؤهلة لأن تكون في مركز تجاري مرموق،

إذ أنها أصبحت أكثر القبائل العربية تحضراً في جزيرتهم، وأنها مسئولة عن الحج واستضافة الحجاج فكان هذان السببان كافيين لأن تتجه قريش للتجارة، والتجارة ليست بدعاً في مكة فقد كانت مركزاً تجارياً لقوافل اليمنيين من سبأ وغيرها المتجهة إلى الشام والآيبة منها، كما مر آنفاً. ولكنها قبل قصي كانت في أيدى غير القرشيين. وهذه الصناعة كان عليها اعتمادهم وعليها معوّل حياتهم، وفي ذلك يقول الجاحظ(٤٧): «وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه وصفيه من عباده والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة، وهي معولهم وعليها معتمدهم، وهي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم، ولقد بلغتك بسالتهم ووصفت لك جلادتهم، ونعتُ لك أحلامهم، وتقدر لك سخاؤهم وضيافتهم وبذلهم ومواساتهم».

ويأتي الثعالبي فيبين أن قريشاً كانت قوماً تجاراً ينفقون ويبذلون، ويستغرب هذا البذل من هؤلاء القوم التجار، إذ أن عادة التجار البخل والاقتصاد؛ فيقول(٤٨): «ومنها ثبات جودهم وجزالة عطاياهم، واحتمالهم المؤن الغلاظ في أموالهم المكتسبة من التجارة، ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة التي هي صناعتهم، والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق، وكان من اتصال جودهم العالي على الأجواد من قوم لا كسب لهم إلا من التجارة عجب من العجب، وأعجب من ذلك أنهم من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشدّد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال، فلما زهدوا في المغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة فضربوا في البلاد..».

ولشدة التصاق قريش بالتجارة واعتمادهم المطلق عليها، حسب بعض المؤرخين والرواة أن قريشاً اكتسبت اسمها من التقريش وهو الاتجار، فهذا ابن كثير مثلاً يناقش اسم قريش فيورد من الأسباب أن قريشاً سميت بهذا الاسم «من التقريش وهو التكسب والتجارة»(٤٩). وكذلك يراه الفاسي(٥٠). ورؤي أيضاً أنهم سمّوا كذلك لأنهم «كانوا أهل تجارة وتكسب وضرب في البلاد ابتغاء الرزق، ويتقرشون البيعات فيشترونها ولم يكونوا أهل زرع وضرع من قولهم فلان يتقرش المال أي يجمعه»(٥١)، وعرّف ابن هشام التقرش الذي اكتسبت قريش منه اسمها «التجارة والاكتساب»(٥٢).

وسواء كان اسم قريش مشتقاً من الاتجار أو التجمع فقد عرفت قريش بين القبائل بالتجارة، ولذلك يقول الجاحظ عنهم(٥٣): «وبالتجارة كانوا يعرفون، ولذلك قالت كاهنة اليمن: «لله در الديار لقريش التجار»، وليس قولهم قرشي كقولهم هاشمي وزهري وتيمي، لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشاً فينتسبون إليه، ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش»، ولذلك قال هاشم بن عبدمناف لقيصر(٥٤): «أيها الملك إن قومي تجار العرب..».

وكانت قريش ترى أن السيادة في الاتجار وأن من لم يمارس هذه الصناعة فليس بشيء، ويبين ذلك قول الصالحي(٥٥): «وكانت قريش قوماً تجاراً ومن لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشيء». ولذلك فإن عيرهم ذاهبة للشام صيفاً أو لليمن شتاءً تحمل تجارة قريش كلها، كل بمقدار سهمه وبمقدار ما وضع فيها من مال، ولقد روى المؤرخون أن العير، التي ذهب بها أبو سفيان إلى الشام والتي اعترضها الصحابة وكانت سبب حرب بدر،

كانت مؤلفة من أموال القرشيين والقرشيات، حتى قالوا: «ما بمكة من قرشي ولا قرشية له نس *(هـ) فصاعدا إلا قد بعث به» [٥٦].

ويقول الثعالبي[٥٧]: «وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء»، وكثيراً ما كانوا يتمادحون بجمع المال وبالاتجار به، يشير إلى ذلك ابن حجر في كتابه **فتح الباري**، قائلاً[٥٨] «وكانت العرب تتمادح بكسب المال ولا سيما قريش».

وثمة ميزة عرفت بها قريش بعد أن أخذت بتجارتها خارج مكة إلى اليمن أو إلى الشام أو غير ذلك على يد هاشم بن عبد مناف، وهي أنهم كانوا يؤاسون فقراءهم «فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى كان فقيرهم كغنيهم فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش، وهذا معنى قول شاعر فيهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي»[٥٩]

وكانت قريش كغيرها من سائر العرب تسمى التاجر بالسمسار، حتى جاء الإسلام فغيره رسول الله - ﷺ - إلى التاجر، ففي الحديث: «عن قس بن أبي عرازة قال: كنا نسمَّى في عهد رسول الله - ﷺ - السماسرة، فمر بنا - ﷺ - فسمانا باسم هو أحسن منه فقال[٦٠]: «يا معشر التجار إن البيع يحضره الحلف واللغو فشوبوا بالصدقة»*(و).
وزاد الطبرى: «فكان أول من سمَّانا بالتجار»[٦١]، قال صاحب اللمعات *(ز): «إنما كان اسم التجار أحسن من السماسرة، لأن التجارة مذكورة في مواضع عديدة من القرآن في مقام المدح»[٦٢].

واستمرت قريش تمارس التجارة وتصفَق بالاسواق بعد الإسلام وكانت تعتز بها، كما كانت تفعل ذلك في جاهليتها، بل كان عقلاؤها يحرصون على ألا يكون لقريش مصدر غير التجارة حتى لا تزول عنهم. وحينما شاور عمر - رضى الله عنه - الصحابة في فرض العطاء لقريش، عارضه حكيم بن حزام - رضى الله عنه - وقال: «يا أمير المؤمنين إن قريشاً أهل تجارة ومتى فرضت لهم عطاء تركوا تجارتهم، فيأتى بعدك من يحبس عنهم العطاء فتكون قد خرجت من أيديهم»[٦٣]. وهذا أبو بكر - رضى الله عنه - يخرج على عهد رسول الله - ﷺ - تاجراً إلى بُصرى. ولم يمنع أبا بكر الضن برسول الله - ﷺ - وشحه على نصيبه منه من الشخوص إلى التجارة، وذلك لإعجابهم بكسب التجارة وحبهم التجارة، ولم يمنع رسول الله - ﷺ - أبا بكر من الشخوص في تجارته ومحبته وضننته بأبي بكر، وقد كان بصحابته معجباً لاستحباب رسول الله - ﷺ - التجارة وإعجابه بها»[٦٤]. ومما ساعد قريش على مزاولة تجارتها احترام العرب لمكانتها لأنها سادنة الحرم، مما ترتب على ذلك تعظيمهم، ويشير النيسابوري *(ح) إلى هذا بقوله عن

---

* **المحرر:**

(هـ) هذه الكلمة غير واضحة، ولدى مراجعة **طبقات ابن سعد** (طبعة صادر) التي رجع اليها الكاتب لم نجدها.

(و) لدى مراجعة **سنن ابن ماجه** (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة سنة **١٩٥٣**) جـ**٢**، ص ص **٧٢٥** - **٧٢٦**، وجدنا أن راوي الحديث هو قيس بن أبي غرازة، وفيه (فشوبوه) بدلاً من (فشوبوا).

(ز) لم يذكر الكاتب هذا الكتاب في كشف المصادر، ولذا تعذر علينا معرفة مؤلفه.

(ح) ليس بين مصادر البحث مصنف لمؤلف يدعى «النيسابوري»، وعلّ الكاتب قصد كتاب **غرائب القرآن** للقمي.

قريش[٦٥]: «يأتـون لانفسهم ولأهـل بلدهم بما يحتـاجون إليه من الأطعمة والثياب، وإن ملوك النواحي كانوا يعظمونهم ويقولون هؤلاء جيران بيت الله وقُطّان حرمه فلا يجترىء عليهم أحد».

أضف إلى ذلك الأمن الذي منحهم إياه موضعهم من الحرم وخدمته فقد «كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضاً ويتغاورون ويتناهبون وأهل مكة قارون آمنون فيها، لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب. . »[٦٦].

تجارة قريش مع الأمم الأخرى

رأينا آنفا أن لمكة المكرمة علاقة تجارية مع الدول المجاورة في عهد خزاعة والعهود التي سبقت ذلك، وسوف نتبين العلاقات التجارية بين مكة وبين الأمم المجاورة. بعد أن سيطرت عليها قريش سياسياً وتجارياً، تحدثنا كتب التـاريخ أن قريشاً إنما كانت تتجر بمكة قبل أولاد عبد مناف الاربعة ولا تبرحها[٦٧]، وتبضع مع من يخرج من الأعاجم[٦٨]، وأبعد ما تصل إليه تجارتها هي الأسواق القريبة من مكة كذي المجاز وعكاظ ونحوهما. وإلى هذا يشير الثعالبي حينما تكلم عن قريش[٦٩]: «كانت لا تتاجر إلا مع من ورد على مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم، لا تبرح دارها ولا تجاوز حرمها للتحمس في دينهم والحب لحرمهم والإلف لبيتهم ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم. . ».

واستمر الحال بقريش على هذا حتى جاء هاشم بن عبدمناف، وساءه ما رآى من تردي تجارة قريش وحالة بعض سكان مكة مع عظم ما جعلت على نفسها من حقوق الرفادة والسقاية، فرآى أن يضرب بالأرض ويمم شطر الأمم المجاورة مع إخوانه الثلاثة، فأقاموا المعاهدات وأنعشوا تجارة مكة. والقصة بأكملها عند القالي على النحو التالي[٧٠]: «ركب هاشم بن عبدمناف إلى الشام فنزل بقيصر فكان يذبح كل يوم شاة ويضع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون. وكان هاشم من أجلّ الناس وأتمهم، فذكر ذلك لقيصر فقيل له: ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم. وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز، فدعا به قيصر، فلما رآه وكلمه أعجب به، فكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه، فلما رآى نفسه تمكن عنده قال له: أيها الملك إن قومي تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم. . وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تتجر إليهم من قريش. . . . وخرج عبدشمس بن عبدمناف إلى الحبشة فأخذ إيلافا كفعل هاشم. . . وخرج نوفل بن عبدمناف ـ وكان أصغر ولد أبيه ـ فأخذ عهداً من كسرى. . . واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والاسلام»، ويؤيد هذا ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، «والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لهم العير لهاشم، والله ما شدت قريش رحلاً ولا حبلاً بسفر ولا أناخت بعيراً لحضر إلا بهاشم».

وتكاد تجمع كتب التاريخ والتفاسير على أن بني عبدمناف الأربعة هم الذين أخرجوا تجارة قريش من نطاقها المحلي إلى نطاقها العالمي، وان كانت نصوص الروايات تحوي خلافاً لا يغير من المضمون شيئاً. فالقصة عند الفاكهي مثلاً(٧١): «كان هؤلاء الأربعة من بني عبد مناف، وهاشم والمطلب وعبدشمس ونوفل أول من رفع الله بهم قريشا. . . فركب هاشم فأخذ له خيلاً من قيصر فتجروا إلى الشام وركب المطلب فأخذ له خيلاً من ملوك اليمن فتجروا إلى اليمن بذلك الخيل وركب نوفل فأخذ لهم خيلاً من النجاشي فتجروا بذلك الخيل*(ط) إلى أرض الحبشة».

ويرى ابن سعد أن هاشمًا نفسه ربما ذهب إلى الشام واليمن والحبشة في إيلاف قريش، فيقول(٧٢) «كان اسم هاشم عمرا، وكان صاحب إيلاف قريش، وايلاف قريش: دأب قريش، وكان أول من سن الرحلتين لقريش ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه، ورحلته في الصيف إلى الشام إلى غزة وربما بلغ أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه».

أما الثعالبي فيرى أن خروج تجارة قريش عن نطاقها المحلي وتجاوزها حدود الجزيرة كان أمراً أملاه عليهم تحمسهم في الدين وتركهم الغزو «كراهة للسبى واستحلال الأموال»؛ يقول(٧٣): «فلما زهدوا في المغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة والمقوقس بمصر».

واستمر تعامل القرشيين مع الأمم المجاورة بعد بني عبد مناف حتى فتح مكة وحتى صارت هذه الأمم جزءا من الدولة الاسلامية. ولا بأس من أن نلقي الضوء على الوقائع التاريخية أو بعض منها حفظتها لنا كتب الأدب والتاريخ التي تبين لنا اتصال قريش التجاري بالأمم الأخرى:

١ ـ الشـــام

كانت قريش على علاقة وثيقة مع الشام ورومها لدرجة أن الروم كانت حريصة على أن تظل علاقتها التجارية مع قريش وطيدة حتى لا تفقد ما تجلبه إليها وما تأخذه منها، وأحسب أن في قول هاشم الآنف الذكر لقيصر وهو: «أيها الملك إن قومي تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص»(٧٤)، دلالة واضحة على مدى استفادة الروم من السلع الحجازية لأنها تباع أرخص من غيرها، بل إن هناك من ذهب إلى أن اعتماد الروم على تجارة مكة كان عظيمًا في كثير من شؤونهم(٧٥).

وبالمقابل فإن قريشاً كانت تستفيد استفادة عظيمة من تجارتها مع الروم، ولذلك فإن عثمان بن الحويرث حينما قدم على كسرى وطلب منه أن يملّكه على قريش كان «قد رآى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم من بلاده فذكر له مكة ورغبه فيها. . .»(٧٦)، وكانت قريش تقصد الشام في رحلتها الصيفية كل عام فكان لها مراكز بين مكة والمدينة

---

* المحرر:

(ط) وردت في **القاموس المحيط** «حبل» بالحاء المهملة وبالباء الموحدة، انظر ص **٢٣٢** من هذا البحث.

والشام. يقول الألوسي(٧٧): «لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر: يارسول الله فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلومة على الطريق فكيف يستأذنون ويسلّمون وليس فيها سكان؟ . . .».

وكان من قصد الشام للتجارة، ممن حفظ لنا التاريخ اسمه بعد هاشم، أبو سفيان فإنه كان كثيراً ما يتردد على الشام ويقابل قيصر الروم، وما العير التي حاول المسلمون أن يتعرضوا لها والتي كانت سبباً لغزوة بدر إلا بقيادة أبي سفيان قادماً بها من الشام (٧٨). وما العير التي اعترضت لها سرية عبدالله بن جحش ـ رضى الله عنه ـ وغنمتها إلا عير قادها العلاء بن الحضرمي قادمة من الشام محملة زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش (٧٩).

وهذا رسول الله ـ ﷺ ـ يذهب مع عمه أبي طالب في بعض رحلاته التجارية إلى الشام صغيراً، ويقود عير خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ راشداً ويرجع بالربح الوفير(٨٠). وكذلك ذهب أبو بكر إلى الشام وعمر بن الخطاب إلى غزة وفيها استغنى(٨١). والظاهر أن قريشاً كانت تعرف الشام معرفة جيدة، وكانت تأمن فيها ولذلك فإن حرب بن أمية خرج إلى الشام ومكث فيه عشر سنين حينما نافره هاشم بن عبدمناف فنفر عليه(٨٢). هذا وإن الروم بدورها لتأتي إلى مكة قصد التجارة فتدخلها أو تفرغ بضائعها في موانئها، يدلنا على ذلك قصة بناء الكعبة في عهد عبدالمطلب، فإن قريشاً عندما أرادوا «أن يشدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا، وكان البحر قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من الروم اسمه باقوم*(ي)، وكان بانياً، فتحطمت، فخرج الوليد بن المغيرة في نفـر من قريش إلى السفينـة فابتاعوا خشبها وكلموا الرومي باقوم، فقدم معهم فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيف الكعبة»(٨٣). ويقول ابن كثير عن قصة بناء قريش للكعبة(٨٤): «وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها».

٢ ـ الحبشـة

بقدر ما كانت علاقة قريش التجارية مع الروم وطيدة فإنها كانت كذلك مع الحبشة، ولعلها بدأت من عهد أن كتب قيصر ملك الروم كتاباً إلى النجاشي يوصيه بالعرب على قول بعض الروايات(٨٥)، واستمرت حتى أرسل الرسول ـ ﷺ ـ المهاجرين الأولين من الصحابة إليها، وما كان إرسال النبي ـ ﷺ ـ إلا عن معرفة سابقة بها، ويكفي في إثبات هذا ما قاله أبو الفرج الأصفهاني(٨٦): «وكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهاً». وروي لنا كذلك أن عمرو بن العاص وعمارة بن المغيرة كانا أحد من كان يذهب إلى الحبشة للتجارة(٨٧)، وكانت سفن الأحباش ترسو

---

* المحرر:

(ي) الاسم غريب على الروم، وعله قبطي مقصود منه باخوم ومعناه «الصقر». وهو واحد من الأسماء القديمة المصرية التي حفظت في مصر خلال تاريخها وإلى يومنا هذا. وعلّ الاسم هنا قد اعتراه من التحريف في النطق والتصحيف في الكتابة ما جعله يكتب بالقاف، ويؤيد ذلك أن قلب الخاء كافاً أو قافاً (تنطق مثل گـ الفارسية) معروف بين المصرية القديمة وسليلتها القبطية نفسها.

على موانىء شاطىء البحر الأحمر الشرقي حاملة بضائعها ومفرغة بضائع الحبشة، فحينما خرج المهاجرون متسللين سراً حتى أتوا الشعيبة منهم الراكب ومنهم الماشي، وفقهم الله «ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيها بنصف دينار»[٨٨]، وكذلك «روى ابن أبي خيثمة عن عكرمة: أن نفراً من قريش مروا بجزيرة من جزائر البحر فإذا هم بشيخ من جرهم فقال: من أنتم؟ . . »[٨٩].

٣ ـ مصـــر

كل المصادر التي بين يدى تشير إلى علاقة قريش بمصر إشارات طفيفة، إلا أنها تثبت تلك العلاقة ولكنها لا تحدد مداها. وهناك نصان ذكر أحدهما ابن سعد وهو «أن نفرا من بني مالك أجمعوا على الوفود إلى المقوقس وأهدوا له هدايا»[٩٠]. وثانيهما: « أن ابن جدعان أتى مصر ببضاعة ورجع إلى عكاظ»[٩١].

٤ ـ فـــارس

لا شك أنه كانت هناك علاقة بين ملوك فارس وبين مكة، حتى ذكر المؤرخون أن الأوائل من ملوك فارس كانت تحج الكعبة وتهدي إليها، ذكر السهيلي ـ رحمه الله تعالى[٩٢] ـ أن «الأسياف والغزالان كان ساسان ملك الفرس أهداها للكعبة وقيل سابور، وأن الأوائل من ملوك الفرس تحجها إلى ساسان أو سابور». أما أن هناك تجارات وقوافل بين قريش وبين فارس فإن الأصبهاني يحدثنا عن ريادة تاجر قريش وعقلها الاقتصادى الكبير أبي سفيان لبلاد فارس وبرفقته حكيم الطائف غيلان بن سلمة، وكيف أنهما نجحا في هذه التجارة وفي مقابلة كسرى[٩٣]. ويحدثنا كذلك صاحب **العقد الفريد** أن أبا سفيان ذهب إلى فارس مرة أخرى، وأنه أهدى إلى كسرى خيلاً وأدماً، فقبل الخيل ورد الأدم، وكيف رآى كسرى وبهاه، وأنه بعد مقابلته أهداه ثمانمائة إناء من الفضة والذهب[٩٤]. ويقول الأصفهاني أن أبا سفيان كان تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى أرض العجم[٩٥].

ومن استقرائنا للنصوص التاريخية يتبين أن علاقة قريش التجارية مع فارس لم تكن ذات مدى واسع كما كانت مع الروم والأحباش، خاصة قبل ريادة أبي سفيان لها، وأصدق دليل على هذا قول أبي سفيان لرفاقه حينما ساروا ثلاثـاً[٩٦]: «أنا من مسيرنا هذا لعلى خطر ما قدومنا على ملك جبار لم يأذن لنا في القدوم عليه وليست بلاده لنا بمتجر». ولابأس أن نشير هنا إلى أن لقريش أيضاً علاقة تجارية وطيدة ورحلات إلى اليمن ونجران ليس هذا مكان تفصيلها[٩٧].

التجار من غير قريش

وأخيراً فإن التجارة مع الأمم المجاورة وإن اشتهرت بها قريش ليست حكراً عليها وحدها، فهناك تجار من العرب في قبائل أخرى مارسوا التجارة وخرجوا بمعاملاتهم التجارية خارج حدود الجزيرة كما فعلت قريش، فهذا مثلاً عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ «يحدث أن النباش بن زرارة التميمي*[ك] ـ وكان حليفاً لقريش ـ قال:

* **المحرر**:

(ك) لدى مراجعة **شفاء الغرام** وجدنا أن الاسم هو النباش بن وزارة، إلا أن الأزرقي في كتابه **أخبار مكة** (طبعة رشدي ملحس)، جـ٢، ص ٢٨٤، سماه ابن زرارة.

خرجنا إلى الشام تجاراً في الجاهلية وعبدالله بن جدعان صبي حين خرجنا»[٩٨]. وهذا سعيد بن سوادة العامرى يقول[٩٩]: «كنت عشيقا لعقيلة من عقائل الحي أركب لها الصعب والذَّلول لا أبقي من البلاد سرحاً أرجو ربحاً في متجر إلا أتيته، فانصرفت من الشام بحرث وأثاث أريد به كبة الموسم ودهماء العرب فدخلت مكة بليل سدف».

وأحسب أن لثقيف نشاطاً تجارياً واسعاً تجاوز حدود الجزيرة تارة شركة مع قريش وتارة أخرى من دونها، فهذا مثلا عروة بن مسعود الثقفي ـ حينما أرسلته قريش للتفاوض مع رسول الله ﷺ في صلح الحديبية ـ يقول لقريش[١٠٠]: «أي قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً». وذكر ابن ظفر في كتابه **خبر البشر**: «أن عروة بن مسعود الثقفي رضى الله عنه تعالى قال: خرجت في تجارة لنجران قبل أن يظهر محمد»[١٠١].

وهذا أبو الفرج يقول[١٠٢]: «خرج أبو سفيان بن حرب في جماعة من قريش وثقيف يريدون العراق للتجارة....»، والقصة طويلة مشهورة. ويورد كذلك خبر المغيرة بن شعبة الثقفي وبداية معرفة العرب دهاه، فيقول على لسان المغيرة[١٠٣]: «أول ما عرفني به العرب من الدهاء والحزم اني كنت في ركب من قومي في طريق لنا إلى الحيرة...»، وهذا غيلان بن سلمة الثقفي في رحلة مع أبي سفيان إلى بلاد فارس يقول في مقابلته لكسرى[١٠٤]: «لست من أهل عداوة لك، ولا أتيتك جاسوسا لضد من أضدادك، إنما جئت بتجارة تستمتع بها فإن أردتها فهي لك وإن لم تردها وأذنت في بيعها لرعيتك بعتها، وإن لم تأذن في ذلك رددتها».

عقلية قريش التجارية

شغلت التجارة عقول قريش وسيطرت عليها سيطرة غالبة ظهرت في جدالها وفي تحديها لرسول الله ـ ﷺ ـ وفي طريقة تفكيرها، والقرآن الكريم يطفح بالإشارات إلى ذلك، ويخاطب قريشاً وفقاً لهذه العقلية التجارية فهناك الآية الكريمة: «قُلْ لَا أَملِكُ لنفسي نفْعاً وَلا ضَرّاً إلا ما شَآء اللّهُ وَلَوْ كنتُ أعلمُ الغيبَ لَاسْتكثرْتُ من الخيرِ ومَا مَسَّنيَ السُّوٓءُ إنْ أَنَا إلّا نذيرٌ وَبشيرٌ لقومٍ يُؤمنونَ»[١٠٥]. ويقول المفسرون في سبب نزولها: «إن أهلَ مكة قالوا يا محمدَ ألا تخبرنا بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فنشتري فنربح، وبالأرض التي تريد أن تجدب فنرتحل منها إلى ما قد أخصب»[١٠٦].

والقرآن الكريم «يقرب لهم المعاني بما تفيض به حياتهم ويضرب لهم الأمثال على الضلالة والهدى والمؤمنين والكافرين من التجارة نفسها»[١٠٧]، فيقول عن المؤمنين المصلِّين والمزكِّين: «يَرْجُونَ تجارةً لَنْ تَبُورَ»[١٠٨]، ويشبّه الضلالة بالخسارة والضلال بالخاسرين فيقول: «أُولئكَ الّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلالَةَ بالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ»[١٠٩]، ويقول أيضا: «أُولَئكَ الّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحياةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ»[١١٠]، ويقول أيضاً «بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِه أَنْفُسَهُمْ»[١١١].

ويستخدم لفظي «الشراء والبيع» في مدح من سعى إلى مرضاة الله فيقول: «وِمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللّهِ»[١١٢]، ويقول: «إنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِن الْمُؤمِنِينَ أنفُسَهُمْ وَأمْوالَهُمْ بأنَّ لَهُمُ

الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»(١١٣).

وحينما مدح القوم الذين لا يغفلون عن ذكر الله قال: «رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»(١١٤)، وحينما شوق القوم إلى الإيمان قال: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. . .» الآية(١١٥).

وأحسب أن هذه العقلية التجارية التي سيطرت على القوم كانت على جانب كبير من الحذق التجاري والتجربة الكافية لمعرفة السوق ومتطلباته وأمور العرض والطلب، وتتجلى المهارة والحذق في شخصية عبدالرحمن بن عوف الذي كان عارفاً بالسوق وأموره والتجارة وشئونها معرفة لا يتصور معها أن يخسر في تجارته أو يفشل في محاولة تجارية، ودفعه النجاح الباهر الذي كان يحققه في صفقاته التجارية إلى أن قال(١١٦): «لو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً»، ثم انظر إلى قصة متاجرته في السوق حينما هاجر إلى المدينة، وقد ترك أمواله وراءه في مكة وليس معه شيء من متطلبات التسوق سوى عقليته التجارية الخارقة، هذه القصة ذكرها من ترجم له على النحو التالي(١١٧): «قدم المدينة فآخى رسول الله ـ ﷺ ـ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له: أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها إليك، فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق، فدلوه على السوق فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمن ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه درع من زعفران فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: مهيم؟ فقال يا رسول الله تزوجت امرأة، قال: فما أصدقتها؟ قال: وزن نواة من ذهب قال: أولم ولو بشاة».

وهذه العقلية التجارية مكنت قريشاً أن تجعل أرباحها في بعض صفقاتها مضاعفة، فقد حدثتنا كتب التاريخ أن تجارة قريش التي تصدى لها المسلمون ـ وكانت سبب غزوة بدر ـ ونجت كانت ألف بعير موقرة «وكانوا يربحون بكل دينار ديناراً»(١١٨).

هذا وكانت قريش شديدة الحرص على سمعتها التجارية وتعاملها مع الآخرين حتى لا تتأثر صورتها التجارية في عيون الناس. وأحسب أن حلف الفضول إنما هو «تجاري بمقدماته ونتائجه حفظ سمعة قريش وصان ازدهار أسواق مكة وأسدل عليها ستاراً من الإنصاف والأمن وحماية الضعيف بعد أن كاد الأمن فيها يتعرض للخطر، وكادت حوادث الاعتداء على حقوق الضعفاء تزداد حتى أوشكت أن تزعزع ثقة الأعراب وتجار النواحي بأسواق مكة»(١١٩).

أما قصة هذا الحلف فهي: أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن باع سلعة من العاص بن وائل السهمي، فظلمه بالثمن فأوفى على جبل أبي قبيس رافعاً عقيرته وقريش في أنديتها، فذكر ظلامته في شعر له وهو:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحـرم أشعـث*(ل) لمن يقضي عمرتـه | يالـلرجـال وبـين الحـجـر والحـجـر
إن الحـرام لمن تمت مكـارمـه | ولا حرام لثـوب الـفـاجـر الـغـدر

فتـداعت لذلـك قريش واجتمعت إليـه بنـو هاشم وزهـرة وبنـو أسد بن عبدالعزى، فدخلوا دار عبدالله بن جدعـان لشـرفـه وسنـه وتعـاقدوا بالله ليكونن مع المظلوم حتى يؤدّى إليه حقه، فلا يجدون بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته»(١٢٠).

احترمت قريش هذا الحلف وتمسكت به لمصالحها التي من أهمها التجارة، وكان ممن احترمه رسول الله ـ ﷺ ـ فقد رووا عنه أنه قال(١٢١): «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو ادعى به في الاسـلام لأجبت». ويـروى أنـه ـ ﷺ ـ بينـما هو جالس في المسجـد مع رجال من أصحابه إذ أقبل رجل من زبيد يقـول: يا معشـر قريش كيف تدخـل عليكم المادة أو يجلب اليكم جلب أو يحل تاجر بساحتكم، وأنتم تظلمون من دخـل عليكم في حرمكم؟ يقف على الحلق حلقـة حلقـة حتى انتهى إلى رسـول الله ـ ﷺ ـ فقـال: ومن ظلمك؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خير إبله فسامه أبوجهل ثلث أثمانها ثم لم يسمه بها لأجل أبي جهل أحد شيئاً، ثم قال: فأكسد على سلعتي وظلمني. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: وأين جمالك؟ قال هي هذه بالحروزة، فقام رسول الله ـ ﷺ ـ وقام أصحابه فنظر إلى الجمال فرآى جملا فردها، فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاه، فأخذها رسول الله ـ ﷺ ـ فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعيراً باعه وأعطى أرامل بني عبدالمطلب ثمنه، وأبوجهل جالس في ناحية السوق لا يتكلم. ثم أقبل إليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ياعمرو وإياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأمر بهذا الاعرابي فترى مني ما تكره فجعل يقول: لا أعود يا محمد لا أعود يا محمد. فانصرف رسول الله ـ ﷺ ـ» (١٢٢).

وبقدر ما كانت قريش حريصة على سمعتها التجارية فقد كانت أيضاً حريصة على أن تبقي علاقاتها القبلية مع القبائل التي تقع بلادها على طريق تجارتها، حتى تضمن سلامة عيرها ذاهبةً آيبة. يبدو ذلك واضحاً في إكباب العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ على أبي ذر حين ضربته قريش لأنه أعلن إسلامه وقبيلته(١٢٣): «ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم عليهم؟»، فتركوا ضربه لهذا السبب فقط. وحينما علمت قريش بأن عبدالله بن جحش تعرض لعير العلاء بن الحضرمي في نخلة كانت الأذية منهم بالغة(١٢٤).

وقد كان أنجع سلاح تُحَارَب به قريش هو التعرض لقوافلها حتى لا تكون الطريق آمنة لها، ولذلك كبر على قريش تعرض المسلمين لعيرهم وترصدها في طريق الساحل، وقد كان طريق تجارتهم. ووقف صفوان بن أمية يعلن ذلك أمام الملأ من قريش قائلاً(١٢٥): «إن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسكن. وإن أقمنا في دارنا

---

* المحرر:

(ل) كذا بالأصل وصحتها «لم» وبها يستقيم الوزن. انظر **الروض الأنف** (ط. دار الكتب الحديثة، **١٩٦٧**)، جـ**٢**، ص **٧٢**. كما أن كلمة «مكارمه» التي وردت في البيت الثالث وردت «كرامته» في المرجع المذكور.

هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء، وبعد مداولة طويلة وجدوا أن الطريق البديل هو طريق العراق خلال نجد، فخرجت عيرهم مثقلة بالعروض والفضة وبلغ أمرها النبي - ﷺ - فأرسل زيد بن حارثة لها في سرية فغنم العير وأسر الدليل(١٢٦). هذا وذهب بعض المؤرخين إلى أن صلح الحديبية وتشدد قريش كانت وراءهما أسباب تجارية. وفي هذا الصدد يقول سعيد الأفغاني(١٢٧): «ولعل أشد ما أحمى قريشاً في موقفها من الرسول وصحبه في مفاوضات الحديبية خوفها أن تفقد مكة ما عرفت به من حرمة وأمن إذا اقتحمها عليهم محمد - ﷺ - عنوة، فلا تعود العرب تقصدها للتجارة فتتعطل أسواقها وتخسر قريش أرباحها وثراءها، فلذلك حالوا بكل مايستطيعون دون وقوع قتال ودون دخول المسلمين لها عامهم ذاك، إبقاءً على مصالحهم التجارية والأدبية بين العرب».

كذلك حرصت قريش على حسن العلاقات مع البلاد التي تتاجر فيها أو تعتمد على منتوجاتها، واتخذت جميع السبل الكفيلة للبقاء على علاقاتها حميمة مع تلك البلاد مهما يكن الثمن، ولذلك فإن قريشاً اتخذت موقفاً حازماً من عبدالله بن جدعان حينما طرد مائة ناقة لكلاب بن ربيعة الذي أرسل لقريش(١٢٨): «إن سفيهكم أغار عليّ وطرد لي مائة ناقة فليس لكم أن تشهدوا عكاظ ولي عليكم ترة». وكان هذا الموقف أن همت قريش بقتله، يقول ابن جدعان(١٢٩): «وإن قريشاً ائتمرت بقتلي لئلا أجني عليهم الجرائر فيطلبون بسببي وهم تجار لا يستغنون عن بلد».

وذهبت قريش إلى أبعد من ذلك في سبيل تأمين تجارتها في اليمامة التي كانت منها تأتي الحنطة إليهم، فإنهم قد كتبوا إلى رسول الله - ﷺ -، وهم أعداؤه والمعارك بينهم على أشدها يسألونه بأرحامهم «أن يكتب إلى ثمامة بن أثال يخلي إليهم حمل الطعام» بعد أن منع حنطة بلاده اليمامة أن تذهب إلى مكة بعد إسلامه(١٣٠).

وكان عثمان بن الحويرث يعرف حرص قومه على البلاد التي يتاجرون فيها أن تظل العلاقة بينهم وبين أهلها حميمة، ولذلك فإنه هدد قريشاً بتعريض تجارتها في الشام إلى سوء إن لم تقبل تمليكه عليهم، والقصة عند الفاسي على النحو الآتي(١٣١): «خرج عثمان بن الحويرث وكان يطمع أن يملك قريشاً، وكان من أظرف قريش وأعقلها حتى قدم على قيصر وقد رأى موقع حاجتهم إليه ومتجرهم من بلاده فذكر له مكة ورغّبه فيها، وقال: تكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعاء، فملّكه عليهم وكتب له إليهم، فلما قدم عليهم قال: يا قوم إن قيصر من قد علمتم أموالكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب فأجمع ذلك ثم أبعثه إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه، فلما قال لهم ذلك خافوا قيصر وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم، فاجتمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج عشية وفارقوه على ذلك...».

ومهما يكن من أمر فقد رأت قريش ضرورة حماية قوافلها التجارية في البلاد التي تتاجر فيها وفي البلاد التي تمر عليها، فأحست بالحاجة إلى إبرام العهود والأحلاف مع تلك البلاد واتخاذ الخفراء لتحميها من ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل، كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم، والخصلة

الأخرى: أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً كبني طيىء وخثعم وقضاعة، وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له. . . فكان الإيلاف صلاحاً للفريقين، إذ كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً، فأخصبت قريش وأتاها خير الشام واليمن والحبشة، وحسنت حالها وطاب عيشها» . (١٣٢)

هذا وتحدثنا كتب التفسير والتاريخ والأدب عن قصة الإيلاف وأنه كان حتماً لحماية تجارة قريش، فهو أمان لها. فهذا القالي يورد ما قاله هاشم لقيصر طالباً منه الأمان لقومه(١٣٣): «أيها الملك إن قومي تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحي من أحياء العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً».

أما ابن سعد فيقول (١٣٤): «كان هاشم رجلاً شريفاً وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر لأن تختلف آمنة». ويقول ابن أبي الحديد(١٣٥): «أن هاشماً سأل قيصر أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه فقبل». وهكذا استطاع هاشم أن يعقد معاهدة تجارية مع قيصر كما استطاع إخوته أيضاً أن يعقدوها مع فارس والحبشة واليمن ولذلك فقد أسماها الفيروزآبادي «بحبال»، إذ يقول(١٣٦): «وكان هاشم يؤالف إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم. وكان كل أخ منهم أخذ حبلاً* (م) من ملك ناحية سفره أماناً له».

هذا هو ما عمله هاشم وإخوته مع ملوك البلاد المجاورة، أما ما عملوه مع رؤساء القبائل التي تمر تجارتهم على مواقعهم، فقد أخذوا منهم خفارات تضمن لهم سلامة قوافلهم، ولذلك عيَّر هانيء بن قبيصة الطائي قريشاً بأخذهم الخفارة في قوله(١٣٧): «إنما قريش عبيد من غلب، والله ما يمنعون خفيراً ولا يخرجون من بلاده إلا بخفير». ولعل شرح الفيروز أبادي للإيلاف بأنه «العهد وشبه الإجازة بالخفارة»(١٣٨)، هو أشمل التعريفات وأحسنها.

ويذكر المرزوقي أن قريشاً «إذا أخذت على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع، وذلك أن مضر علمتهم لا تتعرض لتجار قريش ولا يتهجمهم حليف لمضري مع تعظيمهم لقريش ومكانهم من البيت، وكانت مضر تقول: «قد قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا أبونا اسماعيل من الدين، وكانوا إذا خرجوا من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب، وكانت كلب حلفاء بني تميم، فإذا شغلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى يخرجوا على طيىء فتعطيهم وتدلهم على ما أرادوا لأن طيئاً حلفاء بني أسد، فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمرو بني مرثد من بني قيس بن ثعلبة فيجيز لهم ذلك ربيعة كلها»(١٣٩).

*** المحرر:**

(م) وردت في **شفاء الغرام** «خيل» بالخاء المعجمة والياء المثناة، انظر ص **٢٢٥** من هذا البحث والهامش (ط) للمحرر.

ولا شك أن قريشاً كانت تدفع للقبائل مادة مقابل خفارتها وضمان سلامة طريق تجارتها، وصفة الإيلاف الذي أخذه هاشم من القبائل العربية: «أن يؤمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف وإنما هو أمان الطريق ـ على أن قريشاً تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم»(١٤٠)، وعبر ابن سعد عن ذلك بقوله(١٤١): «وأما من على الطريق، فألفهم على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق».

وثمة مسألة هامة تبين لنا عقلية قريش التجارية، وهي أن قيادة قوافلها تسند إلى أهل العقل والتدبير، فقد اسندت خديجة ـ رضي الله عنها ـ قيادة عيرها إلى محمد ـ ﷺ ـ وأتى بأرباح مضاعفة(١٤٢). كما كانت تسندها في أكثر الأحوال إلى أبي سفيان وأمثاله من حكمائهم وعقلائهم، لا سيما إذا كانت البلاد المقصودة للتجارة بلاداً لا خبرة لهم بأهلها أو طرقها التجارية، أو إذا كانت الرحلة التجارية تتطلب إبرام عهود أو مفاوضات تجارية، فهذا أبو سفيان مثلاً يذهب في ريادة إلى فارس ويأخذ معه حكيم العرب غيلان بن سلمة الثقفي فينجحان في التمهيد لتجارتهم بها(١٤٣).

وكانت قريش تشعر بخطورة تجارتها وما قد تتعرض له من ربح أو خسارة أو نهب أو ما إلى ذلك، فلذلك كانت تتشاور في أمور التجارة ولا ترسل عيراً أو قافلة للتجارة إلا بعد أن تناقش جميع الملابسات والظروف التي بها يمكن أن تربح، فكثيراً ما دوت دار الندوة بنقاش عقلائهم التجاري وإصدار القرار النهائي لاتجاه القافلة ومن يقودها وأين تتوجه، وكان هذا أحد جداول الأعمال التي تناقش في دار الندوة إذ أنها كانت لتشاور قريش وعقد الألوية في حروبهم، ولا ينكح رجل من قريش إلا فيها، ولا يعقد لواء الحرب لهم ولا لغيرهم إلا فيها، ولا يعذّر غلام إلا فيها، ولا تدرع جارية من قريش إلا فيها يشق عليها درعها، ثم تدرع وينطلق بها إلى أهلها، ولا تخرج عير من قريش إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها»(١٤٤).

وكان من ثمرة هذا التدبير التجاري أن ازدهرت مكة اقتصادياً وكثرت مواردها وزاد حجم تجارتها، وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب بعض احصائيات جاءت عرضاً أو في سياق حديث ولكنها ذات دلالة قوية، فمن هذه الاحصائيات أن هاشماً حينما خرج في عير لقريش ومر على المدينة، تزوج سلمى بنت عمرو من بني النجار فصنع طعاماً ودعا من معه من أصحاب العير «وكانوا أربعين رجلاً من قريش فيهم رجال من بني عبدمناف ومخزوم وسهم»(١٤٥) ثم بدأ العدد بالزيادة تدريجياً حتى وصل في عهد أبي سفيان وابن جدعان، وهو عصر ازدهار تجارة قريش إلى أضعاف هذا العدد، فابن جدعان وحده «يرسل إلى الشام ألفي بعير تحمل البر والشهد والسمن»(١٤٦)، وأبو سفيان يستأجر ألفين من الأحابيش وحدهم(١٤٧).

أما ما تدره هذه القوافل من أرباح وما تحمله من أموال فقد كانت عظيمة جداً بقياس ذلك الزمن، وقد قدر المستشرق سبرنجر صادرات مكة السنوية بحوالي مائتين وخمسين ألفاً من الدنانير أي نحو مائة وستين ألف جنيه ذهباً(١٤٨)، وحينما هزمت قريش ببدر ائتمر القرشيون وشركاؤهم أن ينفقوا ربح هذه العير على تجهيز جيش يحاربون به محمداً ـ ﷺ ـ وكانت ألف بعير موقرة بها قيمته خمسون ألف دينار ـ أو على رواية المقل ـ خمسة وعشرون ألف دينار(١٤٩).

وحسبك ما يتمتع به القرشيون من ثروة هائلة نفقاتهم في المواسم على الحجاج، فقد كان أبو طالب استلف في سنة من السنوات من أخيه العباس مبلغ أربعة عشر ألفاً ليسقي بها الحجاج(١٥٠). وكان أبوه عبدالمطلب قبله قد أمهر زوجته فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب»(١٥١)، وكان أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ من تجار قريش المرموقين ومن ذوي التدبير فيهم. ففي ترجمته أنه كان «معروفاً بالتجارة ولقد بعث رسول الله ـ ﷺ ـ وعنده أربعون ألفاً، وكان يعتق منها ويعول المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف، وما مات حتى ما ترك ديناراً ولا درهماً»(١٥٢)، ولو استمررنا في إحصاء ما عند كبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كالزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف لأخذت الدهشة منا كل مأخذ.

كيفية التعامل التجاري

أحسب أن بيوع العرب في جاهليتهم تستحق فصلاً كاملاً في هذا البحث ولكن من سبقني في بحث التجارة عند العرب أوفى هذا الموضوع حقه، لذلك فسأذكر أنواع هذه البيوع بإجمال واختصار دون شرح لها أو تبيين صورها مكتفياً، آخر الأمر، بالإحالة على المصادر والمراجع التي تطرقت إلى ذلك بالتفصيل. وهذه البيوع هي:

١ ـ الرمي بالحصاة وتسمى أحياناً بإلقاء الحجارة.
٢ ـ المُنابذة.
٣ ـ الملامسة.
٤ ـ المعاومة.
٥ ـ المزابنة.
٦ ـ المحاقلة.
٧ ـ المخابرة.
٨ ـ حبل الحبلة.
٩ ـ السرار.
١٠ ـ الناجز.
١١ ـ الجس.
١٢ ـ المخاضرة.
١٣ ـ الطنى.
١٤ ـ المجر.
١٥ ـ الغدوى.

وبجانب هذه الأنواع من البيوع كانت هناك عادات ضارة لها علاقة بهذه الأنواع من البيوع كالتّصرية وبيع الحاضر للبادي والنجش والأعراب وتلقي الركبان والخلابة والاحتكار والمكس ونحو ذلك(١٥٣).

ولعل أهم ما يلفت النظر بعد أنواع بيوعهم هو:

١ ـ تعاملهم بالربا

ويرجح أن الربا جاء من طريق اليهود قبل أن تعرفه العرب(١٥٤)، ولذلك فقد انتشر في المدن التي كان فيها لليهود إقامة كالطائف والمدينة(١٥٥)، فقد ذكر المفسرون أن أربعة إخوة من ثقيف كانوا يداينون بني المغيرة بن عبدالله ابن عمير بن عوف الثقفي وكانوا يرابون، فلما ظهر النبي ـ ﷺ ـ على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة من بني عمرو الثقفي وطلبوا رباهم من بني المغيرة، فقال بنو المغيرة: «والله ما نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله عن المؤمنين، فاختصموا إلى عتّاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ـ ﷺ ـ على مكة، فكتب إلى النبي بقضية الفريقين وكان ذلك مالاً عظيماً، فأنزل الله: «يَا أَيُّها الّذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ من الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»(١٥٦)، وروي عن عطاء أنه قال: «كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون . . »(١٥٧)؛ وكانت ثقيف قد صالحت النبي ـ ﷺ ـ: «على أن مالهم من ربا الناس وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع»(١٥٨). وروي أنه لما جاء وفد ثقيف لمفاوضة الرسول في أمر دخولهم في الإسلام قال عبدياليل: «أرأيت الزنا؟ فإنّا قوم عزاب لا بد لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العزبة، قال: هو مما حرم الله قال: أرأيت الربا؟ قال: الربا حرام، قال: فإن أموالنا كلها ربا، قال لكم رؤوس أموالكم، قال: أفرأيت الخمر؟ فإنها عصير أعنابنا ولا بد لنا منها، قال: فإن الله حرمها»(١٥٩)، ويذكر ابن عبدربه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لثقيف كتاباً حين أسلموا: «أن لهم ذمة الله، وأن واديهم حرام عضاهه وصيده وظلم فيه، وأن ما كان لهم من دين إلى أجل فبلغ أجله فإنه لياط مبرأ من الله ورسوله، وأن ما كان لهم من دين في رهن وراء عكاظ فإنه يقضى إلى رأسه ويلاط بعكاظ»(١٦٠).

وكان أهل نجران ـ وأكثر تجارهم يهود ـ يتعاملون بالربا وقد أسقط النبي ـ ﷺ ـ كل ربا كان عليهم في الجاهلية إلا رؤوس أموالهم فإنهم يؤدونها(١٦١). أما في المدينة فقد كان الربا أوسع انتشاراً بين اليهود وبين غيرهم من تجار الأوس والخزرج، فهذا أتيحة بن الجلاح البخيل المشهور «يبيع بيع الربا بالمدينة حتى يحيط بأموالهم، وكان له تسع وتسعون بئرا كلها ينضح عليها» (١٦٢)، كذلك كان أهل المدينة يقترضون المال والطعام من اليهود مقابل ربا فاحش، فقد ورد في الحديث أن أنصاريا اقترض ثمانين دينارا من يهودي وقد أعطاه ربا بلغ خمسين في المائة من المبلغ لسنة واحدة(١٦٣)، وذكر بعض المفسرين أن القرآن الكريم وبخهم لأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل بقوله: «فبظلمٍ من الذينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِم طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وأعْتَدْنَا لِلْكافِرِينَ مِنْهُم عَذَاباً أَلِيماً»(١٦٤).

وأما المجتمع القرشي في مكة فقد تسرب اليه الربا عن طريق يهود الطائف ويثرب، واستمرأوه وتعاطوه. وكان ممن تعاطاه قبل إبطاله رجال لهم رئاسة وشرف كعثمان بن عفان والعباس بن عبدالمطلب وخالد بن الوليد ـ رضي الله

عنهم ـ فقد ذكر ذلك الخازن في تفسيره *(ن) لقوله تعالى: «وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا»(١٦٥). كذلك ذكر الواحدى أنها «نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا. . فجاء الاسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية»(١٦٦). فلما دخل المسلمون مكة المكرمة وقف رسول الله ـ ﷺ ـ خطيباً وأعلن تحريمه للربا بادئاً بربا عمه العباس، وقال قولته المشهورة: «ألا وإن كل ربا الجاهلية موضوع كله، وأول ربا أبتدىء به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب»(١٦٧).

وكان بعض القرشيين يرى أن الربا كسب رديء ينبغي ألا يتقرب به، يتضح هذا من حادثة بناء قريش الكعبة التي أوردها ابن اسحق من أن قريشاً لما «أجمعوا أمرهم لهدمها وبنيانها قام أبو وهب عمرو بن عائد بن عبد بن عمران بن مخزوم. . فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً. لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس»(١٦٨).

والربا على نوعين: ربا النسيئة وربا الفضل، أما ربا النسيئة وهو المتداول به في الجاهلية فهو أن ينسىء المدين في الدفع مقابل زيادة، وربا الفضل هو بيع العينات التي اشتمل عليه الحديث المشهور بعضها ببعض، والحديث هو: «الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء، والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء»(١٦٩).

والذي يهمنا هو النوع الأول من هذا الربا، وصفته على ما ذكر المفسرون على النحو التالي:

أولاً: في تضعيف النقود: وهو كما كان في ربا العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وفي ربا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنهما «كانا قد أسلفا في التمر فلما حضر الجذاذ، قال لهما صاحب التمر لا يبقى لي ما يكفي عيالي إذا أنتما أخذتما حظكما كله، فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما ففعلا، فلما حل الأجل طلبا الزيادة فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فنهاهما وأنزل الله تعالى هذه الآية، فسمعا وأطاعا وأخذا رؤوس أموالهما»(١٧٠). وكذلك ما أورده الطبري من أن المرابين بالجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم لغريم الحق: «زدني في الأجل وأزيدك في مالك»(١٧١)، وذكر كذلك أن ربا أهل الجاهلية: يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى، فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه(١٧٢). وذكر أيضا أنهم «كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين فيقول لك كذا وكذا وتؤخر عني فيؤخر عنه»(١٧٣)، وذكر العيني أن الداين يقول لمدينه إذا حل الدين: «إما أن تقضي وإما أن تربي»(١٧٤)، وذكر الجصّاص أن «الربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله إنما كان قرض الدراهم والدنانير الى أجل بزيادة على مقدار ما استقرضه على ما يتراضون به» و«أن ربا الجاهلية إنما كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة فكانت الزيادة بدلاً من الأجل» (١٧٥).

*** المحرر:**

(ن) **المقصود كتاب لباب التأويل في معالم التنزيل.**

والـزيـادة في النقـد إنـما تكـون بالتضعيف كما ذكـر ذلـك الطـبري في تفسـيره لآيـة «لَا تَأْكُلُوا الـرِّبا أضعَافًا مُضَـاعَفَـةً» : «وفي العـين يأتيـه فإن لم يكن عنـده أضعفـه في العام القابل فإن لم يكن عنده أضعفه أيضا فتكون مائة فيجعلهـا إلى قابـل مائتـين فإن لم يكن عنـده جعلهـا أربعـمائة ، يضعفها له كل سنة أو يقضيه»[176] ، قال ابن حجر الهيتمي المكي[177] : «وربـا النسيئـة الـذي كان مشهوراً في الجاهلية لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل على أن يأخذ منه كل شهر قدراً معيناً ورأس المال باق بحاله ، فإذا حل الأجل طالب برأس ماله فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل» .

ثانياً : في تضعيف السن : وهذا إنما يتأتى في الإبل والماشية وصفته : «يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حلّ الأجل فيقول له : تقضيني أو تزيدني ، فإن كان عنده شيء يقضيه وإلا حوّله إلى السنّ التي فوق ذلك ، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حقة ثم جذعة ثم رباعياً هكذا إلى فوق»[178] .

ثالثاً : في الطعام : وهذا النوع من الربا «كان شائعاً بين أهل العمود والبوادي بصورة خاصة إذ ليس عندهم دراهم ولا دنانير ، فكانوا يأخذون الصاع الواحد مقابل صاع وزيادة ، والزيادة رباه حتى يكون قفزاناً كثيرة»[179] ، وعده ابن القيّم رباً مثل ربا النقد[180] .

رابعـاً : في الـذهب والفضـة : وصورة ذلك أن يؤخذ الذهب والفضة وزناً فإذا أعادوه زادوا عليه وزن الربا ، وقـد ورد في الحـديث : «لا تبيعـوا الـذهب بالـذهب إلا مِثـلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منها غائبا بناجز»[181] .

٢ ـ الرهـن

عرف العـرب الـرهن كما عرفـوا الـرِّبـا ، الا أن هنـاك أنواعاً من الرهن غريبة كان العرب يتعاملون بها بعض الأحيان كرهن الأولاد أو النساء ، وقد طلب هذا النوع من الرهن اليهود من صديقهم أبي نائلة ، فقد جاء في **سيرة ابن هشـام** أن أبـا نائلة سلطـان بن سلامـة أتى أحـد أشـراف اليهـود وأغنيـائهم كعب بن الأشـرف وكان أخاه من الـرضـاعـة ، فقـال له : «إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثّق لك وتحسن في ذلك» ، فقال كعب : «أترهنوني نسـاءكم؟» قال : كيف نرهنـك نسـاءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم؟ قال كعب : أترهنوني أبناءكم؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ؛ إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه الوفاء»[182] . ورغم هذه القصة فإنا لا نعرف من العرب من قبل برهن نسائه لما يحمله هذا من العار والفضيحة .

أمـا رهن الأولاد فهنـاك حادثـة لا تقوم دليلاً أكيداً على أن العرب كانوا يرهنون أولادهم ، ولعل هذه الحادثة كانت فريـدة بطلتهـا امـرأة نشـوى رهنت ابن أخي زوجها ، فقد بعثها زوجها الجشمي ـ واسمها عبلة بنت عبيد بن خالد بن حنظلة ـ إلى عكاظ بأنحاء سمن تبيعها له فيها ، فباعت السمن والراحلتين وشربت بثمنها الخمر فلما نفذ الثمن رهنت ابن أخيه وهربت فطلقها ، فقالت في شربها الخمر:

شربت براحلتيّْ محجن فيا ويلتى محجن قاتلي
وبابن أخيه على لَذةٍ ولم أحتفل عذلة العاذل

وتزوجها عبدشمس بن عبد مناف فولدت له أمية الأصغر وعبد أمية ونوفلا، وهم العبلات(١٨٣). ولا بد عندهم من إيفاء الرهن إما اذا غلق (أى لم يوجد له تخلص)، فيدخل ضمن الربا ويضاعف ولذلك فإن رسول الله ـ ﷺ ـ تبرأ منه، كما مر في كتابه لوفد ثقيف، وقد ذكر زهير بن أبي سلمى انغلاق الرهن في شعره فقال(١٨٤):

وفارقتك برهن لا فكاك له يوم الوداع وأمسى الرهن قد غلقا

٣ ـ التسليف ورد الدين

كان التسليف معروفاً بين الجاهليين كما كان الدين ومما يلفت النظر ويدعو الى العجب حادثتان أولاهما في التسليف والأخرى في الدين، وكلاهما ترتب عليه عند العجز عن الوفاء سلب حق منصب شرف أو استرقاق، فحادثة التسليف ما كان من العباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ أن أخذ شرف السقاية من أخيه أبي طالب حينما عجز عن سداد سلفة، وهي على ما رواه ابن كثير كالآتي(١٨٥): «وكانت السقاية إلى عبدالمطلب أيام حياته، ثم صارت إلى ابنه أبي طالب بعده، ثم اتفق أن أملق في بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر، وصرفها أبو طالب في الحجيج في عمله فيما يتعلق بالسقاية، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء، فقال لأخيه العباس أسلفني أربعة عشر ألفاً أيضاً إلى العام المقبل أعطيك جميع مالك، فقال له العباس: بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لي أكفلها فقال نعم..».

أما الدين فإن ابن القيّم يقول(١٨٦): «وقد قيل إنه كان في أول الاسلام يسترق الحر في الدين»، وهذا بلا شك امتداد لما كانت عليه الجاهلية حتى جاء الاسلام بتعاليمه التي تحكم الدائن والمدين.

٤ ـ القراض والمضاربة

ومن الطرق التي عرفها العرب لتنمية تجارتهم ما عرف بالقراض أو المضاربة. وصفة ذلك: تقديم مال إلى شخص يتّجر به على جزء يأخذه من ربح المال(١٨٧)، وذلك كأن يعطي رب مال رجلاً مالاً يعمل فيه ويأذن له أن يشتري ما يشاء، وأن يبيع بالسعر الذي يشاء، ويدير هذا المال على يديه وبعد إخراج رأس المال وما صرف على التجارة من أتعاب وأجور وضرائب يوزع الربح نصفين أو ثلاثاً، لرب المال الثلثان وللعامل بحق عمله الثلث، أو حسب ما تعاقدا عليه(١٨٨). وقيل القراض: أن يدفع إليه مالاً ليتّجر به والربح بينهما على ما يشترطان والوضيعة على المال(١٨٩).

أما أنهم كانوا يمارسون هذا النوع من الاتجار فقد روت كتب التاريخ أن خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ كانت في الجاهلية امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة «تبعث بها إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع اليهم الأموال مضاربة»(١٩٠)، ومن ضمن من ذهب في تجارتها مضاربة رسول الله ـ ﷺ في قصته المشهورة، وكذلك أخرج ابن سعد عن عبدالله قال: «كان عثمان رجلاً تاجراً في الجاهلية والإسلام وكان

يدفع ماله قراضاً»(١٩١)، وأخرج أيضا عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه أن عثمان دفع إليه مالاً مضاربة على النصف(١٩٢)، واستمر القراض في الاسلام. ويذكر ابن رشد أن أول قراض كان في الاسلام قراض يعقوب مولى الحرقة مع عثمان بن عفان، وذلك أن عمر بن الخطاب بعث من يقيم من السوق من ليس بفقيه، فأقيم يعقوب فيمن أقيم فجاء إلى عثمان فأخبره فأعطاه مزود تبر قراضاً على النصف، وقال له: إن جاءك من يعترضك فقل المال لعثمان، فقال ذلك فلم يقم، فجاء بمزودين مزود رأس المال ومزود ربح»(١٩٣).

وأخيراً فهناك سنة جاهلية يتبعها أهل الغلو في دينهم وهو تجنب التجارة أيام المواسم خاصة موسم الحج، لأنهم يرون أن من يتجر في هذا الموسم فهو داج وليس بحاج، وعن هؤلاء الحمس من قريش وأحلافها، يقول الزمخشري(١٩٤): «كان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، ويسمون من يخرج بالتجارة الداج ويقولون: هؤلاء الداج وليسوا بالحاج». وصلى الله على محمد وسلم.

الهوامش

(١) ص ص ١٩٣ - ٣٨٩.
(٢) **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٢، ص ص ٤٨٧ - ٥٠٤.
(٣) **بلوغ الأرب**، جـ٣، ص ٣٨٧.
(٤) الثعالبي، **ثمار القلوب**، ص ٥٣٥.
(٥) المصدر نفسه، ص ٥٣٤، وانظر الأفغاني، **أسواق العرب**.
(٦) **الإكليل**، جـ٨، ص ١٢٠.
(٧) ابن الفقيه، **البلدان**، ص ٢٥١.
(٨) **بدائع السلك في طبائع الملك**، جـ٢، ص ٣٢٨.
(٩) عن **مجلة المجمع العلمي العراقي**، جـ٢، ص ٢٦٤.
(١٠) الافغاني، المصدر نفسه، ص ١٧.
(١١) المصدر نفسه، ص ١٧.
(١٢) **تاريخ اللغات الساميّة**، ص ص ١٢٧، ١٢٨.
(١٣) الأفغاني، المصدر نفسه، ص ١٨.
(١٤) المصدر نفسه، ص ١٨ (عن **العهد القديم**، «سفر الملوك الأول»: الاصحاح العاشر).
(١٥) المصدر نفسه، ص ص ١٨، ١٩ (عن **مجلة الرسالة**، العدد ١٧٥).
(١٦) **سبل الهدى والرشاد**، جـ١، ص. ٢٥٠.
(١٧) **سيرة ابن كثير**، جـ١، ص ٣٠.

(١٨) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ١٨.
(١٩) ص ٦٩.
(٢٠) **سيرة ابن هشام**، جـ١، ص ٧٧.
(٢١) الأزرقي، **تاريخ مكة**، ص ٥٨، **سيرة ابن كثير**، جـ١، ص ٦١.
(٢٢) الفاسي، **شفاء الغرام**، جـ٢، ص ٥٠.
(٢٣) السهيلي، **الروض الأنف**، جـ١، ص ١٠٢.
(٢٤) الأفغاني، **المصدر نفسه**، ص ٢٢.
(٢٥) ابن سعد، **الطبقات**، جـ١، ص ٥٨.
(٢٦) الزرقاني، **شرح المواهب**، جـ٣، ص ٦٣.
(٢٧) ص ١٨.
(٢٨) **فتوح البلدان**، ص ص ٦٧، ٦٨.
(٢٩) **سيرة ابن هشام**، جـ٢، ص ٥٥.
(٣٠) **صحيح مسلم**، جـ٣، ص ١٥٦٩.
(٣١) الكتاني، **التراتيب الادارية**، جـ٢، ص ٦٤.
(٣٢) **فجر الاسلام**، ص ١٥.
(٣٣) انـظر ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، جـ٢، ص ص ٩ - ١٩. والاصفهاني، **الاغاني**، جـ٣، ص ص ٢٠٦ - ٢٠٧.
(٣٤) انظر كتب التفاسير كالزمخشرى، **الكشاف**، جـ٢، ص ٥٠٢.
(٣٥) ص ص ٥٥ - ٥٩.
(٣٦) **تاريخ الطبرى**، جـ٥، ص ٢٣٥٠.
(٣٧) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ١٢٦.
(٣٨) **الموضع السابق نفسه**.
(٣٩) ابن العربي، **العواصم من القواصم**، ص ٩١.
(٤٠) **المقدمة**، ص ص ٣٩٥، ٣٩٦.
(٤١) **المصدر نفسه**، ص ٣٩٩.
(٤٢) **بدائع السلك**، ص ٣٢١.
(٤٣) الكتاني، **التراتيب الادارية**، جـ٢، ص ٦٤.
(٤٤) **ديوان المتنبي**، جـ٣، ص ١٧.
(٤٥) **بلوغ الأرب**، جـ٣، ص ٣٨٥.
(٤٦) **سنن ابن ماجة**، جـ٢، ص ٧٢٤.
(٤٧) **رسائل الجاحظ**، ص ١٤٢.
(٤٨) **ثمار القلوب**، ص ١١.

(٤٩) **سيرة ابن كثير**، جـ١، ص ٨٧.
(٥٠) **شفاء الغرام**، جـ٢، ص ٦٤.
(٥١) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ص ٩١ - ٩٢.
(٥٢) **سيرة ابن هشام**، جـ١، ص ٩٤.
(٥٣) **رسائل الجاحظ**، ص ١٤٢.
(٥٤) القالي، **الأمالي**، جـ٣، ص ١٩٩.
(٥٥) **سبل الهدى**، جـ٢، ص ٢١٤.
(٥٦) ابن سعد، **الطبقات**، جـ٤، ص ٥١.
(٥٧) **ثمار القلوب**، ص ص ١١، ١٢.
(٥٨) الألوسي، **بلوغ الأرب**، جـ٣، ص ٣٨٦.
(٥٩) **المصدر نفسه**، ص ٣٨٧.
(٦٠) **سنن ابن ماجة**، جـ٢، ص ٣٢٦.
(٦١) الكتاني، **التراتيب الإدارية**، جـ٢، ص ص ٢٩، ٣٠.
(٦٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٠.
(٦٣) بدران، **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، جـ٤، ص ٤٢١.
(٦٤) الكتاني، **التراتيب الادارية**، جـ٢، ص ص ٢٤، ٢٥.
(٦٥) **تفسير القمي**، جـ٣٠، ص ١٨٦.
(٦٦) الزمخشري، **الكشاف**، جـ٢، ص ٥٠١.
(٦٧) الفاسي، **شفاء الغرام**، جـ٢، ص ٨٤، والقالي، **الأمالي**، جـ٣، ص ١٩٩.
(٦٨) الفاسي، **المصدر نفسه**، جـ٢، ص ٨٤.
(٦٩) **ثمار القلوب**، ص ١١٥.
(٧٠) القالي، **المصدر نفسه**، جـ٣، ص ١٩٩.
(٧١) الفاسي، **المصدر نفسه**، جـ٢، ص ٨٤.
(٧٢) **الطبقات**، جـ١، ص ٥٥.
(٧٣) **ثمار القلوب**، ص ١٠.
(٧٤) القالي، **المصدر نفسه**، جـ٣، ص ١٩٩.
(٧٥) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ص ١٣.
(٧٦) الفاسي، **المصدر نفسه**، جـ٢، ص ١٠٨.
(٧٧) **تفسير الألوسي**، جـ٦، ص ٥٠ **(المحرر: المقصود روح المعاني)**.
(٧٨) السيرة، جـ٢، ٢٥٧.
(٧٩) ابن القيم، **زاد المعاد**، جـ٢، ص ٨٤.
(٨٠) انظر مثلا. الصالحي، **سبل الهدى**، جـ٢، ص ٢٢٨.

(٨١) ابن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ١٥٩ .
(٨٢) ابن سعد، **الطبقات**، جـ١ ، ص ٥٦ .
(٨٣) **المصدر نفسه**، جـ٢ ، ص ٢٢٨ .
(٨٤) **السيرة**، جـ١ ، ص ٢٧٦ .
(٨٥) ابن سعد، **المصدر نفسه**، ص ٤٥ .
(٨٦) **الأغاني**، جـ٩، ص ٥٦ .
(٨٧) **المصدر نفسه**، ص ٥٥ .
(٨٨) الصالحي ، **سبل الهدى**، جـ٢ ، ص ٤٨٦ .
(٨٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٦١ .
(٩٠) ابن سعد، **الطبقات**، جـ٤ ، ص ٢٨٥ .
(٩١) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ٢٥ .
(٩٢) **الروض الأنف**، جـ١ ، ص ١٦٦ ، **مقدمة ابن خلدون**، ص ٣٥٣ .
(٩٣) التفاصيل في **الأغاني**، جـ٤ ، ص ١٣٥ .
(٩٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، جـ٢ ، ص ٢١ .
(٩٥) **الأغاني**، جـ٦ ، ص ٣٤٣ .
(٩٦) **الموضع نفسه**.
(٩٧) انظر مثلا، الصالحي ، **سبل الهدى**، جـ٢ ، ص ٢٥٢ .
(٩٨) الفاسي ، **شفاء الغرام**، جـ٢ ، ص ١٠٦ .
(٩٩) **سيرة ابن كثير**، جـ١ ، ص ٣٠٨ .
(١٠٠) ابن القيم ، **زاد المعاد**، جـ٢ ، ص ١٢٥ .
(١٠١) الصالحي ، **سبل الهدى**، جـ٢ ، ص ٢٥٩ .
(١٠٢) ابن منظور، **تهذيب الأغاني**، جـ٨ ، ص ٣٤٢ .
(١٠٣) الأصفهاني، **الأغاني**، جـ١٤ ، ص ١٣٥ .
(١٠٤) ابن منظور، **المصدر نفسه**، ص ٣٤٣ .
(١٠٥) **الأعراف**: ١٨٨ .
(١٠٦) الألوسي ، **روح المعاني**، جـ٣ ، ص ١٨٠ .
(١٠٧) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ٣٩ .
(١٠٨) **فاطر**: ٢٩ .
(١٠٩) **البقرة**: ١٦ .
(١١٠) **البقرة**: ٨٦ .
(١١١) **البقرة**: ٩٠ .
(١١٢) **البقرة**: ٢٠٧ .

(١١٣) **التوبة: ١١١.**
(١١٤) **النور: ٣٧.**
(١١٥) **الصف: ١٠ - ١١.**
(١١٦) ابن سعد، **الطبقات، جـ٣، ص ١٢٦.**
(١١٧) **الموضع نفسه؛ صحيح البخاري، جـ٢، ص ص ٢، ٣.**
(١١٨) الزرقاني، **شرح المواهب اللدنية، جـ٢، ص ٢١.**
(١١٩) الأفغاني، **أسواق العرب، ص ١٨١.**
(١٢٠) السهيلي، **الروض الأنف، جـ١، ص ١٥٦؛ السيرةالحلبية، جـ١، ص ٢١٥ (المحرر:** المقصود كتاب **انسان العيون للحلبي).**
(١٢١) **سيرة ابن كثير، جـ١، ص ٢٦١.**
(١٢٢) الصالحي، **سبل الهدى، جـ٢، ص ص ٥٥٢، ٥٥٣.**
(١٢٣) **المصدر نفسه، ص ٤٢٣.**
(١٢٤) **سيرة ابن هشام، جـ١، ص ٦٠٤.**
(١٢٥) هيكل، **حياة محمد، ص ٢٥١.**
(١٢٦) **سيرة ابن هشام، جـ٢، ص ٥٠.**
(١٢٧) **أسواق العرب، ص ص ١٣٧ - ١٣٨.**
(١٢٨) الهمداني، **الإكليل، جـ٨، ص ١٨٤.**
(١٢٩) **الموضع نفسه.**
(١٣٠) ابن القيم، **زاد المعاد، جـ٢، ص ١١٩.**
(١٣١) **شفاء الغرام، جـ٢، ص ص ١٠٨، ١٠٩.**
(١٣٢) الثعالبي، **ثمار القلوب، ص ص ١١٥، ١١٦.**
(١٣٣) القالي، **الأمالي، جـ٣، ص ١٩٩.**
(١٣٤) **الطبقات، جـ١، ص ٥٨.**
(١٣٥) **شرح نهج البلاغة، جـ٣، ص ٤٥٨.**
(١٣٦) **القاموس المحيط، جـ٣، ص ١١٨** (مادة **الألف).**
(١٣٧) **تاريخ الطبرى، جـ٥، ص ٢٣٥٠.**
(١٣٨) **القاموس المحيط، جـ٣، ص ١١٨.**
(١٣٩) **الأزمنة والأمكنة، جـ٢، ص ١٦١.**
(١٤٠) القالي، **الأمالي، جـ٣، ص ١٩٩.**
(١٤١) **الطبقات، جـ١، ص ٥٨.**
(١٤٢) العامري، **بهجة المحافل، جـ١، ص ٤٧.**
(١٤٣) انظر القصة في ابن منظور، **تهذيب الأغاني، جـ٣، ص ص ٣٤٢، ٣٤٣.**

(١٤٤) انظر **سيرة ابن هشام**، جـ١، ص ١٥١، و**الطبقات**، جـ١، ص ٥٠.
(١٤٥) ابن سعد، **المصدر نفسه**، جـ١، ص ٥٨.
(١٤٦) **سيرة ابن كثير**، جـ١، ص ١١٧.
(١٤٧) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ص ١٣٩، ١٤٠.
(١٤٨) هيكل، **حياة محمد**، ص ٢١٠.
(١٤٩) الزرقاني، **شرح المواهب اللدنية**، جـ٢، ص ص ٢٠، ٢١.
(١٥٠) **سيرة ابن كثير**، جـ١، ص ١٧٣.
(١٥١) الحلبي، **إنسان العيون**، جـ١، ص ١٤٨ (عن الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ١٠٨).
(١٥٢) ابن حجر، **الإصابة**، جـ٤، ص ١٠٢.
(١٥٣) انظر كتب اللغة مثل: ابن منظور، **لسان العرب**، الزبيدي، **تاج العروس**، الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، وكتب الفقه مثل: ابن حزم، **المحلَّى**، جـ٩، ص ص ٥٤ ـ ٥٦؛ وكتب الحديث مثل: ابن حجر، **فتح الباري**، جـ ٤، ص ص ٣٥٢ ـ ٣٦٨، الشوكاني، **نيل الأوطار**، جـ٥، ص ص ١٨٥ ـ ١٩٨، الصنعاني، **سبل السلام**، جـ٣، ص ص ١٣، ٢٢، **شرح النووي على مسلم**، جـ٦، ص ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦، **تيسير الوصول**، جـ١، ص ص ٦٢ ـ ٦٣. وانظر كذلك ابن حبيب، **المُحبَّر**، ص ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، والألوسي، **بلوغ الأرب**، جـ١، ص ص ٢٦٤ ـ ٢٧٠، وكذلك الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ص ٤٦ ـ ٥٧، وجواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٧، ص ٣٨٧ وما بعدها، وابن القيم، **زاد المعاد**، جـ٣، ص ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(١٥٤) الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ٦٠.
(١٥٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٦٧.
(١٥٦) **تفسير الطبرى**، جـ٣، ص ١٠٧.
(١٥٧) **المصدر نفسه**، جـ٤، ص ٩٠.
(١٥٨) **المصدر نفسه**، جـ٣، ص ١٠٧.
(١٥٩) ابن القيم، **زاد المعاد**، جـ٣، ص ص ٣١ ـ ٣٢، المقريزى، **إمتاع الأسماع**، جـ١، ص ٤٩٢.
(١٦٠) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، جـ٢، ص ص ٣٥ ـ ٣٦ وانظر ابن الأثير، **النهاية** (مادة «ليط»). ومعنى لياط «ربا»
(١٦١) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٧٥.
(١٦٢) البغدادي، **خزانة الأدب**، جـ٣، ص ٣٣٧.
(١٦٣) **صحيح البخاري**: (بيوع ٣٤/ ١٤).
(١٦٤) **تفسير الطبرى**، جـ٦، ص ٢٤. والشاهد القرآني من **النساء**: ١٦٠، ١٦١.
(١٦٥) **تفسير الخازن**، جـ١، ص ١.
(١٦٦) الواحدي، **أسباب النزول**، ص ٥١، وانظر، **تفسير الطبري**، جـ٣، ص ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(١٦٧) **تاريخ الطبري**، جـ٣، ص ١٠٩.

(١٦٨) **سيرة ابن كثير**، جـ١، ص ٢٧٧ .
(١٦٩) **صحيح ، البخاري**، جـ٢، ص ١٦ .
(١٧٠) الواحدي، **أسباب النزول**، ص ٥١، **تفسير البغوي**، جـ١، ص ٣٠١ .
(١٧١) **تفسير الطبري**، جـ٣، ص ١٠٣ .
(١٧٢) **المصدر نفسه**، ص ١٠١ .
(١٧٣) **الموضع نفسه** .
(١٧٤) **عمدة القارىء**، جـ١١، ص ٢٠٢ .
(١٧٥) الجصّاص، **أحكام القرآن**، جـ١، ص ٤٦٥ .
(١٧٦) **تفسير الطبري**، جـ٤، ص ٩٠ .
(١٧٧) **الزواجر**، جـ١، ص ٢٢٢ .
(١٧٨) **تفسير الطبرى**، جـ٤، ص ٩٠ .
(١٧٩) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ٧، ص ٤٢٤ .
(١٨٠) **أعلام الموقعين**، جـ٢، ص ١٣٨ .
(١٨١) **صحيح البخاري**، جـ٢، ص ٢١ .
(١٨٢) **سيرة ابن هشام**، جـ٢، ص ٥٥ .
(١٨٣) الأصفهاني، **الأغاني**، جـ١، ص ٨٤ .
(١٨٤) المبرد، **الكامل في الأدب**، جـ١، ص ١٦ .
(١٨٥) **سيرة ابن كثير**، جـ١، ص ١٧٣ .
(١٨٦) **زاد المعاد**، جـ٣، ص ٢ .
(١٨٧) ابن منظور، **لسان العرب**، (مادة «قرض») .
(١٨٨) النويري، **نهاية الارب**، جـ٩، ص ١٩ (عن جواد علي، **المرجع نفسه**، جـ ٧، ص ٣٣٤) .
(١٨٩) الزبيدي، **تاج العروس** (مادة «قرض») .
(١٩٠) الصالحي، **سبل الهدى**، جـ٢، ص ٢١٤، ابن سعد، **الطبقات**، جـ ٨، ص ١٦ .
(١٩١) الكتاني، **التراتيب الادارية**، جـ٢، ص ٢٥ .
(١٩٢) **الموضع نفسه** .
(١٩٣) **المصدر نفسه**، ص ص ٢٥، ٢٦ .
(١٩٤) **الكشّاف**، جـ١، ص ٢٦٤ .

المصادر والمراجع

١ ـ ابن الأزرق، أبوعبدالله (ت ٩٨٦)،
بدائع السلك في طبائع الملك (تحقيق علي النشار، بغداد، ١٩٧٨).

٢ ـ الأزرقي، محمد بن عبدالله (ت ٢٥٠)،
تاريخ مكة (طبعة سنة ١٢٧٥هـ).

٣ ـ الأصفهاني، أبو الفرج (ت ٣٥٦)،
الأغاني (طبعة دار الكتب).

٤ ـ الألوسي، محمود شهاب الدين (ت ١٢٧٠)،
روح المعاني (طبعة بولاق، ١٣٠١هـ) الجزءان الثاني والسادس.

٥ ـ الألوسي، محمود شكرى (ت ١٣٤٢)،
بلوغ الأرب، (القاهرة ١٣٤٣هـ). الجزء الثالث.

٦ ـ أمين، أحمد،
فجر الاسلام (الطبعة العاشرة، القاهرة ١٩٦٥م).

٧ ـ البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦)،
صحيح، (طبعة الحلبي، القاهرة) الجزء الثاني.

٨ ـ بدران، عبد القادر بن أحمد (ت ١٣٤٦)،
تهذيب تاريخ ابن عساكر، الجزء الرابع.

٩ ـ البغدادى، عبدالقادر (ت ١٠٩٣)،
خزانة الأدب (المطبعة السلفية، القاهرة) الجزء الثالث.

١٠ ـ البغوي، الحسين بن مسعود (ت ٥١٦)،
معالم التنزيل (الجزء الأول على هامش **تفسير الخازن**، القاهرة ١٣٧٥هـ).

١١ ـ البلاذرى، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩)،
فتوح البلدان (مراجعة رضوان محمد رضوان، القاهرة ١٩٥٩م).

١٢ ـ الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩)،
ثمار القلوب (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٣٨٤هـ).

١٣ ـ الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥)،
مدح التجار وذم عمل السلطان (ضمن مجموعة **رسائل الجاحظ**، بيروت ١٩٧٢).

١٤ ـ الجصّاص، أحمد بن علي الرازي (ت ٣٧٠)،
أحكام القرآن (القاهرة).

١٥ ـ ابن حبيب، محمد (ت ٢٤٥)،
المُحبَّر (تحقيق ايلزة شتتر، حيدر أباد ١٩٤٢).

١٦ ـ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢)،
(أ) ـ **فتح الباري**، (المطبعة السلفية، القاهرة) الجزء الرابع.
(ب) ـ **الإصابة** (القاهرة، ١٣٢٥هـ) الجزء الرابع.
١٧ ـ ابن حجر الهيثمي، أحمد بن محمد (ت ٩٧٤)،
الزواجر (القاهرة، ١٣٩٠هـ) الجزء الاول.
١٨ ـ ابن أبي الحديد، عزالدين عبدالحميد (ت ٦٥٦)،
شرح نهج البلاغة (طبعة الحلبي، القاهرة).
١٩ ـ ابن حزم، علي بن أحمد (ت ٤٥٦)،
المحلّى (القاهرة، ١٣٨٩هـ)، الجزء التاسع.
٢٠ ـ الحلبي، علي بن برهان الدين (ت ١٠٤٤)،
إنسان العيون (القاهرة، ١٣٨٤هـ)، الجزء الأول.
٢١ ـ ابن حوقل، أبو القاسم (ت ٣٨٠)،
المسالك والممالك (طبعة بيروت).
٢٢ ـ الخازن، علي بن محمد (ت ٧٢٥)،
لباب التأويل في معالم التنزيل (القاهرة، ١٣٧٥هـ).
٢٣ ـ ابن خلدون، عبدالرحمن (ت ٨٠٨)،
المقدمة (المكتبة التجارية، القاهرة).
٢٤ ـ الرشيد، ناصر بن سعد
سوق عكاظ (القاهرة، ١٣٩٧هـ).
٢٥ ـ الزبيدى، مرتضى الحسني (ت ١٢٠٥)،
تاج العروس (القاهرة، ١٣٠٦هـ).
٢٦ ـ الزرقاني، محمد بن عبدالباقي (ت ١١٢٢)،
شرح المواهب اللدنية (الطبعة الثانية بالأوفست، ١٣٩٣هـ)، الجزء الثاني.
٢٧ ـ الزمخشري، جار الله محمود (ت ٥٣٨)،
الكشّاف (القاهرة، ١٣٦٧هـ).
٢٨ ـ ابن سعد، محمد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠)،
الطبقات (طبعة دار صادر، بيروت، وطبعة لجنة الثقافة الاسلامية، ١٣٥٨هـ).
٢٩ ـ سعيد الأفغاني،
أسواق العرب في الجاهلية والاسلام (الطبعة الثانية، دمشق، ١٣٧٩هـ).
٣٠ ـ السهيلي، عبد الرحمن بن عبدالله (ت ٥٨١)،
الروض الأنف (حاشية سيرة ابن هشام، القاهرة، ١٩٧٢م)، الجزء الثاني.

٣١ ـ الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠)،
نيل الأوطار (طبعة الحلبي، القاهرة) الجزء الخامس.
٣٢ ـ الصالحي، محمد بن يوسف (ت ٩٤٢)،
سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، (تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد، القاهرة ١٣٩٤هـ) الجزء الثاني.
٣٣ ـ الصنعاني، محمد بن اسماعيل (ت ١١٨٢)،
سبل السلام (القاهرة، ١٣٧٩هـ)، الجزء الثالث.
٣٤ ـ الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠)،
(أ) **تاريخ الملوك والرسل** (طبعة أوروبا)، الجزء الخامس.
(ب) **تفسير الطبري** (القاهرة، ١٣٨٨هـ)، الجزءان الثالث والرابع.
٣٥ ـ العامري، عماد الدين يحيى بن أبي بكر (ت ٨٩٣)،
بهجة المحافل وبغية الأماثل (القاهرة، ١٣٣٠هـ)، الجزء الأول.
٣٦ ـ ابن عبدربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٧)،
العقد الفريد (تحقيق أحمد أمين وزملائه، القاهرة، ١٣٧٥هـ)، الجزء الثاني.
٣٧ ـ ابن العربي، القاضي أبو بكر (ت ٥٤٣)،
العواصم من القواصم (تحقيق محب الدين الخطيب، لبنان، ١٣٩٠هـ).
٣٨ ـ على، جوّاد
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت، ١٩٧١)، الجزء السابع.
٣٩ ـ العيني، محمود بن أحمد (ت ٨٥٥)، **عمدة القاري** (القاهرة)، الجزء الحادي عشر.
٤٠ ـ الفاسي، تقي الدين محمد (ت ٨٣٢)،
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (القاهرة، ١٩٥٦).
٤١ ـ ابن الفقيه، أحمد بن محمد (ت ٣٦٥)،
البلدان (طبعة ليدن، ١٨٨٥).
٤٢ ـ الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧)،
القاموس المحيط (طبعة الحلبي، القاهرة).
٤٣ ـ القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦)،
الأمالي (طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ).
٤٤ ـ القمي، نظام الدين الحسن (ت ٧٢٨)،
غرئب القرآن (تحقيق ابراهيم عطوة، القاهرة، ١٣٩١هـ) الجزء الثلاثون.
٤٥ ـ ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن بكر (ت ٧٥١)،
(أ) **أعلام الموقعين** (القاهرة).
(ب) **زاد المعاد** (القاهرة، ١٣٧٩هـ) الجزء الثاني.

٤٦ ـ الكتاني، عبدالحي،
التراتيب الإدارية (بيروت)، الجزء الثاني.
٤٧ ـ ابن كثير، أبو الفداء (ت ٧٧٤)،
السيرة النبوية (تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد، القاهرة، ١٣٨٤هـ).
٤٨ ـ ابن ماجة، الحافظ محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥)،
سنن ابن ماجة (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة ١٩٧٢)، الجزء الثاني.
٤٩ ـ المتنبيء، أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤)،
ديوان أبي الطيب (تحقيق مصطفى السقا وزملائه، القاهرة ١٣٥٥هـ)، الجزء الثالث.
٥٠ ـ **مجلة الرسالة**، العدد ١٧٥ (القاهرة).
٥١ ـ **مجلة المجمع العلمي العراقي**، العدد الثاني (بغداد).
٥٢ ـ المبرد، محمد بن يزيد (ت ٢٨٦)،
الكامل في الأدب (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٣٧٦هـ) الجزء الأول.
٥٣ ـ المرزوقي، أحمد بن محمد (ت ٤٢١)،
الأزمنة والأمكنة (حيد أباد، ١٣٣٢هـ).
٥٤ ـ مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢١٦)،
صحيح (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، ١٣٧٥هـ) الجزء الثالث.
٥٥ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد (ت ٨٤٥)،
إمتاع الأسماع (تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، ١٩٤١).
٥٦ ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١)،
(أ) **لسان العرب** (بيروت ١٣٨٨هـ).
(ب) **تهذيب الأغاني** (بيروت، ١٣٨٣هـ). الجزء الثامن.
٥٧ ـ النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣)،
نهاية الأرب (القاهرة)، الجزء التاسع.
٥٨ ـ ابن هشام، عبدالملك المعافرى (ت ٢١٣)،
السيرة (تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة، ١٣٧٥هـ).
٥٩ ـ الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤)،
الإكليل (تحقيق انستانس ماري الكرملي، بغداد، ١٩٣١)، الجزء الثامن.
٦٠ ـ هيكَل، محمد حسين،
حياة محمد (القاهرة، ١٣٥٤هـ).
٦١ ـ الواحدي، علي بن أحمد (ت ٤٦٨)،
أسباب النزول (القاهرة، ١٣٨٧هـ).

مسالك القوافل التجارية في شمال الجزيرة العربية وجنوبها

أحمد حسين شرف الدين

شهدت جزيرة العرب نهضة تجارية وعمرانية عندما كانت هي المنطقة العالمية الوحيدة الموصلة بين أقطار الشرق والغرب، وكانت قوافلها البرية هي الوسيلة الأولى لنقل السلع التجارية إلى تلك الأقطار.

ونحن عندما نتحدث عن مسالك القوافل العربية القديمة إنما نتحدث أولاً وقبل كل شيء عن المسالك البرية التي كانت تسلكها القوافل من البحر إلى الخليج، ومن الخليج إلى البحر الأبيض*[أ]، ذلك لأن العرب كانوا يفضلون ركوب البر بعيدين عن أنواء البحار ومخاطرها. ولهذا نرى أن مدنهم الحضارية وما تكتنفه من معابد وقصور، وما يحيط بها من جنان وسدود، ما كانت إلا في الصحراء، وخصوصاً على ذلك الدرب الطويل الذي يبتدىء من شواطىء البحر العربي في الجنوب، وينتهي بشواطىء البحر الأبيض المتوسط في الشمال، والخليج العربي في الشرق.

لقد قامت على هذا الدرب المهم دول كبرى، كمعين وحضرموت وسبأ وقتبان في الجنوب، ودولة الدادان*[ب] واللحيانيين والأنباط والتدمريين في الشمال، وقد أثبتت هذه الدول قدرتها على تأمين هذا الخط وما تفرع منه يميناً وشمالاً، بما أنشأت به من مدن وأقامت من استراحات وشيدت من استحكامات.

فعلى هذا الدرب، قامت شبوة ومأرب ونجران وقرية (الفاو) والعلا والبتراء، وهي مدن عظيمة ولا تزال قائمة بما تكتنفه من آثار، وما تحويه من حضارة تمثل رمزاً لقوة العرب ومجدهم التليد.

لقد كان العرب همزة وصل تجارية بين أقطار العالم القديم يحملون إلى الشرق منتجات الغرب من خشب الأبنوس وريش النعام ومن عاج وذهب وفضة، وإلى الغرب منتجات الشرق من توابل وأفاويه وفلفل وبهار وقصدير، كما كانوا يحملون إلى كل من العالمين منتجاتهم النفيسة، وفي مقدمتها البخور واللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة من عقيق وجزع وبقران، إلى غير ذلك مما كانت تجود به صناعاتهم من ثياب محبّرة وبُرد موشّاة وأثواب مقصّبة وبُسُط مرحّلة.

لقد كانت السفن الهندية والصينية تأتي محملة بالبضائع لترسو في عدن وكاني (حصن الغراب) والشحر والمكلا، وهناك تفرغ حمولاتها لتنقلها قوافل المعينين والسبئيين عبر الصحراء، فتمر بتلك المدن وتنتهي بها في صور

* المحرر:

(أ) يبدو أن المؤلف يقصد البحر الأبيض المتوسط في المقام الاول، وربما عنى البحر الأحمر كذلك.

(ب) الدادان. هكذا كتبها المؤلف والأفضل أن يقول «الدّادانيين».

وصيداء في الشمال عن طريق العلا والبتراء، أو تتجه بها غرباً إلى غزة وعسقلان أو شمالاً شرقياً إلى الحيرة والمدائن، أو تسير شرقا فتنتهي في يبرين والعقير على شواطىء الخليج العربي.

وكان يتفرع من البتراء طريق يسير إلى دمشق وآسيا الصغرى، ومن مدائن صالح كان يتفرع طريق يتجه إلى تيماء ومنها عبر الصحراء إلى بلاد مابين النهرين أو الجوف، ومنها إلى وادي السرحان فسوريا.

وقد عثر في هذه الدروب الأصلية والفرعية على آثار مهمة، وإن عمليات التنقيب القادمة يؤمَّل أن تسفر عن مدن أخرى واستراحات ومرافىء، لا تزال طي التراب ورهن الأنقاض.

لقد ظلت تلك المسالك هي المسالك الرئيسية لنقل التجارة بين أقطار العالم القديم، منذ عصور ما قبل التاريخ على رأي اسبرنجر (Springer) وحتى عهد هِبَّالوس (Hippalus) عندما اكتشف فن الملاحة المباشرة عبر المحيط الهندي، وذلك في منتصف القرن الأول للميلاد، مما أثر على حركة القوافل العربية ثم في اضمحلالها، وجاء الحصار الروماني*(جـ) في القرن الرابع للميلاد، فكان ضربة قاصمة لا لتجارة الجزيرة العربية فقط بل لحضارتها وثقافتها أيضا.

وخلال عصور الحصار الروماني الذي استمر مطوقاً للجزيرة العربية حتى مجيء الاسلام، قامت بين أهلها حروب وفتن، فكان ذلك معولا آخر لضرب حضارة تلك المدن الصحراوية العظيمة وتدميرها بنزوح الأهلين عنها إلى مناطق الجبال، حيث عمرت الحصون الشامخة والقلاع الحصينة والمدن المسورة.

وكادت تلك المسالك القديمة أن تظل كالمدن الصحراوية في زوايا الجهالة والنسيان، لولا أن المؤرخين الاسلاميين قد أولوها اهتمامهم فيما كتبوه عن مسالك الحاج إلى بيت الله الحرام، ويمكن حصر تلك المسالك في عشرة دروب:

١) **درب صنعاء ـ الكوفة**: ويبتديء من صنعاء، عمران، صعدة، نجران، القارة، الكوكب غربي قرية (الفاو)، الكوكبية بوادي الدواسر، الأفلاج، اليمامة، الرياض، حبل برمة، وادي الرمة، الشملول، ثم تمر شرقي الدهناء باللهابة واللصافة والقيصومة والجميمة، حيث تلتقي بدرب زبيدة على الحدود العراقية وبدرب الجوف في بركة السامية، ومنها إلى المسيجد فبركة الحمام فبركة الحمد فالنجف فالكوفة.

٢) **درب صنعاء ـ مكة**: وقد ضمنه الرداعي في أرجوزته، ونقل الأرجوزة الهمداني في **صفة جزيرة العرب**. وينفصل بعد نجران من الحسينية على بعد ٣٠ كم من نجران، فيتجه نحو الشمال الغربي، فيمر بخشم العلني، جبل المطبق، الجعيفرة، حمضة، جبل الربوث، وادى تثليث، جبل الفراش، بيشة، حيث يلتقى مع درب صعدة، ومنها إلى الطائف فمكة.

---

* **المحرر**:
(جـ) الرومي.

٣) **درب صنعاء ـ العقير**: وينعرج شرقاً من الكوكبية بوادي الدواسر على مسافة **٣٠** كم شمال قرية (الفاو)، فيمر بخشم المجاميع بالسِّليِّل، ثم يخترق رملة ابن عضبان، البليدة، أبوبحر، المغانمة، جبل ذاب، يبرين، حرض، الهفوف، الجِشَّة، العُقير.

٤) **درب دمشق ـ مكة**: وقد أشار إليه الإدريسي في **نزهة المشتاق** وابن بشر في **فتح دمشق** وابن الفقيه في **البلدان** وابن رسته في **الأعلاق النفيسة** وابن خرداذبّة في **المسالك** وأبو الفداء في **المختصر**. وكان أبو الفداء قد سافر على هذا الدرب من مكة إلى حماة فقدّره بما يساوي **٩٠٠** كم. وحكى ابن بشر في **فتح دمشق** أن أبا عبيدة بن الجراح سلك هذا الدرب في فتحه لدمشق، كما أشار ابن الفقيه إلا أن رحلة الوليد بن عبد الملك إلى مكة كانت بواسطة هذا الدرب أيضا. والدرب يبدأ من دمشق ـ كما ذكر الإدريسي ـ بالكسوة الواقعة على الشاطىء الغربي لنهر الأعوج، ثم زراع، ذات المنازل، جنوا، الدمة، ذات الحاج، السرّة، تبوك، حنين، القراع، وادي القرى (العلا)، المدينة المنورة، السيّالة، الرّوحاء، الرّويثة، السقيا، الأبواء، الجحفة، قديد، عسفان، مر الظهران، **مكة***(د).

٥) **درب الكوفة ـ مكة***(هـ): وهو المعروف عند المؤرخين بالمثقب أو درب زبيدة أي أم الامين، زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد، التي يقال إنها أمرت بترميمه وبناء برك واستراحات على طوله. ولا تزال هذه البرك والاستراحات قائمة. وقد كتب عن هذا الدرب العديد من المؤرخين والرحالة العرب أمثال الطبري في **التاريخ** والمسعودي في **المروج** وابن خرداذبة في **المسالك** والهمداني في **صفة جزيرة العرب** وقدامة في **الخراج** وابن الفقيه في **البلدان** والزبيدي في **تاج العروس** وابن جبير في رحلته وياقوت في **معجم البلدان** وابن بطوطة في رحلته، وحاجي خليفة في **جيهان نامة**، وحمد أديب في **منازل الحاج***(و)، وهذا الدرب الذي كان يسلكه العرب إلى العراق، وكثيراً ما سلكه الشعراء الجاهليون قاصدين بلاط المناذرة، في الحيرة، وقد سلكته قريش بعد وقعة بدر، كما روى ذلك الطبري وغيره، ومراحله هي: الكوفة، القادسية، المغيثة، وادي السباع، القرعاء، واقصة، القعبة، القاع، زبالة (وتقع على الحدود بين المملكة العربية السعودية والعراق)، الشقوق، البطان، الثعلبية، الخزيمية، الأجفر، فيد، توز، سميراء، مغيثة، الماوان، الربذة، معدن بني سليم، العمق، أفاعية، المسلح، الغمرة، ذات عرق، أوطاس، بستان ابن عمر، غمر ذي كندة، مشاش، مكة.

٦) **درب البصرة ـ مكة**: وهو للعراقيين والإيرانيين، ويبتدىء من البصرة، حليبة، عقلة العضيبة، الرقعى (وهنا يلتقى بدرب الكويت)، صفار البطين، الشامي، الطراق، بريدة (وفيها يلتقي بدرب القصيم ـ مكة).

*** المحرر:**

(د) انظر S.A. Al - Rashid, *Darb Zubaydah. The Pilgrim Road from Kufa to Mecca* (Riyadh, 1980).

(هـ) فيما يتعلق بالشطر الأخير من هذا الطريق انظر المرجع السابق.

(و) وهناك كتاب قديم عن منازل الحاج لأبي اسحق الحربي، وقد حققه الشيخ حمد الجاسر.

٧) **درب الرياض ـ مكة**: وهو المعروف بدرب الحجاز والذي يوصل الرياض بالمنطقة الغربية، وتسلكه السيارات اليوم ويبتدىء من الرياض، ضرماء، مرات، ثرمدا، أثيثّة، القراين، شقراء، الدوادمي، الرميدات، الهمجة، القاعية (وفيها يلتقى بدرب القصيم)، عفيف، الدفينة، الموية، ظَلَم، العرف، عشيرة، السيل الكبير (وفيه يلتقي بدرب الطائف)، الزيماء، مكة.

٨) **درب القصيم ـ مكة**: ويبتديء من بريدة، عنيزة، الرّس، جبل خزاز، دخنة، وضاخ، نقى، القرين، الرفايع، الشبيرمة، القاعية (وفيها يلتقى بدرب الرياض).

٩) **درب البصرة ـ اليمامة**: البصرة، المنجشانية، الكِفر، الرحيل، الشحى، الحفر، ماوية، ذات العش، الينسوعة، السمينة، النباح، العوسجة، القرنين، سويقة، صداه، السدّ، السقى، المنبية، السنح، المريقة، اليمامة.

١٠) **درب البصرة ـ نجران**: الفقى، الخضرمة، الخرج، الفلج، العقيق، الحفر، الكوكب، نجران.

النشاط البحري

إن الجزيرة العربية بحكم موقعها الجغرافي محاطة من جهاتها الثلاث بساحل طويل يبدأ من خليج السويس فيمر بعدن والشحر والمكلا فمسقط فالبحرين فالدمام فالبصرة ولهذا فقد عرف العرب السفن والملاحة والغوص منذ أقدم العصور وبرعوا في ارتياده، حتى لقد سموا بفينيقيي البحر الأحمر.

وقد أوصلتهم سفنهم، عبر المياه المغلقة في البحر الأحمر والخليج العربي، بقطرين عظيمين هما فارس في الشرق ومصر في الغرب. ومعنى هذا أنهم كانوا يطلون بواسطة ممراتهم المائية في البحر الأحمر والخليج العربي اللذين يكملهما النيل ودجلة والفرات على الطرق التجارية الكبيرة في العالم.

وقد تحدثت النقوش السومرية والأكادية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، عن صلات بحرية بين أرض الجزيرة وبلاد ما بين النهرين، كما أثبتت النقوش الهيروغليفية التي عثر عليها في وادي الحمامات بمصر*(ز)، عن الصلات التجارية والثقافية بين مصر وبلاد **بونت** التي كانوا يطلقون عليها أرض الآلهة (أو الاراضي المقدسة).

وكما ازدهرت مدن الصحراء مأرب ومعين ونجران والعلا والبتراء بطرق القوافل البرية، ازدهرت مدن الجزيرة الساحلية مثل: عدن والمكلا ومسقط ودلمون (البحرين الحالية) وماجان (عمان) والجرهاء (العقير) والجبيل (عينين) وهجراء (الوجه حالياً) والمخاء وغيرها، وتحدثت عنها مؤلفات الجغرافيين اليونان والرومان التي وصفت قصورها وأبراجها ذات الأبهة والثراء.

---

* **المحرر:**

(ز) ذكر **بونت** في النصوص المصرية القديمة كثير جداً وقديم من مختلف العصور. ويبدو مما سيلي في كلام المؤلف وكأنه يجعل **بونت** في الجزيرة العربية، وهو أمر ينقصه الدليل القوي لعدة اعتبارات ليس المكان مكان ذكرها.

ولقد ترك لنا مؤلف كتاب **الطواف حول البحر الاريثري (٥٠ ـ ٦٠)***(ح) وصفاً مجملاً لسوق **موزا** (المخا)، حسبما شاهد المؤلف، إذ قال فيه: «كان يردها من البضائع أنواع الأقمشة الأرجوانية، ناعمها وخشنها، وألبسة خيطت على الزي العربي، ذات أردان قد تكون بسيطة أو عادية، مطرزة أو موشاة بالذهب والزعفران وقصب الذريرة وأنسجة القطن الشفافة والأعبئة والأحزمة، بعضها بسيط وبعضها مصنوع على الطريقة المحلية ومناطق ذات ألوان عديدة، ودهون عطرية بكميات معتدلة. . . وتصدر البلاد فاخر المر والصمغ المعيني والرخام اللين (المرمر)»[١].

أما سترابون المؤرخ الروماني، فكان له إعجاب عظيم بما ناله عرب الجنوب من تقدم في ميدان التجارة والعمران شأن غيره من المؤرخين القدامى، حيث قال: «وقد أصبحت السباي والجرهاي أغنى القبائل عامة، فعندها مستحدثات الأدوات المصوغة من الذهب والفضة، منها الأسرة ومثلثات القوائم والأحواض وأوعية الشرب، وناهيك بمنازلهم الفخمة وقد تزوقت أبوابها وجدرانها وسطوحها بالألوان، وترصعت بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة، وما في بلادها من مناجم للذهب ومياه للري، وما تنتج من العسل والشمع بكثرة فلو تحريت هذه الأفكار تماماً علمت أنها أغنى بلاد الأرض بما يتوارد من كنوز دولة الرومان والفرثيين»[٢].

وتحدث هيرودوت عن مهارة العرب الجنوبيين في تحضير البخور واللبان وأنواع الطيوب، حيث قال إن ذلك كان مشهوراً عنهم بين الأمم القديمة لا يشاركهم فيها أحد، كما كان لهم يد في استخراج المعادن التي اشتهرت بها جزيرة العرب، فقد كان فيها مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة. وذكر الهمداني في **صفة جزيرة العرب** وياقوت في **معجم البلدان** وغيرهما كثيراً من مناجم الذهب في اليمن واليمامة والبحرين[٣].

وكما كان للسبئيين محطات تجارية برية، كانت لهم محطات على خليج العقبة والخليج العربي، ظلت تحت أيديهم حتى جاء حكم البطالمة على مصر وشق ملكها بطلميوس الثاني (**٢٨٥ ـ ٢٤٦**ق.م) قناة بين النيل والبحر الأحمر، وهكذا نزلت أساطيل البطالمة إلى البحر الأحمر مما أدى إلى اندحار زعامة السبئيين التجارية منه، ثم ظهرت روما فانتزعت من البطالمة الزعامة على البحر الأحمر، وحذت حذوهم في مزاحمة العرب في البحر، وبذلت جهودها في تحرير مصر من الاتكال على اليمن*(ط).

وفي القرن الذي اكتشف فيه هيبَّالوس الملاحة في المحيط الهندي والنفوذ إلى الشرق، نشطت السفن الرومانية في البحر الأحمر في أيام حكم كلاوديوس حاملة بضائع اليونان ومصر، وسيطرت على أهم موانيه **كهجرا** (الوجه حاليا)، والمخا وعدن ومسقط والجرهاء ودلمون؛ وهكذا بعد أن كان العرب هم رواد التجارة العالمية وحماة مسالكها أصبح الرومان مالكي أزمتها وربابنة أساطيلها.

*** المحرر:**

(ح) تاريخ كتابة هذا المؤلف لاتزال موضع خلاف.

(ط) في هذا التقويم نظر.

وعمل الرومان على إحياء الموانىء العربية على البحر العربي والخليج العربي، وبناء مرافىء جديدة منها **لويكي كومي** (ينبع)*(ي) والجار والمويلح والحوراء وكان من أكبرها واهمها ميناء الجار الذي كان أقرب الموانىء إلى المدينة المنورة، وبواسطته أرسل عمرو بن العاص الأغذية من مصر استجابة لطلب الخليفة عمر بن الخطاب*(ك)، وكان تجديد ميناء ينبع سنة **٦٢١**هـ سبباً في ضعف الجار الذي لا يزال مهجوراً حتى الآن، ويعرف مكانه حالياً بالريس، وبه آثار مبانٍ عربية ورومانية.

وقد شهد البحر الأحمر والخليج العربي صراعاً طويلاً ومريراً بين الفرس والرومان، الأمر الذي جعلهما يخضعان تارة لنفوذ الفرس وأخرى لنفوذ الرومان، وقد احتل الرومان عدن سنة **٤١** للميلاد، خلال حكم كلاوديوس، وذلك لتأمين طريقهم البحري بين مضيق باب المندب ومضيق هرمز، كما احتلوا **هجرا** (الوجه) سنة **١٢٥**م، بعد إسقاطهم لدولة الأنباط.

ولم يقف الرومان عند حد السيطرة على الطريق البحرية فحسب بل حاولوا احتلال الجزيرة من البر فجردوا حملتهم الشهيرة بقيادة إيليوس غالّوس وجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، أبحر من السويس عام **٢٤** ق م، ثم دخل من العقبة وتوغل حتى قرب مأرب، وهناك اضطر إلى التقهقر بعد أن فتكت به الطوارىء فتكاً ذريعاً، فتقهقر إلى نجران التي كان قد احتلها قبلُ، ثم اتجه إلى البحر فعبره إلى الساحل المصري، وقد استغرقت مدة العودة ستين يوماً(٤).

وبالرغم مما بذله الرومان من جهود في شل التجارة العربية، وإحكام الحصار الاقتصادي للجزيرة، فقد اخذت القوافل تتحرك داخلياً وعبر الأسواق، وكانت كثيرة جداً. وعندما جاء الاسلام كان في الجزيرة ما يزيد على الثلاثين سوقاً، ذكرها ابن حبيب المتوفى سنة **٢٦٨** هـ في كتابه **المُحبَّر**، كما ذكرها اليعقوبي في **التاريخ** والهمداني في **صفة جزيرة العرب** وأبو حيان التوحيدي في **الإمتاع والمؤانسة** والمرزوقي في **الأزمنة والأمكنة** والقلقشندي في **صبح الأعشى** والبغدادي في **خزانة الأدب** والألوسي في **بلوغ الأرب**، ووضع فيها الأستاذ سعيد الأفغاني كتاباً جليلاً سماه **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**. وكان أهمها سوق دُومَة الجندل وعمان والمشقّر والشحر وعدن وصنعاء وحضرموت وعكاظ ومجنة والمَجاز.

وكان من تلك الأسواق ما تُشد إليه الرحال من أقطار نائية كعكاظ، إذ كان أشبه بنادٍ يعرض فيه إلى جانب البضاعة الأدبُ من شعر ونثر، وكان يؤمُّه الكثير من حكماء العرب وشعرائهم، ليلقوا حصائل قرائحهم من شعر ونثر، إما على ظهور جمالهم أو من فوق منابر نصبت لهم.

---

* **المحرر:**

(ي) من الصعوبة بمكان القطع بأنها ينبع. انظر في الموضوع بحث L.P. Kirwan في القسم الانجليزي.

(ك) في عام الرّمادة.

وقد اختلف الباحثون في تحديد موقع تلك السوق العظيمة بالضبط. ونشر المرحوم الدكتور عبد الرحمن عزام كتاباً مستقلاً بعنوان **عكاظ** وكان هذا السوق موضع عناية عدد من المؤلفين في مختلف العصور، مثل ابن الكلبي والأصمعي ومحمد حسين هيكل وحمد الجاسر وخير الدين الزركلي. وممن كتب عنه ابن بليهد الذي قال في تحديد مكانه ما يلي: «ثبت عندي أن موضع سوق عكاظ يبعد عن مطار الحَوِيَّة مسافة عشرة كيلومترات شرقاً، وعن الطائف أربعين كيلومترا، وذلك عند المكان الذي يلتقي فيه الواديان: وادي شرب ووادي الأخضر، شرقيُّهُ ماء السوداء وجنوبيُّه أَكَمَةُ العَبْلاء، والله أعلم».

الهوامش

(١) جواد علي، **تاريخ العرب قبل الاسلام**، جـ١، ص ص ٦٠ ـ ٦٣.
(٢) **الموضع السابق نفسه**.
(٣) جرجي زيدان، **العرب قبل الاسلام**، ص ص ١٣٠، ١٣١.
(٤) فيليب حِتّي، **تاريخ العرب**، جـ١، ص ٥٩.

دليل البحر الإرثري
وتجارة الجزيرة العربية البحرية

نقولا زياده

مقدمـــة

إن التجارة البحرية بين حوض السند وأرض الرافدين قديمة العهد، ومع أننا لا ننوي أن نعالج هذا الموضوع بتفصيل، فإننا نرى من الضروري أن نشير إلى ذلك لارتباط هذه القضية بالموضوع الذي ننوي أن نبحثه. والذي نعـرفـه هو أن السفن كانت تحمـل من بلاد السنـد إلى أرض الـرافـدين الأخشـاب والقطن والعـاج والعقيق الأحمر واللازورد. وكانت موانىء الخليج العربي وعُمان (**ماجان**) هي المحطات التي ترسو فيها السفن ويريح فيها البحارة في انتقالهم بين المنطقتين، خاصة وأن السفن كانت تسير دوماً محاذية للشواطىء، لأنها لم تكن كبيرة بحيث يمكنها أن تمخر عبـاب البحـر. وهـذه التجـارة توقفت حوالي سنـة **١٥٠٠** ق.م بسبب انهيـار المدنية السندية. على أن عمان (**مـاجـان**) ظلت مصـدراً رئيسيـاً للنحـاس الـذي كانت المـدن السومرية بحاجة ماسة إليه. ولعلّ البحرين الحالية (**دِلْمون؟**) كانت أكبر الموانىء على الطريق السندي العراقي.

وقـد كانت ثمـة علاقـات تجاريـة قديمـة بين مصر وبلاد **بونت**، وهذه العلاقات تعود إلى ماقبل سنة **٢٠٠٠** ق.م. ومع أن هذه العلاقات توقفت نحو خمسة قرون، فقد عادت، وبشكل أقوى، في القرن الخامس عشر، أيام الملكـة حتشبسـوت على ما نعـرفه من النقوش التي خلفتها على جدران الدير البحري في طيبة القديمة. وقد كانت البخور والطيوب والعاج من أهم المتاجر التي نقلت من بلاد **بونت**، والباحثون يكادون يتفقون الآن على أن **بونت** كانت تشمل المناطق العربية والإفريقية الواقعة عند مخرج باب المندب*(أ). ولعل جزيرة سوقطرة كانت داخلة في هذا أيضا.

وبسبب اضطراب أمور مصر في القرن الحادي عشر ق.م. فقد انتقلت تجارة البحر الأحمر وما يليه خارج باب المندب إلى الفينيقيين الذين سيطروا على الطرق فيه وإليه. فقد كانت السفن في القرن العاشر ق.م تصنع في تل الخليفة (وهي التي يذكرها الجغرافيون العرب باسم **أيلة**)، وكان التجار ينقلون إلى مصر، ثم عبر البر إلى موانىء فينيقيـة وغـيرهـا، الذهب والفضة والطيوب والحجارة الكريمة، وخشب الصندل والعاج الإفريقي والقرود والبخور والطواويس. وقد ورد اسم **أوفير** على أنها المنطقة التي كان هؤلاء التجار الفينيقيون يحملون بعض هذه المتاجر منها. لكن العلماء لم يتفقوا بعد على موضع **أوفير** هذه. والمتاجر المذكورة كان بعضها يأتي من الهند. والمرجّح أن موانىء

---

* **المحرر:**
(أ) نظرًا لأهمية هذه النقطة فإن المحرر يلفت النظر إلى أن أغلبية الباحثين في الوقت الحاضر لا يزالون يجعلونها على الساحل الإفريقي.

جنوب الجزيرة العربية، وأهمها عدن وقنا (بير علي أو حِصن الغراب)، كانت محطات لهذه المتاجر، وأن الذين كانوا ينقلون المتاجر الهندية هم الملاحون العرب.

وحريٌّ بالذكر أن البخور بصنفيه، اللبان والمُر، كان ينتج في جنوب الجزيرة في منطقة حضرموت ـ ظفار، كما كان نوع من المر ينتج في منطقة الصومال أيضا. وينقل هذا كله عبر البحر الأحمر إلى مصر وما بعدها، كما كان يحمل براً الى الشمال عبر الحجاز إلى بلاد الشام، وشمالاً في شرقٍ إلى بلاد الرافدين.

وقد ظلت التجارة البحرية الهندية الإفريقية في أيدي العرب بعد انحسار النفوذ الفينيقي عن البحر الأحمر، وأثناء قيام الامبراطوريات الآشورية والكلدانية والفارسية، ولأن هذه جميعها كانت امبراطوريات برية، فقد كانت عنايتها بالطرق البرية، عبر أواسط آسيا والهند، أكبر من عنايتها بالطرق البحرية.

على أنه يجب ان نذكر أن دارا الفارسي أرسل، حوالي سنة **٥١٠** ق. م.، بحاراً يونانياً ليكشف الطريق البحري من مصب نهر السند إلى مصر حول الجزيرة العربية. وقد احتاج هذا البحار، واسمه سكيلاكس، سنتين ونصف السنة حتى قطع المسافة من مكان على مقربة من ميناء أتوك الحديثة إلى مدينة **أرسينوي** (على مقربة من السويس الحالية) في مصر.

ولما أتم الاسكندر فتح ما فتح من البلاد الشرقية واعتزم العودة إلى بابل، أرسل أمير البحر نيارخوس، برفقة أسطول كبير، من نهر السند إلى شمال الخليج العربي ليتعرف على الطريق البحري. ووصل نيارخوس بعد **١٤٦** يوماً في الطريق (في **٣٢٥** ق. م.) ودوّن أخبار رحلته، التي نقل أكثرها أريان، مؤرخ الاسكندر، فيما بعد، فوصلت إلينا بتفاصيلها.

وقد بعث الاسكندر بثلاث بعثات أخرى من جنوب بلاد الرافدين للتعرف على الشواطىء الغربية للخليج العربي، فوصلت أولاها إلى البحرين، والثانية يبدو أنها وصلت أبوظبي، أما الثالثة فيبدو أنها بلغت الأجزاء الشمالية من عُمان.

توزع خلفاء الاسكندر امبراطوريته، فكانت مصر للبطالمة وكانت بلاد الرافدين وبلاد الشام للسلوقيين. وقد عني البطالمة بتجارة البحر الأحمر وما بعده، كما اهتموا بالكشف عن شواطئه. وقد كانت لهم تجارة نشطة، كما كان بطلميوس الأول يأمل في أن يكوّن علاقات تجارية مع الهند مباشرة. ومن هنا كان اهتمامه بإقامة موانىء على شواطىء البحر الأحمر المصرية، وقد تم للبطالمة في أيامه وأيام خلفائه إنشاء **أرسينوي** (قرب السويس) **وميوس هرموس** (رأس أبو شعر) **ولويكي ليمن** (القصير) **وبيرينيكي** (برنيس) **وأدوليس** (عدول).

ومع كل ما بذله البطالمة في محاولتهم للاتصال المباشر مع الهند، فإنهم لم يتمكنوا من ذلك. وظلت التجارة البحرية الهندية وقفاً على التجار والملاحين العرب.

ومع اضطراب أمور البطالمة في مصر في القرن الأول ق.م، الأمر الذي انتهى بهم إلى أن تحتل روما مصر، فقد ظلت هناك تجارة فيها نشاط. وقد وصل التجار اليونانيون المتوطنون في مصر إلى سوقطرة، بل يبدو أن بطلميوس الحادي عشر (٨٠ ـ ٥١ ق.م.) أرسل إلى تلك الجزيرة مستعمرين يونانيين للإقامة الدائمة هناك. وقد ظل هؤلاء إلى بعد الفتح العربي الاسلامي.

ولعل أهم ما تم اكتشافه في القرن الأول ق.م. هو التعرف على مهاب الرياح الموسمية، وارتباط ذلك بالطرق البحرية. وقد تم هذا على يد ملاح وتاجر يوناني اسمه هيبّالوس. بعد هذا الاكتشاف أخذت السفن، وقد أصبحت أضخم وأقوى، تمخر عباب اليم الهندي دون أن تضطر إلى محاذاة الشاطىء. وأصبح الجدول الزمني لتنقل السفن على النحو التالي: تغادر السفينة الميناء المصري في شهر تموز (يوليو) فتخرج من البحر الأحمر في أوائل شهر آب (اغسطس)، وعندها تدفع بها الرياح الموسمية الصيفية من واحد من الموانىء التالية ـ من قنا أو عدن أو رأس غوارد فوي إلى ساحل ملّبار (غرب الهند) أو إلى جزيرة سيلان (سري لانكا)، فتصل في نحو الأربعين يوماً. وفي الشتاء تعود مفيدة من الرياح الشتوية. وقد تضطر إلى قضاء بعض الوقف في قنا أو عدن ـ ذهاباً وإياباً ـ لتبادل السلع والمتاجر.

وكان قيام الامبراطورية الرومانية في القرن الأول ق.م. (وقد ضمت بين ٧٠ و ٨٠ مليونا من السكان) إيذاناً بازدياد الطلب على البضائع الشرقية ـ العربية (كالبخور والطيوب) والإفريقية (كالعاج والفيلة) والهندية (كالتوابل والأفاويه والحجارة الكريمة)؛ ومن ثم بازدياد النشاط التجاري[١].

الجغرافيون الكلاسيكيون[٢]

كان للجغرافيين والمؤرخين اليونان والرومان اهتمام بالمحيط الهندي وشطآنه. وقد تباينت أخبارهم ورواياتهم ومعرفتهم بحسب التطور الذي كان يصيب البلاد المختلفة من حيث الاتصال بين الشعوب أو الفتوح الكبيرة، فعلى سبيل المثال، كانت فتوح الاسكندر مجالاً لهؤلاء الكتّاب للتعرف إلى مناطق واسعة في الشرق، كما أن قيام الامبراطورية الرومانية يسر للكتّاب التنقل رحالة وتجاراً وزائرين. ولسنا نعتزم هنا أن نتحدث عن هؤلاء المؤلفين جميعهم، فذلك أمر خارج عن نطاق البحث. ولكن هناك فئة صغيرة منهم كانت تعاصر، إلى درجة ما، مؤلف دليل البحر الإرثري الذي سيكون موضوع هذه الدراسة. ومن ثم فقد رأينا أن نشير إلى أفرادها إذ أننا قد نفيد من بعض ما أوردوه لتوضيح مسائل نعرض لها.

وأول من نريد أن نشير إليه هو سترابون صاحب **الجغرافيا**، الذي عاش في أواخر القرن الأول ق.م. وأوائل القرن الأول بعده. ويبدو من الأحداث التي أشار إليها أن آخر ما كتبه يعود إلى سنة ١٨م. وقد جمع سترابون معلوماته من الجغرافيين اليونانيين الذين سبقوه ونظمها وأضاف إليها ما وصل إليه علمه. والنقطة التي انطلق منها هي أن الجزء المعمور من الأرض هو مسرح للتاريخ. ومن ثم فقد كان مؤلفه، الواقع في ١٧ كتاباً، ينحو في اتجاه

الـوصف للبلدان . وقـد خص أوروبـا بثـمانيـة كتب، وآسيـا بستة، وإفريقيا بكتاب واحد . وما تبقى كان مقدمات وعرضاً للمصادر التي استقى منها . وكتاب سترابون لم يعرفه معاصروه، ولا الذين جاءوا بعده لمدة طويلة . وظل نسياً منسياً إلى أيام الدولة البيزنطية .

ويـلي سترابـون زمنـاً بومبـونيوس ميلا الذي وضع كتابه حوالي سنة ٤٣م . وهوكتاب مختصر مقتضب نقل فيه معلوماته ممن سبقه، وكانت عنايته بالأمور الغريبة من عادات وحيوانات وما إلى ذلك . والباحثون متفقون على أن الفائدة التي جناها القراء من كتابه قليلة .

وكتاب **دليل البحر الإرثري** وضع في أواسط القرن الأول للميلاد . والمرجح أن ذلك تم بين ٥٠ و ٨٠م . ولن نتحدث عنه هنا لأنه بيت القصيد في هذه الدراسة، فلنتركه إلى حينه .

وقد كان من كتّاب القرن الأول الميلادي واحد من كبار أهل المعرفة هوبلينوس وكتابه، المعروف باسم **التاريخ الطبيعي**، أولى أن يسمّى «تـاريـخ الطبيعـة» . ومات بلينوس سنة ٧٨م إذ اقترب أكثر من اللازم إلى بركان فيزوف الذي كان ثائراً، فراح ضحية محاولته التعرف على هذا الهيجان وعلى الحمم التي كان يقذفها .

وكتاب بلينوس موسوعة عامة عن الطبيعة وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد . والمؤلَّف المكون من ٣٧ كتـابـاً يخص الجغـرافيـا منه أربعة كتب (٣ ـ ٦) . لكن عندما يتحدث بلينوس عن الحيوانات والنباتات وخصائصها والمتاجر وأنواعها فإنه يقدم لنا دراسات لها مساس كبير بالجغرافيا بالذات . وبسبب أن بلينوس كتب في القرن الأول للميلاد، وهو الذي بلغت فيه الامبراطورية أقصى اتساع لها (باستثناء فتوحات محدودة تمت بعد أيامه)، فقد جاء كتابه ملخصاً للمعرفة التي كان باستطاعة مؤلف نشيط طلعة بحاثة أن يحصل عليها .

وفي أوائـل القـرن الثـاني للميـلاد وضـع مارينـوس الصـورى كتـابه في الجغرافيا . وقد ضاع الكتاب، لكن بطلميـوس الجغـرافي الكبـير نقـل عنـه الكثير، بحيث أنه كان باستطاعة الباحثين أن يحصلوا على الكثير من مادته الجغرافية، ويحكموا عليها حكماً صحيحاً، وهو أن الرجل كانت له خطة صحيحة وكان قادراً على تخليص السمين من الغث في المعرفة الجغرافية .

وبطلميـوس الـذي عاش في أواسـط القـرن الثاني في الاسكندرية كان فلكياً في الدرجة الأولى، وكان همه أن يضع خارطة للجزء المسكون من العالم . ومثل كل من اهتم برسم خارطة عالمية كان بحاجة إلى تعيين المواقع على خطـوط الطـول والعـرض لينطلق منهـا إلى مهمته الأساسية . ولما كانت إمكاناته للرصد محدودة نسبياً، فقد لجأ إلى الذين سبقوه من الجغرافيين، اليونان والرومان على السواء، ليأخذ عنهم المقاييس والمسافات . ومن هنا كان اعتماده على كتاب مارينوس، وقد نقده نقداً عنيفاً في أحيان كثيرة، ولو أن بعض الباحثين المحدثين لا يقرونه على كل ما أثار حول معلومات مارينوس الصورى من نقد .

ذكرنا هؤلاء لأننا سنحتاج إليهم في التعليق على **دليل البحر الإرثري** .

دليل البحر الإرثري[٣]

هذا الكتاب مجهول اسم مؤلفه، والمتفق عليه أنه من وضع تاجر يوناني كان يعيش في مصر، ولعله من أبناء الاسكندرية وقد تم وضعه بين ٥٠ و٨٠م. صحيح أن هناك من يجعل تاريخ التأليف في القرن الأول ق.م. وهناك من ينقل الزمن إلى القرن الثاني للميلاد، ولكن يكاد الإجماع يكون تاماً بين المحدثين من دارسي «**الدليل**» على أنه وضع في الفترة التي أشرنا إليها. وإذاً فواضعه من معاصري بلينوس.

وكلمة **بربليس** *(Periplus)* تعني رحلة أو دورة ـ وقد استعملت كلمة **بربليس** كثيراً عند الجغرافيين والمؤرخين والرحالين. فسكيلاكس الذي بعث به دارا الفارسي وضع **بربليس**، وأريان، مؤرخ الاسكندر، له **بربليس** البحر الأسود. وهذا «**الدليل**» الذي بين أيدينا ليس قصة رحلة اكتشاف على نحو ما فعل نيارخوس الذي بعث به الاسكندر للتعرف إلى الطريق من حوض السند إلى أرض الرافدين. إنه دليل وضعه تاجر خبير بالمنطقة لإرشاد التجار والملاحين.

وكلمة **إرثري** *(Erythraean)* يونانية معناها الأحمر. ومع أن هناك بحراً هو البحر الأحمر، فالكلمة اليونانية لم يكن يقصد بها ذلك البحر في تلك الأزمنة إذ أن البحر الأحمر كان يسمى، عند الكثرة من الجغرافيين الكلاسيكيين، حتى بعد أيام هذا المؤلف المجهول، «خليج العرب» أو «الخليج العربي» *(Sinus Arabicus)*. فالكلمة اليونانية **إرثري** كانت تعني، في العهد الذي نتحدث عنه، القسم الشمالي من المحيط الهندي وأجزاءه ومتفرعاته، بما في ذلك البحر العربي وبحر الزنج، وخليج عمان والخليج العربي والبحر الأحمر. وقد فضلنا استعمال الكلمة اليونانية معرّبة، كما فضلنا كلمة «دليل» على رحلة أو دورة، لأنها على طبيعة الكتاب أدل، وإلى المقصود منه أقرب. ومن هنا استعملنا «دليل البحر الإرثري».

والكتيب مؤلف من ٦٦ فصلاً قصيراً، ومجموع صفحاته في الترجمة الانجليزية التي نعتمدها **٢٨** صفحة. والكتاب يدل على أن مؤلفه كان تاجراً مجرباً خبيراً. فهو يضع في هذا الكتاب نتيجة هذه الخبرة والتجربة باختصار تام، دون أن يعنى بأسلوب الكتابة، إذ أنه لم يكن ممّن حصل على قدر كبير من الثقافة المعاصرة له.

إن الكتاب ـ **الدليل** يقدم لنا وصفاً جغرافياً لشواطىء البحر الأحمر وإفريقيا فيما وراء باب المندب، إلى حيث عرفها الناس يومئذ، وشواطىء الجزيرة العربية الجنوبية والجزء الغربي من الهند إلى آخر حدود ملّبار. ويعنى بالموانىء والميناء في نظره ما وجد فيه مكان لرسو السفن وسوق ومخازن للسّلع الكثيرة. ويعرض للأماكن التي تصح لتوقف السفن فيها والقيام بتجارة محدودة فيها. ويفصل المتاجر المختلفة المستوردة والمصدرة ـ ويقدم لنا إشارات هامة إلى المراكز الداخلية التي قد تغذي الموانىء بالسلع أو تبتاع سلعها من الموانىء.

يعدّد صاحب **الدليل** ثمانية وعشرين ميناء هاماً، موزعة على النحو التالي: البحر الأحمر (مصر) ٢، إفريقيا ما

وراء باب المندب (بما في ذلك شرق إفريقيا) ٩، بلاد العرب (بما في ذلك شواطىء البحر الأحمر) ٦، الخليج العربي ٢، ساحل مكران ١، الهند ٧، الصين ١.

وأوصـاف المـوانىء صحيحـة في غالب الأحيان. وثمة تعليقات قيمة وإشارات مفيدة بالرغم من صغر حجم الكتاب. فالمؤلف يذكر أن الطريق البري من **أدوليس** (عدول) على الساحل الإفريقي إلى عطبرة، ثم شمالاً إلى مصر هو أفضل من الطريق الشمالي من القصير إلى الدخل، لأن الأول فيه كلأ وماء، أما الثاني فيمر في أرض تكاد تكون قاحلة. ومن ذلك وصفه الدقيق لنهر السند والأخطار التي يتعرض لها الملاحون بسبب كثرة فروع النهر المؤدية إلى البحر وتواتر المد والجزر في تلك الجهات.

ونحن عندما نذكر أن بلينوس تحدث عن الطريق إلى الهند فإننا يجب أن نتذكر أنه حصل على معلوماته من رحلة واحـدة قام بها رحـالـة من قبـل. ومع أن بطلميوس كتب بعد صاحب **الدليل** بمدة فإن التفاصيل التي أوردها الجغرافي الكبير ليست موضع ثقة إلى الدرجة التي أوردها صاحب **الدليل**. وليس ثمة شك في أن **الدليل**، من حيث إفادته الجغرافية، هو أصدق وثيقة وصلت إلينا من أي من الكتّاب القدامى.

والذي نود أن نفعله هنا هو أن ننقل الفصول التي تحدث فيها صاحب **الدليل** عن بلاد العرب وموانئها وسلعها ومتـاجـرهـا من الانجليـزيـة إلى العـربية، ثم نعلق عليها بما يساعدنا على تفهمها والإفادة منها للتعرف على تجارة الجزيرة في القرن الأول للميلاد.

والفصـول المقصـودة هي من ١٩ إلى ٣٦. أمـا الفصول السابقة (١ ـ ١٨) فتعنى بالشاطىء المصري للبحر الأحمر والشاطىء الإفريقي، كما أن الفصول اللاحقة (٣٧ ـ ٦٦) تتناول موانىء غرب الهند تناولاً فيه معرفة مباشرة بها، وتتناول الموانىء إلى الشرق منها باشارات نقلت سماعاً.

الجزيرة العربية في دليل البحر الإرثري[٤] (ترجمة للفصول ١٩ ـ ٣٦)

الفصل ١٩: «والآن إلى جهة اليسار من برينيكي (خليج أم الكتف) وعلى بعد يومين أو ثلاثة أيام بحراً من ميناء مَوَسِّل [**ميوس هرموس** = رأس ابو شعر] وإلى الشرق منها عبر الخليج المجاور لها [البحر الأحمر] يقع ميناء آخر ومكان محصن وهو المسمى القرية البيضاء [**لُويْكِي كُومي** = الحوراء]، والتي يمتد منها طريق إلى البتراء، التي هي تحت حكم مليخـاس، ملك الأنبـاط. وهـذه [القـرية البيضاء] هي سوق للسفن الصغيرة التي تأتيها من العربية، ومن ثم فهنـاك كنتـوريـون [قائد المئة] يقيم باستمرار ليحصل على المتاجر المستوردة ربع قيمتها. وهناك قوة مسلحة تقوم بدور الحامية».

الفصل ٢٠: «الى الجنوب مباشرة من هذا المكان تجاوره بلاد العرب، التي تمتد مسافة طويلة على شواطىء البحر الإرثري. وهذه البلاد تقطنها قبائل متباينة تختلف في كلامها اختلافاً جزئياً في بعض الحالات، واختلافاً تاماً في البعض الآخر. والأرض المحاذية للبحر تنقطها هنا وهناك مغاور يقيم فيها أولئك الذين يقتاتون بالسمك، لكن

الأجـزاء الـداخليـة فيهـا جماعـات خبيثـة، تتكلم لغتـين، وتقطن القرى [أي مستقرة] وبعضها يعيش في المضارب [البدو]. فإذا وقع هؤلاء على الملاحين الذين يخرجون عن خط السير في وسط البحر [الأحمر] نهبوا ما معهم وأخذوا الناجين منهم رقيقاً. كما يتعرضون هم بالذات إلى الوقوع أسرى في أيدي زعماء بلاد العرب وملوكها. وهؤلاء يطلق عليهم اسم القرنائين [نسبة إلى قرناو عاصمة دولة معين]. والملاحة خطرة على طول هذا الساحل من بلاد العرب الـذي لا موانىء فيـه. وحتى الأمـاكن التي ترسـو فيهـا السفن سيئـة ويصعب الوصول إليها بسبب الأمواج العاتية والصخـور النـاتئـة، فهـو شاطىء مزعـج من كل ناحية. ومن ثم فإننا نسير دائماً على مساق في وسط الخليج [البحر الأحمـر] ونسـرع في سيرنـا في مقـابل بلاد العرب إلى أن نصل إلى الجزيرة المحروقة، إذ جنوبيها مباشرة تقع مناطق يقطنها قوم مسالمون. وهم بدو ورعاة أبقار وأغنام وجمال».

الفصل ٢١: «بعد هذه الأماكن، وعلى الجهة اليسرى من هذا الخليج [البحر الأحمر]، يقع على الشاطىء مكـان يسمى **مـوزا** [مخـا] وهي مدينـة ـ سوق، بحسب القـانـون، وتبعد عن برينيكي نحو اثني عشرة ألف ستاديا للمبحـرين في اتجـاه الجنـوب. والمكان مزدحم بأصحاب السفن من العرب والملاحين، ويعمل الناس كثيراً في أمور التجارة، إذ أنهم يتاجرون مع الساحل البعيد ومع **باريغازا** [بُرواخ في ساحل الهند الغربي] ويبعثون بسفنهم الخاصة بهم إلى هناك».

الفصـل ٢٢: «وعلى بعـد مسـيرة ثلاثـة أيـام إلى الداخل من هذا الميناء تقوم مدينة **ساوا** [أوسافا =سَوًّا] في وسط منطقة تسمى **مافاريتيس**. وهناك زعيم ـ تابع اسمه **كولايبوس** يعيش في تلك المدينة».

الفصل ٢٣: «وعلى مسيرة تسعة أيام أخرى تقوم **سفار** [ظَفار] العاصمة حيث يقيم كاريبال الملك الشرعي لقبيلتي الهومريين والسبئيين المتجاورتين. وهو صديق للأباطرة بسبب توالي السفارات والهدايا».

الفصـل ٢٤: «ليس في المـدينـة ـ السـوق **موزا** مينـاء، لكن فيها مرسىً للسفن. وبسبب الأرض الرملية في المرسى فإن مراسي السفن تعلق في الأرض جيداً. والمتاجر التي تصل إليها [**موزا**] تتألف من الأقمشة الأرجوانية، النـاعم منهـا والخشن، والثيـاب العـادي منهـا والمطـرّز والمـذهّب، والزعفران ونبات السعادى الحلو وقماش الموسلين والبـرود والحـرامـات (ليست بكثرة) بعضها عادي والبعض الآخر مصنوع على الطريقة المحلية، والأوشحة المنوعة الألوان والدهونات [أو المراهم] المعطرة بكميات معتدلة، والخمر والقمح، ليس كثيراً. ذلك بأن البلاد تنتج كميات معتدلة من القمح وكميات كبيرة من الخمر. وتهدى إلى الملك والزعيم الخيول والبغال القوية والأواني المصنوعة من الذهب ومن الفضة الصقيلة والأقمشة الرفيعة الحياكة والأواني النحاسية. ومن المكان ذاته تصدر الأشياء التي تنتجها البـلاد: المـر الجيـد «والستاكتا» الجبانية المعينية، والمرمر وجميع الأشياء التي مر ذكرها من **أفاليتس** [زيلع] والشاطىء البعيد. والسفر إلى هذا المكان أفضله ما وقع في شهر أيلول ـ سبتمبر ـ أي توت*(ب). إلا أنه ليس ثمة ما يمنع من القيام بالرحلة قبل ذلك».

*** المحرر:**

(ب) يستعمل المؤلف المجهول هنا الاسم القبطي للشهر، وهو يبدأ يوم ٢٨ أغسطس (آب).

الفصل ٢٥ : «وبعد مسيرة نحو ثلاثمائة ستاديا عن هذا المكان يقترب الساحل العربي من الساحل البر برى [الإفريقي] عند الخليج **الأفاليتي** بحيث يتكون هناك قنال ليس بالطويل، الذي تتجمع فيه مياه البحر بحيث تصبح مضيقاً ضيقاً طوله ستون ستاديا وتقسمه جزيرة ديودوروس قسمين. ومن ثم فإن الملاحة فيه تتعرض لتيارات عنيفة ورياح عاتية تهب عليه من سلسلة الجبال المصاقبة له. وعلى الشاطىء في هذا المضيق تقوم قرية للعرب، تابعة للزعيم نفسه، تسمى **أوكيلس**، وليست هذه مدينة ـ سوق بل هي مرسى ومكان للتزود بالماء، وهي أول مكان يمكن أن تقف فيه السفن القاصدة للخليج [البحر الأحمر]».

الفصل ٢٦ : «فيما وراء **أوكيلس** يتسع البحر ثانية نحو الشرق بحيث ينبسط المحيط الفسيح، وبعد نحو الف ومائتي ستاديا هناك **العربية اليوديمونية**، وهي قرية على الشاطىء تقع أيضاً في ملك كاريبال، ولها مرسى مريح وأماكن للتزود بالماء، الذي هو أعذب من ماء **أوكيلس** وأفضل. وتقع هذه على مدخل خليج حيث تنحسر المياه عنه. وقد سميت **يوديمون** لأن المدينة في أيامها الخوالي، قبل أن يتم السفر [المباشر] من الهند إلى مصر، وقبل أن يجرؤ الملاحون على الإبحار من مصر إلى الموانىء الواقعة عبر المحيط [مباشرة]، بل كان الجميع يجتمعون في هذا المكان، كانت تتجمع فيها جميع المتاجر من البلدين، كما هي الحال بالنسبة للاسكندرية في زماننا. إذ أن هذه تصلها الأشياء التي تبتاع من الخارج ومن مصر. ولكن قبل مدة ليست بعيدة عن زمننا خرب كاريبال هذا المكان».

الفصل ٢٧ : «بعد **العربية اليوديمونية** يمتد ساحل طويل وخليج على طول الفي ستاديا، ويقطن هذا الساحل بدو، وجماعات من أكلة السمك تقيم في قرى. وبعد الرأس البري الذي يبرز من الخليج تقوم على الشاطىء، مدينة ـ سوق أخرى اسمها **كانا** (قنا)، وهي من مملكة **اليازوس** بلاد البخور. وتقع قبالتها جزيرتان قاحلتان تسمى إحداهما جزيرة الطيور والأخرى جزيرة القبة. والى الداخل من **كانا** تقع العاصمة **شباثا** (شبوة) حيث يقيم الملك. وكل ما ينتج من البخور في البلاد يحمل إلى ذلك المكان على الجمال حيث يخزن، كما ينقل إلى **كانا** على أطواف مشدودة بالقرب الجلدية المملوءة على طريقة أهل البلاد وفي القوارب. وهذا المكان [**كانا**] له أيضاً تجارة مع موانىء الشط البعيد ومع **باريغازا وسكيثيا وأومّانا** والشاطىء الفارسي القريب من هذه».

الفصل ٢٨ : «والى هذا المكان يرد من مصر القمح والخمر كما هو الحال في **موزا** والثياب العربية النمط البسيط منها والعادي والمزيف، والنحاس والقصدير والمرجان والاسطَرَك وأشياء أخرى مثل تلك التي تحمل إلى **موزا**. ويحمل إلى الملك عادة الذهب المشغول وصحاف الفضة، وكذلك الخيول والتماثيل والثياب الرفيعة الصنعة والنوع، ويصدر من هذا المكان المنتوجات المحلية وهي البخور **والألوَّة** (الصبرة المرة) وبقية الأشياء التي تتبادل تجارياً في الموانىء الأخرى. وخير وقت للإبحار إلى هذا المكان هو الوقت ذاته الذي يبحر فيه إلى **موزا**، أو قبل ذلك بقليل».

الفصل ٢٩ : «فيما وراء **كانا** ينحسر البر كثيراً، ويلي ذلك خليج عميق جداً يشغل مسافة طويلة ويسمى خليج **الساشاليت**، وبلاد البخور وهي جبلية وتستعصي على الزائر، تلفها الغيوم والضباب، وهي التي تنتج البخور من الأشجار الموجودة فيها. والأشجار التي تنتج البخور ليست بالطويلة أو الضخمة، والبخور يتقطر منها على

لحائها، كما يحدث بالنسبة إلى الشجرة التي تسقط صمغها دمعاً في مصر. ويقوم بجمع البخور عبيد الملك وأولئك الـذين يبعثـون لهذا العمـل عقـوبـة لهم. إذ أن هذه الأماكن ليست صحية كما أنها موبوءة وحتى بالنسبة إلى أولئك الذين يبحرون في محاذاة الساحل، إلا أنها بالنسبة إلى الذين يعملون هناك تكاد تكون قاتلة. وقد يقضون بسبب نقص الطعام أيضا».

الفصل ٣٠: «وعلى هذا الخليج يوجد رأس بري ضخم جداً اسمه **سِيَاغروس** [رأس فَرْتَك]، والذي تقوم عليـه قلعـة للدفـاع عن البلاد، وهناك ميناء ومخازن للبخور الذي يجمع. ومقابل هذا الرأس توجد جزيرة في عرض البحـر، تقـع بينـه وبـين رأس التـوابـل [غـردافـوي] المقـابـل، إلا أنهـا أقـرب إلى رأس فَرْتَك. واسم الجزيرة هو **ديوسكوريدا** [سوقطرة]. وهي كبيرة إلا أنها صحراوية باستثناء مناطق المستنقعات فيها حيث توجد أنهار تعيش فيها تماسيـح، وهنـاك أفـاعي كثـيرة وعظايا ضخمة، التي تؤكل لحومها ويذاب دهنها لاستعماله بدل زيت الزيتون، ولا تنتـج الجـزيـرة لا حبوبا ولا خمرا. وسكانها قلائل ويقطنون في الساحل الشمالي الذي يواجه القارة. وهم أجانب عن الجـزيـرة، إذ انهم خليـط من العـرب والهنـود واليـونـان، الـذين كانـوا قد هاجروا إليها للاتجار هناك. ويوجد فيها السـلاحف البحـريـة الحقيقيـة والسـلاحف البـرية والسلاحف الجبلية، وهذه أضخمها وغلافها أثخن من غلاف غيرها، ومنها نماذج لا تساوي شيئاً لأنها لا يمكن قطعها من الأسفل بسبب صلابتها وقسوتها. ولكن النماذج ذات القيمة تقطع ويصنع من أغلفتها أصفاط أو علب للحلي وأطباق صغيرة وصحون للحلويات ومثل ذلك من الآنية. وتنتج الجزيرة أيضاً دم الأخوين المسمى الهندي، وهو الذي يجمع نقطاً تتحدر من الشجرة».

الفصـل ٣١: «وكـما أن **أزانيـا** تابعـة لكاريبال وزعيم **المفاريتيس** فإن هذه الجزيرة [سوقطرة] تابعة لملك بلاد البخـور. وبعض التجـارة هنـاك يقـوم بها قوم من **موزا**، كما يقـوم بها بعض أولئـك الذين يصادف أن يمروا بها من **داميريكا وباريغازا**، إنهم يحملون إليها الأرز والقمح والقماش الهندي وبعض الإماء، ويبادلون هذه السلع بكمية من الذَبَل. والجزيرة تقوم فيها حامية، وهي مستغل للملوك».

الفصل ٣٢: «بعد رأس فَرْتَك مباشرة ينفتح خليج عمان في الساحل انفتاحاً كبيراً بحيث يبلغ عرضه ستمائة ستاديا، ووراء ذلك تقوم جبال عالية صخرية وشديدة الانحدار تمتد خمسمائة ستاديا. ويقطنها سكان المغاور. ويلي ذلـك مينـاء مهيأة [أو مخصصـة] لتقبـل البخـور من **شاسـاليت**. ويسمى الميـنـاء **موشـا**. وتـرسو السفن فيه من **كانا** بانتظـام. كما أن السفن العـائـدة من **داميريكا وباريغازا**، إذا وصلت متأخرة، فإنها تشتو هناك، وتتاجر مع موظفي الملك، فيعطي التجـار ما معهم من القـماش والقمـح والسيرج مقابل البخور، الذي توجد منه أكوام في جميع أنحاء بلاد **الشاساليت**. وهذه الأكوام مكشوفة وليس ثمة حراس عليها، كما لو أن المكان كان في حماية الآلهة، إذ لا يمكن لأي من هذا البخـور أن يحمـل إلى ظهـر المـركب، لا علانية ولا سرقة، إلا بإذن الملك. فإذا حملت منها حبة واحدة دون هذا الإذن، لن يسمح للسفينة أن تخرج من الميناء».

الفصل ٣٣: «بين **موشا وازيك**، وعلى مسافة تقرب من الف وخمسمائة ستاديا، توازي الشاطىء سلسلة من الجبـال، وفي نهايتهـا تقـوم سبـع جزائـر على صف واحد هي المسماة **زنوبيا** [كوريا موريا]. وبعد ذلك تأتي منطقة

موحشة وهي ليست جزءاً من المملكة ذاتها وتخضع الآن لفارس. وإذا سرت نحو ألفي ستاديا محاذياً لهذا الساحل من جزر **زنوبيا** ممعناً في البحر، وصلت إلى جزيرة اسمها **سارابيس**، التي تبعد عن البر الأصلي نحو مائة وعشرين ستاديا. ويبلغ عرضها نحو مائتي ستاديا، وطولها نحو ستمائة ستاديا. ويقطن سكان هذه الجزيرة في ثلاث مستوطنات، وهم من أكلة السمك ولكنهم خبثاء. ويستعملون اللغة العربية ويتمنطقون باحزمة مصنوعة من سعف النخيل. وفي هذه الجزيرة الكثير من الذَبَل من الصنف الجيد، وفيها قوارب شراعية صغيرة وسفن للبضائع التي ترسل إلى **كانا** بانتظام».

الفصل ٣٤: «والإبحار على طول الساحل، الذي يتجه نحو مدخل بحر فارس [الخليج العربي] يوصلنا إلى عدد من الجزر التي يطلق عليها اسم **كالاي** والمنتشرة على الشاطىء، وهي على بعد نحو ألفي ستاديا، والسكان مخاتلون وخظهم من المدنية قليل».

الفصل ٣٥: «في النهاية العليا لجزر **كالاي** توجد سلسلة من الجبال اسمها **كالون**. ويلي ذلك، على مسافة قصيرة، مدخل الخليج الفارسي، حيث يكثر الغطس على اللؤلؤ. إلى الجهة اليسرى من المضيق تقوم جبال عظيمة تسمى **أسابون**، وفي الجهة اليمنى يبدو واضح المعالم، جبل عال اسمه **سمير اميس**: وفيما بينهما يكون الممر عبر المضيق نحو ستمائة ستاديا. وفيما وراء ذلك يمتد ذلك البحر الكبير العريض، الخليج الفارسي، إلى مسافة بعيدة في الداخل. وفي نهايته تقوم مدينة سوق مقررة قانونا اسمها **أبو لوغوس** [الأبلة]، الواقعة على مقربة من **شاراكس سبازيني** ونهر الفرات».

الفصل ٣٦: «وإذا أبحرت عبر مدخل الخليج مسيرة ستة أيام فهناك مدينة ـ سوق أخرى في فارس [أو لفارس] اسمها **أوّمانا**. وإلى هاتين المدينتين ـ السوقين [**أبو لوغوس وأومَّانا**] تأتي سفن من **باريغازا** بانتظام، محمّلة بالنحاس وخشب الصندل وخشب التيك وأخشاب الساج والأبنوس. ويحمل البخور من **كانا** إلى **أومَّانا**. ومن **أومَّانا** إلى بلاد العرب تحمل القوارب المخيطة على حسب ما تصنع هناك وهي المعروفة باسم **مدراتا**. ومن كل من هاتين المدينتين ـ السوقين يصدر إلى الهند، وإلى بلاد العرب أيضا، الكثير من اللؤلؤ، لكنه لا يضاهي اللؤلؤ الهندي، كما يحمل الأرجوان، والثياب المصنوعة هناك على زي البلاد، والخمر وكميات كبيرة من التمر والذهب والرقيق».

تعليقـــات

نود، قبل ان نضع التعليقات اللازمة لهذا النص المترجم أن نلخص ما جاء في الفصول (١ ـ ١٨)[٥] من **الدليل** لارتباط الكثير مما ورد فيها بالتجارة المتصلة بالجزيرة العربية. فالموانىء التجارية الواقعة على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر هي من الشمال إلى الجنوب: **ميوس هرموس** (راس ابو شعر) **وبرينيكي** (خليج أم الكتف) **وبطولمايوس** (جزيرة الريح) **وأدوليس** (عدول أوزولا). **وبرينيكي** ظلت الميناء الرئيسي للاتجار مع الموانىء العربية. أما **بطولمايوس** فكانت المركز الرئيسي للحصول على الفيلة الإفريقية. وكانت **أدوليس** تتجمع فيها غلات السودان واثيوبيا، فضلاً عن الكثير من المصنوعات المصرية، وأهمها القماش والزجاج، كما كان يصل إليها النحاس الأصفر

والأحمر والخمور من اللاذقية وإيطاليا وزيت الزيتون، كذلك والحديد والفولاذ من الهند، والعاج والذَبَل وقرن وحيد القرن. وأكثر ما كان يرد إليها كان يصدر منها.

وكـانت المـدن الـواقعـة في شرق إفـريقيـا، بعـد الخـروج من باب المنـدب، هي **أفاليتس** (المرجح أنها زيلع الحديثة)، **ومالاو** (بربرة) التي كانت تصدر المر والقرفة والرقيق والعاج، **وموسلوم** (رأس هنترة؟) ويلي ذلك **أوبون** (رأس هافـون) سوق الـرقيق والـذبـل من إفـريقيـا والأرز والـدهن الهندي والسيرج والأقطان والسكر (من الهند). وكانت هذه أكبر موانىء إفريقيا الواقعة إلى الجنوب من رأس غودفري. وآخر ميناء يذكره صاحب **الدليل** هو **رابتا** (لعلهـا كِلْوَة). وهـذه كانت تستـورد الـرمـاح من **موزا** (مخا) كما كانت تأتي بكميات كبيرة من حرابها وسيوفها. أما صادراتها فهي العاج والذَبَل وقرن وحيد القرن وزيت النخيل.

وثمـة أمـر آخـر حريٌّ بأن يذكـر وهـو أن الستاديا الوارد ذكرها في قياس المسافات البحرية تعادل عشر الميل أو سدس الكيلومتر.

والتعليقات التي نوردها هنا سنشير فيها إلى الفصول المترجمة من الدليل (أي ١٩ ـ ٣٦).

الفصل ١٩

(١) **مليخاس**: هو ابن الحارث الرابع ملك الأنباط (٩ ق.م. إلى ٤٠م) واسمه **مليكوس** أو مالك.

(٢) **السفن الصغيرة**: كانت سيـاسـة البطـالمـة التجـاريـة تقوم على تشجيع الاتصال المباشر مع الهند والتحرر من السيطرة اليمنية بشكل خاص[٦]. وكانت السفن المصرية كبيرة. لكن السفن التي كانت تحمل المتاجر من **موزا** (مخا) إلى **لُوِيْكي كومي** (الحوراء) صغيرة نسبياً. ومن هذا الميناء كانت البضائع تنقل برا إلى البتراء.

وبهـذه المنـاسبـة فإن أغسطس قيصر كان يخشى أيضا منافسة اليمنيين في التجارة البحرية، ولذلك فقد أرسل حملة بقيادة إيليوس غالوس سنة ٢٥ ق.م. لاحتلال بلاد السبأبين كما كانت تعرف. لكن الحملة فشلت.

لكن الذي نتج عن سياسة البطالمة والرومان في محاولتهم السيطرة على تجارة البحر الأحمر هو أن الطرق البرية من اليمن إلى البـتراء، عبر الحجـاز نشطت كثـيراً، وكـان في ذلـك خير كثـير للبـتراء، التي ظل الـرومـان (مثـل السلوقيين قبلهم) يتحينون الفرص للاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك في أيام تراجان، ولكن تجارتها استمرت إلى أواخر القرن الثاني للميلاد.

(٣) **كنتـوريـون** (قـائـد المـائـة) الـذي كان يتقاضى ربع المتاجر في الحوراء كان يقوم بعمله نيابة عن ملك البتراء. وكذلك كانت الحامية من هناك. لكن صاحب **الدليل** استعمل كلمة لاتينية مألوفة. فالموظف لم يكن رومانيا.

الفصل ٢٠

(٤) لعل من المناسب أن نذكر أنفسنا بالدول العربية التي قامت في جنوب الجزيرة العربية إذ أن ذلك ييسر لنا متابعة

صاحب **الـدليـل**. ففي حوالي سنـة **١١٥** ق. م كانت دولتـا معين (في الجوف وعاصمتها **قرناو** وهي خربة معين اليـوم) وسبأ التي تمركـزت حول سبأ أولاً ثم اتسـع سلطـانها بحيث شمل جنوب غرب الجزيرة بأجمعه تقريبا) قد انتهى امرهما. أما دولة قتبان (بين منطقتي عدن وحضرموت وكانت عاصمتها **تمنع** وهي حجر كحلان اليوم) قد بلغت ذروة عظمتها في القرن الأول ق. م. والمعروف أن هذه الدولة سكت نقوداً ذهبية حوالي سنة **٥٠** ق. م. وقد قضت دولة حضرموت (وعاصمتها شبوة) على دولة قتبان في أواخر القرن الأول ق. م. والدولة التي كانت معـاصـرة لزمن صاحب **الـدليـل** هي حمير التي قامت أصلاً حول ظفار في اليمن، ولم تلبث أن ضمت دولتي سبأ ومعـين إليهـا. فكـانت أوسـع دول الجنـوب نفـوذاً. ومـع ذلك فقد ظل عدد كبير من الجغرافيين الكلاسيكيين يذكرون سبأ وكأنها دولة لا تزال قائمة.

(٥) كانت السفن فعـلاً تتعـرض للهجـوم من الـبر إذا اقـتر بت منه، وكان هذا يحدث في أيام القحط والمجاعات. ويبدو أن صاحب الدليل سمع بعض هذه الأخبار فعمم القول.

(٦) الجزيرة المحروقة هي جزيرة الطير في الأجزاء الجنوبية من البحر الأحمر (**٣٥** درجة و **١٥** دقيقة شمالاً و **٤١** درجة و **٥٠** دقيقة شرقاً).

الفصل ٢١

(٧) **موزا** (مخـا): يستعمـل صاحب الـدليـل الاسم لمكـانين متقاربين هما **موزا** المدينة ـ السوق **ومسالا** الميناء. ومن المهم أن **موزا** لم يكن تجارهـا يرحبـون بالسفن الأجنبيـة، بل كانت لهم سفنهم التي يبعثـون بها إلى المـوانىء المختلفة لنقل المتاجر إليها وإحضار السلع منها. فالسفن الهندية، مثلاً، كانت تفرغ متاجرها في **أوكيلس** وتنقل هذه المتاجر براً إلى **موزا**[٧]. وكان يترتب على الرعايا الرومان أن يبذلوا الكثير من الهدايا النفيسة إلى أصحاب الأمر كي يسمح لهم بالاتجار في أسواق **موزا**.

الفصل ٢٢

(٨) **مفاريتيس**: هي المنطقة التي كانت تقطنها قبيلة المعافر، وتقع في جنوب تهامة.

(٩) **ساوا**: كان يظن من قبل على أنها تَعِزْ، ولكنها اليوم تقبل على أنها سَوًا.

(١٠) **كولايبوس**: كليب.

الفصـل ٢٣

(١١) **كاريبال**: هو كرب إيل[٨] (وتريـهنعـم) الذي كان معاصراً للأباطرة كلوديوس وكليغولا وكلوديوس. ويبدو أن علاقته مع أباطرة روما كانت طيبة، فكانت الهدايا متبادلة، وعلى الأخص من جانب الرومان.

(١٢) **القبيلتان المتجاورتان**: هما حمير وسبأ، وكانتا تحت إمرة سلطة واحدة.

الفصل ٢٤

(١٣) **الـزعفـران**[٩]: كانت زهـرتـه تستعمـل في كثير من الأمور في تلك الأزمنة، في صنع العقاقير، وفي الدهان أو الصبـاغـة، ولتطييب الطعـام، وفي صنـاعة العطور والمراهم (الدهونات). ويقول بلينوس إن الزعفران يمزج بالماء والخمر، فضلاً عن فوائده الطبية الكثيرة التي يعددها.

(١٤) نبات السعادى الحلو (وقد يكون المقصود البردي، إذ ثمة خلاف حول الكلمة اليونانية الأصلية). فإذا كان الأول هو المقصود فقد كان يستعمل في صنع العقاقير وفي تطييب الطعام. إما اذا كان الثاني فقد كانت وجوه استعماله كثيرة منها صنع ورق البردي والحبال وأشرعة السفن والأقمشة وما إلى ذلك.

(١٥) كانت الدهونات[١٠] (المراهم) تستعمل للتجميل، فضلاً عن الأنواع الطبية منها. والأولى منها كانت تدخل فيهـا العطـور والطيـوب. ومن أنـواع الصمـغ التي كانت تستعمـل في النـوعين التجميلي والطبي صمغ اسمه **ستاكتا**، وكان يجمع كثيراً على أيدي جماعات من أهل تلك البلاد.

(١٦) ولأن أجـود أنـواع الآنيـة لحفـظ المـراهم هي المصنوعة من المرمر، فقد كان من الطبيعي أن تروج صناعتها في المنطقة ذاتها التي يكثر فيها المرمر، وأن يكون الطلب على هذه الآنية كثيراً مع الاتجار بالمراهم بالذات.

(١٧) مَرَّ بنا من قبل أن **أفاليتس** هي زيلع.

الفصل ٢٥

(١٨) جزيرة **ديودوروس** هي جزيرة بريم.

(١٩) **أوكيلس** من المرجح أن يكون هذا الميناء قد بني إلى الشمال من رأس الشيخ سعيد الذي يفصله قنال ضيق عن جزيرة بريم. وسواء أكانت السفن الهندية يطلب منها أن لا تتجاوزه الى **موزا**، أو أنها كانت تقف فيه وتنهي رحلتهـا عنـده لأنـه أيسـر لها، فالمهم أن **أوكيلس** كانت تختص بالمتـاجـر الهندية. وقد تكون سَلاّ الحديثة هي **أوكيلس** القديمة.

الفصل ٢٦

(٢٠) **العـربيـة اليـوديمـونيـة**: هي عدن. وقـد كانت المينـاء الرئيسي في أيام معين وسبأ، لكن دولة حمير لم تعن بها العناية الكافية فتأخرت.

(٢١) وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن ظفار **وموزا** كانت لهما مصلحة مشتركة في إضعاف عدن، فلا نستبعد أن يكون الأمر قد وصل بكاريبال إلى مهاجمة عدن وتدميرها، ليخلو الجو لأهل **موزا**.

الفصل ٢٧

(٢٢) **كانا ـ** قنا عند الجغرافيين العرب، هي بير علي على مقربة من حِصن الغُراب. كان البخور الظفاري والحضرمي يجمع في ثلاثة مراكز ـ ظفار وشبوة وقنا (وهذه كانت تصل إليها الطرق البحرية). ومن هذه الأماكن كانت تنطلق ثلاثة طرق برية رئيسية (غير الطريق البحرى من قنا) إلى مأرب حاملة البخور ـ وخاصة اللبان وهو أجود الأنواع ـ حيث ينقل من هناك إلى الشمال.

(٢٣) **اليازوس**: **اليازوس** هذا هو إيل عزّ[١١] ملك حضرموت (حوالي سنة ٥٠ للميلاد).

(٢٤) **الشاطىء الفارسي**: التعبير خطأ جغرافياً، كما أنه غير دقيق تاريخياً. فالمنطقة الممتدة من جزر كوريا موريا إلى رأس الحد كانت قد وقعت تحت حكم الدولة الفرثية، ولكن هذه المناطق البعيدة عن العاصمة كان لها نوع من الإدارة الذاتية. هذا من الناحية التاريخية. وقد اعتبر صاحب **الدليل** المنطقة «ساحلاً فارسياً»، وهنا الخطأ الجغرافي الكبير. فبلاد عمان وما جاورها كانت يومها جزءاً من ساحل الجزيرة العربية الجنوبي ولا تزال.

الفصل ٢٨

(٢٥) التماثيل الوارد ذكرها في هذا الفصل هي تماثيل صغيرة للآلهة وكانت تستعمل في العبادة المنزلية.

(٢٦) أهمية **كانا** (قنا) التجارية تعود إلى تَنَوُّع المتاجر التي كانت تصل إليها للتبادل. وسنتحدث عن ذلك فيما بعد.

(٢٦) كان المرجان مرغوباً فيه في الهند والصين، وكان من أهم صادرات الامبراطورية الرومانية.

(٢٧) **الاصطرك** *(storax)* مزيج من عصارات الأشجار العطرية يغلى حتى يعقد أو يصبح أجزاء صلبة. واستعماله كان طبياً وعطرياً.

(٢٨) الألوّة أو الصبرة المرة، نبتة كان انتاجها خاصا بسوقطرة، لكن **كانا** (قنا) كانت تحتكر تجارته.

الفصل ٢٩

(٢٩) **من الأخطاء التي كانت شائعة عند الجغرافيين القدامى اعتقادهم بوجود خليج كبير بين رأس الكلب ورأس حاسك، وأن رأس فرتك [سياغروس] يقسم الخليج إلى قسمين. وقد ظلت هذه الغلطة تظهر على الخرط وفي الأوصاف الجغرافية المتناقلة حتى العصر الحديث، لما مُسِح الساحل الجنوبي من الجزيرة العربية.**

(٣٠) **يرجّح أن ساشاليت هي الشِحْر، وقد كان اللبان الشِحْري [الذكر] يباع بأسعار أفضل من غيره.**

(٣١) كان اهتمام الجغرافيين الكلاسيكيين كبيراً بوصف شجرة البخور ـ اللبان في جنوب الجزيرة بشكل خاص، والمر على اختلاف أماكن نموه في جنوب الجزيرة وبلاد الصومال. ومن هؤلاء هيرودوت المؤرخ الجغرافي الانثروبولوجي، وبلينوس[١٢] وغيرهما.

الفصل ٣٠

(٣٢) **ديـوسكـورديـا** : هي بلا شك جزيرة سوقطرة . وسكان الجزيرة ، كما يقول صاحب **الدليل**، يونان . وهؤلاء ، على ما يبـدو، أرسلوا تجاراً ومعمِّـرين وحـراساً للمصالح المصرية ـ البطلمية . وقد اعتنق هؤلاء المسيحية فيما بعد، واستمروا على ذلك إلى أيام المسعودي .

(٣٣) وكان في جزيرة سوقطرة حامية ضد الفرثيين والحميريين .

(٣٤) كانت تنتـج سوقطـرة «دم الأخـوين» ، الذي كان يستعمل ، كما يبدو، في التحضيرات الطبية . كما كانت فيها أنواع السلاحف التي كان يتجهز التجار بغلافها (الذَّبَل) الذي كان يستعمل في صنع الكثير من الأدوات .

الفصل ٣٢

(٣٥) **موشـا هوخورريـري** . والـذي يجب أن نذكـره هوأن الفـرثيـين كانـوا يستولون على المنطقة الواقعة من رأس حاسك إلى جنوب الخليج العربي ، أما ما وقع إلى الغرب من رأس حاسك فهو لحضرموت ـ بلاداً أو دولة .

الفصل ٣٣

(٣٦) لعل تسمية الجزائر **زنوبيا** مشتقة من بني جناب .

(٣٧) **جزيرة سارابيس** هي جزيرة مَصِيرة .

(٣٨) هو رأس حاسك .

(٣٩) لم يكن باستطـاعـة صاحب **الـدليـل** أن يصـل الى المناطق الواقعة بعد جزر كوريا موريا وذلك لأن الاحتلال الفـرثي كان حديث العهـد ، وكـانـت الخصومات الرومانية الفرثية حادة . وقد كانت غايته الوصول إلى الهند ، لذلـك فإنـه لم يتعـرف شخصيـاً على المناطق التي يذكرها في الفصول من **٣٣** إلى **٣٦** . بل نقل ما سمعه عن رواة آخرين لذلك فإن إشارته إلى المنطقة الموحشة أو المتوحشة هي سماعية ولا تعني الدقة في الرواية .

الفصل ٣٤

(٤٠) **جزر كالاي** هي جزر ديمانيات ، التي تقع إلى الشمال الغربي من مسقط[١٣] .

الفصل ٣٥

(٤١) **جبل أو جبال كالون** هي الجبال المحيطة بقلهات . وجبال أسابون منسوبة على الغالب لبني أساب[١٤] .

(٤٢) **أبولوغوس** هي الأبلة . **وشاراكس سبازيني** هي المحمرة اليوم .

الفصل ٣٦

(٤٣) **أومَّانا** هي في الواقع عمان وجوارها، لكن، كما مر بنا، كان الجغرافيون الرومان يخلطون - خطأ - بين الجغرافيا والوضع السياسي. فهذه المنطقة لم تكن جزءاً من فارس، ولكنها كانت تحت حكم الفرثيين(١٥).

(٤٤) كان النحاس وقتها يصدر إلى الخارج من عمان، كما كان يصدر قبل ذلك بنحو عشرين قرناً. لكن الكميات نقصت، لذلك فقد كان بعض النحاس الذي يصدر من عمان قد استورد من الغرب. إلا أن المهم أن هذا النحاس كان يرسل من **كانا** (قنا) إلى الهند ثم يعود إلى عمان فالخليج العربي. ذلك بأن الحروب الفرثية الرومانية كانت تعيق الاتصال المباشر.

(٤٥) كانت عمان، ولا تزال، تصنع السفن المخيطة، أي التي توصل أجزاؤ ها بحبال من شجر جوزالهند أوما إليه، ومصيرة وعمان كانتا المكانين الرئيسيين لهذه الصناعة. وكانتا تصدران منتوجهما إلى الخارج.

(٤٦) الأرجوان الوارد ذكره هو الأرجوان الصُّوري (لبنان).

(٤٧) الخمر المذكورة هي خمر التمر. وكان يرسل إلى الهند عادة. واستخراج الخمر من التمر قديم جداً. إذ ورد ذكره في مصر حوالي سنة **٢٥٠٠** ق.م.

(٤٨) رواية صاحب **الدليل** عن الخليج العربي سماعية. فطريقه من عمان إلى الهند كانت بطريق جزيرة مصيرة، ولم يدخل هو الخليج العربي.

ومثل ذلك يقال عَمَّا نقله عن البلاد الواقعة فيما وراء موانىء غربي الهند. ومع أنه توخى الدقة في الرواية جهده، فإن ما نقله يختلف من حيث طبيعته عما رآه وشاهده وجربه بنفسه. ومن هنا كانت معلوماته عن شواطىء البحر الأحمر، الغربية والشرقية وشواطىء شرق إفريقيا وشواطىء جنوب الجزيرة، صحيحة ودقيقة إلى حد كبير.

(٤٩) وردت في **الدليل** عبارة المدن المعينة للتجارة (**الفصل ١**)*(جـ) وذكرت باسم مدن القانون [٢١]. والمقصود بذلك أن هذه الموانىء هي الموانىء التي كان يجوز لها أن تتلقى السفن والتجارة، وذلك تيسيراً لرجال الدولة لأن يحصلوا ما يتوجب على التجار دفعه لها على متاجرهم.

تجارة الجزيرة العربية كما يوضحها دليل البحر الإرثري(١٦)

يتضح من دراسة **الدليل** بكامله(١٧) أنه كان هناك أربع مناطق ذات موارد طبيعية أو فيها مصنوعات يمكن أن تتبادلها فيما بينها أو وساطة. ومن هذه المناطق الأربع اثنتان كانتا في الطرفين البعيدين - الهند والامبراطورية

*** المحرر:**

(جـ) لكثرة تكرار الفصول المستشهد بها فيما تبقى من البحث، فإن المحرر استحسن حذف كلمة **فصل** أو أي اختصار لها من البحث والاكتفاء برقم الفصل بين قوسين مربعين.

الرومانية. ومنطقتان كانتا في الوسط جنوب الجزيرة العربية وشرق إفريقيا (هذا بالنسبة إلى القرن الأول الميلادي).

فالهند كان عندها الفولاذ الهندى [٦، ٣٩] والنحاس [٣٦] والأخشاب التيك والأبنوس والسّاج [٣٦] والأرز [١٤، ٤١] والقمح [١٤] وزيت السيرج [١٤، ٤١] والدهن الهندي [١٤، ٤١] والسكر [١٤] والأفاويه، ويدخل في عدادها الفلفل والقرفة والطيوب [٣٩، ٤١، ٤٩، ٥٦]. كما كان اليشب والرصاص واللازورد ينقل إلى الهند من أواسط آسيا ومن موانئها يرسل إلى الغرب، [٤٩].

أمـا ما كان يصنـع في الهنـد ويصدر إلى الخارج فالأقمشة القطنية ـ والقطن نفسه [٦، ١٤، ٤١] والموسلين أو الموصلين [٣٩] وأنواع مختلفة من الأقمشة [٤٨] والنيلة [٣٩] والكحل المصنوع [٤٩] والأواني الفخارية (من الهند [٤٩] ومن الصين عبر الهند مع الصيني العادى والمزخرف [٥٦]).

وكان ثمة أحجار كريمة تنقل من الهند مثل اللؤلؤ من خليج قنار [٥٤،٥٨] والياقوت الأزرق والعقيق [٣٩،٤٨].

وكـان قسم كبـير من الحـريـر الصيني ينقـل عن طريق الهنـد، بسبب إقفـال الطريق البر ي عبر أواسط آسيا وإيران، إلى حوض البحر المتوسط.

في الجهة الأخرى كانت الامبراطورية الرومانية مجتمعا مستهلكاً لمنتوجات الهند والصين (بخاصة الحرير) التي كانت تصل إليه، أو تنقل إليه. لكن المناطق الشرقية من الامبراطورية الرومانية بشكل خاص كان عندها بعض ما تحتـاجـه أو تحبـه المجتمعـات الشـرقيـة. وهذه يمكن إجمالها فيما يلي، اعتماداً على ما عرفناه من **الدليل**: الخمور من الـلاذقيـة ([٦] ومن إيطـاليـا) وزيت الزيتون (من فلسطين ولبنان وسورية) والمرجان [٢٨، ٤٩] والقماش الأرجواني الصُّـوري [٢٤، ٣٦] والأقمشـة وبخـاصـة الكتـانيـة (مصـر [٦، ٧، ٨]) والكحل المصنع (مصر [٤٩]) والحجارة الثمينة الشفافة: الزمرد والياقوت الأصفر والعقيق الأحمر (من مصر [٦، ٣٩]).

كانت منتـوجـات هاتـين المنطقتين تنقل من الواحدة إلى الأخرى. ولا شك أن ميزان المدفوعات التجاري لم يكن في صالح الامبراطورية، إذ كانت تدفع ثمن أكثر الكماليات ذهباً وفضة.

وإحــدى المنطقتـين الـوسطيـين هي شرق إفـريقيـا وأهم سلعهـا، على ما ذكـرنـاه من قبـل، هي القـرفـة [١٠، ١٢، ١٤] والسمسم [١٣، ٤١] والمـر [١٢، ٣٧، ٤٩، ٥٦] والعــاج بكميـات كبـيرة [١٦، ١٧] والـذبـل [١٣، ١٦، ١٧] وقرن وحيد القرن [١٧] وبعض الرقيق [١٣، ٤٢].

وهذه المنطقة منتجة واستهلاكها للكماليات كان قليلاً، لكنها كانت تعنى بالعطور والطيوب.

وتبقى المنطقة الأهم من حيث دورها التجاري وهي منطقة الجزيرة العربية في شرقها (على الخليجين العربي

والعماني) وجنوبها وغربها (على البحر الأحمر). وهي منطقة كانت فيها سلع تنتجها وتبيعها إلى المناطق الأخرى، والامبراطورية الرومانية بشكل خاص.

فالمنتوجات الخاصة بالمنطقة هي:
البخور بنوعيه اللبان والمر [٢٤، ٢٧-٣٠، ٣٧] والذبل البري والبحري [٣٠] والذهب (في الحجاز وفي شرق الجزيرة [٣٦]) واللؤلؤ والتمر (الأكثر من [عمان ٣٦، ٤٩]). ومن المصنوعات التي كانت تنتجها المنطقة الرماح [١٧، ٣٩] والقوارب المخيطة [٣٦] والخمور [٢٤، ٣٩، ٤٦].

والمراكز التجارية التي ورد ذكرها في **الدليل** هي المهمة في أيام كتابته وهي الأبلّة (**أبولوغوس**) وعمان - (ولم يذكر صاحب **الدليل جرها - الجرعاء أو العقير**) - وخور ريري (**موشا**) وقنا (**كانا**) وعدن (**يوديمون**) وسوقطرة وأوكليس ومخا (موزا) والحوراء (**لُويْكي كومي**).

ويبدو أن أكثر المتاجر بين الشرق والغرب كانت تمر بواحدة أو أكثر من هذه الموانىء سواء أكان قصدها مصر بحراً، أو البتراء براً، فكانت الموانىء أو المدن - الأسواق تتخير منها ما تحتاجه - ولأنها كانت في الغالب غنية فقد كانت تأخذ الكثير من هذه المتاجر - وترسل ما تبقى شرقاً أو غرباً - بعد أن تضيف إليه مما عندها.

ومع هذه المتاجر والتجار كانت تنتقل عناصر الحضارة والمدنية، فكانت هذه الموانىء والمدن والأسواق عاملاً من عوامل نقل الآراء والأفكار والتيارات من بلد إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر.

وهذا الدور الذي قامت به المنطقة تجارياً في القرن الأول للميلاد سبقته أدوار قديمة لها ولحقت به أدوار تابعة. فقد ظلت طرق التجارة إلى القرن السادس عشر تمر بهذه المنطقة. ولما جاء البرتغاليون واكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح، وحولوا التجارة إلى أوروبا رأساً عن طريق جنوب إفريقيا، فإن الطريق البحري - البري القديم (البحر المتوسط - البحر الأحمر - المحيط الهندي أو البحر المتوسط - بلاد الشام والعراق - الخليج العربي - خليج عمان - المحيط الهندي) حافظ على بعض نشاطه. ثم لم يلبث أن استرجع الكثير من نشاطه السابق حتى في القرن السابع عشر.

الهوامش

(١) هذه المقدمة عن بحث لنقولا زيادة بعنوان «تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي»، **دراسات الخليج والجزيرة العربية**، العدد ٤، ص ص ٦٩ - ٩٤. وهناك المصادر والمراجع المعتمد عليها أصلا.

(٢) من الجغرافيين الكلاسيكيين الوارد ذكرهم هنا راجع :

E.H. Banbury, *A History of Ancient Geography* II (New York, 1959 reprint), 209 - 336, (esp. 209 - 272, 319 - 26), 352 - 369, 371 - 87, 417 - 29, 519 - 60, 604 - 618; J. Oliver Thomson, *History of Ancient Geography* (New York, 1965), 224 - 230.

(٣) حول **دليل البحر الإرثري** ومؤلفه راجع :

Banbury, *op. cit.,* 443 - 77; Thomson, *op. cit.,* 228; W. H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea.* Translated from the Greek (New York and London, 1912), 3 - 2l (Introduction).

(٤) **الفصـول ١٩ ـ ٣٦** مترجمـة عن الـترجمـة الانجليزية لشوف (Schoff) ، *op. cit.,* 29 - 37 (**المحرر**: أنظر تعليق Kirwan عن هذا المرجع في قائمة مراجعه في بحثه في هذا الكتاب) .

(٥) ملخصة من **الفصول ١ ـ ١٨** من *op. cit.,* 22 - 9.

(٦) Strabo, XVI: iv, 24.

(٧) راجع عن موزا والملاحة في البحر الأحمر Pliny, *Natural History* ، VI: 23, 101 - 104.

(٨) Adolf Grohmann, *Arabien* (München, 1963), 28.

(٩) عن الزعفران واستعماله راجع Pliny, *op. cit.,* XVI, 81.

(١٠) راجع عن المراهم *op. cit.,* XIII: 1,2.

(١١) Grohmann, *op. cit.*

(١٢) عن اللبان وشجره وجمعه راجع : Herodotus, *Historiae,* III, 107, II, 75; Pliny, *op. cit.,* XII, 30.

(١٣) Schoff, *op. cit.,* 147.

(١٤) **الموضع السابق نفسه** .

(١٥) *Op. cit.,* 150 - 1.

(١٦) راجــع الفصـــول **٣٧ ـ ٥٧** في *Op. cit.,* 37 - 46 ، وتعليقـات شوف (Schoff) ، *op. cit.,* 161 - 234 ، ونقـولا زيادة، **المرجع السابق نفسه** .

(١٧) بالإضافة إلى ترجمة **الدليل**، فقد أورد شوف (Schoff) في كتابه تعليقات هامة ومفصلة . والعودة إليها مفيدة جداً . وترى تعليقاته على الجزء المترجم في هذه الدراسة في *op. cit.,* 101 - 161.

عاشـــراً: الحضارة (التعبير عن النفس)

بحثان في الموضوع

التعبير عن النفس في الأمثال العربية

يوسف عز الدين

المَثَلُ هو الصورة الصادقة لحياة الشعوب والأمم، ففيه خلاصة الخبرات العميقة التي تمرست بها عبر السنوات الطويلة من حضارتها، وهي الخلاصة المركزة لمعاناتها وشقائها وسعادتها وغضبها ورضاها. نجد في طياتها مختلف التعبيرات التي تمثل حياة مجتمعها وأفرادها بأساليب متنوعة وطرق متعددة كالسخرية اللاذعة والحكمة الرادعة.

ورغبات الإنسان وهمسات روحه لا تختلف في أمة من الأمم عن غيرها، إلا بمقدار الاختلاف الناتج عن البيئة والثقافة والتجربة، وفي الأمثال تعبير عن النفس البشرية وتطور حياة المجتمع ونمو الحياة التاريخية.

وتحتاج دراسة المثل العربي إلى دراسة متعددة الجوانب، لتسجل تطوره الحضاري والعوامل النفسية التي دعت إلى ضرب المثل، لتكون سجلاً للنفس العربية عبر تطورها التاريخي والروحي.

ولن أكون من علماء النفس في مقالي هذا، إنما سوف أحصره بالسلوك الفردي والتصرف الشخصي الذي انعكس على المجتمع العربي، لأن ضرب المثل لم يأت إلا رد فعل عميق لما في النفس العربية من أحاسيس ومشاعر، نتيجة للمؤثرات اللاشعورية التي اختفت في العقل الباطن فجاء سلوكه تعبيراً عن عمق المؤثرات التي دعت الى ضرب المثل أو الحكمة.

ولا أريد بالسلوك الفردي التصرف الإنساني للأعمال الانعكاسية التي تصدر بغير إرادة الفرد ودون وعيه ودون تأثير العقل الواعي، فإن هذا من صفات الحيوان الذي لا يعقل، ولأن أفعاله تأتي بصورة غريزية وتصرفه يكون بدون إرادة.

إن التصرف الواعي يختلف اختلافا بيّناً من إنسان إلى إنسان آخر ولو كانت تجاربهما متطابقة، لأن اشتراك العامل الإنساني ليس معناه تطابق الأمثال في الشعوب كل المطابقة، وإن تقاربت في كثير منها.

إن عمق التجربة عند أمة قد يختلف عن أمة أخرى، تبعاً لاختلاف التجارب الفردية للإنسان في المجتمع، وتبعاً لعاداته وتقاليده وأسلوب حياته، لأن الأمثال تتغير بتبدل البيئات والتجارب الفردية والاجتماعية. فالأمثال التي تمتدح الكرم، قد لا تروق لشعب عاش في جوع وفاقة وشهد الآفات، والأمثال التي تمتدح الفروسية والشجاعة، قد لا يستسيغها شعب أحب الهدوء والدعة وانصرف الى ذاته الفردية وعكف على ملذاته الخاصة.

ومن دراسة المثل العربي، نجده متسقاً في كثير من حكمته وموافقاً للطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، والاختلافات ضئيلة بين الدنيا العربية رغم اتساع الرقعة وتطور حياة كل قطر من أقطارها واختلاف التجارب الجزئية فيها، لأن المظاهر الإنسانية والمثل الاجتماعية التي أحبها العربي في صحرائه تطورت وتبدلت، ولكن جذورها نابعة من النفس الإنسانية كالغضب والحب والرضا والحزن.

وفي هذه الدراسة لا يمكن تتبع جميع الاستجابات النفسية والدوافع التي دفعت الى ضرب المثل، ولكننا سنمر على بعضها ونترك باقيها إلى فرصة أطول وإلى وقت أرحب.

الحب والصداقة

من أبرز مظاهر السلوك الإنساني في جميع المجتمعات الإنسانية على اختلاف عناصرها وتباين لغاتها وتباعد أقطارها، ظاهرة الحب، لأنها مرتبطة بالحياة وباستمرار وجود الجنس البشري. فنجد المحب يتغاضى عن عيوب محبوبه، لأن وجدانه ومشاعره وأحاسيسه لا تريد إلّا أن ترى المحبوب في أجمل الصور وأحلاها، ولا يتمنى المحب إلا أن يسعد الحبيب ويرضيه، فهو لا يرى في أعماله إلا الحسنات وأن كل تصرفاته سليمة صحيحة، وإن كانت هذه التصرفات بعيدة عن المنطق والواقع، لأن المشاعر العميقة غلبت العقل، فلم يعد قادراً على التعليل ووضع الأمور في الميزان الطبيعي الذي وضعه الناس وتعارفت عليه التقاليد.

ولا أعني بالحب الغريزة الجنسية بذاتها التي تحدث عنها فرُويد (Freud)، إنما أريد سعادة الانسان بعواطفه البريئة وأحاسيسه في حب المحبوب، لأن هذه الأحاسيس تمده بالرضا والقوة والنشاط الروحي وتحجب كل مساوىء المحبوب وأغلاطه، وبهذا جاءت الأمثال:

إن الهوى شريك العمى

حبك الشيء يعمي ويصم

يخفى مساويه ويصم عن سماع العذل فيه

حسن في كل عين من تود

ومن أبرز مظاهر الحب والصداقة بين الناس الحنان المتبادل والرقة الظاهرة في التصرفات، واللطف في المعاملة، وصدور تعبيرات نفسية عن الحالات الوجدانية للإنسان كالفرح باللقيا والابتسام عند الحديث الجميل والغيرة عليه، وخاصة إذا كانت أنثى، فهي أكثر غيرة من الرجل حتى قال المثل:

لب المرأة إلى حمق

فإن شدة هذه الغيرة أعمت المرأة وأساءت تصرفاتها وفقدت التوازن الاجتماعي من أجل الاحتفاظ بالرجل، حتى أصبحت هذه التصرفات حمقاء.

وعندما أراد العربي أن يصف شدة الحب ورقة الحنان، وجد في الطير المثال الجميل الذي يعبر فيه عن ما يعتور نفسه من حنان، فقال في معاملة المحب للحبيب:

زقه زق الحمامة

وعندما خشي العربي من الملل النفسي الذي يسيطر على الإنسان من كثرة الوصال ومداومة اللقاء، عاد الى العامل النفسي لإبقاء الحرارة واستدامة الشوق والحب ولدفع الملل والضجر، لأن البعاد المؤقت بين المحبين يورث

الحب ويستديمه، وهذه عادة مألوفة الآن في الغرب فإن السيدة المتزوجة تأخذ إجازة سنوية تبتعد فيها عن زوجها، كما يأخذ رب الأسرة مثل هذه العطلة حتى يقتل الملل الذي يعانيه من طول الزواج، وعندما يعود بعد فترة يجد إحساساً يغاير إحساسه الأول ورغبة في اللقاء وإدامة الوداد، وقد عبر المثل العربي عن هذه الظاهرة النفسية بقوله:

الهوى من النوى
و اغترِبْ تَتَجَدَّدْ
و ربَ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاء

وليس على نفس المحب أمضّ من الهجر، فقد أكثر الشعراء والكتاب من لعن الهجر وتبرم به المحبون، رغم أن الهجر يورث الحب ويزيده اشتعالاً، ولعل الخوف من الفرقة الدائمة هو الذى يملأ قلب المحب جزعاً وقد عبّر العرب تعبيراً جميلاً عن هجر الحبيبة دارها أو حبيبها فقال المثل:

من شم خمارك بعدي

ويلجأ المحب إلى إبقاء الذكريات الحلوة واللحظات السعيدة عندما يريد أن يثير حنان الحبيبة، لأن الذكريات العذبة تغطي على كثير من الأغلاط وتعيد الحبيبة الى ساعات الرضا واشتداد الأوار، وبعدها تبدأ المغازلة باللفظ الجميل والعبارة المنتقاة حتى يصفو قلب الهاجر ويعود الى المحب. ولم يجد العربي تعبيراً عن إثارة الحب والرقة خيراً من الناقة حتى تدر لبنها بعد الإيناس فقال المثل:

الإيناس قبل الإبساس

وأجمل حنان يملأ النفس سعادة هو حنان الأم على ولدها، وقد عبّر المثل العربي عن اللطف والعطف في حياته العامة بها فقال:

حرِّكْ لها حِوارَها تَحِنّ

وقد وجدنا العقوق من الأبناء للآباء، ولكن حياة العرب لم تخل من أم بلا حب ولا رقة ولا حنان تعامل بها ولدها فتهجر الأم ابنها ولا ترعاه ولا تحدب عليه فقال:

ظئر رءومٌ خيرٌ من أمٍ سئومٍ

البغض والعداوة

مهما تقدم الانسان في الحضارة، وشُذِّبَتْ طباعه، ولانت جوانبه بالثقافة والعلوم والآداب والفنون، فلن يقدر على إخفاء غريزة العداء والبغض بين أبناء البشر. فقد بقيت في كيان الإنسان منذ عصوره الموغلة في القدم، لأن النفس الانسانية تحب الطموح والتبدل والتغيير، ولذا فإنّ وقوف المعوقات أمام رغبات النفس وما تريده وحَجْب ما ألفته وأحبته، يثير غريزة الكراهية والعداء ضد تلك المعوِّقات.

وقد يكون العداء فردياً لسبب خاص أو لتجربة ذاتية، أو يثار البغض والعداء من اختلاف المثل والديانات

وتباين الغايات الفكرية والطائفية أو البلدانية، ولكن مهما كانت دوافع البغض ومسبباته فيجب أن نعترف بوجوده وبالتعبير النفسي عنه.

وقد تبدو تعبيرات الكراهية والبغض بوضوح على السمات الخارجية أو بأسلوب التعامل الإنساني، وقد يصدر تعبيراً لا إرادياً عن كوامن النفس، فيكون الإنسان مربدّ الوجه مغبّر الملامح متجهم السمات، وقد عبرت النفس العربية عن هذه الحالات بالأمثال التالية:

شاهد البغض اللحظ

والبغض تبديه العينان

وإذا فرح الجنان بكت العينان

وإذا اشتدت الكراهية وزادت روح البغض والعداء في النفس، تخرج عن التعبيرات إلى أعمال العنف والقسوة وسوء المعاملة، فيقول المثل:

قشرت له العصا

لبست له جلد النمر

ففي الكناية تعبير عن عميق الألم والبغض بإظهار العداء ومهاجمة الانسان المكروه ومكاشفته بما يجول في النفس، إذ لم يقدر على كبح جماحه وإيقاظ غضبه وتعويق انفعالاته.

ولا بد أن الإنسان قد خرج في بغضه الى حد الغضب وثورة النفس، وحاول أن يسيطر على أعصابه وكبح ثورته عندما رأى من يحقد عليه ويبغضه أكبر منه قوة وأبعد نفوذاً، فخشي العاقبة وأراد أن ينفّس عن النفس المكروبة الغضبى، ولتسرب ثورته لا بد من عمل شيء، فرسم المثل العربي الإنسان الغاضب وهو يخط الأرض بسهمه بقوة وانفعال، فتتكسر من شدة انفعاله السهام على قوتها ومتانتها ويحطم مداخلها، فقال المثل:

إنه ليكسر علي ارعاض النبْل غضبا

ومثل هذه العوامل النفسية وسيطرة العقل على الانفعال والثورة، يقول المثل:

هو يحرق على الأرّم

وهل هناك أشد غضباً من أن ينفّس عن حقده وبغضه وثورته من عض الأصابع أو عض الحصا[1]، ومثل هذا قولهم:

تركته يصرف عليك نابه

ومن طريف البغض والشماتة ما كانت تكنُّه نفس عمر بن الخطاب للسكران الذي جاء به الحرس بين يديه، وهو مسلم قد خالف تعاليم الدين الإسلامي، فعندما سقط قال له:

لليدين وللفم

وقد تجنب العرب إثارة البغض والعداوة وحاولت جهدها الابتعاد عنها، وقد وجدت أن الملاحاة طالما أثارت الغضب والعـداوة حتى ورد في الحديث الشريف ما معناه: «أول ما نهاني ربي عنه عبادة الأوثان وشرب الخمور وملاحاة الرجال»، فقال المثل:

من لاحاك فقد عاداك

لأن الملاحاة تجر إلى المناقشة والفوز على المقابل، وكثيراً ما تثار النفس ويتجادل المتناقشون وتجر الملاحاة إلى أمورٍ بعيدة من الموضوع ذاته، وقد «يقشر أحدهم للآخر العصا أو يلبس له جلد النمر»، فيكرهه من كلمة سوء ويحقد عليه من عبارة سيئة ندت بسرعة دون قصد.

البخل والكرم

الكرم من أَبرز ملامح المجتمع العربي، فالعربي في الأكثر الأعم يكون كريمًا سخياً يجود بكل ما لديه في سبيل المحتاج والضيف والملهوف، وهو انعكاس لحياة المجتمع البدوي في الصحراء، فقد وضع الكريم في منزلة عالية، واعتـبر الكـرم من الفضـائـل السـامية الممتدحة، وقد تكون الطبيعة الصحراوية هي التي فرضت هذا التعاون الاقتصادي بين أبناء البادية، حتى أصبح جزءاً من الأعراف والتقاليد المرعية، فالبدوي في صحرائه البعيدة عن العمران المتنقل في خيامه قد تسامى إنسانياً، فأغاث الجائع وساعد الملهوف وسقى العطشان، لأنه قد يقع فيما وقع لهذا الانسان في يوم من الأيام.

وبعكس الكرم هوجم البخل والطمع والشره، لأن ابن الصحراء يكفيه من الطعام القليل والماء المحدود، فرسم العربي صورة كريهة للشره لا يكاد يصدقها الخيال، والواقع أن الشَّرِهَ إنسان يهاجم الكلاب على فضلات الطعام، إنها زراية وسخرية واحتقار لهذا الانسان عندما عبّر المثل عن النفس بقوله:

هو يبعث الكلاب من مرابضها

ولا يكتفي العربي بمدح الكريم وذم الشره، إنما يهاجم الغني الذي لا ينتفع المجتمع بماله ولا يستفيد من ثروته، إنما يحجز أمواله ويكدّسها، إنها صورة أخذها العربي من حياة الصحراء ومن إبله، فقد وجد عشباً نضراً زاهياً سوف يجف ويذهب دون فائدة، فقال عن الغني الذي لا ينتفع الناس بماله:

عشب ولا بعير

وقد عبرت النفس الإنسانية تعبيراً جميلاً أخذته من الأغنام التي يستفيد الناس من صوفها في الملبس والفراش والخيام وغيرها من الفوائد، فوصفت غنى البخيل كالجزّة على شاة السوء:

رُبَّ جزّة على شاة سوء.

وصور السخرية من البخل والبخلاء كثيرة في الأدب العربي، ولكن المثل عبر عن النفس العربية باختصار شديد ورسم صورة (كريكاتورية) هزلية ساخرة، فقد وصلت حالة البخل عند البخيل بأنه منع حتى الفأر من تذوق

طعامه الذي يكتفي بالقليل من الطعام والتافه منه، فقال:

يلجم الفأر في بيته

وتزداد السخرية والزراية بالغني ذي الأموال الكثيرة الذي لا يصرف على نفسه من ماله ولو كانت هذه الأموال كالبحر كثرة، فقال عنه:

يصبح ظمآن وفي البحر فمه

وتفنَّن المثل العربي بالتنديد بالبخل ورسم لنا صورة الإنسان الذي كثر ماله ولكنه مع ذلك لشدة جشعه وعمق طمعه، يرى كل هذه الأموال قليلة، فقال:

رب مكثر مستقل لما في يديه

ولم يكن البخيل محبوباً حتى من أهله وأقربائه، لأنه إنسان يقصر في ماله عن فائدة المجتمع الذي يعيش فيه، وأشد مرارة على النفس أن يتحاماه أهله ويبعد عنه أقرانه فقال:

من شر ما ألقاك أهلك

ونبذ البخل ومهاجمته ظاهرة في الأمثال العربية لتدفع العربي إلى الكرم والجود وبذل المال، ووصف البخل بصورة ساخرة وزراية بصاحبها دليل على أن المجتمع العربي كان شديد الكرم، فمن الأمثال التي تهاجم البخل والبخيل:

يمنع دَرَّه ودَرّ غيره

ما بلّ إحدى يديه

إذا قلتَ له زِنْ طأطأ وحَزِن

لا يبضّ حجره

وحتى لو تعلل البخيل بالإعسار فلن يصدقه المثل، فقال عنه:

قبل البكاء كان وجهك عابساً

إن الكرم معناه أن تغلب غريزة العطاء الإنسانية على غريزة البخل الأنانية الفردية، لأن أصحاب النزعات الفردية لا يهمهم ما يقاسيه المجتمع من شقاء وألم، قد رآى البخيل المصلحة في إشباع رغبته في الجمع، لأن ذلك يسعده أكثر من مقالة الحمد وعبارة الثناء، فقد رغب عن إثبات ذاته اجتماعياً ورغب في إسعاد ذاته بالمال، فقال:

لا يكسب الحمد فتى شحيح

وقد رغّب المجتمع البدوي بالكرم لأن من يجود بالمال لا بد أن يحتاج يوماً إلى الآخرين، فقد ينقطع في سفر عن أهله وأسرته أو يصاب بكارثة تذهب بماله، فقال:

أحسِن وأنت معان

والتأكيد على الكرم في العادات العربية حماية اجتماعية لكل العرب في بواديها، وقد فرضت الصحراء هذه

العادة الممدوحة وأصبحت من مقومات المجتمع العربي ولم تتغير إلا بعد أن شابتها موازين الحضارة الجديدة وغيرت كثيراً من العادات العربية السامية، وحلت مؤسسات جديدة تنوب في إطعام المسافر وتشبع الجائع وتروي العطشان كالفنادق والمطاعم، ولكن بقيت الشراهة في الطعام وأثرها في الأمثال العربية، فقد قيل عن الشره والطماع الذي لا يرضى بالكسب من ناحية واحدة:

أراد أن يأكل بيدين

ويضرب المثل بالبخيل الذي يطلب أنواع الأطعمة لنفسه ويمنعها عن غيره:

يشتهي ويُجيع

والجوع والفقر كالري والشبع والغنى ظاهرة اجتماعية عند كل الأمم، ولكنها تبرز أكثر في الصحراء الجرداء لأن العربي في الصحراء يكافح من أجل الحصول على اللقمة ويتتبع منازل الخصب، ويعيش على ما تدره الطبيعة عليه ليدفع عنه غائلة الجوع والعطش إذا ضل في الصحراء ولم يجد المسعف فسوف يموت ويهلك، لذلك فالغني هو صاحب الكلمة العليا لأنه يملك الطعام والشراب ويستأثر بأحسنه وأطيبه، فأخذ العربي يضرب المثل بحاجة الفقير إلى الغني ومقدار كفاية كلٍ منهما بها فقيل عن الفقير الذي يخدم الغني طلباً لماله:

إذا شبعت الدقيقة لحست الجليلة[٢]

وأشهر الأطعمة وأحسنها الحليب فهو غذاء البدوي وشرابه، ومتى كثرت الألبان ودرت النوق ازداد الشبع ويكثر الغنى ومتى حافظ الغني على أمواله وخزنها قال المثل:

صري واحلبي[٣]

ويزداد الخير بكثرة الأمطار وانتشار الكلأ الذي ترعاه الإبل والأغنام، فيعود على صاحبها بالغنى وقد ينسى الغني غيره الذي لم تمطره السماء وتنبت له الزرع، فعبّر البدوي عن الغني الذي لا يدري بحال المحتاج بقوله:

يحسب الممطور أن كلّا مطر

وفي الصحراء التي يقل فيها الزرع والنبات يرضى الإنسان بالقليل من الطعام وبأدنى حد منه، بل أسوأ أنواعه ولكنه يقنع بهذا، فعندما يفصد الدم ويشوى له ويطبخ ليطعم هذا الإنسان، قال المثل عنه:

لم يحرم من فُصد له

وفي القناعة باليسير رضى من التمر بأقله وأردئه فقال:

رضى من القشب بالخوصة

والعربي أبي النفس تدعوه الكبرياء الى كتمان حاجته وعدم التصريح بفاقته للآخرين، حتى لا يحتقر ويفتضح فقره. وقد يكون أقل منزلة في مجتمعه من غيره لإحساسه بأن الذي يتفضل عليه بالكرم أعلى منزلة وأرفع مقاماً، فرآى في العطش الشديد وصبره على الشدة واللأواء خيراً من أن يرتوي بمنة رغم الحاجة الشديدة للري، وحفاظاً على كبريائه وإثبات ذاته، قال:

ظمأ قامح خير من ري فاضح
إنه استعلاء وتسامٍ تغلّب حتى على الغريزة وحب الذات والحياة.

الكبرياء والظلم

في الصحراء المترامية الأطراف، حيث تنازع البقاء وحيث الطبيعة القاسية الجافية لن يقدر على العيش فيها إلا القوي الأيّد، ولا مكان في الصدر إلا للشجاع البطل الجسور. وحالات النفس الإنسانية تختلف باختلاف ما يلاقيه الإنسان من انتصارات وسطوة واتساع نفوذه وسلطانه أو إخفاقه وخسارته، فإذا ما انتصر وسيطر فقد تزدهي نفسه وتخامرها الخيلاء وتداعبها أمارات الكبرياء والاستعلاء. وفي الطبيعة البدوية الواضحة والمساواة في العشيرة، وجدنا العربي يكره مظاهر الاستعلاء وأشكال التكبر، فضربت الأمثلة المتعددة للتعبير عن الكراهية منها:

الكبر قائد البغض
ثمرة العجب المقت
في الأرض ولدتك أمك
ليس هذا بعشك فادرجي
أنا ابن جلا

ومن الأمثلة اللاذعة القاسية:
كأنَّ الشمس تطلع من حرامه
وقد اختلفت الأمثلة باختلاف ظروفها ولمن قيلت، وفيها القاسي العنيف والناصح الرقيق والكناية اللطيفة، ورغم قسوة الطبيعة في البادية تظهر البساطة عل النفس العربية، فإذا اختلت الأمور في الحياة الاجتماعية وبرز فيهم إنسان بعد أن كان في أواخر الصف الاجتماعي، يعبّر المثل عن هذه الحالة النفسية للعربي بقوله:
كان سنداناً فصار مطرقة
و إن البغاث بأرضنا يستنسر(٤)
فقد أخذ المثل (إن البغاث بأرضنا يستنسر) من صغار الطيور التي تظن أنها أصبحت ذات أهمية في المجتمع وتريد أن تكون كالنسور، وهذا من استحالة الأمور إذ لا بد لمن يود في المجتمع البدوي السيادة والقوة، أن تكون له صفات كالكرم وسمو الأخلاق وغير ذلك من السجايا التي تفرضها تقاليد الحياة العامة، كحماية الضعيف ونصرة المظلوم. وخير مثال لنا حلف الفضول الذي نصر الضعيف الذي لا سند له، لأن الفروسية أن تحارب من هو بقوتك وتبتعد عن ظلم الضعيف الأعزل الذي لا حول له ولا قوة، وقد ضرب المثل بالذى يعتدي على الضعيف كالبازي الذي يقطع بمخالبه الطير الأعزل، فقال:
مخالب تنسر جلد الأعزل

والضعيف الذي يجد من يذود عنه ويحميه من سطوة الظالمين، لا بد أن يقابل صاحبه بالطاعة والخضوع، فقال المثل:

جرني وأنا حصير

ورغم العادات والتقاليد الكريمة في حماية الضعيف، فقد وجد العربي أن الظلم طبيعة الناس وأنه عادة متأصلة بين البشر، فقال:

الناس شجرة بغي

إنها نظرة أسف وألم أن نجعل البشر كلهم كالشجرة التي تنبت البغي وتترعرع عليه وتنمو في أحضانها، وفي المجتمعات المتأخرة وفي أوقات الفوضى لا مكان إلا للقوي والظالم، لذلك وجدنا المتنبي يقول:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ولا تخلو الحياة من الحق والعدل والقسط بين الناس، وقد وجدنا من قام بوجه الظالمين وحارب المعتدين. وقد كثرت عند العرب كلمة الظلم ووصف الظالم بصفات متنوعة، ولم يجد البدوي في الصحراء أكثر من الذئب مشاركة له في ماله ومنازعته الحياة من أجل البقاء، فرآه ظالماً فعبر عن نفسه بأمثال منها:

أظلم من ذئب

من استرعى الذئب ظلم

وكافأه مكافأة الذئب

ولا يعيش في الصحراء غير القوي الذي يحارب الطبيعة ويثبت أمام الغزوات التي تشن على قبيلته، ومن لا يدافع عن حرمته يصبح مهاناً محتقراً:

ومن لا يذد عن حوضه يهدم

ومن يكون ضعيفاً لا قوة له، ليس له إلا الصراخ والشكوى وطلب النجدة من الأقوياء لمساعدته في ضعفه وخوره، وقد قال المثل عنه:

لو ترك الحرباء ماصل[٥]

وأبت النفس العربية سيطرة الظلم والاستبداد، وأحبت الحرية والمساواة، ولا تريد سيداً ومسوداً في الجزيرة لأن الظالم اليوم لا بد أن يكون مظلوماً غداً، وسيعود ظلمه عليه. ومن الأمثلة المعبرة:

والظلم مرتعه وخيم

وقع الكلب على الذئب

لا تجن من الشوك العنب

والذي يرضى بالظلم ويسخر للغير ويرضى بالذلة والخضوع والاستسلام، يكون مدعاة سخرية وزراية.

هو أهون عليه من طلبه

أهون مظلوم سقاء مروّب

الجبن والخضوع والخوف

في مجتمع يقابل الإنسان فيها الطبيعة وجهاً لوجه بسلاحه البدائي، وتهاجمه الحيوانات الضارية بغتة ويجوب المفاوز المهلكة والصحارى القاتلة، لا يدري أين يكمن له عدوه. وفي غموض الكون بالقياس إلى تجاربه المحدودة، يكون يقظاً خائفاً وقد وجد الليل ستاراً يحجب عنه الرؤية ويحول دون معرفة من تسربل به، فاستراب منه وخاف الظلمة والليل. والخوف غريزة طبيعية للمحافظة على الحياة، ومن يقدر على كبت خوفه والسيطرة على فزعه، فهذا هو الشجاع الذى امتدحه العرب، وقد كثرت الأمثال في تمجيد الشجاعة والبطولة وعدم الخوف، كما كثرت الأمثال في وصف الخائف ووصف انفعالات الخوف التي تظهر عليه والتعبيرات التي ترتسم على وجهه كرد فعل لما يقاسيه في داخل نفسه، ولسنا بصدد إثبات أن الخوف غريزة إنما سنتبع التعبير النفسي الذي يصف فيه الخائف المضطرب، وما يبدو على جسمه من اضطراب من شدة الهلع والخوف، وما يداخل قلبه من رجفة وكثرة دقات قلبه وارتفاعها، قالت الأمثال:

جاء ترتعد فرائصه
يفزع من ظِلّه
قلبي من الفزع في قارورة
طارت عصافير رأسه

فلم يترك العربي مظهراً من مظاهر الخوف إلا ذكرها، وأطرفها الأخير الذي تخيل أن العصافير واقفة على رأسه، وانتفض الخائف كالغصن حرّكته الريح خوفاً، فهلعت العصافير وطارت.

ووصفت الأمثـال الحـالات النفسية التي تعـتري الخائف، فقد يعقد الخوف لسانه ولا يسيطر على نفسه وتصرفاته ويطيش عقله ويتبلد ذهنه، فقالت:

مَنْ بَعُدَ قَلْبُهُ لم يقرُب لسانُه ولا يدُه
لن يجد في السماء مصعداً وفي الأرض مقعداً

وفي الخوف والهلع لا يعود الإنسان إلى طبعه وهدوئه، إلا إذا ذهب عنه الخوف وخرج الجزع من قلبه فيرتاح قلبه، فشبّه المثل العربي الخوف بالبيضة التي يبيضها الطائر فقال:

أفرخ روعه
أفرخ القوم بيضهم

ولم يقف التعبير النفسي عن وصف ارتعاد الفرائص والأعضاء التي تهتز خوفاً، إنما بالغ العرب في وصف مشاعر الخوف وعمقها في نفس الخائف، وعندما ضربوا المثل بشدة هذا الخوف، قالوا:

اقشعرت منه الذوائب
اقشعرت منه الدوائر[٦]

أما البطل الشجاع الذي لا يخاف ولا ترهبه الرعود أو الأصوات المفاجئة وغيرها من مثيرات الخوف، فقد وصف بأنه إنسان لا يكترث بشيء ولا يهتز من صوت، فقال المثل:

ما يُقَعْقَعُ له بالشنان(٧)

وقد امتدح العرب الثابت الجنان الذى لا يرهب الليل وظلمته رغم ما في دياجيه من أخطار الأعداء والحيوانات المفترسة، لأن حجب الظلام تمنع الرؤية الواضحة فيخاف الإنسان من المجهول، فإذا ثبت ومنع نفسه من الفرار والخوف قال المثل عنه:

إنه لرابط الجأش عند الإغباش(٨)

ولن يكون الإنسان رابط الجأش شجاعاً، إلا إذا عاش في مجتمع يحترم ذاته ويقدر رأيه ويساويه مع غيره من أفراد المجتمع.

الغضب

بدأنا بالحب ورقته ولطفه ونختتم هذه الجولة بالغضب، لأنه غريزة تبرز الإنسان بصورته الوحشية الأولى، فالغاضب تتغير تصرفاته وتتبدل طبائعه، لأن رغبة من الرغاب أو هدفاً من أهدافه لم يحققها، وهو يحس بأن هذه الرغبة أو هذا الهدف من حقه، وبذلك تطور الغضب أو تبدل، فقد كان باعثه الأول الدفاع عن النفس وإثبات الذات والتنازع على البقاء، بصورها البدائية التي حولتها الحضارة إلى المثل والتقاليد والعادات، فيغضب الإنسان عندما يُؤذى في عقيدته ويثور إذا أحس بأن مبدأه امتهن، وتظهر على الغاضب المعاصر العلامات التي كانت قد ظهرت على أجداده من آلاف السنين، وتتجسم على محياه الكراهية والحقد، وتتغير ملامح وجهه وطريقة تعبيره وأسلوب معاملته للآخرين، وقد يتحول الغضب إلى البطش والإيذاء إذا أمن الغاضب من العقاب ووجد في المغضوب عليه الضعف. أما إذا كان المقابل قوياً أشرس منه وأكثر سطوة وأشد مراساً، فسوف يتحول الغضب إلى ثورة مكبوتة، وسوف يكظم الغضب ويكون رد الفعل في نفس الغاضب عميقاً، وتهتاج أعصابه وتستعد عضلاته للقتال، وقد يفقد السيطرة على النفس ويظهر إنساناً آخر ويصبح كالديك المتوتر العرف الهائج الجسم، وقد صور المثل هذا الإنسان بصور متعددة منها:

جاءنا نافشاً عفريته

جاء فلان كالحريق المشتعل

ثار ثائره

غضبه على طرف أنفه

والقوي الذى يتحدي الغاضب ويكسر شوكته، قال عنه المثل العربي:

إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً

لأفشنك فش الوطب(٩)

وإذا كان علماء النفس عالجوا الغاضب بتسرب غضبه بطرقهم الحديثة، عندما حولوه إلى عادة مفيدة فقد عالج العرب الغضب بالنوم، فما على الغاضب إلا النوم ليرتاح ويتخلص من غضبه:

النوم فرخ الغضب

أو أن يعامل الغاضب بأسلوب جميل وإهداء ما يسره ويزيل غضبه، فإن كان محتاجاً مدت له يد المساعدة، أو كان جائعاً سد جوعه. فقد نزل رجل من العرب بقوم وكان غاضباً عليهم ثائراً لأمر صدر منهم فما أسرع ما عرفوا جوعه فسقوه لبناً، فسكن غضبه فقال المثل:

إن الرثيئة تفثأ الغضب(١٠)

وعندما يهدأ الإنسان تنبسط أساريره ويعود شخصاً هادئاً، فقال المثل:

تحللت عقده

جاء يتخرم زنده(١١)

وجميع الغرائز الإنسانية الحيوانية التي غطتها الحضارة وغلفتها العادات والتقاليد، تتجه نحو الدمار والفساد إذا سارت مسارها الحيواني ولم يسيطر العقل عليها وتصقلها قوة الإرادة، ولكنها إذا هذبت واتجهت نحو الخير سمت وارتفعت فاصبحت أداة إصلاح وبناء، وقد هذب العرب غريزة الغضب وسلكوا بها مسلك البناء وانتفع بها الإنسان وأفادته التجارب، عندما رآى أن عاقبة الحقد والانتقام والشر قد تعود عليه بالشر والأذى، ورآى في حلاوة الصفح وجمال العفو ما يرضى الناس ويرفع قدره وينال الثناء والتقدير، فقد حدثنا عن رجل من قريش كان يريد الانتقام من شخص آذاه وأن يأخذ بثأره منه، ولما ظفر به وأصبح بين يديه خاضعا ذليلاً سمت نفسه عن الانتقام وأخذ الثأر وقال:

إن المقدرة تذهب الحفيظة

ومثله : ظفري بمثلك هزيمة

إن التعبير عن النفس في الأمثال العربية يحتاج إلى دراسة مطولة وإلى تحليل أعمق ودراسة أوسع، لأن العامل النفسي أصدق المؤثرات، والأمثال العربية خير سجل وأصدقه لحياة العربي ونفسه ومشاعره، ففيها صور حياته وتجاربه ورغباته وحياته الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية والفكرية.

الهــوامش

(١) يرى السدوسي الأصابع وليس الحصا.
(٢) الدقيقة : الأغنام وهي لا تحتاج إلى طعام كثير كالجليلة (الإبل).
(٣) شدِّي الضرع بالصرار.
(٤) النّسر نتف اللحم بالمنقار.
(٥) الحرباء المسمار.
(٦) الدوائر: جمع دائرة حيث اجتماع الشعر من منبت الفرس وصدره.
(٧) القعقعـة: تحريك مادة صلبـة لإخراج صوت، وكانت العرب تحرك الشِّنان (القِرَب) القديمة لتفزع الإبل وتدفعها الى المسير.
(٨) الجأش: القلب وهو يضطرب عند الخوف، الإغباش الظلام.
(٩) ينفخ الوطب فاذا خرج منه الهواء فقد فش.
(١٠) الرثيئة: اللبن الحامض يخلط بالحلو. والفثء: التسكين.
(١١) تخرم: تسكن.

المصـادر والمراجـــع

(١) السدوسى،
كتاب الأمثال (تحقيق أحمد الضبيب).

(٢) الميدانى،
مجمع الأمثال.

(٣) الطالقانى،
رسالة الأمثال البغدادية.

(٤) **أمثال العوام في الأندلس** (تحقيق محمد بن شرفة).

(٥) زنهايم، رودلف،
الأمثال العربية القديمة (ترجمة رمضان عبدالتواب).

(٦) عبدالقادر، حامد،
دراسات في علم النفس الأدبي.

(٧) فريد، عزيز،
علم النفس للمجتمع.

(٨) فراج، محمد فرغلى،
مرضى النفس في تطرفهم واعتدالهم.
(٩) جيلفورد،
ميادين علم النفس (ترجمة يوسف مراد).

دراسةٌ مقارنةٌ لأختام الخليج العربي :
الصلات الحضارية مع واديي السند والرافدين

هشام الصفدي

منذ العقد الخامس من قرننا يكشف البحث الأثري ـ التاريخي معالم حضارات وفصولا هامة من تاريخ الخليج العربي كانت لأمد قريب مجهولة. وبفضل التوافق الذي تحقق بين المَرْويات الكتابية والـمُعطيات الأثرية أمكن تعديد هوية وأفق حضارة كان السومريون ـ الأكاديون يطلقون عليها اسم دلمون (Dilmun)[1].

تتميز اللقى الأثـرية في جزر فَيْلَكـا والبحرين والشاطىء المقابل من شبه الجزيرة العربية بوفرة في عناصر الهندسة المعمارية، وبمواد الاستعمالات اليومية، وبأعمال الفن من رسم ونقش وتشخيص. . . وبالمقابل تندر الوثائق الكتابية، التي ظهر قليل منها مدوناً بكتابة مسمارية. وفي صمت الكتابة حالياً، تكتسب أعمال النقش على الأحجار (Glyptography) وفي مقدمتها مجموعة كبيرة من الأختام المسطحة (Stamp - seals) المستديرة الشكل ـ أهمية تاريخية كبيرة، على الأقل لدى كل أولئك الذين لا يتألف التاريخ بالنسبة لهم **من الكلمة المكتوبة فحسب**[2] إذ أن الأختام تشكل أعرق المساهمات أصالة في فنون الشرق القديم، وتعرض جوانب وفيرة من حضارة أصحابها خلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة[3].

تطرح أختام الخليج العربي[4] مجموعة هامة من المشاكل على بساط البحث الأثري التاريخي. وفي نطاق دراسة هادفة تفرض الأعمال التالية نفسها على الباحث:

١ ـ تحديد هوية أختام الخليج وأفق انتشارها.
٢ ـ تصنيف مجموعاتها وفق الأسلوب والموضوع من خلال دراسة للمقومات الفنية والحضارية.
٣ ـ التأثيرات المتبادلة مع مراكز صناعة الأختام المجاورة.
٤ ـ الربط الكرونولوجي*[أ] ومحاولة تحديد زمني للمجموعات.
٥ ـ التقويم الحضاري ـ التاريخي كمساهمة في إيضاح الصورة التاريخية والدور الحضاري لمنطقة الجزيرة والخليج.

وكما نلاحظ، تكاد كل فقرة منها تشكل موضوع بحث قائمًا بذاته. لذلك سأقتصر حالياً على عرض جزء مما توصلت إليه تاركاً بقية النتائج لفرصة مقبلة.

لم ينتظر طرح المشكلة الأولى بدء التنقيب الأثري في جزر الخليج، بل سبقه بعقدين تقريباً. فمنذ أن ظهرت في مدينة أور مجموعة من أختام مسطحة مستديرة ـ تختلف في شكلها وتنحرف في مواضيع صورها عما يناظرها في الأختام الاسطوانية ـ أطلق عليها العالم جاد (C. J. Gadd) اسم «أختام من أسلوب هندي قديم في أور»[5] وتلاه

---

* **المحـــرر:**
(أ) المقصود بهذه اللفظة ربط المجموعات ربطاً تاريخياً متسلسلاً يظهر فيه السبق والتعاصر ما أمكن.

لوجران (L. Legrain) في النشر النهائي بتسميتها «أختام هندية . وبعد اكتشاف نماذجها في تنقيبات فيلكا والبحرين أطلق عليها اسم «أختام الخليج الفارسي[٦]» أو «أختام الخليج العربي»، ويميل الرأي بتزايد الى تسميتها بأختام دلمون[٧] .

الشكل والمادة وأفق الانتشار

تتألف أختام الخليج من أجسام مستديرة تتراوح أقطارها بين ٢ ـ ٦ سم وارتفاعها ٥ر٠ ـ ٥ر١ سم وتأخذ شكل زر محدب الظهر ومسطح الوجه (Button Seal)، يعلق بوساطة خيط يمر في ثقب أفقي، ومنه تتفرع عدة نماذج . يعود الشكل المستدير في أختام الخليج الى تقاليد قديمة لربما تجد أصولها في البدايات الأولى للختم المسطح الذي اشتق من التميمة، والذى عرف في بلاد الرافدين منذ ثقافة تل حلف بشكليه المستدير والمربع[٨]، وتنضاف المواضيع المنقوشة الى شكل الختم الخليجي لتؤكد أنه استخدم في الوظيفتين الأساسيتين للختم الباكر وهما: التميمة، والحرز، وعلامة للملكية[٩]. وبالمقابل عزف الخليجيون عن شكل الختم الأسطواني الذي عم بلاد الرافدين منذ نشوء دويلات المدن، وبدء الكتابة المسمارية ـ واحتفظوا بالنموذج المسطح المنحسر، ولأسباب عملية مارسوا بواسطته وظيفة انفرد بها الختم الاسطواني منذ بدء الألف الثاني ق. م، وهي دمغ الوثائق المسجلة على رُقُم طينية، حسبما يشيرالى ذلك رقم من عهد سلالة لارسا[١٠] .

تلتقي منطقة الخليج في استخدام الختم المسطح مع مناطق إيران وعيلام والسند والأناضول حيث ظل الختم المسطح قيد الاستعمال الى جانب الاسطواني، إلا أنها تشكل القاسم المشترك مع حضارة هارابا (Harappa) في الاقتصار على الختم المسطح، مع فارق أساسي هو تفضيل الأخيرة للشكل المربع والمستطيل على الشكل المستدير[١١]. هذا الفارق لربما يعبر عن نفسه في ميادين أخرى كالعمارة (المدافن المستديرة، والمعابد البيضوية) في الخليج، والبيوت المربعة والمستطيلة والزوايا القائمة في مباني ومخططات (موهنجودارو ـ هارابا)[١٢] .

تظهر دراسة شكل أختام الخليج وجود فئات منه نوجز فيما يلي خصائصها :

الفئة الأولى :

يتألف ظهر الختم من حدبة صغيرة في الوسط، تبعد عن الحافة المستديرة، ثقبت أفقياً من كلا الجانبين، ويتقاطع مسار الثقب مع حز سطحي نفذ على قمة الحدبة (عثر على نماذجها في البحرين، وأور، وموهنجودارو). وتشكل الحدبة مقبضاً لمسك الختم وتعليقه .

الفئة الثانية :

تشكل الحدبة هنا قبة ملساء تملأ كافة ظهر الختم، ثقبت من كلا الجانبين أفقياً، أما الحافة الجانبية فقد حز فيها أخدود لتثبيت إطار من المعدن (الذهب) يحيط بالختم . توجد نظائر هذه الفئة في مجموعة من الأختام الباكرة، الكبيرة الحجم، ينسبها فون در أوستن (Von der Osten) إلى الحقبة السومرية العتيقة[١٣]. غير أن مادة الحجر

وأسلوب النقش وموضوعاته تختلف كلية. وهنالك مثال نادر من عصر سلالة أور الثالثة نقش فيه موضوع قيادة التعبد المألوفة لا على ختم اسطواني، بل على نموذج مسطح من مادة الهماتيت مماثل لأختام الفئة الثانية. ويخلو سطح ظهر الختم المقبب من زخارف أحياناً بشكل خطوط منكسرة[١٤].

الفئة الثالثة:

تضم هذه الفئة الغالبية العظمى من أختام الخليج. فالقبة الملساء تتراجع عدة ملليميترات عن حافة الختم، وتزخرف بأربع دوائر في وسط كل منها نقطة، رتبت في زوايا مربع وهمي ويفصلها خط أو خطان وغالباً ثلاثة خطوط مستقيمة متوازية، حزت على الحجر، وتتقاطع مع ثقب التعليق الأفقي. كذلك يوجد على حافة الختم الجانبية أخدود ضحل أو عميق لتثبيت إطار ذهبي[١٥]، وفي الحقيقة يتحول الختم الى شكل يشبه ترساً مستديراً محدب الـوجـه، ولـربـما تشـير الـدوائـر الأربعـة إلى مواضع مسامير تثبيت السيور الداخلية التي تشد الترس إلى ذراع المحارب[١٦]، مثل هذا الترس يرى في يد المحارب على ختم خليجي فريد. وإذا صح التفسير تكون وظيفة الحماية (الحِرز) قد تأمنت بشكل مزدوج في الختم: مرة في شكله، وأخرى في مضمونه. على كل حال لا أستبعد أن تكون الدوائر والخطوط الثلاثة جزءاً من كتابة تصويرية(pictographs)[١٧].

الفئة الرابعة:

يتخذ الختم شكل قرص مسطح من الجانبين (٣ر٦ × ٣ر٠سم) نقشت الرسوم على وجهه وظهره، أو على وجهه فقط. وتحاط حافة القرص بإطار ذهبي. أما الرسـوم فقد حفـرت بآلة حادة غارت في حجـر الاستياتيـت (steatite) الرخو، ونتج عند طبع الختم صور بارزة حادة الأطراف.

الفئة الخامسة:

هي أقـل الفئات عدداً، يفضل فيها الشكل المربع لا المستدير. أختامها تماثل في الشكل والمادة الغالبية العظمى من أختام وادي السند المربعة. ويتميز ظهر الختم المربع هنا بتنفيذ الدوائر والخطوط المستقيمة، وثقب التعليق. وهنالك نموذجان منها عثر على الأول في مدينة أور، ويُري موضوعه واسلوب نقشه أنه يشكل مرحلة أولى للختم الخليجي (المربع). والأخير عثر عليه في فيلكا وفيه خصائص أسلوب الفئة الرابعة[١٨].

الفئة السادسة:

تتضمن أختاماً أسطوانية قليلة جداً من نوعين:

١ ـ أختام صنعت محلياً ونفذت فيها مواضيع خليجية وبأسلوب الأختام المسطحة[١٩]. أهمها ختم عثر عليه في مقبرة من عهد لارسا، في مدينة أور تتجسد فيه خصائص الجلبتيك*[ب] الخليجي، ويقدم ركيزة هامة للتاريخ[٢٠].

---

* المحـــرر:

(ب) كذا بالأصل، والمقصود بذلك النقش على الأحجار كما يرى فيما أورده المؤلف في أول البحث.

ب ـ أختام اسطوانية رافدية أو مقلدة لها شكلاً وموضوعاً عددها القليل حتى الآن ومواضيعها المحصورة بالمرحلة الممتـدة بين سلالتي أور الثـالثـة وبابل تتناقض مع الصلات الوثيقة والكثيفة التي مارستها المدن الأكادية السومرية مع بلاد دلمون وماجان ومللوخا[٢١].

يتجاوز عدد المكتشف من أختام الخليج ٤٠٠ ختم، صنع معظمها من حجر الستياتيت (حجر الصابون) الرخو بألوانه المتنوعة كما استخدم حجر العقيق وأحجار عادية أيضاً. وهناك فئة عثر عليها في سوزة، صنعت من البيتوم (القار)، تقلد أختام الخليج، وتتابع تقاليد صنع الأختام الأسطوانية العيلامية من هذه المادة[٢٢]. أما حجر الهـماتيت (Hematite) الـذي يبـدأ بالسيطرة على صنـاعـة الأختام منذ العهد البابلي، فلا دور له في الخليج. والستياتيت كان الحجر المفضل لأختام موهنجودارو ـ التي تزيد على ١٢٠٠ ختم. والمهم أن أختام فيلكا والبحرين لم تصنع من مقالع محلية، بل من حجارة استوردت حسبما تشير نصوص سلالة أور الثالثة ضمن سلع أخرى كثيرة ـ من مللوخا[٢٣]. والمرجح أن استيراد الستياتيت كان من ماجان مباشرة، أو عن طريق مللوخا. غير أن النصوص السومرية لا تشير في قوائم المستوردات المفصلة الى استيراد أختام مصنوعة في ماجان ومللوخا.

لدى استعراض الخصائص المتقدمة في فئات الأختام الخليجية (الفئات من الأولى الى الخامسة) يتبين أنها خصائص لا تتوافر في أعمال الجلبتيك السومرية ـ الأكادية، بل تجد نظائرها في مركز حضاري آخر هو وادي السند. فالهنـد القديمة تنتمي الى عالم الختم المسطح الذى يمتد من شمال الرافدين شرقاً ويشمل سوريا وكريت ومصر والأناضول. وحينما يبدأ الختم الاسطواني يطرد الختم المسطح منذ بداية الألف الثالث ق. م. في سومر، تبقى مناطق الهضبة الإيرانية والهند والخليج بمعزل عن هذا التأثير. وفهم الخصائص الذاتية لإنتاج منطقة الخليج لا يكتمل إلا بتحديد مماثل لمميزات نظيره الرئيسي في وادي السند، والمقارنة بينهما.

أختام السند (Indus stamp-seals):

تشكل الأختام المربعة الغالبية في حضارة هارابا، وتتراوح أبعادها بين ٥ر٨ سم الى ٤ر١ طولاً و ٦ر٠ سم إلى ٣ر١ سم ارتفـاعـاً، صنعت من حجر الستياتيت الملون أو الأبيض، وحجارة أخرى، بواسطة المنشار والسكين والمِصقل، ثم نقشت الصور بإزميل صغير ومثقب وغطي سطح الختم بطلية من القلي، ساحت عند تعريضه للحرارة وشكلت طبقة بيضاء لامعة على سطحه. وتصنف أختام السند في فئات أساسية منها:

الفئة الأولى:

أختام مربعة الشكل، لها حدبة في الظهر، ثقبت أفقياً، لتعليق الختم بخيط وقد نقشت الصورة بشكل غائر على وجه الختم، وفوقها كتابة تصويرية قصيرة[٢٤].

الفئة الثانية:

لويحات مربعة مسطحة من حجر الستياتيت أو الفايانس أو الطين، بعضها مدور الزوايا، نقشت الصور على الوجه، أو على الوجه والظهر معاً. وأحيط الختم بفضل فرضة أعدت على حافته الخارجية بإطار معدني، ربما من

الذهب، ليعلق بسلسلة في العنق أو ربما في الرسغ. وتلاحظ أحياناً فراغات صغيرة على جسم الأشكال المصورة أعدت لتنزيل حجارة أو مادة ملونة فيها.

الفئة الثالثة:

لويحات نحاسية متطاولة، نقشت عليها صور وكتابة قصيرة على الوجه والظهر.

الفئة الرابعة:

زمرة قليلة جداً من أختام مسطحة مستديرة، لها مقبض مثقوب أفقياً لإدخال خيط التعليق. وقد نقشت الصورة على وجه الختم وفوق موضوع الصورة. ووضعت علامات كتابة تصويرية. ويطابق شكل الختم هنا نظيره في الخليج. وهنالك فرع من أختام مستديرة لا مقبض لها.

الفئة الخامسة:

تشكل عدداً صغيراً جداً من الأختام الاسطوانية، تماثل في شكلها أختام الرافدين وتختلف عنها ـ شأن الفئات السابقة ـ بموضوع الصور المنقوشة (الثور ذو السنام) (*bos indicus*)، الفيل ووحيد القرن (unicorn) . . . الخ، وبأسلوب التنفيذ[٢٥].

يتضح مما تقدم أن أختام المنطقتين تشترك من حيث الشكل والمادة في المظاهر العامة التالية:

ا ـ تفضيل حجر الستياتيت الرخو الملون أو العادي لنقش أختام مسطحة.

ب ـ صنع أختام مسطحة لها مقبض للمسك والتعليق (مستديرة في الخليج ومربعة في السند).

جـ ـ صنع أختام مسطحة بدون مقابض صورت على وجه أو وجهين أيضاً، تحاط بإطار معدني (من الذهب) وتعلق في الرقبة أو الرسغ.

د ـ إهمال الختم الاسطواني.

توحي المظاهر المشتركة بوجود تأثير حضاري في منطقة السند مع نشوء حضارة هارابا، وانتقل باتجاه الغرب ليشمل في أواخر الألف الثالث منطقة الخليج العربي، إلا أن استكمال الدراسة المقارنة للجانب الأساسي من بحثنا، وهو مواضيع الصور المنقوشة على أختام الخليج وهوية عناصرها التصويرية والإيقونوجرافية*[جـ]، فن تنفيذها، سيغير هذا الانطباع.

*** المحــرر:**

(جـ) هي iconography بالانجليزية، والمقصود منها في العموم رسم الصور لتوضيح موضوع ما.

موضوعات الأختام

(١) تصنف أختـام الخليج ضمن أختـام مناطق الأطراف (peripheral) المجاورة لبلاد الرافدين : المركز الرئيسي لفن الجلبتيك في الشرق القديم . هذا التصنيف لم تفرضه الاعتبارات الجغرافية فحسب ، بل والاعتبارات الموضوعية ـ الفنية أيضاً . فالدارس يستشف الآتي :

أولاً : رغبة أساسية لدى صانعيها في نقش أختام يختلف أحدها عن الآخر ، فلا يكاد اثنان منها يتطابقان في تفاصيل موضوع .

ثانياً : تحقق هذا الهدف على حساب موضوع المشهد المرسوم ، وبالتالي اقتصرت المواضيع على قائمة معدودة ، ونفذت بشكل مختزل : مشهد إنسان وحيوانات أليفة أو ضارة ـ مشهد شراب ـ مشهد جماع ـ عبادة رموز مقدسة ـ عبادة في مركب ـ رؤوس حيوانات أو أجسامها ضمن دوامة ـ زخارف هندسية بحتة ـ عناصر تصويرية لا يربطها موضـوع معـين . . . الخ وتلبي هذه القائمة رغبات مقتني الأختام ، كما تعكس صورة العالم الفكري والمادي في عصرهم . والـواضـح أن الموضوعات المرسومة استمد الكثير منها ـ كلياً أو غالباً جزئياً ـ من أخرى مماثلة عرفت بشخصية مستقلة في فنون الحضارات المجاورة (الرافدية ـ الإيرانية ـ السندية . . .) إلا أنَّ تنفيذها تم في الخليج بشكل مختلف يكشف شخصية ناقشيها وذوقهم الفني .

ثالثـاً : وهكـذا تبتعد المواضيع عن المشاهد الوفيرة المألوفة في أختام عصر السلالات المبكرة ، والأكادية ، والسومرية الحديثة مثل : صراع الحيوانات أو الحيوانات الأسطورية المعبودة ، ـ الزواج المقدس ـ سكب الماء المقدس أمام معبود القصص الأسطورية كصعود إينانا ـ قيادة عابد الى معبود أو ملك معبود ـ الانتصار على عدو مهزوم . ولكن فناني الخليج لا يتأخرون عن استعارة كثير من عناصر صورها مثل انكيدو ـ الرجل صديق الحيوانات الأليفة ـ الشعـارات المقـدسة ـ البطل العاري ـ الشرب من آنية بوساطة قصبة ـ عبادة ثور أو تقديم غزال ، غير أن نقل العناصر الايقونوجرافية النموذجية المرافقة عادة لهذه الصور يقدم تقليداً غاب محتواه الأصلي على الفنان . مثلا انكيدو مرسوماً نصفه الأسفل بشكل بشرى أيضاً ، ولكن قد يصادف ذلك ذيل الثور .

رابعـاً : تلتقي الأختام الخليجية المسطحة مع نظائرها في حضارة هارابا في تفصيل موضوعات الحيوانات الأليفـة : الثـور والـوعـل والحيوانات الضارة كالافعى والعقرب وفي تشكيل دوامة من الحيوانات ولكنها تتجنب موضـوعـات حيوانات السند المتوحشة كالنمر والفيل ووحيد القرن والتمساح . . . الخ ويلوح على ضوء معجم الحيوانات المتوفر من الخليج وكأن هذه المنطقة تخلو من سباع الجو والبر والبحر وبالتالي موضوعات قهرها وحماية الحيوانات الأليفة منها التي كونت فصولا في الجلبتيك الرافدي .

(٢) فرضت رقعة الختم المستدير المسطحة قانوناً فنياً لتركيب عناصر المشهد ، تختلف كلية عن المبادىء السائدة في الختم الأسطواني . وبسبب رقعة الأول والحاجة الى صنع أختام متنوعة المحتوى ، امتلأ السطح الدائري الحدود

بعنـاصر الصـور. وعـلى ما يبـدو لم تقتصر منـابـع الهامه على الأختام، بل شملت ميادين هامة أخرى كرسوم الفخاريات، والنقوش الناتئة، والأثاث والمنسوجات وغيرها من أعمال فن تعرضت للفناء.

وعلى العموم يسود في توزيع مشهد الختم الخليجي مبدأ «التناظر والتوازن» مع الحرص على ملء كل فراغ متوافر بعناصر الحشو(٢٦). والتناظر والتوازن مبدآن امتازت بهما الأختام الأكادية ثم السندية الى حد كبير، وكل وفق منظوره الفني الخاص. ولا تتبع أختام الخليج مبدأ الإيزوكفالي (Isokephali) المعهود في الأختام الاسطوانية، لأن الإطار الدائري لحقل المشهد لا يسمح بذلك. ومع هذا نجح التعامل مع السطح المستدير سواء بتقسيمه الى حقول ثنائية وثلاثية أو رباعية، أو في انطلاق التوزيع من وضع المشهد الرئيسي في مركز الدائرة، دون حدود واضحة بين الرئيسي والثانوي. وهذا ما يولد إحساساً بالتوازن مع الجمود. وفي مجموعة قليلة تم بنجاح تركيب عناصر المشهد بشكـل حر، تنـاثـرت فيه الصور في السطح الدائري الحدود، فأعطت انطباعاً بالحركة كسرت الرتابة والجمود المسيطرين على المواضيع. وباستثناء مشاهد قليلة لشخصين متناظرين (ملاكين ؟) يمسكان بقرص الهلال وكأنهما يسبحان في الفضاء (نجد نموذجهما الصحيح الهابط من السماء في مسلة أورنامو) ـ يكاد التعبير عن الحركة ـ المتميز في فن العصر المينوي الأوسط ـ يختفي في مشاهد الأختام الخليجية، فالظباء لا تغدو أو تسبح في الهواء بل تكتفي بلفت الرأس الى الوراء، محاولة من الفنان لحبك المشهد ولملء الفراغ المتبقي.

ويلاحظ في قانون المشهد المتبع، وكأن هنالك تطوراً من البسيط (حيث يسود سطح الختم شكل واحد) الى المعقد، الذى تحشر فيه أشكال وفيرة. هذا التطور تم على ما يبدو بتأثير أختام السند. ففي الأخيرة تتألف صورة الختم من مشهد رئيسي نفذ بحجم كبير وبإتقان بالغ، واحتل مركز الصدارة، . . . ويتألف عادة من حيوان غالباً، أو إنسان أحياناً، وفوق المشهد الرئيسي وحوله رسم سطر أو أكثر من علامات الكتابة التصويرية (غالباً لتحديد هوية صاحب الختم)، وأضيف اليهـا أحياناً صور صغيرة تشكل مشهداً ثانوياً، تتمم موضوع الصورة، وتملأ الفراغ المتبقي (٢٧). وهكذا تكاد العناصر الكتابية تتداخل مع عناصر الصورة، لتقدم جميعها قصة محددة في فن هارابا. بينما عزلت الكتابة عن الصورة في الأختام الرافدية باطار جانبي أو متوسط.

أما أختام الخليج، فلم تفرد غالبيتها مكاناً خاصا للكتابتين التصويرية السندية والمسمارية الرافدية. وحينما تستعير عناصر من الكتابة التصويرية السندية، تستخدمها عناصر تصويرية متفرقة لملء الفراغ. وفي حالات قليلة استخدمت عناصر الكتابة السندية في نماذج مبكرة مستقلة في الجزء العلوى من سطح الختم وفي نماذج تالية ضمن إطار مستطيل (يشبه الخرطوش المصري) بأسلوب لا يتوفر في الأصول السندية، مما يدفع الى الظن بأن ناقش الختم بعيد عن مدلولاتها الكتابية. وبالمقابل نجد سطور الكتابة المسمارية قد نقشت بشكل إيجابي، لا سلبي، على ختم من (المجموعة الثالثة) مما يجعل قراءة الكتابة على طبعة الختم متعذرة(٢٨).

الأسلوب والعناصر الايقونوجرافية

كما كان لكل مرحلة تاريخية موضوعاتها المفضلة في فن الجلبتيك، وأعمال الفن الأخرى، فإن أسلوب رسم العناصر التصويرية أو نقشها يختلف أيضا مع اختلاف الزمن ويتأثر به. وهكذا تكاد خصائص المواضيع، وأسلوب تنفيذها تصبح معروفة في مناطق تتوفر فيها تقاليد فنية مستمرة. أما في المناطق المتاخمة لمركز الفن الرافدي، فإن صناعة الاختام تحافظ حسب تعبير فرانكفورت على طابع محفوف بالمعضلات. ففي غياب التقاليد نصادف تركيبات مؤتلفة من الأشكال، أو من عناصر الصور، تختلف الى حد بعيد في أصلها أو في زمنها. فالانتقائية تحل محل التميز، كذلك تحل الرغبة في تفادي الصعوبات التقنية محل الحس بالاسلوب(٢٩).

هذا الواقع يجابه الباحث في أختام مناطق الأطراف كسورية والخليج حيث تتوافر خصائص فنية عديدة ومشتركة بينهما، وكما رأينا مقدماً وخلال عرض عناصر موضوعات الأختام الخليجية، هنالك انحراف واضح عن المواضيع الرافدية أو السندية المماثلة، وانتقاء لعناصر خارجية شكلية وداخلية تصويرية إيقونوجرافية من هنا وهناك، ينتج عنها تركيبات جديدة، لا نعرف حالياً الى أى مدى ستنجح في تكوين شخصية فنية ذات طابع مستقل في منطقة الخليج. فضلاً عن ذلك، يصعب حالياً تحديد أطر المدرسة الفنية الخليجية، وذلك لغياب أعمال الفن الأخرى، وقلة الوثائق الكتابية التي لا يستغنى عنها في إيضاح معالم الحياة الدينية والأدبية.. الخ.

هذه العوامل مجتمعة دفعتني الى التركيز على دراسة أسلوب التنفيذ في أختام الخليج، فعلى ضوء أبحاث سابقة درست خلالها الأختام السورية (المتاخمة) والمعاصرة لأختام بحثنا توصلت ـ خلافاً لفرانكفورت ـ إلى أن القرائن التي يقدمها أسلوب صنع الأختام ونقشها ومادتها اليد العليا على القرائن الأخرى: كالموضوع والعناصر الايقونوجرافية(٣٠).

وبفضل دراسة صورة لأختام الخليج توصلت إلى اختراق جدار الصمت المخيم حولها، فصنفتها إلى مجموعات يتفرع عنها زمر، أتمنى استكمال دراسة خصائصها في متاحف دولتي الكويت والبحرين. إنها خطوة أساسية لتحديد مراحل التطور الفني والربط الكرونولوجي(٣١).

كما أشرت في مقدمة البحث، لن أتوسع في موضوع الأسلوب والمجموعات، بل ساكتفي حالياً بتقديم إحدى ثماره المباشرة، والتي ستساهم إلى حد كبير في حل معضلة التحديد الزمني لأختام الخليج.

الربط الكرونولوجي ومحاولة تحديد زمني للمجموعات

منذ ظهور الأختام الأولى في جزر فيلكا والبحرين، اتضحت أهمية دورها في الربط الكرونولوجي. فالتشابه بينها وبين أختام موهنجودارو ـ هارابا، يشكل جسراً لعملية الربط بين واديي السند والرافدين. وكان السير مورتيمر ويلر (M. Wheeler) **قد استفاد مسبقاً** من وجود مواد أثرية وسلع من السند متواضعة في طبقات أثرية في مدن أور

وإشنونا وغيرهما ليضع أول تحديد زمني تقريبي لامتداد حضارة هارابا وذلك بين ٢٥٠٠ ـ ١٥٠٠ ق.م[٣٢]. واعتمد بعض الأثريين، ومن بينهم المنقبون الدانمركيون، هذا الإطار الزمني للقيام بتحديد زمني مقارن للمواد الأثرية المتشابهة مع نظائرها في وادى السند. وقد قلل من قيمة تحديد زمني دقيق، التقديرات المتضاربة التي أعطتها طريقة الكربون ١٤ (C 14) لمواقع في باكستان وايران.

وزاد الموضوع صعوبة، أن الأختام ـ على نقيض الأواني الفخارية ـ يمكن أن تبقى قيد الاستعمال مدة طويلة، أو يعاد استعمالها حتى تصل أخيراً الى سلة مهملات التاريخ: أي تظهر في طبقة أثرية ما. علاوة على ذلك لم تحظ اختام موهنجودارو بعد بتصنيف منهجي، يسهل مهمة دارسة أختام الخليج. وهكذا أصبح العثور على أختام خليجية مؤرخة يشكل نقاط استناد مهمة سواء للتصنيف او للتحديد. ويكون هذا العثور بواحد من أثنين:
(أ) ـ بشكل مباشر: أي بذكر اسم مالكها، ومرتبته كتابة.
(ب) ـ أو بشكل غير مباشر: عندما يقترن الختم أو طبعته بوثيقة، أو بوسط أثري مؤرخ.

١ ـ من أوائل الوثائق المؤرخة بشكل غير مباشر، ختم اسطواني نفذ نقشه وفق أسلوب المجموعة الثانية حسب تصنيفنا ـ عثر عليه ليونارد وولي (L.Woolley) في مقبرة في مدينة أور، وكان الختم عالقاً في جدار يفصل بين حجرتين في مدفن بورسين الملك السادس في سلالة إيسين (١٨٣٦ ـ ١٨١٦ق.م.)، ومزوداً أصلاً بإطار من الذهب يعلق بواسطته. ويشير أسلوب رسم ثور ذي سنام الى تشابه كبير مع أسلوب رسوم فخاريات كولي في إيران[٣٣]. ومع احتمال أن يكون الختم عائداً الى مرحلة أبكر من الربع الأخير من القرن التاسع عشر، يبقى عهد بورسين حداً أدنى لتأريخه[٣٤].

٢ ـ هنالك طبعة ختم مستدير مسطح، من نماذج أختام الخليج دمغت على رقيم فخاري يعود الى السنة العاشرة من حكم الملك جونوجوم، أحد ملوك سلالة لارسا أي الى حوالي ١٨٥٧ق.م. وقد نشره بوخنان من ضمن مجموعة رقم جامعة ييل(Yale Babylonian Collection).[٣٥] وعثر على نظيره في حفريات البحرين،[٣٦] ويشكل أول قرينة مؤرخة بدقة.

٣ ـ الى هذه الندرة من الوثائق المؤرخة، أود ان أضيف عدة قرائن أثرية هامة ـ عثرت عليها لا في جنوب الرافدين، بل في شماله، وبالتحديد على الفرات الأوسط في مدينة مارى. سأعرضها وفق تسلسلها الزمني، ثم أتطرق الى تقويمها الفني والتاريخي.

أ ـ أبكر هذه القرائن نصب حجرى يعرف باسم «نصب ماردين» يسجل بالصورة وبالكتابة موضوع انتصار الملك الآشورى شمشي ـ حدد الأول (؟) على عدو خرَّ تحت ضربات رمح المنتصر وفأسه. ورغم أن النصب تعرض للتشويه، فضاع موضع رأس الملك، إلا أن الناظر ما يزال يرى قرصاً مستديراً له دائرة وسطى على صدر الملك، وتحت عنقه مباشرة، وغالباً ما كان هذا القرص معلقاً على الرقبة بسلسلة يشير اليها حبل طويل. وقد أرخى الحبل على ظهر الملك ليخفف ثقل القلادة. مثل هذا الأسلوب ترى تفاصيله في تمثال «ربة الينبوع من مارى»[٣٧].

ب ـ في قصر مدينة مارى الملكي (الباحة ١٠٦) توجد بقايا مجموعة من الرسوم الجدارية تصور مشهد موكب ديني يسير فيه رجال وثور، وقد زينت جبهة الثور بهلال كبير من ذهب، وغطي قرناه بغلافات من نفس المعدن. أما الكاهن الذى يقود الثور فقد حلي جيده بطوق يتدلى منه قرص ويحيط بالقرص إطار رفيع ـ لونه بلون الهلال والغلافين ـ ويترك سطحه مكشوفاً. وأمام الكاهن رجل يمسك عصا في يده (على طريقة أورنامو في نصبه)، ويحلى عنقه بسلسلة مزدوجة، يتدلى منها قرص أبيض اللون، في وسطه دائرة، والغالب أن القرص ملبس أيضا بالذهب. وأرجح أن الرجل هو يسمح ـ حدد، الذى عينه والده الملك شمشي ـ حدد حاكمًا على مدينة ماري بعد احتلالها[٣٨]. أما قائد الموكب فتنطبق على ثيابه أوصاف ثياب الملك شمشي ـ حدد في نصب ماردين. وأرجح ـ خلافا لمورتغات (A. Moortgat) ـ أنه الملك الكبير[٣٩].

جـ ـ تتكرر صورة السلسلة على عنق كاهن آخر يقود ثوراً له نفس الصفات (اللوحة ب). والمحتمل ان القرص قد دفع وراء ظهره.

د ـ ومن القاعة ٢٢٠ في قصر مارى هنالك لوحة تعرض بقايا صورة رجل ملتح يضع قلادة حول عنقه تتألف من لآلىء ثقيلة، يتوسطها على صدره قرص مذهب. ويتدلى من مؤخرة العنق حبل نحو الأسفل لتخفيف ثقل القلادة عن الرقبة، وتنتهي ذؤابته بزهرة لوتس[٤٠].

هـ ـ في لوحة تنصيب الملك زمري ـ ليم (على جدار الساحة ١٠٦)، بمناسبة انتصاره على عدوه يسمح ـ جدد، يرى المنتصر يتلقى التأييد من عشتار، ويحلي رسغ يده اليمنى بسوار ذهبي. وبالنظر لوجود حبل تخفيف الوزن متدلياً خلف ظهره، نرجح أنه يضع قلادة حول عنقه[٤١].

و ـ وهناك عدد وفير من الصور البارزة الطينية ـ عثر عليها في قصر ماري ـ تسجل صورة رجل يحمل فأساً بيد، وبالأخرى شعار طائر. هذا الرجل الغامض، يضع حول عنقه سلسلة يتدلى من وسطها فوق صدره العارى قرص مستدير مماثل للقرص الأول في (الوثيقة ب)[٤٢].

ز ـ لوحة طينية بارزة من قصر ماري تصور موسيقياً عارياً يضرب على البزق، ويضع قلادة وقرصاً في عنقه، وسواراً في معصمه.[٤٣]

حـ ـ علاوة على الوثائق المقدمة من آشور وماري هنالك من بابل نصب (شريعة حمورابي) وعلى نصب آخر (في المتحف البريطاني)، يرى العاهل البابلي يرتدي قلادة في عنقه تتألف من لآلىء كبيرة الحجم، ويضع سوارا في رسغه. ويماثله المعبود شمش في حمل عقد مزدوج وسوار. وللأسف تحجب اللحية صورة القرص الذى نرجح أنه يتوسط العقد.[٤٤]

ط ـ هذا الظن تؤيده لوحة طينية من بابل تصور ضارب قيثارة يرتدي سلسلة في وسطها قرص محاط بإطار ذهبي، يترك دائرة في الوسط. ويتدلى حبل تخفيف الوزن خلف ظهره[٤٥].

التقويم الفني التاريخي

تمتد الوثائق المؤرخة (أ ـ ط) عبر قرن من الزمن بين شمشي ـ حدد الى أواخر عهد حمورابي (١٧٤٩ ـ ١٦٨٦). ويلاحظ فيها وجود ظاهرة جديدة في اللباس والحلي لم نعرفها لدى ملوك ماري السابقين ثوراداغان ـ بوزورعشتار ـ إيدي إيلوم، ولا عند ملوك سلالة أور الثالثة[٤٦]. وتتلخص في أن بعض آلهتهم وملوكاً وكهاناً وموسيقيين وربما كتاباً أيضا (وهم علية المجتمع الرافدي) يرتدون أطواقاً تحمل أقراصاً على نوعين:
أولاً: قرص يماثل شكله أختام الخليج (الفئة الرابعة): أى هو قرص مسطح من الجانبين نقشت مواضيع صور على ظهره ووجهه، وأحيط باطار ذهبي قصير الحافة، يترك سطح الختم مكشوفاً من الجانبين.
ثانياً: قرص مسطح من نفس الفئة نقشت مواضيع صور على وجهه فقط، وغطيت حافته وظهره (؟) بالتوريق بالذهب، يعلق بها في سلسلة حول العنق. وللأسف وجدت معظم اختام الخليج، وقد عرِّيت من إطاراتها الثمينة.

اذا صحت الدلائل المستمدة من الوثائق (أ ـ ط) بأنها تعرض أختاماً مسطحة مستديرة، تتضمن خصائص خارجية عديدة، تماثل تلك المحددة في أختام دلمون يكون البحث الأثري ـ التاريخي قد كسب دفعة هامة الى الأمام. وفي الحقيقة قد تكون هذه الاستنتاجات ضعيفة لولا وجود مجموعة كبيرة من القرائن المادية والفكرية تؤيدها:

(١) لدينا وثائق أثرية وفيرة تؤكد أن الصلات التجارية بين مللوخا ودلمون وبابل وآشور وسورية عبر الفرات تعود إلى الألف الثالث ق.م. وهنالك من الفترة المعاصرة للشواهد (أ ـ ط) وثيقتان اكتشفتا في مدينة ماري نفسها. الأولى رسالة من شمشي ـ حدد الى ابنه ـ حول احتجاز رسول قادم من دلمون في ماري[٤٧]. والثانية رسالة من يسمح ـ حدد ملك ماري الى حمورابي حول تأخر قافلة من دلمون، وتدل على سهر آشور وماري وبابل على تسيير قوافل دلمون نحو الشمال، وغالباً نحو هدفها البعيد في محطة التجارة الآشورية الكبرى (كاروم كانش) في الأناضول. وهنالك خط آخر غربي للتجارة يسير عبر حلب وألالاخ باتجاه الساحل (أوغاريت) وجزر **ألاشيا** (قبرص) **وكفتور** (كريت)[٤٨].

(٢) يدل إفراط النسوة ثم الرجال في بابل وآشور وكنعان في لبس الحلي النفيسة من اللآلىء والذهب والأختام المذهبة على مستوى الازدهار المادى والحضاري الذى حققته التجارة الدولية في النصف الأول من الألف الثاني ق.م. لقد عثر في مدينة لوتال وحدها على أكثر من نصف مليون لؤلؤة وحجر ثمين. وغالباً ما كانت الحجارة الملونة الثمينة ونصف الثمينة تصدر من مللوخا الى منطقة الخليج حيث تنضد في عقود يتوسطها ختم (للتبرك) من دلمون[٤٩]. فالنصوص السومرية خلعت على أرض دلمون من صفات القدس والطهر ما لا يتوافر في غيرها. ويشير تحليل سبكتوجرافي لمجموعة من لآلىء الزينة الى أن تركيب لؤلؤة عثر عليها في هارابا يماثل تماماً تركيب لؤلؤة اكتشفت في كنوسوس[٥٠]. ولا بد أن هذه السلع النفيسة قد عرفت طريقها عبر سورية الكنعانية إلى جزيرة كريت، في العصر المينوى الأوسط. ومع السلع تم انتقال الأفكار والفنون في الاتجاهين.

(٣) عندما بدأت دراستي لأختام الخليج كنت أتوقع أن يقودني البحث الى عالم حضارة موهنجودارو ـ هاربا، غير أن معظم القرائن كانت تعيدني الى بلاد الرافدين، وبالتحديد الى سورية. والقرائن المستمدة لا تقتصر على الشكل والأسلوب، بل تتعداه الى المواضيع المختارة في أختام الخليج.

عناصر التشابه في جلبتيك دلمون وكنعان

هنالك أكثر من نقطة التقاء مادية وفكرية بين حضارة دلمون وحضارة كنعان يقدمها فن الجلبتيك في المنطقتين المتشابهتين في الموقع الجغرافي.

ولا نستطيع حالياً أن نحدد المركز، أو المراكز التي تم عبرها انتقال المؤثرات. فالختم المسطح عريق التقاليد في سورية، وعندما يعم استخدام الختم الاسطواني في الألف الثاني تنقل الى الاخير المواضيع المفضلة سابقا في سورية : وفي طليعتها عبادة الخصب الممثلة في الثور أو الغزال، ثم الإنسان، الشراب بقصبة المقترن غالباً بعبادة الثور جالساً في اصطبل أو واقفاً، وعبادة رؤوس بشرية على أوتاد أو رؤوس حيوانية (رأس الثور من الأمام)، رجل يحمي الحيوانات الأليفة رسمت مع غصن نبات، رجل (بعل ـ حدد) يقف فوق ثور ويمسك بعنانه، دوامات من عدة حيوانات، التمسك برسم الأفاعي والعقارب والأجسام العارية.[٥١] وهذه العناصر المبكرة تجد نظائرها في مواضيع أختام الخليج.

أمـا من حيث الأسلوب : فهناك ميل الى التحوير والتجريد ورسم الأشكال بالتخطيط الهندسي وخاصة الوجوه مع تظليل سطوح الأجسام الفارغة بخطوط أفقية أو مائلة، واستخدام عناصر صغيرة لملء الفراغ كاليد في كنعان والقدم في دلمون والزهرات والنجوم والمربعات ورؤوس الثيران . . . . الخ. وتركيب قانون المشهد بشكل ينسجم مع المساحة المتوافرة على وجه الختم. وإدخال تعديل وتحوير على عناصر الصور المستمدة من أعمال فن المناطق المجاورة قد تبعدها عن مضمونها الأصلي. مثلاً في عدة أختام من الخليج ينقش شكل ملاكين يسبحان في الفضاء ليمسكا، وبشكل متناظر، هلالاً من جانبيه. هذا الأسلوب مستمد من الصور المألوفة في نصب أور رنامو (أور الثالثة) حيث يهبط ملاكان من السماء رأساً على عقب ليصبا الماء المقدس. أما شكل الملاكين المنحرف في أختام الخليج فلا نجد مماثله إلا في عدد من الأختام السورية (كختم سامبا خادم شمشي ـ حدد) الذي عثر على طبعاته على رقيم في ماري. وربما ترجع الصورة الى أصل أكادى[٥٢].

وفي هذا الموضوع وغيره تظهر تأثيرات الفن الأكادي القوية في أعمال المنطقتين، فهناك ثلاث نسوة واقفات فوق ثور، وثور يحمل هلالاً أو قرص شمس على ظهره في أعمال النقش البارز في البحرين، تجد نظائرها في ختم من تل براك، واستخدام كرسي مربع الشكل من ستة، تسعة أو ستة عشر مربعاً داخلياً وطاولات معدنية لوضع القرابين، ومحراب مستطيل في أعلاه عش صغير. وكلا العنصرين نجدهما في علامات كتابة السند التصويرية. أما الإفراط في ملء فراغ الختم بعناصر حشو فإنه يقترب من أسلوب أختام المستعمرة الآشورية (كاروم كانش السورية الثانية)[٥٣]. وهناك تفاصيل دقيقة وفيرة على تأثير جلبتيك كاروم كانش على فناني دلمون.

يشعر الدارس للموضوع أن أختام دلمون وكنعان سارت في الموضوع والأسلوب من نقطة انطلاق مشتركة ومألوفة لدى فناني المنطقتين، وقد استطاعت الأختام السورية أن تطور الأسلوب وتنوع المواضيع عبر عدة مجموعات يتراوح امتدادها الزمني بين شمشي ـ حدد ونهاية الأسرة البابلية القديمة. ووصلت الى ذروة الابداع الفني في حقبة الملكين زمري ليم وحمورابي. وبالمقابل فإن فناني الخليج كانوا أكثر محافظة في الشكل أو الموضوع أو في الأسلوب.

كذلك تتجلى المحافظة في اصطفاء عدد محدود من الأشكال والصور المفضلة سواء من عالم الجلبتيك السندي أو من معجم الفن الرافدي ـ الكنعاني.

ومما لا شك فيه أن مبدأ الاصطفاء مسؤول بالدرجة الأولى عن ندرة في المواضيع، وقلة في عناصر الصور المستمدة من جلبتيك هارابا. ومن ناحية أخرى يبدو أن الأختام الخليجية ـ باستثناء المجموعة الأولى ـ تتوافق زمنياً مع المرحلة الأخيرة لحضارة هارابا وتشاهنجار (Jhangar Culture) وقد حددت نتائج الكربون ١٤ (C 14) الحديثة نهايتها بحوالي ١٧٥٠ وبدايتها بـ ٢١٠٠ق. م.(٥٤).

خاتــمـــة

ختاماً للبحث يمكن تلخيص النتائج على الوجه الآتي:

وجـدت في الحقبة الواقعة بين جونوجوم وحمورابي مدرسة لفن الجلبتيك في منطقة الخليج العربي (دلمون) اتصفت بانتاج وفير في الأختام وربما في النقوش الأخرى والمشخَّصات. وقد عثر على نماذج الأختام في منطقة تمتد من شواطىء الجزيرة العربية الشرقية الى وادي السند. وبفضل العلاقات التجارية الوثيقة مع مللوخا وماجان وسومر وآشور وسورية غدت منطقة الخليج ملتقى هاماً لا للسلع بل وللأفكار أيضاً.

وفي الحقيقة تعتبر الأختام مرآةً لهذا الواقع. فبعد محاولات أولى لتقليد أشكال ومواضيع سندية (المجموعة الأولى) أرسـخ جلبتيك الخليج سماته الخاصة (المجموعة الثانية)، لختم مسطح وطوّره، ومن كتابتها التصويرية اصطفى بعض علامات تحولت الى عناصر زخرفية. والتقى في عبادة الخصب المجسدة في عالمي الحيوان والإنسان مع أفكار أساسية اشتركت فيها مناطق واسعة من آسيا الغربية، ولكنها عبرت عنها بأساليب متنوعة. وفي هذا الميدان يلاحظ التقاء أختام الخليج في الشكل والموضوع مع أفكار مدرسة الجلبتيك المبكرة في سورية وأساليبها. أما التأثير القوي في مواضيع الأختام الخليجية فقد جاء من سومر وأكاد وكنعان المجاورة. فقدمت تقاليد الجلبتيك وأعمال الفن هناك فيضاً من المواضيع وعناصر الصور، اختار فنانو الخليج قائمة محدودة منها. وقد تميز تنفيذها بالتحوير عن الأصـول، وبـالميل الى التجـريد الـرمـزي، وبتـواضع في مستوى الأداء الفني. وكما هو الحال بالنسبة للكتابة التصويرية، نرى الأختام الخليجية لا تفسح المجال للكتابة المسمارية. فالختم في دلمون كان على ما يبدو تميمة وحلية أكثر من كونه أداة توقيع، وهذا ما يفسر ندرة طبعاته على رُقُم طينية، ففي منطقة الخليج صنعت نماذج الختم الرئيسية وهي: (أ) المسطح المستدير والمربع وربما الجعلان أيضاً، (ب) والأسطواني. لكن التفضيل كان للأول، وقد تطور هذا من الزر ذي المقبض الى الترس فالقرص. وإذا كان نموذج الزر قد ساد في المرحلة المبكرة، فالملاحظ أن الترس قد نشأ عنه وحل محله تدريجياً. وبالاستناد الى أسلوب النقش نجد أن الترس والقرص يحملان خصائص متماثلة، وبالتالي وجدا جنباً إلى جنب (المجموعة الثانية). وهنالك في المجموعة الثالثة تغير ملحوظ في أسلوب الصنع وفي

الموضوعات يظهر على أختام قرصية الشكل. لا نستطيع حالياً تحديد تأريخ لبداية هذه المجموعة، ولا يمكننا الجزم بتوقف إنتاج ختم الترس، لكن القرائن المؤرخة (أ ـ ط) تشير الى سيادة نموذج القرص في المراحل الأخيرة.

هنالك عشرات من التساؤلات تطرحها دراسة أختام الخليج على بساط البحث التاريخي نورد منها:

١ ـ هل هنالك تناظر في اختيار شكل من السند ومحتوى من الرافدين للختم الخليجي، مع تفضيل الدلمونيين لنظام المقاييس السندية على الرافدية، وللكتابة المسمارية على التصويرية؟

٢ ـ هل يعكس التأكيد على الأفكار الدينية المشتركة في أختام دلمون وكنعان (في مظاهر عبادة الخصب في الحيوان والانسان) خلفية جغرافية واحدة أو أصلاً مشتركا؟

٣ ـ كيف يفسّر التشابه في الدور الاقتصادي بين «قارب ماجان» و «اسطول تشرشيش» وبين الضريبة الى معبد نينجال، وتلك الى معبد ملكارت؟

الهــوامش

(١) راجـع: هشـام الصفـدي، «التنقيبات الأثرية في الخليج العربي ـ حضارة دلمون»، **مجلة الحوليات الأثرية السورية**، المجلد ١٤ (دمشق، ١٩٦٤)، ص ص ٦٧ ـ ٩٠.

(٢) A. Moortgat, *Die Kunst des Alten Mesopotamien* (Köln, 1967), 42.

(٣) H. Frankfort, *Cylinder Seals* (London, 1939), p. XIII.

(٤) نشرت بعض صورها في تقارير بعثة التنقيب الدانمركية، خاصة في مجلة *Kuml* وفي تقرير الكويت إلى المؤتمر الثـالث للآثار في البلاد العربية نوفمبر ١٩٥٩، وفي تقرير شامل عن الحفريات الأثرية في جزيرة فيلكا بين ١٩٥٨ ـ ١٩٦٣ (دولة الكويت).

(٥) C. J. Gadd, «Seals of Ancient Indian Style fount at Ur», *Proceedings of the British Academy* (Oct. 19, 1932).

(٦) L. Legrain, *Ur Excavations, Seal Cylinders* (London, 1951), Vol. X, 44-45, pl. 37. E. Porada, *Chronologies in Old World Archaeology* (London, 1965), 171.

(٧) راجع «تقرير شامل». وهو في رأيي الاصطلاح المناسب حالياً بانتظار تحديد هوية صانعي الأختام.

(٨) A. Moortgat, *Die Entstehung der Sumerischen Hock-Kultur* (Leipsig, 1945), 25, Taf. 6-7b.

(٩) H. H. Von der Osten, *Altorientalische Siegelsteine in der Sammlung H. S. von Aulock* (Uppsala, 1957), 21 ff. Anm. 1.

غالباً هناك وظيفة ثالثة هي الحلية، نظراً لإحاطة الختم بإطار من ذهب، وحمله بسلسلة تحوى لآلىء.

(١٠) W. W. Hallo and B. W. Buchanan, «A dated Persian Gulf Seal and its Implications», *OIAS* 16 *(Chicago, 1965), 204 ff.*

(١١) H. Mode, *Das Frühe Indien* (Stuttgart, 1959), 53 ff, 186.

(١٢) H. Mode, *ibid,* 42 - 46 .

(١٣) S. Piggott, *Die Welt auf der wir Kommen* (1951), 234, Abb. 9.

(١٤) H. H. von der Osten, *Ancient Oriental Seals in the Collection of E. T. Newell* (Chicago, 1934), 3, pl. I.

(١٥) أدين بعميق الشكر للزميلين جلوب وبيبي وللبعثة الدانمركية، الذين أطلعوني على نماذج أختام الخليج في متحف مدينة ارهوس، وزودوني بكل ما احتجته لدراسة الأختام.

(١٦) راجع وظيفة هذه المسامير في دروع المحاربين السومريين (نصب العقبان) وفي صور التروس الاغريقية. وعلى ختم مسطح من تيبه جورا، السوية ١٢ توجد أربعة ثقوب مماثلة لإنزال مادة ملونة على ظهر الختم.
انظر E. Porada, *op. cit.,* 187.

(١٧) نجد في علامات الكتابة التصويرية على ختم من مدينة لوتال صورة سمكة رسمت عمودياً وسط مربع وهمي من أربع دوائر. راجع مؤلف مودة H. Mode, *op. cit.,* pl. 62. (أعلا اللوحة). وترمز الخطوط في الفن الرافدي إلى الماء السائل.

(١٨) L. Legrain, *ibid,* 44, 45, pl. 37, No. 631. أنظر «تقرير شامل»، صفحة ١١٣، الأشكال ٥٤ ـ ٥٥ .

(١٩) «تقرير شامل»، شكل ٧١.

(٢٠) L. Legrain, *ibid,* 45, No. 632, H. Mode, *ibid, Taf. 73.*

(٢١) «تقرير شامل»، ص ١٢٤، الأشكال ٦٤ ـ ٦٦ ، ٧١ .

(٢٢) P. Amiet, *Glyptique Susienne* (Paris, 1972), t. I, 209-211, No. 1710-1726 (cachets de la civilisation des îles du Golf persique).

(٢٣) نستغرب عزوف صانعي أختام الخليج عن مادة المحار التي استخدمت في كل من عصر السلالات والعصر الأكادي للأختام الأسطوانية.

(٢٤) بلغ عدد الأختام المسطحة المكتشفة في موهنجودارو وحدها ١٢٠٠ ختم. ويستخدم أسلوب التزجيج لسطح الأختام المطبق أيضاً على التماثيل الحجرية.

(٢٥) H. Frankfort, *ibid,* 304-306; F. Mackay, *The Indus Civilisation* (London, 1935), 192, pl. M10, 11.

(٢٦) أنظر «تقرير شامل»، شكل ٩١ .

(٢٧) N. Özgüc, *Kultepe Mühür* (the Anatolian Group. Ankara, 1956), pl. XIX. تقترب أختام هذه المجموعة من أسلوب توزيع عناصر المشهد الشائع في الأختام الكبادوكية.

(٢٨) «تقرير شامل» وشكل ٥/٨٢ .

(٢٩) H. Frankfort, *ibid,* 226.

(٣٠) راجع رسالة H. El-Safadi, *Die Entstehung der Syrischen Glyptik und Ihre Entwicklung in der Zeit von Zimrilim bis Ammitaqumma* (Ugarit Forschungen), Bd. 6-7 (Neukirchen-Vluyn, 1974-75), 314 ff.

المؤلف، «نشوء الجلبتيك السورى».

(٣١) اعتمد المنقب بيبي (Bibby) في تصنيف الأختام المكتشفة على مظهرها الخارجي (ظهر الختم) فقط، واعتبر الأختام المسطحة الظهر دلمونية (؟). راجع مؤلفه. *Looking for Dilmun* (London, 1970), 183.

(٣٢) S. Piggott, *ibid,* 230.

(٣٣) L. legrain, *ibid,* 42, No. 632; Bibby, *ibid,* 277.

(٣٤) يبدى الأثريون تحفظاً حول دقة التحديد الطبقي بالنسبة للأختام المكتشفة في مدينة أور.

(٣٥) راجع الهامش ٢١.

(٣٦) G. Bibby, *ibid,* 355 ff.

(٣٧) A. Parrot, *Sumer* (Paris, 1960), 252, fig. 315.

(٣٨) A. Parrot, *ibid,* 276, fig. 344-345.

(٣٩) A. Moortgat, *ibid,* 275-276.

(٤٠) A. Parrot, *Assur* (Paris, 1961), 308, fig. 389.

(٤١) A. Parrot, *Sumer,* figs. 346-347.

(٤٢) A. Parrot, *MAM II: Le Palais* (Paris, 1959), 66-67.

(٤٣) A. Parrot, *ibid,* 69, fig. 1022, pl. XXIX.

(٤٤) A. Parrot, *ibid,* 305, fig. 373.

(٤٥) A. Parrot, *ibid,* 292, fig. 359 a.

(٤٦) E. Strommenger, *BM,* Bd. I (1960), *Das Menschenbild in der Altmesopotamischen Rundplastik..., 53, Taf. 14.* هنالك تمثال رجل من العهد الأكادي (مرحلة مانشتوسو) عثر عليه في آشور يحلي رقبته بعقد من اللآلىء.

(٤٧) G. Dossin, *AR de Mari,* I, 21, V, 14.

(٤٨) ورد ذكر ألاشيا وكفتور في وثائق القصر الملكي في ماري.

(٤٩) H. Mode, *ibid,* 91-92.

(٥٠) *Ibid,* 88.

(٥١) راجع الصفدي عن نشوء الجلبتيك السوري H. El-Safadi, *op. cit.,* 334 - 352.

(٥٢) E. Porada, *CANES* vol. II, No. 225, p. 233.

(٥٣) N. Özgüc, *Kanis Karum ib... Seals and Seal-impressions of level Ib from Karum Kanish* (Ankara, 1968), 39 ff. pl. IV, IXb.

(٥٤) G. Racket, *L'univers de l'Archéologie,* t, 2 (Paris, 1970), 196-197.

حادى عشر: الجزيرة العربية والبلاد المجاورة

الأبحاث في الموضوع

الإطار الخارجي لجاهلية العرب

كمال سليمان الصليبي

تتأثّر المناطق الواقعة على مسالك التجارة أكثر من غيرها بعوامل من الخارج. وقد تطغى هذه العوامل الخارجية على سواها من العوامل إذا كانت المناطق المعنيّة تعتمد على التجارة إلى حدّ يفوق بكثير اعتمادها على غير التجارة من موارد الرزق. هكذا كانت الحال منذ القدم في البلاد التي أطلق عليها الإغريق والرومان اسم «العربية» (Arabia)*[أ] وهي «جزيرة العرب» وامتداداتها الى البوادي والحواضر الشمالية المتاخمة للعراق والشام ومصر. إذ أن هذه البلاد الصحراوية، القليلة الموارد، استرعت اهتمام الممالك ذات المصالح التجارية الكبرى في العالم القديم منذ بدء التاريخ، وذلك بسبب موقعها الجغرافي الفريد على ملتقى الطرق بين عالم المحيط الهندي ومتفرّعاته من جهة، وعالم البحر الأبيض المتوسّط ومتفرّعاته من جهة أخرى - هذا بالإضافة الى أن الأجزاء الشمالية منها كانت تشكّل الممرّ الطبيعي بين المراكز البارزة لحضارات العالم القديم في العراق وبلاد فارس وما يليها براً إلى الشمال والشرق من ناحية، وفي بلاد الشام ومصر والأناضول وما يليها براً وبحراً الى الغرب من ناحية أخرى، سواء في أوروبا أو في إفريقيا. وقد عمدت الدول الفاتحة منذ أقدم العصور الى ضبط ما تيسّر ضبطه من أطراف بلاد العرب الواسعة، والى مدّ نفوذها قدر المستطاع الى ما نآى من مناطقها الداخلية، وذلك ليس طمعاً في مواردها الطبيعية الضئيلة، بل محاولة للتحكّم في مسالك البحار المحيطة بها من الشرق والجنوب والغرب، وفي دروب القوافل الممتدّة عبر أرجائها الوعرة القاحلة. وعلى الرغم من أن هذه الدول الفاتحة، على وجه العموم، لم تنجح في فرض حكم خارجي مباشر على البلاد العربية الاّ لفترات محدودة، فممّا لا شكّ فيه أن البادية العربية وما قام فيها وحولها من المراكز الحضرية لم تكن في يوم من الأيّام بعيدة عن أحداث العالم الخارجي وتطوّراته، كما يخيّل للبعض. بل بالعكس، فإن جاهلية العرب تفاعلت في كلّ حقبة من تاريخها الطويل تفاعلاً مستمراً، وإن كان خفيّاً في بعض الأحيان، مع القوى الخارجية الضاغطة عليها والمؤثّرة فيها سياسياً واقتصادياً وحضارياً عن طريق البّر والبحر.

وقد كان لأهل الجاهلية، بطبيعة الحال، مصلحة في التعامل المستمر مع القوى الخارجية الكبرى الطامحة - الواحدة تلو الأخرى - الى التحكّم في مسالك التجارة عبر هذا الجزء أو ذاك من بلادهم. فلولا التجارة، لكادت سبل العيش في البلاد العربية في حينه أن تقتصر على الرعي، وعلى قدر يسير من الزراعة في بعض النواحي، ممّا لا يكفي كقوام لحضارة ذات شأن يذكر. ومن الأكيد أن الحضارات المحليّة القديمة المعروفة التي نشأت وازدهرت بين حين وآخر في بعض أجزاء الجزيرة العربية وامتداداتها الشمالية كانت بمجملها قائمة أكثر ما يكون على التجارة. وقد ظهرت هذه الحضارات إمّا في الأطراف الساحلية للجزيرة العربية وعلى مشارف العراق والشام - أي في المناطق الواقعة ضمن رقعة النفوذ المباشر للدول التجارية الكبرى -، أو على طرق القوافل عبر البادية - أي في المناطق الداخلية التي كانت على صلة ما بالخارج. فكانت هذه الحضارات بالتالي تنشط مع نشاط الحركة التجارية عن

* المحـــرر

(أ) هكذا : Ἀραβία في اليونانية و ARABIA في اللاتينية.

طريق الممرّات العربية، وتضعف مع ضعف هذه الحركة، وتضمحلّ مع توقّفها، مخلّفة وراءها الأطلال الدارسة. فإذا ما نشطت الحركة التجارية عبر البلاد من جديد عادت الحضارة فيها الى الظهور، وذلك إمّا في المراكز التي قامت فيها الحضارات السابقة، أو على مقربة منها، أو في مناطق أخرى لم يكن لها شأن من قبل.

وتجب الملاحظة هنا أن البدو وسكّان الأرياف من العرب كانوا يستفيدون من حركة القوافلَ التجارية عبر البلاد كما كان يستفيد منها أهل الحواضر العربية الكبرى. لأن القبائل العربية في البّر كانت لها السيطرة الطبيعية على الدروب، فكان أبناء القبائل - من بدو وحضر - يجبرون القوافل على دفع الأموال لتأمين مرورها في مناطقهم. وكثيراً ما كانت الدول والممالك المهتمّة بالتجارة عن طريق بلاد العرب تدفع الأموال للقبائل العربية لكسب صداقتها وضمان حسن سلوكها مع التجّار. هذا مع العلم بأن القرى العربية في الأرياف كانت تستفيد ماديّا بشكل طبيعي من مرور القوافل فيها في مواسم التجارة، إذ أن أصحاب القوافل كانوا يستخدمون أبناء القبائل العربية لمرافقتهم في مسالك البادية عند الحاجة، ويبتاعون منهم ما يلزمهم من الدواب والإبل، ومن الطعام والعليق والعلف. لذلك كانت القبائل العربية تكتفي بحالها عندما تكون الحركة التجارية ناشطة في ربوعها، فتبقى مستقرّة فيها. فإذا ما ضعفت الحركة التجارية أو توقّفت لسبب أو لآخر، افتقرت هذه القبائل الى الرزق، فخرجت من بواديها وأريافها وأغارت على الحواضر الكبرى القريبة منها لنهبها أو للاستقرار فيها.

ولّما كان النشاط التجاري عبر بلاد العرب يعتمد إلى حدّ كبير على وجود قوى خارجية مهتمّة بهذه التجارة وقادرة على ضبط ممرّاتها البحرية والتحكّم بمسالكها البريّة، فلا عجب أن أحوال البلاد العربية، سواء في الحواضر الكبرى أو في البادية والأرياف، كانت تتأثر الى الدرجة ذاتها بالأحوال الخارجية. فكان وجود القوى الضابطة لبلاد العرب من الخارج يضمن استقرار البادية والأرياف، ويفسح المجال في الوقت نفسه لقيام الممالك والإمارات الحضرية المزدهرة في المناطق المجاورة لثغور البحر ومحطّ قوافل البّر. وكان عدم وجود مثل هذه القوى الخارجية الضابطة للبلاد، بين فينة وأخرى، يفلت زمام الأمر فيها، فتنهار الممالك والإمارات في المناطق المعمورة منها، وتخرج القبائل من بواديها وأريافها لتطغى على الحواضر السائبة وتقضي على ما تبقّى فيها من معالم الازدهار.

لهذا السبب يصعب على الباحث تصوير جاهلية العرب تصويراً كاملاً مقنعاً دون التعمّق في فهم العوامل الخارجية التي أثّرت بشكل أساسيّ في تاريخها دوراً بعد دور. هذا مع العلم بأن الأخبار الثابتة المتوفّرة لدينا عن جاهلية العرب مازالت غير كافية بحدّ ذاتها لمثل هذا الغرض، مّما يضطّر المؤرّخ في أحوال كثيرة الى تحكيم العقل، واللجوء الى مجرّد الافتراض، للإحاطة بالموضوع من شتّى جوانبه. وهناك، بالمناسبة، ملاحظات أساسية لا بدّ من إبدائها قبل الخوض في تاريخ الجزيرة العربية في الأزمنة القديمة السابقة للإسلام، سواء من الناحية الخارجية أو الداخلية. ويمكن إيجاز هذه الملاحظات بما يلي:

أوّلاً، إن بلاد العرب في القديم كانت تتألّف من أقاليم مختلفة لا يجمع بينها جامع، لكلّ منها أوضاع خاصة وتاريخ خاص. ولذلك لم يكن للبلاد، في الأصل، اسم واحد تعرف به، حتى جاء الإغريق فاستحدثوا لها اسم «العربية» (Ἀραβία)، كما ذكرنا، وأطلقوا هذا الاسم على كامل البلاد الممتدّة من بادية الشام الى الفرات في

الشرق والمحيط الهنـدي في الجنـوب. أمّا أهالي هذه البلاد بالذات، فكانوا يطلقون أسماء خاصة على أقطارها المختلفة، منها ما تغيّر مع تغيّر الأزمنة، ومنها ما لم يتغيّر. والجدير بالذكر أن الإغريق والرومان الذين عمّموا اسم «العربية» على البلاد لم يخف عليهم واقع أمرها، ففرّقوا في عرفهم بين أجزاء ثلاثة منها هي «العربية الصخرية» (*Arabia Petraea* ؛ وهي مشارف الشام امتداداً الى الحجاز)، و«العربية السعيدة» (*Arabia Eudaemon* أو *Arabia Felix* ؛ وهي البلاد «اليمنية» ـ أي الجنوبية ـ الممتدّة من ساحل البحر الأحمر الى ظُفار، وربّما الى عمان)، و«العربية القاحلة» (*Arabia Deserta* ؛ وهي الأجزاء المتبقية من البلاد التي لم يكن لدى الإغريق والرومان معلومات دقيقة عنها). وكان الإغريق والرومان على علم بوجود أقطار مختلفة في كلّ من هذه الأجزاء الثلاثة، وقد عرفوا بعض هذه الأقطار بأسمائها.

ثانياً، إن الشعوب التي كان لها شأن في هذه البلاد في العصور القديمة لم تكن جميعها شعوباً عربية. فكان من بينها شعوب تنطق منذ أقدم العصور بلهجات عربية، أو قريبة من العربية، وكان من بينها في الوقت ذاته شعوب تنطق بلهجات سامية أخرى بعيدة عن العربية الى حدّ يجعل منها لغات قائمة بذاتها، لا تجتمع مع العربية الاّ في الأصل السامي. وهناك في أقاصي الجنوب من الجزيرة العربية، في بعض المناطق الجبلية النائية، جيوب من بقايا هذه الشعوب مازالت تحافظ على لغاتها الخاصّة في الكلام، دون الكتابة، الى اليوم. والاعتقاد السائد هو أن اللغة العربية كانت في الأصل مجموعة من اللهجات تختصّ بقبائل البادية في المناطق الشمالية من الجزيرة، وأكثر من ذلك في المناطق القبلية المتاخمة للعراق والشام. وقد انتشرت هذه اللغة بلهجاتها المختلفة، مع الزمن، في مختلف أنحاء الجزيرة العربية ـ وكذلك في أرياف العراق والشام ـ عن طريق تغلّب البدو على الحواضر دوراً بعد دور، حتّى عمّ استعمالُها المنطقة في القرون الأولى بعد الميلاد، أي في الحقبة التاريخية السابقة مباشرة للإسلام.

ثالثاً، إن تاريخ الجزء الشرقي من الجزيرة العربية ـ وهو الجزء المشتمل على الأقطار المحاذية للخليج العربي المعروف قديمًا ببحر فارس، أو بحر العجم ـ كاد أن يكون في البدء مستقلاً تمام الاستقلال عن تاريخ الجزء الجنوبي والغـربي منها، وهو الجزء المشتمل على الأقطار المحاذية للمحيط الهندي والبحر الأحمر. فأقطار الجزء الشرقي، بمـوانئها البحرية ومسالكها البّرية، كانت تشكّل في الأصل ممرّاً تجارياً قائمًا بذاته، يربط بين الهند وبلاد فارس والعراق. أمّا أقطار الجزء الجنوبي والغربي، فكانت بموانئها البحرية ومسالكها البّرية تشكّل الممر التجاري بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر الأبيض المتوسط. فكان من الطبيعي، بالتالي، أن يتأثر الجزء الشرقي من الجزيرة بعوامل خارجية ـ عسكرية وسياسية واقتصادية وحضارية ـ من البلاد الشرقية المتاجرة مع أقطاره، كما كان من الطبيعي أن يتأثّر الجزء الجنوبي والغربي من الجزيرة بعوامل خارجية مماثلة من ناحية الغرب. أمّا الجزء الشمالي من بلاد العرب ـ وهو الجزء الممتدّ من الفرات شرقاً الى مشارف الشام ومصر غرباً ـ فكان يشكّل بطبيعة موقعه الجغـرافي ملتقى الممرّين التجاريين العابرين للجزيرة من الجنوب الى الشمال بمحاذاة الخليج العربي من جهة، والبحر الأحمر من جهة أخرى. وكانت هناك كذلك مسالك ثانوية تربط بين هذين الممرين في الجزء الأوسط من الجزيرة، عن طريق هضاب نجد. وهذا ما جعل من نجد وما يليها من بلاد العرب الى الشمال نقطة الاتصال الحضاري، على مرّ التاريخ، بين الشطر الشرقي والشطر الجنوبي والغربي من الجزيرة.

رابعاً، إن التأثيرات الخارجية في البلاد العربية، سواء من الشرق أو من الغرب، كانت عميقة في الأقطار الشمالية المتاخمة للعراق والشام، ، ثمّ في المناطق المحاذية للساحل والمحيطة بالبادية الداخلية من الشرق والجنوب والغرب (أى في بلاد الأحساء، وعُمَان، و«العربية السعيدة»، والحجاز)، في حين كانت هذه التأثيرات الخارجية محدودة في المناطق الصحراوية النائية في الداخل، وعلى الأخصّ في بلاد نجد المحاطة بالرمال من جهاتها الأربع. فالممالك والإمارات «النبطية» أو العربية التي نشأت في أطراف العراق والشام كانت خاضعة معظم الوقت للسطوة العسكرية أو للنفوذ السياسي من قبل الدول الكبرى المسيطرة على البلاد المجاورة لها. وقد نفذت سطوة هذه الدول في بعض الأحيان الى الأطراف الساحلية الشرقية والجنوبية والغربية من الجزيرة، وذلك في الغالب لفترات محدودة. أما قلب البلاد، فمن المرجّح أنه لم يخضع في أى وقت من الأوقات لأى سيطرة خارجية مباشرة، وإن كان في أحيان كثيرة على علاقة ـ الى حدّ ما ـ بالقوى الكبرى في الخارج.

خامساً، إن الممالك والإمارات القديمة في بلاد العرب، كما سبق وذكرنا، قامت وازدهرت على وجه العموم عندما كانت صلة هذا الجزء أو ذاك من البلاد مع الخارج شديدة، ثمّ انهارت واندثرت عندما أصبحت هذه الصلة ضعيفة. ولذلك يجدر بالمؤرّخ أن يبحث دوماً عن نوع الصلات الخارجية التي تسبّب وجودها في قيام الممالك والإمارات القديمة في مختلف الأقطار العربية، والتي أدّى زوالها مع الزمن الى زوال هذه الممالك والإمارات والى انفلات قوى البادية على مراكز الحضارة حيث وجدت، سواء في الداخل أو في الاطراف. وقد يجوز الافتراض بأن الحقبات التاريخية المتتالية التي مرّت فيها بلاد العرب في العصور القديمة ما كانت في أساسها الاّ انعكاساً محلّياً لما كان يجري في الخارج، على الأخصّ في الأمور المتعلّقة بميزان القوى بين الدول والممالك الكبرى المسيطرة على الأجزاء المختلفة من بلاد المشرق.

وعلى ضوء هذه الملاحظات الخمس ـ مع التشديد على أهمية الاخيرة منها ـ يمكننا أن نقسم جاهلية العرب الى ثلاثة أزمنة يعكس كلّ منها أوضاعاً خارجية معيّنة. ويمكننا كذلك أن نقسم هذه الأزمنة الثلاثة ـ حيث تتوفّر المعلومات اللازمة ـ الى حقبات تعكس بدورها التغيّرات الأساسية في موازين القوى المؤثّرة على بلاد العرب من الخارج في كلّ زمن. أمّا الأزمنة الثلاثة المشار اليها، فهي الآتية:

أولاً، زمن «الجاهلية المتقدمة» التي تبتدىء مع بداية تاريخ المدنية التجارية في بلاد المشرق، وتنتهي بظهور سطوة الفرس في هذه البلاد في غضون القرن السادس قبل الميلاد.

ثانياً، زمن «الجاهلية الوسطى» التي تبتدىء مع الفتح الفارسي للعراق والشام ومصر في القرن السادس قبل الميلاد، في زمن الدولة الفارسية «الأولى»، وتنتهي ـ بعد استتباب الأمر للإغريق، ثمّ للرومان، في بلاد المشرق ـ مع ظهور الدولة الساسانية ـ وهي الدولة الفارسية «الثانية» ـ كقوّة منافسة للرومان في المنطقة، وذلك في غضون القرن الميلادي الثالث.

ثالثا، زمن «الجاهلية المتأخّرة» التي تبتدىء بظهور الدولة الساسانية في القرن الميلادي الثالث، وتنتهي بظهور الإسلام في بلاد العرب في القرن الميلادى السابع.

وبناء على هذا التقسيم لجاهلية العرب، بقصد التعمّق في فهمها والوقوف على شيء من سرّها، نستطرد في تصوير تاريخها زمناً بعد زمن، وحقبة بعد حقبة، مع الوعي الكامل لما في ذلك من مجازفة، ومن حتمية الوقوع في أخطاء كثيرة لا بدّ من أن ينكشف بعضها إذا ما أصبحت معلوماتنا الثابتة حول الموضوع أكثر شمولاً.

انقسمت جزيرة العرب في «الجاهلية المتقدّمة» ـ على ما يظهر ـ إلى مناطق نفوذ، منها ما كان تابعاً لدولة الفراعنة في مصر، ومنها ما كان تابعاً للدول المتعاقبة على السيطرة في العراق*(ب). والمعلومات القليلة جدّا المتوفّرة لدينا عن هذا الزمن ليست كافية لتصوير أوضاع الجزيرة العربية فيه تصويراً واضحاً، لاسيّما فيما يتعلّق بمناطق النفوذ العراقي منها. غير أننا نستطيع، من باب المجازفة والتقدير، أن نقسم تاريخ «الجاهلية المتقدّمة» الى خمس حقبات تتناسب مع التغيّرات الأساسية في ميزان القوى الخارجية العاملة فيها من الشرق والغرب آنذاك.

فالحقبة الاولى تمتدّ من ظهور دولة الفراعنة في مصر (في عهد الاسرة الأولى، أي في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد)، حتّى قيام الدولة الاكّادية المتوسّعة في العراق في عهد سرجون وبنيه في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد (ابتداء من حوالي عام ٢٣٣٤ق.م.). وتتميّز هذه الحقبة بعدم وجود نفوذ عراقي واضح في شرق الجزيرة العربية يوازي النفوذ المصري في غرب هذه الجزيرة وما يليها شمالاً من بلاد الشام وأطرافها البحرية. ولعلّ النشاط التجاري البارز الذي رعته مصر في المناطق الخاضعة لنفوذها في تلك الحقبة كان الحافز الذي جعل «الفينيقيين» (على حدّ قول هيرودوت، نقلاً عن مزاعم علماء صور في عصره) ينتقلون في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد من السواحل الشرقية للجزيرة العربية الى ثغور الساحل الشامي. ويستنتج من كلام هيرودوت هذا أن أجداد «الفينيقيين» كانوا يمارسون التجارة البحريّة أوّل الأمر فيما أسماه بـ «البحر الأحمر» (أي الخليج العربي)، ثمّ انتقل الأحفاد الى الثغور الشامية ليمارسوا هذه التجارة هناك على نطاق أوسع، بالتعامل مع مصر والمناطق الداخلة تحت نفوذها في الجزء الشرقي في حوض البحر المتوسّط. وهناك ما يشير الى أن الدولة المصرية، في تلك الحقبة، كانت تسيطر بشكل أو بآخر على سيناء ومناطق أخرى من بلاد الشام والأجزاء الغربية من الجزيرة العربية.

ثمّ تأتي الحقبة الثانية، مع قيام الدولة الأكّادية في العراق، فتتوازن القوى الخارجة العاملة في الجزيرة العربية (وكذلك في بلاد الشام) للمرّة الأولى. وتنتهي هذه الحقبة بزوال الدولة الأكّادية قرابة عام ٢٠٠٠ق.م. وعودة الفوضى السياسية الى العراق على الأثر. وفي أوائل هذه الفترة امتدّت السيطرة الأكّادية عن طريق الفتوحات لتشمل معظم الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية، بما فيها «دلمون» (والمرجّح أنها جزر البحرين) و«مجان» (والمرجّح أنها منطقة عُمان). ولعلّ الكلام الغامض عن «انقسام الأرض»، الوارد «عرضاً» في «الاصحاح العاشر» من سفر **التكوين**[1] ما هو إلا إشارة إلى «انقسام» البلاد الواقعة بين الفرات والنيل (بما فيها الجزيرة العربية) بين النفوذ المصري القديم في الغرب والنفوذ العراقي الطارىء في الشرق. وقد حدث هذا «الانقسام» (على حدّ قول واضعي **سفر التكوين**) في عهد فالج بن عابر، من سلالة سام بن نوح، جدّ الشعوب السامية. والاسم «فالج» بحد ذاته ـ

*** المحـــرر**

(ب) لا ينبغي إغفال دولة الحيثيين في بلاد الأناضول وشمال سوريا.

من الجذر السامي «فلج» - يفيد معنى الانقسام الى شطرين. ويستخلص من **سفر التكوين** أن بني فالج، في ذلك الوقت، ظلوا مقيمين في «أور الكلدانيين»، أي في منطقة بادية السَّماوَة الى الغرب من الفرات. أما بنو يقطان بن عابر، وهو أخو فالج - ومنهم «**شبا**» و«**حضرموت**» - فاستوطنوا الأجزاء الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية «من **ميشا** حينما تجيء نحو **سفار** (أى ظفار) جبل المشرق». ويبدو أن اسم «قحطان»، جدّ العرب «العارب» في جنوب الجزيرة، ما هو الا اسم «يقطان» الوارد في نصّ **سفر التكوين**. وبناء على هذه الإفادة الأسطورية، يجوز الافتراض أن الكيانات الأولى التي نشأت في العصور التاريخية في جنوب الجزيرة العربية يرجع عهدها إلى هذه الحقبة بالذات، وأن ظهور هذه الكيانات كان في ظل السطوة المصرية (أو النفوذ المصري)، عقيب قيام الدولة الأكادية المنافسة لمصر في العراق.

وتأتي بعد ذلك الحقبة الثالثة من تاريخ «الجاهلية المتقدمة»، بعد زوال الدولة الأكادية في العراق، وبالتالي بعد زوال توازن القوى في بلاد المشرق بين العراق المتخبّط في الفوضى السياسية، ومصر الباقية معظم الوقت في موقف القوّة. وتستمر هذه الفترة من قرابة عام ٢٠٠٠ق.م. حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، عندما بدأت الدولة الآشورية تعيد الوحدة والاستقرار الى العراق في عهد الملك شلمنصّر الأول (حوالي عام ١٢٧٤ - ١٢٤٥ ق.م.). وفي بداية هذه الحقبة، أي حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. (إذا صحّ ما يقوله الضالعون في دراسة نصوص التوراة)، تمّ نزوح فريق من بني فالج بن عابر - وعلى رأسهم ابراهيم بن تارح*[جـ] «العبراني» وابن أخيه المدعو لوط بن هاران - من بلاد «أور الكلدانيين» الى «أرض كنعان» (أي إلى مرتفعات فلسطين وجوارها، في جنوب الشام، عند ملتقى المسالك التجارية بين العراق والشام والحجاز ومصر). ويستخلص من نصّ **سفر التكوين** ان ابراهيم بن تارح كان يمارس التجارة، وربما كان في ذلك ما يفسّر نزوله الى مصر واقتناءه لجارية مصرية*[د]. ولعلّ نزوح آل ابراهيم وآل لوط من جنوب العراق الى «أرض كنعان» كان مرده الى تردي الأوضاع الاقتصادية في الشرق بعد زوال الدولة الأكادية، واستمرار الازدهار في الغرب في ظل الدولة المصرية*[هـ]. وقد تحدّر من ذرية ابراهيم ولوط (حسب **سفر التكوين**) أقوام من «النَّبَط» أو «النَّبيط» (على حدّ التعبير العربي) استوطنوا ليس فقط في أرض كنعان، بل أيضاً في مرتفعات شرقي الأردن، ووادي عربة، وبلاد الشَّرَاة، والحجاز. ومن هؤلاء النبط «الاسماعيليون (نسبة الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام)، أصحاب القوافل التجارية بين مشارف الحجاز ومصر. فإذا كان لنا هنا أن نقبل شهادة **سفر التكوين**، كما قبلناها فيما يتعلق بالحقبة السابقة، وعلى الرغم من طابعها الأسطوري،

*** المحـــرر**

(جـ) جاء في القرآن الكريم باسم آزَرَ وإن كان للمفسرين تأويلات كثيرة حول معنى كلمة آزَرَ رغم أنهم كانوا قد كرروا ما جاء في التوراة في هذه النقطة.

(د) تذكر الكتب العربية أن زوجة اسماعيل من جُرْهم وأنه تزوج أكثر من زوجة حسب وصية أبيه إبراهيم له بأن يغير عتبة داره بعد أن شب وترعرع في أرض **فاران** (مكة).

(هـ) مما لا نشك فيه أن هجرة ابراهيم عليه السلام لم تكن لسبب اقتصادي وإنما لتبليغ دعوة التوحيد، حيث أنه لم يجد بين قومه في أور مجالاً لنشر الدعوة أما السبب الاقتصادي فهو عارض، إن وجد.

نتوصل الى الافتراض بأن ظهور أولى كيانات «النَّبط» في الجنوب الغربي من الشام، والشمال الغربي من الجزيرة العربية، كان في الحقبة الثالثة من تاريخ «الجاهلية المتقدمة»، وأنَّ ظهور هذه الكيانات، بجاذب من استمرار الهيمنة المصرية على هذه المناطق، كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأوضاع السياسية والاقتصادية العامة السائدة في تلك الحقبة في بلاد المشرق. والجدير بالذكر هنا أن **سفر التكوين** يطلق اسم «نَبَط» (**بشكل نبايوت**) على بكر اسماعيل بن ابراهيم، جد أحد فروع النَّبط «الاسماعيلية»[٢]. ويستخلص من النصوص المصرية أن فراعنة مصر من الأسرة الثامنة عشرة أرسلوا حملة عسكرية الى الموانىء الجنوبية من حوض البحر الأحمر في محاولة للحصول على غرسات من شجر المرّ لزرعها في البلاد المصرية، وذلك في أواسط الحقبة التي نحن بصددها، في عهد الملكة حتشبسوت. ومن الطبيعي أن تكون هذه الحملة قد شملت السواحل العربية هناك بالإضافة الى السواحل الإفريقية المقابلة لها*[و].

وفي غضون القرن الثالث عشر قبل الميلاد عادت القوى السياسية في بلاد المشرق تتوازن بين الدولة الآشورية في العراق ودولة الفراعنة في مصر*[ز] وبدأت بالتالي الحقبة الرابعة من تاريخ «الجاهلية المتقدمة» في بلاد العرب. وقد استمرت هذه الحقبة حتى قرابة عام ٦٥٠ ق.م.، عندما بلغت الدولة الآشورية أوج عزّها وأخضع ملكها آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م.) مصر. وبسبب التعادل في القوة بين آشور ومصر في القرون الأولى من هذه الفترة، ظهر العديد من الدويلات والممالك المستقلة في الشام وغرب الجزيرة العربية، منها الدويلات «الفينيقية» على طول الساحل الشامي التي استقلت عن مصر قرابة عام ١٢٠٠ ق.م.*[ح]

*** المحـــرر**

(و) الواضح أن المقصود هنا هو بعثة الملكة حتشبسوت الى **بونت**، وهي البلاد على الساحل الإفريقي الذى يشمل الحبشة وجزءاً من الصومال. لذا فلا يجوز أن تحمل هذه البعثة محمل المؤلف.

(ز) ليس التوازن الفعلي في غضون القرن الثالث عشر قبل الميلاد بين الدولة الآشورية في العراق ودولة الفراعنة في مصر، وإنما هو بين دولة الفراعنة في مصر خلال الأسرة التاسعة عشرة ودولة الحيثيين في بلاد الأناضول، خاصة وأن الحيثيين كانوا قد توسعوا في سوريا وفلسطين على حساب الامبراطورية المصرية خلال حكم أخناتون وأبيه، سابقه، أمنحتب الثالث في الأسرة الثامنة عشرة. أما ند الحيثيين الفعلي فقد كان رمسيس الثاني في الأسرة التاسعة عشرة. وقد كانت الحرب مستمرة بينه وبين الحيثيين سجالاً ولسنوات طويلة، انتهت باتفاقية سلام بينه وبين هاتوسل الحيثي، وحفظت لنا في نسختين متفقتين في جوهرهما، الأولى بالمصرية عثر عليها على لوحة في الكرنك في مصر، والثانية بالمسمارية البابلية عثر عليها في بوغازكوي في تركيا.

(ح) في تقدير المحرر أنّ ما ساهم في قيام دويلات العبرانيين والفينيقيين والآراميين لم يكن التوازن بين المصريين والآشوريين وإنما خلو المنطقة من نفوذ أي قوة كبرى، ذلك لأن هجمات من عرفوا «بشعوب البحر» كانت قد أزالت دولة الحيثيين سياسياً، وهزت مصر التي كان قصارى جهدها صد هجومهم في عهد رمسيس الثالث، ومنعها من إزالة دولة الآشوريين والتي كانت صغيرة وقتئذٍ بعدها عن طريقهم. ففي هذا الجو الملائم لها قامت الدويلات المذكورة.

وأفلت موسى عليه السلام ومن معه في ذلك الزمن بالذات من قبضة فرعون مصر، وبدأ احتلالهم لأرض فلسطين حيث أسس أتباعه من العبرانيين بعد دخولهم أرض كنعان مملكة لهم قبل عام ١٠٠٠ ق . م . بمدة يسيرة. فصارت هذه المملكة، في عهد داؤد (١٠١٠ ـ ٩٧٤ ق . م .) وابنه سليمان (٩٧٤ ـ ٩٤٧ ق . م .) عليهما السلام، تضبط مسالك التجارة عبر الحجاز والبحر الأحمر من الشمال. وخلال القرن العاشر قبل الميلاد ازدهرت في جنوب الجزيرة العربية مملكة ربما حاكت المملكة الاسرائيلية في أهميتها وضبطت مسالك التجارة عبر الحجاز والبحر الأحمر من الجنوب. وقد عرف الاسرائيليون هذه المملكة باسم «سبأ». وربما كان لسبأ هذه محطات تجارية تابعة لها على طول الخط التجاري الحجازي، وحتى مشارف الشام، وقام بين المملكتين، الاسرائيلية في الشمال والسبئية في الجنوب، تفاهم تجاري تكرس على ما يظهر عن طريق زيارة قامت بها «ملكة سبأ» للملك سليمان في فلسطين. ويرد ذكر هذه الزيارة في «الاصحاح العاشر» من **سفر الملوك الأول***(ط).

ولعل التفاهم التجاري بين مملكة بني اسرائيل في عهد سليمان عليه السلام وبين مملكة سبأ كان موجهاً الى حد ما ضد المصالح في حوض البحر الأحمر التي كانت لصور*(ي) ولغيرها من مدن الساحل «الفينيقي». وربما شدّد العبرانيون آنذاك على انتمائهم الى مجموعة «بني عابر» والى الأسرة «الإبراهيمية» من ضمن هذه المجموعة، للتقرب من الشعوب التي كانوا يتعاملون معها تجارياً في الحجاز وبلاد سبأ. ومن هذه الشعوب ما كان ينتسب الى إبراهيم، من ابنه اسماعيل، ومنها ما كان ينتسب الى يقطان بن عابر. والجدّ ـ وهو عابر المتحدّر من سام بن نوح ـ واحد، حسب الافتراض. أما الكنعانيون، ومنهم الشعب «الفينيقي» المنافس لبني اسرائيل في تجارة البحر الأحمر، فأبعدهم النّسابة العبرانيون عن الدوحة الساميّة وألحقوهم مع أوليائهم المصريين ببني حام بن نوح ـ شقيق سام ـ الذى حلّت اللعنة به وبنسله الى الأبد لأنه تجرأ على النظر الى صورة أبيه (كما يقول **سفر التكوين**).

وفي أواخر هذه الحقبة الرابعة من «الجاهلية المتقدمة»، نشط ملوك آشور في كسر شوكة القبائل العربية في بادية الشام والمناطق الشمالية في الجزيرة العربية، تمهيداً للقضاء على استقلال الممالك القائمة على طول الخط التجاري بين مملكتي بني اسرائيل وسبأ. وربما كان بعامل من التدخل الآشوري المتزايد في شؤون الشام قبل ذلك أن انقسمت المملكة العبرانية في فلسطين بعد وفاة سليمان عليه السلام عام ٩٤٧ ق . م . ، الى مملكة «اسرائيل» في الشمال ومملكة «اليهودية» في الجنوب. وفي غضون القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد قام أربعة من ملوك آشور ـ وهم تغلت بلسّر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق . م .) وسرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق . م .) وسنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق . م .) واسرحدُّون (٦٨١ ـ ٦٦٩ ق . م .) ـ بمحاربة قبائل الـ عربو (وهم العرب) في البادية. وقد نجح

---

* **المحــرر**

(ط) وفي القرآن الكريم كذلك (**النّمل**: ٢٣ ـ ٤٤)، لكنها كانت أكثر من زيارة للمعاني التي تحملها القصة في القرآن الكريم.

(ي) يخشى أن يكون في هذا تفخيمًا للعلاقة بين هاتين المملكتين، خاصة وأن كل ما نعرفه عن الصلة بينهما هو ما جاء موجزاً في القرآن الكريم عن ملكة سبأ واحضارها لبلاط سليمان عليه السلام، وما ورد في هذا الخصوص في **العهد القديم** والمصادر الحبشية المعتمدة عليه.

أسرحدّون في حروبه ضد الـ «**عربو**» الى حد جعل ملكهم يفر هارباً الى أحد ملوك النَّبط في الأطراف الغربية من البادية. وكان سرجون الثاني قبل ذلك قد أنزل الهزيمة بـ **ثمود** وغيرها من الكيانات النبطية في شمال الحجاز، وكذلك بمملكة اسرائيل التي قضى عليها في شمال فلسطين ولعل ذلك كان بسبب موالاة هذه الكيانات لمصر.

ونتيجة لازدياد تحكم آشور في مناطق العرب والنَّبط، أُرْغِمت سبأ أيضاً، على ما يبدو، على الدخول في فلك الدولة الآشورية. وربما كان في ذلك ما يفسّر النص الآشوري الذي يفيد بأن سرجون الثاني بالذات وصلته هدايا من ملك سبأ، منها الذهب والخيل والجمال وأصناف الطيب وغير ذلك.

ثم تأتي الحقبة الخامسة من «الجاهلية المتقدمة». وهذه الحقبة تبدأ مع دخول الآشوريين الى مصر في أواسط القرن السابع ق.م.، وتنتهي بظهور الدولة الفارسية الأولى المعروفة بـ «الأخمينية» واحتلالها للعراق والشام ومصر في أواسط القرن الثاني. وتتميّز هذه الحقبة باكتمال السطوة العراقية (الآشورية ثم البابلية المتأخرة) على الشام ونفوذها الى مختلف أنحاء الجزيرة العربية، في وقت تقلص فيه النفوذ المصري وانحسر عن هذه المناطق. وفي ذلك الوقت طرأ تغير ما على الوضع السياسي والاجتماعي في مملكة سبأ، فجاء هذا التغيّر في سبأ يعكس التحول الجذري في ميزان القوى على الصعيد الخارجي، وربما فقدت سبأ استقلالها آنذاك، ودخلت نهائياً في فلك دولة آشور، كما حصل بالنسبة الى الممالك النَّبَطية وغيرها في الشمال. والواقع أن أصحاب الاختصاص ما زالوا في حيرة من أمر مملكة سبأ في العصور السابقة للقرن السادس أو الخامس قبل الميلاد*[ك]، بسبب عدم توفر نقوش ترجع الى تلك العصور، وتعاظم شأن المملكة البابلية من جديد بعد أفول نجم المملكة الآشورية في أواخر القرن السابع قبل الميلاد. فحذا ملوك بابل حذو ملوك آشور في محاولاتهم للسيطرة على عرب البادية. حتى أن نبونيد، وهو آخر ملوك بابل (٥٥٥ - ٥٣٨ ق.م.)، نقل مقره فترة من الزمن من جنوب العراق الى تَيْماء، في شمال الحجاز، حيث استعان بفريقٍ من المرتزقة اليهود لضبط بلاد العرب و«النَّبط» الخاضعة لحكمه. وكان أحد أسلاف نبونيد هذا، وهو الملك بختنصّر الشهير (٦٠٥ - ٥٦١ ق.م.)، قد خرب مدينة أورشليم وأخضع مملكة اليهودية في جنوب فلسطين وسبى شعبها، بسبب استمرار ولاء هذه المملكة لمصر. ويبدو أن الآشوريين والبابليين لم يتمكنوا من فرض سيطرة مباشرة على المناطق الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، كما فعلوا في المناطق الشمالية منها وفي الشام، وذلك بسبب صعوبة الوصول عسكرياً الى تلك المناطق النائية. وربما عمدوا الى التدخل في شؤونها بطرق سياسية غير مباشرة، بحيث اجتذبوها الى فلكهم وأبعدوها عن فلك مصر.

وبسقوط بابل في يد ملوك الفرس عام **٥٣٩** ق.م. انتهى زمن «الجاهلية المتقدّمة» وبدأ زمن «الجاهلية الوسطى». وهنا يمكننا، كذلك بقدر من المجازفة، أن نميّز بين ثلاث حقبات: حقبة أولى تبدأ بالفتح الفارسي لبلاد المشرق في النصف الثاني من القرن السادس قبل المسيح وتنتهي بفتوحات الاسكندر المقدوني وقيام دولة البطالمة في مصر، ودولة السلوقية في الشام والعراق وبلاد فارس، في النصف الثاني من القرن الرابع؛ وحقبة ثانية

---

* **المحـــرر**

(ك) عل المقصود هو القرن الثامن قبل الميلاد.

تبدأ بفتوحات الاسكندر وتستمرّ حتّى دخول الرومان الى مصر والشام، وبدء انحطاط دولة «ملوك الطوائف» في بلاد فارس والعراق، في غضون القرن الأول قبل الميلاد؛ وحقبة ثالثة تبدأ من حيث انتهت الحقبة السابقة، وتستمرّ حتى قيام الدولة الفارسية الثانية ـ وهي دولة بني ساسان ـ في غضون القرن الثالث الميلادي. وقد يرى بعض المؤرخين في هذه «الجاهلية الوسطى» بحقباتها الثلاث استمراراً لـ «الجاهلية المتقدّمة» بحقباتها الخمس فيطلق عليها سويّة عبارة «الجاهلية الأولى» كما وردت في القرآن الكريم، وهذه العبارة طالما اعتمدها المؤرخون العرب في العصور الإسلامية للدلالة على العصور الغابرة من «الجاهلية» التي لم يعرفوا عنها الكثير، فأطلقوا على ما قام فيها من الكيانات المحلّية اسم «العرب البائدة».

وتتميز الحقبة الأولى من «الجاهلية الوسطى» ـ على حدّ التعبير الذى اعتمدناه في هذا البحث ـ بالسيطرة الفارسية على كامل بلاد المشرق دون منازع، وبحسن التدبير الذي فرضته الدولة الفارسية الأولى في تقسيمها وضبطها لمختلف المناطق التي وقعت تحت سيطرتها، وفي جملتها بلاد الشام ومصر، والمناطق الشرقية من الجزيرة العربية (على ما يعتقد) ومنها عُمان. ويبدو أن حسن تدبير الفرس لهذه الأقطار فرض قدراً كبيراً من الأمن على مسالك التجارة فيما بينها، فساعد ذلك على استمرار الازدهار في «العربية السعيدة» في الجنوب حيث ظهرت، إلى جانب مملكة سبأ، ممالك أخرى مثل قَتَبان وأُوسان وحضرموت ومَعين. ومن هذه الممالك ما كان قائمًا إلى حدّ ما، علىالأرجح، من قبل وربّما شجعت سياسة الفرس استمرار تعدّد الممالك في «العربية السعيدة» لتسهيل التحكم بأمرها من قبلهم بصورة غير مباشرة.

غير أن هذه الحقبة الأولى من «الجاهلية الوسطى» لم تدم طويلاً. وسرعان ما جاءت الحقبة الثانية، مع فتوحات الاسكندر المقدوني، فخضعت بلاد فارس (٣٣١ ق.م.)، مع غيرها من بلاد المشرق، له ولكبار قادته من بعده، ومنهم بطلميوس مؤسس دولة البطالمة في الاسكندية، وسلوقوس المدعو «القاهر» (نيكاتور) مؤسس دولة السلوقية في أنطاكية. وقد تميزت هذه الحقبة الثانية من «الجاهلية الوسطى» بالتنافس بين البطالمة والسلوقيين على ضبط دروب التجارة عبر الجزيرة العربية وبادية الشام، على الأخصّ ابتداء بالقرن الثاني قبل الميلاد، عندما انفصلت بلاد فارس والعراق عن الدولة السلوقية مع ظهور الدولة «الفرثية» هناك، وهي الدولة التي أسماها المؤرّخون العرب فيما بعد بدولة «ملوك الطوائف». وكان السلوقيون قبل ظهور دولة ملوك الطوائف، يسيطرون على مسالك التجارة في الخليج العربي عن طريق ساحل البحرين (بلاد الأحساء)، حيث ازدهرت في ذلك الوقت المدينة التي أطلق عليها الإغريق اسم (*Gerrha*) مقابل جزيرة تيلوس (Tylos) التي عرفت فيما بعد بأوال، ثم بالبحرين. فلمّا ظهرت دولة «ملوك الطوائف»، ضعفت سيطرة السلوقيين على هذه المسالك التجارية الشرقية، على ما يبدو، فأخذوا يركّزون اهتمامهم أكثر فأكثر على المسالك الغربية، حيث اصطدمت مصالحهم بمصالح البطالمة. وكان بسبب من توازن القوى في المناطق الجنوبية من الشام (ومنها فلسطين) بين السلوقيّين والبطالمة أن ظهر هناك، في ذلك الوقت، عدد من الدويلات المحلّية شبه المستقلّة، ومنها دولة النبط في سلع، من بلاد الشّراة، التي أطلق عليها الإغريق اسم Petra [٣].

وكان ملوك النبط في سلع يتحكّمون في ملتقى المسالك التجارية الكبرى في بلاد الشَّرَاة، فأخذ السلوقيّون يتقرّبون منهم ويتودّدون إليهم، مما جعل البطالمة ـ وهم المسيطرون على الساحلين المصري والحجازي للبحر الأحمر ـ يحوّلون تجارة الجزيرة العربية مباشرة الى مصر عبر البحر، وذلك عن طريق ميناء في شمال الحجاز أطلقوا عليه اسم **أمبيلون** (*Ampelone*)، فأنزلوا بذلك ضربة بمصالح السلوقيين وحلفائهم من ملوك نبط سَلع. ولم يطل الوقت حتى تمكّن نبط سلع، بمساندة السلوقيين، من الاستيلاء على **أمبيلون** بعد أن أوقعوا الهزيمة بالبطالمة هناك، وأقاموا مكانها، أو على مقربة منها، الميناء المعروف بـ **لُويْكي كومي** (*Leuke Kome*) أي «القرية البيضاء». غير أن استيلاء نبط سلع على هذا الجزء من الساحل الحجازي لم يقض على نفوذ البطالمة في حوض البحر الأحمر. ولربّما كان بعامل من التنافس المستمر بينهم وبين السلوقيين وأنصارهم من النبط، طوال هذه الحقبة، أن تضعضعت الأوضاع السياسية في «العربية السعيدة» ابتداء بالقرن الثاني قبل الميلاد، فقامت دولة حمير هناك، وأطاحت بدولة سبأ وحلّت مكانها عام ١١٥ ق. م. وانقلبت الأوضاع كذلك في بلاد حضرموت في غضون القرن التالي، فانهارت سيطرة الشعب المعروف بـ **حبشت** في تلك المنطقة، ولجأ فريق كبير منهم الى بلاد أكسوم، على الجانب الأفريقي من البحر الأحمر، التي صارت تعرف فيما بعد بـ «الحبشة» نسبة اليهم. ولعلّ الصراع في «العربية السعيدة» في ذلك الوقت بين سبأ وحمير، وبين **حبشت** والشعب الذي اطاح بسيطرتها على حضرموت آخر الامر، جاء ليعكس في حينه الصراع الخارجي المستمر على مسالك بلاد العرب، وذلك بشكل أو بآخر. وهناك من الدلائل ما يشير الى أن علاقة السلوقيين بشعوب بلاد العرب، من بدو ونبيط، كانت أوثق وأقوى من علاقة البطالمة بهذه الشعوب. ولعلّ استمرار نفوذ البطالمة في البحر الأحمر كان عن طريق علاقات طيّبة قامت بينهم وبين البلاد القائمة على الساحل الإفريقي من هذا البحر، ومنها مملكة أكسوم. وقد نستخلص من ذلك، افتراضاً، بأن إطاحة حمير بمملكة سبأ، والإطاحة المماثلة بملك الحبشة في اليمن، ما كانت إلا النتيجة الحتمية لهزيمة البطالمة في شمال الحجاز على يد نبط سلع المدعومين من السلوقيين، وأن ذلك كان، بالتالي، في مصلحة السلوقيين. ومما يؤيّد هذا الافتراض جلاء الحبشة بعد زوال ملكهم الى بلاد أكسوم، والعداء التقليدي الذى كان قائماً ـ على ما يظهر ـ بين ملوك أكسوم وملوك حمير.

وفي أواسط القرن الأول قبل الميلاد استولى الرومان [٤] على كامل بلاد المشرق، فيما عدا بلاد «ملوك الطوائف» في العراق وبلاد فارس ودخلت الشام والعراق بالتالي في حوزتهم. وهكذا بدأت الحقبة الثالثة من تاريخ «الجاهلية الوسطى» في بلاد العرب. وقد تميزت هذه الحقبة بدخول كامل بلاد نبط الشام وشمال الحجاز، وكامل حوض البحر الأحمر، في ذلك النفوذ الروماني، كما تميّزت أيضا بانحلال وتفكّك دولة «ملوك الطوائف» في بلاد فارس والعراق بعد عام ٧٠ ق. م. ولربّما كان بسبب انحطاط شأن هذه الدولة، وانحلال سطوتها على المناطق الشرقية من الجزيرة العربية وسواد الفرات، أن انهارت الأوضاع الحضرية القائمة، هناك، فـ «استعرب» «نبيط» ساحل البحرين [٥]، وبدأ نزوح قبائل الأزد، وهم آنذاك أعراب بلاد حمير وجوارها، من مواطنهم الغربية شرقاً الى حضرموت، ثم إلى عمان حيث «استنبطوا» (أى تحضّروا)، على حدّ ما يروى في **لسان العرب** حول الموضوع. وتفيد المصادر التقليدية أن نزوح الأزد الى عمان كان ـ حسب التقدير ـ في القرن الاوّل بعد الميلاد. وكان بسبب من ضعف دولة ملوك الطوائف، وانقسامها بالتالي الى دويلات، أن تمكّن عرب الأطراف الشرقية من الجزيرة من التوطّن كذلك على الجانب الفارسي من الخليج العربي، حيث اختلطوا مع الزمن بالشعوب المحلّية المستقرّة هناك من قبل. ومن

الأزد (إذا صدقت كتب الأخبار) من حلّ في الاطراف الغربية من العراق في أواخر عهد ملوك الطوائف، حيث قامت على الأثر مملكة عرب الحيرة.

وقام الرومان، بعد أن تّمت لهم السيطرة على الشام ومصر، بمحاولة عسكرية للاستيلاء على بلاد حمير، وذلك بقيادة حاكم مصر المدعو إيليوس غالّوس (Aelius Gallus) عام ٢٤ ق.م. فأخفقت المحاولة، وعاد الرومان بعد ذلك يوكلون حماية مسالك البادية العربية والشامية الى ملوك سلع، وغيرهم من ملوك النَّبط، كما كان يفعل السلوقيّون من قبلهم. واستمر الرومان ينهجون هذه السياسة حتى عام ١٠٦م، عندما قضى الامبراطور تراجان على مملكة النبط في سلع وفرض الحكم الروماني المباشر على المناطق الشامية منها. ولم يطل الوقت بعد ذلك حتى بدأت بوادر الانحلال تظهر في الدولة الرومانية، فأفلت الزمام في البادية، وأخذت قبائل الأعراب فيها تُغير على مسالك التجارة وعلى حواضر الحجاز وما يليها شمالاً من بلاد الشرّاة، مما اضطر الرومان الى التعامل مع هذه القبائل بشكل مباشر اتقاء لشرّها. وهكذا بدأ «استعراب» نَبَط الحجاز (إذا صحّ هذا التعبير).

وهناك من يرى في المحاولات الرومانية اليائسة للسيطرة المباشرة على بلاد حمير ثم على بلاد النبط - أي على كامل الأطراف الغربية من الجزيرة العربية - السبب الأساسي الذي أدى مع الزمن الى امتداد سطوة الأعراب الى جميع هذه المناطق. ولعلّ قبائل الأعراب بدأت تتغلّب على أطراف بلاد حمير عندما بدأت سطوة ملوكها تنحلّ بعد أن ضعفت تجارتها بسبب التعدّيات القبلية المتزايدة على الدروب الحجازية الى الشمال، ممّا جعل التجارة تتحوّل من هناك الى الجانب الإفريقي من البحر الأحمر. ولم يمض زمن طويل - على ما يبدو - حتى استعربت حمير الى حدّ ما على الأقلّ، كما استعرب نبط الحجاز من قبلها.

ويمكننا، بالتالي، أن نعتبر هذه الحقبة الثالثة من «الجاهلية الوسطى» فترة انتقال الى ما اعتمدنا تسميته بـ «الجاهلية المتأخّرة» - وهي الجاهلية بالمعنى الصحيح للكلمة، لأنها تمثّل الزمن الذي اكتمل فيه استعراب الجزيرة العربية وامتداداتها العراقية والشامية على حساب النبط في أطراف العراق و«العربية السعيدة». وكلمة «جاهلية»، بمعناها القديم، تفيد معنى العصبيات القبلية المتخاصمة، وهذا ما تميّزت به «الجاهلية المتأخرة» - على وجه العموم - في كامل البلاد العربية.

وكانت بداية زمن «الجاهلية المتأخرة» في مطلع القرن الميلادي الثالث، وعلى الأخصّ بعد هزيمة أردشير الساساني لآخر «ملوك الطوائف» في هرمز عام ٢٢٦م وتأسيسه للدولة الفارسية الثانية التي عرفت بـ «الدولة الساسانية»، وقاعدتها «المدائن» (Ctesiphon) على نهر دجلة، في العراق. واصطدم ملوك ساسان منذ البدء بالدولة الرومانية، فدامت الدورة الأولى من الحروب بينهما من عام ٢٢٧م الى عام ٢٩٦م، والدورة الثانية من عام ٣٣٧ الى قرابة عام ٣٩٠م، والدورة الثالثة من عام ٥٢٧م الى عام ٥٣٢م، والدورة الرابعة من عام ٥٤٠م الى عام ٥٦٢م، والدورة الخامسة من عام ٥٧٢م الى عام ٥٩١م، والدورة السادسة والاخيرة من عام ٦٠٣م الى عام ٦٢٨م - هذا فيما عدا الحروب القصيرة الأمد بين الفريقين، والتنافس المستمرّ بينهما على النفوذ في بلاد أرمينية والشام والجزيرة العربية. والواضح أن توازن القوى بين هاتين الدولتين الكبريين - الساسانية والرومانية - كان العامل

الخارجي الأساسي الذي فرض النمط الذي تميّزت به أوضاع بلاد المشرق في ذلك الزمن، بما فيها بلاد العرب.

وتسهيلاً لفهم «الجاهلية المتأخّرة» في الجزيرة العربية وامتداداتها الشمالية على ضوء توازن القوى في وقتها بين الفرس الساسانيين من جهة، والرومان ومن بعدهم الروم (أي ملوك القسطنطينية، وهم «البيزنطيون») من جهة أخرى، يمكننا أن نستعرض تاريخ هذه الجاهلية في أربع حقبات: الأولى تبدأ بظهور الدولة الساسانية عام ٢٢٦م وتنتهي مع نهاية الدورة الثانية من الحروب بين الفرس والروم حوالي عام ٣٩٠م؛ والثانية تبدأ من ذلك العام وتنتهي بجلوس يوستينيانوس*(ل) الأول المعروف بالكبير (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) على عرش القسطنطينية، يليه جلوس كسرى الأول المعروف بـ «أنوشروان» على العرش الساساني (٥٣١ ـ ٥٧٩)؛ والثالثة تبدأ مع بداية عهد يوستينيانوس الكبير وتنتهي مع موت كسرى أنوشروان؛ والرابعة تبدأ بموت كسرى أنوشروان وتنتهي بظهور الإسلام في بلاد العرب.

ففي الحقبة الأولى، قام النزاع بين الفرس والرومان حول المناطق الواقعة بينهما، فاستقطب الفرس عرب الحيرة الى جانبهم، وعمد الرومان الى تقوية مكانة نبط تدمر في بادية الشام ودعم ملوكهم ضد عرب الحيرة. وكان بمساعدة من أذينة، ملك نبط تدمر، أن رُدّ الفرس الساسانيّون على أعقابهم عندما حاولوا اجتياح بلاد الشام للمرّة الأولى. وما أن مات أذينة، وخلفته في ملك تدمر زوجته الزّبّاء، حتى بدأت هذه الملكة تستغلّ توازن القوى بين الفرس والرومان لتستقلّ عن الدولة الرومانية وتوسّع رقعة ملكها في الشام. فاستدعى عصيانها وطموحها في التوسّع ردّة فعل عنيفة من الرومان انتهت بالقضاء التام على مملكة تدمر، عام ٢٧٣م. وكانت هذه المملكة، بعد مملكة نبط سلع، آخر ممالك النبط الضابطة للبادية الشامية وما يليها الى الجنوب من بلاد نجد وجوارها، فأفلت بعد سقوطها الزمام للأعراب من جديد في هذه المناطق، وبدأت قبائل كثيرة منهم تنزح باتجاه الفرات شرقاً، والأطراف الشامية غرباً، وتستقرّ فيها. وأخذ الفرس من جهة، والرومان (ومن بعدهم الروم) من جهة أخرى، يتنافسون على استقطاب القبائل العربية حولهم، ويجهدون في ضبط المناطق العربية المتاخمة لهم.

وفي غضون هذه الحقبة الأولى من «الجاهلية المتأخّرة» تعاظم شأن ملوك الحيرة ـ خصوصاً بعد زوال مملكة تدمر ـ والتفّت حولهم قبائل عديدة من عرب بادية الجزيرة الفراتية، وبادية السماوة، وبلاد الأحساء وجوارها من نجد، وذلك بتشجيع ودعم من الفرس. ولعلّ استقرار العرب الغساسنة في جنوب الشام كان بدؤه في هذا الوقت بالذات. والمصطلح عليه أن الغساسنة من عرب الأزد، وأنهم يجتمعون في الأصل مع عرب اليمن، ومنهم أزد حضرموت وعمان وأزد الحيرة. ويبدو أن قبائل الأزد كانت تميل الى «الاستنباط» حيثما حلّت.

والجدير بالذكر أن الملك أردشير الأول، مؤسّس الدولة الساسانية، استقدم مزيداً من قبائل الأزد الى عمان ـ إذا صدقت الأخبار التي ترويها المصادر المتأخّرة. ولعلّ بدء نزوح القبائل «العدنانية» من المناطق الشمالية الى عمان

---

* المحـــرر

(ل) يكتب الاسم جسطنيانوس في مؤلفات المؤرخين المسلمين الأقدمين.

في غضون القرن الرابع كان مردّه الى استفحال أمر الأعراب في هذه المناطق بعد سقوط ملكة تدمر، والى انحسار سطوة الفرس على عمان وبلاد الأحساء في ذلك الوقت بسبب انشغالهم في الحروب على الجبهة الفراتية. وتفيد الأخبار شبه الأسطورية أن نزوح عرب عدنان الى المناطق العمانية استمرّ خلال القرن الخامس، أي خلال الحقبة الثانية من «الجاهلية المتأخّرة».

ويبدو أن الدين المجوسي انتشر بين أهل عمان بتأثير من الفرس إما في عهد ملوك الطوائف، أو في عهد الدولة الساسانية، كما انتشر أيضا في الوقت ذاته في مناطق شرقية أخرى من بلاد العرب، ومنها منطقة الحيرة. ثمّ بدأت النصرانية تنتشر في مختلف أرجاء بلاد العرب ربّما ابتداء بالقرن الرابع، وذلك على الأخصّ بعد تحوّل الدولة الرومانية ومملكة أكسوم*(م) ـ أي الحبشة ـ الى الدين المسيحي. وكانت اليهودية متركّزة في عدّة مناطق عربية من قبل، وربّما منذ زمن بعيد، بسبب العلاقات التجارية العريقة في القدم بين «العربية السعيدة» والحجاز من جهة، ويهود فلسطين وجوارها من جهة أخرى. وأخذت دولة الروم في القسطنطينية، بعد ذلك، تدعم النصرانية في بلاد العرب، ممّا جعل الفرس يدعمون اليهود فيها في المقابل. وما أن كفّر الروم بدعة النسطورية في القرن الخامس (٤٣١م)، وأخذوا يضطهدون أتباعها في بلادهم، حتّى فرّ المسيحيّون النساطرة لاجئين الى العراق وبلاد فارس، في حمى الدولة الساسانية. وفي غضون القرن التالي تحوّل فريق من عرب العراق ـ ومنهم ملوك الحيرة ـ من الدين المجوسي الى النصرانية على مذهب النساطرة.

وهكذا نأتي الى الحقبة الثانية من «الجاهلية المتأخرة»، التي تبدأ في أواخر القرن الميلادي الرابع ـ كما ذكرنا ـ وتنتهي في أوائل القرن السادس. وقد تميّزت هذه الحقبة بتغلغل نفوذ الروم من الشام الى نجد، أي الى وسط الجزيرة العربية، وباستمرار تغلغل نفوذ الفرس بين القبائل العربية في الأقطار الشرقية. وكان عرب كندة، وهم من القحطانية (أي من قبائل «العربية السعيدة»)، قد خرجوا من بلاد حضرموت في غضون الحقبة السابقة واستقرّوا في نجد ليؤسّسوا هناك مملكة لهم في أرض عدنان، فتعاظم أمر مملكتهم حتى بلغت أوجها في القرن الخامس، وذلك نتيجة للدعم الذي لقيه ملوكها من الروم. ولربّما كان على أثر توسّع مملكة كندة في نجد في القرنين الرابع والخامس على حساب العرب «العدنانية» أن خرجت قبائل من عرب عدنان من نجد لتلجأ إلى عمان في ذلك الوقت، كما مرّ في الكلام عن الحقبة السابقة. وفي أوائل القرن السادس (أي في أواخر الحقبة الثانية من «الجاهلية المتأخرة») اصطدم ملوك كندة المدعومون من الروم بملوك الحيرة المدعومين من الفرس. واستمرّت كندة تسيطر بشكل أو بآخر على المناطق الوسطى من الجزيرة العربية حتى تغلّبت عليها الفتن في أواخر القرن الميلادي السادس وأوائل القرن السابع، فتداعى ملكها على الأثر.

وفي هذه الحقبة الثانية بالذات من «الجاهلية المتأخرة» قامت الحروب القبلية الكبرى في البادية العربية

*** المحــرر**

(م) ابتداء من هذا الموضع اضطرد المؤلف في كتابة الاسم «يكسوم»، وهو صحيح، ولكن المحرر كتبه أكسوم خشية اللبس.

وأطرافها. ولربّما كان مردّ هذه الحروب الى استغلال النزاعات القبلية بين الأعراب من قبل ملوك الحيرة والفرس من جهة، وملوك كندة والروم من جهة أخرى، وذلك تمهيداً لضبط البادية من قبل الطرف الواحد أو الآخر. وهكذا قامت حرب البَسُوس في أواخر القرن الخامس، تليها حرب داحس والغبراء في القرن السادس، لتعكس ـ على ما أظن ـ واقع النزاع الخارجي المستمر بين الفرس والروم ـ أي بين القوّتين الكبريين في ذلك الزمن ـ للتحكّم في أمر بلاد العرب.

وفي هذه الحقبة أيضاً ـ وهي الحقبة التي ازدهرت فيها أولى ممالك العرب الأقحاح في الحيرة وكندة ـ تغلّب عرب قريش على مكّة، وهي في ذلك الوقت محطّ للقوافل بين «العربية السعيدة» والشام، فأحيوا البلدة وجعلوا منها كبرى الحواضر التجارية في الحجاز، كما جعلوا من بيتها الشهير العتيق ـ وهو الكعبة ـ مركزاً لما تبقّى من العبادات الوثنية بين قبائل الأعراب في الجزيرة. وفي ظلّ مكّة والحيرة وكندة تعاظم شأن «لغة الأعراب» حتى تغلّبت على مختلف لهجات النبط في الشمال، وسكّان «العربية السعيدة» في الجنوب وظهرت للمرّة الأولى لغة أدبية مشتركة بين جميع الشعوب العربية أو معظمها على الأقلّ، تلقى بها الخطب حيثما قضت الحاجة، وتنظم بها غرر القصائد. وقد استمرّ نمو اللغة العربية الفصحى وانتشارها في بلاد العرب في الحقبتين التاليتين ـ أي الثالثة والرابعة ـ من «الجاهلية المتأخّرة» حتى عمّ اعتمادها كلغة رسمية مع ظهور الإسلام.

وفي الحقبة الثالثة من «الجاهلية المتأخّرة» بلغ التنافس بين الروم والفرس على ضبط البلاد العربية ذروته في عهد يوستينيانوس الكبير ومعاصره كسرى أنوشروان. وكان الروم قد درجوا منذ الحقبة السابقة على دعم ملوك أكسوم. ضد ملوك حمير، ليحكموا الطوق على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، فتحوّل ملوك حمير الى اليهودية، وأخذوا يمعنون في اضطهاد النصارى في «العربية السعيدة» نكاية بأوليائهم من الأحباش والروم. وانتهى الأمر باحتلال جيوش أكسوم للبلاد اليمنية، حيث أطاحوا بملك حمير عام ٥٢٥م، كما هو معروف، وذلك بموافقة يوستينيانوس الكبير الذي تبوأ عرش القسطنطينية مع عمّه الملك يوستين الاوّل عام ٥١٨م، ثمّ استقلّ في الملك بعد وفاة عمّه هذا عام ٥٢٧م. وكان ملوك أكسوم قد قاموا بمحاولة سابقة للإطاحة بملك حمير في غضون القرن الرابع. وجعل نوّاب ملوك «أكسوم» من صنعاء، وهي قاعدة المتأخّرين من ملوك حمير، مركزاً أساسياً للنصرانية في الجزيرة العربية بعد عام ٥٢٥م. وقاموا عام ٥٧٠م (وهو «عام الفيل») بمحاولة عسكرية لمدّ سيطرتهم على الحجاز واحتلال مكّة، وهي الحاضرة التجارية الكبرى ومركز العبادات الوثنية هناك(*ن)، فباءت محاولتهم هذه بالإخفاق الذريع. وانتصر كسرى أنوشروان لملوك حمير، فأرسل حملة عسكرية عن طريق البحر الى عدن، وقضى على حكم الأحباش في «العربية السعيدة» عام ٥٧٥م وذلك بعد وفاة يوستينيانوس ملك الروم بعشر سنوات. وتمكّن سيف بن ذي يزن ـ وهو آخر ملوك حمير ـ من استعادة ملك أجداده هناك بفضل هذه المساعدة الفارسية.

---

* المحــرر

(ن) ذلك بعد أن كان معقل التوحيد. ومما دفع أبرهة لينوي هدم البيت العتيق هو غيرته منه على كنيسته التي بناها منافسة للبيت العتيق وأهداف سياسية ربما كان ينوي تحقيقها.

وكانت أحوال مملكة كندة في نجد قد بدأت تتضعضع في تلك الأثناء، ربّما بسبب تعاظم النفوذ الفارسي بين القبائل العربية هناك في عهد أنو شروان. وكان ملوك كندة المتأخرين، على الأرجح، من النصارى. فما أن بدأ ملكهم يتزعزع حتى ضعفت النصرانية في المناطق الشمالية من الجزيرة. فأدّى ضعفها هذا، على ما يبدو، الى عودة انتشار العبادات الوثنية بين قبائل الأعراب، والى بروز شأن اليهود في العديد من الحواضر، ولا سيّما في الحجاز وجواره. فأخذ الروم، في عهد يوستينيانوس الكبير، يقوّون شأن ملوك غسّان النصارى في بلاد الشام، على الرغم من اعتناق هؤلاء الملوك وأتباعهم من العرب والنبط لبدعة «اليعاقبة» المرفوضة مبدئياً من القسطنطينية. ولعلّ يوستينيانوس الكبير كفّ عن اضطهاد اليعاقبة في الشام، وسمح لهم باقامة كنيسة مستقلّة هناك، بقصد ضمان صداقة ملوك غسّان، وهم آخر من والى الروم وناصرهم من العرب في تلك الحقبة.

وابتدأت الحقبة الرابعة والأخيرة من «الجاهلية المتأخّرة» عندما بدأت سطوة الروم في بلاد المشرق تنحلّ بعد وفاة يوستينيانوس الكبير. فكان أوّل مؤشّر لهذا الانحلال في بلاد العرب فشل الأحباش في أخذ مكّة عام ٥٧٠م، ودخول الفرس الى العربية السعيدة وبعثهم لملك حمير هناك عام ٥٧٥م، في أواخر عهد أنو شروان، ولم يطل الوقت حتى عاد الفرس الى تملّك بلاد عمان في عهد الملك كسرى الثاني (٥٩٠ ـ ٦٢٨م). وتحوّلت مملكة حمير في الوقت ذاته الى مقاطعة تابعة للدولة الساسانية. وهكذا أحكم الطوق الفارسي على الجزيرة العربية، من ساحل الأحساء في الشرق الى مدخل البحر الأحمر في الغرب. ويبدو أن الروم قاموا بمحاولة لاستقطاب ملوك الحيرة، وهم حلفاء الفرس منذ البدء، الى جانبهم. ولعلّ في ذلك ما يفسّر قضاء كسرى الثاني على ملك الحيرة في ذلك الوقت. وكان ذلك عقب الدورة الخامسة من الحروب بين الفرس والروم (٥٧٢ ـ ٥٩٠م).

ثمّ قامت الدورة السادسة والأخيرة من الحروب بين ملوك ساسان وأباطرة القسطنطينية (٦١٠ ـ ٦٢٨م)، فأدّى انشغال الفرس بهذه الحروب الى انحلال سيطرتهم على الأقطار العربية التابعة لهم. وانتشرت الفوضى في معظم المناطق العربية على الأثر، ويستخلص من القرآن الكريم، في سورة الروم، أن هذه الحروب وما سبّبته من الفوضى في بلاد العرب، جعلت أهالي مكة يقعون في حيرة، فمنهم من توقّع النصر للفرس، ومنهم من توقّع النصر للروم*(س). وكانت النتيجة أن كلّاً من الدولتين خرجت من الحرب منهوكة القوى، على الرغم من تغلّب الروم آخر الأمر على الفرس. ولم يعد بمستطاع أيّ منهما الاستمرار في التحكّم في بلاد العرب. وكان الإسلام قد ظهر في الجزيرة العربية في تلك الأثناء، وتوحّد العرب للمرّة الأولى تحت راية الأمّة الاسلامية، وقاعدتها في المدينة. وانتهى بذلك الطور «الجاهلي» من تاريخ العرب.

وهكذا تكتمل الصورة التاريخية لجاهلية العرب، ضمن إطارها الخارجي، حسب الأسس التي اعتمدناها في هذا البحث. وهي صورة مبنيّة في معظم أجزائها على الافتراض أكثر منها على اليقين. وقد نصل يوماً ما الى معلومات كافية لتثبيت هذه الصورة، أو لتحويرها الى حدّ ما، أو لنقضها جزئياً أو كلّياً. وهذا أمر لا يمكن البتّ فيه، حسب اعتقادي، في الوقت الحاضر.

---

* **المحـــرر**

(س) كان المسلمون مع الروم أهل الكتاب.

الهــوامش

(١) هو السفر الاول من التوراة، الموضوع، على الأرجح، قرابة عام ... ١ق.م.
(٢) **سفر التكوين** : «الاصحاح» ٢٥ ، عدد ١٣ .
(٣) هي ترجمة يونانية للاسم النَبطي «سَلَع» بمعنى الشقوق الصخرية.
(٤) عرفهم العرب باسم «الرُوم»، وهو اسم يطلقه المؤرخون اليوم على الدولة الرومانية المتأخرة، أي البيزنطية.
(٥) أنظر **لسان العرب** (مادة «نبط»).

بعض العوامل الحضارية التي وصلت مصر
من البلاد الشرقية في عصر فجر التاريخ

شفيق عــلام

تتميز مصر بموقع جغرافي فريد عند ملتقى القارات. هذا الموقع أتاح لها إقامة علاقات وثيقة بالحضارات الإنسانية المجاورة سواء كانت في الشرق أو الغرب أو في الجنوب أو الشمال. ونحن نعرف الكثير عن تلك العلاقات خلال العصور التاريخية، تلك العلاقات كانت ولا شك قائمة كذلك منذ عصر فجر التاريخ ـ ذلك العصر العتيق الذي تمتد فيه جذور الحضارة المصرية القديمة.

ومنـطقـة الشرق الأوسط تتميز عموماً بتقدم حضارتها وتفوقها على حضارات العالم الأخرى منذ العصور السحيقة. ويبدو أن الإنسان قد عرف هنا (وبخاصة على أرض فلسطين) حياة الاستقرار، وذلك منذ بداية العصر الحجري الحديث. واستطاع أن يشيّد المباني من الحجر، وتعلّم الزراعة، واستأنس الحيوان، وصنع ما يحتاجه من أدوات (سواء من الخشب أو الفخار أو الجلد: خلاف الأحجار)، وبدأ كذلك يستخدم بعض المعادن[1]. وبمرور الـدهـور أصبح الشرق الأوسط يحوي في محيطه حضارات شتى. وأخذت تلك الحضارات تشع أضواءها إبّان العصور التاريخية. ولا يخفى على المرء أن تلك الحضارات إنما تأصلت جذورها في عصر فجر التاريخ.

وفي نطاق موضوع هذه الندوة يهدف هذا البحث إلى توجيه الاهتمام الى بعض العوامل الحضارية التي وصلت مصر من جيرانها الشرقيين. وسنقتصر في الحديث على العوامل التي ظهرت خلال العصر الحجري الحديث ـ ذلك العصر الذي أعقبه مباشرة ظهور الحضارات الإنسانية الرفيعة في منطقة الشرق الأوسط.

أول ما يُبْدأ به هو إلقاء نظرة الى سلالات مصر وأجناسها آنذاك. بالرغم من أنه عثر على بعض الأدوات التي كان يستعملها الإنسان في العصر الحجري القديم الأسفل إلا أن أقدم العظام البشرية التي وجدت ترجع على الأرجح الى العصر الحجري القديم الأعلى. وتشير هذه البقايا البشرية إلى وجود قرابة مع أجناس شمال غربي إفريقيا حينذاك[2]. أمّا عن الهياكل العظمية التي وصلت إلينا من العصر الحجري الحديث، فقد توصل العلماء إلى أنه لم يكن في مصر إبّان ذلك العصر جنس بشري نقي بمعنى الكلمة. بل تدل الظواهر على أن المصريين آنذاك كانوا قد اتصلوا بأجناس وسلالات أخرى*[أ]. ويذهب المتخصصون الى تقسيم سكان مصر في ذلك العصر إلى جنس في الشمال يختلف عنه في الجنوب. مع أن كل جنس منهما لم يكن نقياً بدوره. وافترض البعض أن الجنس الشمالي (وهو طويل القامة نسبياً) حضر من القارة الآسيوية. هكذا كان الحال أيام الحضارات العتيقة في مِرمْدة بني سلامة والبَداري ودير تاسا.

---

* المحــرر:

(أ) أنظــر تعليق المحـرر في ذيل الهامش ٢.

وفي الحقبة التالية وصلت وفود من الأجناس الشرقية. ونستشف معلوماتنا عن ذلك من الرسوم التي خلّفها ساكنو المناطق الصحراوية على صخور الجبال، سواء كانت في شرقي وادي النيل أو في غربه. وهي رسوم يرجع تاريخها في الغالب إلى عصر ما قبل الأسرات. وأهم ما فيها مناظر لرجال ونساء وحيوانات وسفن (**اللوحة٢٥**). ويبدو منها أن بعض المناطق الصحراوية كان يقطنها أناس ينتمون الى أجناس وسلالات مختلفة. ومن بينها جماعة يحتمل أنها قدمت من الشرق واستقرت في الصحراء الشرقية. وتتميز تلك الجماعة بأن أهلها كانوا يزيّنون رؤوسهم بريش الطيور. ويفترض بعض العلماء أن تلك الجماعة كانت حلقة الوصل بين سكان مصر والشعوب الشرقية. وإذا حاولنا تأريخ تلك العلاقات على وجه التقريب، فإن تلك الحقبة الزمنية تقابل الحقبة الحضارية رقم ٣٠ في نظام التوقيت المتتابع الذى وضعه العلامة بيتري (Petrie). وهو تقسيم موضوعي أكثر منه زمني.

وخلال الحقبة الحضارية ٣٨ ـ ٤٠ (حسب نظام التتابع الزمني هذا) ظهرت في وادي النيل الحضارة المعروفة بحضارة نقادة الثانية. وهي حضارة ذات صناعات جديدة لم تكن معروفة قبلُ. ويقرن بعض العلماء تلك الحضارة بأفواج بشرية وفدت إلى مصر من البلاد الشرقية. وأيام تلك الحضارة كانت الصناعات المعهودة في الشمال ذات مستوى حضاري أرفع من ذلك الذي عرفه صعيد مصر؛ ولكن لم تلبث أن انتشرت الصناعات الشمالية كذلك في الصعيد. ويربط العلماء ذلك الانتشار الحضاري بوصول وفود متزايدة من الآسيويين إلى مصر آنذاك. وذهب العلامة زيته (Sethe) إلى حد افتراض أنّ أول وحدة سياسية في تاريخ مصر إنما تم تحقيقها خلال تلك الحقبة بفضل حضارتها الموحدة.

وعقب ذلك، وابتداء من الحقبة ٦٠ (حسب نظام التوقيت المتتابع آنف الذكر) حتى بداية العصر التاريخي أخذت الطرز الآسيوية تتكاثر وتتعدد في الصناعات المصرية. وهذا بدوره يوحي الى افتراض وصول آسيويين جدد حضروا الى الديار المصرية من الجهات والحضارات الشرقية.

وعلى كل حال لم تكن الهجرات الآسيوية شاملةً وكافيةً لكي تترك تأثيراً عميقاً وتغييراً جوهرياً في سكان مصر من الناحية البشرية، إذ أن أهل حضارة نقادة الثانية وعصر ما قبل الأسرات لم يختلفوا عموماً اختلافاً كبيراً عن أسلافهم فيما يبدو. هؤلاء وأولئك ينتمون إلى سلالات الجنس الحامي مع قرابة واضحة بالعناصر الليبية[٣]. ولكنهم شيبوا على مر الزمن بعناصر آسيوية يغلب عليها الدم السامي[٤].

ولا بد في الحديث عن أجناس المصريين القدماء وسلالاتهم من ذكر ظاهرة بعض الجماجم البشرية التي عثر عليها في مصر وترجع في تاريخها إلى عصر ما قبل الأسرات. وهي جماجم تتميز بقصرها (*Brachykranie*). ومن ثم، فهي قريبة من جماجم السلالة المعروفة بجنس البحر الأبيض. ومثل تلك الجماجم عثر عليها أيضاً في مناطق الشرق الأدنى (منذ العصر الحجري الحديث حتى العصر البرنزي). وهنا يفترض بعض العلماء وجود اتصال عرقي بين أهل مصر والشعوب الآسيوية في عصر فجر التاريخ. ولما كان هذا الاتصال غير شامل، ولم يكن له تأثير بالغ على التكوين البشري في مصر، فيذكر البعض أن ذلك التشابه ربما كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بدخول الزراعة إلى ربوع وادي النيل (آتية من الحضارات الشرقية) واستقرار الإنسان في بيئته[٥].

أما اللغة المصرية القديمة فإننا على يقين من أنها ليست من أمهات اللغات المعروفة. لكنها ذات قرابة وثيقة باللغات التي كان جيران مصر يتكلمونها. سواء كانت لغات ساميّة أو حاميّة. لذا فإن العلماء ما زالوا على اختلاف في درج اللغة المصرية القديمة بين الألسن الساميّة أو الحاميّة. ونسبة لموضوع البحث فإنه لن يدخل في الاعتبار صلات قرابة اللغة المصرية باللغات الحاميّة، وإنما سيقتصر على صلات قرابتها باللغات الساميّة. وهي صلات أصبحت واضحةً لنا نتيجة للأبحاث اللغوية التي أجريت منذ القرن الماضي. فهناك ألفاظ عديدة في المصرية ذات أصل سامي واضح، وهناك ظواهر مشتركة بين اللغات الساميّة والمصرية واضحة أيضاً، ويذكر منها على سبيل المثال الجذر الثلاثي للأفعال والأسماء، والأفعال معتلة الآخر، والاقتصار على الحروف الساكنة في تكوين الألفاظ والمشتقات.

فمن ناحية علم الاصوات اللغوية (phonetics)، يبدو أن الحروف الساكنة (consonants) كانت أكثر أهمية من الحروف المتحركة (vowels). هذا بالإضافة إلى ظاهرة وجود أصوات حلقية (laryngeals و glottals)، تخرج من الحلق أو الحنجرة مثل حرفي العين والحاء). وهاتان الظاهرتان لا نجدهما في اللغات الساميّة والمصرية القديمة فحسب، بل وفي البربرية والكوشيّة أيضاً. وهناك ظاهرة أخرى تشترك فيها هذه اللغات: وهي أهمية جذر الكلمة وعدم تغيّره، سواء أكانت الكلمة فعلاً أو اسمًا أو إحدى مشتقاتها. وهذا كله يشير الى أصل مشترك لكل تلك اللغات على حد السواء.

ومن ناحية المفردات اللغوية فالرأي الراجح الآن هو أن هناك أكثر من ٣٠٠ لفظ مشترك بين اللغات الساميّة والمصرية القديمة. ولا نعني هنا الألفاظ المستعارة (مثل كلمة يمّ أو كلمة مركبة)، بل نقصد ألفاظاً أصلية ذات متشابهات في اللغات الساميّة (مثل «عين» أو كلمة «أذن»). وهناك بعض الألفاظ المتقاربة، والتي فيما يبدو اختفى استعمالها ببداية العصر التاريخي. فمثلاً الكلمة التي تعني «العين»، يبدو أنها كانت ***n*** ، ولكن حلّ محلها لفظ جديد هو ***ỉỉrt*** ، وهو قريب من ***t-ỉṯt*** في اللغة البربرية.*(ب). ومن هنا يفترض العلماء أن اللغة المصرية القديمة كانت تحوي في عصر فجر التاريخ مفردات ساميّة، ولكنها اختفت بمرور الزمن.

ولا يغيب عن بالنا أن هناك كلمات متقاربة في اللغتين المصرية القديمة والبربرية، وألفاظ متشابهة في اللغة المصرية القديمة واللهجات الكوشية (عند البجة). وهناك مفردات مشتركة في اللغتين المصرية والبربرية من جهة واللغات الساميّة من جهة أخرى (مثل ***mwt*** / emmet ؛ «مَوْتٌ»)، وفي المصرية القديمة والكوشية من جانب واللغات الساميّة من جانب آخر (مثل ***ḏb'*** / ***jiba*** ؛ «إصْبَعٌ»). ومن هذا يتضح بصفة عامة أن هناك صلات قرابة بين اللغـة المصرية ولغات الشعوب المحيطة بمصر. وهي صلات ترجع ولا شك الى عوامل حضارية تداخلت وتفاعلت مع بعضها لدى الشعوب منذ أقدم العصور.

---

* **المحــرر:**

(ب) يعتذر المحرر للكاتب لتغييره نظام كتابة الكلمات المصرية في هذا الموضع وغيره في البحث من الطريقة الألمانية التي اتبعها المؤلف إلى الطريقة الانجليزية خشية الالتباس، وبخاصة في حالة (j) الألمانية، والتي ينطقها من يعرف الانجليزية، ولا يعرف الألمانية والكلمة المصرية المقصودة، ج بدلاً من ي.

وليوجه النظر الآن إلى فقه اللغة وهو علم قواعد تكوين الألفاظ (morphology) . فإذا نظرنا إلى الأسماء وكيفية بنائها، فإننا نجد ظاهرة تاء التأنيث في آخر الكلمة في كل تلك اللغات التي سبق ذكرها. وكذلك الحال فيما يخص واو الجماعة. ونلحظ كذلك تشابه الضمائر المتصلة: مثلاً حرف الكاف للتعبير عن المخاطب المفرد كما في **mwt.k** (موت.ك) المصرية، وهي بمعنى «أمّك» في العربية، **ymmat.k** في البربرية. وكذلك الحال بالنسبة لضمير المتكلم الجمع، وهو **n** (نون) في المصرية، «نا» في العربية، **nag** في البربرية، **un** في لغة البجة. كما أن ضمير المتكلم المفرد المنفصل متشابه في هذه اللغات. فهو **ink** بالمصرية القديمة، **ⲁⲛⲟⲕ** بالقبطية، «أنا» بالعربية، **anâku** بالأكادية، **anôkj** بالعبرية، **ynuk** بالبربرية. وللتعبير عن المتكلم المفرد تستعمل هذه اللغات حرف الياء (فيما عدا لغة البجة).

وأهم من ذلك كله تشابه هذه اللغات فيما يخص جذر الفعل. ففي حالة الفعل الثلاثي فإن حروفه لا تتغير مهما اختلف المعنى (على سبيل المثال: «كتب» في العربية، **sdm** في المصرية)*(جـ). وبجانب ذلك نجد ظواهر أخرى متشابهة في تكوين الأفعال. فهناك أفعال تعني الشِّدَّة (intensive) بتضعيف ثاني حروفها (مثل: قَتَلَ/ قَتَّلَ، في العربية، **ⲙⲟⲩⲟⲩⲧ/mwt** في المصرية/ القبطية*(د). كما أن جذر الفعل في كل هذه يمكن تعديل معناه بحروف الزيادة، كتكوين فعل متعدّ تماماً من فعل لازم مثلاً. مثال ذلك تكوين **s'nḫ** من **'nḫ** في المصرية*(هـ)، **مات وأمات** في العربية، **يعل و هيعل** في العبرية **šūrukum/arkum** في الأكادية، **snâfir/nefir** في الكوشية).

وخلاصة القول فإن هناك تشابهاً وتقارباً بين كل تلك الألسن. ولكن هناك اختلافاً كبيراً بين اللغة المصرية القديمة واللغات المجاورة (ساميّة كانت أم ليبية أم بربرية أم كوشية)، مما يدعونا الى القول أن اللغة المصرية وإن اشتركت في أساسها مع جاراتها، إلا أنها أخذت في التطور مستقلة عن الأخريات(٦). وهذا الرأي لا يتعارض مع ما ذكرناه، عندما تعرضنا للأجناس البشرية وقلنا أن سكان مصر كان يغلب عليهم دم الجنس الحامي، وإن كانت

*** المحـــرر:**

(جـ) المقصود هو أن حروف الفعل الصحيح غير المعتل ثابتة لا يسقط منها شيء مهما صُرِّف، على نحو: كتب، يكتب، كاتب، مكتوب، كتابة، . . . الخ. وشبيه بذلك حال حروف الفعل الصحيح **sdm** (سجم) في اللغة المصرية القديمة. فحروفه الساكنة الثلاثة تتكرر مهما صُرِّف.

(د) هي ما تسمى الزيادة بالتضعيف كما في اللغة العربية. ولقد اختار الكاتب الرسم القبطي للكلمة المصرية القديمة لأن التضعيف يظهر فيها، بينما هو لا يظهر رسمًا، وإن كان هو مثبتاً نطقاً، في الكتابتين الهيروغليفية والديموطيقية. لذا فإن حروف ⲙⲟⲩⲟⲩⲧ القبطية تُكتب مُوُّت بالحروف العربية. والواو هنا حرف ساكن، والكلمة بمعنى «مَوَّتَ، أماتَ، قَتَلَ»، لأنها متعدي الفعل اللازم موت «مَاتَ». وانظر هامش المحرر (هـ).

(هـ) هذا نوع آخر من أنواع الزيادة، ولكنه بحرف زيادة هو السين هنا. فكلمة **s'nḫ** (**سعنخ**) المصرية معناها «أحيا، حيَّ، أعاش، عاش»، الفعل المتعدي، ومزيد بالسين من الفعل اللازم **'nḫ** (**عنخ**) «عاش». فوظيفة السين المصرية هنا كوظيفة همزة الزيادة (التعدي) في اللغة العربية.

قد اختلطت معه دماء آسيوية. هذا الاختلاط لا بد وأن يكون قد وقع في عصر سحيق قبل قيام الحضارات التاريخية المعروفة. فعندما حضر الشرقيون، سواء أن كانوا قد حضروا من شبه الجزيرة العربية أو من بلدان الهلال الخصيب، وسواء أن كان ذلك خلال التعامل التجاري أو التغلغل السلمي، فقد أتت معهم عوامل حضارية عدّلت الى حد ما في اللغات الإفريقية (الحاميّة) الشائعة آنذاك. هذا التعديل كان بالغاً في بعض اللغات كالحبشية والليبية، وكان طفيفاً في المصرية القديمة على ما يبدو.

ونختتم الحديث عن اللغة المصرية بالقول أن بعض العلماء ينسبها الى عائلة اللغات الساميّة[٧]. ولكن الأرجح فيما يبدو، على ضوء معلوماتنا الحالية، اعتبارها لغة ذات عنصرين: أحدهما إفريقي (وبالأحرى ليبي) والآخر شرقي سامي[٨].

وعندما نقارن الحضارة المصرية في عصرها العتيق بالحضارات الشرقية، لا بد وأن تطرأ على البال ظاهرة الكتابة، وهل تعتبر الكتابة الهيروغليفية أحد العوامل الحضارية التي جاءت من الشرق؟

يرى بعض العلماء أن الكتابة الهيروغليفية كانت اختراعاً مفاجئاً، إذ أنها عندما استعملت في بداية العصر التاريخي كانت على درجة كبيرة من التطور والكمال[٩]. والبعض الآخر يذهب الى أنها تطورت في مراحل عدة، واستلزمت مراحل تطورها أجيالاً عديدة في أواخر عصر فجر التاريخ[١٠]. وعلى أي حال فبعض العلماء لا يستبعد أن يكون فن الكتابة قد أخذ عن الحضارة السومرية ببلاد ما بين النهرين لا سيما وأن هناك تشابهاً وتقارباً في نظام الكتابة هنا وهناك. وحقا بالمقارنة بينهما نلحظ أن نظام الكتابة يفترض ثلاثة أنواع من المعاملات والرموز: فهناك رموز معان (ideograms)، وهي صور توضح ما يقصده المرء إجمالاً، إلى جانب رموز أصوات (phonograms) تحدد نطق الكلمة، بالإضافة إلى مُخصِّصات معانٍ (determinatives) تُضاف إلى نهاية الكلمة لتحديد المعنى المراد. وبالرغم من ذلك التشابه، فالاختلاف بين الكتابتين الهيروغليفية والمسمارية يعتبر بالغاً. فالهيروغليفية مكوّنة من صور لكائنات حية وأشياء جامدة، ولم يكتب بها إلا الحروف الساكنة. في حين أن المسمارية مكونة من علامات مجردة (abstract symbols)، وهي تحوي حروفاً ساكنة ومتحركة على السواء*[و]. ومن هنا يعتقد الكثير من العلماء أن الكتابة الهيروغليفية كانت مستقلة تماماً خلال مراحل تطورها.

---

* المحـــرر:

(و) يقـارن المؤلف هنـا الكتـابة المصرية الهيروغليفية بالسومرية المسمارية، وكان الأولى المقارنة بين الكتابتين التصويريتين. على أي حال ينبغي أن نضيف في هذا المكان شيئاً لا يعتقد أنه خافٍ على الكاتب، ولكنه لم يوضحه التوضيح الكافي للقارىء غير الملم بنشأة الكتابة وتطورها؛ ذلك هو أن الكتابة المسمارية (السومرية - الأكـاديـة)، كالكتـابـة المصرية تماماً، بها رموز معانٍ ومخصِّصات معانٍ وهي تجريدية في أشكالها كالهيراطيقية والديموطيقية، لكنها أكثر تجريداً من هاتين. يضاف إلى ذلك أن بها رموز أصوات بعضها حروف هجائية متحـركة محدودة العدد جداً لا تتجاوز الخمسة، وبعضها الآخر ليست حروفاً ساكنة وإنما هي مقاطع، بعضها مفتوحة (مكونة من ساكن فمتحرك) وبعضها مقفولة (مكونة إما من متحرك فساكن أو من ساكنين بينهما متحرك).

ولكن بناء على وجود علاقات بين الحضارتين المصرية والسومرية خلال الزمن الذي ظهرت فيه الكتابة، ونظراً لوجود بعض التشابه في نظام الكتابتين، فإنه لا يستبعد أن تكون الفكرة الجوهرية ـ وهي ترديد اللغة وتسجيلها بواسطة الكتابة ـ قد وصلت مصر من الحضارة السومرية. ولكننا لا نستطيع الجزم بذلك(١١).

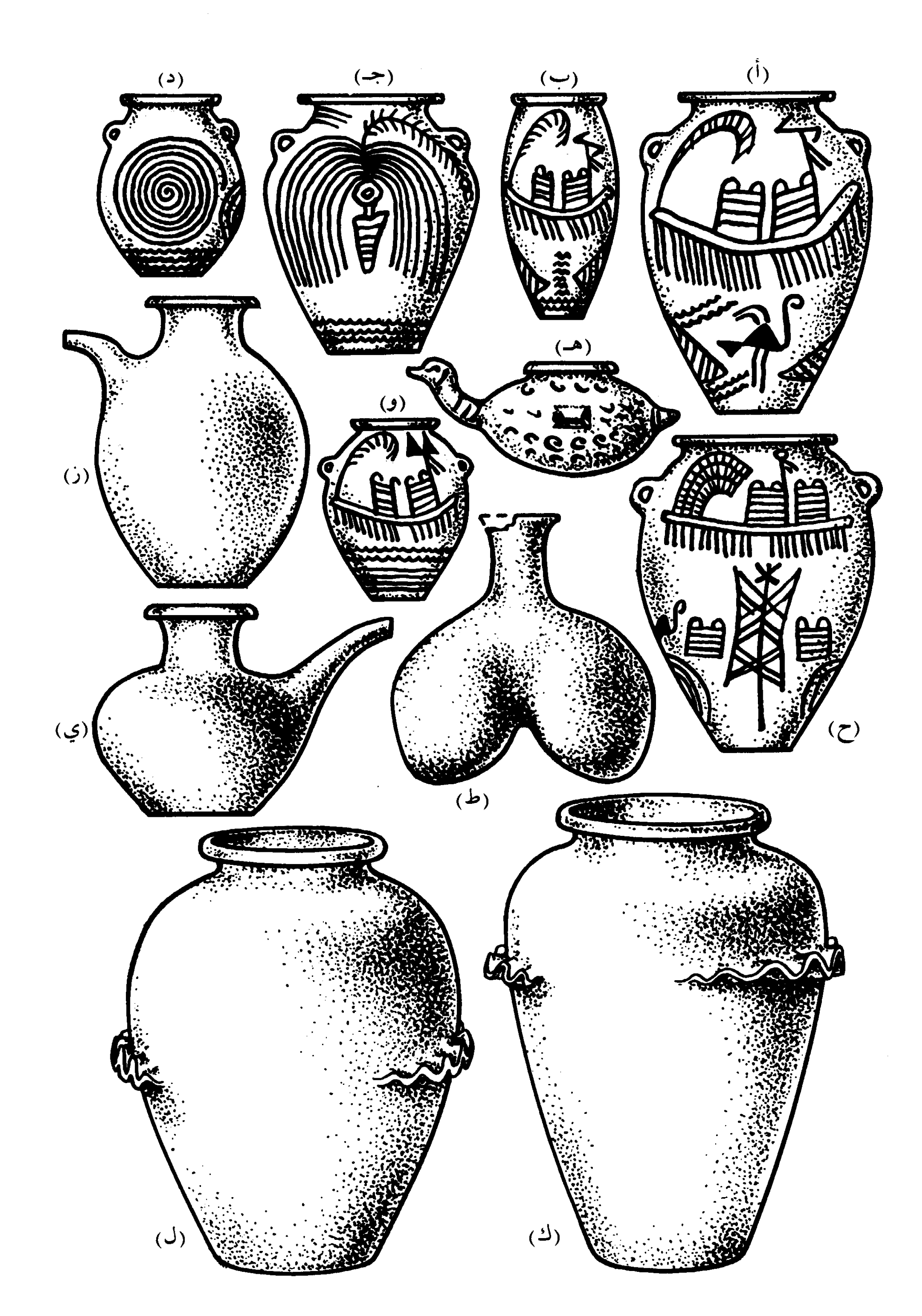
وبجانب هذا وذاك هناك بعض الظواهر الحضارية التي ظهرت على الأراضى المصرية والتي لا نستطيع تعليلها إلا بافتراض علاقات قائمة مع حضارات الشرق القديم خلال عصر فجر التاريخ. وقد عالج الموضوع كثير من العلماء، وما زال يثير الاهتمام حتى يومنا هذا.

وفي بداية الحديث عن ذلك ينبغي الإشارة الى الصناعة الراقية نسبياً في حضارة الفيوم. وقد عثر هناك على أدوات من الحجر والفخار متقنة الصنع بالنسبة لأيامها. ويقرن بعض العلماء تلك الصناعة بحضارة فلسطين آنذاك(١٢). وفي نقادة كشفت لنا الحفائر الأثرية عن عدد كبير من الخرز المصنوع من اللازورد، ولعل هذا الحجر الكريم قد استجلب من بلاد أفغانستان، كما عثر على سكاكين صغيرة من حجر الشيح (obsidian)، وهو حجر لم يتواجد في مصر، أو ربما أحضر من جبال آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة ـ مع العلم بأن هناك رأياً يرجح وصول تلك الأحجارالى مصر من بلاد الحبشة في الجنوب.

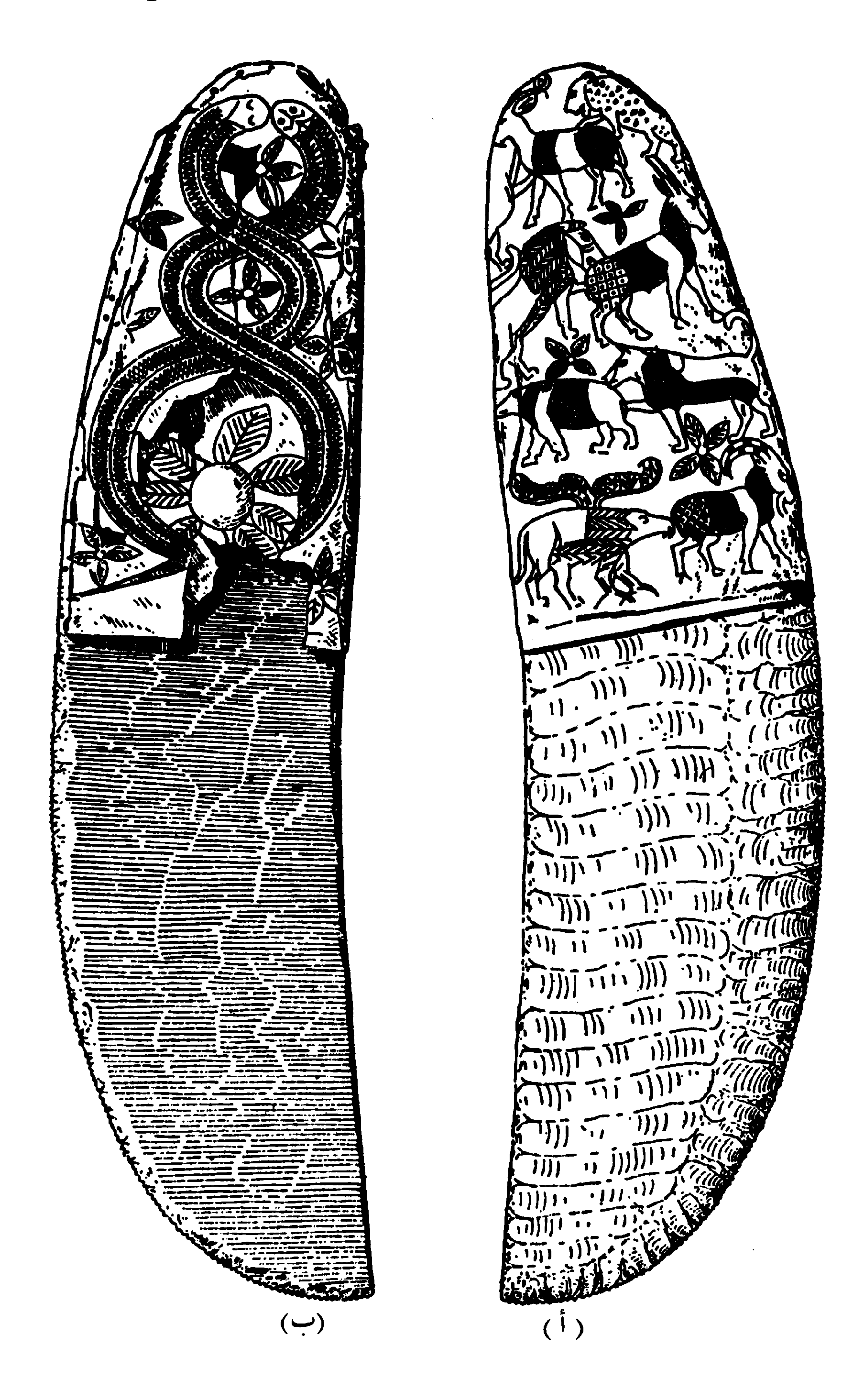
ونضيف إلى ذلك أن هناك صناعات تنسب الى حضارة نقادة الأولى، ولا يراودنا الشك في أنها ذات صبغة مصرية بحتة، وإن كانت تدخلها بعض الطرز الإفريقية. لكن هذا الحال يختلف عما كان عليه في الحضارة التالية والمعروفة باسم نقادة الثانية. إذ نجد في هذه الحضارة صناعات جديدة لم تكن معهودة من قبل. ويبدو أنها جاءت إلى مصر من البلدان الشرقية. ومن بين تلك الصناعات الأواني الفخارية ذات المقابض المتموجة (wavy-handled؛ **اللوحة ٢٦**). ويبدو أن مهد تلك الصناعة كان فلسطين بوجه عام وماجدُّو بوجه خاص. وقد انتشرت تلك الأواني في ربوع مصر. ويبدو أن الحال كان مماثلاً فيما يختص بالأواني ذات الأذن الجانبية (**اللوحة: ٢٧**). وقد عثر على بعض منها في مصر. وترجع صناعتها الى الحقبة التي تسبق قيام الأسرات مباشرة. وكذلك كان الحال فيما يتعلق بالأواني المزخرفة بخطوط رأسية (مثل شكل السِّلال **اللوحة ٢٨**). ومما يجدر ذكره أن العوامل الحضارية التي جاءت مصر عبر حدودها الشرقية كان منبعها مقتصراً أولاً على منطقة فلسطين، ولا نجد أثراً لحضارات بلاد ما بين النهرين حتى قيام الحضارة العراقية المعروفة بجمدة نصر(١٣).

ويختلف الحال إذا نظرنا الى الأواني (الفخارية والحجرية) ذات الرقبة والصنبور (**اللوحة ٢٩**)، والتي خلفتها لنا حضارة نقادة الثانية في عصرها المتأخر. فهذا الطابع يعد نادراً في مصر، إذ أنه لم يعثر في مقابر أبوصير الملق (ويقرب عددها من الألف) إلا على خمسة منها فقط من هذا النمط. هذا النوع من الأواني كان شائعاً في حضارات فلسطين وجنوبي ما بين النهرين، وكذلك في حضارة العُبيد، ويقال إن مهده كان جنوبي العراق، إذ كان سائداً هناك قبل أن تعرفه حضارات الشام(١٤).

وتضاف الى قائمة الظواهر الخاضعة للتأثير الشرقي أواني صنعت في صور كائنات حية (طائر أو جمل)



الشكل ٢٤ : نماذج من الفخار المصري القديم، بعضها بمقابض كالأذنين (أ، جـ، د، و، ح)، وبعضهـا بمقـابض متمـوجة (ك، ل)، وبعضها بعنق وصنبور (ز، ي)، وإحداها في شكل طائر (هـ).



الشكل ٢٥ : (أ) وجه لمقبض سكين عليه رسومات لحيوانات مختلفة.
(ب) الوجه الآخر من المقبض نفسه وعليه رسمان لأفعَوَان ملتوية إحداهما بالأخرى.

(اللوحتان ٣٠، ٣١/ جـ)[١٥]. ويستشف المتخصصون من تلك الأواني علاقات بحضارة جنوبي العراق أيام جمدة نصر. وكذلك كان الحال فيما يختص بالأواني المجزّأة (والإناء هنا عبارة عن مجموعة أوان شكلت في قطعة واحدة متحدة)**(اللوحة: ٣١/ أ، ب)** وقواعد الأواني (وهي منفصلة عن الإناء عادة). كما أن البعض يرى أن بعض مقامع القتـال الحجـرية ذات مناظر الحيوانات إنما تحمل طابعاً شرقياً متأصلاً في حضارات العراق القديمة[١٦]. ويرى البعض أصلاً شرقياً كذلك في بعض الطرز الفنية يخص منها منظر الرجل أو الكائن الحي أو الشجرة بين حيوانين مفترسين **(اللوحة: ٣٢)**، ومنظر الحيوانين الخرافيين اللذين تلتوي رقابهما حول بعضهما البعض **(الشكل ٢٥/ ب)**، ومنظر الحيوانات المصفوفة في صف طويل بلا نهاية.

وقد عثر في مصر كذلك على مجموعة كبيرة من الأختام الاسطوانية. وظلت تلك الأختام شائعة الاستعمال حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. ويرجع تاريخ بعضها الى عصر نقادة المتأخر وعصر ما قبل الأسرات التاريخية. ونرى عليها أحياناً نقوشاً وزخارف لا يمكن اعتبارها مصرية بحتة. ويبدو أن عدداً منها قد استورد رأساً من البلاد الشرقية (وبخاصة من عيلام)، وربما أحضرها التجار الوافدون إلى مصر آنذاك. وبجانب الأختام المستوردة هناك أختام عديدة تغلب عليها الصناعة المصرية **(اللوحة ٣٣)**، ولكنها تحمل نقوشاً وزخارف على نمط الأختام التي عرفتها سومر أيام جمدة نصر. وهي زخارف لأشكال حيوانات وأسماك ونباتات وأشكال هندسية مختلفة، مصنوعة في طراز غريب عن الفن المصري المعهود آنذاك[١٧].

وكـذلـك الحال بالنسبة الى نوع من السكاكين المصنوعة من الظِّران، والتي يرجع تاريخها الى عصر نقادة المتأخر. فلا يسري الشك في أنها صناعة مصرية بحتة، إذ أن تلك السكاكين لم تكن معروفة في حضارات الشرق القديم. ولكن بعض الزخارف التي نقشت على مقابضها ليست من الطابع المصري الصرف **(الشكل ٢٥)**. وهي مناظر لحيوانات خرافية الشكل أو متعاركة ولأفاع ملتوية، يلتف بعضها بالبعض الآخر، أو لرجل في زيّ شرقي يستأنس حيوانات مفترسة. وهي مناظر كانت مألوفة في الفن بحضارات عيلام وسومر. ويذهب الرأي حديثاً إلى أن تلك الزخارف أتت الى مصر من هناك[١٨]. ومن يدري؟ ربما حضر إلى مصر بعض الفنانين من بلدان الشرق، وربما كان بمصر فنانون مصريون يجيدون تقليد الطرز الشرقية. ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن تلك الزخارف الشرقية لم يقلدهـا الفنان والصانع المصري تقليداً أعمى، بل كان يدخل عليها بعض التعديلات حسب ذوقه وإحساسه الفني.

ومما هو جدير بالملاحظة أن تلك العناصر الشرقية وصلت أوج انتشارها في مصر قبيل عهد الأسرات وفي أوائل العصر التاريخي ـ أي إبّان حقبة جمدة نصر الحضارية. ولكن سرعان ما اختفت من الصناعة والفن المصري ببداية العصور التاريخية. وهي لم تشكّل ولم تعدّل في الفن والصناعة المصرية وفي تطويرهما. ومن ثَمَّ يقول بعض العلماء إن المصري القديم الذي عاش في حقبة فجر التاريخ كان ولوعاً بتجديد صناعاته وابتداع أشياء جديدة على مجتمعه، ولذلك لم يتورّع عن تقليد الفنون الأجنبية والقيام بتجارب شتى في كل الميادين. وكان تقليده للطرز الشرقية إحدى تلك التجارب العابرة.

ولا يمكننا تصور انتقال تلك الطرز والصناعات السابق ذكرها من حضارات الشرق ودخولها في البيئه المصرية دون أن تصحبها أفكار وعقائد جاءت بدورها من تلك الحضارات. ولكننا لا نستطيع حالياً أن نلمس ذلك التطور الفكري في عصر فجر التاريخ بصورة واضحة، طالما أن تلك الاشياء المادية قد خُلِّفت لنا دون كتابات ونصوص تقص علينا ما كان يدور في فكر الإنسان وعقيدته آنذاك. ويستلزم هذا الموضوع بدوره أبحاثاً دقيقة لم يحن الوقت للقيام بها[١٩].

وإذا حاولنا أن نعرف الطرق والوسائل التي سلكتها تلك العوامل الحضارية التي سبق عرضها، فيبدو أن الطريق الشمالي الشرقي (براً عبر سيناء وبحراً من شاطىء فلسطين الى الدلتا) كان من أهم الطرق[٢٠]. وقد لمسنا استعمال هذا الطريق عندما ذكرنا انتشار الأواني الفخارية ذات المقابض المموجة، وقلنا إنها جلبت من فلسطين. وبجانب ذلك يفترض بعض العلماء طريقاً في الجنوب عبر الصحراء الشرقية ووادي الحمامات، لا سيما وقد عثر في المناطق التي يمر بها هذا الطريق على نقوش على صخور الجبال تشير الى أهمية هذا الطريق وتوحي الى أنه كان مطروقاً منذ عصر ما قبل التاريخ. ويبدو أن تلك العوامل الحضارية السالفة الذكر وصلت مصر عن طريق التجارة مع بلدان الشرق أو عن طريق التسرّب والتغلغل السلمي لبعض الجماعات الآسيوية، إذ أننا لا نجد أية قرينة تشير إلى غزوات حربية، لا سيما وأننا نشعر أن الحضارة المصرية واصلت تطورها بانتظام وبدون اضطراب يمكن نسبته الى تدخل ما للشعوب الشرقية المجاورة بالعنف والقوة في أمور السكان وحياتهم.

وأختتم القول بأننا لا نستطيع اعتبار الحضارة الفرعونية قائمة على أسس وعناصر حضارية جاءت من بلدان الشرق، ولولاها ما أشرقت شمس الحضارة في وادي النيل، ذلك لأننا نرى الحضارة المصرية القديمة تبزغ في طراز مصري بحت منذ عصر فجر التاريخ. ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع تجاهل حقيقة وجود هذه الظواهر الحضارية الآتية من حضارات الشرق القديم وإن لم يكتب لها العمر الطويل، ولم يكن لها تأثير بالغ على معالم الحضارة الفرعونية. والله أعلم.

الهــوامش

(١) انظر بالتفصيل عبدالعزيز صالح، **الشرق الأدنى القديم ـ مصر والعراق** (الطبعة الثانية ـ القاهرة، ١٩٧٦)، ص ٢١ وما بعدها.

(٢) E. Strouhal, «Rassengeschichte Agyptens», in: *Rassengeschichte der Menschheit* (herausgegeben von l. Schwidetzky), 3 Lieferung, Afrika l (Wien 1975), 13 .

المحرر: يلفت المحرر نظر القارىء الى المؤتمر العالمي الذى كانت قد نظمته اليونسكو بالاشتراك مع هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٧٤م لمناقشة موضوعين، أحدهما أصل قدماء المصريين، والثاني فك رموز اللغة المروية. والموضوع الأول مناسب لهذه النقطة وقد صدرت أعمال المؤتمر في كتيب بعنوان: *The Peopling of Egypt and Decipherment of Meroitic Script* (Proceedings of the UNESCO Symposium. Cairo 28 January - 5 February, 1974).

(٣) نقصد بالجنس الحامي السلالات الإفريقية البحتة.

(٤) J. Vandier, *Manuel d'archéologie égyptienne,* tome ler (Les époques de formation, Paris 1952), 10 ff.

(٥) E. Strouhal, *op. cit.*, 23 f.

(٦) انظر بالتفصيل عبدالعزيز صالح، **حضارة مصر القديمة وآثارها** (القاهرة، ١٩٦٢)، جـ١، ص ص٢٢ - ٣٠، عن صلات اللغة المصرية بالمجموعة الساميّة والحاميّة وكذلك عن المقومات الشخصية للغة المصرية.

(٧) T. W. Thacker, *The Relationship of the Semitic and Egyptian Verbal Systems* (Oxford, 1954), 332 ff.

(٨) G. Lefebvre, «Sur l'origine de la langue égyptienne», *Chronique d'Égypte* 11 (Bruxelles, 1936), 266 ff; *Grammaire de l'égyptien classique* (2e edition, Le Caire, 1955), 1 .

(٩) S. Schott, «Die Erfindung der ägyptischen Schrift», *Ägyptische Schrift und Sprache* (Handbuch der Orientalistik - Der Nahe und Mittlere Osten. Leiden/Köln, 1973), 18ff.

(١٠) W. Westendorf, «Die Anfänge der altägyptischen Hieroglyphen», *Frühe Schriftzeugnisse der Menschheit* (Veröffentlichung der Joachim - Jungius - Gesellschaft der Wissenschaften. Hamburg/Gottingen, 1969), 56 ff.

(١١) W. Helck, *Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3. und 2. Jahrtausend vor Chr.* (2. Auflage, Wiesbaden, 1971), ll . يستبعد هذا المؤلِّف احتمال انتقال فكرة الكتابة من سومر إلى مصر.

(١٢) A. J. Arkell, *The Prehistory of the Nile Valley* (Handbuch der Orientalistik - Kunst und Archäologie, Leiden/Köln, 1975), 13 ff .

(١٣) A. Scharff, *Die Frühkulturen Ägyptens und Mesopotamiens* (Leipzig, 1941), 12 ff .

(١٤) Scharff, *op. cit.*, 18 f.

(١٥) ولكن لم ينج شكل الجمل من الشك. انظر عبدالعزيز صالح، **الشرق الأدنى القديم - مصر والعراق**، ص٥١ .

(١٦) Scharff, *op.cit.*, 23 ff. وقد عُثِرَ على مناظر مماثلة من حضارة العُبيد كذلك.

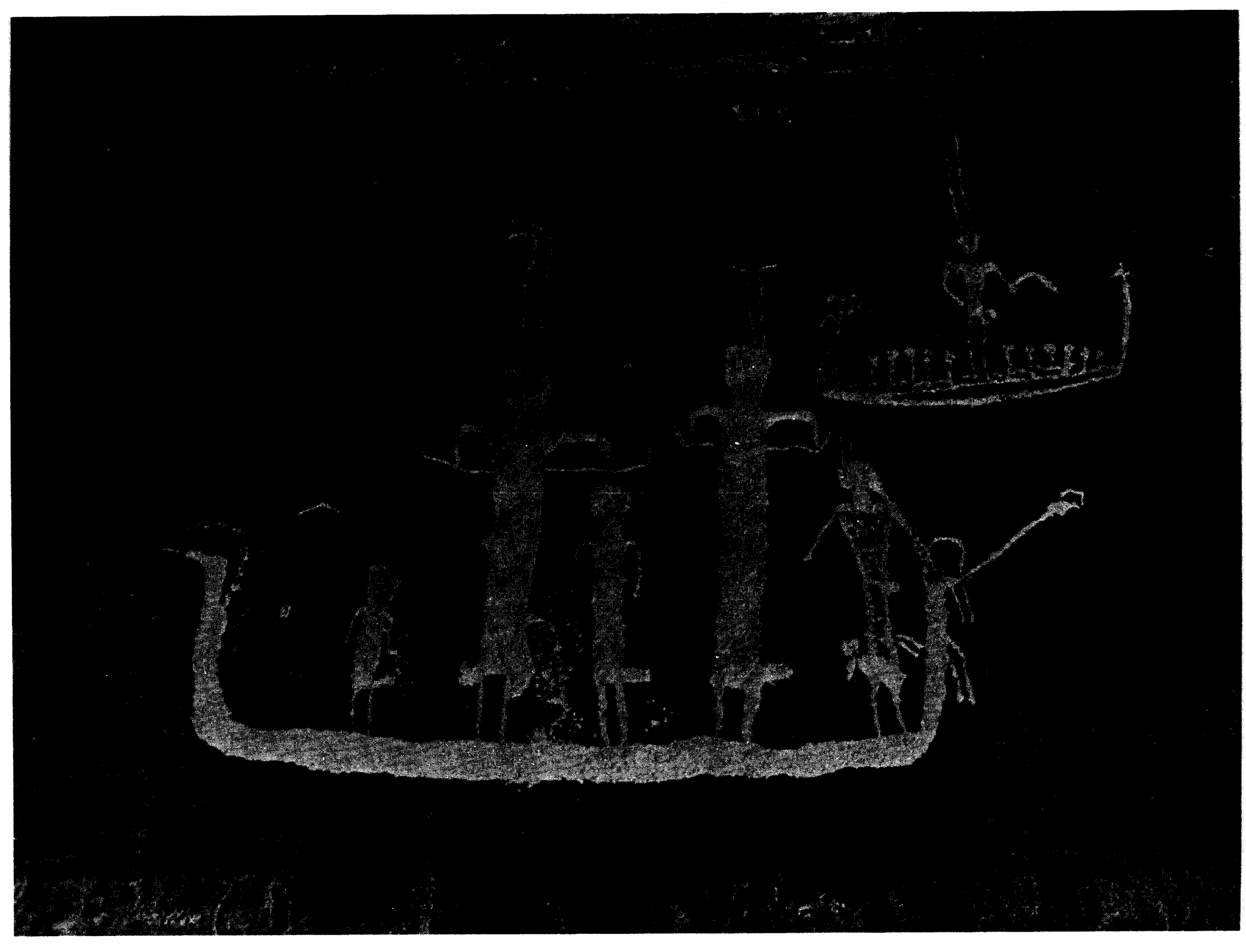
(١٧) R. Boehmer, «Das Rollsiegel im parädynastischen Agypten», *Archäologischer Anzeiger* (Berlin, 1974), Bd. 4, 495 ff .

(١٨) R. Boehmer, «Orientalische Einflüsse auf verzierten Messergriffen aus dem prädynastischen Ägypten», *Archäeologische Mitteilungen aus Iran* (Berlin, 1974), Bd. 4, 15 ff .

(١٩) W. Helck, *op. cit.,* 4 f. . يسرد هذا المؤلف في عرضه بعض الاحتمالات، مثل شيوع عقيدة الإلهة ذات صفات الأمومة، وعقيدة إله للموتى مثل أوزريس بمصر.

(٢٠) E. Anati, *Rock-Art in Central Arabia,* vol. 1 *(The Oval-Headed People of Arabia,* Louvain 1968), 180 ff .

يجوّز هذا الباحث وجود بعض قبائل كوشية في شبه الجزيرة العربية خلال الألفين الثالث والثاني ق.م. أما عن وجود علاقات بين سكان الجزيرة العربية ومصر قبيل عهد الأسرات فانظر المجلد الثاني من مؤلّفه *Rock-Art in Central Arabia,* vol. 2 *(The Realistic-Dynamic Style of Rock-Art in the Jebel Qara .* Louvain, 1968), 70 ff.



اللوحة ٢٥ : نقش على الصخر لقاربين يحملان أشخاصاً مزينة رؤوسهم بريش الطير، وتحتمل قرابتهم بسكان القارة الآسيوية.

اللوحة ٢٦ : أواني ذوات مقابض متموّجة وآذان جانبية .



اللوحة ٢٧ : آنية ذات أذن جانبية .

(ب)

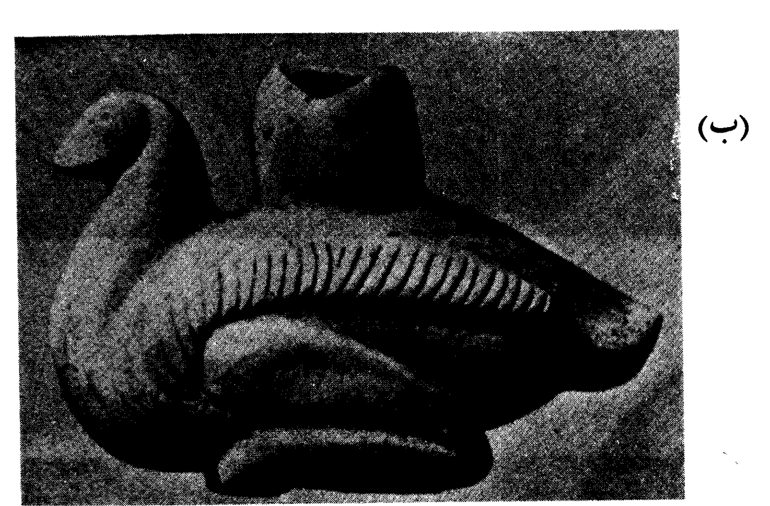
(أ)

اللوحة ٢٨ : جرتان زخرفتا بخطوط عمودية في شكل السلال.

(ا)



(ب)



(ج)



اللوحة ٣٠: (أ) آنية في شكل جمل.
(ب) آنيتان، الواحدة منهما في شكل طائر.



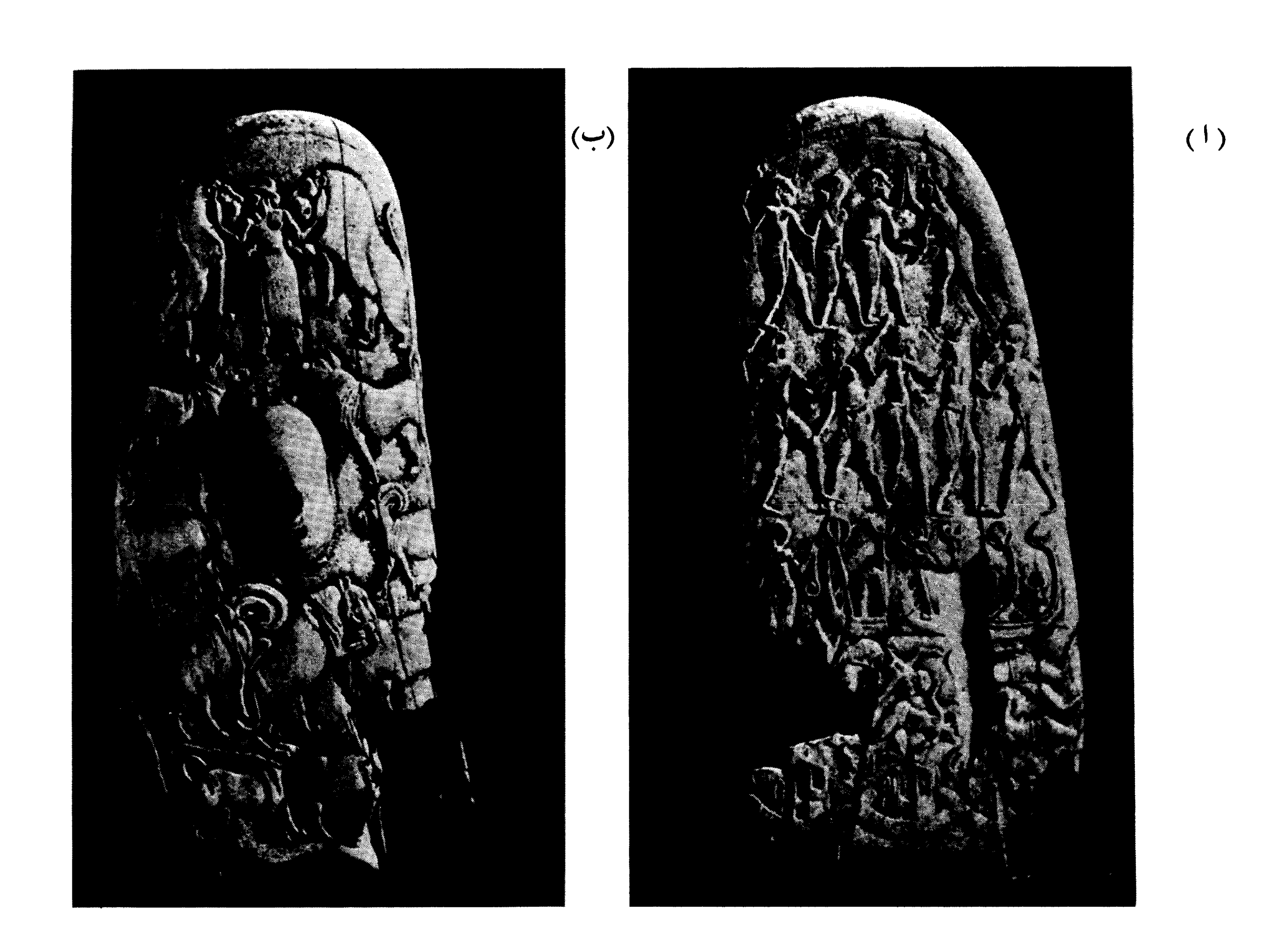
(ب)

(ج)

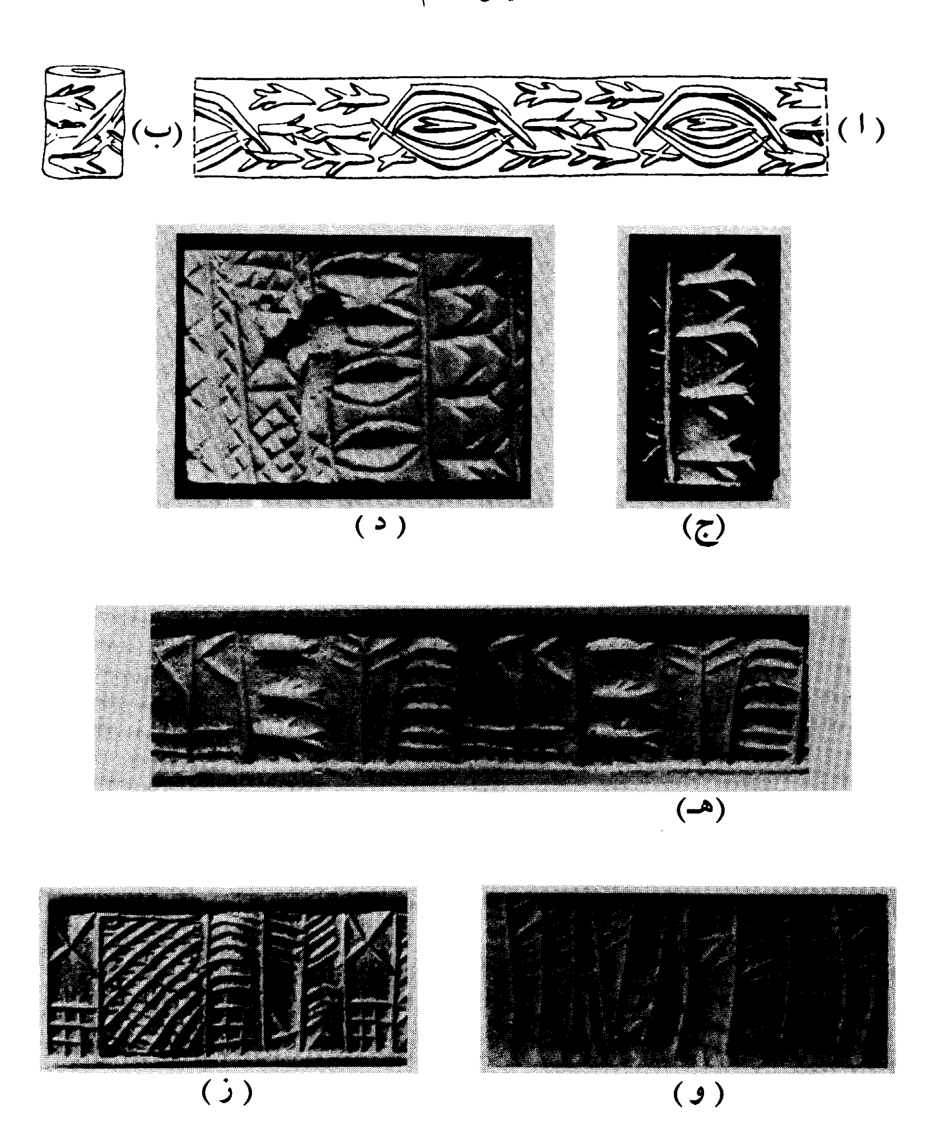
(أ)

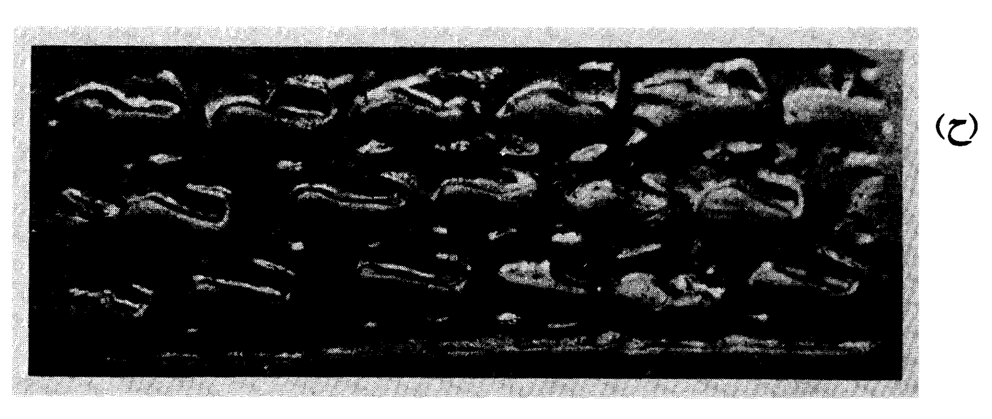
اللوحة ٣١: (أ، ب) إناءان مجزءان.

(جـ)   إناء في شكل سمكة، له قاعدة.



اللوحة ٣٢: (أ) وجه مقبض جبل العركي، يظهر عراكا.
(ب) الوجه الآخر من مقبض السكين. مما يظهره المنظر رجل في زي شرقي بين حيوانين مفترسين.





اللوحة ٣٣: (أ-ح) نقوش على أختام اسطوانية تظهر أسماكاً ونباتات وأشكالاً هندسية وغيرها.

الأصول المصرية القديمة لبعض المظاهر الحضارية

في الجزيرة العربية قبل الاسلام

عبدالمنعم عبدالحليم سيد

في بحث سابق ألقيته في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية[1]، أشرت الى عدم وجود صلات مباشرة بين مصر الفرعونية وبين الجزيرة العربية، والى أن الاتصال المباشر بين البلدين لم تتضح معالمه، إلا ابتداء من العصر اليوناني في مصر (عصر البطالمة)، وأن هذا الاتصال كان من جانب سكان الجزيرة العربية، ودلّلت على ذلك بكثرة النقوش العربية القديمة (ما بين عربية جنوبية وعربية شمالية ونبطية) المتخلفة على جوانب طرق القوافل في صحراء مصر الشرقية.

غير أنه خلال العصر الفرعوني، كان هناك نوع من الصلات غير المباشرة بين مصر الفرعونية وبين الجزيرة العربية، نتج عنه انتقال تأثيرات حضارية مصرية الى الجزيرة العربية. ويمكن أن نعتبر هذا الاتصال صورة من صور الظاهرة المعروفة في تاريخ الحضارات بالانتشار الحضاري (Cultural diffusion). وكان طريق انتقال هذه التأثيرات من مصر الى الجزيرة العربية هو شبه جزيرة سيناء ومنها الى الطريق التجارى الشهير الذي يطلق عليه المؤرخـون «طريق الذهب والبخور»، اشارةً الى أهم السلع التي كانت تنقل عبر هذا الطريق، الذى كان يسير بمحاذاة الساحل الآسيوى للبحر الأحمر، في مناطق الظهير الممتدة وراء هذا الساحل، ويمر بالمحطات التجارية التي قامت على جوانب هذا الطريق في الحجاز واليمن.

فالـواقع أن شبه جزيرة سيناء كانت منذ أقدم العصور، بمثابة نافذة للحضارة المصرية القديمة، لارتياد المصريين القدماء لها منذ أقدم عصور التاريخ الفرعوني. فقد كانت مناجمها الغنية بالنحاس تجتذب اهتمام الفراعنة، فكانوا يرسلون البعثات التعدينية اليها، لاستخراج النحاس من «وادي مغارة» في أول الأمر. ثم اجتذبت مناجم الفيروز بها اهتمامهم بعد ذلك، فكانوا يرسلون البعثات الى منطقة سيرابيط الخادم (الواقعة الى الشمال من وادي مغارة)، حيث توجد أغنى مناجم سيناء بهذا الحجر شبه الكريم.

وكـانت هذه البعثـات في عصر الدولة القديمة (ما بين القرنين الثامن والعشرين والثالث والعشرين قبل الميلاد)، تعمل تحت حماية فرق حربية، كما تدل على ذلك النقوش المحفورة على صخور وادي مغارة التي تصور فراعنة الدولة القديمة وهم يضربون زعماء سكان سيناء، إشارة الى انتصارهم عليهم طبقاً للتقليد المصرى القديم في كيفية إعلان انتصار الفرعون على أعدائه.

ولكن منذ عصر الدولة الوسطى، يبدو أن البعثات المصرية لم تجد مقاومة عنيفة من سكان المنطقة، بدليل قلة الرسوم الحربية التي تصور الفرعون وهو يضرب عدوه، ثم ظهور رسوم يبدو فيها الفرعون في وضع هادىء خالٍ من العنف.

والواقع أن عصر الدولة الوسطى، وخاصة عصر الأسرة الثانية عشرة (ما بين القرنين العشرين والثامن عشر

ق. م. تقريبا)، شهد نشاطاً تعدينياً واسع النطاق، وخاصة لاستخراج الفيروز من منطقة سيرابيط الخادم. وكان من نتائج هذا النشاط أن أنشىء معبد مصري في هذه المنطقة لعبادة الإلهة التي اعتبرها المصريون الربة الحامية للمنطقة، وهي الإلهة حتحور (**هاتور**)، التي كانت تصور في شكل امرأة أحياناً، وفي شكل بقرة في أحيان أخرى، وإن كان تصويرها في منطقة سيرابيط الخادم في شكل امرأة هو الغالب. وقد أطلق المصريون عليها لقباً يتصل بوظيفتها كإلهة حامية للمنطقة، وخاصة منطقة سيرابيط الخادم، حيث تتركز مناجم الفيروز ـ أطلقوا عليها لقب **حتحور نبت مفكات** أي «حتحور ربة (أو سيدة) الفيروز».

ويبدو أن أول مكان اتخذه المصريون معبداً للإلهة حتحور، كان أحد كهوف المنطقة. ومن المرجح أن سكان المنطقة الساميّين (وكان المصريون يسمونهم «(الـ) **عامو**» بوجه عام)، كانوا يعبدون في هذا الكهف ربة خاصة بهم، هي في الغالب الربة «عشتار» الساميّة. ونظراً للتشابه بين هاتين المعبودتين في الصفات (إذ كان من صفات حتحور أنها إلهة للخصب والجمال، وهي الصفات الرئيسية للإلهة عشتار الساميّة)، حدث نوع من الملاءمة والتوفيق بين المعبـودة المصرية والمعبـودة السـاميّة، أي أن المصريين قدسوا المعبودة الساميّة في صورة حتحور، كما قدس الساميّون المعبودة المصرية في صورة عشتار، وأطلقوا على إلهتهم لقباً مترجماً عن اللقب الذى أطلقه المصريون على حتحـور («حتحور ربة (أو سيدة) الفيروز»)، إذ دعوها **بعلة** أو **بعلات**، بمعنى «الربة» أو «السيدة» أي «ربة الفيروز». وظهرت هذه الترجمة بوضوح على تمثال منحوت على شكل أبي الهول (**اللوحة ٣٤**)[٢].

ولم يكن هذا التقارب الديني نتيجة للتشابه فقط بين صفات المعبودتين، بل يبدو أن السبب الرئيسي له كان الاشتراك في نوع النشاط الاقتصادى في المنطقة، فقد نشأ عن التوسع المصري في استغلال مناجم الفيروز في عصر الأسرة الثـانية عشرة، أن احتاج المصريون الى مزيد من الأيدي العاملة للحفر في المناجم (رغم ضخامة أعداد البعثات المصرية في ذلك العصر، حيث بلغ عدد أفراد إحداها ٧٣٤رجلا)، ومن هنا احتاجوا الى سكان المنطقة لمعاونتهم في ذلك.

ويبدو أن زعماء هؤلاء السكان قاموا بدور يشبه الدور الذى يقوم به «مقاول الأنفار» في المشروعات المختلفة في عصرنا الحاضر، وكانت هذه المصلحة المشتركة دافعاً لمزيد من التقارب بين المصريين والساميّين، كما تدلنا على ذلك بعض الألقاب التي حملها أفراد البعثات المصرية، مثل «مترجم العامو» و«المشرف على بيت العامو». ومن ناحية الساميّين، فقد أدى ذلك كله الى اندماجهم في الحياة المصرية، والأخذ بالعادات المصرية وبالحضارة المصرية، فقد حفظت لنا نقوش سيناء صورة لأحد زعماء الساميّين، وهو يرتدي الزي المصري وحليق الذقن كالمصريين[٣]. وأنبأتنا النصوص الهيروغليفية أن أحد العامو اشترك مع خمسة رجال من المصريين، في تقديم تمثال دُوِّن عليه بأسماء اثنين من فراعنة الأسرة الثانية عشرة الى المعبودة حتحور «ربة الفيروز». ويرى بعض الباحثين أن اسم هذا الرجل وهو **روا** أو **روي**، يذكّرنا بالاسم السامي **لاوي**[٤]، نظراً لأن حرف الراء في اللغة المصرية القديمة كان يستخدم بديلاً عن حرف اللام، ولاوي هو اسم الجد الأكبر لسيدنا موسى عليه السلام. كذلك عثر على مسلة صغيرة من الحجر عليهـا أسـماء ثلاثة من الساميّين من بينهم شخص اسمه قني، وهو اسم قبيلة أو شعب القينيين[٥] الذين كانوا

يسكنون منطقة «مدين» ، وكان منهم يثرون*(أ) حمو سيدنا موسى عليه السلام .

وكان من نتائج اتباع الساميين من سكان سيناء للعادات المصرية ، وأخذهم بأسباب الحضارة المصرية ، أن أصبحوا همزة الوصل في انتقال التأثيرات الحضارية المصرية الى سائر الساميّين في الجزيرة العربية ، أى أن التأثيرات الحضارية المصرية انتقلت الى الجزيرة العربية بطريق غير مباشر، وكان ذلك سبباً في غلبة طابع الانتشار الحضارى على هذا الانتقال .

والمعروف أن المظاهر الحضارية تتعرض أثناء انتقالها من مكان لآخر بطريق الانتشار الحضارى لدرجات من التغيير، تختلف قوة أو ضعفاً باختلاف الظروف التي تمر بها . فمن الواضح أن هذه المظاهر تكون أقرب ما يكون الى أشكالها الأصلية في المناطق المتاخمة لمصادرها ، ونلاحظ هذه الظاهرة بوضوح في قوة تأثير الحضارة المصرية في سكان سيناء الساميّين ، ويتمثل ذلك في النواحي الدينية التي ذكرناها كما يتمثل في الكتابة كما سنذكر بعد . ولكن فيما وراء هذه المناطق ، وبتأثير العوامل الجغرافية والبشرية مثل وعورة الطرق وصعوبة المواصلات واختلاف أساليب الحياة والمستوى الحضاري للسكان ، تأخذ التأثيرات الحضارية الوافدة في الضعف التدريجي ، فتتعرض لتغيير يكبر أو يصغر طبقاً لقوة هذه العوامل الجغرافية والبشرية أو ضعفها . وبطبيعة الحال ، فإن هذا التغيير يأخذ شكلاً يتلاءم مع النمط الحضاري للشعوب المستقبلة لهذه المظاهر الحضارية ، ويتمشى مع عقائدها وتقاليدها . والمعروف أيضا أن هذا التغيير لا يحدث بصورة فجائية وفي زمن قصير، بل قد يحتاج الى زمن يتوقف طوله على العوامل التي سبق ذكرها ، علاوة على مدى اتفاق الشعب المؤثر مع الشعب المتأثر في الأصل والسلالة والأفكار والمعتقدات والقيم أو اختلافه عنه ، كما يتوقف أيضا على وجود تيارات وتأثيرات حضارية أخرى أكثر قوة .

وبوجه عام ، فإنه يمكن اجمال درجات التغيير التي تتعرض لها المظاهر والتأثيرات الحضارية أثناء انتقالها أو انتشارها ، طبقا لظاهرة الانتشار الحضاري في درجات ثلاث :

١ ـ الملاءمة والتوفيق : أى أن الشعب المتأثر يحاول التوفيق بين المظهر الحضاري الوافد وبين نمطه الحضاري الخاص به ، دون إحداث تغيير كبير في المظهر الحضاري الوافد . ومن ذلك مثلاً إضفاء صفات المعبودات الأجنبية الوافدة على معبودات محلية مناظرة لها . ولدينا مثال على ذلك في سيناء ـ كما ذكرنا ـ إذ لاءم الساميّون من سكانها صفات إلهتهم المحلية الساميّة ، وبين صفات حتحور إلهة المصريين .

٢ ـ التعديل : أى أن الشعب المتأثر يقوم بإدخال تعديلات جوهرية على المظهر الحضاري الوافد ، مع محافظة هذا المظهر على صفاته العامة ، وتتوقف درجة التعديل هذه والزمن الذى يستغرقه على مدى التقارب بين الأنماط الحضارية التي يمثلها هذا المظهر الحضاري الوافد أو تباعدها بالنسبة للأنماط السائدة لدى هذا الشعب . ومن أمثلة ذلك في سيناء التعديل الجوهري الذي أدخله الساميون على علامات الكتابة الهيروغليفية المصرية ، فحولوها من

*** المحــــرر:**

(أ) كذا في العهد القديم ، **سفر الخروج** ، ٣ : ١ **ويثرى** في رواية ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما . انظر **مختصر تفسير ابن كثير** (اختصار وتحقيق محمد على الصابوني ، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨١م) ، جـ٣ ، ص ١٠ .

كتابة مقطعية إلى كتابة أبجدية*(ب).

٣ ـ التحول: وهو أقصى درجات التغيير، إذ فيه يتحول شكل المظهر الحضاري الوافد تحولاً أساسياً، بحيث يخرج في شكل يبدو في مظهره كأنه يختلف اختلافاً تاماً عن أصله. ويحدث هذا غالباً بين الشعوب التي توجد بينها اختلافات جوهرية في الأصل والسلالة ونوع النشاط الاقتصادي وأسلوب الحياة والعادات والتقاليد، وغيرها من عوامل التغيير. ومن أمثلة ذلك التحول الذي طرأ على أشكال رموز الكتابة بعد انتقالها التدريجي من مصر الى اليمن*(جـ)، وكذلك بعض المظاهر المادية للعبادات، كما ستذكر بعد.

وكلما بعدت المسافة بين مصدر المظهر الحضاري، وبين المناطق التي ينتقل اليها، كلما زاد التحول عمقاً، وبخاصة إذا تعددت البيئات وتنوعت، إذ تقوم كل بيئة من هذه البيئات بإحداث تعديل في هذا المظهر، لكي يتلاءم مع ظروفها البشرية ونمطها الحضاري، ولهذا السبب تستغرق التحولات فترات زمنية طويلة، قد تصل الى عدة قرون، وقد تظهر نتائج هذه التحولات بعد زوال المظهر الحضاري من المناطق التي جاء منها. لهذا ففي دراسة التحولات في المظاهر الحضارية، علينا أن لا ننخدع بالفارق الزمني الكبير الذى يفصل الأصل عن الفرع، أو بالاختلاف الظاهري بين أشكالها في المناطق التي تأثرت بها، وبين أصولها في المناطق التي وفدت منها.

إذاً لكي يمكننا التعرف على التعديلات أو التحولات التي طرأت على المظاهر الحضارية التي انتقلت من مصر الفرعونية الى الجزيرة العربية، فإن الأمر يتطلب تتبع المراحل الوسطية التي تفصل الأشكال الأصلية لهذه المظاهر الحضارية عن أشكالها المعدّلة أو المتحوّلة في المناطق التي انتقلت اليها. وبهذه الطريقة يمكن تتبع خط انتشار هذه المظاهر الحضارية للوقوف على أشكال التغيير فيها حتى وصولها الى مراحلها النهائية.

وسوف نطبق هذا المنهج على المظاهر الحضارية البارزة التي انتقلت من مصر الفرعونية الى الجزيرة العربية، مثل الكتابة ثم المظاهر المادية للعبادات والطقوس الدينية، كالأنصاب والشواهد وموائد القربان ومذابح البخور وأحواض التطهر والاغتسال في المعابد، وأيضا بعض المظاهر المعمارية والفنية، وأخيرا سندرس التأثيرات المصرية في السفن العربية القديمة.

الكتابــة

عثر الباحثون في منطقة سيرابيط الخادم بسيناء على نوع من الكتابة تشبه الكتابة الهيروغليفية المصرية، أطلقوا عليها Proto-Sinaitic script أى الكتابة البروتوسينائية أو كتابة «ماقبل السينائية»، وذلك تمييزاً لها عن كتابة أخرى

* المحــرر:

(ب) المقصود هنا الرموز متعددة الأصوات التي استغلت للغرض المذكور، لأن بالكتابة المصرية رموزاً أخرى أبجدية.

(جـ) المقصود عند الكاتب الرأي بالأصل البروتوسينائي للكتابة العربية الجنوبية.

تسمى الكتابة «السينائية»، التي ترجع الى عصر الأنباط، وتنتشر في جنوب سيناء وخاصة في وادى المكتّب.

وقد دوّنت الكتابة البروتوسينائية على آثار شبيهة بالآثار المصرية القديمة، ولكنها أكثر خشونة في تشكيلها مثل التماثيل المنحوتة على شكل أبي الهول[٦]، وعلى شكل التمثال «القابع»[٧]، فضلا عن كتابتها الى جوار أشكال آلهة مصرية، مثل الإله بتاح إله منف[٨].

وقد استخلص الباحثون من دراستهم لهذه الكتابة أنها حروف أبجدية محوّرة في أشكالها عن بعض العلامات الهيروغليفية المصرية، ولكنها فقدت خصائصها الأصلية في الكتابة الهيروغليفية، سواء كانت مقاطع أو مخصصات معان أو غيرها واتخذت الصفة الأبجدية، وأن أصحاب هذه الكتابة هم العمال الساميّون الذين عملوا مع المصريين في مناجم الفيروز بسيرابيط الخادم، إذ يبدو أن الكتابة المصرية الهيروغليفية بعلاماتها التي تصل الى حوالي ٦٥٠ علامة، وبخصائصها المقطعية المعقدة، قد استعصت على هؤلاء الساميّين البسطاء، فبسّطوا بعض علامات هذه الكتابة الى حروف أبجدية، واتبعوا في ذلك طريقة تعرف في علم اللغات بالطريقة الأكروفونية (acrophonic principle)، وتتلخص في اتخاذ الصوت الأول من نطق الاسم الدّال على شكل العلامة، ليكون مدلولاً صوتياً للعلامة إذا دخلت في تركيب الكلمات. ومثال ذلك علامة المنزل في الهيروغليفية 𓉐، فقد اتخذها هؤلاء الساميّون لتدل على حرف الباء، لأن المنزل يدعى «بيت» في لغتهم، ولأن أول حرف في هذه الكلمة هو حرف الباء.

وهكذا خضعت الكتابة الهيروغليفية المصرية لنوع من التعديل على أيدي هؤلاء الساميّين، أدّى الى انتقاء علامات معينة من علاماتها الكثيرة، وتغيير طبيعة هذه العلامات من المقطعية الى الأبجدية، وبذلك تكونت الأبجدية البروتوسينائية التي اشتملت على ٢٧ حرفاً.

والواقع أن هذا الاكتشاف الذى توصل اليه الساميّون يشكل تحولاً جذرياً في تاريخ الكتابة، حقيقة أن الكتابة الهيروغليفية المصرية كان بها ٢٤ حرفاً أبجدياً، ولكن المصريين لم يستخدموا هذه الحروف الأبجدية بمفردها، وانما استخدموها كمكمل صوتي للعلامات المقطعية (في الغالب)*[د]، ومن هنا فقدت العلامات الأبجدية أهم ما يميزها.

وقد اختلف الباحثون في زمن اختراع الكتابة البروتوسينائية، فبعضهم يرى أنه في عصر الدولة الوسطى، وبالتحديد عصر الأسرة الثانية عشرة، بينما يرى آخرون أنها ترجع الى عصر الدولة الحديثة، وبالتحديد عصر الأسرة الثامنة عشرة (ما بين القرنين السادس عشر والرابع عشر ق. م.)، حينما شهدت منطقة سيرابيط الخادم نشاطاً واسعاً لفراعنة هذه الأسرة، لا يقل عن نشاط فراعنة الأسرة الثانية عشرة إن لم يزد عليه، ودليل ذلك الاضافات التي

---

* **المحــرر:**

(د) ربما أفاد القارىء بأن يزاد له بأن هناك كلمات كثيرة مكتوبة كتابة هجائية صرفة.

أدخلها فراعنة هذه الأسرة على معبد «سيرابيط الخادم»، والتي جعلت مبانيه تمتد أمام الكهف والمباني التي من عهد الأسرة الثانية عشرة امتداداً كبيراً، بحيث فاق حجمه كثيراً ما كان عليه في عصر الأسرة الثانية عشرة.

وهناك رأى ثالث يوفق بين هذين الرأيين، ومؤداه أن اختراع الكتابة البروتوسينائية، يرجع الى عصر الأسرة الثانية عشرة، بينما يرجع تاريخ أغلب النقوش المكتشفة لهذه الكتابة الى عصر الأسرة الثامنة عشرة، وبالتحديد الى عصري حتشبسوت وتحتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق.م.)[٩].

وقد انتقلت الكتابة البروتوسينائية الى الجزيرة العربية حيث تفرعت منها الأبجدية السامية الجنوبية[١٠]. وفي الغالب حدث ذلك عبر الطريق التجاري المشهور الذي كان يخترق الجزيرة العربية، كما ذكرنا من شمالها الى جنوبها ماراً بالحجاز واليمن، ويظهر ذلك بوضوح من المقارنة بين أشكال بعض العلامات الهيروغليفية المصرية، وبين الحروف البروتوسينائية والحروف الساميّة الجنوبية (المعينية ـ السبئية)، كما يوضح ذلك **الشكل ٢٦** .[١١]

الصوت	سامى جنوبى	بروتوسينائى	هيروغليفى
ب			
ن			
ع			
ف			

الشكل ٢٦ : مقارنة بين أشكال الحروف الساميّة الجنوبية (معينية ـ سبئية) والحروف البروتوسينائية والعلامات المصرية الهيروغليفية.

وقد اقتصرنا في هذا الجدول، كما هو واضح على الحروف الساميّة الجنوبية التي ظلت محتفظة بأشكالها الهيروغليفية الأصلية، رغم ما تعرضت له الكتابة الهيروغليفية من تعديل وتحول كما سنوضح بعد، بينما توجد حروف أخرى كثيرة تؤكد اشتقاق الحروف الساميّة الجنوبية[١٢]، من الحروف البروتوسينائية، كما يوضح الشكل ٢٧ .[١٣]

ورغم أنه يكاد يكون هناك شبه اجماع بين الباحثين، على أن الفرع الجنوبي للكتابة الساميّة الجنوبية، أي الأبجدية العربية الجنوبية[١٤]، أسبق في اشتقاقه من البروتوسينائية من الأبجدية العربية الشمالية (الفرع الشمالي للأبجدية الساميّة الجنوبية) ـ بل إن بعضهم يرى أن الأبجدية العربية الجنوبية هي أصل الأبجدية الشمالية ـ فقد

الحـرف	بروتوسينائى	سامى جنوبى (معيني - سبئى)
هـ		
و		
ح		
ل		
م		
ر		
ش		

الشكل ٢٧ : جدول يوضح اشتقاق الحروف الساميّة من الحروف البر وتوسينائية .

خالف بعض الباحثين هذا الاتجاه، ونادوا بأن الأبجدية العربية الشمالية، وبالذات الأبجدية الثمودية، أسبق في اشتقاقها من البروتوسينائية من الأبجدية العربية الجنوبية، بل في رأيهم أن هذه الأخيرة هي التي اشتقت من أبجدية عربية شمالية، يسمونها الأبجدية أو الكتابة الثمودية القديمة، وصاحب هذا الرأى هو العالم الألماني هيوبرت جريمّة[١٥] (Hubert Grimme)، ويؤيده في ذلك عالم ألماني آخر هو هانز ينزن (Hans Jensen)[١٦]. وخلاصة هذا الرأي أن هناك نوعين من الكتابة الثمودية، إحداهما هو الكتابة الثمودية القديمة التي ترجع في رأيهما الى ما قبل عام ١٠٠٠ق.م.، والأخرى هي الثمودية الجديدة أو المتأخرة، وهي تنتشر على صخور الحجاز مع الكتابات العربية الشمالية الأخرى. وفي رأيهما أيضاً أن حروف الكتابة الثمودية القديمة، تظهر شبهاً شديداً مع حروف الكتابة البروتوسينائية، كما يوضح ذلك **الشكل ٢٨** .[١٧]

وبالاضافة الى هذا التشابه في أشكال الحروف، فان الكتابتين الثمودية القديمة والبروتوسينائية تتشابهان في خصائصهما، فالكتابة الثمودية القديمة تكتب أفقية ورأسية مثل البروتوسينائية (وذلك على عكس المعينية السبئية التي تكتب أفقية فقط)، وتوجد بهما الحروف المزدوجة أى المؤلفة من حرفين متصلين، ومثال ذلك في البروتوسينائية

الصوت	الحرف الثمودى	الحرف البر وتو سينائى	رقم النقش البر وتو سينائى
ب			٣٥٢
ج			٣٥٥
د			٣٤٥
هـ			٣٥٤
و			٣٤٩
ز			٣٥٩
ح			٣٤٥
ك			٣٥٣
ل			٣٥٨

الصوت	الحرف الثمودى	الحرف البر وتو سينائى	رقم النقش البر وتو سينائى
أ			٣٥٧
ن			٣٥٩
س			٣٤٦
ح			٣٥٨
ف			٣٤٩
ق			٣٥٣
ر			٣٤٦
ش			٣٤٦
ت			٣٥٦

الشكل ٢٨ : مقارنة بين الحروف الثمودية القديمة والحروف البر وتوسينائية .

علامة التي تجمع بين حرف الواو وبين حرف التاء . ولا توجد في كل من الثمودية والبروتوسينائية فواصل بين الكلمات (على العكس من المعينية السبئية)[١٨].

ويرى هذان الباحثان أن الذين ابتكروا الكتابة الثمودية القديمة، هم سكان مَدْين الذين عاشوا في شبه جزيرة سيناء خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م.، وكانوا أقرب الجيران الى الساميّين أصحاب الكتابة البروتوسينائية، وعلى ذلك فإن الكتابة الثمودية القديمة إما أن تكون هي الكتابة المَدْينية أو أن تكون قوية الصلة جداً بهذه الكتابة، وأن الكتابة الساميّة الجنوبية ما هي إلا كتابة بروتوسينائية في تشكيل مَدْيَني.

أما عن اشتقاق الكتابات العربية الأخرى، فيريان أن الكتابة المَدْيَنية بوصفها المرحلة المتوسطة بين الكتابتين البروتوسينائية والثمودية القديمة، أو بوصفها الكتابة الثمودية القديمة نفسها، كانت الأصل المشترك للكتابات العربية، فقد اشتقت منها الكتابة العربية الشمالية (الديدانية واللحيانية).

وقد رأى بعض الباحثين في أحد النقوش البروتوسينائية ما يشير الى سكان مَدْين القدماء، فقال إن الاسم **قني** الذي ورد في النقش **رقم ٣٥١**، هو اسم القينيين الذين كانوا يشتغلون في عمليات تعدين النحاس في وادي عرابة بمنطقة مَدْين[١٩]. ولعل ذلك يشبه الاسم الذي ورد على المسلة التي وجدت في منطقة سيرابيط الخادم كما سبق أن ذكرنا[٢٠].

وامتداداً للرأي القائل بنشأة الكتابة الساميّة الجنوبية في منطقة مدين، يرى البعض في العثور على جرة (أو كسرة منها) في إحدى الطبقات التي ترجع للقرن الثامن ق.م.، في منطقة تل الخليفة (عصيون جابر القديمة)، التي حفر عليها حرفان من أحرف الكتابة الساميّة الجنوبية المبكرة - يرى هؤلاء في ذلك دليلاً على أن المدينيين قد استخدموا الكتابة الساميّة الجنوبية[٢١].

من العرض السابق لنشأة الكتابة الساميّة الجنوبية، يتبين أن هذه الكتابة اشتقت من الكتابة المصرية الهيروغليفية بطريق غير مباشر، أي عن طريق الكتابة البروتوسينائية. وقد حدث هذا الاشتقاق إما بالطريق المباشر على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر الى اليمن، حيث نشأت الكتابة العربية الجنوبية (المعينية السبئية - الحميرية وغيرها) في اليمن. ومن اليمن انتقلت الكتابة العربية الجنوبية نحو الشمال الى المراكز التجارية في العلا ومدائن صالح وغيرها، ونتج عن هذا الانتقال نشأة الكتابة العربية الشمالية (الديدانية واللحيانية والثمودية الجديدة)، أو أن هذا الاشتقاق حدث بالطريق غير المباشر (إذا صح رأي القائلين بنظرية قدم الكتابة الثمودية) عبر منطقة مدين، حيث اشتقت الكتابات المدينية والثمودية القديمة من البروتوسينائية، وعن طريقهما نشأت الكتابة العربية الجنوبية في اليمن (المعينية، السبئية.. الخ)، كما نشأت الكتابة العربية الشمالية في الحجاز (الديدانية، اللحيانية.. الخ).

أما عن تفسير كيفية حدوث التأثير الحضاري في مجال الكتابة، فمن الدراسة السابقة لنشأة الكتابة الساميّة الجنوبية وتطورها عن الكتابة المصرية الهيروغليفية، نلاحظ أنه طبقاً للأسس التي سبق شرحها بشأن درجات التغيير

التي تتعرض لها المظاهر الحضارية بوجه عام أثناء انتقالها من مكان لآخر، فقد سارت درجات التغيير التي حدثت في الكتابة المصرية، أثناء انتقالها من مصر الى مناطق البحر الأحمر على النمط نفسه، فعندما انتقلت الكتابة الهيروغليفية الى شبه جزيرة سيناء وصادفت بيئة صحراوية رعوية، تختلف اختلافاً جوهرياً في ظروفها عن البيئة الزراعية المصرية، كان من الطبيعي أن يحدث تغيير في علامات الكتابة المصرية، على يد سكان سيناء الساميّين تتلاءم مع الظروف الجغرافية والبشرية السائدة في بيئتهم الصحراوية. ولما كان أهم ما يميز البيئة الصحراوية هو البساطة والتجريد، فقد كان من الطبيعي أيضاً أن تتجه علامات الكتابة نحو التبسيط والتجريد سواء في الشكل أو في المضمون. فمن حيث الشكل، بسّط هؤلاء الساميّون الأشكال التصويرية المعقدة للعلامات الهيروغليفية، ومن حيث المضمون، حوّلوا بعض العلامات المقطعية وبعض مخصصات المعاني في الكتابة الهيروغليفية الى علامات أبجدية. وبذلك خرجت الكتابة البروتوسينائية بهاتين الصفتين، وهما الصفة الأبجدية والصفة التجريدية.

ولكن بالنظر لقوة التأثيرات الحضارية المصرية في سيناء لقربها من مصر من ناحية، ولاستمرار النشاط المصري في سيناء عصوراً طويلة من ناحية أخرى، فإن هذا التغيير اقتصر على مرحلته الأولى وهي مرحلة الملاءمة والتوفيق، فبقيت علامات الكتابة المصرية تحتفظ في الكتابة البروتوسينائية بأشكالها التصويرية بوجه عام، وكانت هذه الصفة عاملاً أساسياً في توصل العلماء الى قراءة هذه الكتابة وحل رموزها. وقد تمكن العلامة ألان جاردنر (Alan Gardiner) ـ وهو أول من قرأ الكتابة البروتوسينائية ـ من ذلك باتباع القاعدة الأكروفونية (acrophonic)، التي تعتمد أساساً على شكل العلامة وصورتها[٢٢].

وعندما انتقلت الكتابة المصرية الهيروغليفية في شكل الكتابة البروتوسينائية الى مناطق الجزيرة العربية، (سواء الى اليمن مباشرة أم عن طريق منطقة مدين كما سبق القول)، بدأت تتعرض لعوامل التعديل، أى للدرجة الثانية من درجات التغيير، وذلك نتيجة الظروف الجغرافية والبشرية التي سبق ذكرها، وظهر هذا التعديل بوضوح في الكتابة الساميّة الجنوبية، حيث ازداد ابتعادها عن الصفة التصويرية، فأخذت تغلب عليها الصفة الخطّية.

ولكن رغم هذا التعديل الذي حدث في أشكال العلامات، فقد حافظت الكتابة السامية الجنوبية المبكرة على الخصائص العامة للكتابة البروتوسينائية، ومنها الاتجاه الرأسي للكتابة ووجود العلامات المزدوجة (كما تظهر في الكتابة الثمودية القديمة)، ثم الاتجاه من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين، أو ما يعرف بسير المحراث (boustrophedon) وهو شيء يظهر في الكتابة العربية الجنوبية المبكرة.

من كل ما تقدم نرى أن الكتابة تقدم لنا مثالاً نموذجياً لدرجات التغيير التي تخضع لها المظاهر الحضارية أثناء انتقالها طبقاً لظاهرة الانتشار الحضاري. فالكتابة البروتوسينائية تمثل مرحلة «التعديل» في الكتابة الهيروغليفية، والكتابة الساميّة الجنوبية تمثل مرحلة «التحول» في الكتابة الهيروغليفية، وهي في الوقت نفسه تمثل مرحلة «التعديل» في الكتابة البروتوسينائية.

الأصول المصرية لبعض المظاهر المادية للعبادات والطقوس الدينية في جنوب الجزيرة العربية

لم تكن الكتابة هي المظهر الحضاري المصري الوحيد الذى انتقل الى الجزيرة العربية عبر سيناء، بل هناك مظاهر أخرى مثل موائد القربان ومذابح البخور وأحواض التطهر في المعابد، وشواهد القبور.

١ ـ موائد القربان

إن ذلك الشكل الخاص الذي يميز موائد القربان المصرية القديمة، المصمم على هيئة مائدة مربعة مصنوعة من الحجر، بها رسوم محفورة لأنواع الأطعمة وأواني الشراب*(هـ)، بينما في وسطها تجويف يبرز من أحد جوانبها على شكل مجرى لتصريف السوائل، هذا الشكل المصري ظهر في مذبح معيني وجد في اليمن[٢٣] **(اللوحة ٣٥)**.

ولا شك أن التأثير الحضاري كان له دور كبير في انتشار شكل مائدة القربان المصرية[٢٤] في الجزيرة العربية، بدليل أنه وجدت مائدة قربان مصرية بالشكل ذاته تقريباً في منطقة سيرابيط الخادم، كما وجدت في المنطقة نفسها مائدة قربان تنتمي[٢٥] للحضارة المروية (حضارة نوبية متمصرة*(و))، وهي مطابقة تماماً لشكل المذبح المعيني.

٢ ـ مذابح البخور أو المباخر

عثر في المعبد المصري بسيرابيط الخادم على مذابح للبخور ذات شكل[٢٦] يبدو غير مألوف لأول وهلة في مذابح البخور المصرية، إذ أن الأداة الشائعة في حرق البخور في مصر الفرعونية هي مبخرة تتكون من قضيب من المعدن على شكل ذراع ويد بشرية، تقبض على إناء نصف بيضوي تظهر فيه كرات البخور المشتعلة. وهناك مباخر مصرية أقل شيوعاً من هذه المبخرة، وهي على شكل طبق نصف دائرى أو شبه منحرف مقلوب. أما مذابح البخور التي وجدت في سيرابيط الخادم، فهي شديدة الشبه بالمذابح الساميّة القديمة، وخاصة التي كانت تستخدم عند العبرانيين. كما أنها تشبه بعض أشكال مذابح البخور اليمنية القديمة[٢٧].

وقد اتخذ بعض الباحثين من عدم العثور على مذابح للبخور في المعابد في مصر نفسها، تشبه تلك التي وجدت في معبد سيرابيط الخادم بسيناء، ومن التشابه بين مذابح البخور هذه وبين مذابح البخور الساميّة، دليلاً على وجود تأثير سامي في العبادات المصرية في سيناء[٢٨]. غير أنه توجد على جدران المقابر المصرية رسوم (ولو أنها نادرة)، لأشكال مذابح بخور[٢٩] سيناء، مما يدل على أن المصريين عرفوا هذا النوع من المذابح، ولكن لم يكن شائع الاستعمال في مصر، مثل المباخر التي ذكرناها.

*** المحـــرر:**

(هـ) المقصود بالرسم الأشربة التي تحتويها، أو يرجى أن تحتويها، هذه الأواني.

(و) ليست الحضارة المرويّة «نوبية متمصّرة»؛ فهي ليست نوبية لأنها لم تقم في النوبة وإنما النوبة جزء من أرضها التي قامت عليها، ومروي تبعد أكثر من ٣٠٠ميل عن حدود النوبة. كذلك فهي ليست متمصّرة تماماً وإنما في بعض جوانبها وإن كانت هذه الجوانب مهمة.

وعلى هذا فان مذابح البخور هذه، مثال آخر لتأثير حضاري مصري في اليمن عبر سيناء.

٣ ـ أحواض التطهر والاغتسال في المعابد

عثر الباحثون في بلدة صرواح عاصمة مكارب سبأ باليمن على معبد به حوض للمياه قائم الزوايا ومحاط بأعمدة بعضها مثمن وبعضها ذو ستة عشر ضلعاً[٣٠]. وهذا النظام في وضع أحواض المياه، أي وجود الحوض داخل المعبد نفسه وإحاطته بأعمدة، يشبه النظام الذي يظهر في المعبد المصري بسيرابيط الخادم **(اللوحة ٣٦/ أ)**، مع الفارق هو وجود أربعة أحواض صغيرة من الحجر، بعضها قائم الزوايا وبعضها مستدير الشكل، في أماكن متفرقة من معبد سيرابيط الخادم[٣١]. والحوض المستدير أو ذو الشكل الدائري محاط بأعمدة تعلوها رؤوس حتحور، ربة المعبد[٣٢]، ولعله في ذلك يشبه الحوض الدائري الكبير الموجود في منطقة خريبة العُلا (إذ كان من أغراضه التطهر والاغتسال الى جانب السقاية أو تخزين المياه على ما يظن) بالحجاز **(اللوحة ٣٦/ ب)**، والذي يطلق عليه الأهالي اسم «محلب الناقة[٣٣]». وإذا صح ما رواه جوسان (Jaussen) وسافنياك (Savignac) اللذان شاهدا هذا الحوض في مطلع القرن الحالي، من أنهما وجدا من الأدلة ما يشير الى أن هذا الحوض كان يقوم وسط فناء مكشوف تحف به أروقة (بوائك) بها تماثيل[٣٤]، فانه بذلك يشبه الى حد ما الحوض المحاط بأعمدة تعلوها التيجان الحتحورية في معبد سيرابيط الخادم (مع الفارق في حجم الحوضين). وعلى هذا فإننا أمام مثال لأحواض المياه في المعابد في وسط الجزيرة العربية وجنوبها.

ولما كانت أحواض التطهر في المعابد نادرة في معابد مصر الفرعونية نفسها، إذ لم يعثر في أي من هذه المعابد على أحواض على غرار نظام أحواض معبد سيرابيط الخادم، بينما هناك شبه كبير بين هذا النظام وبين نظام التطهر في المعابد الساميّة، وخاصة المعابد العبرانية، إذ جاء في **«الإصحاح ٤٠ : ٧» من سفر الخروج** أن مكان المرحضة (حوض التطهر والاغتسال) أمام خيمة الاجتماع (المعبد)، وبينها وبين مذبح المحرقة، فقد اتخذ فلندرز بيتري (Flinders Petrie) مكتشف معبد سيرابيط الخادم من ذلك دليلاً على وجود تأثير سامي في العبادات المصرية في منطقة سيرابيط الخادم[٣٥].

غير أنه وان كانت أحواض التطهر في المعابد المصرية نادرة كما قلنا، فقد وجدت آثار أحواض في بعض المعابد المصرية منذ أقدم عصور التاريخ المصري القديم، ومثال ذلك الأحواض القائمة أمام مدخل معبد أبي صير الذى يرجع لعصر الأسرة الخامسة[٣٦] (حوالي القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد). وفضلاً عن ذلك كان التطهر والاغتسال قبل الدخول الى المعابد شيئاً مألوفاً في العبادات المصرية القديمة. وقد وردت الاشارة الى ذلك في الرسوم المصرية، وفي روايات الكتاب اليونان. ففي الرسوم هناك رسم على أحد صروح الكرنك بالأقصر، يظهر فيه الكهنة وهم يقفون في حوض ويصبون الماء على أجسامهم[٣٧]، كما ذكر كتاب اليونان ومنهم هيرودوت أن الكاهن المصري كان يغتسل بالماء البارد أربع مرات يومياً، مرتين بالنهار ومرتين بالليل[٣٨].

٤ ـ اللوحات النذرية والتذكارية

وجدت في جبانة تمنع عاصمة قتبان القديمة بجنوب اليمن لوحات من الحجر **(اللوحة ٣٧/ ب)**. تتكون

اللوحة من شاخص أو نصب يرتكز على قاعدة عليها نقش يحوي اسم صاحب اللوحة، والشاخص والقاعدة منحوتين من قطعة واحدة من الحجر، هو المرمر في أغلب الأحيان. وقد اعتبر مكتشفو هذه اللوحات أنها من نوع اللوحات التذكارية (memorial stelae)، ولكنهم لم يحددوا بالضبط الغرض منها، وقد رجّحوا أنها من نوع الأنصاب التي كانت منتشرة في وسط الجزيرة العربية وشمالها، وأنها ذات صلة بالـ(*Maṣṣēbât*) المألوفة في بلاد كنعان، كما كان العبرانيون يسمّونها.

ومن المعروف أن الأصل في الأنصاب، كما تشير التوراة أنها «مستقر روح الإله»، وعلى هذا الأساس سميت «بيت - إيل» أي بيت الإله، ولكن الفينيقيين أطلقوا عليها تسمية تشير الى أنهم اعتبروها مستقرا لروح المتوفى، أى شاهد قبر[٣٩]. وقد انتقل هذا المفهوم أيضا الى العقائد الأخرى، ولهذا كان اسم المتوفى يكتب عليها، وكان اليهود يسمون الحجر نفسه «الروح»[٤٠].

وقد عثر في معبد سيرابيط الخادم على لوحات كبيرة، بعضها يبدو أنه يشبه الأنصاب في وظيفتها كبيت للإله، ولكن بعضها الآخر له صفة جنائزية مثل اللوحات اليمنية، ومثال ذلك لوحة لشخص يدعى **سُبك - حِرْ - حَبْ**[٤١]، عليها نقش هيروغليفي هو عبارة عن صيغة جنائزية يطلب فيها **سُبك - حِرْ - حَبْ** من الإلهة حتحور ربة المنطقة، أن تنعم على روحه بالقرابين (**اللوحة ٣٧/ أ**). وترجع هذه اللوحة الى عصر الأسرة الثانية عشرة (حوالي عام ١٧٩٠ق. م.). وهناك تشابه كبير بين شكل هذه اللوحة وبين اللوحات التي وجدت في جبانة تمنع التي أشرنا إليها، ومثال ذلك لوحة تخص سيدة تدعى «سكينة (من قبيلة) غريم»[٤٢]، والاختلاف الوحيد بين اللوحتين هو أن اللوحة المصرية نقشت الكتابة عليها نفسها، بينما شكلت قاعدتها على هيئة مائدة قربان، بينما اللوحة اليمنية خالية من الكتابة (شأن سائر اللوحات التي وجدت في جبانة تمنع)، فقد نقشت الكتابة على قاعدتها.

أما اللوحات المصرية الأخرى التي وجدت في منطقة سيرابيط الخادم، والتي تشبه في وظيفتها الأنصاب الساميّة، فمن بينها اثنتا عشرة لوحة أقيمت على طول الممر المؤدي الى المعبد[٤٣]، ويرى فلندرز بيتري (Flinders Petrie)، مكتشفها أن هذه الأنصاب من نوع اللوحات التذكارية التي يقيمها أصحابها في الأماكن المقدسة التي يزورونها أو يحجون إليها، لتخليد زيارتهم للمكان وللتقرب لإلهة المكان، وهي عادة كانت شائعة لدى الساميين. وهذا النوع من الأنصاب هو الذي أطلقت عليه التوراة اسم «بيت - إيل»، كما ورد في «الإصحاح» ٢٨ : ١٠ - ١٩ من **سفر التكوين**، عند الحديث عن مبيت يعقوب في حاران ووضعه حجراً تحت رأسه، وأنه عندما رأى حلمًا في منامه «أخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً، وصب زيتاً على رأسه، ودعا اسم ذلك المكان «بيت - إيل» (*bethel*).

وقد لاحظ بيتري أن كثيراً من هذه اللوحات أو الأنصاب في معبد سيرابيط الخادم تحيط بها أسوار منخفضة أو سواتر، فاستخلص من كل ذلك أن المصريين تأثروا في هذه المنطقة بالعادة الساميّة الخاصة باستيحاء الآلهة في الأحلام، وأنهم كانوا يمارسون هذه العادة في منطقة سيرابيط الخادم، وأن الغرض منها كان استيحاء الإلهة حتحور ربة الفيروز، لكي ترشدهم في منامهم الى مواطن الفيروز في أعماق الصخر الصلد، وأنهم عندما كانوا يتوصلون إلى

ذلك، كانوا يقيمون هذه اللوحات أو الأنصاب في أماكن نومهم، شكراً للإلهة على إرشادها لهم لنيل مقصدهم[٤٤].

وبناء على هذا الرأي، فربما يكون المصريون قد تأثروا بالعادة الساميّة بشأن الأنصاب، أثناء اتصالهم بالساميّين في سيناء، بينما تأثر الساميّون بالوظيفة الجنائزية للوحة المصرية وبتشكيلها الفني، كما يدل على ذلك الشبه بين لوحة سُبك ـ حِرْ ـ حَبْ المصري، وبين لوحة «سكينة» اليمنية، فقد كانت العادات الجنائزية تسود الحياة المصرية، فكان لها قوة تأثير، وربما يكون هذا هو السبب في تأثر اللوحات اليمنية باللوحات الجنائزية المصرية.

مما سبق عرضه من أمثلة المظاهر المادية للعبادات في جنوب الجزيرة العربية التي يبدو فيها التأثير المصري القديم، يتبين أن هناك تأثيراً مصرياً غير مباشر في حضارات جنوب الجزيرة العربية. ولا شك أن هناك فارقاً زمنياً كبيراً بين الأصول المصرية وبين النماذج اليمنية المتأثرة بها. ولكن ذلك نتيجة ـ كما قلنا ـ للاتصال غير المباشر بين الطرفين، أي لوجود جماعات وسيطة نقلت هذا التأثير من سيناء الى جنوب الجزيرة العربية، كما رأينا في حالة انتقال الكتابة. وربما تكون الشعوب التي تسكن المناطق الواقعة على طول الطريق التجاري في الحجاز الذي انتقل خلاله هذا التأثير، قد تأثرت بدورها بالنماذج المصرية، وربما ضاعت الآثار التي تمثل مراحل هذا التأثير ضمن ما ضاع من آثار هذه المناطق، أو ربما كان سبب ذلك قيام الحضارة في هذه المناطق، في زمن متأخر نسبياً عن حضارات جنوب الجزيرة العربية.

وإن ما ذكرنا فيما سبق هي الشواهد الأساسية على وجود هذا التأثير، وهناك شواهد أخرى ثانوية ولكنها إذا أضيفت الى الشواهد الأساسية، فلا شك أنها تؤكد حدوث ذلك التأثير، وسوف نجمل هذه الشواهد الثانوية فيما يأتي:

أ ـ شواهد القبور ذوات الفجوات

وجدت في مأرب مجموعة من شواهد القبور ذوات شكل خاص، يقربها مما يعرف في علم المصريات «بالأبواب الوهمية»، إذ شكلت الشواهد اليمنية على هيئة لوحات مستطيلة بها فجوة بداخلها رأس تمثال منحوت من المرمر لصاحب الشاهد أو اللوحة، وقد نقش اسمه على واجهة اللوحة أسفل الرأس مباشرة، ومن الأمثلة على ذلك شاهد أو لوحة تخص رجلاً يدعى **إيل ـ شرح ـ احوض (اللوحة ٣٨/ ب)**[٤٥].

هذا الطراز من شواهد القبور اليمنية يشبه من بعض الوجوه الأبواب الوهمية المصرية التي كانت تنحت في الجدار داخل المقابر (**اللوحة ٣٨/ أ**)، ويتميز بعضها[٤٦] بوجود فجوة بها تمثال نصفي للميت الذي كتب اسمه بالهيروغليفية أسفل ذلك التمثال.

ب ـ أوضاع بعض التماثيل اليمنية وهيئاتها

من بين التماثيل اليمنية التي تشبه التماثيل المصرية، التمثال البرونزي المشهور لمعد يكرب الذى وجد في حرم بلقيس في مأرب (اللوحة ٣٩/ب)[٤٧]. ويرجع للقرن السابع والسادس ق.م.، ويتمثل التأثير المصري في وقفة

التمثال وخطوة القدم اليسرى الى الأمام، وكذلك في جلد الفهد الذى يغطي ظهر التمثال، وكانت بعض طوائف الكهنة في مصر الفرعونية ترتدي جلد الفهد، وخاصة الطائفة المسماة **كهنة سم**، وكان أفرادها يقومون بالطقوس الدينية الجنازية أمام جثة الميت.

ومن هذه التماثيل أيضاً، تمثال لشخص جالس[٤٨] يظهر فيه أسلوب التماثيل المصرية في الجلسة وطريقة وضع اليدين فوق الركبتين، كما يظهر أيضاً في شكل الشعر أو غطاء الرأس (**اللوحة ٤٠/ أ، ب**).

وهناك تمثال آخر من الرخام لسيدة وجد في إحدى مقابر تمنع[٤٩]، ويلاحظ عليها أن خصلات شعرها صففت بطريقة تشبه الطريقة المصرية القديمة في تصفيف شعر السيدات، وكانت عينا التمثال مطعمتين باللازورد الأزرق، وربما تشبه في ذلك طريقة تطعيم عيون التماثيل في مصر الفرعونية.

هذه الأمثلة الواضحة من التماثيل اليمنية التي تشبه في أسلوبها الأسلوب المصري في تشكيل التماثيل، لا يستبعد أن تكون نتيجة تأثير مصري، بل يحتمل جداً أن نماذج مصرية كانت موجودة أمام أعين الفنانين الذين أخرجوا تلك الآثار، فقد أشار **البريبلوس***[ز] الى وجود تماثيل من مصر في بلاد اليمن[٥٠].

جـ ـ وهناك في اليمن أيضاً أمثلة من الزخارف المعمارية والصناعية، تشبه الى حد كبير الزخارف المصرية، فمن الزخارف المعمارية يوجد منها ما يشبه الزخارف المصرية التي على هيئة أبواب أو واجهات المنازل، ومن أمثلتها الزخارف المحفورة على لوحة سبئية مشهورة محفوظة في متحف استنبول[٥١]، وهذا الطراز الزخرفي كان مألوفاً في مصر الفرعونية، منذ عصر الدولة القديمة (**اللوحة ٤١/ أ، ب**).

أما عن الزخارف الصناعية فهناك مثال بديع لها هو شكل زخرفي لمصباح سبئي من البرونز، يظهر فوقه وعل وهو يقفز برجليه الأماميتين فوق المصباح[٥٢]، وحركة الوعل هذه لها ما يشبهها في مقبض إناء مصري[٥٣] يرجع الى عصر الدولة الحديثة الفرعونية، عثر عليه في منطقة تل بسطة بشرق الدلتا (بالقرب من الزقازيق)، فقد شكل الوعل (أو الماعز) في الإناء المصري، وهو يرفع رجليه الأماميتين نحو الإناء، مثل الوعل في المصباح السبئي.

هذه الأمثلة من التماثيل والزخارف المعمارية والصناعية، إذا أخذناها وحدها ربما لا تصلح لأن تكون أدلة على وجود تأثير مصري في حضارة اليمن، ولكنها إذا أضيفت الى الشواهد الأخرى التي ذكرناها، فإنها تكون في مجموعها أدلة واضحة على وجود ذلك التأثير، وعلى أنه كان تأثيراً غير مباشر، بدليل أن التأثيرات التي ظهرت في الآثار اليمنية، كانت أقرب الى الاقتباس والتحوير والتعديل وما اليها من الظواهر التي تحدث عادة نتيجة للتأثير غير المباشر، منها إلى النقل الذى يحدث غالباً بنتيجة الصلات المباشرة.

---

* **المحـــرر:**

(ز) كذا بالأصـل. والمقصـود منه *Periplus Maris Erythraei* ، ويعرف في العربية باسم **الطواف حول البحر الإريثري**. والبحر المقصود هو البحر العربي. راجع بحث نقولا زيادة في هذا الكتاب.

الأصول المصرية لبعض أنواع السفن العربية القديمة ولأجزائها

كان للمصريين القدماء نشاط ملاحي واسع في البحر الأحمر، تمثّل في الرحلات المستمرة للسفن المصرية الى السواحل الإفريقية لهذا البحر، لجلب البخور وغيره من سلع البحر الأحمر، مما أدى الى انتشار تأثيرات ملاحية مصرية تظهر بوضوح في الحضارة البحرية لشعوب البحر الأحمر والمحيط الهندي، وفي أشكال بعض أجزائها. وسوف نرى أنه رغم أن المصريين لم يبحروا بأنفسهم الى سواحل الجزيرة العربية، بل اقتصر نشاطهم على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر(٥٤)، فقد انتقلت هذه التأثيرات الى السفن العربية القديمة بالنظر للنشاط الدائم لسكان الجزيرة العربية على السواحل الإفريقية للبحر الأحمر والمحيط الهندي، وترددهم بسفنهم على هذه السواحل واستقرارهم عليها، وإنشائهم المراكز التجارية على سواحلها منذ أقدم العصور، كما سنذكر بعد.

والواقع أن التأثيرات المصرية في أساليب الملاحة لدى شعوب البحر الأحمر شحيحة، ولكننا سوف نحاول الوصول اليها من المقارنة بين السفن التي كانت تستخدم في البحر الأحمر والمحيط الهندي في العصور القديمة والوسطى، وبين السفن المصرية القديمة، وبذلك سوف نخرج عن النطاق الزمني (العصور القديمة) والنطاق المكاني (البحر الأحمر) لهذا البحث، وأسباب ذلك أن مجال نشاط السفن العربية القديمة امتد الى المحيط الهندي أيضاً. ولا شك أنها بدورها تركت تأثيرها هناك، ولأن التأثيرات الحضارية البحرية لا تختلف كثيراً في العصور الوسطى عنها في العصور القديمة، بسبب طبيعة التقاليد البحرية التي تمتاز بثباتها النسبي، وبعدم تعرضها لتغيير كبير عبر العصور أو المسافات، نتيجة لقيامها على أساس ثقافي مشترك يفرضه النمط الموحد للبيئة البحرية (على عكس البيئات البرية المتعددة الأنماط)، ولسهولة المواصلات البحرية وعدم وجود حواجز أمامها، مما يساعد على انتشار هذه التقاليد لمسافات شاسعة.

أطلق المصريون القدماء على السفن التي استخدموها في البحر الأحمر اسمًا عاماً هو حعو بمعنى «سفن»، أو اسمًا خاصا هو كبنت، وهذه الكلمة الأخيرة مشتقة من الاسم كبن الذي أطلقه المصريون على ميناء ببلوس أو جبيل الواقع على الساحل اللبناني شمال بيروت، وكان المصريون يستوردون من هذا الميناء أخشاب الأرز. وقد دعت هذه التسمية بعض الباحثين الى الادعاء بأن المصريين القدماء كانوا يعتمدون على الفينيقيين في صناعة سفنهم، أي أن السفن المصرية كانت تصنع في ميناء ببلوس الفينيقي، ثم تنقل الى مصر لاستخدامها في البحر الأحمر، ولكن ثبت عدم صحة هذا الادعاء أخيراً بالكشف عن موقع ميناء مصري قديم على ساحل البحر الأحمر، والعثور على نقوش تشير صراحة الى أن صناعة السفن التي كانت تستخدم في البحر الأحمر كانت تتم في داخل مصر نفسها(٥٥). كما وجدت أدلة على أن هذه السفن قد فكت أجزاء ونقلت عبر الطريق الصحراوية من النيل الى البحر الأحمر، حيث ركبت في هذا الميناء واستخدمت في الإبحار منه، وأنه بعد عودة السفن من رحلتها، أعيد فكها في الميناء ونقلت أجـزاؤها مرة أخرى الى النيل لتستخدم كسفن نيلية. ولهذه الحقائق أهمية خاصة من ناحية ملاءمة نوع السفن المستخدمة في البحر الأحمر لعملية الفك والتركيب هذه، كما سنذكر بعد.

ومن الأدلة التي تم كشفها في موقع الميناء المذكور، فإن تسمية السفن التي كان المصريون يستخدمونها في

البحر الأحمر بسفن كبنت، لا يعني أن السفن المصرية كانت تصنع في ببلوس، بل يعني على الأرجح أن هذه السفن كانت تصنع من خشب الأرز الذي يستورد من ببلوس بالنظر لمتانته وطول ألواحه التي تساعد على صناعة سفن كبيرة متينة، يمكن أن تتحمل أمواج البحر الأحمر العاتية وزوابعه العنيفة.

والناحية المهمة لسفن **كبنت** هذه بالنسبة لموضوعنا، أنها كانت من نوع السفن المخيطة أو الخيطية، أي التي تشد ألواحها بالحبال ولا تستخدم فيها المسامير المعدنية (**اللوحة ٤٢/ أ**)، والدليل على ذلك نص هيروغليفي يرجع الى الأسرة السادسة الفرعونية (أوائل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد)، جاء فيه أن أحد رؤساء البعثات المصرية التي كانت تزمع السفر الى إحدى مناطق البحر الأحمر، قد قتله البدو أثناء قيامه ببناء سفينة من نوع **كبنت**[٥٦]. وقد استخدم النص كلمة**سبت** المصرية القديمة في التعبير عن عملية بناء السفينة. ثم وردت هذه الكلمة في نص آخر من العصر نفسه فوق منظر مثلث فيه سفينة وهي تبنى بشد ألواحها بالحبال (**اللوحة ٤٢/ أ**)[٥٧]. ويلاحظ أن هذه الكلمة تستخدم حتى الآن في اللغة الدارجة في مصر لتدل على السلال، والسلة*[ح] التي تصنع من البوص أو الحبال بطريقة متداخلة تشبه تداخل الحبال لشد ألواح السفينة المصرية.

وهكذا يتبين مما عرضناه بشأن سفن **كبنت**، أن السفن المخيطة أو الخيطية كانت هي النوع الذي استخدمه المصريون في رحلاتهم في البحر الأحمر بالذات.

ومن نواحي الاتفاق المهمة، أن هذا النوع أي السفن الخيطية كان هو الطراز الشائع للسفن العربية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، سواء في العصور القديمة أو العصور الوسطى كما تدلنا على ذلك الروايات التاريخية. ففي العصور القديمة، أشار مؤلف كتاب **البريلبوس**(*Periplus Maris Erythraei*)، الى أن سفن **رهابتا** (منطقة على ساحل إفريقيا الشرقي) كانت من نوع السفن المخيطة، وأن هذه السفن كانت صناعة عربية إذ يقول في هذا الصدد «... ويوجد ميناء آخر في أزانيا يسمى **رهابتا** (*Rhapta*) وقد اشتق اسمه من السفن المخيطة (*Rhapta Plaiarion*) ... وكان أمير معافر (دولة يمنية قديمة) يحكمها بمقتضى حق قديم يخضعها لسيادة المدينة التي تلقاها أول ما تلقاه على ساحل بلاد العرب ... وأهل **موزا** (مخا الحالية) يحكمونها الآن باسمه، ويبعثون اليها بسفن تجارية يستخدمون في معظمها ربابنة ووكلاء عرباً يألفون أهل البلاد، ويتزاوجون معهم ويعرفون الساحل واللغة»[٥٨].

وقد لاحظ بعض الباحثين من ترجمة مؤلف **البريبلوس** لكلمة **رهابتا** بالسفن «المخيطة» أو «الخيطية» ومن إشارته لوجود تأثيرات عربية قوية في **رهابتا** هذه، أن الكلمة قريبة من الكلمة العربية «ربط»، ولعلها نفس الكلمة لأنها تشير الى عملية بناء هذه السفن بربطها بالحبال. ويبدو في رأي هؤلاء الباحثين أن كلمة «ربط» حرفت على لسان الكتاب الكلاسيكيين الى **رهابتا**.

*** المحـــرر:**

(ح) كلمـة «سبت» المستعملة في مصر حالياً بمعنى «سلة»، لا علاقـة لها بالمعنى القديم وإنما هي مأخوذة من التركية، ذلك أن اللهجة المصرية الدارجة قد أخذت من التركية الكثير من أمثال هذه التسميات من ذلك «الشوال» بمعنى «الكيس» و «عربة» بمعنى «السيارة» الخ.

وقد أشار البريبلوس أيضاً الى أن السفن المخيطة كانت تصنع في عُمان وتصدر الى موزا، وقال إنها كانت تسمى *Madarata* ، ويرى حوراني أن هذا الاسم عربي الأصل كان يطلق على السفن المشدودة الألواح بالليف(٥٩)، أي أن هذا الاسم يشير أيضاً الى السفن الخيطية.

وهاتان الاشارتان في البريبلوس الى السفن الخيطية، دليل على انتشار هذا النوع من السفن في منطقة واسعة حول السواحل الشمالية الغربية للمحيط الهندي في القرن الأول الميلادي.

والواقع أن السفن الخيطية كانت النوع المميز لسفن البحر الأحمر والمحيط الهندي طوال العصور، بل حتى بعد معرفة سكان هذه المناطق للمسامير الحديدية واستخدامها في تثبيت ألواح السفن، فقد ظلت سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي تثبت ألواحها، وتشد الى بعضها بالدّسر وتخاط بالحبال الى عهد قريب.

إن ظاهرة انتشار السفن الخيطية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، واستمرار استخدامها طوال العصور، حتى بعد معرفة السفن التي تثبت ألواحها بالمسامير الحديدية قد أثارت تساؤلات الباحثين، فذهبوا في تفسير ذلك مذاهب شتى، ولكن يكاد يكون هناك إجماع على الرأي القائل بأن السبب في ذلك، هو ما تمتاز به السفن الخيطية على السفن ذات المسامير، وهي مرونتها وقدرها على تحمل الاصطدام بشعاب المرجان التي تزخر بها شواطىء البحر الأحمر مما جعلها أقل تعرضاً للكسر من السفن التي تثبت ألواحها بالمسامير(٦٠).

ولعلّ الدليل على صلاحية هذه السفن للملاحة في البحر الأحمر أن مصر في العصور الاسلامية كانت تصنع كلا النوعين، السفن الخيطية للبحر الأحمر، والسفن المثبتة بالمسامير للبحر المتوسط(٦١).

وقد تساءل الباحثون عن أصل السفن العربية ومن أين جاءت؟ وحاول بعضهم إرجاع أصلها للهند على أساس أن خشب الساج الذى كانت تصنع منه مصدره الهند(٦٢).

غير أن المتأمل في طريقة بناء السفن الخيطية العربية، يلاحظ أنها تشبه إلى حد كبير طريقة بناء السفن المصرية القديمة، فكلاهما كان يعتمد في تثبيت ألواح السفينة على الدّسر الخشبية وعلى الخيوط والحبال. هذا بالإضافة الى قدم استخدام المصريين للسفن الخيطية في البحر الأحمر كما أوضحنا، مما يجعلهم الرواد في هذا الميدان.

ورغم أنه لا يوجد لدينا نماذج للسفن المصرية التي كانت تستخدم في البحر الأحمر لتعرفنا على تفاصيل بنائها، وكذلك لا توجد لدينا نماذج للسفن العربية القديمة، ليمكن مقارنتها ببعضها، فإننا يمكننا التوصل الى هذا الهدف بالاستعانة بنماذج السفن المصرية المخيطية التي وجدت في داخل مصر، وأهمها السفينة المعروفة بمركب الشمس التي وجدت الى الجنوب من الهرم الأكبر بالجيزة في عام ١٩٥٤ والتي ترجع لعصر الملك خوفو(٦٣)، أما السفن العربية فإننا يمكننا أن نستعين على معرفة طريقة صناعتها من أوصاف الكتاب العرب في العصور الوسطى، إذ لا شك أن هذه الطريقة لم تتغير كثيراً عن العصور القديمة نتيجة لثبات التقاليد البحرية، كما سبق أن أوضحنا.

ويتبين من فحص مركب خوفو المذكورة، أن ألواح السفينة وأجزاءها كانت تثقب قرب أطرافها، ثم توضع في الثقوب دسر خشبية تتصل ببعضها بحبال من كتان أو ليف النخيل. وهذه الطريقة نفسها اتبعت في صناعة السفن العربية في العصور الوسطى، مع الفارق في نوع الحبال إذ كانت تتخذ من قشر جوز الهند. وهناك فارق آخر هو أن السفن العربية كانت تقلفط بمادة مذابة[٦٤]. ورغم عدم ظهور هذه المادة في مركب خوفو، إلا أنها استخدمت في السفن المصرية القديمة بوجه عام، كما تدلنا على ذلك الرسوم والنصوص[٦٥].

ومن هنا فإن من المرجح أن السفن الخيطية التي استخدمها العرب القدماء في البحر الأحمر والمحيط الهندي في العصور القديمة الوسطى، والتي أطلق عليها الكتاب المسلمون الاسم «جَلْبة»، من المرجح أن ترجع في أصلها الى السفن المصرية الخيطية المسماة كبنت والتي استخدمها المصريون القدماء في البحر الأحمر، ولا شك أن استخدام المصريين للسفن الخيطية في البحر الأحمر ـ بالإضافة الى ملاءمتها لطبيعة هذا البحر الذي تمتلىء شواطئه بشعاب المرجـان. كما ذكرنا ـ كان يسهل عملية فك السفينة ونقلها بين شاطىء النيل وساحل البحر الأحمر، نظراً لأن صناعتها كانت تتم على شاطىء النيل، كما دلتنا على ذلك الآثار التي وجدت في موقع الميناء الذي تم كشفه في عام ١٩٧٦، كما سبق القول.

هذا بالنسبة لتأثر نوع السفن العربية بالسفن المصرية القديمة، أما عن أجزاء هذه السفن وأصولها المحتملة في أجزاء السفن المصرية، فإننا نجملها فيما يأتي:

١ ـ **الشِّراع**: يرى أحـد البـاحثـين[٦٦] أن الشراع العربي المثلث، قد تطور عن الشراع المصري المربع (**اللوحة ٤٣/أ، جـ**)، وذلـك بوضع الشراع المربع عبر السفينة طولاً مع إمالة طرف مقدمته الى أسفل، وكانت هذه الطريقة مستخدمة في النيل لفائدتها في تسيير السفينة ضد الرياح الشمالية السائدة في مصر، ثم سار التطور نحو الشراع العربي المثلث بأن قُصِّر الجزء الأمامي من الشراع وعُلِّي نحو مؤخرة السفينة، ليأخذ حظاً أكبر من الريح، فنشأ ذلك النمط من الشراع المثلث.

والحقيقة أن فكرة الشراع المثلث كانت معروفة في مصر، ولكن المصريين استخدموه في السفن التي تتطلب وظيفتها أن تكون خفيفة الحركة مثل السفن الحربية، ومثال ذلك السفن التي استخدمها رمسيس الثالث (الأسرة العشرون حوالي عام ١١٨٠ق.م.) في المعركة البحرية الشهيرة التي شنها ضد شعوب البحر[٦٧].

٢ ـ **الدفة**: يرى البعض أن صيغة التثنية في الاسم العربي للدفة وهي «سُكَّان» هي في الغالب دليل على استخدام العرب للدفة المزدوجة[٦٨]، ومن المعروف أن السفن المصرية تميزت باستخدام دفة مزدوجة على شكل مجدافين صغيرين.

٣ ـ **الصَّاري**: ظهرت في المحيط الهندي أشكال من الصَّواري مثل الصاري الذي على شكل سلم[٦٩] والصاري ثلاثي الأعمدة[٧٠]، وهذه الأنواع من خصائص الصواري المصرية القديمة[٧١].

هذا فضلاً عن أن طريقة ربط الصَّاري الى نصب مثلث في قاع السفينة التي تظهر في السفينة العربية، هي طريقة مصرية قديمة[٧٢].

٤ ـ **طريقة تدعيم بدن السفينة بالحبال المجدولة**(bracing) : تميزت بعض أنواع السفن العربية باستخدام الحبال المجدولة في الإحاطة ببدن السفينة، لتدعيمه ضد أمواج البحر الأحمر العاتية[٧٣]. وهذه الطريقة ظهرت في السفن المصرية القديمة منذ أقدم العصور، ومثال ذلك سفينة من عهد الفرعون ساحورع من الأسرة الخامسة[٧٤] (أواخر القرن السادس والعشرين قبل الميلاد. اللوحة ٤٣/ ب).

٥ ـ **زخارف السفن**: كان المصريون القدماء يرسمون (أو يحفرون) على مقدمة سفنهم شكلاً خاصاً يمثل عين إلههم حورس[٧٥]، لاعتقادهم بأنها تدفع عنهم الأذى وتبشرهم بسلامة العودة. وقد ظهرت هذه العين في رسوم أحد كهوف منطقة أجنتا في الهند.[٧٦] ورغم أنه لا يوجد لدينا سفن عربية قديمة من ذلك العصر (عصر رسوم أجنتا بالهند) بها ذلك الرسم، إلا أن دور العرب منذ القدم في الاتصال بالهند وبالبحر الأحمر، لا يستبعد معه أن يكونوا هم نقلة ذلك الشكل، وخاصة أن هذه العين تطورت في رأى بعض الباحثين الى الفتحة التي تدلى منها مرساة السفينة العربية.

الهــوامش

(١) عبدالمنعم عبدالحليم سيد، «الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر»، **مصادر تاريخ الجزيرة العربية**، جـ ١ (**دراسات تاريخ الجزيرة العربية**، الكتاب الأول. الرياض: مطابع جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص ص ٣٩ ـ ٥٤ .

(٢) M. Sprengling, *The Alphabet, its rise from the Sinai inscriptions* (1931), fig. 2&3.

(٣) Gradiner-Peet-Cerny, *The inscriptions of Sinai* (1955), vol. 1, pl. LXXXV.

(٤) M. Flinders Petrie, *Researches in Sinai* (1905), 114-115.

(٥) *Unger's Bible Dictionary,* 3rd. ed. (1970), p. 627.

(٦) Sprengling, *op, cit.*, fig, 273.

(٧) Leibovitch, *Les inscriptions Protosinaitiques* (1934), pl. II, 9b.

(٨) *Ibid.*, fig, 29.

(٩) William Albright, *The Proto-Sinaitic incriptions and their decipherment* (1966), 15.

(١٠) كذلك انتقلت الأبجدية البروتوسينائية إلى الشام في عصر الأسرة الثامنة عشرة نفسها. ودليل ذلك العثور على نقش في تل الـدوير (الكيش القديمة) جنوب شرقي غزة، عليه كتابة هيروغليفية ورد فيها اسم الفرعون أمنحتب الثاني (خليفة تحتمس الثالث)، وإلى جوارها كتابة بروتوسينائية. وفي فلسطين تطورت الأبجدية البروتوسينائية إلى الأبجدية الساميّة الشمالية المبكرة، وهذه الأخيرة تفرعت عنها أبجديتان، إحداهما الكنعانية

والأخرى الآرامية. ومن الكنعانية تفرعت الأبجديتان الفينيقية والعبرية المبكرة. ومن الآرامية تفرعت الأبجدية النبطية والخط العبري المربّع. ومن النبطية تطور الخط العربي. ومن هذا التسلسل لاشتقاق الأبجديات الساميّة الشمالية، يلاحظ أن الأبجدية الفينيقية لم تشتق مباشرة من الكتابة المصرية الهيروغليفية، كما كان الشائع حتى عهد قريب، أي أن الفينيقيين لم يكونوا مخترعي الأبجدية الساميّة بل اقتصر دورهم على نقل الأبجدية السامية ممثلة في أبجديتهم الى أوروبا، حيث تفرعت منها الأبجديات اليونانية واللاتينية.

(١١) Alan Gardiner, «The Egyptian origin of the Semitic Alphabet», *JEA* III (1916), pl. II.

(١٢) من المعروف أن الأبجدية السامية الجنوبية لها فرعان. الفرع الأول هو فرع الأبجدية العربية الجنوبية التي انتشرت في اليمن، وأشكالها الرئيسية المعينية والسبئية والحميرية. ولا توجد اختلافات جوهرية بين كل منها سوى ميل بعضها الى أشكال أكثر تبسيطاً أو أكثر زخرفاً. والفرع الثاني هو فرع الأبجدية العربية الشمالية، ويطلق على أشكالها الديدانية والثمودية واللحيانية. ومن الواضح أن هذه المسميات كلها تنسب الى الدول أو الشعوب (كالثموديين) التي تتابعت أو انتشرت في اليمن والحجاز.

(١٣) Sprengling, *op. cit.*, 54 & Albright, *op. cit.*

(١٤) انظر الهامش ١٢.

(١٥) H. Grimme, *Die Lösung des Sinaischrift-problems, die Altthamudische Schrift* (1926).

(١٦) Hans Jensen, *Sign, Symbol and Script* (3rd. ed. Trans. by G. Unwin, 1970), 350.

(١٧) *Ibid.*, fig. 222.

(١٨) *Ibid.*, 350.

(١٩) Unger's, *op. cit.*, 627.

(٢٠) Leibovitch, *op. cit.*, 77.

(٢١) Diringer, *The Alphabet* (1947), 226.

(٢٢) A. H. Gardiner, *op. cit.*

(٢٣) جواد علي، **تاريخ العرب قبل الاسلام** (١٩٥٥)، جـ ١، ص١٨٢.

(٢٤) Petrie, *op. cit.*, fig, 80.

(٢٥) Carlo Conti Rossini, *Storia d'Ethiopia,* I (1928), tav. XXVII, No. 19.

(٢٦) F. Petrie, *op. cit.*, fig. 143.

(٢٧) M. A. Kammerer, *La Mer Rouge* (1929), T. I, 108.

(٢٨) F. Petrie, *op. cit.*, 101, 133, 189 & figs. 142-143.

(٢٩) H. Bonnet, *Reallexikon der ägyptischen Religionsgeschichte* (1952), 123 & Abb. 39.

(٣٠) ديتلف نلسون وآخرون، **التاريخ العربي القديم** (ترجمة فؤاد حسنين علي، ١٩٥٨م). الشكل ٤١.

(٣١) F. Petrie, *op. cit.*, map. 4.

(٣٢) *Ibid.*, fig. 111.

(٣٣) **مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية** (إدارة الآثار والمتاحف، ١٩٧٥م)، ص١٢٨.

(٣٤) Jaussen & Savignac, *Mission d'Archéologie* II, 56-7. *Cf.* Winnett & Reed, *Ancient Records from North Arabia*, 41-42.

(٣٥) F. Petrie, *op. cit.*, 106.

(٣٦) Von Bissing, *Re-Heiligtum Niusere* (1905), Abb. 42.

(٣٧) Legrain & Naville, *L'aile nord du pylone d'Amenophis* III (Karnak), pl. XI B.

(٣٨) Gardiner-Peet-Cerny, *op. cit.* II,. 47-48.

(٣٩) Ray L. Cleveland, *An ancient South Arabian Necropolis* (1965), pl. 74 TC 2183.

(٤٠) *Ibid*, 44.

(٤١) *Encyclopaedia of Religion and Ethics* VIII, 487-488.

(٤٢) *Ibid* .

(٤٣) F. Petrie, *op. cit.*, fig. 80.

(٤٤) Cleveland, *op. cit.*

(٤٥) Petrie, *op. cit.*, fig. 94.

(٤٦) *Ibid.*, 191 .

(٤٧) **المعالم الأثرية في البلاد العربية** (جامعة الدول العربية)، جـ١، صورة ٢٩ .

(٤٨) محمد أنور شكري، **الفن المصري القديم منذ أقدم عصوره حتى نهاية الدولة القديمة** (١٩٦٥)، ص ٢٦١ .

(٤٩) سبتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة** (ترجمة السيد يعقوب بكر)، الشكل ١٧ .

(٥٠) ديتلف نلسن، **المرجع نفسه**، الشكل ٥٤ .

(٥١) وندل فيليبس، **كنوز مدينة بلقيس** (ترجمة عمر الديراوي، ١٩٦١م)، ص ١٣٠ .

(٥٢) *Encyclopaedia of Religion and Ethics* X, 883 .

(٥٣) ديتلف نلسون، **المرجع نفسه**، الشكل ٤٣ .

(٥٤) سبق أن أوضحت في بحثي السابق في الندوة الأولى أنه لم يثبت أن المصريين كانوا يجلبون البخور بأنفسهم من سواحل الجزيرة العربية، بل اقتصر نشاطهم في هذا المضمار على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر، للأسباب التي وضحتها في ذلك البحث. أنظر هامش ١ عن البحث المشار إليه.

(٥٥) تم الكشف عن هذا الميناء في عامي ١٩٧٦، ١٩٧٧، ويقع الى الشمال من ميناء القُصَيْر الحالي بحوالي ٦٠ كيلومتراً. ومن بين الآثار التي وجدت في موقعه لوحة من الحجر تسجل أخبار بعثة بحرية أرسلت إلى إحدى مناطق البحر الأحمر في عهد أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة (القرن العشرين قبل الميلاد تقريباً). وقد جاء على هذه اللوحة أن السفن صنعت في ترسانة قُفْط (أي على شاطىء النيل). انظر للمؤلف، **الكشف عن موقع ميناء الأسرة الثانية عشرة الفرعونية في منطقة وادي جواسيس على ساحل البحر الأحمر، تقرير عن حفائر بعثة قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية في الصحراء الشرقية، خلال عامي ١٩٧٦، ١٩٧٧** (مطبعة جامعة الاسكندرية، ١٩٧٨)، ص ٣٥ ، وشكل ٤٦ .

(٥٦) Grohmann, *Gottersymbole und Symboltiere auf Sudarabischen Denkmäler* (1914), Abb, 154 .

(٥٧) W. Smith Stevenson, *The Art and Architecture of Ancient Egypt* (1958) pl. 167 .

(٥٨) C. M. C. Boreux, *Études de nautique Égyptienne* (1925), 138 .

(٥٩) *Ibid.*, fig. 74a .

(٦٠) W. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea* (1912), 16 .

(٦١) جورج ف. حوراني، **العرب والملاحة في المحيط الهندي** (ترجمة السيد يعقوب بكر، ١٩٥٩)، ص ٥١ .

(٦٢) يلاحظ أن هذه الميزة سبق أن أشار إليها الرحالة المسلمون وبخاصة ابن جبير. انظر سعاد ماهر، **البحرية في مصر الإسلامية** (١٩٦٧)، ص ١٩٦ .

(٦٣) حوراني، المرجع نفسه .

(٦٤) حوراني، المرجع نفسه ، ص ٢٥٣ .

(٦٥) M. Z. Nour. Z. Iskander, M. S. Osman, A. Moustafa, *The Cheops Boats,* Part I (1960), pl. 2.

(٦٦) سعاد ماهر، المرجع نفسه، ص ١٩٤ .

(٦٧) Boreux, *op. cit.,* 242-243 & 187 n. 2 .

(٦٨) حوراني، المرجع نفسه، ص ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٦٩) سعاد ماهر، المرجع نفسه، الشكل ٢ .

(٧٠) حوراني، المرجع نفسه، ص ٢٦١ .

(٧١) Boreux, *op. cit.*, fig. 127 .

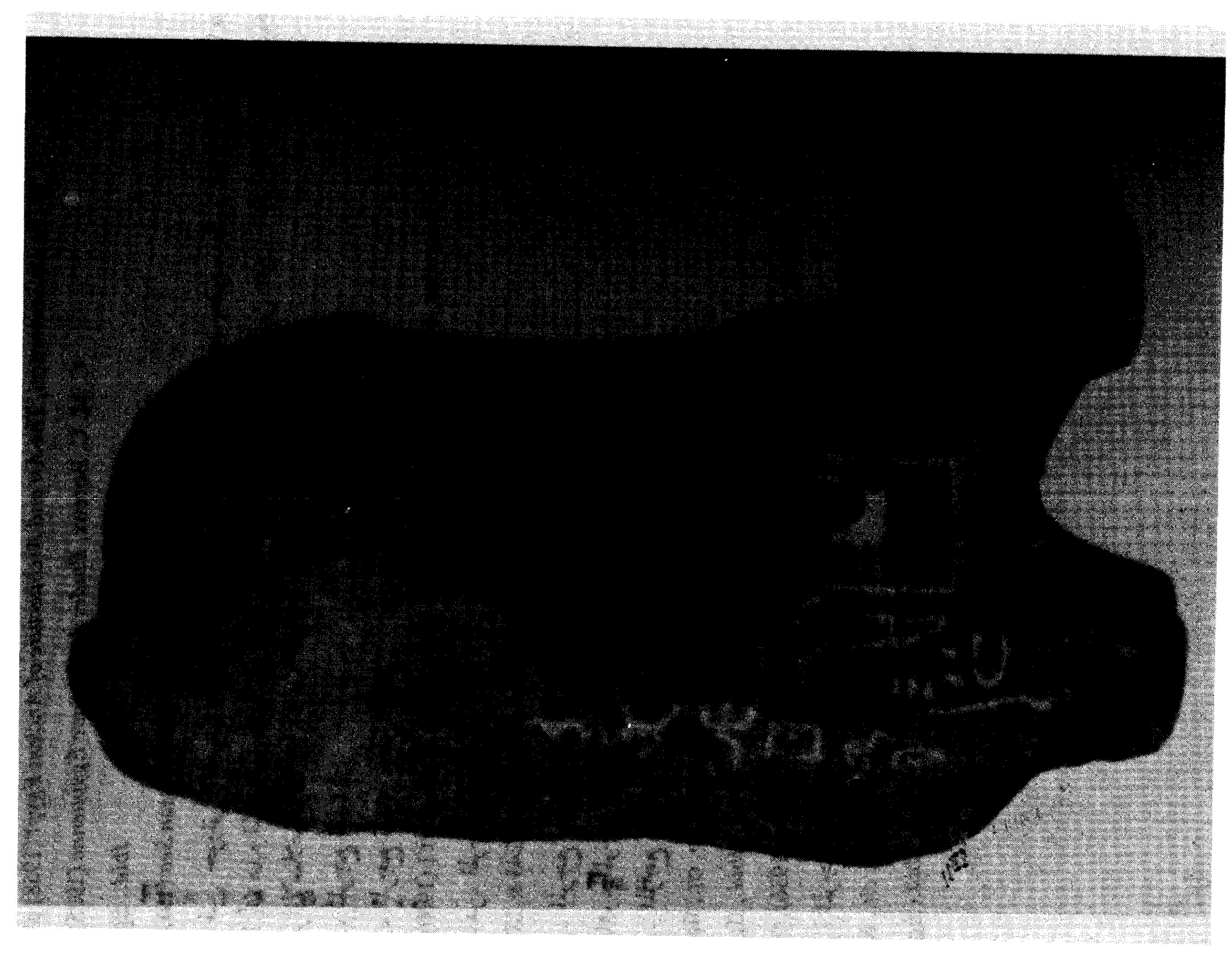
(٧٢) *Ibid.*, fig. 197 .

(٧٣) C. Solver, «Egyptian shipping», *Marriner's Mirror* XXII, No. 4 (1936), fig. 10 .

(٧٤) حوراني، المرجع نفسه، ص ٢٦٥ الهامش ١٠٠ .

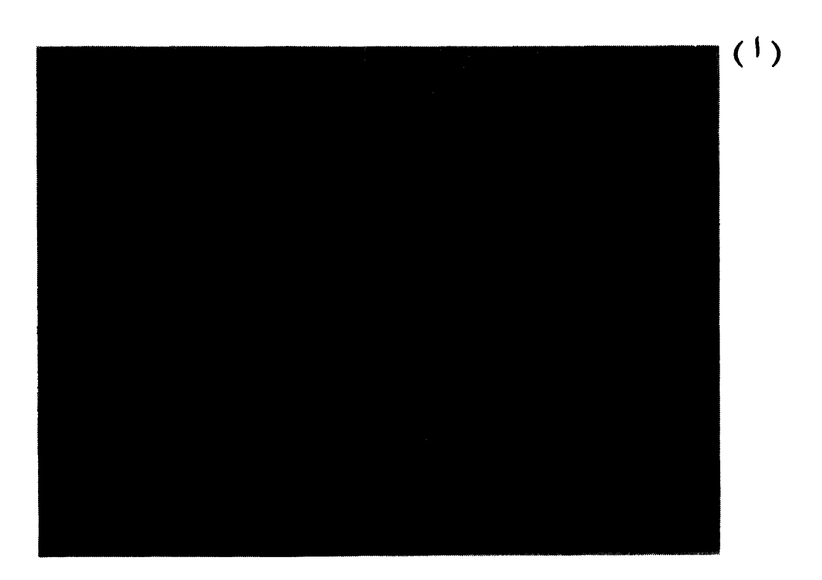
(٧٥) Boreux, *op. cit.*, fig. 95 .

(٧٦) *Ibid.*, fig. 184 .

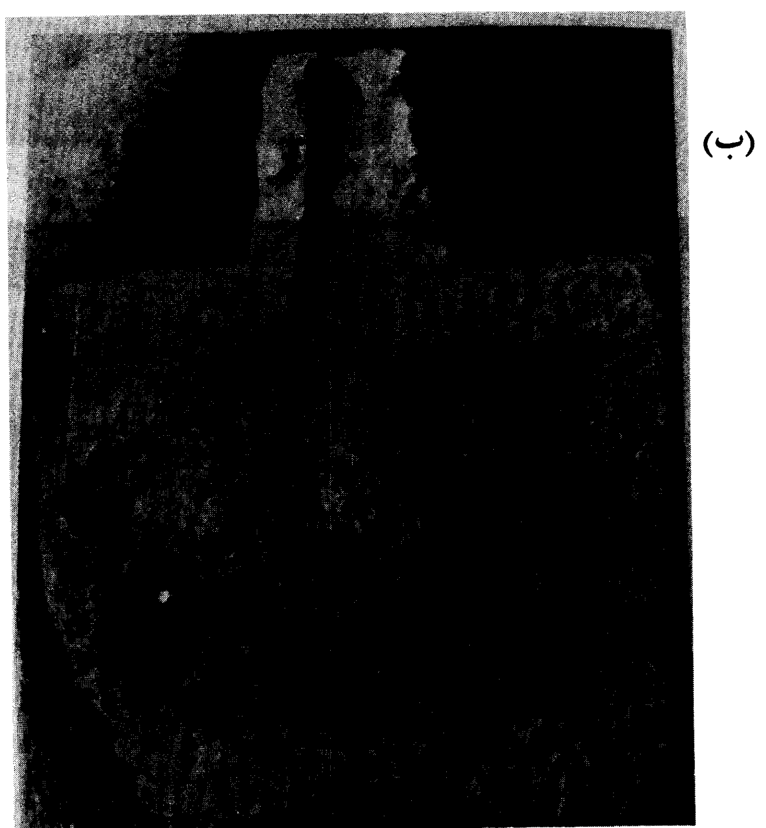


اللوحة ٣٤ : تمثال أبي الهول الذي عثر عليه في معبد سيرابيط الخادم بسيناء وقد حفرت عليه عبارة «محبوب حتحور ربة الفيروز» بالهيروغليفية وأسفلها ترجمتها بالبروتوسينائية .

(أ)



(ب)

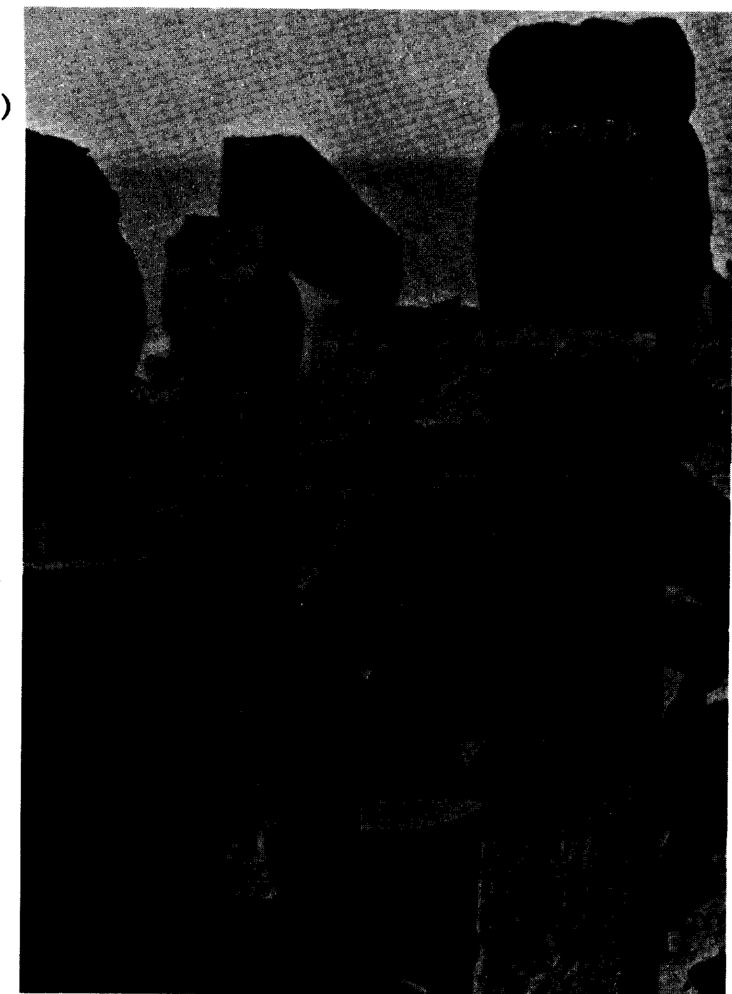


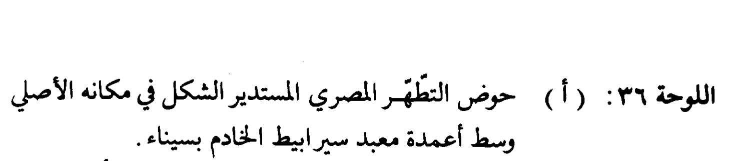
اللوحة ٣٥: (أ) مائدة القربان المصرية التي وجدت في معبد سيرابيط الخادم بسيناء.
(ب) مذبح معيني وجد باليمن وهو شبيه بمائدة القربان المصرية إلى حد كبير.

(ب)



(أ)

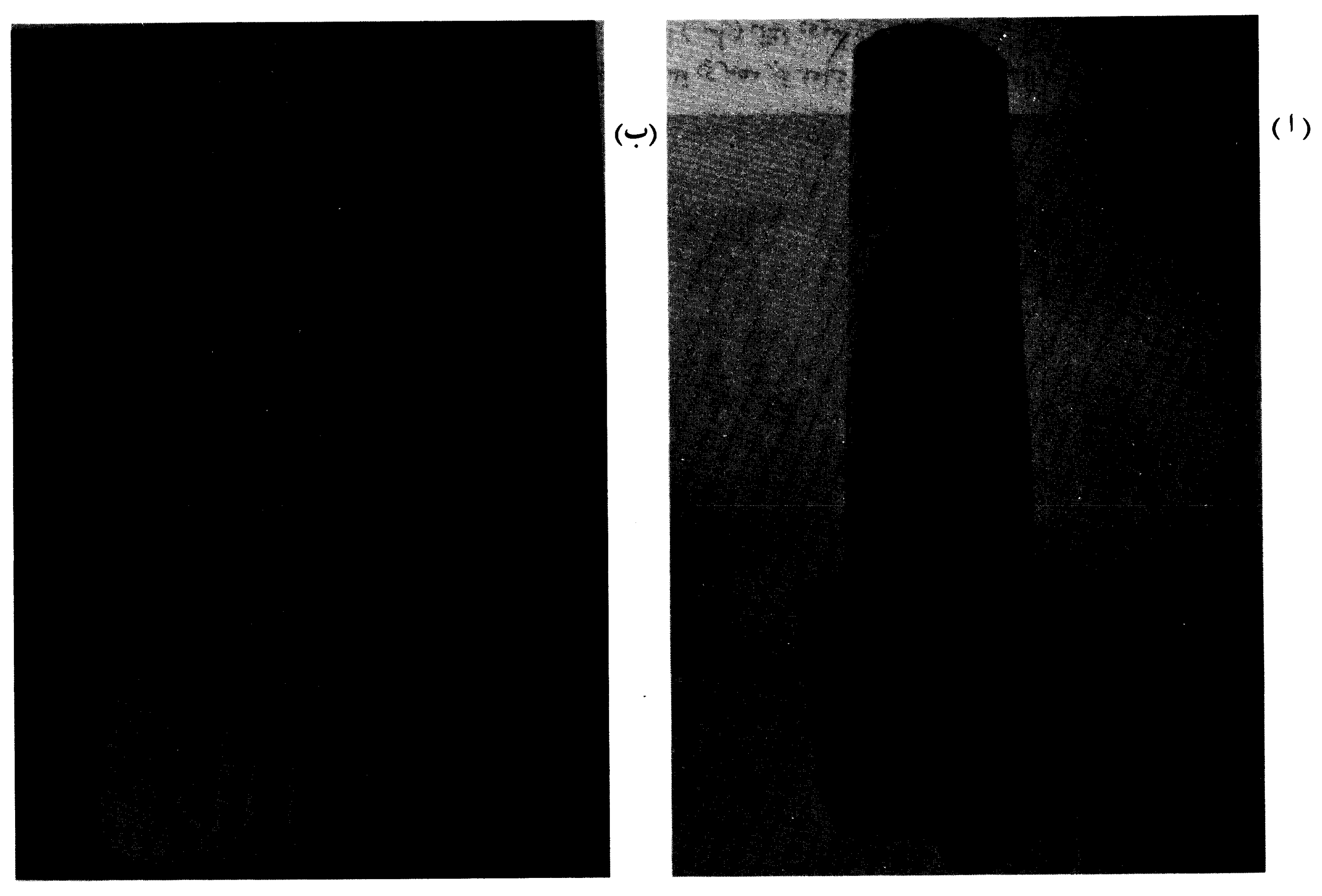




اللوحة ٣٦: (أ) حوض التطّهـر المصري المستدير الشكل في مكانه الأصلي وسط أعمدة معبد سيرابيط الخادم بسيناء.

(ب) حوض التطّهّر العربي القديم الموجود الآن في خُرَيبة العُلا بالحجاز والمسمّى «محلب الناقة». وهوعلى هيئة حوض التطهر المصري من حيث الشكل كما أنه كان داخل المعبد وليس خارجه، كما كان وسط أعمدته أو بوائكه مثل الحوض المصرى.

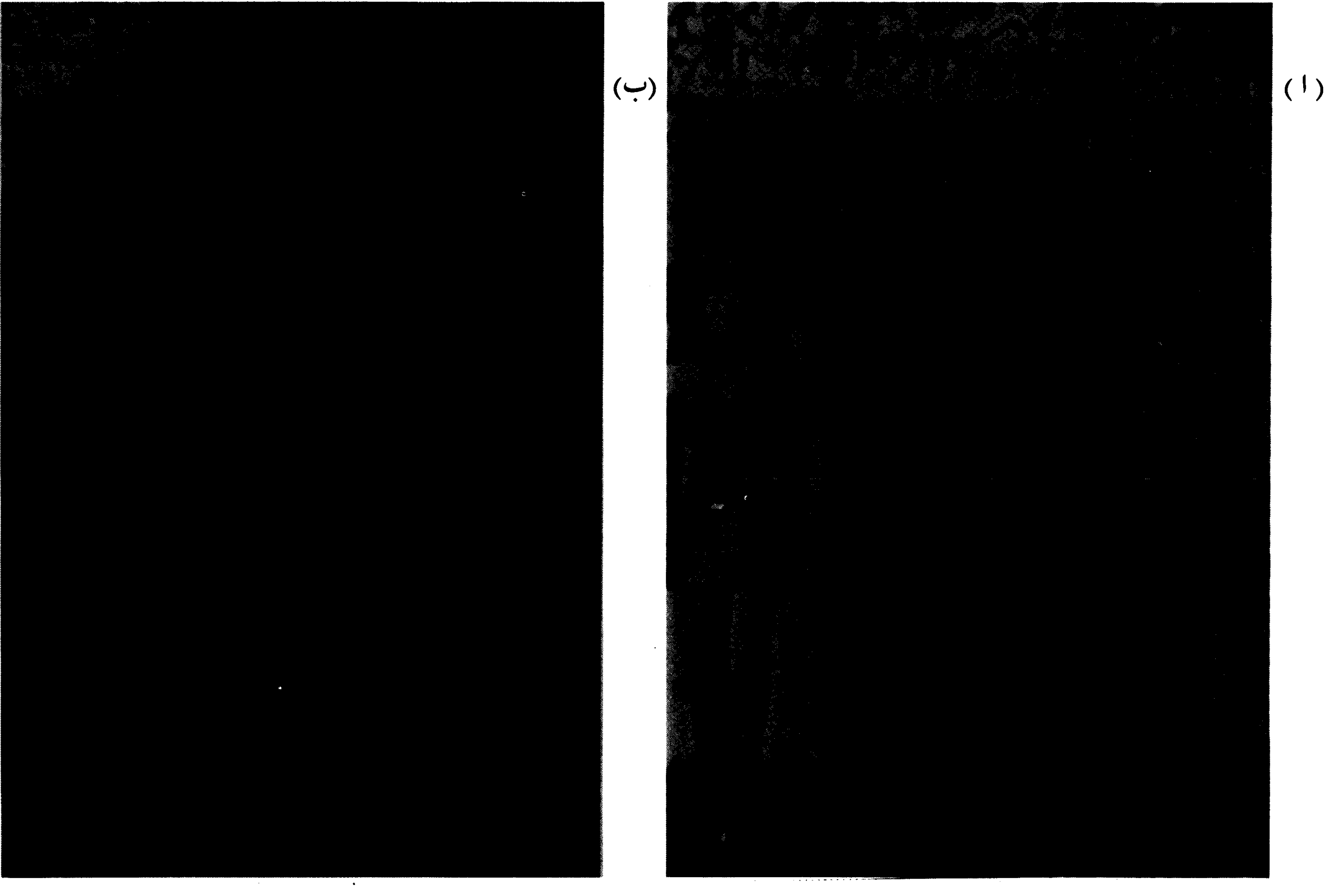
(ب) (أ)



اللوحة ٣٧ : (أ) لوحة وجدت في معبد سيرابيط الخادم، وقد حفر اسم صاحبها عليها .ويلاحظ أنها تشبه الأنصاب الساميّة، واللوحة لها قاعدة على شكل مائدة قربان.

(ب) لوحة وجدت في جبانة تمنع بوادي بيحان. وهي على نفس نمط اللوحة المصرية الموضحة في الشكل (أ) مع فارق واحد هو كتابة اسم صاحبها على قاعدتها.

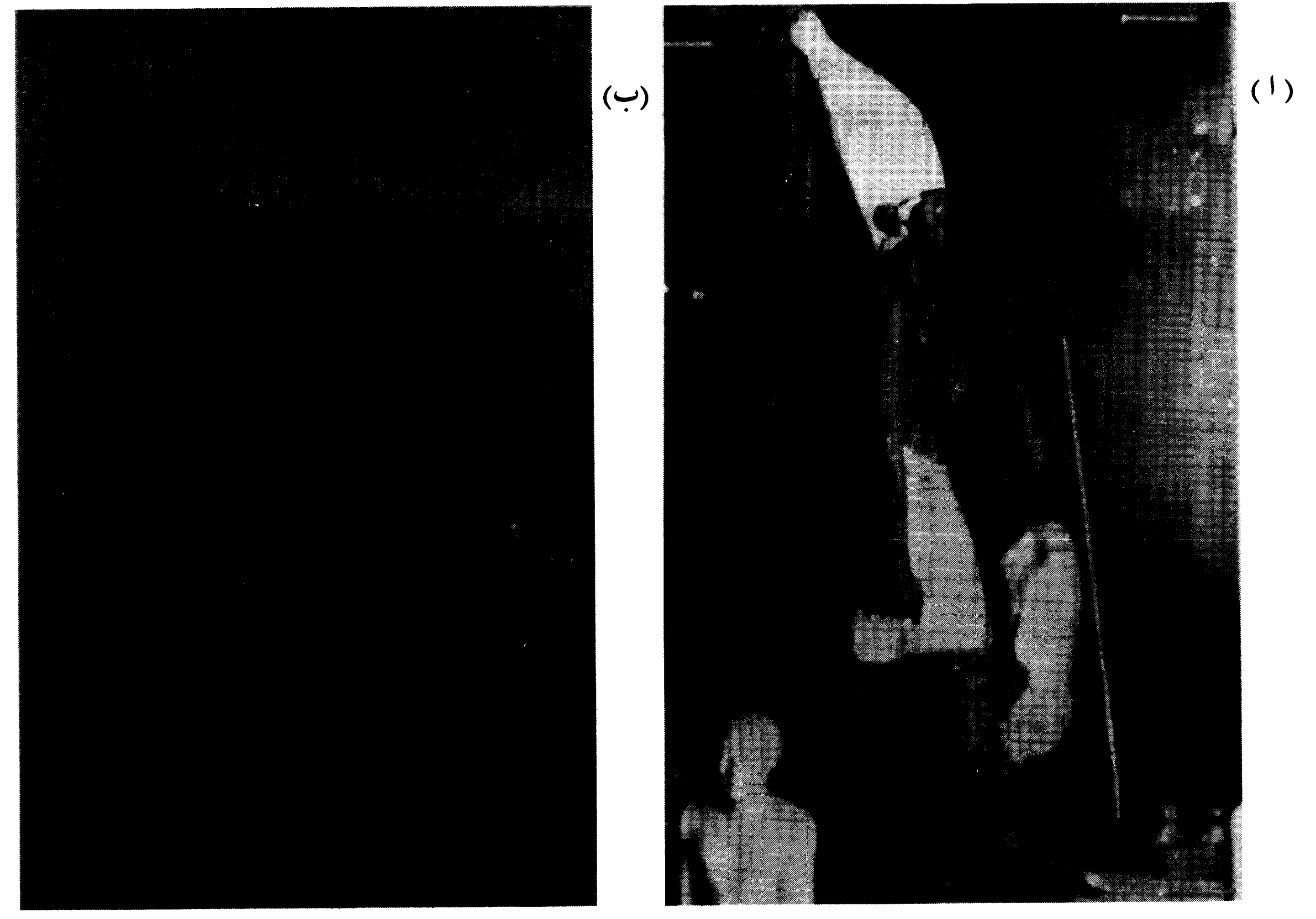
(ب) (ا)



اللوحة ٣٨ : (أ) شاهد قبر مصري قديم (باب وهمي) نحتت في أعلاه فجوة قائمة الزوايا تحوي تمثال (رأس) المتوفى.

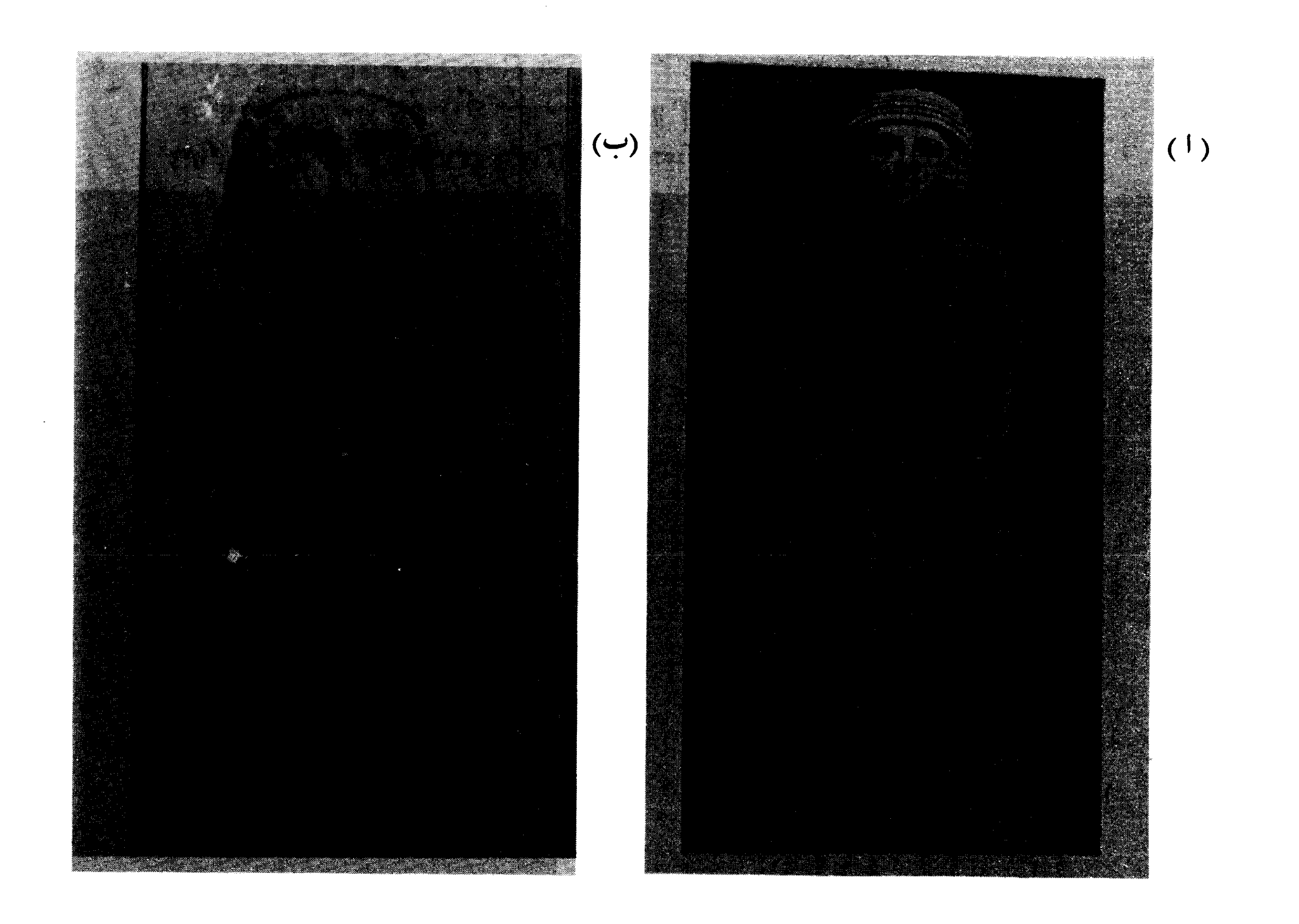
(ب) شاهد قبر سبئي على نفس شكل الشاهد المصري تقريباً.

(ب) (أ)



اللوحة ٣٩: (أ) تمثال لأحد الفراعنة يمثله على الهيئة الشائعة في التماثيل المصرية الواقفة، أي وهو يخطو الى الأمام بالقدم اليسرى ويمسك (أحياناً) بعصا طويلة.

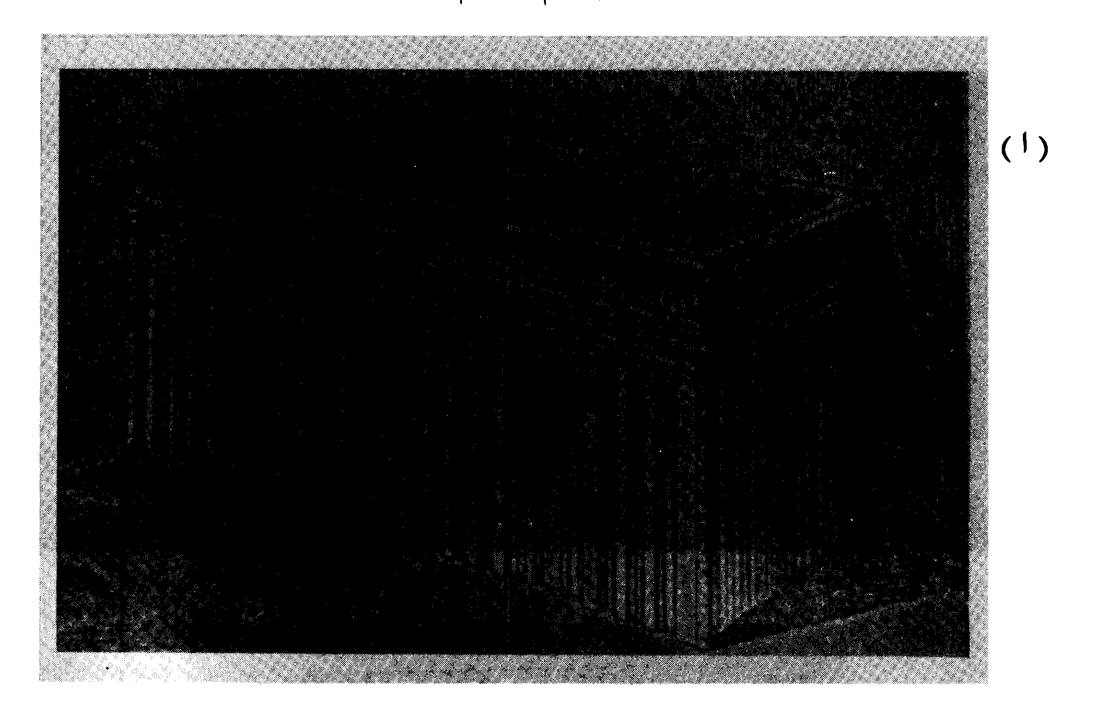
(ب) تمثال معد يكرب الذي وجد في مأرب يمثله على نفس هيئة التمثال المصري تقريباً، وقد فقدت العصا التي كان يمسك بها في اليد اليمنى.



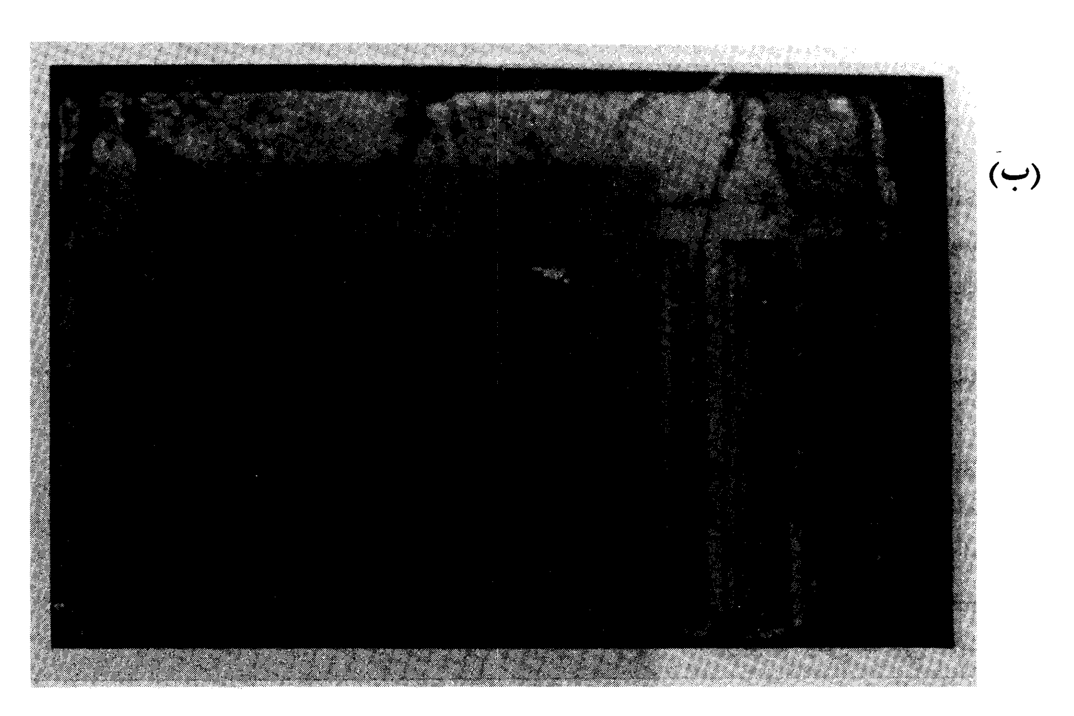
اللوحة ٤٠ : (أ) تمثال مصري قديم لشخص جالس فوق مقعد، وهو يمثل الهيئة الشائعة في التماثيل المصرية الجالسة من حيث وضع اليدين فوق الركبتين، كما يمثل الشكل الشائع لغطاء الرأس عند المصريين القدماء.

(ب) تمثال يمني قديم لشخص جالس ويشبه إلى حد كبير التمثال المصري.

(أ)



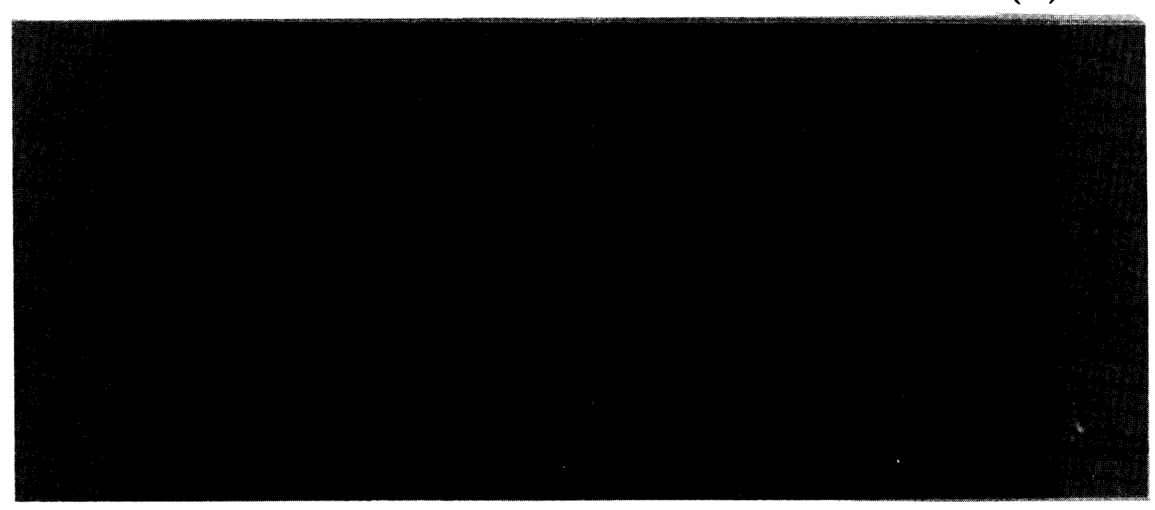
(ب)

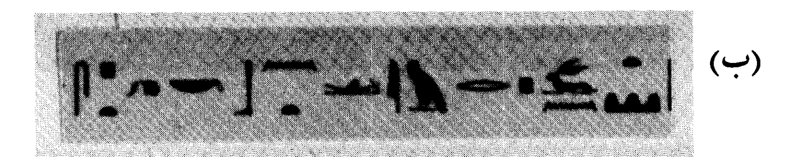


اللوحة ٤١ : (أ) الزخارف المصرية القديمة التي على هيئة واجهة منزل وأبوابه، وهي أكثر الزخارف شيوعاً بين الزخارف المعمارية المصرية.

(ب) زخارف معمارية يمنية قديمة تشبه إلى حد كبير الزخارف المصرية الموضحة في الشكل السابق.

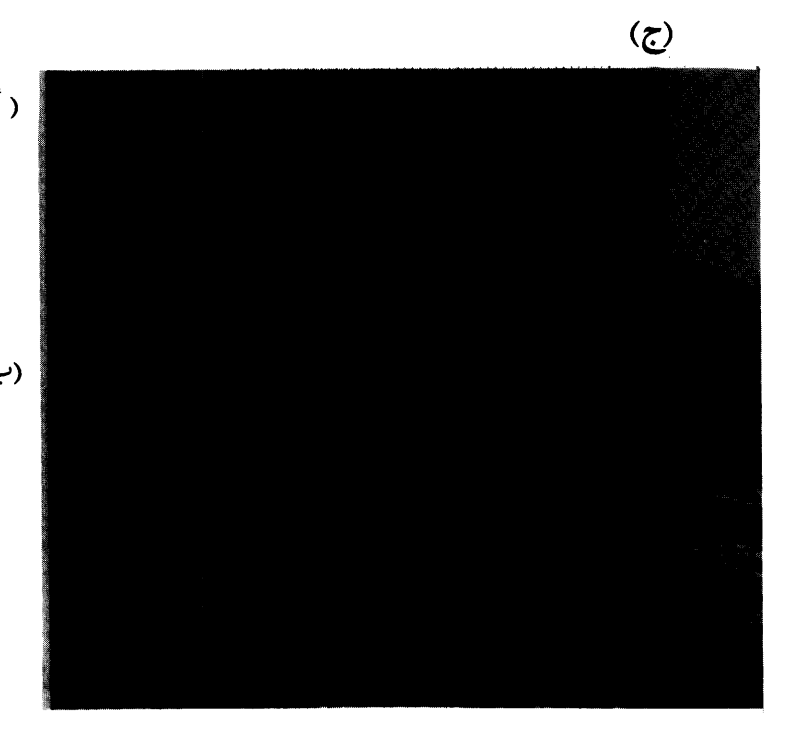
(أ)





(ب)

(ج)



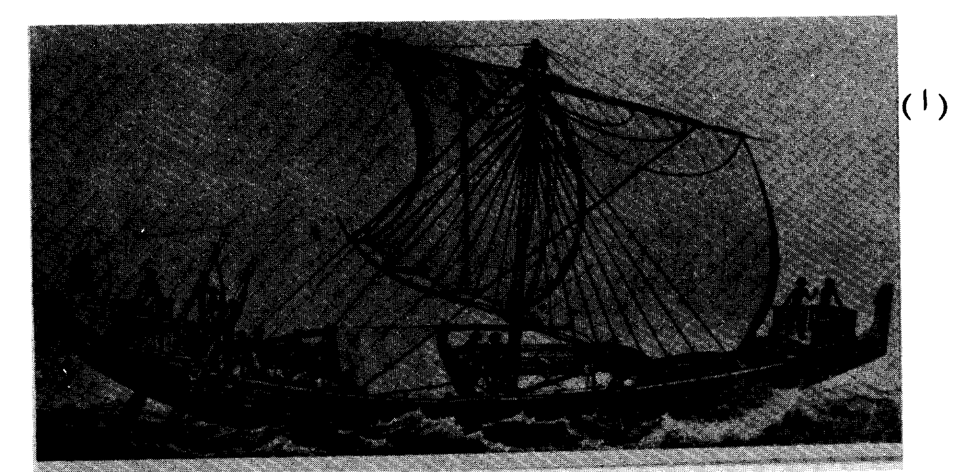
اللوحة ٤٢ :

(أ) منظر ورد على الآثار المصرية يمثل البحارة المصريين وهم يصنعون قارباً «بخياطة» ألواحه بالحبال وقد كتبت فوق المنظر بالهيروغليفية كلمة سبت والتي تدل على هذه العملية في اللغة المصرية القديمة.

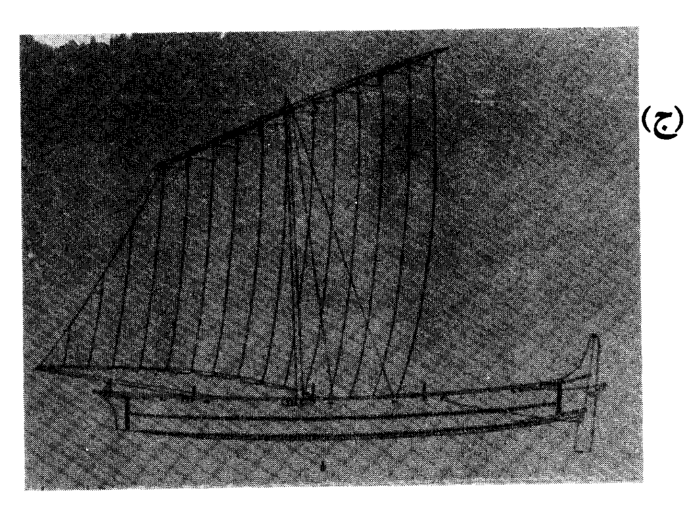
(ب) النص الهيروغليفي الذي يدل على أن سفن البحر الأحمر المصرية كانت تصنع بنفس طريقة الخياطة (أنظر أ) ويقرأ: **سبت كبنت إم إر بونت**. وترجمته هي: «بناء (خياطة) سفينة (من نوع) كبنت هناك (أي على ساحل البحر) لإرسالها إلى **بونت**»

(جـ) سفينة عربية مخيطة أثناء بنائها، وقد ظهر صفان من الخيوط التي تشد ألواحها (الشكل منشور في كتاب: Schoff, *Periplus*, 154)

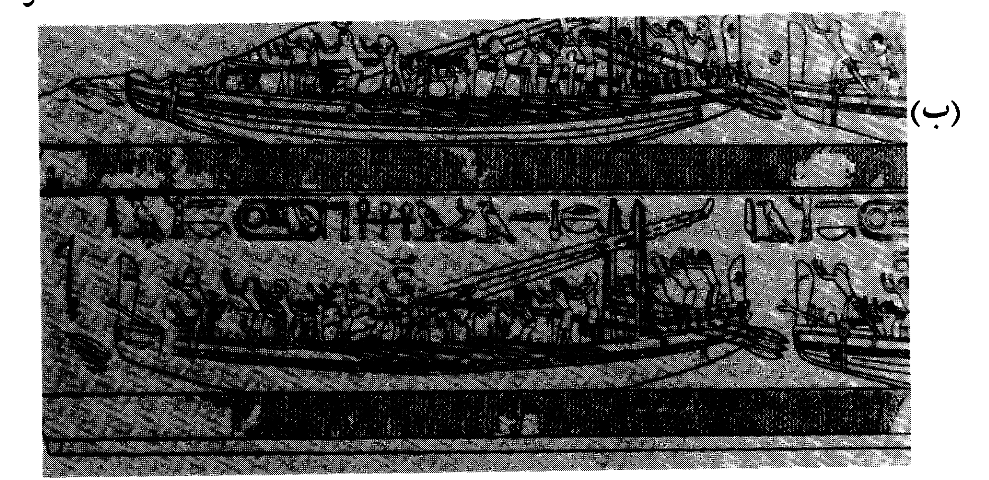
(أ)



(ج)



(ب)



اللوحة ٤٣ : (أ) سفينة مصرية من عصر الدولة الحديثة الفرعونية (عصر الملكة حتشبسوت) وقد استخدمت في البحر الأحمر. ويلاحظ الشكل القائم الزوايا لشراعها.

(ب) سفينة مصرية من عصر الدولة القديمة (عصر الملك ساحورع). ويلاحظ شكل الحبال التي شدّت حول بدن السفينة لتدعيمها.

(جـ) سفينة عربية يظهر تأثير الشراع المصرى القائم الزوايا في شراعها ذي الشكل القريب من الشكل المربع، وذلك قبل أن يتحول الى الشكل المثلث الذي أصبح شائعاً في أشكال أشرعة السفن العربية. كما يظهر التأثير المصري أيضاً في تدعيم بدن السفينة بالحبال المشدودة. والشكل منشور في : Boreux, *Études de nautique égyptienne*, fig. 91.

العلاقات بين وادي الرافدين وتيماء

صبحي أنور رشيد

أثبتت الدراسات والأبحاث الأثرية واللغوية أن المملكة العربية السعودية كانت عامرةً بمواطن الحضارات التي انتشرت في شرقها وغربها، وفي شمالها وجنوبها، والتي لعبت دوراً مهمًا خلال عصور ما قبل الاسلام والعصور الإسلامية. ومواطن هذه الحضارات لم تكن بمعزل عن جاراتها في الممالك والدول الأخرى بل كانت على اتصال معها، أثرت عليها وتأثرت بها، واتسمت علاقاتها بالود والسلام أحياناً، وبالعداء والحرب أحياناً أخرى. وتيماء تمثل أحد المراكز الحضارية والتجارية المهمة في الجزيرة العربية، وقد كان لها علاقات متنوعة مع وادي الرافدين.

هذا وقد ورد اسم تيماء في الكتابات والمصادر الآتية :ـ

الكتابات المسمارية الآشورية

إن أقدم كتابة ورد فيها اسم تيماء، هي الكتابة المسمارية التي تعود إلى زمن الملك الآشوري تغلت بليسر الثالث (Tiglatpilesar III) (٧٤٥ ـ ٧٢٧ق. م). لقد قام هذا الملك الآشوري بمحاربة القبائل العربية القاطنة في شمال الجزيرة العربية، وذلك للمحافظة على سلامة الطرق التجارية التي تربط الامبراطورية الآشورية بموانىء البحر الأبيض المتوسط من جهة، ومدن الأقطار الأخرى من جهة ثانية. وورد في كتابات هذا الملك أسماء المدن والقبائل العربية التي دفعت اليه الجزية، ومنها تيماء (*Tema*). ويتضح من كتابات الملك الآشورى سنحاريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ق. م.) أن أحد أبواب العاصمة الآشورية نينوى، كانت تسمى (باب الصحراء) لأنه منها (يمر رجال سومو ـ ابل رجاء تيماء) حاملين معهم الهدايا للملك الآشوري.

الكتابات المسمارية البابلية

ورد اسم مدينة تيماء في الكتابات المسمارية البابلية التي تعود الى زمن آخر ملك بابلي جلس على عرش الامبراطورية الأخيرة وهو نبونيد (٥٥٥ ـ ٥٣٩ق. م.) وهذه الكتابات هي :ـ

(١) حوليات نبونيد ـ كورش

نشر هذا النص بنجس (T. G. Pinches) لأول مرة في سنة ١٨٨٢، وأعاد نشره سدني سميث (Sidney Smith) في سنة ١٩٢٤م. ويتضمن هذا النص ذكر الأعمال التي قام بها الملك البابلي نبونيد مرتَّبة سنة بعد سنة، اعتباراً من السنة الأولى حتى سقوط بابل، وكان من ضمن أعمال هذا الملك إقامتُه في تيماء، إعتباراً من السنة السابعة. وقد ورد اسم مدينة تيماء في هذا النص بصيغة ت ـ ما ـ آ (*Te - ma - a*) وت ـ ما (*Te -ma*).

(٢) الكتابة المعروفة بعنوان قصيدة محاسبة نبونيد، وبالانجليزية (Account of Nabonidus)

أول من نشرها كان سدني سميث، في سنة ١٩٢٤م. وهذا النص مكتوب على لوح طيني موجود في المتحف البريطاني، وقد أصابه تلف كبير، ولكن دراسات كل من لانذبركر (Landsberger) وباور (Bauer)، قد سدت النقص الموجود فيه. وأورد هذا النص العدائي، الذي كتبه خصوم الملك نبونيد، نبأ حملة هذا الملك على تيماء،

وقتله لأميرها وذبح قطعان ماشية سكانها وماشية سكان المناطق المجاورة لها، ومن ثم تجميله مدينة تيماء وبنائه قصراً على غرار قصر بابل، وتحصينه مدينة تيماء وتسويرها. وقد ورد اسم مدينة تيماء في هذا النص بصيغة ت ـ ما ـ آ .

(٣) كتابة بابلية على لوح طيني صغير جداً

نشرها دوكرتي (Daugherty) في سنة ١٩٢٣ . وتذكر كتابة هذا اللوح أن أحد الأشخاص قد زُوِّد بجمل ودقيق لنقله من بلاد بابل إلى بلاد تيماء، وذلك في السنة الخامسة من حكم الملك البابلي نبونيد. وفي هذا النص اسم تيماء أيضاً بصيغة ت ـ ما ـ آ (*Te - ma - a*) .

(٤) كتابة بابلية على لوح طيني موجود في أمريكا

نشره دوكرتي في سنة ١٩٢٠ لأول مرة. وتذكر هذه الكتابة المؤرخة في السنة العاشرة من حكم الملك البابلي نبونيد، أن المؤونة كانت تنقل بواسطة الجمال من معبد في الوركاء الى الملك نبونيد في أرض تيماء. ونود أن ننبه هنا، إلى خطأ الترجمة العربية الواردة في كتاب حمد الجاسر (**في شمال غرب الجزيرة**، ص٣٨٣) والتي جاء فيها: «. . . . إن المؤونة كانت تنقل الى الملك من أرض تيماء»، بينما النص البابلي وترجمته الانجليزية يذكران العكس، أي أن المؤونة كانت تنقل من الوركاء الى نبونيد في تيماء. وورد اسم تيماء في هذا النص أيضا بصيغة ت ـ ما ـ آ (*Te - ma - a*) .

(٥) كتابة بابلية منقوشة على مسلتين من الحجر تعودان للملك البابلي نبونيد

عثر عليها الأثري الانجليزي رايس (D. S. Rice) في أثناء تنقيباته في أطلال الجامع الكبير في حَرّان في سنة ١٩٥٦م . وقد نشر الباحث الانجليزي كاد (C. J. Gadd) النص الأصلي المسماري وترجمته مع دراسة مفصلة ظهرت سنة ١٩٥٨م. وقد تحدثت كتابة مسلتي حرّان عن حملة نبونيد إلى تيماء وإقامته فيها لمدة عشر سنوات، تنقّل فيها بين **دادانو، باداكو، خيبرا، يادیخو، ويتريبو**. وذكر كاد (C. J. Gadd) الأسماء الحديثة المقابلة للمدن الورادة باللغة البابلية والمكتوبة بالخط المسماري في كتابات الملك نبونيد وهي:

ديدان (العلا)، ***Dadana***

فــدك ***Padakku***

خيبـر (***hibra***) ***hi-ib-ra-a***

يديـع (***Iadihu***) ***Ia-di-hu***

يـثـرب ***Ia-at-ri-bu***

ويستند كاد (C. J. Gadd) على ياقوت في تحديد موقع يديع بين فدك وخيبر، ويذكر حمد الجاسر أن يديع يعرف الآن باسم الحويط، وأنه يقع في حرة خيبر في شرقها، والصيغة التي وردت لاسم تيماء في الكتابة موضوع البحث هي أيضا ت ـ ما ـ ا (*Te-ma-a*) .

الكتابة الآرامية

(١) إن أقدم كتابة آرامية ورد فيها اسم تيماء تعود للقرن السادس قبل الميلاد. وقد نقشت هذه الكتابة على الوجه الأمامي لمسلة تيماء الشهيرة، وأعاد نشر هذا النص مع ترجمة له بالانجليزية الباحث كوك (Cooke). وظهرت ترجمة عربية للكتابة الآرامية المنقوشة على مسلة تيماء، قام بها الدكتور محمود الغول.

(٢) هناك كتابة آرامية أخرى تعود إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، وقد عثر عليها في الكهف الرابع في قمران قرب البحر الميت. وكانت منقوشة على قطعة من الرّق، ونشرها ميليك(J. T. Milik) لأول مرة في سنة ١٩٥٦م. وتحدث هذا النص الآرامي عن إقامة نبونيد في تيماء، ولكنه جعلها سبع سنوات، وذلك بالمقايسة لما ورد في سفر دانيال حول قضاء نبوخذ نصر سبع سنوات مع حيوانات الصحراء. ونظراً للنزعة والصيغة اليهودية الـطاغية على هذا النص، فقد حظي باهتمام خاص من لدن الباحثين المختلفين من ألمان وفرنسيين واسرائيليين وسوفيت أمثال: جفريا خو (H. M. I. Geveryahu) بورروز (M. Burroues) وباردتكه (H. Bardtke) وآموسين (J. D. Amusin) ديبون ـ سومر (Dupont - Sommer) وماير (R. Mayer).

(٣) عثر في الحَضَر على كتابة آرامية ورد فيها قيام قبيلة بنو تيمو، وقبيلة بنو بلعقب ببناء معبد للإله (نرجول) في الحضر، في سنة ٣ ق.م.

الكتابات النبطية

عثر في مدائن صالح (الحِجْر) على لوح من الحجر مستطيل الشكل يحمل كتابة نبطية ورد فيها اسم تيماء.

ولقد سبق لي أن نشرت بعض الآثار من تيماء، وخرجت من دراستي التحليلية لهذه الآثار الى أنها ترجع في زمنها الى العصر البابلي الحديث الذى حكم فيه آخر ملك بابلي، نبونيد، الذي أقام لعشر سنوات في تيماء وبنى له فيهـا قصراً شبيهاً بقصر بابل، وأن المؤونة كانت تنقل إليه من معبد الوركاء القريبة من مدينة السماوة الحديثة، بواسطة الجمال. وهكذا كان الاتصال الحضاري بين تيماء ووادي الرافدين قوياً في العصر البابلي الحديث.

بعض مظاهر العلاقات بين الجزيرة العربية وأوطان البِجَة بشرق السودان قبل الإسلام

مصطفى محمد مُسعَد

عرف العرب في العصور الوسطى، القبائل التي تسكن الصحراء الشرقية جنوبي مصر باسم: «البجَة» أو: «البُجَاة»[١]. وتمتد الأوطان الحالية لقبائل البجَة من جنوبي مصر في الشمال الى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة في الجنوب، ومن البحر الأحمر في الشرق الى النَيل ونهر أتبرا*[أ] في الغرب. وتمثل هذه الأقاليم الوطن الأصلي لقبائل البجة من أقدم العصور.

مما لا شك فيه أن قبائل البجة من أقدم العناصر التي سكنت وادي النيل. وتتفق آراء الباحثين على أن أسلاف أولئك البجة من الحاميين الذين عبروا البحر الأحمر من الجزيرة العربية، في زمن معرق القدم، واستقروا حيث تعيش سلالاتهم في الوقت الحاضر، وذلك منذ عمّر المصريون القدماء وادي النيل في بلاد النوبة ومصر. ويرى سلجمان أن أسلاف البجة والمصريين القدماء في عصر ما قبل الأسرات من سلالة واحدة. غير أن طبيعة البيئة في كل من أوطان البجة ومصر سلكت بكل منهما أسلوباً في الحياة مختلفاً عن الآخر. ويبدو الشبه أوضح ما يكون بين البجـة وبين المصريين القدماء في شعبة بني عامر، الذين يتحدثون لغة تَجْرِي الساميّة، وهي اللغة التي أخذها أسلافهم عن الغزاة والفاتحين من جنوب الجزيرة العربية. ولم يختلط أولئك الغزاة الساميّون بالبجة المفتوحين مدة طويلة، فحافظ هؤلاء على صفاء جوهرهم، على حين أن بقية البجة من الهدندوة وبني عامر والأمرأر والبشارين، تسربت إليهم دماء عربية، نتيجة التزاوج والاختلاط بالعناصر العربية التي دخلت بلادهم من الشمال عن طريق مصر، مما كان له أثره الواضح في تعديل بعض صفاتهم الجثمانية، مع تمسكهم بعاداتهم وتقاليدهم الحامية ولغتهم التبـداوية[٢]. وعلى هذا فالبجة ـ في رأي بول (Paul) ـ شعب حاميّ ساميّ، ينقسم الى مجموعتين رئيسيتين: إحـداهمـا جنـوبية حافـظت على صفاء جوهرها الحامي، لقلة اختلاطها بالعناصر الساميّة، ولكنها أخذت عن الساميّين لغتهم، ويمثل هؤلاء معظم بني عامر. وثانيتهما شمالية، وهي أقل صفاء، لاختلاطها بالعرب، غير أنها تبدو في مظهرها أكثر تمسكاً بالعادات والتقاليد واللغة الحامية، وإن كان أفرادها يعرفون اللغة العربية، ويمثل هؤلاء بقية البجة[٣].

من الضروري أن نشير هنا الى أن المؤلفين العرب في العصور الوسطى، لم يكونوا أول من أطلق اسم البجة أو البجاة على سكان الصحراء الشرقية وما يليها جنوباً إلى أطراف الحبشة، فإن لهذه التسمية أصولاً تاريخية قديمة، وإن لم تكن ثابتةً ولا مطردةً على مدى العصور. من ذلك مثلاً، أنه ورد في النصوص المصرية القديمة أن القائد المصري أوني، جنّد عسكراً من رجال القبائل الجنوبية، ومن بينها قبيلة ماجوي لقمع ثورة فلسطين، زمن الملك

---

* المحـــرر:

(أ) المقصود «نهر عطبرة»، الاسم الحديث لهذا النهر. أما «أتبرا»، الذي أورده المؤلف، فهو اسمه القديم.

بيبي الأول، وأنَّ رجال هذه القبيلة أيضاً ساعدوا هذا القائد في حفر قناة وسط صخور الجندل الأول في عهد الملك مِرِنْرَع[٤].

وجاء في النصوص المصرية القديمة التي ترجع الى عهد الملك تحتمس الثالث، أن قبيلة **بوكا أو بوكاك**، من بين القبائل الجنوبية التي أخضعها المصريون لسلطانهم. ولعل هؤلاء هم الذين ورد ذكرهم في نقش أكسومي *[ب] يرجع الى القرن الرابع الميلادي باسم **بوجايتاي** (*Bugaitae*)[٥].

غير أن اسم «البجة» ورد صريحاً من غير تحريف في النقوش الأكسومية التي خلفها ملوك أكسوم منذ القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد. وبعض هذه النقوش تسجل انتصار أولئك الملوك على قبائل البجة وقمع حركاتهم. والبعض الآخر يتضمن ذكر ألقاب ملوك أكسوم والشعوب الخاضعة لهم، ومن بينها قبائل البجة. ولعل أقدم هذه النقوش الأكسومية نقش عدول الذي يشير الى انتصار أحد ملوك أكسوم على البجة[٦].

وفي نقش خلفه عيزانا ملك أكسوم تخليداً لانتصاره على مملكة مروي *[جـ] حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي، ورد ذكر البجة ضمن الشعوب التي أحرز عليها هذا الملك نصراً، وقبض على ملوكهم الستة[٧]. ويتضمن نقش آخر لهذا الملك ذكر الألقاب التي يحملها وهي «ملك أكسوم، وحمير، وسيامو، والبجة، وكاسو[٨]، ملك الملوك»[٩].

وثمة أهمية خاصة لهذه النقوش، ذلك بأنها تشير في كثير من المواضع إلى أوطان أولئك البجة، وهي في جملتها تنطبق على الأوطان الحالية للبجة، سواء في شمال الحبشة، أو في جبال البحر الأحمر، أو قرب نهر أتبرا، أو في الصحراء الشرقية إلى حدود مصر الجنوبية. على أن ادعاء ملوك أكسوم السيطرة على البجة لا ينصرف إلى جميع قبائل البجة، بل إلى الجنوبيين منهم حتى قرب موضع مدينة سواكن الحالية. وهي أقصى منطقة امتد اليها نفوذ دولة أكسوم شمالاً، على حين أن بقية البجة، كانوا خاضعين لنفوذ دولة مروى[١٠].

وفي الوقت الذي كان يطلق فيه على القبائل البدوية التي تسكن الأقاليم الواقعة بين النيل والبحر الأحمر جنوبي مصر ـ كلها أو بعضها ـ اسم «بجة»، نرى الكتاب القدماء من اليونان والرومان يطلقون على هؤلاء اسم «بليميين» (*Blemmyes*). فيذكر الجغرافي اليوناني اراتوسطيني (٢٧٦ ـ ١٩٦ق. م.) أن البليميين والميجاباريين يسكنون المنطقة السفلى من أثيوبيا *[د]، وعلى طول النيل حول مروي، وتمتد أوطانهم من النيل شرقاً الى الصحراء الشرقية.

*** المحـــرر :**

(ب) مكتوب باللغة اليونانية.

(جـ) ليس من المؤكد أن هذا النقش يخلد انتصاره على مملكة مروي لأن مروي لم تذكر فيه من بين الأماكن المذكورة في النقش، وسر توهم كثير من الباحثين أنه يخلد سقوط مروي أنه يذكر ضم عَلْوَة، فقالوا ربما عنت علوة مروي. ولا إخال عيزانا كان يكتفي بإشارة موهمة كهذه دون أن ينص على مروي لو كان قد أسقطها فعلاً، لأن إسقاطها كان سيكون من دواعي فخره واعتزازه.

(د) ليس المقصود بكلمة «أثيوبيا» هنا أثيوبيا الحالية وإنما سودان وادي النيل.

وتشير الوثائق الديموطيقية في العصر البطلمي (القرن الثاني قبل الميلاد) الى وجود جماعات من البليميين في صعيد مصر. ويبدو أن أولئك البليميين من سلالة البليميين الذين انخرطوا في صفوف الجيش البطلمي، كما عثر على رسالة تشير الى وجود مستعمرات بليمية قرب جزيرة فيلة[١١].

ويذكر سترابون أن النوبيين والليبيين يعيشون على الجانب الغربي للنيل، وأن البليميين والميجاباريين يسكنون الناحية الشرقية من النيل جنوبي الشلال الأول، وحول مدينة مروي، ويمتدون شرقاً الى البحر الأحمر[١٢].

وتزخر الوثائق ومؤلفات الكتاب القدماء من اليونان والرومان بأخبار الصراع المرير بين الرومان في مصر وبين البليميين، وقد اشتد هذا الصراع منذ القرن الثاني للميلاد، حيث اتخذوا مدينة كلابشة بالنوبة السفلى عاصمة لهم[١٣]. غير أن هذه المنطقة لم تصبح الوطن الوحيد للبليميين وقتذاك، بدليل أن المؤرخ اليوناني أليمبيودوروس (Olympiodorus) زار جماعات البليميين في أرض النوبة السفلى دوديكاسخوينوس (Dodekaschoenus)*[هـ]، ثم زار بقية البليميين الذين يعيشون في الصحراء الشرقية، حيث توجد مناجم الزمرد[١٤].

وأهم مصدر يشير الى طرد البليميين من منطقة دوديكاسخوينوس في حوالى منتصف القرن السادس الميلادي، نقش الملك سِلْكو على جدران معبد كلابشة، إذ حاربهم هذا الملك وطردهم الى مواطنهم الأصلية في الصحراء الشرقية. يؤيد هذا قول المؤرخ الروماني بروكوبيوس ونصه: «أن شعوباً كثيرة من بينها النباطيون*[و] (*Nobatae*) والبليميون تعيش في المنطقة الممتدة من أكسوم الى الحدود المصرية عند إلفنتين، بيد أن البليميين يسكنون الجهات الوسطى، ويحتل النباطيون ضفتي النيل[١٥].

غير أننا لم نعد نسمع عن أولئك البليميين شيئاً بعد القرن السادس الميلادي. ومنذ الفتح العربي لمصر في القرن السابع الميلادي، عاد الى تلك القبائل البدوية اسمها القديم «البُجَاة»، مما يدعونا الى التساؤل عن مصدر تسميتهم بالبليميين في العصر البطلمي ثم الروماني في مصر.

إن ثمة رأي يقول، إن البليميين في وادي النيل، والبلما (Bilma) ـ الذين تعيش سلالتهم حالياً جنوبي فزّان والى الشرق من جماعات التبو ـ شعب واحد، ومن سلالة واحدة[١٦]. بيد أن هذا الرأي لا يمكن قبوله لعدم وجود ما يدل على قيام علاقة بين هذين العنصرين. وعلى العكس من هذا فإن لدينا ما يثبت أن اسم «البجة» ـ وهو الاسم القديم لسكان الصحراء الشرقية ـ ظل يطلق على أولئك السكان أنفسهم، في الوقت الذي كانوا يعرفون فيه لدى الكتاب الكلاسيكيين، في العصرين البطلمي والروماني في مصر باسم بليميين. من ذلك ما ورد في تاريخ

---

* المحـــرر:

(هـ) معنى هذه اللفظة هو «الاثنى عشر فرسخاً»، وهو التعبير المستخدم الآن بالعربية. وتقصد بها المنطقة من أسوان جنوباً إلى مُحَرَّقة.

(و) ربما كان الأفضل أن تكتب بالتاء (هكذا: **النوباتيّون**) تجنباً للبس مع «النَّبَط» و«الأنباط».

حياة الأنبا شنودة رئيس رهبان ديربانوبوليس (أخميم) في منتصف القرن الخامس الميلادي وعلاقته بالبليميين، إذ يشير النص المكتوب باللغة القبطية أواخر القرن السادس الميلادي إلى هؤلاء باسم *Balnemowi* . ولما ترجم الأصل القبطي القديم، الذي كتبه أحد تلاميذ الأنبا شنودة، في القرن الخامس الميلادي الى اللغة العربية، في القرن الثالث عشر الميلادي، حل لفظ «البجة» محل لفظ بالنموي، وهم البليميون بطبيعة الحال[١٧] .

فضلاً عن هذا، فإن التاجر المصري قوزما (Cosmas) تعرض لذكر سكان الصحراء الشرقية في كتابه الذي ألفه بين سنتي ٥٣٥ ـ ٥٤٧م، فذكر في موضع من كتابه أن «البجة» من سكان الصحراء الشرقية الذين أخضعهم بطلميوس بن أرسينوي لسلطانه[١٨]. وفي موضع آخر يقول: «إن الأحباش يحصلون على معدن الزمرد من البليميين، ويبيعونه لتجار الهند مقابل الحصول منهم على المنسوجات الهندية الفاخرة»[١٩].

يبدو أن اسم البليميين لم يكن عاماً شاملاً لجميع سكان الأقاليم التي يسكنها البجة في الوقت الحاضر، وانما انصرف فقط الى شعبة أو أكثر من أولئك البجة، ولا سيما القريبين من الحدود الجنوبية لمصر، وهم الذين سيطروا على مناجم الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية، واحتلوا اقليم دوديكا سخوينوس في النوبة السفلى زمن الرومان في مصر. ومع هذا فإن هؤلاء كانوا ما يزالون يعرفون، وقتذاك أيضاً، باسم «البجة»، كما سبق أن أوضحنا، أما بقية البجة ولا سيما الجنوبيون منهم فإنهم احتفظوا باسمهم القديم الذي عرفوا به في النقوش الأكسومية.

والراجح أن البليميين هؤلاء طبقة أرستقراطية، استطاعت بما لديها من خبرات آلية جديدة، وصفات حربية ممتازة، أن تسيطر على مجموعة كبيرة من البجة الشماليين، مدة ثمانية قرون على الأقل، وأن تستعين بهم على تحقيق مصالحها الاقتصادية والحربية التوسعية، زمن البطالمة والرومان. ولما تخلخل سلطان هذه الطبقة الحاكمة في القرن السادس الميلادي عاد الاسم القديم «البجة» إلى هذه القبائل، وبه عرفوا فيما بعد.

بيد أنا نسمع في القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد (ق٦ ـ ٨هـ) عن وجود جماعة من «البليّين» في الصحراء الشرقية، ويتصفون بصفات تشبه الصفات التي اشتهر بها البليميون زمن الرومان، فيقول الإدريسي: «. . . . وبين أرض النوبة وأرض البجة، قوم رحالة يقال لهم البليون ولهم صرامة وعزم، وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم، ويخافون ضرهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية، وكذلك جميع أهل بلاد النوبة والحبشة[٢٠]». ويقول الإدريسي في موضع آخر: «. . . . وربما أغار على أطرافها (أي: مدينة أسوان) خيل السودان المسمين بالبليين، ويزعمون أنهم روم، وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط، وقبل ظهور الاسلام، غير أنهم خوارج في النصارى يعاقبة، وهم متنقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة، ويتصلون ببلاد النوبة، وهم رحالة ينتقلون ولا يقيمون بمكان، مثل ما تفعله لمتونة الصحراء الذين هم بالمغرب الأقصى. . . »[٢١]. ويصفهم إبن الوردي في القرن الرابع عشر الميلادي بصفات لا تخرج كثيراً عما ذكره عنهم الإدريسي، ومنها قوله: «. . . . وبين البجة والنوبة قوم يقال لهم البليون، أهل عزم وشجاعة يهابهم كل من حولهم من الأمم ويهادوهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية»[٢٢].

من هذه النصوص يمكننا أن نخرج بعدة حقائق منها :

أولاً : أن أولئك البليين من السودان ، وأن مواطنهم تقع بين بلاد النوبة وأوطان البجة وبلاد الحبشة .

ثانياً: أنهم من البدو غير المستقرين .

ثالثاً: أنهم على النصرانية التي اعتنقوها قبل ظهور الاسلام .

ويبـدو من تحديد أوطـان أولئك البليين على هذه الصورة أنهم كانوا يعيشون في الصحراء الشرقية ، لكن وصفهم بأنهم من السودان يجعلنا نتساءل : من أي السودان هم؟ هل هم من النوبة أم من البجة؟

المعروف أن النوبيين شعب مستقر، يمارسون الزراعة على ضفتي النيل على حين أن البجة بدو، يمارسون حرفة الرعي[٢٣] . والراجح أن البليين هؤلاء من البجة ، لا من النوبة بدليل قول الإدريسي : «هم رحالة يتنقلون ولا يقيمون بمكان» . ولو صح هذا ، فإنهم ينسبون الى البليميين الذين عرفهم البطالمة والرومان من قبل . وبمعنى آخر يمثلون الطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، التي عرف بها البجة ، خلال هذين العصرين . يؤيد ذلك وصف البليين بأن فيهم نزعة حربية ، وميلاً الى الحرب والإغارة على جيرانهم ، مثلما عرف عن أسلافهم البليميين زمن الرومان . يضاف إلى هذا أنهم ليسوا حديثي عهد بالهجرة الى تلك الأوطان ، بل أن عهدهم بها قديم ، بدليل اعتناقهم المسيحية في أوطانهم هذه قبل ظهور الاسلام .

والراجح أن البليين الذين أشار اليهم كل من الإدريسي وابن الوردي في القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد ، هم بقايا البليميين[٢٤] ، الذين بسطوا سلطانهم على مجموعة من البجة الشماليين في العصر البطلمي ثم الروماني في مصر وكونوا طبقة حاكمة عرفوا بها أحياناً كثيرة .

وإذا سلمنا بأن البليين من بقايا البليميين القدماء ، وأن البليميين هؤلاء كوّنوا طبقة حاكمة ، بسطت نفوذها على مجموعة كبيرة من البجة ، فهل يعني هذا أن البليميين وخلفاءهم البليين هم والبجة المحكومين من أصل واحد ومن سلالة واحدة؟

ليس من الضروري أن يكون ذلك كذلك ، ومن الجائز أن يكون لكل من هذين العنصرين نشأة مستقلة وأصل مختلف . غير أن هذا لا يعني أن الحاكمين والمحكومين ظلوا طبقتين منفصلتين تماماً ، بل لا بد أن يكون هذان العنصران اختلطا ببعضهما عن طريق الزواج ، لا سيما إذا عرفنا أن الزواج كان وسيلة لدعم حق جماعة في بسط سلطانها ونفوذها على جماعة أخرى ، عن طريق وراثة الأم ، وهو النظام السائد عند الجماعات الحامية ، ومن بينهم البجة بطبيعة الحال . ولا بد أن هذا الاختلاط أدى الى صبغ الطبقة الحاكمة ، وهم البليميون ، بصبغة الجماعات المحكومة من البجة ، بدليل قول الإدريسي ، أن البليين «من السودان» . بيد أن هذه الصبغة السودانية ، وإن تناولت بعض الخصائص الجثمانية والعادات والتقاليد التي اكتسبوها من البيئة البجاوية ، إلا أنها ـ فيما يبدو ـ لم تمس في كثير

بعض الخصائص الثقافية ومظاهرها التي عرف بها البليميون زمن الرومان، ولا تلك التي ورثها سلالتهم البليو زمن الإدريسي. ولعل أبرز ظاهرة ثقافية اختص بها أولئك البليون هي استخدامهم الخيول في الحرب، بدليل قول الإدريسي في حديثه عن مدينة أسوان ونصه: «. . . . وربما أغار على أطرافها خيل البليين. . . »، والمعروف عن البجـة أنهم ينفرون من الخيل[٢٥]، ولا يقبلون على تربيتها أو استخدامها. وليس لدينا ـ فيما أعلم ـ دليل على استخدام البجة للخيول وسيلة من وسائل الحرب أو النقل. فلم نعثر على إشارة واحدة في كتب المؤلفين العرب أو غيرهم في العصور الوسطى على استخدام البجة للخيل، إنما جل اعتمادهم على الإبل، التي أبدوا براعةً فائقةً في تربيتها، ومن ثَمَّ أقبلوا على اقتنائها حتى أضحت جزءاً من حياتهم. وإذا كان من غير المعروف تماماً، متى بدأ البجة يربون الإبل، فإن براعتهم فيها اليوم، تدل على قدم عهدهم بها[٢٦]. وأما دخول الخيل الى أوطان البجة ـ فيما يبدو ـ فكان أحدث نسبياً، واقتصر اقتناؤها على البليين سلالة البليميين، مما يدعو الى الاعتقاد أن دخول الخيول الى أوطان البجة اقترن بظهور الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من البليميين، ويعزز رأينا في أن الطبقة الحاكمة، وهم البليميون، والطبقة المحكومة، وهم البجة، من شعبتين مختلفتين. وإذا وضح لنا أن البجة من الحاميين، فإلى أي السلالات إذاً ينتسب البليون وأسلافهم البليميون؟

الراجح أن هؤلاء وأولئك، أى البليميين والبليين، يرجعون إلى أصل عربي، ذلك أن عهد العرب بتربية الخيول واستخدامها في الحرب وغيرها قديم جداً، وإن كانت صلتهم بالإبل وشهرتهم بها لا تقل عن شهرتهم باقتناء الخيل وقدم عهدهم بها كذلك. ونجد تأييداً للقول بأن البليين من العرب في مدلول لفظ «بليميين» أو «بليين» في اللغة التِّبداوية، أي لغة البجة. ذلك أن البجـة يطلقـون على «العـرب» في لغتهـم التبداويـة هـذه اسم **بـلاوى** (*Blawye*). فإذا سألت بجاوياً: هل تعرف اللغة العربية؟ فانه يجيب بقوله: «بلاويت كاكان» (*Balawit Kakan*) أي: «إنني لا أعرف العربية»[٢٧].

وثمة ملحوظة هامة هنا هي أننا نسمع في القرن السادس عشر للميلاد (ق١٠هـ) بوجود جماعة تدعى **البلو** (*Balloos*)، تسكن شمالي الحبشة، وأول من أشار الى أولئك **البلو**، القسيس البرتغالي الفارز (Alvarez)، الذي زار الحبشة في المدة من **١٥٢٠** الى **١٥٢٧**م، وقال: «إن جماعة من العرب تدعى البلو يسكنون على حدود الحبشة، ويجاورهم من الشمال النوبيون (*Nubii*)، وهم على علاقة طيبة بملك الحبشة ويقدمون اليه إتاوة من الخيول. ويبدو أن أولئك البلو من بقايا البليين الذين أشار اليهم الإدريسي وابن الوردي، وأن أولئك البليين انتقلوا في القرن الخامس عشر الى الجنوب بعد أن اضمحل نفوذهم في الشمال وأقاموا فيما هو معروف اليوم بأوطان بني عامر مملكة عرفت وقتذاك باسم «مملكة البلو» واشتهر أولئك البلو دون سواهم ممن جاورهم من البجة والحبشة باستخدام الخيول وبراعتهم في تربيتها»[٢٨].

والراجح أن اسم «البليين» أو «البليميين»، ارتبط ثقافياً ولغوياً بالأصل العربي. ومعنى هذا أن ثم علاقة كانت قائمة فعلاً بين وادي النيل من ناحية وبين الجزيرة العربية من ناحية أخرى على مدى العصور. وهذه ظاهرة تؤيدها الحقائق الجغرافية والروايات التاريخية. ذلك أن البحر الأحمر لم يكن يمثل حاجزاً يمنع الاتصال بين شماطئ

الآسيوية العربية وشواطئه الإفريقية، إذ لا يزيد اتساع هذا البحر على المائة والعشرين من الأميال عند السودان، وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة. أما في الجنوب فيضيق البحر الأحمر ضيقاً واضحاً عند بوغاز باب المندب، وهو الطريق الذي سلكته السلالات والأجناس الى القارة الافريقية منذ عشرات الآلاف*[ز] من السنين[٢٩]. ولعل التجارة كانت أهم وسيلة لهذا الاتصال، إذ نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب، بين الجزيرة العربية من ناحية، وبين موانىء مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى. واتخذ التجار العرب من بعض نقط على الساحل الإفريقي مراكز لهم يوغلون منها بسلعهم وبضائعهم في قلب القارة الإفريقية حتى وادي النيل على الأقل. وفي الألفي سنة قبل الميلاد، هاجرت جماعات عربية من جنوب غربي الجزيرة العربية الى الحبشة وبلغت هذه الهجرات العربية أقصاها ما بين ١٥٠٠ ـ ٣٠٠ق. م. *[ح]، في عهد دولتي معين وسبأ. وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحر الأحمر، ووصلوا في توغلهم غرباً إلى وادي النيل، ونشطت حركة التجار العرب خاصة زمن البطالمة والرومان. ولا شك أن عدداً غير قليل من هؤلاء استقروا في أجزاء مختلفة من حوض النيل، ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم. وفي القرنين السابقين للميلاد عبر عدد غير قليل من الحميريين (أهل اليمن)، مضيق باب المندب فاستقر بعضهم في الحبشة، وتحرك بعضهم الآخر متتبعاً النيل الأزرق ونهر أتبرا، ليصلوا عن هذا الطريق الى بلاد النوبة[٣٠]. وتذكر بعض المراجع العربية: «أن ملوكهم (النوبة) يزعمون أنهم من حمير، ولقب ملكهم كابيل، وكتابته الى عماله وغيرهم: من كابيل ملك مقرى ونوبة[٣١]». ولعل أصل لفظ «كابيل» من «قيِّل»، وهو لقب أطلق على بعض أمراء اليمن[٣٢]. وليس بمستبعد أن الأسرة المالكة النوبية ترجع في أصلها الى جنوبي الجزيرة العربية، ثم استقروا في بلاد النوبة حيث نقلوا أسماء بعض أجدادهم، مثل: كوة، دارو، سبأ، ولا يبعد أن تكون الأخيرة حرفت الى سوبا (عاصمة مملكة علوة)[٣٣]. هذا فضلاً عن الشارات الملكية اليمنية التي شقت طريقها الى بلاد النوبة واتخذها بعض أمرائها شارات لهم كذلك[٣٤].

وورد في القصص العربي القديم أنباء حملات عسكرية قام بها الحميريون في وادي النيل الأوسط وشمال إفريقيا، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت في بلاد النوبة وأوطان البجة وشمال إفريقيا. ومن الروايات العربية القديمة، رواية أوردها ابن خلدون عن حملة قادها أبرهة ذو المنار بن ذي القرنين الحميري على السودان وبلاد النوبة وبلاد المغرب حوالي أوائل القرن الأول الميلادي[٣٥]. ويشير دى برسفال (De Perseval) إلى حملة قادها أبومالك بن شمر يرعش*[ط] الحميري الى معادن الزمرد بأوطان البجة[٣٦]. ويرى ريد (Reid) أن هؤلاء اختلطوا

* المحـــرر:

(ز) ليس في الإمكان إثبات مثل هذه الهجرات وإرجاعها لعشرات الآلاف من السنين بشواهد وأدلة أثرية. إلى جانب ذلك فالظاهر من التوزيع اللغوي في الحبشة وانتشار التقرية والتقرينية والأمهرية بامتداد إرتريا في اتجاه جنوبي شرقي الى أن ارتريا كانت هي المدخل الى شرق إفريقيا من الجزيرة العربية مروراً بجزيرة دهلك، وأن طبيعة الساحل الإفريقي في باب المندب ووعورته تستبعدانه كمدخل سهل من الجزيرة العربية الى إفريقيا.

(ح) أشدها هجرة قبيلة حبشت، ومنها أخذت الحبشة اسمها، التي يرجح أنها كانت في حوالي ١٠٠٠ق.م.

(ط) هكذا يعرف في المكتبة العربية القديمة. ولكنه شمر يهرعش.

بالحاميين سكان شرق السودان ـ وهم البجة ـ وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم حسبما يقضي به نظام التوريث المعروف عند الشعوب الحامية، وهو توريث ابن الأخت أو ابن البنت. وممن انتفع بهذا النظام الوراثي من العرب ـ جماعة من الحضارمة ـ سكان حضرموت ـ الذين عبروا البحر الأحمر إلى ساحله الإفريقي في القرن السادس الميلادي، ثم اختلطوا بالبجة، وكونوا طبقة حاكمة خضع لها هؤلاء البجة المعروفون بالزنافج، وتعلموا لغتهم، واعتنقوا المسيحية حتى يسهل عليهم قيادتهم والسيطرة عليهم. وعلى الرغم من أن عدد هذه الجماعات العربية المهاجرة الى السودان لم يكن كبيراً، فمما لا شك فيه أنها تركت بعض آثارها الثقافية فيمن اختلط بهم من الشعوب الحامية التي تسكن وادي النيل وقتذاك[٣٧].

أما الطريق الشمالي، وهو برزخ السويس، فذو دور خطير في تاريخ العلاقات بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادي النيل الأدنى، منذ فجر التاريخ، ولم تخل الآثار المصرية القديمة من الإشارة الى بدو سيناء وفلسطين وسوريا وغيرهم من العرب الشماليين الذين عرفتهم مصر منذ عهد الأسرات الأولى، إما تجاراً يختلفون إلى الأسواق المصرية، أو غزاة كالهكسوس، أو مهددين لمصالح الامبراطورية المصرية في سوريا، أو لاجئين يرغبون العيش في كنف الفراعنة. ومهما يكن من أمر هذه العلاقات فإنها طبعت اللغة المصرية القديمة بالطابع السامي. ولم تنقطع صلة هذه العناصر العربية بمصر زمن البطالمة والرومان كذلك. ومن ذلك ما يشير اليه سترابون (٦٦ ـ ٢٤ق. م.) وبليني (حوالي ٧٠م)، من تكاثر العرب على أيامهما في أعالي صعيد مصر، واشتغال هؤلاء بنقل المتاجر عبر الصحراء الشرقية، فيما بين النيل والبحر الأحمر[٣٨].

واذا كان من غير المعروف، من أى قبائل العرب هؤلاء، فالراجح أنهم أو معظمهم على الأقل من قبيلة بلِي القحطانية. إذ المعروف أن قبائل بلي كانت تنزل سيناء، وأن مواطنهم امتدت الى برزخ السويس[٣٩]. وليس ببعيد أن تكون جماعات منهم تجاوزوا الى الصحراء الشرقية كما فعل الأنباط[٤٠]، وقد تكون هجرتهم هذه سابقة للقرن الأول الميلادي أو القرن السابق له. إذ قد ترجع مطالع هذه الهجرة الى القرن الثالث قبل الميلاد، حين بدأ اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر، وإنشاء الموانىء على طول ساحله الإفريقي، مثل **برنيكي وبطلميوس ثيرون** (موضع عقيق الحالية)، وغيرهما للحصول على السلع الإفريقية الضرورية كالبخور وسن الفيل وأصداف السلاحف والفيلة والعبيد. على أنه ما كان ليتم للبطالمة تحقيق مشروعاتهم التجارية في البحر الأحمر، دون الاستعانة بالعناصر الوطنية في منطقة الظهير، واستخدامها في صيد الفيلة، ونقل المتاجر فيما بين النيل وموانيهم على البحر الأحمر. ولما كان من طبيعة الوطنيين من سكان منطقة الظهير ـ وهم البجة ـ النفور من كل غريب يهبط الساحل، وعدم الاستجابة للبحر وما يجري فيه من نشاط، كان من الضروري أن يلجأ البطالمة الى استخدام عناصر أجنبية من مرتزقة اليونان، وبعض الجماعات العربية من بلي للقيام بهذا العمل. ولا بد أنه أنيط بالجماعات العربية من بلي ـ وهم ذو خبرة بشئون الصحراء ـ القيام بعمليات النقل البري، والمحافظة على خطوط المواصلات بين النيل والبحر الأحمر[٤١] ضد أي هجوم محتمل من جانب قبائل البجة، وهي القبائل التي وصفت آنذاك بالتوحش والهمجية.[٤٢] ويبدو أن الجماعات العربية من بلي كانت من القوة والكثرة العددية بحيث غدا اسمها في اللغة التبداوية ـ لغة البجة ـ مرادفاً للفظ عرب أو عربي.

وعلى الرغم مما عرف عن أولئك البجة من النفور من كل غريب يطأ بلادهم، فقد أتيح للعناصر العربية من بلي أن تختلط بقبائل البجة، ولا سيما الشماليين منهم، وأن تبسط سلطانها على معظم هذه القبائل عن طريق الزواج، وما يترتب عليه من حقوق حسبما يقضي نظام وراثة الأم، وبذا سلس لقبيلة بلي قيادهم واستخدامهم في تحقيق أغراضهم السياسية التوسعية والاقتصادية كما سبق أن ذكرنا. وغدت هذه القبائل البجاوية التي سيطرت عليها بلي تعرف كذلك عند اليونان والرومان باسم الطبقة الأرستقراطية الحاكمة فحرفا إلى *Blemmyes* أي «بليميين».

الهــوامش

(١) Seligman, «Some Aspects of Hametic Problems in the Anglo-Egyptian Sudan», *J.R.A.S.* No. 43 (1913), 606-607.

(٢) A. Paul, *A History of the Beja Tribes of the Sudan,* 23 - 25.

(٣) *Ibid.*

(٤) A.E.P. Weigall, *A Report on the Antiquities of Lower Nubia,* 5.

(٥) H.W. Beckett, *The Archaeological Survey of Nubia,* vol. II (1907 - 8), 360 - 367.

(٦) A. Paul, *op.cit.,* 44 - 45.

(٧) Woolley-MacIver, *Karanòg,* 88; A. Paul, *op.cit.,* 44.

(٨) لعل المقصود بلفظ كاسو هنا كاش أوكوش، وهي وقتذاك دولة مروي.

(٩) A.J. Arkell, *A History of the Sudan from the Earliest Times to 1821,* 172.

(١٠) Woolley - Maclver, *op.cit.,* 88

(١١) L.P. Kirwan, *The Oxford University Excavations at Firka,* 46-47

(١٢) Strabo, *The Geography,* VIII, 7

(١٣) L.P. Kirwan, *Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology* XXIV (1937), 76

(١٤) *Ibid*

(١٥) Procopius, *History of the Wars,* 185

(١٦) H. W. Beckett, *op.cit.,* 367

(١٧) L.P.Kirwan,(1931), *op.cit.,* 69-73.

(١٨) MacCrindle (ed.), *The Christian Topography of Cosmas,* 62

(١٩) L.P.Kirwan, *op.cit.,* 69-70

(٢٠) الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (نشر دي خويه)، ص٢٧.

(٢١) **المصدر السابق**، ص٢١ .

(٢٢) ابن الوردي، **كتاب خريدة العجائب** (نشر تورنبرج)، ص ١٧٠ .

(٢٣) L.P.Kirwan, *The Oxford Excavations at Firka,* 39

(٢٤) L.P.Kirwan, *Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology* XXIV, 76

(٢٥) A. Paul, *op.cit.,* 67

(٢٦) محمد عوض محمد، **السودان الشمالي**، ص ص٣٠ ـ ٣١ .

(٢٧) O.G.S. Crawford, *The Fung Kingdom of Sennar,* 110

(٢٨) *Ibid,* 111 - 112 .

(٢٩) محمد عوض محمد، **السودان ووادي النيل**، ص٢٨ .

(٣٠) H.A. MacMichael, *A History of the Arabs in the Sudan,* Vol. 1, 3 - 4

(٣١) ياقوت، **معجم البلدان**، ص٣٢٣ .

(٣٢) إبن هشام، **السيرة**، جـ٤، ص٢٥٨ .

(٣٣) Ugo M. De Villard, *Storia della Nubia Cristiana,* 171

(٣٤) عرف حاكم ولاية مريس (نوباتيا ـ النوبة الشمالية) عند المؤرخين العرب باسم «صاحب الجبل» (المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، جـ١، ص ١٩٠)، وعاصمته **بجراش** (فرس). وقد اتخذ هذا الحاكم لنفسه شارات خاصة هي العمامة ذات القرنين والسوار الذهبي، والعمامة يبرز منها قرنان، ومزينة في واجهتها الأمامية بمثلثين متعاشقين، وهما رمز سليمان، وفوقهما هلال صغير. ويرى دي فيلارد (**المرجع نفسه**) أن العمامة من الشارات الملكية الساسانية التي وصلت الى النوبيين، إما عن طريق مصر أيام احتلال الفرس لها ما بين ٦١٦ ـ ٦٢٧م، وإما وصلت عن طريق اليمن، لأن الفرس احتلوها مدة غير قصيرة. أما رمز سليمان فهو أثر يهودي دخل اليمن في القرن السادس الميلادي وإما قبله، ولا يبعد أن يكون هذا الرمز مأخوذاً عن الحميريين الذين وصلوا الى وادى النيل الأوسط.

(٣٥) ابن خلدون، **العبر**، جـ١، ص١٧٦ .

(٣٦) Causin de Perseval, *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme,* 1, 82

(٣٧) J.A.Reid, «Some Notes on the White Nile Tribes», *SNR.* XIII, part II (1930), 150

(٣٨) جرجي زيدان، **العرب قبل الإسلام**، ص١٩٤ .

(٣٩) الهمداني، **صفة جزيرة العرب** (نشر الأكوع)، ص ٢٧٣ .

(٤٠) عبدالمجيد عابدين، **البيان والإعراب للمقريزي**، ص ٨٩ .

(٤١) Pliny, *Natural History,* XI, 463

(٤٢) A. Paul, *op.cit.,* 34-35

الصراع على البحر الأحمر في عصر البطالمة

سيد أحمد علي الناصري

كان الصـراع ـ وسيظـل ـ العـامـل الـديناميكي الذي يحرك الأحداث التاريخية في كل العصور، ومن ثم فإن بعض فلاسفة التاريخ يفضلون إحلال كلمة «العلاقات الدولية» بكلمة «الصراع بين الأمم».

والصراع بين الأمم الكبرى يكون عادة من أجل فرض النفوذ وهويقوم على مبدأين، أولهما الصراع من أجل البقاء الذي إذا ما تحقق تسعى هذه القوى الى المبدأ الثاني وهو الصراع من أجل فرض النفوذ على المناطق الحيوية بدعوى الأمن.

ولقـد كانت البحـار من أهم المنـاطق التي تسعى القوى الكبرى إلى فرض نفوذ عليها، لأن البحار هي أقدم الطرق بين الأمم وأيسرها في السيطرة عليها، حمايةً للأمم من خطر العدوان وتأميناً لتجارتها واقتصادها. وليس كل البحار يدور حولها الصراع بين القوى العظمى، وإنما يدور فقط حول البحار التي تقع وسط مناطق ديناميكية وخلاقة للحضارة والتجارة مثل البحرين: الأبيض والأحمر.

ولقـد تأثـرت شبـه جزيـرة العـرب بذلـك الصـراع بسبب امتداد رقعتها الشاسعة وتحكمها في ذراعي المحيط الهنـدي، وأعني بذلـك الخليـج العربي والبحر الأحمر. فلو تخيلنا مثلثاً قاعدته الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وضلعـه الأيمن الخليـج نجـد أن ضلعـه الأيسـر هو البحر الأحمر، ومن ثم يمكن أن نقول إن الخليج العربي والبحر الأحمـر يكـونـان وحـدة ملاحية مرتبطة ومتكاملة وهما يحيطان بشبه الجزيرة، مما جعلها ملتقى الطرق بين عالم المحيط الهنـدي وعـالم البحـر المتـوسط، بالإضافة إلى وقوعها بين أقدم المناطق الحضارية في العالم القديم وأغناها، ومن ثم استرعت شبه الجزيرة اهتمام الممالك المتصارعة على النفوذ السياسي والتجاري منذ أقدم العصور، فحاولت فرض نفـوذهـا على سواحلهـا بقـدر المستطاع، ليس طمعاً في مواردها الطبيعية التي كانت في العصور القديمة متواضعة، وإنـما من أجـل التحكم في منـافذ البحار المحيطة بها من الشرق والجنوب والغرب، وفي طريق القوافل الشهير الذي يمتـد بحـذاء ساحـل البحـر الأحمـر ويربط بين اليمن والشام، ومن ثم وجدت شبه الجزيرة العربية نفسها ـ وهي لا تدري ـ بؤرةً للصراع العالمي على النفوذ، وسيظل البحر الأحمر بؤرة الاهتمام للأمم الكبرى ومركزاً للصراع من قبل القوى العظمى المتصارعة على مدى التاريخ، ومن ثم فقد رسم البحر الأحمر لشبه الجزيرة تاريخها، وهي أن تكون محل تعرض من جانب قوى خارجية تضغط عليها، وتحاول التأثير فيها سياسياً واقتصادياً.

وجدير بالذكر أن السيادة البحرية على البحر الأبيض ارتبطت دوماً بالسيادة على البحر الأحمر، لأنهما يكادان يكونان متلاحمين عند برزخ السويس، كما أنهما عبر الأحداث التاريخية لعبا دوراً متكاملاً، فالأول يمثل بؤرة الصراع السياسي والفكري لوقوعه كبحيرة تطل عليها عدد من الأمم ذات الحضارات العريقة والقوى العسكرية والمتطلعة لبنـاءِ إمـبراطـوريـات عاتية، مثل الإمبراطورية المصرية والمقدونية والرومانية، أما البحر الأحمر، فبالرغم من تواريه

قليلاً من ساحة الصراع السياسي السابقة إلا أنه كان يمثل الثراء الاقتصادى. فهو الشريان الحيوي لطرق التجارة بين عالم المحيط الهندي وعالم الغرب الأوروبي.

وبالنسبة لتاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، لم يكن البحر الأحمر هو منفذها الحيوي الى العالم الغربي فحسب، بل كان يشكل المصدر الأكبر لاقتصادها. ولولاه لكادت سبل الحياة فيها تقتصر على رعي الأغنام وعلى قدر محدود من الزراعة في بعض مناطقها المطيرة. وهذا بالطبع لا يكفي لتهيئة المناخ الملائم لقيام حضارة مستقرة، ولهذا يلاحظ أن مناطق ازدهار الحضارة فيها ارتبط دائماً بحركة التجارة عبر الشرق والغرب، كما أن هذه الحضارات كانت تضعف وتنهار إذا تدهورت التجارة عبر البحر الأحمر، وتعود من جديد مع عودة النشاط التجاري فيه، لأن دويلات شبه الجزيرة القديمة إن لم تكن المالكة للحركة التجارية، فقد كانت على الأقل تستفيد منها مادياً، سواء من جمع المكوس أو الإتاوات من القوافل المارة عبر أراضيها، مقابل تقديم الحماية اللازمة لها، أو من الخدمات التي كانت تقدمها لهذه القوافل من خلال مدنها الواقعة على طرق التجارة. ولهذا لوحظ أنه عندما تكون الحركة التجارية في البحر الأحمر نشطة، نجد الحواضر والبوادي العربية في حالة استقرار واستكانة وتقدم حضاري، فإذا ما اضطرب هذا النشاط التجاري، انعكس أثره بسرعة على الحالة الداخلية لغرب شبه الجزيرة، وعندئذ تخرج القبائل من بواديها لتغير على الحواضر الكبرى القريبة منها، فتنهبها وتلحق بها أضراراً ترجعها إلى الوراء عشرات السنين.

ولما كان النشاط التجاري عبر بلاد العرب يعتمد إلى حد كبير على وجود قوى كبرى خارجية مهتمة بحركة التجارة، وقادرة على فرض السلام فيه، والسيطرة على مداخله ومخارجه، فإن تاريخ شبه الجزيرة كان يتأثر دائماً بالصراع الدولي من قبل القوى الخارجية، وبخاصة على الصعيد الداخلي لأحوال الدويلات والحواضر العربية القديمة. كذلك بالنسبة لقيام مناطق حضارية وثغور تجارية وازدهارها على ساحل البحر الأحمر، كما لوحظ أن في الفترات التي لا يشهد فيها البحر الأحمر صراعاً من قبل الامبراطوريات والقوى الكبرى فإن تدهوراً وكساداً يسودان المناخ التجاري والحضاري ويخيّمان على دويلاته، مما يؤدي الى حركة هرج ومرج للقبائل البدوية، التي تغير على الحواضر، وتقضي عليها، ومن ثم نخرج من هذا بالقول بأن الأزمات التاريخية التي شهدتها شبه الجزيرة في العصور القديمة ليست في جوهرها سوى انعكاس داخلي لما كان يجري من صراع على البحر الأحمر في الساحة الدولية، وبخاصة بالنسبة لما يتعلق بالصراع حول ميزان القوى بين الأمم المتصارعة، ومن ثم يتوجب علينا دائماً أن نربط بين مراحل ازدهار الحضارة في شبه جزيرة العرب ومراحل الصراع الدولي من أجل السيطرة على البحر الأحمر. تلك هي مقدمة واستنتاج تاريخي لا بد لنا من رصده قبل أن نطبقه على مرحلة من تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، وهو الصراع الذي دار على البحر الأحمر إبّان حكم البطالمة لمصر.

وكما سبق أن ذكرنا شغل الصراع على البحر الأبيض المتوسط انتباه الأمم المتصارعة ردحاً من الزمن حتى لفت الاسكندر الأكبر الأنظار إلى أهمية البحر الأحمر ووجوب الكشف عن أغواره وأسراره، وذلك بعد أن أتم القاهر المقدوني سيطرته الكاملة على البحر المتوسط عام ٣٣٢ ق.م.

لكن قبل مجيء الاسكندر بآلاف السنين كان هناك صراع محدود على البحر الأحمر، فقد سعى المصريون

القدماء إلى فرض نفوذهم عليه، وذلك بسبب مصالح مصر في الساحل المجاور للنوبة والذي كانوا يعتبرونها جزءاً لا يتجزأ من أرض مصر*[أ]، ولحرصهم على التجارة مع بلاد بونت من أجل الحصول على البخور والطيب والأعشاب الطبية اللازمة للتحنيط وتحضير العقاقير، وكانوا يحصلون عليها من جنوب غرب شبه الجزيرة. ويدعى البعض أن اهتمام المصريين بالبحر الأحمر يرجع الى عصر الأسرة الخامسة، وبالتحديد في عهد الملك ساحورع[١]، ووصل النشاط المصري في البحر الأحمر إلى أقصاه في عصر الدولة الحديثة، حيث وصلت السفن المصرية إلى مضيق باب المندب، كما أن الرحلة التي تمت في عهد الملكة المصرية حتشبسوت إلى الصومال والتي سجلها الفنانون على جدران معبدها في الدير البحري بالأقصر، تبين لنا الدوافع التي أدت الى ذهاب المصريين الى هذه المناطق البعيدة من البحر الأحمر، وهي الحصول على البخور المقدس الذي كان يحرق في المعابد، وكان يؤتى به من جنوب غرب الجزيرة العربية*[ب]، والتي ذكرت في بعض النصوص المصرية باسم «الأرض المقدسة»[٢]. ومن الكيانات السياسية المستقلة التي قامت على سواحل شبه الجزيرة وارتبطت بتأثير النفوذ المصري مثل مملكة معين التي قامت عند مدخل البحر الأحمر قبل القرن الحادي عشر ق.م. والتي نشطت حتى أصبح لها محطات تجارية تابعة لها على طول طريق القوافل عبر الحجاز، من أهمها مستوطنة معين مصران (دادان)[٣] والحِجر (مدائن صالح). وبالرغم من أن قوىً أخرى نافست المصريين على تجارة البحر الأحمر مثل سومر وأكاد ثم دويلة لجش وأريدو (التي كان لها ميناء على الخليج) وأور، إلا أنها كانت قوى صغرى مفككة متعادية، كما أن اهتمامها كان مرتكزاً على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة أكثر من الساحل الغربي، ومن ثم لم تشكل هذه القوى خطراً على النفوذ المصري على الساحل الغربي للجزيرة[٤]. ولما تقلص النفوذ المصري في القرنين الثاني عشر والحادي عشر أصبح هناك فراغ كبير في البحر الأحمر، ومن ثم حاول الآشوريون في عصر الملك تجلات بيليسر الأول (١٢١٥ ـ ١١٠٣ق.م.) ملء ذلك الفراغ، فاندفع بجيوشه غرباً نحو ساحلي البحرين الأحمر والأبيض معاً، لكن موته أدّى إلى تعطيل ذلك الحلم بسبب الاضطرابات التي تلت موته. لكن الامبراطورية الآشورية عادت الى العمل في هذا الاتجاه مرة أخرى في عصر آشور بانيبال (٨٨٥ ـ ٨٦٠ق.م.). وفي عهد تجلات بيليسر الثالث (٧٤٦ ـ ٧٢٨ ق.م.) ضمت آشور سوريا، وتواصلت الفتوحات الآشورية في عصر الملك سرجون الثاني. وفي عهد خلفائه تم ضم مصر نفسها الى حوزة الامبراطورية الآشورية*[جـ] التي ورثت كل نفوذ مصر في البحر الأحمر.

وكما أن الفراعنة أقاموا صداقة مع دولة معين فإنهم أقاموا صداقة مع مستوطناتها في الحجاز وفي دادان (معان مصران: العلا الحالية) ذاتها، وربما كان لمصر أيضاً علاقات وطيدة مع الثموديين، وبخاصة منذ عصر الدولة الحديثة، لأننا نجد سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ق.م.)، بعد غزوه مصر مباشرة، يقوم بإنزال الهزيمة بالثموديين

*** المحـرر :**

(أ) ذلك جزم كان من الأفيد للقارىء أن يوثق، إن كان هناك ما يدعمه من الأدلة الأثرية.

(ب) يفهم مما سيلي ان جنوب غرب الجزيرة العربية كان المعني في النقوش المصرية. وليس هذا بمؤكد إنما الإشارة إلى بونت، أينما كانت.

(جـ) لا يجوز أن توصف مصر بأنها ضمت الى حوزة الامبراطورية الآشورية، وإنما بأنها أصبحت تابعة لها، تحكمها أسرة مصرية هي السادسة والعشرون.

وغيرهم من جيوب النفوذ المصري في شمال الحجاز، بسبب وقوفهم مع مصر ضد آشور[٥]. وقد حاول الآشوريون والبابليون من بعدهم مد نفوذهم المباشر إلى المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة، كما كانوا قد فعلوا في الشام والحجاز، لكن بسبب صعوبة الوصول عسكرياً إلى هذه المناطق وبسبب قلة خبرة الآشوريين في ارتياد مياه البحر الأحمر، لجأوا إلى الاكتفاء بفرض نفوذهم السياسي المباشر في هذه المنطقة، وذلك بإسقاط الحكومات التي كانت تتعاون مع مصر وإقامة حكومات متعاونة معهم. فبعد الاجتياح الآشوري لمصر والحجاز والشام نجد تغيراً سياسياً يحدث في الأوضاع الداخلية لشبه الجزيرة، إذ حدث في عام ٦٥٠ق.م. أن أطاح المكاربة السبئيون بمملكة معين الصديقة لمصر، وقد تم ذلك بتأييد من ملوك آشور، وكان ملوك سبأ على علاقة وطيدة بملوك آشور، ويمثلون المصالح الآشورية في جنوب الجزيرة[٦]، ومن المعروف أن الملك الآشوري سرجون الثاني كان على علاقة حسنة مع أحد ملوك سبأ، كما أنّ سقوط معين في وقت تلى سقوط مصر على أيدي الآشوريين، ثم قيام حكم السبئيين، يؤكد اعتقادنا بوجود الصداقة بين مصر الفرعونية وملوك معين تماماً مثلما حدث مع الثموديين في الحجاز، وارتباط هذا التغير بالمد الآشوري في الشرق الأدنى، وامتداده حتى سواحل البحر الأحمر.

غير أن عدم استقرار الاحوال في الامبراطورية الآشورية، وإزاء المقاومة الشديدة التي وجدتها من عرب الشام والحجاز وانتهت بتكوين جبهة قوية من المصريين والعرب والبابليين والميديين والليديين، ألحقت ضربة قاضية بالامبراطورية الآشورية، وهزمت جيوشها وسقطت نينوى عام ٦١٢ ق.م.

وقد أدى تدهور الامبراطورية الآشورية وسقوطها إلى ترك مجال الملاحة مفتوحاً أمام قوى صغرى ذات مصالح بحرية وتجارية، مثل الفينيقيين على الساحل السوري والعبرانيين في فلسطين. ومن ثم بدأت تجارة الفينيقيين تتوسع في البحر الأحمر منذ القرنين الثامن والسابع ق.م. وفي نفس الوقت بدأ ملوك سبأ في اليمن يضعون العوائق القوية في وجه السفن الأجنبية التي تجوب البحر الأحمر، وذلك لحماية تجارتهم مع الساحل الإفريقي، وقد تم كل ذلك في غياب القوى الكبرى، غير أن الإبحار في البحر الأحمر ظل محدوداً، وقلما تعدت السفن الخروج من باب المندب.

هكذا كان الحال قبل بزوغ شمس الامبراطورية الفارسية على الشرق الأدنى، السبئيون يسيطرون ويتحكمون في جنوب البحر الأحمر والفينيقيون يسيطرون على شماله، لكن الصراع بين هاتين القوتين كان مجرد تنافس تجاري واقتصادي نظراً لظروفهما السياسية والعسكرية المحدودة.

غير أنه منذ منتصف القرن السابع ق.م. بدأت مصر تستجمع قواها على يد فراعنة الأسرة الصاوية (٦٦٢ ـ ٥٢٥ق.م.) في محاولة لإحياء نشاطها البحري في البحر الأحمر، مستعينة في ذلك بخبرة البحارة والجنود المرتزقة من الإغريق لبناء أسطول من السفن الحديثة ذات الثلاث طوابق من المجدّفين (*tri-remes*) بدلاً من السفن الشراعية القديمة. كما أن الملك نخاو (نيخو، Necho؛ ٦١٠ ـ ٥٩٥ق.م.)[٧]، حاول أن يشق قناةً تربط بين النيل وخليج السويس عبر وادي الطُّمَيْلات والبحيرات المُرَّة. ويقول هيرودوت أن هذا الملك حاول القيام بمغامرة فريدة من نوعها في تارِيخ الملاحة القديمة، وهي الدوران حول إفريقيا. ولكن هذه اليقظة المتأخرة لفراعنة

العصر الصاوي لم تعمر طويلاً بسبب ظهور قوة جديدة في سماء الشرق الأدنى هي الامبراطورية الفارسية (٥٥١ ـ ٣٣١ق.م). بالرغم من ذلك ساهم الصاويّون في لفت أنظار البحارة الإغريق لمياه البحر الأحمر. ومن ثم بدأ حلم المغامرة والاستكشاف يداعب خيال كثير من البحارة الإغريق لارتياد مياه البحر الأحمر، وإماطة اللثام عن أسراره، وبالطبع كان الإغريق الذين هاجروا الى مصر أو إغريق مدن آسيا الصغرى أشد المتحمسين لذلك.

نجحت الامبراطورية الفارسية في اجتياح الشرق الأدنى متجهة نحو مياه البحر المتوسط على الساحلين السوري والمصري، بعد أن استولت على الشام عام ٥٣٨ق.م. ومصر عام ٥٢٥ق.م. مما مكن الفرس من تحقيق السيادة البحرية في شرق البحر المتوسط ومن ثم بدأوا يتجهون لاستكشاف مجاهل البحر الأحمر من أجل ربطه بالخليج العربي الذي يسيطرون عليه. ولما كان الفرس بعيدين عن الخبرة البحرية فقد اعتمدوا على البحارة الإغريق وخاصة سكان آسيا الصغرى، ومن ثم بدأوا حركة كشوفات بحرية لمجاهل ذلك البحر، وفي عام ٥١٠ق.م. أرسلوا بعثة بقيادة بحار اغريقي يدعى سكولاكس (Scylax) من مواطني إقليم كاريا بآسيا الصغرى، وبدأ سكولاكس رحلته البحرية من الخليج العربي، وبعد عامين ونصف العام من المغامرات البحرية وصل ذلك البحار إلى (السويس)[٨]، وفي عهد الملك دارا بن قمبيز (٥٢١ ـ ٤٨٥ق.م)، بدأت السلطات الفارسية الحاكمة في تنفيذ مشروع الفرعون نخاو المهجور، وهو حفر القناة بين النيل والبحر الأحمر، وتم ذلك في عهده، إذ عثر على لوحة تذكارية منقوشة بكتابة هيروغليفية تقول «إنه الآن أصبح بالإمكان للسفن أن تبحر مباشرة من النيل الى فارس عن طريق بلاد سبأ»[٩]. لقد أدت الامبراطورية الفارسية خدمة كبرى لتاريخ الملاحة في البحر الأحمر بإرسالها المستكشف سكولاكس الذي استغرقت رحلته عامين ونصف العام وذلك بسبب عدم درايته بموعد هبوب الرياح الموسمية، أو كيفية استغلالها، فقد كان ذلك بداية لعهد جديد لفت أنظار البحارة المستكشفين والجغرافيين الى أهمية البحر الأحمر، بل صارت المعلومات التي جمعها سكولاكس المرجع الأول للبحارة والجغرافيين والمؤرخين والأدباء وعلماء الطبيعة حتى فتح الاسكندر المقدوني للشرق[١٠]، ولأول مرة تردد اسم البحر الأحمر في أعمال شعراء المسرح في أثينا في القرن الخامس ق.م.[١١].

نجح الاسكندر الأكبر في تقويض دعائم الامبراطورية الفارسية عندما اندفع كالإعصار نحو الشرق الأدنى، فانتزع منها سوريا ومصر عام ٣٣١ق.م. ثم طرد جيوش الملك دارا الثالث شرقاً مستولياً على بلاد الرافدين، ثم دخل الأرض الفارسية واستولى على العاصمة، وقضى بذلك على الامبراطورية الفارسية تماماً، وبذلك انتقلت السيادة البحرية في البحر المتوسط إلى أيدي الامبراطورية المقدونية. ويروي لنا استرابون نقلاً عَمَّن سبقوه أن شعوب الشرق الأدنى كلها بايعت الاسكندر، فيما عدا السبئيين، الذين تحدوا الاسكندر الأكبر ورفضوا الإذعان له، مما جعل الاسكندر يثور ويغضب ويتوعدهم بالغزو عندما يحين الوقت[١٢]. وهذا ما لم يحققه بسبب موته المبكر. على أية حال ربما كان لذلك الوعيد علاقة برحلات الاسكندر الاستكشافية لسواحل شبه الجزيرة العربية بعد عودته من الهند، وكان القاهر المقدوني قد سئم المغامرات والفتوحات العسكرية، ومن ثم رأى أن يشرع في الاستكشاف البحري والجغرافي لبحار الشرق الأدنى من أجل ربط شطري امبراطوريته الشرقي والغربي من ناحية وربط التجارة مع المحيط الهندي بالتجارة في البحر المتوسط من ناحية أخرى، وإذا كان الاسكندرس قد ورث كل

مشروعات الامبراطورية الفارسية فإنه ورث عنها أيضاً اكتشاف مجاهل البحر الأحمر والسيطرة البحرية عليه، كما أن تأسيس مدينته في مصر (الاسكندرية) يجب أن يفهم من منظور ربطها بالبحر الأحمر عن طريق القناة التي تربط بين النيل وخليج السويس، وقد ظلت الاسكندرية تلعب الدور الذي تلعبه قناة السويس الآن حتى الاكتشاف البرتغالي لرأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م.

ومن ثم شرع الاسكندر في ارسال عدد من الخبراء البحريين نجحوا في اكتشاف جزر البحرين (**تيلوس**) وأبي ظبي ورأس مسندم، ورصد لأول مرة تجارة **جرها** (*Gerrha* : الهفوف، قاعدة الأحساء) كما رصد عملية صيد اللؤلؤ في الخليج، كذلك أرسل الاسكندر بحاراً آخراً اسمه هيرون (Hieron) وكلفه بالدوران حول شبه جزيرة العرب لتقدير حجمها، على أن يبدأ من رأس مسندم في الخليج العربي وينتهي عند برزخ السويس، ولكن يبدو أن هيرون ضاق ذرعاً بالسوحل الجرداء التي لا تنتهي، فعاد أدراجه قبل أن ينهي رحلته كما أرادها له سيده المقدوني. وقدم هيرون للاسكندر تقريراً ذكر فيه أن حجم شبه جزيرة العرب يقارب حجم شبه الجزيرة الهندية[١٣]، وفي نفس الوقت الذي بدأ فيه هيرون رحلته كان الاسكندر قد أصدر أوامره إلى بحار آخر ليبدأ رحلة حول سواحل شبه الجزيرة، بادئاً من خليج السويس، وربما كانت فكرته أن يتقابل الرجلان عند نقطة معينة. لكن هذا البحار الأخير لم يستطع أن يذهب الى أبعد من باب المندب، بحجة ندرة مياه الشرب، غير أن هذه البعثة الأخيرة نجحت في دراسة أحوال قبائل العرب الجنوبيين ورصدها، وتقدير أهمية بلادهم الاقتصادية، ويقال إن بحارة هذه البعثة سطوا على بعض أشجار الطيب التي لم تكن حولها حراسة[١٤].

لكن - كما أن لكل بداية نهاية - سقط الاسكندر صريعاً لوباء الحمى وهو يستعد لآخر استكشافاته البحرية وذلك في بابل عام ٣٢٣ق. م. وبذلك لم يترك له القدر المحتوم فرصة لإكمال المخطط السلمي لاكتشاف البحار الشرقية وربطها بالبحر المتوسط، ولو قدر له أن ينفذ وعده بانزال العقاب بالسبئيين، ولو عاش الاسكندر قليلاً لربما اكتشف موعد هبوب الرياح الموسمية وميقاتها، وسخّرها لخدمة الملاحة، بعد أن ظلت مجهولة لما يقارب من ثلاثة قرون من بعده، غير أنه يمكن القول أنه منذ بعثات الاسكندر لم يعد الدافع الأول للكشوفات البحرية هو البحث العلمي والمادة الخلابة للباحثين والعلماء، بل أصبح الدافع الأول هو البحث عن المادة والمنفعة والسيطرة الاقتصادية. وهذا واضح في النظرة الى أحوال الكشوفات البحرية في عالم ما بعد الاسكندر[١٥].

وبموت الاسكندر في بابل عام ٣٢٣ق. م. تدهورت امبراطوريته بنفس السرعة التي بناها بها، وحول جسده المسجّى تنازع كبار ضباطه على التركة، ودارت بينهم حروب مريرة استمرت ما يقرب من أربعين عاماً، انتهت بقيام ثلاث ممالك هلينية هي مملكة البطالمة في مصر، مملكة آل سليوقس في سوريا وآسيا الصغرى وكل الأجزاء التي كانت تسيطر عليها الامبراطورية الفارسية قبل سقوطها، ثم مملكة آل أنتيجونس في مقدونيا وبلاد اليونان.

وعندما أسس بطلميوس بن لاجوس قواعد مملكته الوراثية في مصر بدأ عهد جديد في البلاد، فقد كان بطلميوس (مثل محمد علي باشا) رجلاً قوياً ومحنكاً سياسياً يمتلك كل الوسائل المطلوبة لبناء امبراطورية مصرية في الشرق الأوسط وبحر إيجة وليبيا وفي النوبة، كما أن التوقيت الزمني كان مناسباً. فقد ترك سقوط الامبراطورية

الفـارسيـة ثم تفسـخ الامـبراطـوريـة المقدونية فراغاً كبيراً في المنطقة، خاصة وأن دولة روما الناشئة كانت لا تزال في مرحلة الطفولة. لكن لم يكن البطالمة وحدهم في الساحة إذ كان هناك منافسون لهم، وهم السلوقيون الذين اعتبروا أنفسهم ورثـة الامـبراطـوريـة الفارسية القديمة، ولكن بمفهوم هيلينستي حضاري وفكري، ولأسباب استراتيجية واقتصـاديـة فرض البطـالمـة منـذ بدايـة حكمهم سلطـانهم على جنـوب سوريـا وفلسطـين وسـاحـل إفـريقيـا، واعتبر السلوقيون ذلك تدخلاً وتعدياً من جانب البطالمة على مناطق نفوذهم، ومن ثم كان العداء الشديد الذي أدى إلى اندلاع عدد من الحروب المريرة التي لم يسدل الستار عنها إلا في عام ٢٠٠ق. م. بعد أن وجد الندان المتصارعان نفسيهما وقد أرهقا تماماً وفقدا قوتيهما، مما جعلهما يسقطان فريسةً سهلةً لامبراطورية روما الناشئة التي كانت تلتهم الممالك الهيلينستية واحدة تلو الأخرى.

ولقـد كان اهتـمام بطلميـوس الأول بالبحر الأحمر مبعثه في المقام الأول إحياء نفوذ مصر على الساحل الخاص بالنوبة، الذي كان جزءاً من امبراطورية الفراعنة منذ الدولة الوسطى. واستعداداً لذلك قام بطلميوس الأول ببناء عدد من السفن الحـربيـة الحـديثـة ظهـرت في ميـاه البحـر الأحمـر، ثم أرسـل قائـد أسطـوله واسمه فيلون في رحلة لاستكشـاف مجاهـل البحـر الأحمر وللتعرف على مواطن شعوبه وثرواته، ويبدو أن فيلون وصل بالفعل إلى سواحل إفريقيا الشرقية حيث اكتشف «جزيرة زبرجد» وأتى بكميات من الذهب منها، وربما كان فيلون أول من لفت أنظار البطالمة الى أهمية إفريقيا في جلب الفيلة وتدريبها على استخدامها في حروبه ضد منافسيه السلوقيين، الذين كانوا يستخدمون الأفيال الهندية. وكانت الأفيال منذ رحلة الاسكندر للهند قد أصبحت عماد الجيوش المتحاربة، كذلك كان البطالمة يطمعون في الحصول على العاج الذى كان الطلب عليه في الغرب شديداً. وبعد عودة فيلون من رحلته شرع بطلميوس الأول في استغلال ساحل النوبة المواجهة لساحل شبه جزيرة العرب[١٦].

غير أن اهتمام بطلميوس الأول كان عسكرياً في المقام الأول، فقد قضى حياته جندياً في جيش فيليب ثم في جيش ولده الاسكندر، لكن ابن بطلميوس وخليفته من بعده كان له اتجاه مخالف، فقد تلقى الابن تعليماً راقياً وبرع في الجغرافيا والتاريخ، ومن ثم فقد كان سياسياً مراوغاً، بل كان يفكر في السياسة من خلال المنظور الاقتصادي[١٧]، لكنـه في الهـدف يتفق وسيـاسة أبيه الرامية إلى إحياء الامبراطورية المصرية. وعملاً بهذه السياسة شرع في الاهتمام بسـواحـل البحـر الأحـمر من أجل فرض نفوذ مصر عليه مستخدماً الدبلوماسية والصداقة حيناً، والسلاح حيناً آخر. ومن ثم بدأ عهده بإحياء سياسة الأسرة الصاوية وخاصة سياسة الملك نخاو، الذي قام بتطهير القناة القديمة التي كانت تربط بين النيل والبحر الأحمر عبر وادي الطُّمَيلات والبحيرات المُرَّة[١٨].

ولقـد وجـد بطلميـوس الثـاني فيـلادلفـوس الظـروف الـدوليـة في صالحه، فقد كان المسرح خالياً من القوى العظمى، كما كانت الحاجة الاقتصادية ملحة من أجل استعادة النفوذ المصري على البحر الأحمر، فقد كانت الدولة البطلميـة تسعى إلى إحيـاء الامـبراطـورية المصرية القديمة، وتحقيق الرخاء الاقتصادي الذي يتيح لها بناء الجيش والأسطـول القـادرين على فرض السيـادة، كما أن مصـر كانت في حاجـة إلى الخيـول العربية والأفيال الإفريقية في إعداد جيوشها، ومن ثم أدت هذه الحاجة إلى قيام دبلوماسية تهدف إلى إنشاء علاقات بطلمية مع البلدان الواقعة على سواحل البحر الأحمر، كما حرص بطلميوس الثاني في سياسته الاقتصادية في جعل نظام المدفوعات في صالحه،

ومن ثم فقد عني بتصدير المنتجات والمصنوعات المصرية إلى دول البحر الأحمر الصديقة، بقدر عنايته بجلب الواردات منها، ومن ثم اتبع البطالمة أسلوبين في العلاقات مع دويلات البحر الأحمر، أولهما الوسائل السلمية الحضارية التي تقوم على توطيد أواصر الصداقة والتفاهم المشترك، وخلق مصالح نفعية مشتركة، وهذا ينطبق على سياسة البطالمة مع معان مصران ومع إمارة العرب الديدانيين في الحجاز وملوك الدولة الحميرية في جنوب شبه الجزيرة، والأسلوب الثاني هو استخدام القوة العسكرية لإرهاب كل من يهدد النفوذ والمصالح البطلمية أو يعرّض سفنهم التجارية للقرصنة. وقد فعلوا ذلك مع العرب الأنباط الذين كانوا يسيطرون على الجزء الشمالي الشرقي للبحر الأحمر ويحتكرون التجارة في جنوب الجزيرة، وكذلك مع السبئيين حلفاء الأنباط وفي بعض الأحيان مع ملوك كوش.

وقد استهل بطلميوس الثاني هذه السياسة بتحصين مدينة هيرونوبوليس الواقعة قرب خليج السويس[١٩]، وجعلها قاعدته البحرية، ثم بنى أسطولا من السفن الحربية الحديثة ذات الطوابق الأربعة من المجدفين (*quadri-remes*)، وهي أحدث ما أنتجت ترسانات السفن في العصر الهلينستي في ذلك الوقت[٢٠]، وقد ذكر ديودور أن أسطول بطلميوس كان يتكون من هذه السفن الكبيرة إلى جانب سفن خفيفة سريعة الحركة عرفت باسم (*Triemiolia*). ومن الجدير بالذكر أن إيليوس غالّوس والي مصر الثاني في عصر الرومان، طوّر هذا النوع الأول من هذه السفن ليطلق عليه اسم *dikopta*. وهو الذي استخدمه أثناء حملته على مملكة الحميريين في جنوب شبه الجزيرة[٢١].

ولقد كانت فترة حكم بطلميوس الثاني تمثل بداية حركة كشوف منظمة وعلمية لسواحل البحر الأحمر، وكانت أول بعثة من هذا النوع تلك البعثة التي قادها مستكشف اسمه ساتوروس (Satyru) في عام ٢٧٨ ق. م. وكانت مهمته استكشاف الساحل النوبي ـ الصومالي لاختيار مناطق لإقامة الموانىء ومحطات صيد الأفيال، غير أن أهم المستكشفين أثراً في حركة الكشوف الجغرافية في البحر الأحمر هو أرسطون (Aristo) الذي كلف باستكشاف ساحل شبه الجزيرة العربية من خليج العقبة شمالاً حتى باب المندب جنوباً، ومن الواضح أنّ هدف فيلادلفوس في ذلك كان فتح الطريق التجاري بين سبأ في جنوب شبه الجزيرة وخليج السويس في الشمال[٢٢]، ووضع قدم مصر في تجارة التوابل والبهار التي كانت رائجة في ذلك العصر وتسيطر عليها سبأ ومعان مصران والأنباط، كما كانت بعثة أرسطون تمهيداً لإرسال الأسطول المصري للتعرف على بعض الموانىء التجارية الهامة الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية الغربي، وخاصة معان مصران (ديدان العلا)، وذلك في عام ٢٧٨ ـ ٢٧٧ ق. م. وقد نجح أرسطون بالفعل في اكتشاف ساحل البحر الأحمر الشرقي وخليج العقبة بالذات، حيث كان يسيطر عليه الأنباط بفضل مينائهم الشهير **إيلانا** (*Aelana*)، الواقع على طرف خليج العقبة الجنوبي*[د]، كما أن ملاحظاته التي دونها أصبحت مرجعاً للبحارة والجغرافيين السكندريين خاصة إراتُوسثينيس (Eratosthenes) الذي استمد منها معلوماته عن مواقع جنوب شبه الجزيرة وحضاراته في معين وقتبان وسبأ. ويلاحظ أن إراتوسثينيس لم يذكر شيئاً عن

---

* **المحـــرر:**

(د) إن **إيلانا** (وهي إيلات) تقع في الطرف الشمالي لخليج العقبة وليس في الطرف الجنوبي منه.

حضرموت، وذلك لسبب بسيط هو أن المستكشف أرسطون لم يتمكن من الوصول إليها، لأنه استدار عائداً إلى السويس عند باب المندب. ومن أفضال أرسطون أنه كان أول من يذكر اسم الثموديين وينقل الاسم العربي القديم الى اللغة اليونانية[٢٣]، وربما اعتمد مؤلف كتاب **الطواف حول البحر الأحمر** على مذكرات أرسطون في رحلته التي قام بها بعد ما يقرب من ثلاثة قرون من الزمان. وتلى ارسطون إرسال مستكشف آخر اسمه بيثاجوراس (Pythagoras) كلف باستكشاف ساحل القرفة (Cinammon) إلى ساحل الصومال حتى رأس غاردافوي جنوباً، لكن هذه المنطقة لم تكتشف اكتشافاً كاملاً إلا في عصر بطلميوس الثالث.

ويلاحظ أن المستكشفين لسواحل البحر الأحمر ـ وبخاصة على الجانب الإفريقي ـ كانوا يطلقون أسماءهم على الأماكن التي اكتشفوها[٢٤]، ومن أهم هذه المناطق ذات الأهمية التجارية الاستراتيجية والواقعة شمال باب المندب جزيرة **ستراتون** (*Straton*) ونقطة حراسة **ديمتريوس** (*Demetrias*) ومذبح **كانون** (*Kanon*) ونقطة حراسة **كورهاجوس** وميناء **أنتيفيلوس**، ومضيق **يوميديس**، كما أطلق البطالمة أسماء بعض أميرات البيت الحاكم على بعض المدن والموانىء المطلة على ساحل البحر الأحمر؛ فمثلاً أنشأ فيلادلفوس على الساحل الصومالي ميناء **أرسينوي** (*Arsinoe*) وميناء **بيرينيكي** (*Berenike*). وفي الشمال منها أقام ميناء **بطولومائيس ثيرون** (الذي يعتقد البعض أنه يقبع بالقرب من ميناء بورتسودان الحالي) والذي نفذه المستكشف يوميديس (Eumedes) قائد أسطوله، كما أقام فيلادلفوس بعض نقاط صيد الأفيال والمحصنة جيداً مثل نقطة دفاع ميناء **سويتراس** (*Soteras Limen*) **وفيلوتيرا** (*Philotera*)، واللتين نفذ بناءهما المستكشف ساتوروس عندما بعث به بطلميوس الثاني في مهمة استكشافية متعلقة بصيد الأفيال وجمع العاج، كذلك حرص فيلادلفوس على ربط هذه المدن والموانىء بطرق قوافل معبدة مزودة بآبار المياه ونقاط الحراسة، مثل الطريق الشهير عبر وادي الحمَّامات ويتصل بالنيل عند قُفْط (Coptos)، ومن شبه الجزيرة أتى بالجمال كوسيلة من وسائل النقل، وقد بدأ لفظ الجمل يتردد في وثائق العصر البطلمي منذ أن ظهر لأول مرة في الاستعراض الكبير الذي أقيم في الاسكندرية[٢٥]، ابتهاجاً بانتصارات فيلادلفوس وذلك في عام ٢٧٩ ـ ٢٧٨ق. م. والذي سجله لنا أثينايوس كاملاً، كما أدخلت تعديلات على طريق القوافل الذى كان فراعنة مصر قد أقاموه ليربط ما بين قُفْط على النيل وميناء **لويكي ليمن** (*Leuke Limen*)، (أي الميناء الأبيض) قرب القصير على البحر الأحمر، ماراً بوادي الحمَّامات ومناجم الذهب في تل الفواخير. ومن المؤكد أن طريقاً ثالثاً للقوافل كان يربط بين قُفْط وبيرينيكي، ويمر بمناجم الزمرد في زوبانا وسيكات بساحل النوبة، حيث تم العثور على آثار وبقايا لمعابد بناها البطالمة[٢٦].

ولقد سار خلفاء بطلميوس الثاني على نهجه فاهتموا بالطرق الصحراوية التي تربط بين موانىء البحر الأحمر والنيل لأنها كانت شريان الاقتصاد البطلمي مع شرق إفريقيا وشبه الجزيرة، وعموماً يتضح من دراسة الموانىء المصرية على البحر الأحمر في العصر البطلمي أنها كانت منتقاة جيداً، وفي مناطق صالحة لرسو السفن، أي أن حركة بعثات الاستكشاف درست جيداً المناطق دراسة علمية دقيقة، ثم حددت أحسن الأماكن لبناء هذه الموانىء لأنها كلها مقامة في مناطق خالية من الشعاب المرجانية التي كانت تهدد الملاحة في البحر الأحمر، ولهذا السبب عندما استولى الرومان على مصر لم يجدوا ضرورة لإنشاء موانىء جديدة على البحر الأحمر ولا طرقاً جديدة للقوافل في

صحراء مصر الشرقية، لأنهم وجدوا ما حققه البطالمة في ذلك المجال كافياً، وكل ما فعله الرومان هو توسيع هذه الموانىء ومضاعفة الخدمة فيها، وتحسين طرق الصحراء الشرقية، واعدادها بالآبار ونقاط الحراسة اللازمة.

وكما ذكرنا لم ينشر البطالمة نفوذهم على البحر الأحمر بسهولة، بل اضطروا إلى التلويح بالقوة العسكرية حيناً واستخدموها حيناً آخر، كما فعل فيلادلفوس مع ملوك كوش عندما حاول الملك البطلمي فتح النوبة، لكن سرعان ما تم الصلح بعد ذلك في عصر الملك المروي أرقماني (٢٨٥ ـ ٢٧٥ق. م.) *[هـ] بعد إقراره بحقوق مصر التجارية والعسكرية على سواحل البحر الأحمر[٢٧]، غير أن العمل العسكري الصارم كان ضد الأنباط الذين أزعجتهم حركة إحياء النفوذ المصري في البحر الأحمر على يدي بطلميوس الثاني، وظهور السفن المصرية لحراسة سفن النقل والتجارة، كما أن حركات الكشوفات المكثفة زادت من شكوك الأنباط، خاصة بعد أن تفقد المستكشف أرسطون منطقة خليج العقبة، وكان الأنباط ينفردون بتجارة البهار ونقله بين سبأ وخليج العقبة منذ القرن الخامس ق. م.، حيث يوجد ميناؤ هم الشهير **إيلانا** (*Aelana*)[٢٨].

كانت علاقة الأنباط ببطالمة مصر علاقة غريبة، فهم من ناحية كانوا يحرصون على التجارة معهم عبر غزة وسيناء، غير أنهم كانوا يخشون جانبهم العسكري، ويفضلون بقاء مملكة البطالمة مملكة ضعيفة أو في أحسن الأحوال تحت احتلال من جانب قوى صديقة للأنباط، حتى لا تهدد نفوذهم التجاري في شمال البحر الأحمر والحجاز، لأن مملكة البطالمة القوية تشكل في نظرهم تهديداً لمصالحهم في هذه المناطق. وهذا واضح من تجربتهم مع فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، وخاصة مع الفرعون نخاو، الذي حاول استعادة السيطرة المصرية على البحر الأحمر. ولهذا السبب ساعد الأنباط الفرس على إسقاط هذه الأسرة واحتلال مصر وذلك في عام ٥٢٥ ق. م.، وظلوا يحرسون غزة نيابة عن الفرس، وهم الذين تصدوا للاسكندر المقدوني بشراسة وقاوموه من قلعتها الحصينة وذلك في عام ٣٣٢/٣٣١ ق. م.[٢٩].

وما أن شعر الأنباط بنوايا بطلميوس الثاني حتى بدأوا يتعرضون لسفن البطالمة في البحر الأحمر، ويلجأون في ذلك الى أعمال القرصنة التي كانوا يجيدونها، مما دفع بطلميوس فيلادلفوس إلى الدخول معهم في معركة حاسمة، فجمع قواته البحرية وسفنه الحديثة التي نجحت في إدخال سفن الأنباط في مصيدة بحرية ودمرتها عن آخرها، وذلك في ٢٧٨ ـ ٢٧٧ ق. م.[٣٠]، بل حاول فيلادلفوس احتلال البتراء، لكن يبدو أنه فشل في ذلك فاكتفى باحتلال الساحل الشرقي للبحر الميّت، فحرمهم بذلك من ثروة كبيرة، وهي استغلال ثرواته، وخاصة القار[٣١]، ومنذ تلك الهزيمة البحرية بدأ الأنباط ينكمشون اقتصادياً وعسكرياً، ولم يجرأوا على التجارة في البحر الأحمر لدرجة أن مدينة جرها (*Gerrha*). ويظن أنها الهفوف قاعدة الأحساء) كانت تمدهم بالبهارات والتوابل عن طريق ساحل عمان الطويل، لكي تتفادى الطريق البحري الذي سيطر عليه الأسطول البطلمي. ولم ينس الأنباط هذه الهزيمة أبداً للبطالمة بل ظلوا يتحينون الفرصة لإسقاط هذا الحكم، فتعاونوا مع السلوقيين ضد البطالمة كما سنرى فيما بعد.

---

* **المحـــرر:**

(هـ) يرى المحرر في هذه النقطة تجاوزاً، إذ ليس ثمة مصدر ما يؤيد ما ورد فيها وفيما يليها.

ونظـراً لأن فيـلادلفـوس كان يخشى خطـر الأنباط ، فقد قام بتحصين ميناء أرسينوي (السويس) وبنى حوله الأسوار وكـوَّن فرقـة عسكـريـة من عرب سيناء (وربما ضمت بعضاً من الأنباط) لتولي الدفاع عن المنطقة ضد أي هجوم قد يشنـه الأنبـاط . وجعـل على قيـادة هذه الفـرقـة عربيـاً ، بالطبـع من المتأغـرقـين ، عرف بلقب «قـائـد العـرب» (Arabarches)[٣٢] . ونفهم من سير الأحداث أن السلوقيين ، أعداء البطالمة ومنافسيهم بالدرجة الأولى ، لم يكونوا فيـما يبـدو يهتمـون بتجـارة البحر الأحمر بالدرجة الأولى ، وذلك لبعدهم عنه ، ولعدم وجود موانىء لهم عليه ، ولأنهم ركـزوا اهتـمامهم في الخليـج الفـارسي حيث أقـامـوا عدداً من المـدن والموانىء الهامة ، لكنهم تركوا أمر مقاومة النفوذ البطلمي في البحر الأحمر إلى حلفائهم الأنباط بتشجيع منهم .

وبينما استخدم فيلادلفوس سلاح العنف مع الملك أرقماني ، ملك النوبة*[و] ، ومع الأنباط استخدم دبلوماسية الصداقة والمصالح المشتركة التي تهدف الى إقامة علاقات ودية دائمة مع المدن التجارية الهامة الواقعة على ساحل شبـه الجـزيـرة العـربيـة الغـربي ، وخاصة مع مدينة ديدان (خرائب العلا) في شمال الحجاز ، وكانت ديدان ـ أوكما عرفت في النصـوص القـديمـة أحيـاناً باسم معان مصران : أى معين المصرية ـ في الأصل مستوطنة أنشأها المعينيون الجنوبيون في القرن الخامس ق . م . ، لكي تكون مركزاً لحراسة قوافلهم وتوزيع تجارتهم في شمال الجزيرة[٣٣] ، وذلك ضمن سلسلة من المستـوطنـات التجـاريـة في أعـالي الحجاز مثل الحِجر (خرائب مدائن صالح : Hegra) وميناثها الشهـير إجـرا (Egra : ميناء الـوجـه الحالي)*[ز] . وكان لموقع معان مصران أهمية تجارية خاصة ، فقد كانت مركزاً لشبكـة من طرق القـوافـل التي تربـط بين شبـه الجـزيرة العربية والعراق والشام ، وخاصة مصر التي لشدة قربها منها ولارتباطها التجاري بها ، عرفت باسم معان مصران ، تمييزاً لها عن معان الأم في الجنوب اليمني . فضلاً عن ذلك فقد كانت معـان مصـران تقـع على طريق القـوافـل القديم الموازي لساحل البحر الأحمر حيث كان المعينيون الجنوبيون ينقلون عبرهـا تجارتهم وتجـارة إفـريقيـا والهنـد وبقية آسيا إلى الشام ، ثم إنها لم تكن تبعد عن البحر الأحمر بأكثر من مسيرة خمسة أيام ، حيث كان التجار يتوجهون الى موانئها لبيع ما عندهم لتجار مصر ، وتدل الشواهد التاريخية على أن فراعنـة مصـر الأقـدمـين كانت تربطهم علاقـات تجاريـة وحضـاريـة قديمـة مع المعينيـين الجنوبيين قبل تغليب الآشـوريـين لملوك سبأ عليهم ، وذلـك في أعقـاب استيـلاء الآشـوريـين على مصـر ، وتدل الشواهد أيضاً على أن السبئيين ظلوا على عدائهم لمصر حتى طوال عصر البطالمة . وبفقدان مصر للحكم المعيني الصديق في الجنوب ، أحيا البطـالمـة هذه الصـداقـة مع مستـوطنتهم في الشـمال ، وهي معـان مصران ، والتي بدأت تستقل بنفوذها منذ ضعف حكـومـة معـين في الجنـوب وسقـوطهـا ، وأصبـح يحكمهـا ملوك يعـرفون باسم ملوك ديدان[٣٤] . ومن الأدلة الأثرية والتاريخية على إحياء البطالمة لتجارتهم مع المعينيين الشماليين العثور على كتابات معينية من عصر البطالمة وذلك في مدينـة مَنْف (ميت رهينـة ، مركـز البـدرشـين)[٣٥] ، وفي مدينة يوهيميريا (Euhemeria : قصر البنات بالفيوم) وفي

* **المحـــرر:**

(و) هو ملك مروي وليس ملك النوبة ، وإنما كانت النوبة جزءاً من المملكة المروية .

(ز) ولعل الصحيح هو ميناء الجار الذي كان معروفاً في صدر الإسلام ، وكانت ترد إليه الميرة من مصر في طريقها إلى المدينة المنورة .

جزيرة ديلوس ببحر إيجة، وكانت خاضعة لحكم البطالمة. ويظهر من نقش مَنْف المؤرخ في السنة الثانية والعشرين من حكم بطلميوس ابن بطلميوس (أي بطلميوس الثالث) أن جالية معينية كانت موجودة في مَنْف منذ عصر بطلميوس فيلادلفوس، والنقش مُثبَّت فوق تابوت مصري عثر في داخله على مومياء التاجر العربي زيد إيل، الذي كان يقيم في مصر، ويتمتع بمنزلة عالية (بدليل دفنه في تابوت على طريقة الأثرياء المصريين). وكان هذا التاجر، شأنه شأن بقية التجار المعينيين الشماليين، يستورد من وطنه البخور الذي كان يستخدم بكثرة في الشعائر الدينية داخل المعابد، وكذلك الأعشاب الطبية، وخاصة المر أو الحلتيت، الذي كان لازماً لأعمال التحنيط والعقاقير. وكان هذا التاجر يصدر إلى بلاده الأقمشة والمصنوعات وخاصة الزجاجية[٣٦].

كما تعد النقوش التي عثر عليها في جزيرة ديلوس ذات أهمية خاصة للعلاقات بين مصر البطلمية والحجاز. ومن المعروف أنه كان للبطالمة نفوذ تجاري قوي وشبه مباشر على جزيرة ديلوس، حيث عثر هناك على نص مكتوب بالخط المسند وباللهجة المعينية، وكذلك بالحروف اليونانية مع الترجمة باللغة اليونانية، ويتحدث النقش عن هاني زيد إيل الذي نصب مذبحاً لِوَدٍّ وغيره من آلهة معين. وفي ذلك دليل على وجود جالية معينية ظلت متعلقة بآلهتها، وتتاجر في حاصلات اليمن وإفريقيا والهند عن طريق مدينة الاسكندرية وفي حماية ملوك البطالمة[٣٧].

لم يكن المعينيون الشماليون وحدهم يكرهون الأنباط، بل شاركهم في ذلك شعب عربي آخر بدأ نجمه يصعد منذ القرن الثالث ق.م. وهم اللحيانيون (*Lihyanites*)، الذين ورد ذكرهم في نصوص الكتاب الاغريق والرومان بأسماء مختلفة فحيناً باسم *Leacanites* وحيناً آخر باسم *Lexianes* وحيناً ثالثاً باسم *Lechieni* . وكانت لحيان دولة عربية صغيرة تقع شمال الحجاز وجنوب بلاد الأنباط، وتدل كل الشواهد على أن اللحيانيين كانوا يمقتون الأنباط الذين نافسوهم في تجارتهم ويهددون استقلالهم[٣٨]، ويبدو أن اندماجاً قد تم في القرن الثالث ق.م. بين المعينيين الشماليين وبين اللحيانيين، ويرى بعض الباحثين أن مملكة لحيان قامت بتشجيع من البطالمة وبتأييدهم[٣٩]، وأن ذلك قد تم في عصر بطلميوس الثاني كجزء من مخططه الاستراتيجي لمحاربة الأنباط والسيطرة على البحر الأحمر. فقد كان اللحيانيون يكرهون الأنباط الذين كانوا يطمعون في بلادهم وفي تجارتهم، ومن ثم لجأ اللحيانيون بعد دخول المعينيين إلى كنف البطالمة لكي يحموهم من النبط، ولقد بقيت هذه الصداقة المصرية اللحيانية قوية طوال بقاء البطالمة أقوياء[٤٠]، ومثلما ارتمت جرها (الجرعاء ؟) في أحضان السلوقيين وبالتالي ارتبطت في صداقة مع الأنباط، ارتمت الدولة المعينية اللحيانية الجديدة في أحضان البطالمة، وربما كان التنافس التجاري بين جرها والدولة المعينية اللحيانية هو الذي جعل كلًّا منهما تختار جانب إحدى القوتين المتصارعتين على الشرق الأدنى، وهما دولة البطالمة في مصر ودولة السلوقيين في سوريا. على أي حال كان اللحيانيون شعباً تجارياً نشطاً يقيم على الساحل، يسيطر على مدن تجارية وموانىء هامة، فإلى جانب ديدان كان هناك الحِجر (*Hegra*) وميناؤها، *Egra* ، وكانت عاصمة لحيان، وكانت لهم علاقات قديمة مع مصر. لكن هذه العلاقات أصبحت قوية ابتداء من عصر فيلادلفوس[٤١]. ولم تتوقف هذه العلاقة عند المصالح التجارية فقط بل تعدتها إلى الجانب الحضاري والفكري. فقد تأثر ملوك لحيان بشدة بالثقافة المصرية الهيلينستية، فقد حمل أربعة أو خمسة من الملوك اللحيانيين لقب **طولماي** (*Tulmai*)، الذي هو بكل تأكيد التحريف العربي للفظ بطلميوس، اللفظ الذي حمله ملوك الاسكندرية، وأحياناً كتب هذا الاسم بطرق مختلفة في الخط المسند مثل **بتحمي** (*Petahmy*) وأحياناً أخرى في شكل **تاخمي** (*Tachmi*) بل

إن الألقاب التي حملوها تشابه الألقاب التي حملها البطالمة. فلفظ **يطوع** أي «المنقذ، المخلّص» هو ترجمة للفظ **سوتير** (*Soter*) الذي حمله بطلميوس الأول، ولفظ **نبط** أي «المضيء» أو «المتجلي» هو ترجمة حرفية للقب إبيفانيس (*Epiphanes*) الذي حمله بطلميوس الخامس، وكذلك نجد لفظ **صدوق** أي العادل، الرحيم، وهو يعادل لقب يورجيتيس (*Eurgetes*)، الذي حمله بطلميوس الثالث، ولا أعتقد أن هذا التشابه من باب المصادفة[٤٢]*(ح)، لاننا نجد في نفس الوقت أسماء بعض القبائل اللحيانية المعينية وبعض شخصياتها البارزة تتردد في الوثائق المصرية من العصر البطلمي[٤٣]، بل بدأ اسم البخور المعيني يكسب شهرة في أسواق الاسكندرية، وكان هذا البخور كغيره من سائر أنواع البضائع العربية يأتي عن طريق موانىء الدولة المعينية اللحيانية إلى ميناء افروديتيس[٤٤] والذي يقع على بعد ٥٠ كيلومتراً جنوب المدخل إلى خليج السويس بالقرب من بير أبوشعر القبلي (*Fons Tadnos*)، التي تقع على بعد أربعة كيلومترات. وقد أسس بطلميوس الثاني هذا الميناء لكي يكون قاعدة بحرية لعملياته ضد قراصنة البحر الأحمر ولنشر نفوذه فيه، ولما دخل الرومان مصر عام ٣٠ ق. م. غيروا اسم هذا الميناء الى **ميوس هورموس** (*Myos Hormos*) أي «ميناء بلح البحر»، حيث لا تزال هذه الرخويات تعيش في أعماق مينائه. وقد حرص البطالمة على ربط هذا الميناء بطريق بري يسير شمالاً بحذاء خليج السويس، وبطريق آخر يخترق الصحراء الشرقية جنوبا بغرب حتى قُفْط (Coptos) الواقعة على النيل، وجدير بالذكر أن أيليوس غالّوس سار في هذا الطريق عند عودته من حملته على اليمن الى مصر، بعد أن أقلع من ميناء إجرا (الوجه بالقرب من ينبع)، ومن قُفْط تحمل السفن النيلية البضائع العربية الى مَنْف والاسكندرية وغيرهما من المدن التجارية البطلمية. وأحياناً كانت قوافل الجمال تحمل البضائع عبر الطريق الأول حتى السويس، ثم تحمل السفن هذه البضائع عبر القناة التي تربط بين البحر الأحمر والنيل، والتي أعاد بطلميوس فيلادلفوس حفرها في مطلع حكمه كما سبق أن ذكرنا في مطلع البحث.

وجدير بالذكر أن الخيول العربية الأصيلة المستوردة من الدولة المعينية اللحيانية بدأ اسمها يتردد في وثائق البردي المصرية من العصر البطلمي[٤٥]. ولا يزال هناك فراغ في الدراسات الأثرية القديمة لمقارنة التماثيل والفنون اللحيانية بالفنون والتماثيل البطلمية. ولا شك أن اطلاعي على بعضها لفت نظري إلى العلاقة الوثيقة بين الحضارتين. ولعل دراستها العلمية بالتفصيل سوف تؤكد هذا الرأي. ويتضح تأثر اللحيانيين بفنون الاسكندرية لو درسنا العملة التي حاول ملوك لحيان سكها على نمط عملة مدينة الاسكندرية خاصة **التترادراخما** (*Tetradrachma*)[٤٦]. ولا يكاد يفرق بين العملتين سوى وجود اسم الملك اللحياني مكتوباً بالخط المسند. ومن الجدير بالذكر أن البطالمة ابتداء من فيلادلفوس حرصوا على ترويج عملتهم التي حرصوا على نقاوة معدنها ودقة وزنها لتكسب ثقة المتعاملين بها، ولتكون وسيلة لنشر نفوذهم. ومن ثم فقد انتشرت عملة مدينة الاسكندرية في أجزاء كثيرة من بلدان البحر الأحمر، وخاصة في اليمن وفي مصر، وفيما بعد قلد ملوك حمير أصدقاء البطالمة التترادراخما

*** المحرر:**

(ح) لقد حاول الكاتب ربط حضارة لحيان بالبطالمة دون الالتفات إلى الاختلاف الكبير في تاريخها بين علماء الآثار الذين قد اتجه أغلبهم إلى أن لحيان قد بدأت في القرن الخامس قبل الميلاد، أي قبل نشأة البطالمة. وعلى كلٍّ فإن معظم المؤرخين لا يتفقون مع ما اتجه إليه الكاتب حسب ما تتحدث عنه المراجع المعتبرة.

السكندرية، واتخذوها نموذجاً لعملتهم ويعود تاريخ **الدراخما** التي عثر عليها في اليمن الى عصر الملك أب يثع الذي وجد اسمه مكتوباً بالخط المسند بدلاً من الحروف اليونانية. ويرجع تاريخ هذه العملة الى القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد.

ولم يكن الأنباط وحدهم هم الذين كانوا يهددون مصالح مصر التجارية في البحر الأحمر، بل كان هناك السبئيون الذين كانوا يلعبون دوراً مشابهاً للدور الذي لعبه الأنباط، وكان السبئيون معادين للنفوذ المصري منذ أن أعانهم الآشوريون على ملوك معين، أصدقاء المصريين، فقبلوهم. وقد ازداد نفوذ السبئيين التجاري في البحر الأحمر بعد تدهور وسقوط حكم الفراعنة وبدء احتلال الفرس لمصر. وفي غياب القوة المصرية توسع السبئيون الذين كانوا يتحكمون في جنوب البحر واتجهوا إلى التجارة مع الهند، واحتكروا تجارة البضائع الشرقية والبهارات، وتعاونوا مع الأنباط الذين كانوا يتولون توزيع البضائع في الشمال سواء عبر مينائهم إيلانا أو عبر عاصمتهم البتراء، فضلاً عن ذلك كان السبئيون الذين هاجروا إلى ساحل الصومال وأرض **بونت** يهددون المصالح المصرية في شرق إفريقيا، ويقومون بأعمال القرصنة ضد سفنها التجارية، بينما كانت مصر تعتبر السواحل الإفريقية مناطق نفوذ لها موروثة لها منذ عصر الدولة الوسطى، كما توضح بعثة الملكة حتشبسوت في الدولة الحديثة الى ساحل الصومال. وبتعاون السبئيين مع الأنباط، وبتعاون المعينيين واللحيانيين مع البطالمة وجد السبئيون أنفسهم في صراع مع المعينيين الشماليين كما سنرى فيما بعد.

لكن نعود ونتساءل هل حاول البطالمة ـ وخاصة بطلميوس الثاني ـ أن يقيموا مستوطنات على ساحل شبه الجزيرة الغربي كما فعلوا على ساحل إفريقيا الشرقي؟ إنه لمن الواضح أن مصر لم تحاول إنشاء مستوطنات لها على ساحل البحر الأحمر الشرقي وفي بلاد العرب قبل عصر بطلميوس فيلادلفوس، عندما بدأ البطالمة في منافسة السلوقيين في الانتشار وتوسيع النفوذ عن طريق إقامة المدن والحواضر والموانىء في المناطق الاستراتيجية المهمة، وإطلاق أسمائهم أو أسماء أفراد البيت الحاكم عليها[٤٧]، ولقد ركز السلوقيون اهتماماتهم في بناء المدن والمستوطنات، حول الخليج العربي وعلى ضفاف الفرات وعلى سواحل شبه الجزيرة الشرقية، حيث منطقة الثراء التجاري، وكذلك على الساحل السوري وشمال بلاد الشام عند طرق التجارة والقوافل، بينما ركز البطالمة اهتمامهم على سواحل البحر الأحمر، وحاول كل من الفريقين المتنافسين تشجيع العناصر الإغريقية والمتأغرقة على المجيء الى الشرق الأوسط ومساعدتهم في انشاء المدن والمستوطنات عند المناطق المهمة، لأن هدف الفريقين كان صبغ مناطق نفوذهم بالحضارة الإغريقية الهلينستية، وهي التي ظلت حية في الشرق حتى ظهور الاسلام.

وكما دعا السلوقيون أهل مدينة **مغنيسيا** (*Magnesia*) الإغريقية في آسيا الصغرى لبناء مستوطنة أنطاكية في بلاد الفرس، دعا البطالمة أهل مدينة **ميليتوس** (*Miletus*)، الإغريقية أيضاً، والواقعة على ساحل آسيا الصغرى، لإنشاء مستوطنة لهم على ساحل شبه الجزيرة الغربي. وقد أطلق البطالمة عليها اسم **أمبيلوني** (*Ampelone*)[٤٨]، التي تعني «الكروم». وفي ذلك إشارة الى ديونيسوس، رب الكروم عند الاغريق، الذي اتخذه البطالمة جداً أسطورياً لهم، والـذي كان يتشابه مع ذي الشرَى، أحد أرباب العرب الشماليين القدماء. وكانت مدينة ميليتوس مدينة إغريقية ذات تاريخ عريق في إقامة المستوطنات التجارية في حوض البحر المتوسط، كما أنها كانت في ذلك الوقت جزءاً من إمبراطورية البطالمة. وظلت تابعة للبطالمة حتى نجح السلوقيون في هزيمة البطالمة وطردهم من سوريا وآسيا الصغرى وذلك في عام ١٩٧ ق.م.

ولا يزال علماء الآثار والتاريخ يبحثون عن موقع ميناء أمبيلونى البطلمي، فهناك من يرى أنها كانت تقع بالقرب من ميناء ينبع الحالي في شمال الحجاز، بينما يرى آخرون أنها كانت تقع بالقرب من ميناء جدة الحالي، وبالقرب من مدخل وادي حمد، حيث يسهل الوصول عن طريق البر إلى ديدان وبحراً إلى ميناء ميوس هورموس قاعدة البطالمة على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وتؤكد الشواهد التاريخية أن ميناء أمبيلوني أقيم في عهد بطلميوس فيلادلفوس بهدف إلغاء أهمية ميناء إجرا (*Egra*) بالقرب من ميناء الوجه، الذي كان في ذلك الوقت ميناء تابعاً للأنباط. وبالفعل نجح البطالمة في ذلك، إذ بدأت أهمية ميناء إجرا تتضاءل حتى أن استرابون الجغرافي ومؤرخ الحملة الرومانية على جنوب الجزيرة وجده «قرية ساحلية لا أهمية لها[٤٩]» وذلك في عام ٢٥ ق.م. كذلك حرص فيلادلفوس على نشر نفوذه على ساحل الحجاز القريب من ديدان من أجل تأمين مينائه الجديد ولتأمين حركة الملاحة بين هذا الميناء الجديد أمبيلوني وبين ميناء ميوس هورموس[٥٠]، وبينه وبين ديدان. كذلك نسمع أن أحد البطالمة (ربما كان بطلميوس الثاني أيضاً) أقام ميناء آخر قرب ميناء العقبة أسماه ميناء بيرينيكي (*Berenike*)، وذلك للحد من ميناء إيلانا (*Aelana*) التابع للأنباط.

وخلاصة القول أن بطلميوس الثاني كان أكثر البطالمة اهتماماً ببلاد العرب، وأنه سعى لكسب صداقة ملوكها بالوسائل السلمية والدبلوماسية والتبادل الثقافي والاقتصادي، وذلك لربطهم بمصر، ولهذا كان الشاعر السكندري ثيوكريتوس (Theocritus) على حق عندما لخص امبراطورية البطالمة في عهده بأنها كانت تشمل «جزءاً من آسيا الصغرى وفينيقيا وبلاد العرب وسوريا وليبيا واثيوبيا»[٥١]. ونتيجة لهذه السياسة الحكيمة التي جمعت بين الدهاء السياسي والقوة نجح بطلميوس الثاني في تحويل جزء من تجارة البهار والبخور والعطارة في البحر الأحمر الى ميناء أمبيلوني الجديد لصالح حليفته الدولة المعينية اللحيانية التي ربطها بحرياً بخط ملاحي دائم الحركة يرتبط بالموانىء المصرية على الساحل المصري للبحر الأحمر، مما ألحق ضربة اقتصادية كبرى بالسبئيين وحلفائهم الأنباط. وبنفس الدرجة التي حرص بها بطلميوس الثاني على ربط الحجاز بمصر، حرص أيضاً على توطيد الصداقة مع دولة الكوشيين في النوبة*[ط] وإيجاد تعاون حضاري واقتصادي بين نبتا*[ي] والاسكندرية من أجل تسهيل مهمة العلماء والمستكشفين وصائدي الأفيال والتجار، ولقد لاحظ الأثريون المتخصصون في الآثار الكوشية أن السلع البطلمية أصبحت كثيرة في المقابر المروية، وخاصة في عصر الملك المروى أرقماني (٢٩٥ - ٢٧٥ ق.م.)*[ك] والمعاصر لحكم فيلادلفوس[٥٢]، وأن روح الاسكندرية وأسلوبها أصبحا ملموسين بدرجة لافتة في الفنون والمعمار منذ ذلك التاريخ

---

* المحـــرر:

(ط) لا يفهم من هذا أن دولة الكوشيين كانت في النوبة، وإنما هي مملكة مروي، ولكن التعاون بين المرويين في عهد أرقماني وبطلميوس كان في النوبة.

(ي) مروي وليس نبتا. لكن المحرر يرى مغالاة هنا.

(ك) أرجح تواريخ أرقماني هو ٢٤٨ - ٢٢٠ ق.م. والتاريخ المذكور لا يعرف له المحرر مصدراً مما يعلمه. وانظر التعليق (ل).

مما يدل على نجاح السياسة البطلمية في تضييق الخناق على نفوذ السبئيين الاقتصادي في سواحل إفريقيا المواجهة لليمن.

وفي عصر بطلميوس الثالث (٢٤٦ - ٢٢١ ق. م.) بلغت هذه السياسة أوج عظمتها وقوتها حيث يطلق علماء التاريخ على هذا الملك البطلمي لقب «نابليون البطالمة»، فقد اجتاح بقواته سوريا، ووصل الى نهر الفرات، حيث ترك لوحة هناك تخلد ذكرى هذا الغزو، ولا شك أن حلفاءه في الدولة المعينية اللحيانية ساعدوه في ذلك الفتح العظيم. ونظراً لاحتياج بطلميوس الثالث إلى الأفيال، عصب الجيوش في ذلك الوقت، فقد زاد من حركة الاستكشاف الجغرافي للساحل الإفريقي للبحر الأحمر وخاصة ساحل القرفة (Cinnamon) في بلاد الصومال[٥٣]. ومن ثم أرسل صديقه سيمياس (Simmias) لاستكشاف تلك المنطقة، ثم أعقبه بمستكشف آخر خلد لنا اسمه محفوراً وهو ليخاس (Lichas) بن بورهوس (Pyrrhus) الأكراني، وكذلك بيثولاؤس (Pytholaos) وخاريمورتوس (Charimortos). وقد تركت لنا هذه البعثات من خلفها علامات للطرق ومحاريب لآلهتهم لتحديد آخر ما استطاعوا الوصول إليه. كما تركوا نقوشاً تتحدث عن آيات الشكر والعرفان لرب الحرب اليوناني آريس (Ares) لإيمانهم بمساعدته لهم في صيد ناجح[٥٤]، وقد وصل العمران البطلمي في عهد بطلميوس الثالث حتى رأس غاردافوي[٥٥] في أقصى جنوب البحر الأحمر. ومن المدن التي أنشأها ثلاثة مدن كلها حملت اسم زوجته بير ينيكي[٥٦]، وقد وصلت درجة تأثير الاسكندرية على نبتا*[ل] أن الملك أرنيخاماني المعاصر لبطلميوس الثالث بدأ في تقليد البلاط البطلمي، وفي حمل ألقابه الملكية تماماً مثلما وجدنا ملوك لحيان يفعلون ذلك[٥٧]. وبذلك وضع بطلميوس الثالث اعداءه السلوقيين وحلفاءهم الأنباط والسبئيين في وضع حرج، غير أن هذا الملك تحول الى السلام والاستكانة في آخر أيامه، فأهمل تدريب الجيوش وإعدادها، ولهذا يعتبر موته بداية انحسار حركة الكشوفات في البحر الأحمر، الذي أصبح يعج بأسماء المدن والموانيء والمناطق التي اكتشفها وأسسها الرواد، وأطلقوا على بعضها أسماءهم، من خليج العقبة شمالاً حتى عدن ورأس غاردافوي جنوباً. لكن من المؤكد أن هؤلاء المستكشفين لم يصلوا إلى وادي حضرموت رغم توافر المعلومات عنها في مصادر ذلك العهد[٥٨].

ولقد ورث ابنه بطلميوس الرابع فيلوباتور (Philopator : ٢٢١ - ٢٠٥ ق. م.) امبراطورية بلا جيش قوي يذود عنها، كما أن شخصيته لم تكن بنفس القوة والطموح التي كان عليها أبوه وجده، ومن ثم بدأ رجال القصر يسيطرون عليه، ومن ثم وجد السلوقيون وحلفاؤهم الأنباط في الشمال والسبئيون في الجنوب أن الفرصة مواتية لتوجيه ضربة للنفوذ البطلمي في البحر الأحمر، ومن ثم بدأ السبئيون يعودون الى وضع العراقيل في وجه محاولات بطلميوس الرابع للتوغل على طول الساحل الصومالي المواجه لبلادهم حتى لا تضيع تجارة القرفة من أيديهم والتي كانت المصدر الأول لتجارتهم، لكننا نجد العلاقات البطلمية - الكوشية في أحسن درجة من الود والتعاون في عصر

---

* **المحــرر:**

(ل) مروي وليس نبتا. في ظن المحرر أن أرقماني وأرنيخاماني شخص واحد.

الملك أرقماني (٢١٨ ـ ٢٠٠ ق. م.)*(م)، المعاصر لبطلميوس الرابع إذ تعاون الملك البطلمي وزميله الكوشي في بناء المعابد للآلهة المصرية النوبية*(ن) في فيلة (Philae) وفي دكة. ومن المعروف أن بطلميوس الرابع كان شديد الاهتمام بساحل البحر الأحمر الإفريقي، ويعزى إليه تأسيس مدينة أرسينوي القريبة من باب المندب(٥٩).

وفي يونيو (حزيران) عام ٢١٧ ق.م. تعاون السلوقيون وحلفاؤهم الأنباط والسبئيون في إعداد حملة ضد بطلميوس الرابع. وكان انطيوخوس الثالث قائد الحملة، ووجد بطلميوس الرابع وهو غير مستعد لذلك، أعداءه يدقون باب مصر، ومن ثم أشار عليه وزيره سوسوبيوس بتجنيد عشرين ألفاً من الفلاحين المصريين بعد تدريبهم على أصول الحرب الحديثة. وكانت هذه أول مرة يجند فيها المصريون في الجيش البطلمي، وبفضل هؤلاء المجندين المصريين نجح بطلميوس الرابع في هزيمة السلوقي انطيوخوس الثالث قرب رفح على رمال سيناء وتحت شمس يونيو (حزيران) اللافحة، وذلك في عام ٢١٧ ق.م.

ومن الوثائق العربية القديمة وثيقة هامة تثبت اشتراك الدولة المعينية اللحيانية في تلك الحرب إلى جانب البطالمة، بينما كان السبئيون في الجنوب يقفون مع السلوقيين ضد البطالمة. وبالتالي وجد «الجنوب» نفسه في حرب مع «الشمال»، وهذه الوثيقة ترجع إلى حكم الملك أب يدع يثع ملك معين مصران(٦٠)، وهي عبارة عن قرار لشيوخ معين مصران، أمر بتدوينه كبيرا الدولة وهما **عم يصدق بن عم عثت ذو ينعن وزميله سعد بن دلك ذو ضفكن**. وينص القرار بتقديم القرابين ابتهالاً لآلهة الدولة الرسمية معين: عثتر وود ونكرح لأنها في اعتقادهم أنقذت قافلة معينية من الوقوع في أيدي السبئيين، كما قام الكبيران بتزيين معبد تنعم امتناناً لآلهتهم هذه لظنهم أنها حصنت أسوار مدينتهم **يثل** (Yathil : براقش)، القريبة من معين مصران، ضد هجوم شنه السبئيون عليها إبّان الحرب التي وقعت بين الجنوب والشمال، خلال الحرب الكبرى التي كانت تشتعل بين الميديين (السلوقيين) والمصريين (البطالمة) في وسط مصر، وتشكر الآلهة لاعتقادهم إنقاذها أموال المعينيين وأرواحهم في هذه المنطقة التي وقعت فيها الحروب، وتعهدها بحماية القافلة المعينية التي وصلت بسلام إلى حدود مدينتهم **قرناو**، والتي كانت القافلة في طريقها إليها. وبالرغم من أن آراء المؤرخين تباينت في تحديد تاريخ هذه الوثيقة، وكذلك في تحديد هوية المتحاربين، لكن أحدث الآراء وأكثرها صواباً وقبولاً بين علماء التاريخ الهيلينستي هو رأي بيرين (Pirenne)، التي ترى أن هذه الوثيقة كانت تتحدث عن الحرب السورية ـ المصرية الرابعة، والتي دارت رحاها بين أنطيوخوس الثالث وغريمه بطلميوس الرابع، والتي انتهت بانتصار الأخير في رفح عام ٢١٧ ق.م.(٦١). ومن الواضح أن الملك السلوقي نظم مع حلفائه السبئيين شن حرب ضد المعينيين اللحيانيين حلفاء البطالمة في نفس الوقت الذي يقوم هو فيه بالهجوم على مصر ذاتها، حتى يفتح جبهة ثانية ضد البطالمة. وقد نتج عن انتصار البطالمة انتصار المعينيين

---

* المحـــرر:

(م) يعطى المؤلف تاريخين للملك المروي أرقماني وقد سبق أن أعطاه ٢٩٥ ـ ٢٧٥ق.م. والتاريخ المتبع هو ٢٤٨ ـ ٢٢٠ق.م. على أرجح الآراء. انظر التعليق (ك).

(ن) المروية.

اللحيانيين على خصومهم السبئيين مما دعاهم إلى الاحتفاء بالنصر في الحرب ضد العدو المشترك، ثم بنجاة القافلة من العدوان، وكانت القافلة قادمة من الاسكندرية عن طريق سيناء أرض المعركة، مما يؤكد وجود خط بري للقوافل التجارية بين الحجاز ومصر، وهو خط ظل قائمًا حتى فتح المسلمين لمصر.

غير أن انتصار بطلميوس الرابع في رفح عام ٢١٧ ق.م. كان نقطة التحول في تاريخ حكم الاسرة البطلمية[٦٢]، فمن ناحية بدأت جبهتهم الداخلية تتزعزع للمعارضة الداخلية لهم، ومن ناحية أخرى ازداد ضغط السلوقيين من الخارج على البطالمة خلال القرن الثاني قبل الميلاد، وخاصة بعد أن انفصلت فارس والعراق عن الدولة السلوقية وقيام دولة الفرثيين (ملوك الطوائف) فيها، حيث أخذت هذه الدولة تضغط على الدولة السلوقية من الشرق، كانت هذه الدولة قبل قيام دولة الفرثيين تسيطر على مسالك التجارة في الخليج العربي عن طريق ساحل البحرين (بلاد الأحساء)، حيث ازدهرت في ذلك الوقت مدينة جرها (*Gerrha*) الواقعة مقابل جزيرة تيلوس، التي عرفت فيما بعد باسم **أوال** ثم بالبحرين. فلما ظهرت دولة ملوك الطوائف (الفرثيين) ضعفت سيطرة الدولة السلوقية على هذه المناطق الشرقية، ومن ثم بدأت تركز اهتمامها على المسالك الغربية، وبالذات في مناطق الحجاز وسيناء، أي في شمال البحر الأحمر، مما جعل اصطدامهم بالبطالمة حول الصراع على مناطق النفوذ أمراً مباشراً وعنيفاً. وقبل ذلك كان السلوقيون يتركون زمام هذه المناطق لحلفائهم الأنباط، الذين تولوا مقاومة النفوذ البطلمي طوال فترة انشغال السلوقيين بالخليج، وقد أدى عودة الاهتمام السلوقي الى المسالك الغربية إلى وقوع الخلاف بينهم وبين حلفائهم الأنباط فيما بعد، ومن ثم راح الأنباط يتعاونون مع دولة الرومان خلال القرن الأول ق.م. ويغرونها بالوصول الى الشرق الأدنى حتى تقضي لهم على دولة السلوقيين ودولة البطالمة معاً.

غير أن القرن الثاني ق.م. كان يمثل تصاعد قوة ملوك السلوقيين وتدهور وضعف وفساد وتحلل الدولة البطلمية، ففي عهد بطلميوس الخامس الملقب باسم المتجلي (Epiphanes : ٢٠٥ ـ ١٨٠ ق.م.) بدأت الامبراطورية البطلمية في الانكماش. فقد فقدت مصر جوف سوريا بعد معركة **بانيون** (*Paneion*) قرب الأردن، وذلك في عام ٢٠٠ ق.م.، وضاعت من أيدي البطالمة مقاليد الطريق البري الذي كان يربط الدلتا بالحجاز، كما أن ميناءهم عند خليج العقبة (**بيرينيكي**) بالقرب من إيلات، وجد منافسة قوية قضت عليه من جانب ميناء الأنباط النشط **إيلانا** (إيلات الحالي). بل تأثرت موانىء البطالمة على الساحل المصري للبحر الأحمر منذ انتصار السوريين وحلفائهم العرب الجنوبيين، وذلك لأن تجارة الهند والجنوب العربي تحولت الى الطريق المحاذي لشاطىء البحر الأحمر الشرقي الممتد حتى ميناء **لويكي كومي** النبطي، ومنه الى البتراء ومنها الى الساحل السوري، وخاصة غزة. وتعويضاً عن فقد جوف سوريا والطريق البري معها ضاعف البطالمة في العصور الأخيرة (في القرنين الثاني والأول ق.م.) من تركيز اهتمامهم بالبحر الأحمر، فبالرغم من الضعف والتحلل وتزايد النفوذ الروماني تدريجياً في مصر بقصد احتلالها إلا أن نشاط البطالمة لم يخب أبداً في هذه الأوقات العصيبة، بل زاد الاهتمام بالبحر الأحمر، وأرسلت بعثات الاستكشاف الى شواطئه وبلدانه الجنوبية، لأن المد السوري حصر اهتمام البطالمة في جنوب البحر الأحمر ووسطه بدلاً من شماله، كما أن البطالمة فقدوا الروح العسكرية التوسعية القديمة، والتي سادت خلال حكم ملوكهم الثلاثة الأول، فتحولوا منذ عصر بطلميوس الخامس إلى التجارة فقط، ووضعوا في تجارة البحر الأحمر طاقاتهم المركزة

بعد أن تركوا الجانب العسكري، فلم نعد نسمع عن مراكز صيد الأفيال في النوبة وتدريبها ونقلها عبر ناقلات خاصة عن طريق البحر الأحمر الى مصر، ومن ثم تحولت طاقات البطالمة المتأخرين(٦٣)، والتي كانت تضيع في عهد البطالمة الأولين في الحروب والتجهيزات للحروب تحولت إلى توسع سلمي تجاري، وإلى عمليات استكشاف مستمرة للساحل الإفريقي، وتوسيع نطاق تجارتهم وحجمها في البضائع الشرقية، مثل العطارة والعطور والتوابل والبخور والعـاج والأبنـوس، والـذهب وريش النعام والأعشاب الطبية، وخاصة بعد ازدياد الطلب عليها في بلاد غرب أوروبا، بعد أن كانت كماليات لا يطلبها سوى طبقة محدودة من الأثرياء. وهذه من إحدى الأسباب التي دعت الرومان إلى الاستجابة لتحريض الأنباط للقدوم الى الشرق الأدنى منذ النصف الأول من القرن الأول ق.م.

ونتيجة الى نشاط البطالمة المتأخرين في جنوب البحر الأحمر وإرسالهم للعديد من البعثات الاستكشافية أصبح لدى علماء الاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد معلومات دقيقة عن شعوب وقبائل البحر الأحمر، وبدأ علماء الاجتماع والأجناس في تصنيف هذه القبائل حسب طبائعها، مثل أكلة السمك، وأكلة جذور النباتات، وأكلة الحبوب، وأكلة لحوم الفيلة وأكلة النعام، وأكلة الجراد، حتى اسم جزيرة سومطرة بدأ يتردد في الوثائق البطلمية المتأخرة بالرغم من أن أحداً لم يكن قد وصل إليها بعد(٦٤). وبنفس القدر الذي ازدهرت فيه تجارة مصر مع بلدان الساحل الإفريقي ازدهرت تجارة مصر مع بلدان جنوب البحر الأحمر العربية، إذ بدأ تجار الاسكندرية يتعاملون مع سبأ، ويلتقون بالتجار الهنود والفرثيين والفرس، بل حاولت سفن الاسكندرية الوصول الى ساحل حضرموت الغني باللادن والبخور وكذلك الى جزر كوريا موريا(٦٥).

ونتيجة لاندفاع البطالمة المتأخرين في حركة محمومة لزيادة نفوذهم في ساحل النوبة، بدأت حملاتهم تأخذ الصفة الاستيطانية الدائمة بعد فقدانهم جوف سوريا، وذلك نتيجة لزيادة الطلب على البضائع الشرقية، وقد أثار سلوك البطالمة شكوك ملوك مروي*(س) فتأزمت علاقتهم مع مصر، إذ نجد بطلميوس الخامس يقوم بازالة اسم الملك المـروي أرقـماني من على المعابد التي سبق أن تعاونت مصر ومروي في بنائها في دكة وفيلة، وقد رد ملوك مروي بتحريض الوطنيين المصريين في طيبة على الثورة ضد حكم البطالمة(٦٦)، وقد نجح بطلميوس الخامس في إخماد الثورة الوطنية في طيبة، لكن بعد أن كلفته دماء وأموالاً كثيرة وتنازلات قدمها للمصريين. وفي عهد بطلميوس السادس (١٨٠ - ١٤٥ ق.م.)، وبالرغم من تزايد النفوذ الروماني في القصر الملكي وفي البلاد حتى أصبحت شبه محمية رومانية، فإن التوسع المصري في الجنوب وعلى طول ساحل البحر الأحمر لم يتوقف أبداً، بل بلغ أقصاه، إذ بنى عدداً من المدن المحصنة ضد هجمات قبائل الصحراء. وكما لاحظ يونكر (Junker)، إن هذه المدن محصنة جيداً، وإنها تتحكم في الطرق البرية المؤدية إلى مناجم الذهب في النوبة، مثل وادي الحمّامات ووادي العلاقي، ويعلل بعض الأثـريين هذا التوسع البطلمي جنوباً بانه توسع هروبي من الفشل في الشمال، نتيجة للتوسع السلوقي، وامتداد دولة العرب الأنباط في الحجاز.

---

* المحـــرر:

(س) ليت المؤلف وثّق هذه النقطة وما بعدها لأهميتها، مشيراً لغير رسالة الخاتم للماجستير.

واستمراراً لتلك السياسة قام بطلميوس يورجيتيس الثاني (Eurgetes II : ١٨٢ - ١١٦ ق.م.) بإرسال البعثات الاستكشافية لفتح الطريق إلى الهند. ومن أشهر هذه البعثات بعثة يودوكسوس (Eudoxos) الكوزيكي الذي جاء إلى مصر في عام ١٤٦ ق.م. حيث أوكل إليه بطلميوس مهمة اكتشاف الطريق الملاحي عبر عدن إلى شبه القارة الهندية لكسر احتكار السبئيين لهذا الطريق، خاصة أن دولة السبئيين كانت آخذة في التدهور والضعف خلال هذه الفترة، وبالفعل وصل يودوكسوس إلى الهند بمساعدة بحار هندي كانت الرياح الموسمية قد ألقت بسفينته عند برزخ السويس، ويروي لنا استرابون نقلاً عن سلفه بوسيدونيوس (Poseidonius) أنه عاد من الهند ومعه عدد من السفن المحملة بالتوابل والعطور والأحجار الكريمة فسلبه بطلميوس هذه الهدايا، وبعد موت الملك كلفته أرملته كليوباترا الثالثة برحلة أخرى الى الهند. ونفذ يودوكسوس أمر سيدته التي سلبته ما جاء به مثلما فعل زوجها من قبل. عندئذ قرر أن تكون رحلته الثالثة هي الوصول الى الهند عن طريق الدوران حول إفريقيا وتفادي المرور في البحر الأحمر، لكنه هلك أثناء هذه المغامرة[٦٧]، التي أرجأ القدر إتمامها لفاسكودي غاما بمساعدة بحار عربي، مما كان له عواقب وخيمة على دولة المماليك في مصر إذ انهار اقتصادها وتداعت قوتها مما أدى الى سقوطها. غير أن موت هذا البحار المغامر بودوكسوس حرمنا من مذكراته وملاحظاته التي دونها عن شعوب بلدان البحر الأحمر وطبيعتها وما أورده عنه استرابون لا يزيد عن معلومات تواردت عنه شفوياً، وأغلب الظن أن يودوكسوس شاهد خلال رحلته جزيرة سوقطرة. لكنه لم يكتشفها. وبفضل ذلك نجح بحار سكندري آخر اسمه أرتيميدوروس في عام ١٠٠ ق.م.[٦٨] في عهد الملك البطلمي سوتير الثاني من اكتشاف رأس غواردفوي في أقصى جنوب البحر الأحمر.

وفي مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، وبالتحديد في عام ١١٥ ق.م.، بعد تطور خطير في جنوب الجزيرة، إذ سقطت دولة ملوك سبأ المعادية للبطالمة منذ قيامها، وحل محلها ملوك حمير الذين لقبوا أنفسهم باسم ملوك سبأ وذي ريدان، والذين أنهوا أيضاً سيطرة حضرموت على جنوب البحر الأحمر، وكان ملوك حمير أكثر ميلاً للتعامل مع البطالمة وقد أعطى ذلك فرصة لهم للتوسع جنوباً بعد أن زالت العوائق. إن الإطاحة بمملكة سبأ على أيدي ملوك حمير والإطاحة المماثلة بملك حبشت في حضرموت لا يعكس الصراع الخارجي المستمر على البحر الأحمر بقدر ما يعكس عودة النفوذ البطلمي إلى جنوب البحر الأحمر بعد فترة انحسار طويلة نتيجة لهزيمة البطالمة في شمال الحجاز على أيدي الأنباط المدعومين من قبل السلوقيين. وليس من المستبعد أن يكون هذا التغيير السياسي قد تم بتدخل البطالمة المتأخرين ومساعدتهم، ومما يؤكد هذا الافتراض والصداقة الحميمة بين ملوك حمير[٦٩]، وملوك البطالمة، كما أن من نتائجه هجرة حبشت بعد زوال ملكها إلى بلاد أكسوم (الحبشة)، ومن ثم تلى ذلك مرحلة من العداء بين البطالمة وأكسوم تماماً مثل العداء بين حمير وأكسوم*(ع)، ومما يؤكد تحالف ملوك حمير مع البطالمة هو مسارعة الرومان بارسال حملة لاسقاط حكم الحميريين بعد اسقاطهم للأسرة البطلمية مباشرة. ومن المعروف أن الملكة البطلمية كليوباترا السابعة، آخر ملوك الأسرة البطلمية، كانت قد جمعت أسطولها البحري عند ميناء كليوباتريس قرب

---

* المحـرر:
(ع) كيف يكون ذلك وقيام أكسوم بعد سقوط البطالمة؟

السويس استعداداً للهروب إلى النوبة، وقيادة المقاومة ضد الرومان من هناك، وربما بمساعدة ملوك حمير، وربما أيضاً كان في تفكيرها إغلاق البحر الأحمر في وجه الرومان. غير أن الأنباط حلفاء الرومان أحسوا بذلك فسارعوا بإحراق الأسطول البطلمي عند خليج السويس[٧٠]. وبالطبع لم ينس الرومان لهم ذلك الجميل، ومن ثم فإن حملة إيليوس غالّوس على اليمن عام ٢٥ق.م. يجب أن تفهم على أنها عقاب موجه من الرومان ضد أصدقاء كليوباترا وأجدادها. وبالرغم من أن الحملة الرومانية فشلت تماماً من الناحية العسكرية إلا أنها نجحت في إنزال ضربة مؤلمة بأحوال الحميريين الاقتصادية، وفي ضوء ذلك أيضاً يمكن أن نفسر الارتباط التعاطفي بين الزبّاء ملكة تدمر وبين الملكة كليوباترا فيما بعد، لدرجة ادعاء الزبّاء أنها من سلالة البطالمة، وذلك لأن ملكة تدمر كانت شديدة النقمة على الأنباط وحماتهم الرومان. ومن الجدير بالذكر أن الأنباط انقلبوا على حلفائهم السلوقيين عندما بدأ هؤلاء الأخيرون يهتمون بجنوب سوريا وشمال البحر الأحمر وقد استفاد الأنباط كثيراً من تدهور الدولة السلوقية وانهيارها، فتوسعوا على حسابها حتى أصبحت المنطقة الممتدة من معان مصران إلى موأب في الأردن تابعة لهم، بل وصل الأمر أن استغل ملك الأنباط أريطاس الثالث (الحارث) في عام ٨٤ ق.م. ثورة اليهود المكابيين على الدولة السلوقية التي مزقتها الصراعات على العرش، فاندفع شمالاً وتمكن من احتلال دمشق ذاتها، وبدأ يسك عملة خاصة بدولة الأنباط[٧١]، وبدأ الأنباط أيضاً يتطلعون للاستيلاء على المملكة اللحيانية. ويقول كاسكل أن الأنباط نجحوا بعد عام ٢٤م في القضاء على مملكة لحيان والاستيلاء عليها[٧٢]، وللقضاء على أعدائهم السلوقيين والبطالمة لم يتردد الأنباط في الاستعانة بالرومان وترغيبهم في التدخل في الشرق الأدنى، فهم الذين مهدوا للقائد الروماني بومبي لفتح سوريا عام ٦٤ ق.م.، واسقاط حكم الاسرة السلوقية وضم سوريا إلى ولايات الامبراطورية الرومانية، وبعد ذلك بدأ يحرض الرومان على إسقاط حكم البطالمة في مصر، وإسقاط حكم الحميريين في الجنوب.

وفي القرن الأخير قبل الميلاد ازداد النفوذ الروماني في مصر نتيجة لضعف الحكم البطلمي وإفلاس سياسته الاقتصادية بسبب تزايد المقاومة الوطنية من جانب المصريين بزعامة كهنتهم، وبدأت روما تمهد تدريجياً لاحتلال مصر طمعاً في قمحها الذى أثبت أهميته أثناء احتلال هانيبال لإيطاليا، فبدأت تعين البطالمة مقابل الحصول على امتيازات، وبدأت تجرد مصر من ممتلكاتها الخارجية، ففي عام ٩٦ ق.م. فقدت مصر برقة بمقتضى وصية أوصى بها حاكمها بطلميوس أبيون. وفي عام ٥٨ ق.م. فقدت قبرص قاعدتها البحرية في شرق البحر المتوسط، ومن الناحية الفعلية كانت مصر تحت الحماية الرومانية، وعندما ثار شعب الاسكندرية على وجود الدكتاتور الروماني يوليوس قيصر في الاسكندرية عام ٤٧ ق.م. ونجح الثوار السكندريون في تضييق حلقة الخناق على الدكتاتور الروماني، سارع الأنباط لنجدته من الموت المحقق.

وقد أدى سقوط الأسرة السلوقية على أيدي الرومان وضم سوريا إلى الامبراطورية الرومانية عام ٦٤ ق.م. وترنح الدولة البطلمية إلى تغير موازين القوى في البحر الأحمر، فعادت حركة القرصنة في جنوبه، وعاود الأنباط مهاجمة السفن التجارية المصرية في البحر الأحمر حتى أنها لم تعد قادرة على الذهاب إلا في حراسة السفن العربية[٧٣]، وبالتالي لم تستطع الذهاب الى أبعد من باب المندب. وكما يخبرنا استرابون فإن عدد السفن المصرية التي كانت تجرؤ على الخروج من باب المندب قبل مجيء الرومان لم يزد عن عشرين سفينة[٧٤]. وأصبحت رحلات

التجار البطالمة أشبه بالمغامرات المحفوفة بالمخاطر. ومن تلك الفترة لدينا نقش كتبه رجل يدعى أبولّونيوس وآخرون قدموا فيه آيات الشكر والتقدير لآلهتهم لعودتهم سالمين من البحر الأحمر وبلاد العرب والصومال[٧٥]. وبالرغم من صعوبة موقف البطالمة المتأخرين نسمع مثلاً عن اكتشاف البحارة السكندريين في عصر بطلميوس الزمّار (والد كليوباترا) لجزيرة سوقطرة واحتلالها، وتحويل اسمها القديم **دريبا سخودارا** (*Drippa Skhudara*)، أي الجزيرة المقدسة، من السنسكريتية، إلى اسم اغريقي هو جزيرة **الديسكور** (*Dioscuridou Nesos*)[٧٦]، ويقول كوسماس بحار الهند أن المستوطنين السكندريين ظلوا بها حتى استعادتها حضرموت مرة أخرى.

وقد أدى هروب المد البطلمي الى جنوب البحر الأحمر الى انحسار نفوذهم القديم في شمال غرب شبه الجزيرة وساحل البحر الأحمر الشرقي، فمثلاً أهمل البطالمة ميناءهم القديم أمبيلوني وبدأ سكانه السكندريون والاغريق يفقدون هويتهم الحضارية والعنصرية حتى غرقوا تماماً في بحر الحضارة الساميّة الشمالية، كما توقفت علاقة البطالمة بحلفائهم ملوك ديدان ولحيان[٧٧]، وبينما كان النفوذ البطلمي ينحسر في شمال البحر الأحمر وشمال غرب شبه الجزيرة كان مد الأنباط في تزايد مستمر منذ عهد ملكهم أريطاس الثالث، وسيطروا سيطرة اقتصادية تامة على المدن العربية الهامة مثل تيماء والحِجر (مدائن صالح) اللتين لا تبعدان كثيراً عن حليفة مصر قديمًا وهي ديدان. وأصبحت الحِجر، وميناؤها **إجرا** (الوجه الحالي)، قاعدةً للانطلاق التوسعي للأنباط، وبدأوا يضايقون اللحيانيين. غير أن الدولة اللحيانية صمدت في وجه الأنباط حتى بعد سقوط الدولة البطلمية، إذ لم تسقط قبل عام ٢٤م. حسب رأي كاسكل[٧٨]*[ف]. ومن المؤكد أن النفوذ النبطي توسع جنوباً حتى ميناء البطالمة القديم أمبيلوني. ويرى تَارْن أن الأنباط خرّبوا هذا الميناء البطلمي، وأعادوا بناءه من جديد باسم القرية البيضاء (ربما عند مدخل خليج العقبة بين ضِبَا والمويلح بالقرب من وادي عُفال عند واحة عينونة أو بالقرب من ميناء ينبع الحالي)، وربطوا بين مينائهم الجديد وبين مدينة يثرب (*Yathrippa*) بطريق بري، فحوّلوا بذلك طريق البخور والتجارة عن حليفة البطالمة ديدان[٧٩]، ولم يقف عداء الأنباط للنفوذ البطلمي عند هذا الحد، بل بدأوا يتدخلون في صراعات البيت البطلمي مثل تدخلهم الى جانب كليوباترا السابعة ضد أخيها بطلميوس الثالث عشر، وهم الذين أنقذوا يوليوس قيصر من هزيمة محققة في الاسكندرية عام ٤٧ق. م. وليس من المستبعد أن يكون ملك الأنباط عبادة الثالث هو الذي حرّض الرومان على فتح مصر وإسقاط الحكم البطلمي وقدم لهم المساعدة من أجل ذلك، خاصة أن الأنباط هم الذين أشعلوا النيران في أسطول كليوباترا الذي كان راسياً عند ميناء **كليوباتريس** (السويس)، حتى لا تهرب الملكة المصرية من قدرها المحتوم، وربما انتقاماً من حرق بطلميوس الثاني لسفنهم في شمال البحر الأحمر عام ٢٧٨ق. م. وكان الأنباط يحرضون على إسقاط الحكم البطلمي لإزالة أكبر منافس لهم في تجارة البحر الأحمر كما ساهموا في إسقاط الأسرة السلوقية من قبل. وبالطبع كان أمل الأنباط أن يكافئهم الرومان بأن يتركوهم ينفردون بتجارة البحر الأحمر، ومن أجل ذلك حرضوا الرومان بل اشتركوا معهم في الحملة العسكرية الفاشلة لإسقاط حكم الحميريين في اليمن عام ٢٤ق. م. لكن الرومان الذين تقوم سياستهم على الأنانية والمنفعة الشخصية لبلادهم غيروا خططهم القديمة وسلوكهم إزاء الأنباط عندما ذاقوا حلاوة الكسب التجاري للبضائع الشرقية.

* المحرر:

(ف) اعتمد المؤلف على رأي كاسكل نقلاً عن جواد على، وهو رأي منفرد لا يوافقه عليه معظم العلماء والمعاصرين.

الهوامش

(١) M. Cary and E.H. Warmington, *The Ancient Explorers* (Pelican book, revised edition. London 1964), 73 .

(٢) W.W. Tarn, «Ptolemy II and Arabia», *Journal of Egyptian Archaeology* XV (1929), 5 ff .

(٣) وهي خرائب العُلا في شمال غرب شبه الجزيرة.

(٤) M. Cary and E.H. Warmington, *op. cit.,* 74 ff .

(٥) **جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ١، ص ص ٣٢٤، ٥٨٥ .**

(٦) **المرجع نفسه ص٥٨٩ .**

(٧) Alan B. Lloyd, «Necho and the Red Sea: Some Considerations», *Journal of Egyptian Archaeology* 63 (1977), 142 - 155., Ponsener, «Le Canal du Nil à la Mer Rouge avant les Ptolemées», *Chronique d'Égypte* XIII (1938), 21 .

(٨) M. Cary and E.H. Warmington, *op. cit.,* 77 - 80; Herodotus, IV : 114 111, 102 .

(٩) W.W. Tarn, *J. E. A.* XV, 6,69 .

(١٠) M. Cary and E. H. Warmington, *op.cit.*

(١١) أطلق عليه الاغريق اسم البحر الأحمر *Erythraia Thalássa* . وقد ترجم الرومان هذا الاسم الى اللاتينية فأصبح يعرف باسم *Rubrum mare* . وعن ورود اسم البحر الأحمر في النصوص الأدبية الاغريقية في القرن الخامس ارجع إلى : Pauly-Wissowa, *Real Encyclopoedie der altertumwissenschaft,* Reihe Beiheft, 2 .

(١٢) **أحمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها (القاهرة ١٩٥٧)، ص٦٩ .** Strabo XVI : 4 , 27

(١٣) Cary and Warmington, *op. cit.,* 87, 264 n. 22 .

(١٤) *Op. cit.,* 87 .

(١٥) *Loc. cit.*

(١٦) M. Cary and E.H. Warmington, *op. cit.,* 876; Bevan, *History of Egypt under the Ptolemies,* 245 . **ابراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة .**

(١٧) W.W. Tarn, «Ptolemy Philadelphus», *J.E.A.* XIV (1928), 246. Bevan, *op. cit.,* 246 .

(١٨) Diodorus Siculus E. 33; Strabo, 17: 1,2 (c80), 16:4,23 (c.780); Pliny, *Historia Naturalis,* VI:165 ff., VII:208 . **ابراهيم نصحي، المرجع السابق نفسه، ص٨١ .**

(١٩) W.W. Tarn, «Ptolemy II and Arabia», *J. E. A.,* XV, 13-14 .

(٢٠) L. Casson, *Ships and Seamanship in the Ancient World* (Princeton, 1971), 97; Diodorus Siculus, I : 55 .

(٢١) Casson, *ibid; P. London,* 106,3 (III B.C.); *Sammelbuch* 6261,20 (II.B.C.); Polybius 16:2,10; 3:4,7:3:; I.G 2, 3218,9,12,1 also see Liddle and Scott, *Greek-English Lexicon,* 1819 .

(٢٢) Tarn, *loc.cit.,* M. Cary and E.H. Warmington, *ibid, Cf.* W. Tarn and G. Griffith, *Hellenistic Civilization* (3rd. ed. University Paperback, 1952), 245

(٢٣) Eratosthenes; M. Cary and E.H. Warmington, *op.cit.,* 88 , 206; W. Tarn, *op. cit.,* 14 .

(٢٤) علي عبدالله الخاتم، **اثيوبيا والاثيوبيون بين المصادر الاغريقية الرومانية والأدلة الاثرية** (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة: ١٩٧٦م)، ص ص، ٨٦، ٨٧ .

(٢٥) Athenaeus, V. 200; *P. Cairo Zenon, no. 59143* and no. *59207; PSI, VI,* 562, *B.G.U. IV, 1351; cf.* W. Tarn, *op. cit.,* 15 - 16 .

(٢٦) علي عبدالله الخاتم، ص ٨٧ .

(٢٧) **المرجع نفسه** ، ص ٨٨ .

(٢٨) Tarn, *op. cit.,* 14 .

(٢٩) *Op. cit.,* 15 - 16, Diodorus, 11:48, 4 - 5

(٣٠) Polybios, XIII: 9,4 .

(٣١) Tarn, *op. cit.,* 15 - 16 .

(٣٢) *Loc. cit* .

(٣٣) جواد علي، **المرجع نفسه**، جـ٢ ، ص ص ١٢١ - ١٢٣ ، ٢٤٦ .

(٣٤) **المرجع نفسه**، ص ص ٢٤١ - ٢٤٦ .

(٣٥) **المرجع نفسه**، ص ٢٤١ .

(٣٦) **المرجع نفسه**، ص ١٢٠ ، نيلسن وآخرون، **التاريخ العربي القديم** (ترجمة فؤاد حسنين علي، القاهرة ١٩٥٨م)، ص ٥٧ .

(٣٧) نيلسن، **المرجع نفسه**، ص ١٢٣ . *Cf. Tarn. op. cit.,* 19 - 20

(٣٨) **المرجع نفسه**، ص ص ٢٤٤ - ٢٤٧ . أمكن التعرف على اسم قرية في مصر في عصر البطالمة كانت تقع في اقليم مَنْف، وكان سكانها من العرب، وأغلب الظن من عرب معان مصران ولحيان، وتعرف باسم بوئيس (Pois) . كما ذكرت وثائق البردي أن عدداً من أبناء القبائل العربية في مصر كانوا يعملون برعي الأغنام .

(٣٩) جواد علي **المرجع السابق**، ص ٢٤٦ ، نقلاً عن: *Encyclopaedia,* vol. III: 26, *Die Araber,* 104

(٤٠) Tarn, *op. cit.,* 20 .

(٤١) Tarn, *op. cit.,* 120f; *cf.* Pierre Grimal and others, *Hellenism and the Rise of Rome* (London 1968), 291 . جواد علي، **المرجع نفسه**، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٤٢) ديتلف نيلسن، **المرجع السابق**، ص ٦٦ .

(٤٣) خاصة اسم زيد إيل . *P.S.I.,* VI:629

(٤٤) Tarn., *op. cit.,* 19 - 20 .

(٤٥) Tarn, *op. cit.,* 20 .

(٤٦) . Op. cit., 19 L; *cf.* Hill, *Catalogue of Coins in the British Museum.* (1922), no. Lxxxii . أنظر أيضاً، جواد علي، **المرجع نفسه**، جـ٢ ص ص ١١٢ ، ١١٣ ديتلف نيلسن، **المرجع نفسه**، ص٩٨ . وقد أشار تارن إلى أن عدداً من تماثيل القطط، وهي المعبود المصري باسم «**باستت**»، قد عثر عليها أثناء مد سكة حديد الحجاز في مطلع القرن العشرين على يد العثمانيين .

(٤٧) Tcherikower, *Die Hellenistischen Stadtgrundung von Alexander dem grossen bis auf Roemerzeit* (Philogus Supplement), Band XIX, Heft. I (Leipzig, 1927), 12 - 15 . also *cf.* Karl Schneider, *Kulturgeschichte des Hellenismus,* Erster Band (München, 1967), 528 - 585 .

(٤٨) Tarn, *op. cit.,* 21 .

(٤٩) Strabo XVI : 782.

(٥٠) كان هذا الميناء يعرف في ذلك الوقت باسم ميناء **أفروديت**، ولم يتخذ الاسم الأخير إلا في عصر الرومان. ويعكس هذا التعبير حرص الرومان على محو كل شيء يذكرهم بحكم البطالمة لمصر. ومن بين ذلك تغيير أسماء الموانىء.

(٥١) Theocritus, *idyl.* XVVII:I, 86 (edit. A.S.F. Gow, Vol. 3, 1950), 159 b. 159 - 160 .

(٥٢) الخاتم، **المرجع السابق**، ص ٨٨ . ودَّ المحرر لو أن المؤلف أعطى المراجع التي استقى منها الخاتم معلوماته.

(٥٣) Agatharchus, 41 (Müller, 1, p. 135 and LXII); Macrianus 112; Diodorus: III:18, 4 .

(٥٤) Bevan, *op. cit.,* 243 .

(٥٥) Strabo XVII:787 .

(٥٦) ابراهيم نصحي، **المرجع السابق**، جـ٣، ص ٢٢٤ . Bevan, *op. cit.,* 243

(٥٧) الخاتم، **المرجع نفسه**، ص ٩ نقلا عن B. G. Haycock .

(٥٨) Cary and Warmington, *op. cit.,* 29, 264 n. 29 .

(٥٩) ابراهيم نصحي، **تاريخ مصر في عصر البطالمة**، جـ ٣ ، ص ٤٠٤، جـ ١ ، ص ٦٠ .

(٦٠) Glaser, **Gl. 1115;** Halevy, **Hal 535, 578;** *cf* . J. Pirenne, *Paléographie des inscriptions sud-arabes* I (1956), 211; Grimal, *op. cit.,* 293; Tarn, *op. cit.,* 21 . وانظر أيضاً جواد علي، **المرجع نفسه**، جـ ٢، ص ص ٨٩ - ٩١ .

(٦١) جواد علي، **المرجع نفسه**، جـ ٢ ، ص ٩١ .

(٦٢) M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World* , Vol. II (1941), 1115 - 1126, Milne, *J.E.A.* (1925), 226 - 234 . ابراهيم نصحي، **المرجع نفسه** .

(٦٣) Bevan, *op. cit.,* 154-157; *cf.* W. Tarn and G. Griffith, *Hellenistic Civilization,* 246-ff . ديتلف نيلسن، **المرجع السابق نفسه**، ص ١١٩، الخاتم، **المرجع السابق نفسه**، ص ص ٩٢ - ٩٦ .

(٦٤) Warmington and Cary, *op. cit.,* 89, 264 n. 30 .

(٦٥) *Ibid* .

(٦٦) الخاتم، **المرجع السابق نفسه**، ص ٩٦ .

(٦٧) . Warmington and Cary, *op. cit.,* 264 n. 33

(٦٨) . *Ibid* , n. 34

(٦٩) . Tarn and Griffith, *op. cit.,* 247 - 8

(٧٠) . Bevan, *op. cit* ., 380, Tarn, *op.cit* ., 21

(٧١) . Philip Hitti, *History of the Arabs,* 68

(٧٢) نقلاً عن جواد علي، المرجع نفسه، جـ٢، ص ٢٤٦، هامش ٣ .

(٧٣) . Cary and Warmington, *op. cit* ., 265, no. 33

(٧٤) . Strabo: XV:1, 22

(٧٥) . Cary and Warmington, *loc. cit* ., n. 37

(٧٦) . *Ibid* ., n. 38

(٧٧) . Tarn, *op. cit* ., 24

(٧٨) جواد علي، المرجع السابق نفسه، ص ٢٤٩ .

(٧٩) . *Tarn, op. cit* ., 24 - 25

المصادر والمراجع

أولاً: العربية والمعرَّبة :

١ ـ الخاتم، علي عبدالله،
إثيوبيا والإثيوبيون بين المصادر الإغريقية الرومانية والأدلة الأثرية (رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٦م) .

٢ ـ علي، جواد،
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت، ١٩٦٨م) .

٣ ـ علي، عبداللطيف أحمد،
مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية (بيروت: دار النهضة، ١٩٧٢م) .

٤ ـ فخري، أحمد،
اليمن ماضيها وحاضرها (القاهرة: المعهد العالي للدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م) .

٥ ـ نصحي، ابراهيم،
تاريخ مصر في عصر البطالمة ـ الطبعة الثالثة (القاهرة، ١٩٧٦م) .

٦ ـ نيلسن، ديتلف، وهومل، فريتز، ورودكاناكيس، وجروهمان، أدولف،
التاريخ العربي القديم (ترجمة وتعليق فؤاد حسنين علي ومراجعة محمد زكي حسن. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٥٨م) .

٧ ـ يوسف، محمد،
«علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري»، **مجلة كلية الآداب** (جامعة القاهرة)، الجزء الأول (١٩٥٣م) . ص ٢٧ وما بعدها

ثانياً: الافرنجيـــة :

1 . BEVEN, E.,
History of Egypt under the Ptolemies (London, 1929).

2 . CASSON, L.,
Ships and Seamanship in the Ancient World (Princeton, 1971).

3 . CARY, M. and WARMINGTON,F. H.,
The Ancient Explorers (Pelican Books. Revised edition. London, 1963).

4 . GRIMAL, PIERRE et als.,
Hellenism and the Rise of Rome (London: Wedenfield and Nicolson 1968).

5 . HITTI, PHILIP K.,
History of the Arabs (fifth edition revised. London: Macmillan, 1915).

6 . LLOYD, ALAN B.,
«Necho and the Red Sea», *Journal of Egyptian Archaeology* 63 (1977), 142 - 155 .

7 . PIRENNE, J.,
Paléographie des inscriptions sud-arabes Vol. I (Paris, 1956).

8 . POSENER, J.,
«Le Canal du nil et la Mer rouge avant les Ptolèmes», *Chronique d'Égypte* XIII (1948).

9 . ROSTOVTZEFF, M.,
The Social and Economic History of the Hellenistic World (Oxford: The Clarendon Press, 1941).

10 . SCHOFF, W.H.,
The Periplus of the Erythraean Sea (London, 1912).

11 . TARN, W.W.,
«Ptolemy II and Arabia», *Journal of Egyptian Archaeology* 15 (1929), 2 - 25 .

«Ptolemy Philadelphus,» *Journal of Egyptian Archaeology* 14 (1928), 251 ff .

12 . TARN, W., and GRIFFITH, G.,
Hellenistic Civilization. (University Paperbacks. London: Methuen, 1966).
13 . TCHERIKOWER, D.,
Die Stadtgruendung in der hellenistischen Zeit (Berlin, 1928).



XI: ARABIA AND ITS NEIGHBOURS.

A CONTRIBUTION ON THE SUBJECT.

Remarks on Possible Relations Between Ancient Arabia and the Neighbouring Civilizations, as Found in Some Old Star Names

Paul Kunitzsch

When looking for details suggesting possible relations between ancient Arabia and the neighbouring civilizations, it will be proper to investigate other fields of interest, apart from the great domains of history, archaeology, commerce, religion, etc. One of these fields should be astronomy, or what took its place in ancient Arabia.

It is an often repeated fact that the inhabitants of the Arabian Peninsula had a good knowledge of the sky. Individual names of conspicuous stellar objects occur as early as classical pre-Islamic poetry. Furthermore, astronomical knowledge is not infrequently mentioned in the Holy *Qur'ān*.The stellar lore of the Arabs was counted among the major achievements of their classical tradition, so that a number of philologists and lexicographers collected all the material pertaining to this domain and put it together in special monographs, or inserted it into their linguistic works.(1) In order to avoid confusion, I want to stress here that we are now speaking of the indigenous Arabian knowledge of the sky and the celestial objects which has well to be separated from scientific astronomy in the Arabic-Islamic culture. This scientific astronomy was derived from ancient Greek, Persian, and Indian traditions, and thus forms part of the classical heritage.

Of indigenous Arabic star names, modern scholars have composed a list comprising more than three hundred individual names.(2) Among these a group of about fifteen names, referring to the most conspicuous celestial objects, seems to be particularly old.(3) To these have to be added a number of constellation names, mostly belonging to the zodiac.(4)

Let us now go into details, and first investigate some individual star names.

Here , the most striking example is the name of *al-nisr* ("the eagle"). The Arabs have developed this designation into two separate items: *al-nisr al-ṭā'ir* ("the flying eagle", the star *alpha Aquilae*), and *al-nisr al-wāqiʿ* ("the falling eagle" the star *alpha Lyrae*)(5). In Babylonian astronomy, we equally find a star called *kakkab nashru,* and in Sumerian ideograms $^{mul}TI_{7}^{mušen}$, which is also *alpha Aquilae.*(6) So, here we have the singular case that a similar name designates the same star in Sumerian, Babylonian. and ancient Arabic astronomy. It can be added also that the Greeks called this star by the same name, αετός ("the eagle").(7)

Other cases are, unfortunately, less clear. The Arabic *al-ʿayyūq,* the star *α Aurigae,* is related by some orientalists(8) to the Babylonian word *īqu* ("the goat"). The etymology of the Arabic name is unexplained.(9) Its equation to a Babylonian word meaning "a goat" would very well fit the fact that the Greeks called the same star equally αἴξ ("goat").(10) On the other side, however, in Babylonian astronomy the star *α Aurigae* commonly was given quite a different name.(11) Only in one singular instance does a designation occur that could bear some similarly to our "goat": ***^{mul}UDU.NITA*** ("the ram, head of the ***^{mul}GAM$_3$***").(12)

The Pleiades, in the constellation of the Bull, are called in Arabic *al-thurayyā* or, less often, *al-najm* ("the star").(13) This last designation seems to show some relation to the Babylonian ***MUL.MUL*** which properly is a plural indicating a multitude, or complex of stars.(14)

For three other old Arabic star names, Fritz Hommel pointed to certain parallels in other Semitic languages, but without being able to establish relations with certainty. First, he compares the famous Arabic

banātu na'sh (used for the three stars in the tail of the Great Bear) to a Hebrew designation, in the Book of Job (38:32), where it is spoken of as *'ayish 'al-banēhā* ("the *'ayish* and its sons"), which might correspond etymologically to the Arabic *banātu na'sh* for which, occasionally, we also find *banū na'sh,* etc., and might designate the same constellation.[15] Secondly, for *sa'd* – a designation which, accompanied by different attributes, was given by the Arabs to ten different groups of stars – the same Hommel tries to establish etymological parallels in Babylonian *shēdu* ("a demon"), and Hebrew *shēdh,* the same line of linguistic development as in Babylonian *bēlu,* Hebrew *bēl,* and Arabic *ba'l.*[16] Thirdly, for Arabic *simāk,* Hommel cites, as a parallel, the Babylonian expression *Shumuk shamī* ("the height of the heaven") which, however, is obviously not a star name.[17]

It may be of some interest here to add that some of the aforementioned star names were also names of certain pagan deities worshipped in Arabia in pre-Islamic times, *viz. Nasr, Ya'ūq* (which is perhaps related to *al-'ayyūq*[18]), and *Sa'd.*

Next, we shall examine some constellation names, beginning with the name of al-jabbār which Arabic writers used to give to the ancient constellation of Orion.[19] This designation seems to be related to an older Semitic name which must have been widely spread around A.D. 660. In this year, the Syriac bishop Severus Sebokht wrote, in Syriac, a treatise on the constellations in which he said about Orion: ". . .which is commonly called by everybody *gabbārā,* the Giant".[20]

Further, we have to discuss in this paper the names of the twelve constellations of the zodiac. These constellations are designated, in Arabic, as *burūj* (singular: *burj*), a word which itself obviously is not related to Greek *pyrgos* ("a fortress"), but moreover to a Babylonian word *parakku,* Sumerian *barag* ('a chapel'), designating the "houses" of the planets, that is the constellations of the zodiac. Apart from the astronomical meaning, the Arabs knew the word *burj* also in the meaning of "a fortress", and for this use the Greek *pyrgos* might well have served as a model.

The twelve constellations bear, in Arabic, the names of *al-ḥamal, al-thawr, al-jawzā', al-saraṭān, al-asad, al-sunbula, al-zubānā, al-'aqrab, al-qaws, al-jady, al-dalw,* and *al-ḥūt,* respectively. When, from the end of the eighth century onwards, the Arabs became acquainted with Greek astronomical texts and started translating them, we find that for six of the twelve signs the translators coined new names which followed the Greek more literally. So, for *al-jawzā',* the translators introduced *al-taw'amān* ("the Twins"), for *al-sunbula: al-'adhrā'* ("the Virgin"), for *al-zubānā: al-mīzān* ("the Balance"), for *al-qaws: al-rāmī* ("*Sagittarius*"), for *al-dalw: sākibu al-mā'* ("the Pourer of Water"), and for *al-ḥūt: al-samakatān* ("the Two Fish"). From this we may conclude that the Arabs, in designating the twelve zodiacal constellations, followed a tradition which was partly different from that one adopted by the Greeks.

In several instances where the Greek images show the figures of persons carrying, or handling an object, the Arabic tradition shows the objects only, and not the persons belonging to them, as in *al-sunbula,* against the Greek Virgin, or in *al-qaws,* against the Greek *Sagittarius,* and in *al-dalw,* against the Greek Pourer of Water.

Most, if not all, of these twelve names already existed in Babylonian astronomy. It would seem, then, that two branches of transmission had developed for these twelve names: a northern one, to the Greeks, and a southern one, to the Arabs. When, a millennium later, Greek astronomy was translated into Arabic, the translators became aware of the discrepancies that had formed in the two branches, and tried to correct them by coining new Arabic designations.

In addition to the philological statements, it may be added that the two branches had developed differently also with regard to the astronomical data. At least four of the twelve constellations had changed their

places in the sky in Arabia. With the old Arabs *al-jawzā'*, which properly represents the "Twins" in the Zodiac, was actually located in the constellation of Orion; the Lion, with the Arabs, stretches in the sky from part of the Twins into the Virgin; *al-dalw*, standing for Aquarius, was located in Pegasus; and *al-ḥūt,* the Fish, was placed in Andromeda. These differences between designation and location caused a lot of misunderstandings in the literature, both in old times with the Arabs themselves, and nowadays with the orientalists.

Finally, we have to turn to the third group of astronomical objects, the planets. In antiquity, five of them were known, to which were added the sun and the moon, thus completing a number of seven. In Babylonia, they were called after certain deities, a sort of designation that was followed by the Greeks so that we today also speak of Mercury, Venus, Mars, Jupiter and Saturn. As for the Arabs, they obviously had names of their own making for the planets. These names seem to date back to old pre-Islamic times, for they are already used by the *jāhiliyya* poets,(21) and they are reported to have been worshipped by Arabian tribes in the pre-Islamic period.(22) Whereas for the sun and moon, two words of common Semitic origin are used, viz. *al-shams* and *al-qamar,* the five planets proper bear names of obviously pure Arabic origin: Mercury is *'uṭārid,* Venus is *al-zuhra,* Mars is *al-mirrīkh,* Jupiter is *al-mushtarī* and Saturn is *zuḥal.* (For the etymological explanation of these names I may refer to a recent study by Wilhelm Eilers.(23))

A special case has to be made for *al-mushtarī,* Jupiter. It has been found, though extremely rarely, that in certain Babylonian texts the planet Mercury was called ***Muš-ta-ri-lu.*** Though these two names, the Babylonian and the Arabic one, show a striking resemblance, it is not possible to decide whether at all, and what sort of, a relationship might exist between the two. As it seems possible to relate *al-mushtarī* to the Arabic verbs *shariya* and *ashrā* ("to shine"), it might well be of pure Arabic origin. The Babylonian name, on the other side, is used for another planet, and its reading is not safely established. So, in this state of knowledge, a relation between the two cannot safely be established.(24)

A word should still be added on the 28 lunar mansions, *manāzil al-qamar.* These mansions, as a complete system, originated in ancient India. It cannot be said with certainty when, and by which ways, it entered Arabia. The Arabs had developed a local system of so-called *anwā',* corresponding pairs of stars used in observing the seasons and fixing the dates of agricultural and similar activities. The names of many of these *anwā'* were already used in classical pre-Islamic poetry. When adopting the system of the 28 lunar mansions, the Arabs transferred the names of their *anwā'* to the lunar mansions, according to their localisation in the sky. As the reported translations of scientific works of the Indians into Arabic fall into the second half of the eighth century A.D., under the 'Abbāsid caliph al-Manṣūr, it must be assumed that the Arabs got their knowledge of the lunar mansions before that time, and by ways which are unknown to us.

To sum up, we can state that the material displayed in this paper shows several signs of relations between ancient Arabia and the neighbouring civilizations, though the nature of these relations cannot always be safely described.

In the old Arabic celestial nomenclature we find elements of common Semitic origin, such as the names of the sun and the moon; *al-shams* and *al-qamar.* One star name, *al-nisr,* is clearly identical with a similar Babylonian, and even Sumerian name; others bear more or less close relations to Babylonia. India is represented by the system of the 28 lunar mansions, and the Syriac neighbourhood by the name of Orion, *al-jabbār.* The zodiac is obviously related to Babylonia.

So, for the resemblances between the Arabic and the Babylonian nomenclatures, the question arises whether the parallels in nomenclature between the two originate in a common old Semitic heritage, or whether they are the result of cultural exchange. Taking into account the observations we have made concerning the constellations of the zodiac which obviously originated in Babylonia, which, then, were adopted

by the ancient Greeks, and which we find in Arabia also, it seems rather possible that the Arabs also had taken them from Babylonia. If this is true for the constellations of the zodiac, it might as well be the case with the other Arabic star names that show a resemblance to Babylonian, and sometimes equally to the Greek stellar nomenclatures. This accepted, the next question would be when, and by which ways, this astronomical knowledge of the Babylonians entered Arabia. That question, I regret to confess, cannot be answered in our present state of knowledge, due to the well known lack of written documents in Arabia before A.D. 500, among other reasons.

Notes

(1) See *e.g.*, Ibn Qutayba, *Kitāb al-Anwā'* (Hyderabad/Dn., 1956); al-Marzūqī, *Kitāb al-Azmina wa'l-Amkina,* (2 vols., Hyderabad/Dn., 1332); Ibn Manẓūr, *Kitāb Nithār al-Azhār* (Constantinople, 1298).

(2) P. Kunitzsch, *Untersuchungen zu Sternnomenklatur der Araber* (Wiesbaden, 1961).

(3) *Op. cit.*, 20f.

(4) *Op. cit.*, 21f.

(5) *Op. cit.*, 86f (nos. 194a and 195a).

(6) *Cf.* A. Deimel (ed.), *Šumerisches Lexikon,* Vol. 2, part iv; Gossmann, *Planetarium Babylonicum* (Rome, 1950), 1f. (no. 2).

(7) See A. Scherer, *Gestirnnamenbeiden bei indogermanischen Volkern* (Heidelberg, 1953), 120f., 126, 185.

(8) F. Hommel, in: *Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen* (Gesellschaft 45. 1891), 595f.

(9) *Cf.* Kunitzsch, *op. cit.*, 46 (no. 47).

(10) See Scherer, *op. cit.*, 124f., 183f.

(11) *Viz.*, **^{mul}*GAM*$_3$ = gamlu** ("scimitar"); see Gossmann, *op. cit.*, *Babyl.*, 19f. (no. 64).

(12) See Gossman, *op. cit.*, 58 (no. 142).

(13) *Cf.* Kunitzsch, *op. cit.*, 84 (no. 186).

(14) See Gossman, *op. cit.*, 108 - 112(no. 279).

(15) F. Hommel, *op. cit.*, 594f.

(16) *Ibid.*, 606, n. 4.

(17) *Ibid.*, 596f.

(18) *Ibid.*, 595.

(19) See E.W. Lane, *Arabic-English Lexicon, s.v. jbr;* also P. Kunitzsch, *Der Almagest. Die Syntaxis Mathematica des Claudius Ptolemäus in arabisch-lateinischer Uberlieferung* (Weisbaden, 1974), 194f., n. 145.

(20) Severus Sebeokht, *Traité sur les Constellations,* ed. and trans. by F. Nau, in: *Revue de l'Orient Chrétien* 27 (1929/30), 327ff. See translation p. 364 (=text, p. 357), and p. 377 (=text, p. 375).

(21) *Cf., e.g.,* Ibn Manẓūr, *Nithār al-Azhār,* 182, 182 – 183, 184. See also J. Henninger, "Uber Sternkunde und Sternkult in Nord und Zentralarabien", *Zeitschrift für Ethnologie* 79 (1954), 89 and nn. 9 – 11.

(22) *Cf.* Henninger, *op. cit.*, 93ff.

(23) W. Eilers, *Sinn und Herkunft der Planetennamen* (Sitzungsberichte Bayer. Akademie d. Wissenschaften, Philo. - Hist., Jahrg. 1975, Heft 5, München, 1976).

(24) See Gossmann, *op. cit.*, 113 (no. 287), 24b, below; W. Von Soden, *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes* 62 (1969), 83–86; Eilers, *Planetenname,* 84, n. 286.



X: CIVILIZATION: SELF-EXPRESSION.

A CONTRIBUTION ON THE SUBJECT.

The Origin of the Star Motifs on the Funerary Monuments of Arabia

Vincenzo Strika

In one of the most brilliant lectures of the First International Symposium, Ḥasan al-Bāsha mentioned some important funerary steles which were recently discovered in Saudi Arabia.*[(a)] On some of these stelae star motifs were represented, and during the discussion which followed the lecture, I tried to explain briefly the origin of this motif with special regard to Islamic art, although the star and the related motifs go back to pre-Islamic times and are found in many ancient civilizations, especially in Near Eastern countries. Their origin is linked on one hand to astrology and superstition and on the other to the symbolism of the resurrection. It was used isolated, or associated with other symbols, such as the tree of life and the cosmic egg, as well as animals, such as in the case of Madā'in Ṣāliḥ. In Mādā'in Ṣāliḥ culture we have some tombs, whose decoration is in some way related to these representations and demonstrates the high level which was reached by the inhabitants of the region, as well as their contacts with the surrounding civilizations. The origin of the star, as a symbolic representation, is very ancient, but the question is whether the motif has appeared independently or has evolved from the rosette, or vice versa. Both these motifs have appeared in very ancient times. In Palestine, for instance, from the Bronze age. It is also found in the famous horoscope of Antiochus of Commagene, linked to representations of lions, and is associated with kingship in Assyrian reliefs from the Iraq Museum in Baghdād. From Mesopotamia, which was its place of origin, or, at least, of its first important developments, the star and related motifs spread into Greece and Hellenistic cultures, and appeared in Roman art. The most interesting developments are found in Greece, where the motif is mostly associated with royal representations and funerary art. It is well known that, according to the Pytha- [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ty. A more evident meaning of protection is found in Roman and Jewish art. In the latter, it is found in the most varied situations, from numismatics to funerary art, although according to some authorities, it is derived from older representations, and from Arab art too. The most widespread use is of course in amulets and numismatics, while in Roman art it is mostly used in funerary art and coins.

More characteristic are the examples found in Sasanian culture, where the motif is sometimes considered a variant and development of seals. On Sasanian coins, a single star or a pair, five or six pointed, with or without a crescent, is used. Appearing on Sasanian crowns, the motif is linked with the symbolism of power. Of course, it is also found in minor arts. In Byzantine art, the most common use is in coins, where there is a great variety of star motifs, although the most commonly used ones are five or six pointed. Sometimes, it is associated with the crescent, while in Byzantine art it is mostly found in numismatics where it was used till the sixth century, when, during the period of Justinian, the star motif became more and more rare. In Byzantine Syria, which is a region of great importance for us, the motif is mostly found on the two sides of entrances, or on tombs, while in Christian art and architecture, the star and related motifs are used in the decoration of many churches, chapels and mausolea. Some interesting examples are from Kirkūk, Warak-Wankh, Māt Behnām monastery in North Mesopotamia, Mār Ya'qūb, Khiḍr Ilyās, etc.

The diffusion of star motifs in such a great number of examples in architecture and minor arts has been explained in different ways. According to Weigand it has no special meaning, namely, the star was merely decorative. This was, in some way, also the opinion of Watzinger and Ronzevalle; while Enno Littmann, and especially René Dussaud and Franz Cumont were of a totally different view, supporting its symbolical meaning. Anyway, the appearance of star motifs in such diffferent cultures and the continuity we find from prehistoric times till Islam is a further evidence that the star motif was something more than being decorative.

A more clearly symbolical character is found where the stars are two or three. The association of two elements is a common trend in many ancient civilizations, especially in Iranian cultures, but also in the Hellenistic world as, for instance, the twins of the Zodiac and the Dioscures, which were sometimes represented by stars. The most common image of antiquity is linked to the symbolism of the Sun and the Moon which, with their systematic appearing and disappearing, have suggested the idea of death and resurrection. A variant of the same motif could be the symbolism of Venus which was represented by two stars, the morning star and the evening star, which for a long while were considered two different astral bodies, till the Chaldeans, namely, the ancient Mesopotamian civilizations and later on Pythagoras, discovered that the two stars were the same planet. In ancient Mesopotamian cultures it was mostly represented as the two sides of the Sun.

The representation of two stars flanking a central motif, or person, king or god has appeared from the most ancient times, and in many cultures. It became more diffused in Near Eastern countries, and is found at least from the 9th century B.C. on the two sides of a goddess in Assyrian art, as well as in Luristan. In Mesopotamia it was frequently used on the two sides of the tree of life, as, for example, on Assyrian seals. In the Madā'in Ṣāliḥ culture, it is associated with the eagle, the well-known symbol of the sun, as in Anatolia and elsewhere. In Madā'in Ṣāliḥ, the stars are sometimes replaced by rosettes. In the Mediterranean area, it is found on a funerary inscription from the 1st century A.D. and on a tomb at Nēḥā in Lebanon on the sides of the portrait of the dead. It is also very frequent on the Palymra *tesserae* and Roman funerary art from which the motif passed to the Christian one.

Another symbolical representation was the cosmic egg, which is found in many ancient civilizations, in India, Indonesia, Egypt, Persia, Peru, Greece and Rome. According to this belief the world was conceived as two half-eggs, the upper one representing the sky, the lower the earth. Sometimes two stars were associated with the cosmic egg as, for instance, on a coin from the period of Augustus minted at Alexandria. It

seems that in this city the worship of the Dioscures was associated with the worship of Isis. In a curious representation on an Egyptian funerary stela, of the 10th century A.D., we find a very similar representation which could be related to this tradition, though the ancient meaning was probably lost. In all these representations, the star has five, six or more points. They are generally confronted to a central motif which could be a god, or a goddess, or the tree of life. As a matter of fact, the tree of life and related motifs, although mostly linked to the rites of fertility, have many implications with regard to the after life and resurrection, as well in the cosmological beliefs of the world-shape. In Mesopotamia, it was generally represented by a palm tree, sometimes also by a pine and a cedar, as well as by the vine. Later on it is found in Classical Roman art, and is especially evidenced in the late funerary stelae, although the trees are mostly different from the Mesopotamian ones, while in Christian art and architecture it is mostly represented by a branch of vine springing from a vessel. In Christian art too there are many variants. The development of this belief in pre-Islamic Arabic is probably related to these ancient traditions, as well as to the diffusion of rites and religious beliefs concerning the sacred tree in Arabia. It is found, for example, in the Ḥijāz, in the area of Najrān and in the Yaman. Later on during the Islamic period, the tree of life became a kind of palm-tree which is mostly found in the Arabian Peninsula, as well as in India. It is called *sidra* and is to be found on the right side of the Divine *'arsh*. Another belief which included the tree is the so-called "cosmic tree". According to it, this tree is situated on the top of a mountain in the middle of the earth.

We have mentioned all these examples because they are strictly related to cosmological ideas, and therefore in some way also with our problem. The astral character of religion in pre-Islamic Arabia has been emphasized by many scholars. The most common representation was a kind of trinity, where the moon was playing the role of "father", the sun that of "mother", and Venus that of "son". It is not surprising, therefore, to find it in the Madā'in Ṣāliḥ culture, where the astral motifs, although very different, are all related to the astral character of religion. Furthermore, we must emphasize that in the decoration of the façade of some Madā'in Ṣāliḥ tombs, the star motifs accompanied the eagle which was associated with the sun and the idea of transporting the soul to its origin. In other tombs two animals, probably lions, flank a six-pointed star inscribed in a circle, which could well be another symbol of the sun, since we know that lions were believed to guard the sun tree, while bulls were generally associated with the moon tree. The origin of the star motif found in Saudi Arabia goes back to these pre-Islamic representations, especially in what concerns the general idea of resurrection and, in consequence, funerary art and ideology. Unfortunately, the later developments in Islamic art are not a subject to be dealt with in the present symposium. Anyway, we have here another argument which demonstrates how Islamic civilization was not isolated from previous ones.

IX: CIVILIZATION: PASTORALISM, AGRICULTURE, IRRIGATION AND INDUSTRY.

A CONTRIBUTION ON THE SUBJECT.

Towards a Model of Cultural Evolution in Arabia*

Walter Dostal

From the study of different societies we perceive a very clear trend towards the development of civilization in various regions, e.g. in Mesopotamia, Egypt, India and China. The significance of these frequently called archaic civilizations – as being the essential foundations for further cultural evolution –, focuses our attention primarily and inevitably on the transformation-processes of tribal societies into complex urban societies, whereby the latter are considered as being the basis for the development of civilizations. In my paper, I shall make use of a model of cultural evolution to produce a better understanding of the cultural dynamics of these transformation-processes. I believe that it will not be necessary to discuss here the validity of such a model, since such constructions are indispensable for recognizing problems of cultural evolution which have remained hitherto untouched.

Before dealing with our main topics it seems to me desirable to draw attention to two problems:

1. The definition of the term "civilization"

2. The importance of irrigation and the writing-system from the point of view of recent research, for these two data were the main arguments for the origin of civilization in some anthropological theories.

In 1968 I produced the following definition of the term "civilization": "Civilization is the cultural realization of a state formation, which constitutes a complete new political and economical entirety of more than one urban community in the initial stage. In further developments new societies, new givers and takers, became incorporated by the extension of the state. These processes release cultural changes which mark the distinctive features of the different stages in the development of civilization."(1) Clearly we wish to emphasize not only the formation of the state as the basis of urban societies, but also the integration of cultural heterogeneous societies as the prerequisite for the origin of civilization.

First we are concerned here with the hydraulic hypothesis expounded by K.A., Wittfogel and adopted by other scholars such as J.H. Steward and D. Riberio.(2) The core of this hypothesis is the assumption of a causal interdependence of irrigation with the origin of the state, which might be considered, if we anticipated the recent studies, as falsified. Not only that irrigation is traced in very early cultures, which certainly belong to pre-state-societies, but also through recent studies, which clearly showed that the administrative problems connected with irrigation are solved on the prinicples of customary law of the tribes, and so it has become well established that the hydraulic hypothesis is untenable.(3) Through these results, the significance of irrigation with the corresponding administrative institutions in archaic civilizations is not diminished; what was abandoned was only the supposed primary causality of irrigation for the origin of the state. In summary, we had to understand the fact of irrigation as a result only of adaptation to the circumstances of nature.

Secondly, we are obliged to touch on the problem of the interdependency of the invention of writing-systems with the origin of civilization, a hypothesis which has been expounded since L.H. Morgan's *Ancient Society* by various scholars. Considering the validity of this assumption we reach the same conclusion with regard to the hydraulic hypothesis. This is proved by the fact that in the archaic civilizations of Egypt, Meso-

---

**Editor:*

Although the material of the model proposed here is modern, the relevance of the contribution to the subject of the symposium is seen in that the model may be useful in future studies of pre-Islamic Arabian society.

potamia and China, a writing-system has not to be seen in a causal relation to the formation of states.[4] Here we have to point out that this conclusion does not affect the importance of writing-systems in archaic civilizations, in which writing-systems had been constructed according to administrative and cultural needs.

After these short introductory remarks, we should turn our attention to the main subject under discussion here, the proposed model of cultural evolution in Arabia. First, we should make note of the economic stage of the societies under consideration. The model is based upon societies with productive economies. This signifies a limitation, meaning that the economic stage of hunting and gathering remains unconsidered. In the theoretical frame of the model, cultural evolution is conceived as a sequence of evolutive stages indicated by "cultural formations", which are the result of consecutive changes. The evolutive processes are seen as qualitative transitions from one "cultural formation" to another "cultural formation". The structure of a "cultural formation" is determined by a specific socio-economic pattern. This pattern is organized by the following constitutive elements:

1. Technological integration, signifying in which degree the members of a given society have a uniform technological knowledge and make use of it.

2. The claims of ownership of the means of production. This stands for the degree to which the members of a given society hold the means of production.

3. The quality of exchange of goods, whereby the forms of distribution – reciprocity and redistribution – are excluded.

The interdependency of these constitutive elements determines the features of the socio-economic pattern of a "cultural formation".

Besides these criteria, we revert in our reflections to the settlement pattern only in the sense that we consider the multi-tribal settlement pattern only in the pre-urban phase. Therefore, the settlement pattern not mentioned should be understood as a uni-tribal settlement inhabited by tribal groups of different sizes.

This abstract view raises the problem of which kind of processes are setting free changes of the socio-economic pattern and thereby causing the cultural evolution. I suppose that besides feasible endogeneous developments, the processes of diffusion of new technological knowledge should be taken more into consideration than the first. On the basis of data collected by me in the field, it is possible to demonstrate the important role of foreigners – as bearers of new technologies – in tribal societies. Foreigners are to be understood as those individuals or groups of different descent whose statuses are socially defined by the customary law as non-members of the tribal society concerned.

For elucidation of the naming of the "cultural formations", it seems to be necessary to note that it follows the practice of archaeologists to name a culture after the place-name of its first discovery. Therefore, the "cultural formations" are named by these societies studied in the field.[5]

In the model submitted here, the cultural evolution is divided into three main phases (Fig. 42):

I. *The pre-urban phase,* formed out of the Shiḥūḥ-Formation, the B. Shumailī-Formation, the B. Ḥushaish-Formation and the Khatt-Formation.

II. *The urban phase* with the Ṣan'ā'-Formation and the Tarīm-Formation.

III. *The civilization phase.*

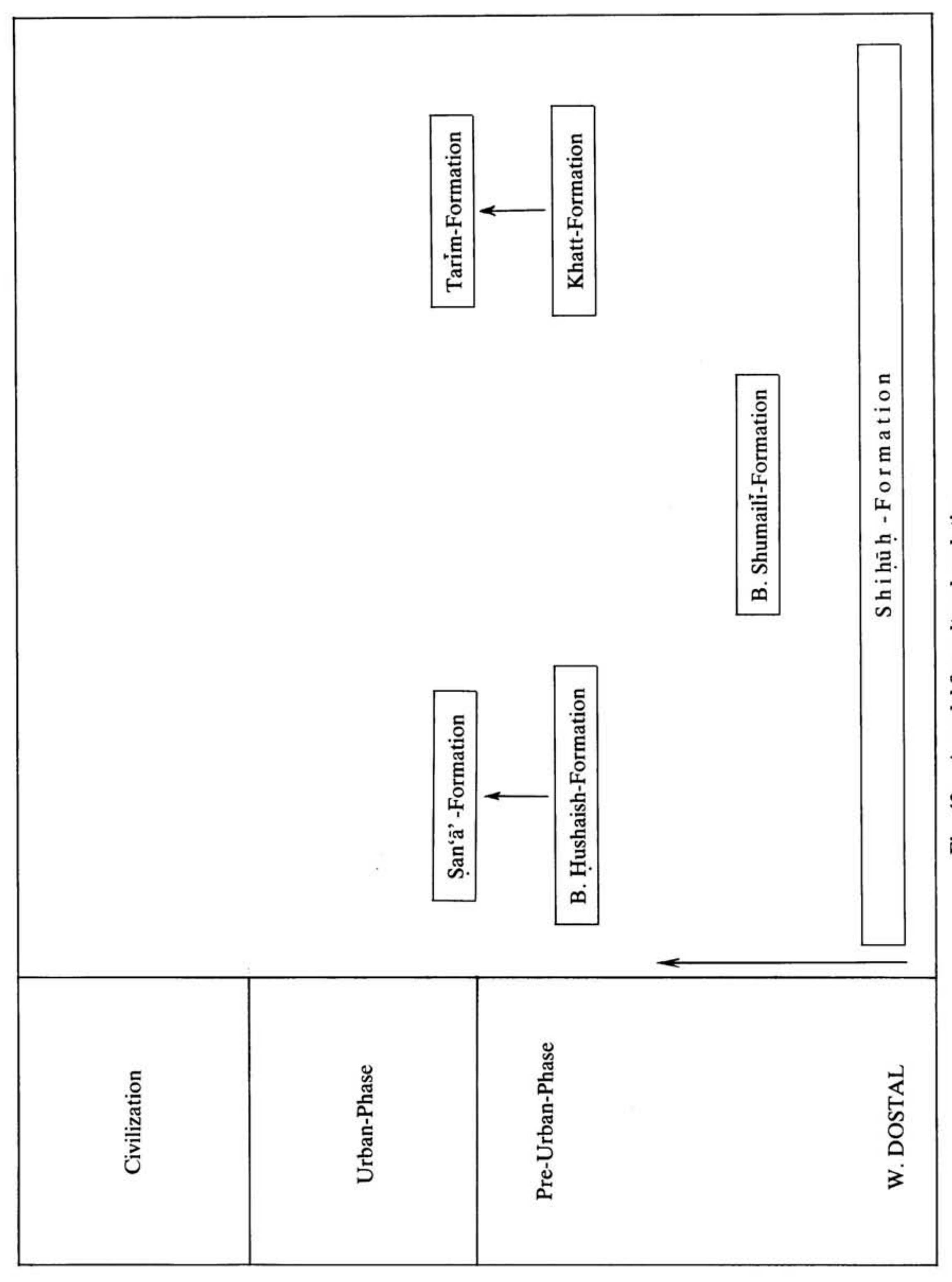


Fig. 42: A model for cultural evolution.

I. Pre-urban Phase

Shiḥūḥ-Formation(6)

Egalitarian society with tribal democracy; cereal and date cultivation (two-men hoe) and animal husbandry, fishing supplies of subsistence; besides rainfall-cultivation irrigation is common; all members of the society have the same (uniform) technological knowledge; through homogeneous productivity, shortages are balanced by reciprocity; therefore, no weekly market exists within the tribal territory; surpluses (dates, goats) are sold today in external markets; in previous time surpluses were exchanged with other societies.

Unknown technologies (e.g. smith-work) are carried out by foreigners living scattered within the tribal territory according to the fundamentls of tribal law. The common social unit of foreigners is the nuclear family.

All members of the tribe hold means of production. The right of property provides common property of the lineages; the individual rights of the genitors of minimal lineages had been taken into possession by individual efforts.

B. Shumailī-Formation(7)

Like the Shiḥūḥ-Formation, but specializations of some minimal lineages of the society in pottery; this is the initial stage of "farmer-craftsmen".

In pre-monetary times, the pottery-products were also exchanged outside the tribal territory, which caused a change towards a better economic status of these specialists.

B.Ḥushaish-Formation(8)

The social structure is like the Shiḥūḥ-Formation, but co-residence with underprivileged groups of previous foreigners. Members of the tribe have only uniform technological knowledge in agriculture (plough-agriculturalists); rainfall-cultivation and irrigation.

The process of technological specialization among members of the tribe gives rise to the diversity of "farmer-craftsmen"; social differentiation of occupations between those carried on by the "farmer-craftsmen" and those by the underprivileged groups causes the division into socially high-ranking occupations.

Through inequality of production and a strong tendency towards autarchy of the tribe, a weekly market is established within the tribal area. There are property rights on the means of production like the Shiḥūḥ-Formation (underprivileged groups are excluded).

Khatt-Formation(9)

Multi-tribal settlement with quarters in which only members of the same tribe reside together; settlement is the residency of the shaykh of the politically dominant tribe. Permission of residency to the groups of other tribes granted under the conditions of the *ḥāl al-salām* regulation regarding inter-tribal relations as defined in tribal law. All members of the tribal groups have the same technological knowledge regarding dates – and cereal cultivation, but make use of foreigners as specialists (plough men).

Centres of trade (shops) are established within the settlement; traders are tribesmen as well as foreigners.

II. Urban-phase

Ṣan'ā'-Formation

Town probably developed from a market-centre; quarters inhabited in the beginning by groups of the same tribe, with time this pattern was changed; social stratification into classes was fixed on the principles of social differentiation of the B. Ḥushaish-Formation, but developed to great diversity.

The high degree of technological specialization gives rise to various crafts.

The market is the centre of production and trade; craftsmen and traders are organized in alliance-groups; among the craftsmen, the alliance-groups have the function of guaranteeing an equal distribution of the means of production.

Tarīm-Formation

The town probably developed from a settlement of the Khatt-Formation-type. The quarter-organization is an essential determinant in the social structure of the town inhabitants in contrast to the Ṣan'ā'-Formation.

The social stratification tends more towards occupational classes; alliance-groups among craftsmen are less.

Notes

(1) W. Dostal, "Zum Problem der Stadt-und Hochkultur im Vorderen Orient: Ethnologische Marginalien", *Anthropos* 63, 243.

(2) K.A. Wittfogel, *Die Orientalische Despotie. Eine vergleichende Untersuchung totaler Macht;* J.H. Steward, *Irrigation Civilization. A Comparative Study;* D. Ribeiro, *Die Zivilisatorische Prozess.*

(3) W.P. Mitchell, "The Hydraulic Hypothesis. A Reappraisal", *Current Anthropology* 14, 532-534; K.W. Butzer, *Early Hydraulic Civilization in Egypt. A Study in Cultural Ecology;* M.E. Masson and V.M. Masson, "Archaeological Cultures of Central Asia of the Aeneolithic and Bronze Age", *Cahiers d'Histoire Mondiale* V, no. 1, 33; A.M.A. Maktari, *Water Rights and Irrigation Practices in Lahj. A Study of the Application of Customary and Sharī'ah Law in South-West Arabia,* 10, 33 *passim,* 62.

(4) C.T. Hodge, *Ritual and Writing. An Inquiry into the Origin of Egyptian Script;* S. Schott, *Hieroglyphen. Untersuchungen zum Ursprung der Schrift;* K. Sethe, *Vom Bilde zum Buchstaben. Die Entstehungsgeschichte der Schrift;* G.R. Driver, *Semitic Writing from Pictography to Alphabet.*

(5) The detailed dates are provided for a book still unfinished. By the author and on the Shiḥūḥ see "The Shihūh of Northern Oman: A Contribution to Cultural Ecology", *Geographical Journal* 138, 1-7; on the B. Hushaish see "Sozio-ökonomische Aspekte der Stammesdemokratie in Nordost-Yemen", *Sociologus* 24, H-1, 1-15; on Tarīm see *Handweker und Handwerkstechniken in Tarim (Südarabien, Hadramaut);* and on San'ā' see *Der Markt von Ṣan'ā'.*

(6) The data material relates to the Shiḥūḥ living in the Ra's al-Khayma territory (U.A.E.).

(7) Living in Ra's al-Khayma territory.

(8) Living north-west of Ṣan'ā'.

(9) In Ra's al-Khayma territory.

Bibliography

BUTZER, K.W.,
Early Hydraulic Civilization in Egypt: A Study in Cultural Ecology (Chicago-London, 1976).

DOSTAL, W.,
"Zum Problem der Stadt- und Hochkultur im Vorderen Orient: Ethnologische Marginalien", *Anthropos* 63 (1968), 227-260.

Handwerker und Handwerkstechniken in Tarim (Südarabien, Hadramaut). Publikationen zu wissenschaftlichen Filmen Sektion Volkerkunde - Volkskunde Erganzungsband 3 (Gottingen, 1972).

"The Shihūh of Northern Oman: A Contribution to Cultural Ecology", *Geographical Journal* 138 (1972), 1-7.

"Sozio-ökonomische Aspekte der Stammesdemokratie in Nordost-Yemen", *Sociologus* 24, H.1 (1974), 1-15.

Der Markt von San'ā' (Österreichische Akademie der Wissenschaften Phil. - Hist. Kl. Sitzungsberichte, 345. Band Veröffentlichungen der Arabischen Kommission Bd. 1 Wien, 1979).

DRIVER, G.R.,
Semitic Writing from Pictography to Alphabet (London, 1976).

HODGE, C.T.,
Ritual and Writing. An Inquiry into the Origin of Egyptian Script (Lisse, 1975).

MAKTARI, A.M.A.,
Water Rights and Irrigation Practices in Lahj. A Study of the Application of Customary and Shari'ah Law in South-West Arabia (Cambridge: University of Cambridge, Oriental Publications, No. 21, 1971).

MASSON, M.E. and MASSON, V.M.,
"Archaeological Cultures of Central Asia of the Aeneolithic and Bronze Age", *Cahiers d'Histoire Mondiale* V, Nr. 1 (1959), 15-40.

MITCHELL, W.P.,
"The Hydraulic Hypothesis. A Reappraisal", *Current Anthropology* 14 (1973), 532-534.

MORGAN, L.H.,
Ancient Society (New York, 1877).

RIBEIRO, D.,
Der Zivilisatorische Prozess (Frankfurt am Main, 1971).

SCHOTT, S.,
Hieroglyphen. Untersuchungen zum Ursprung der Schrift (Wiesbaden, 1950).

SETHE, K.,
Vom Bilde zum Buchstaben. Die Entstehungsgeschichte der Schrift (Hildesheim, 1964).

STEWARD, J.H. (ed.),
Irrigation Civilization. A Comparative Study (Social Sciences Monograph 1. Social Science Section; Department of Cultural Affairs, Panamerican Union. Washington, 1955).

WITTFOGEL, K.A.,
Die Orientalische Despotie. Eiene vergleichende Untersuchung totaler Macht (Ullsteinbuch Nr. 3309. Frankfurt-Berlin-Wien, 1977).



VIII. CIVILIZATION: TRADE AND COMMERCE.

CONTRIBUTIONS ON THE SUBJECT.

The Role of Eastern Arabia in the Arabian Gulf Trade of the Third and Second Millennia

Mark Speece

From very early times, Mesopotamia had flourishing commercial relations with several countries reached via the Arabian Gulf. This trade is particularly well documented in cuneiform sources from the last half of the third and the beginning of the second millennium B.C. In addition, recent archaeological work in eastern Arabia is adding much to the previously Mesopotamia oriented knowledge of this trade. It is now possible to begin examining eastern Arabia's role in these economic processes in some detail. Two ancient Arabian lands served very different functions. Dilmun was a centre of transit trade, which eventually became the hub co-ordinating the entire commercial network in the Gulf. Magan, on the other hand, was essentially an underdeveloped exporter of natural resources. These two countries, along with Melūhha and Mesopotamia itself, were members of the delicately balanced Arabian Gulf trade network.

We begin with a survey of the textual evidence for the Arabian Gulf trade. Only a few sentences need to be devoted to reviewing the identification of the major countries which Mesopotamian traders reached via the Gulf. Dilmun was already recognized as modern Baḥrayn in the early years of this century.(1) Archaeological work by Cornwall in the early 1940's strongly supported this view,(2) and the evidence provided by the Danish excavations beginning in 1953 has left very little doubt.(3) The island of Baḥrayn was, indeed, the major centre of Dilmun, although this ancient land also included parts of the Ḥasā coast and Faylaka island off Kuwayt.

Magan is the second country mentioned in textual accounts of the Gulf trade. The general consensus is that it is somewhere near the Straits of Hormuz, but the exact location is still disputed. The main controversy is over which side of the Arabian Gulf Magan occupied. Many scholars place it in the area of Baluchestan,(4) while others look to 'Umān.(5) Good evidence supports each of these arguments, so it might seem that in fact, Magan occupied both sides, and included southeast Iran and 'Umān.(6) It is hardly necessary to remind scholars interested in Arabia that such a situation is not at all unknown in the history of the area. Many times 'Umān controlled areas across the Gulf, or Iran dominated part of 'Umān.(7)

Melūhha was the third major trading country. Generally considered to be the Indus civilization,(8) it falls outside the main focus of this paper. However, Arabia's role in the trade network cannot be studied in isolation from the other members of the system. Therefore, Melūhha, as well as Mesopotamia, must be examined also. Since it is not the purpose here to reopen debate on the exact location of Dilmun or Magan, we will accept the identification of Baḥrayn as Dilmun, 'Umān as part of Magan, and the Indus valley as Melūhha. With this starting point, we will turn our attention to the evolution of the Arabian Gulf trade, and of the role of eastern Arabia in this network.

Dilmun is first attested during the time of Ur-Nanshe (*ca.* 2520 B.C.),(9) in a text in which Dilmun ships brought wood from foreign lands to Mesopotamia.(10) Throughout the first dynasty of Lagash (*ca.* 2600-2355), trade relations with Dilmun continued. Wheat, barley, flour, oil, textiles, cedar wood, and silver were exported from Mesopotamia to Dilmun. Products obtained from Dilmun included copper, wood, and dates.(11) During the Akkadian period (*ca.* 2340-2198), textual evidence indicates that Mesopotamia traded with three countries via the Arabian Gulf. Sargon boasts that ships from Melūhha, Magan, and Dilmun were docked at Agade, and another text of the Akkadian period mentions a ship from Melūhha.(12) During this and the following period, the texts provide more information on the origins of some of the products Mesopotamia imports. From Melūhha comes a black wood (probably ebony), gold, carnelian, and lapis lazuli. Magan supplies diorite, other kinds of stone and wood.(13) The direct trade with all three regions demonstrated in these texts is an important consideration for the first phase of the trade. We also see that the coun-

tries of eastern Arabia are already playing their characteristic roles. Dilmun is involved in transit trade, since none of the exports from Dilmun could have been produced in Baḥrayn. In fact, the goods are typical products of Magan and Melūhha. Magan is already playing the role of a primary producer.

At some time between the reign of Gudea of Lagash (*ca.* 2144-2124) and the Third Dynasty of Ur (*ca.* 2111-2003), trade patterns shifted, or were disrupted. Ur-Nammu claimed to have restored trade with Magan.[14] During Ur III, direct trade continues between Mesopotamia and Dilmun and Magan, following the patterns of the earlier phase. Mesopotamian exports include textiles, leather, sesame oil and barley. For example, one text mentions a load of barley bound for Magan. Another records receipt of a cargo of wool by the captain of a ship bound for Dilmun.[15] The most common import is copper, direct from Magan. Still another text mentions a cargo of wool, textiles, oil, and leather, to be put on a ship for Magan. These goods are to be exchanged for copper.[16] Other imports indicated were various stones, ivory and red ochre.[17] In these Ur III texts, direct contact with Melūhha can no longer be seen. However, storehouse records also show that other Melūhhan products, such as woods, gold, carnelian, lapis lazuli, and various items manufactured from these materials, were still present during the Ur III period.[18]

Messengers from Dilmun and Magan are also mentioned during the period.[19] Some people are also designated as Melūhhans, however no contact with Melūhha is shown. The texts mentioning these people indicate that Melūhhans are neither in contact with Melūhha nor engaged in trade activities. Rather, they have been absorbed into Mesopotamian society and are indistinguishable from any other villagers.[20] During this second stage, then, contact with the farthest country, Melūhha, has been lost. Mesopotamia must now obtain Melūhhan products through Dilmun and Magan. The view of Magan as a raw materials exporter is further reinforced by the knowledge that copper, one of Mesopotamia's most important imports, comes from there.

In the following Isin-Larsa, or the early Old Babylonian, period (*ca.* 2000-1763), direct contact was only maintained with Dilmun. Imports still included copper, bronze, gold, stone, woods, carnelian, lapis lazuli, pearls, and manufactured objects in all of these materials.[21] But these products of Magan and Melūhha are now obtained by trading with Dilmun. In particular, a group of texts recording transactions of a copper dealer show that copper was obtained from Dilmun.[22] Texts also indicate that people from Dilmun still travelled throughout Mesopotamia during the period.[23] Thus, Dilmun had gained control of the Arabian Gulf trade. All of the products of Magan and Melūhha came through that entrepot.

The archaeological record confirms the trade shown in the texts, as well as giving us some insight into the nature of these regions. Several artifacts which conclusively show contacts during the periods for which the Gulf trade is documented should be reviewed. Years ago, Durrani recognized that a certain type of stone vase found at Indus sites and in Mesopotamia in Early Dynastic context (3000-2340) shows contacts between these two areas.[24] Fragments of this type of vase have also been found at Faylaka and in south-east Iran. The stone ware was produced at sites in south-east Iran, including Tepe Yahya, where workshop areas have been found.[25]

A distinctive type of stamp seal is one characteristic feature of the Dilmun culture. Hundreds of these stamp seals, and workshops for their production, have been found on Faylaka and Baḥrayn.[26] A number of these seals are known from Mesopotamian contexts, and were recognized by Gadd in 1932 to show contacts with the Indus valley.[27] The seals found *in situ* are dated to the periods between Early Dynastic II-III (*ca.* 2700-2300) and Isin-Larsa of Mesopotamia. Closer dating is provided by a tablet from the tenth year of Gungunum, a king of Larsa (*ca.* 1923); it bears the stamped impression of one of these seals.[28] At Tepe Yahya several were discovered in levels corresponding to the Early Dynastic III of Mesopotamia,[29] while one has turned up at the Indus port of Lothal, although not in a datable context.[30] In addition to the evidence of these 'Dilmun' seals, several Mesopotamian cylinder seals show contacts. Two from the Akkadian period

were found on Faylaka, one of Isin-Larsa style on Baḥrayn,(31) and five cylinder seals have been found in the Indus civilization.(32)

Near the gates of the Dilmun city on the north coast of Baḥrayn excavators found sets of weights which are of the same sizes and ratios as those used in the Indus valley. One cuneiform text includes the conversion factor from Dilmun to Mesopotamian weights. The Dilmun system described in the text is in fact the same system found on Baḥrayn.(33) The island must have been receiving quite a large volume of goods from India to have been using the Indus weight system. Likewise, Mesopotamia's familiarity with these weights shows close contact with the area.

Many of the objects found in Dilmunite grave mounds and in the temple on Baḥrayn are exactly those mentioned in the cuneiform texts. For example, the second stage of the temple sequence on Baḥrayn, dated to the mid-third millennium, has produced copper objects, beads of carnelian and lapis lazuli, a gold sheet, and fragments of ivory objects.(34) Dilmunite grave mounds show that such things were commonly placed with human remains.(35) Also, in 'Umān, carnelian and lapis lazuli beads and copper implements have come to light.(36) Prehistoric discoveries further demonstrate that Mesopotamian-Arabian Gulf connections existed long before the first textual references to the trade. For example, Jamdat Naṣr pottery has been found both in Baḥrayn and in 'Umān.(37) Even earlier, there were a number of 'Ubaid sites in and near the coastal areas of Ḥasā.(38)

In addition to this archaeological confirmation of trade, field work also shows something of the relative level of development of both Dilmun and 'Umānī Magan. The people of Dilmun lived in a highly urbanized society. They had a large city on Baḥrayn, surrounded by a massive wall. Also on the island, but outside of the city, they had built a series of large temples. A second Dilmunite city is found on Faylaka, while a third probably lies under the present town on Tārūt Island. Archaeological surveys in 'Umān, on the other hand, show that in the third millennium B.C. it was a country of villages, situated on the courses of wadis. Very little urban development can be seen in 'Umān in this period.(39) This fits well with the view of Dilmun as a commercial centre and Magan as a less developed supplier of raw materials.

Before the specific role of any participant in the Arabian Gulf trade can be examined, it is necessary to look at the system as a whole. We can see at each 'end' of this network highly developed societies: the Indus Valley and Mesopotamia. These two civilizations were rich in agricultural produce, and were industrial centres, producing a wide variety of manufactured goods. Two functions of Mesopotamia and the Indus, with respect to the Gulf trade network, were to supply agricultural surplus, and to produce industrial goods for circulation within the system. Mesopotamia exported grains, and also such manufactured items as textiles and various finished garments. The Indus shows a similar situation. Export of agricultural goods cannot be documented, but many types of manufactured objects came from there. Since the Arabian Gulf trade cannot have been isolated from other trade networks, it should be expected that each of these 'ends' may have also served a third function. They were connecting points with other trade systems. That Mesopotamia was in fact a middleman through which goods from other networks entered the Arabian Gulf trade can be shown by the cedar exported by Lagash.

Between Mesopotamia and the Indus Valley, in the areas we are most concerned with here, two further types of civilization developed, which offered the trade network very different functions. 'Umān (actually, all of Magan) was an under-developed area which furnished the system its natural resources, such as copper, stone, and wood, which the other areas were lacking. The primary function which Baḥrayn was able to provide to the Arabian Gulf trade was service. Dilmun was in charge of co-ordinating the trade network, and administering the flow of goods. In the first phases, it controlled only part of this service market, and each of the other countries duplicated the functions which Dilmun offered. As the network evolved, these duplicated functions were delegated to the one country which was most strategically located for fulfill-

ing them. Dilmun eventually monopolized the service functions in the Gulf trade, and developed into a port-of-trade.

In addition to the various goods and services offered by each country, it is necessary to mention a further function which they all provided in some form. This is consumption. A good is not exchanged simply by putting it on the market. It must also be bought. A trade network does not exist because a number of areas have each offered various goods and services. The network must balance this offering with the consumption of each of these goods and services. In the final phase of the Arabian Gulf trade we have circulating within the system agricultural surplus, industrial goods, raw materials, and services to facilitate the exchange of these goods.

Mesopotamia was a consumer of foreign manufactured goods, of raw materials, and of services. The Indus must have shown the same pattern, although only its use of Dilmun's services can at present be well documented. Magan was a consumer of manufactured items and of the services. Dilmun itself consumed manufactured goods. In addition, this great commercial centre, with its cities and very little agricultural hinterland, must also be seen as the primary destination of the agricultural goods circulating within the network.

It is possible to look at Dilmun as a case study in the development of a port-of-trade institution. Usually these are thought to have arisen as neutral meeting places for trade or as processing centres for goods traded between differing ecological zones.(40) The picture that emerges for Dilmun is somewhat different. In the first phase of the Arabian Gulf trade, it is of course involved in transit trade of products from Magan and Melūhha. However, there were also direct trade relations between Mesopotamia and these latter two countries, without any need for a port-of-trade. In the second phase, during the Ur III period, Mesopotamia's direct contact with Melūhha was lost. Melūhhan goods were then passing through Dilmun and possibly Magan. The third phase shows that all Arabian Gulf trade is shipped through Dilmun. Thus the emergence of Dilmun as a true port-of-trade seems to be the result of evolution towards a more efficient economic structure needed to process an increasing flow of goods. The highly urbanized society of Dilmun flourished by taking advantage of its strategic location and was able to take over port-of-trade functions as the need for them arose.

Magan is a completely different situation, and may be looked at as a test of a model which Kohl recently applied to the earlier phases of contact between Mesopotamia, the Indus Valley, and south-east Iran.(41) The basic model is one of highly developed, agriculturally productive, but resource poor 'lowland' areas, which traded with resource rich but more backward subsistence economy 'highland' areas. As trade contacts increased, these lowland areas became dependent on the highlands for their resources, while the highland areas in turn began to specialize in supplying these resources. This caused a decline of the subsistence economy, and the highlands became dependent on the agricultural surplus of their lowland trading partners. In addition, specialization engendered social stratification and the appearance of elites in the highlands, causing increased demand for luxury goods manufactured in the more advanced areas.

Magan is certainly known to have been primarily a supplier of raw materials, especially copper and stone, including diorite. 'Umān does show extensive copper deposits, as well as third millennium villages which engaged in smelting copper.(42) Diorite and other stone used in stonework are known from its mountains.(43) Third millennium 'Umān does seem to be a village culture, with no urban development.(44) However, the villages which show evidence of copper smelting do not show any signs of specialization in this activity to the detriment of other aspects of their economy. In fact, they are situated in exactly the same positions with respect to agricultural land as are other third millennium villages of 'Umān. Were they specializing in producing copper, they would more likely have been situated next to the copper deposits, as were villages of the Islamic period.(45) It is not likely, then, that the society based on small agricultural villages in 'Umān was in any particular need of Mesopotamian agricultural surplus.

Thus, we can reconstruct for the Arabian Gulf in the third millennium a delicately balanced international trade network. Dilmun's prosperity was a direct result of having had a part in this trade, and Magan's development can be understood at least partially as stemming from its role in the system. Given this complex network of interdependence, it is evident that disruption at any particular point would have had repercussions throughout the whole system. So little is known of the Gulf trade after the Isin-Larsa period that it is usually assumed that the trade network collapsed. It is probable that the collapse of the Indus civilization and the general decline in Mesopotamia after this period is because trade ceased. We can only hope that future research will continue to be directed toward this and all other aspects of commercial interaction in the Arabian Gulf.

Notes

(1) B. Meissner, "Tilmun," *OLZ* 20 1917), 201-203.

(2) P. Cornwall, "Ancient Arabia: Explorations in Hasa, 1940-41", *G.J.* 107 (1947), 28-50, *Dilmun: The History of Bahrain Island Before Cyrus* (Ph.D. dissertation, Harvard, 1947), "On the Location of Dilmun", *BASOR* 103 (Oct. 1946), 3-11,"The Tumuli of Bahrain", *Asia and the Americas* (Apr. 1943), 230-234.

(3) Field reports in *Kuml*, 1954-1970; *cf.* also G. Bibby, *Looking for Dilmun* (New York: Knopf, 1969).

(4) J. Hansman, "Periplus of Magan and Meluhha", *BSOAS* 36 (1973), 554-587.

(5) I. Gelb, "Makkan and Meluhha in Early Mesopotamian Sources", *RA* 64 (1970), 1-8.

(6) E.C.L. During Caspers, "R. Thapar's Dravidian Hypothesis for the Locations of Meluhha, Dilmun, and Makan", *JESHO* 21 (1978), 113-145.

(7) For example, Persia ruled 'Umān during the Achamenid and Sassanid dynasties. 'Umān ruled coastal areas of Iran in the 19th and 20th centuries. *Cf.* D. Hawley, *Oman & Its Renaissance* (London: Stacy International, 1977), 17, 43.

(8) During Caspers, *op. cit.* (1978).

(9) All dates are taken from: *Fischer Weltgeschichte, Bd. 2, Die Altorientalischen Reiche I,* Zeittafel II, 60, Zeittafel III, 92, and Zeittafel IV, 130-131.

(10) *VAB* I, 2-3; text in S.N. Kramer, "The Indus Civilization and Dilmun, the Sumerian Paradise Land", *Expeditions* 6 (1964), 49.

(11) Cornwall, *op. cit.* (1946), 8-9; "Two Letters from Dilmun", *JCS* 6 (1952), 137-145; W.F. Leemans, *Foreign Trade in the Old Babylonian Period* (Leiden: Brill, 1960), 116.

(12) E. Weidner, "Das Reich Sargons von Akkad", *AFO* 16 (1952), 7; Leemans, *op. cit.*, 160.

(13) Leemans, *op. cit.*, 11-12; Weidner, *op. cit.*, 7.

(14) A.L. Oppenheim, "The Seafaring Merchants of Ur", *JAOS* 74 (1954), 14.

(15) **ITT II 776; UET III 1507;** both in Leemans, *op. cit.*, 22.

(16) **UET III 1511;** Leemans, *op. cit.*, 19f.

(17) Leemans, *op. cit.*, 18-22; Oppenheim, *op. cit.*, 13-15.

(18) Leemans, *op. cit.*, 18, 161.

(19) *Ibid*, 139-140.

(20) S. Parpola, A. Parpola, and R. Brunswig, "The Meluhha Village. Evidence for Acculturation of Harappan Traders in Late Third Millennium Mesopotamia?", *JESHO* 20 (1977), 150-154.

(21) Leemans, *op. cit.*; Oppenheim, *op. cit.*

(22) Leemans, *op. cit.*, 36-47; Oppenheim, *op. cit.*

(23) Leemans, *op. cit.*, 140-142.

(24) F. Durrani, "Stone Vases as Evidence of Connection Between Mesopotamia and the Indus Valley", *Ancient Pakistan* 1 (1964), 51-96.

(25) B. de Cardi, "The Bampur Sequence in the 3rd Millennium BC", *Antiquity* 41 (1967), 39; *cf.* most recently P.L. Kohl, "The Balance of Trade in Southwestern Asia in the mid-Third Millennium BC", *CA* 19:3 (Sept. 1978), 463-492.

(26) P.V. Glob, "Arkaeologiske Undersøgelser i fire Arabiske Stater", *Kuml* (1959), 239; Bibby, *op. cit.* (1969), 263; P. Mortensen, "Om Barbartemplets Datering", *Kuml* (1970), 396.

(27) C.J. Gadd, "Seals of Ancient Indian Style Found at Ur", *Proceedings of the British Academy* 18 (1932), 191-210.

(28) B. Buchanan, "A Dated Seal Impression Connecting Babylonia and Ancient India", *Archaeology* 20 (1967), 104-107; Buchanan and W. Hallo, "A Persian Gulf Seal on an Old Babylonian Mercantile Agreement", *Studies in Honor of Benno Landsberger* (University of Chicago Press, 1965), 199-209.

(29) C.C. Lamberg-Karlovsky, "The Proto-Elamite Settlement at Tepe Yahya", *Iran* 9 (1971), 91-94.

(30) S.R. Rao, "A 'Persian Gulf' Seal from Lothal", *Antiquity* 37 (1963), 96-99.

(31) Bibby, "Arabiens Arkaeologi", *Kuml* (1965), 148; Mortensen, *op. cit.*, 396.

(32) M. Wheeler, *The Indus Civilization* (3rd ed., Cambridge University Press, 1968).

(33) Bibby, ". . .eften Dilmun norm", *Kuml* (1970), 345-353.

(34) Moretnsen, *op. cit.*

(35) Bibby, "Fem af Bahrains Hundrede Tusinde Gravhøje", *Kuml* (1954), 135-141.

(36) K. Frifelt, "On Prehistoric Settlement and Chronology of the Oman Peninsula", *East & West,* no. 25 (1975), 359-424.

(37) During Caspers, "Cultural Concepts in the Arabian Gulf and the Indian Ocean. Transmissions in the Third Millennium and Their Significance", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 6 (1976), 16; During Caspers, "New Archaeological Evidence for Maritime Trade in the Persian Gulf During the Late Protoliterate Period", *East & West,* no. 21 (1971), 21-44; Frifelt, "A Possible Link Between the Jemdet Nasr and the Umm an-Nar Graves of Oman", *JOS* 1 (1975), 57-80; Jamdat Naṣr in Mesopotamia is *ca.* 3100-2900. Cf. W. W. Hallo and W.K. Simpson, *The Ancient Near East* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1971).

(38) A.H. Massry, *Prehistory in Northeast Arabia: The Problem of Interregional Interaction,* Field Research Projects, Coconut Grove, Miami, 1974; 'Ubaid in Mesopotamia is *ca.* 4300-3500, *cf.* Hallo and Simpson, *op. cit.,* 17.

(39) M. Tosi, "Notes on the Distribution and Exploitation of Natural Resources in Ancient Oman,", *JOS* 1 (1975), 205; A.J. Hastings, J. Humphries, and R. Meadow, "Oman in the Third Millennium BCE", *JOS* 1 (1975), 15.

(40) R.B. Revere, "'No Man's Coast': Ports of Trade in the Eastern Mediterranean", in: Polanyi, ed., *Trade and Market in the Early Empires* (Glencoe, Ill.: Free Press, 1957), 52.

(41) Kohl, *op. cit.*

(42) G. Goettler, N. Firth, and C. Huston, "A Preliminary Discussion of Ancient Mining in the Sultanate of Oman", *JOS* 2 (1976), 43-56.

(43) During Caspers, *op. cit.* (1971), 33.

(44) Tosi, *op. cit.,* 205.

(45) Hastings, *et. al., op. cit.,* 12.

Bibliography

BIBBY, G.,

"... eften Dilmun norm", *Kuml* (1970), 345-353.

Looking for Dilmun (New York: Knopf, 1969).

"Arabiens Arkaeologi", *Kuml* (1965), 133-152.

"Fem af Bahrains Hundrede Tusinde Gravhøje", *Kuml* (1954), 116-141.

De CARDI, B.,

"The Bampur Sequence in the 3rd Millennium BC", *Antiquity* 41 (1967), 33-41.

BUCHANAN, B.,
"A Dated Seal Impression Connecting Babylonia and Ancient India", *Archaeology* 20 (1967), 104-107.

BUCHANAN, B. and HALLO, W.,
"A Persian Gulf Seal on an Old Babylonian Mercantile Agreement", *Studies in Honor of Benno Landsberger* (University of Chicago Press, 1965), 199-209.

CORNWALL, P.,
"Two Letters from Dilmun", *Journal of Cuneiform Studies* 6 (1952), 137-145.

"Ancient Arabia: Explorations in Hasa, 1940-41", *Geographical Journal* 107 (1947), 28-50.

Dilmun: The History of Bahrain Island Before Cyrus (Ph.D. dissertation, Harvard, 1947).

"On the Location of Dilmun", *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 103 (Oct. 1947), 3-11.

"The Tumuli of Bahrain", *Asia and the Americas* (Apr. 1943), 230-234.

CASPERS, DURING E.,
"R. Thapars's Dravidian Hypothesis for the Location of Meluhha, Dilmun, and Makan", *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 21 (1978), 113-145.

"Cultural Concepts in the Arabian Gulf and the Indian Ocean. Transmissions in the Third Millennium and Their Significance", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 6 (1976), 8-39.

"New Archaeological Evidence for Maritime Trade in the Persian Gulf During the Late Protoliterate Period", *East & West,* no. 21 (1971), 21-44.

DURRANI, F.,
"Stone Vases as Evidence of Connection Between Mesopotamia and the Indus Valley," *Ancient Pakistan* 1 (1964), 51-96.

Fischer Weltgeschichte, Bd. 2, Die Altorientalischen Reiche I. Vom Paläolithikum bis zur Mitte des 2. Jahrtausends. (Frankfurt am Main: Fischer Bücherei, 1965).

FRIFELT, K.,
"On Prehistoric Settlement and Chronology of the Oman Peninsula", *East & West,* no. 25 (1975), 359-424.

"A Possible Link Between the Jemdet Nasr and the Umm an-Nar Graves of Oman", *Journal of Oman Studies* 1 (1975), 57-80.

GADD, C.J.,
"Seals of Ancient Indian Style Found at Ur", *Proceedings of the British Academy* 18 (1932), 191-210.

GELB, I.,
"Makkan and Meluhha in Early Mesopotamian Sources", *Revue d'Assyriologie* 64 (1970), 1-8.

GLOB, P.V.,
"Arkaeologiske Undersøgelser i fire Arabiske Stater", *Kuml* (1959), 233-239.

GOETTLER, G., FIRTH, N. and HUSTON, C.,
"A Preliminary Discussion of Ancient Mining in the Sultanate of Oman", *Journal of Oman Studies* 2 (1976), 43-56.

HALLO, W.W. and SIMPSON, W.K.,
The Ancient Near East (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1971).

HANSMAN, J.,
"Periplus of Magan and Meluhha", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 36 (1973), 554-587.

HASTINGS, A., HUMPHRIES, J. and MEADOW, R.,
"Oman in the Third Millennium BCE", *Journal of Oman Studies* 1 (1975), 9-56.

HAWLEY, D.,
Oman & Its Renaissance (London: Stacy International, 1977).

KOHL, P.L.,
"The Balance of Trade in Southwestern Asia in the mid-Third Millennium BC", *Current Anthropology* 19:3 (Sept. 1978), 463-492.

KRAMER, S.N.,
"The Indus Civilization and Dilmun, the Sumerian Paradise Land", *Expedition* 6 (1964), 44-52.

LAMBERG-KARLOVSKY, C.C.,
"The Proto-Elamite Settlement at Tepe Yahya", *Iran* 9 (1971), 87-96.

LEEMANS, W.F.,
Foreign Trade in the Old Babylonian Period (Leiden: Brill, 1960).

MASRY, A.H.,
Prehistory in Northeast Arabia: The Problem of Interregional Interaction, Field Research Projects, Coconut Grove, (Miami, 1974).

MEISSNER, B.,
"Tilmun", *Orientalistische Literaturzeitung* 20 (1917), 201-203.

MORTENSEN, P.,
"Om Barbartemplets Datering", *Kuml* (1970), 385-398.

OPPENHEIM, A.L.,
"The Seafaring Merchants of Ur", *Journal of the American Oriental Society* 74 (1954), 6-17.

PARPOLA, S., PARPOLA, A. and BRUNSWIG, R.,
"The Meluhha Village. Evidence of Acculturation of Harappan Traders in Late Third Millennium Mesopotamia?", *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 20 (1977), 129-165.

RAO, S.R.,
"A 'Persian Gulf' Seal from Lothal", *Antiquity* 37 (1963), 96-99.

REVERE, R.B.,
"'No Man's Coast': Ports of Trade in the Eastern Mediterranean", in Polanyi (ed), *Trade and Market in the Early Empires,* (Glencoe: The Free Press, 1957), 38-63.

TOSI, M.,
"Notes on the Distribution and Exploitation of Natural Resources in Ancient Oman", *Journal of Oman Studies* 1 (1975), 187-206.

WEIDNER, E.,
"Das Reich Sargons von Akkad", *Archiv für Orientforschnung* 16 (1952), 1-24.

WHEELER, M.,
The Indus Civilization (3rd ed., Cambridge University Press, 1968).

The Classical Trade-Routes of Arabia, from the Evidence of Ptolemy, Strabo and Pliny*

William C. Brice

Ptolemy's map of Arabia – the Sixth in his Asian series – continued to influence the cartography of Arabia until the early nineteenth century, through lack of anything better. Thereafter, new explorations led to doubts about Ptolemy's reliability, until A. Sprenger in his meticulous work of 1875(1) identified so many of Ptolemy's place-names.

In order to construct his map, Ptolemy would have two sorts of information: first, itineraries, that is details of routes by sea or land, including distances, directions and place-names; second, observations of latitude. He had nothing else to go upon, and certainly not any observations of differences of longitude.

Some of his sources would be more reliable than others, and he must often have had to decide between conflicting conclusions. For example, the same place in the interior may have appeared in one position when plotted on one itinerary from the coast, but in another when placed by means of a second itinerary starting elsewhere on the Arabian shore.

Unfortunately, Ptolemy tells us nothing about how he resolved such problems. But we can deduce that in cases of doubt he preferred to accept direct observations of latitude wherever these were available. The argument runs as follows. Because Ptolemy used a measure of the size of the earth which we know was too small, all his itineraries when plotted on the map would extend too far. The resulting exaggeration of longitudinal distances remained enshrined on the map; but latitudinal exaggerations were evidently corrected, and this effect could only have been achieved by using direct measurements of latitude. Such measurements, whether made from the height of the Pole Star, from the height of the mid-day sun, or from the length of the longest or shortest day of the year, were easy to carry out.

So it happens that while the latitudinal positions of Ptolemy's interior Arabian towns are about right, they are moved in longitude too far from the coasts. *Nagara* (Najrān), for example, lies much too near the heart of southern Arabia, and the same is true of *Mariama* (Ma'rib) and *Sabbatha* (Shabwa). The roads which reached these places from the coasts were evidently exaggerated in length when they were plotted on the map.

There was manifest stretching in longitude also in Ptolemy's drawing of the south coast of Arabia. The shape of this coast is well portrayed, making it clear that *Dianae Oraculum* must lie in modern Ẓufār near, or at, Salāla. From there to the west the curves of the coast past *Syagros Promontarium* (Ra's Fartak) are clearly recognizable as far as *Arabia Emporium* (Aden); but the distance represented is much too long, so that *Dianae Oraculum* is placed very close to *Cryptus Portus* (Masqaṭ), instead of only about two-thirds of the way along the south coast from Aden. In consequence some three hundred miles of coast between the Khuriya Murīya islands and Maṣīra are omitted from the map.

Now we know from both Pliny and from the *Periplus of the Erythraean Sea* that the bulk of the frankincense was taken westward along the coast from Ẓufār to Qana, and Ptolemy would use the itinerary of this well-known sailing route for his drawing of the South Arabian coast. *Cryptus Portus* (Masqaṭ), however,

---

**Editor:*
Read in consultation with Maps 9 and 10.

was evidently placed on his map with reference to sailing routes from the Gulf, for it is correctly positioned in relation to the Straits of Hormuz *(Harmozon-Arabon Promontaria)*. Ptolemy appears to have been quite unaware of the real distance between Masqaṭ and Salāla, presumably because he had no itineraries for this stretch of coast. It is of course particularly barren and forbidding, for the sands of the Rub' al-Khālī here reach the Indian Ocean.

In his text, which is the means by which he expects us to reconstruct his map, Ptolemy lists the inland towns in sequence across the nearest main parallels of latitude, not unfortunately in order along the courses of the original itineraries which he used to place them. So it is left to us to reconstruct the routeways by looking for eivdent series of places which come to light when all the localities are plotted. Such a series appears, as we would expect, along the line of the Spice Road described by Pliny, from Qana northwards to Gaza by way of *Sabbatha* (Shabwa), *Mariama* (Ma'rib), *Thamala* (Tabāla), *Macoraba* (Makka), *Iathrippa* (Madīna) and *Egra* (Madā'in Ṣāliḥ).

But on Ptolemy's Arabia, leading northwards from the Spice Country, may be perceived also another chain of settlement, which is not so evident in other ancient sources. It leaves *Dianae Oraculum* (Salāla) and passes first northwards and then westwards past *Aspa, Chabuata, Ravana Regia* (Nizwa), *Tiagra, Accipitram Vicus, Laltha, Labris* (Jabrīn), *Maocosmus Metropolis, Irada* (Riyāḍ), and *Inapha* to Gerrha. This road passes round the eastern and northern extremities of the Rub' al-Khālī, along the western foothills of the mountains of 'Umān and through the oases of Buraymī and Līwa. According to modern maps, the section of this road between Buraymī and Jabrīn now carries no regular track, and it crosses long stretches of sand and *sabkha* over which it would be hazardous to travel.

However, there is some confirmation of an overland route for frankincense to the Gulf, mentioned three times by Strabo,[(2)] of the participation of Gerrha in the frankincense trade.

The question remains of whether Strabo is referring to a route of forty days across the heart of the eastern Rub' al-Khālī, somewhere near the line of Bertram Thomas's crossing. But this would seem rather less likely than the route deduced from Ptolemy's map, around the edge of the sands. For even though the climate of Arabia may have been somewhat wetter in Classical times than it is now, it is very doubtful whether the transit of the eastern sands would have been safe for regular caravans.

A route from Gerrha to the Mediterranean can reasonably be traced through Ptolemy's place-names *Catara, Giradha, Riavanna, Marata, Gorda, Arawa* (Ḥā'il), *Aina* and *Dumaitha* (Dūmat al-Jawf). This would have been the natural way to the Classical world for the pearls of the Gulf and the spices of India. Again, it passes through some country very inhospitable by modern standards, including the Nufūd (in which *Aina* appears to lie); but a moderately more abundant rainfall would have made the crossing easier of the sands of the Dahnā', and the Nufūd.

Nowhere in the Classical sources have we any reference to the way across Najd from the Yaman by way of Najrān, Sulayyil, Aflāj and Riyāḍ to the Gulf coast, which considerations of physical geography and later use as the 'Coffee Road' would lead us to expect. Al-Ansary's work at *Qarya* (al-Faw) has now, of course, given direct evidence of the importance of this route in antiquity.

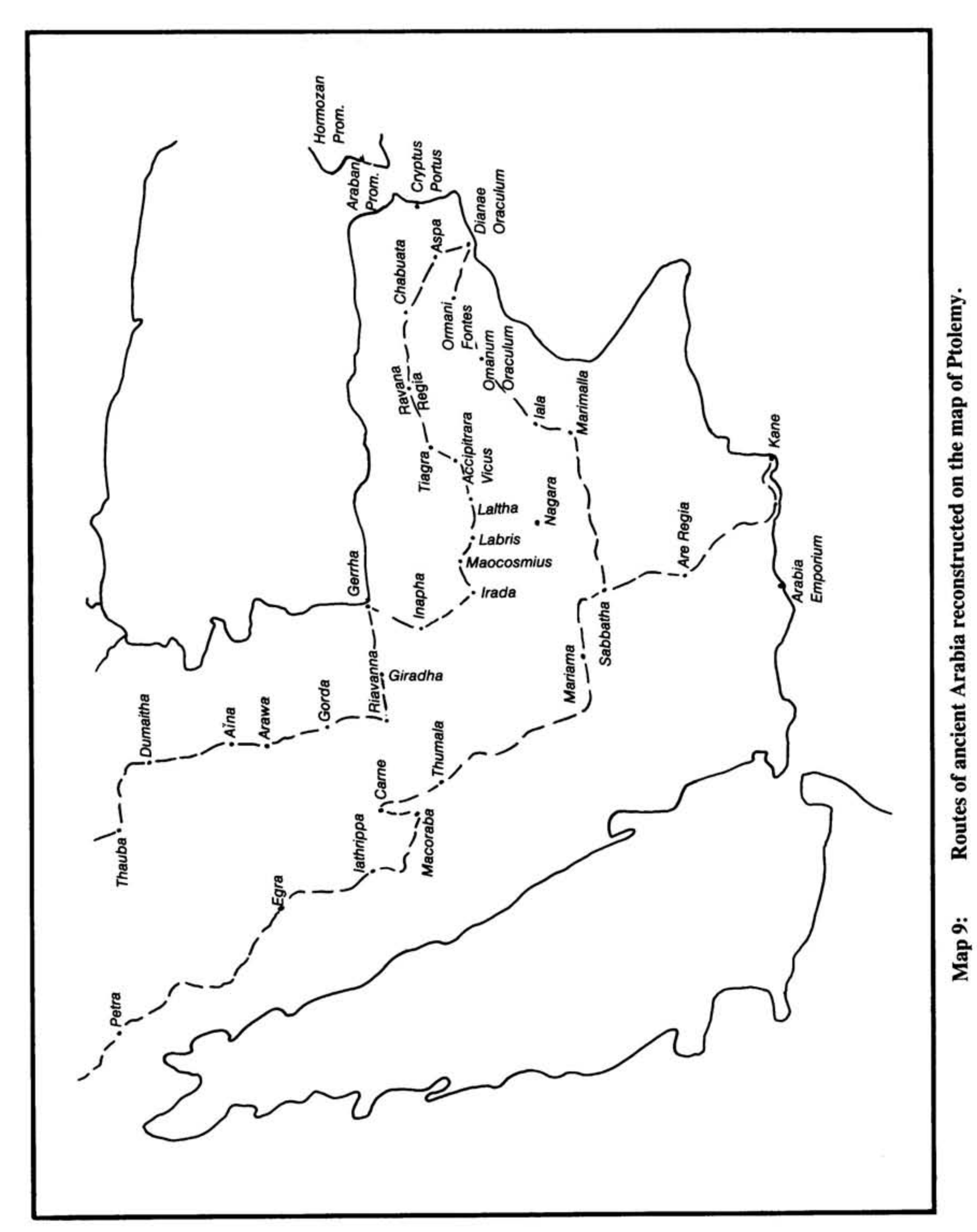
There is, however, in Ptolemy an indication of a route along the southern fringe of the Rub' al-Khālī, which could have been an overland way for the frankincense, from Ẓufār to Ḥaḍramawt, alternative to the main sailing route westwards along the coast. It passes from *Diane Oraculum* by way of *Ormani Fontes, Omanum Emporium* and *Iala* to *Marimalla* (Tarim), and thence to *Sabbatha* (Shabwa).

If we observe the interval between this last road and the one already mentioned round the north edge of the Rub' al-Khālī, it appears ridiculously narrow. Moreover, the long crossing of Najd from *Nagara* (Najrān) to *Irada* (Riyāḍ), mentioned above as lacking from Classical literary sources, is virtually entirely suppressed by Ptolemy. It seems then that, just as he omitted the long stretch of the south coast where the sands reach the shore, so he left out the great bulk of the Rub' al-Khālī in the south Arabian interior. The reason for this omission is, briefly, that the itineraries inland from the coasts were generally exaggerated in length, particularly in the east-west or longitudinal axis, so that they intruded on the space which should have been occupied by the great sandy wastes of the Rub' al-Khālī.

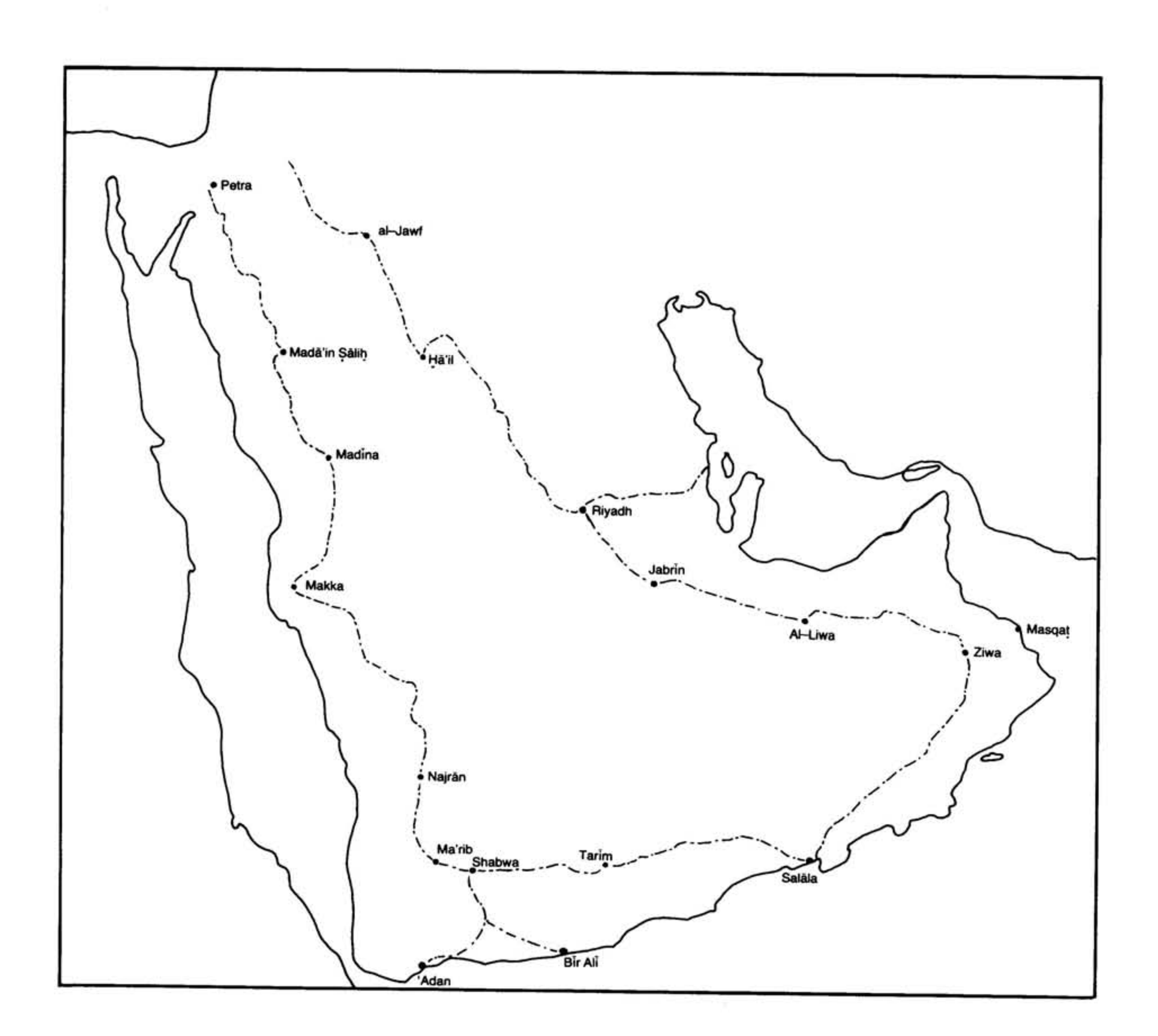
Notes

(1) A. Sprenger, *Die alte Geographie arabiens* (1875).

(2) Strabo, *Geography* XVI, iv, 4, 18, 19.



Map 9: Routes of ancient Arabia reconstructed on the map of Ptolemy.



Map 10: Routes of ancient Arabia on the modern map.

VII: CIVILIZATION: SOCIETY.

A CONTRIBUTION ON THE SUBJECT.

La Cité et l'Organisation Sociale à Ma'īn: l'Exemple de *YṮL* (Aujourd'hui Barāqish).

Christian Robin

Durant l'antiquité, l'Arabie du Sud a été couverte par un réseau serré de cités dont les vestiges sont encore visibles aujourd'hui. Dans les régions proches du désert de Ṣayhad,[1] ces cités sont assez bien conservées et étonnent par leurs dimensions, par la qualité des constructions (temples et enceintes) en magnifiques pierres de taille et par les fabuleux réseaux d'irrigation qui permettaient de cultiver le sol. Sur le Hàut-Plateau, les vestiges sont plus modestes, mais il n'est guère de village qui n'ait conservé quelque pan de mur, parfaitement appareillé, ou n'ait remployé inscriptions, chapiteaux, colonnes ou pierres piquetées.

Les inscriptions nous font connaître les noms d'un grand nombre de ces cités. Le plus souvent, ceux-ci sont encore portés aujourd'hui par des bourgades d'importance variable.

Le sujet de cette communication est de cerner le rôle de la cité dans le Jawf minéen. Dans des travaux antérieurs,[2] il a été montré que la cité du Haut-Plateau sabéen correspond à une articulation essentielle de l'organisation sociale: son rôle est donc considérable et j'en rappellerai les principaux traits. En est-il de même à Ma'īn? Pour répondre à cette interrrogation, deux approches différentes seront tour à tour utilisées: tout d'abord seront étudiées toutes les données connues sur une cité particulière, ***Yṯl*** on se demandera ensuite si l'organisation sociale minéenne fait une place aux cités.

Comme il vient d'être indiqué, la cité ***(hgr)*** du Haut-Plateau sabéen correspond à une articulation essentielle de l'organisation sociale dont je vais rappeler l'essentiel. La société du Haut-Plateau est selon toute vraisemblance segmentaire[3] et patrilinéaire. La pyramide tribale compte six à sept échelons, les deux premiers définis en termes de parenté et donc fondé sur le sang, et les autres de nature territoriale.[4] La cohésion sociale est assurée par la structure segmentaire de cet ensemble et non par un pouvoir qui s'exercerait au sommet et disposerait de moyens de coercition. Néanmoins, on relève la présence d'organes régulateurs dont la fonction est, à l'intérieur du système, essentiellement arbitrale; ces organes ont également en charge de toutes les opérations qui engagent l'ensemble du groupe: expéditions militaires et commerciales, grands travaux et probablement certains aspects du culte. Chaque niveau de la pyramide tribale possède de tels organes de manière virtuelle, mais seuls quelques uns ont un rôle effectif, correspondant aux besoins et à la situation politique de l'époque.

C'est ainsi que dans le pays de ***Sm'y*** on compte d'ordinaire deux niveaux principaux où ce pouvoir s'exerce: la tribu, de manière régulière tout au long de l'histoire sudarabique, et un autre niveau qui sera la confédération à l'époque ancienne puis la fédération à l'époque des rois de Saba' et de dhū Raydān.

Dans la tribu, le pouvoir est exercé principalement par une assemblée tribale et par des notabilités locales. Ces organes traduisent une autonomie réelle dans le domaine politique. Cette autonomie existe aussi en matière religieuse: si l'un des sanctuaires de la tribu est toujours consacré à la grande divinité confédérale qui, en ***Sm'y,*** est toujours le dieu ***T'lb,*** il faut noter que la tribu révère exclusivement cette divinité sous sa manifestation de dieu du sanctuaire local et non en tant que dieu du sanctuaire confédéral. L'autonomie de la tribu répond admirablement aux besoins réels dans un pays assez montagneux où les communications sont difficiles. Cette dernière a une dimension idéale pour la protection des personnes et des biens, en particulier ceux d'intérêt collectif comme les installations destinées au stockage de l'eau où du grain.

A l'époque ancienne, le deuxième niveau de pouvoir est situé à l'échelon de la confédération, alors dirigée par un roi, assisté de barons *(qayls)*, d'un conseil ***(mswd)*** et d'une assemblée confédérale. La cohésion de la confédération est renforcée par la reconnaissance du même panthéon et par l'existence d'un temple confédéral auquel on fait pèlerinage.

A l'époque des rois de Saba' et de dhū Raydān, alors que la tribu conserve son rôle, la répartition du pouvoir se modifie profondément aux échelons supérieurs. La monarchie de ***Sm'y*** a disparu et le niveau de la confédération ne subsiste plus qu'en matière religieuse, domaine éminemment conservateur. Les organes moteur se situent désormais au niveau de la fédération, en particulier celui du lignage de barons *(qayls),* et accessoirement au niveau du royaume de Saba'.

On voit donc que l'échelon de la pyramide tribale le plus durable et donc le plus solide est celui de la tribu. C'est un trait permanent de l'histoire du Haut-Plateau yéménite qui s'observe encore aujourd'hui. Il n'en est que plus frappant que, contrairement à la fédération, la confédération ou le royaume, la tribu n'ait pas un nom en propre: elle est toujours désignée d'après un nom de cité ***(hgr).*** Ainsi dira-t-on "la tribu de la cité de Nā'iṭ" ou "la tribu de la cité Kāniṭ" et non "la tribu une telle". Il apparaît donc que la tribu s'identifie totalement à une cité, à entendre probablement comme une bourgade et le terroir environnant. Les concepts de tribu et de cité qui appartiennent à des champs différents, celui de l'organisation sociale et celui de la distribution géographique, se correspondent en fait étroitement. C'est le caractère le plus frappant de la société du Haut-Plateau sabéen.

Retrouve-t-on la même correspondance entre un échelon de la pyramide sociale et la cité dans le Ǧawf minéen? On peut rechercher tout d'abord si la cité minéenne présente les caractères d'une unité sociale autonome dans les domaines politique, économique et religieux.

Le terme de "cité" ***(hgr)*** ne se rencontre dans les inscriptions minéennes que pour désigner ***Yṯl*** (10 fois) et ***Qrnw*** (6 fois). Les textes ne mentionnent aucune autre cité minéenne, sans qu'on puisse en conclure qu'il n'y en ait pas eu davantage.

On ne possède guère de données sur la cité de ***Qrnw*** (aujourd'hui Ma'īn) car la ville a été bien plus ruinée que ***Yṯl*** (aujourd'hui Barāqish). Comme, de plus, ***Qrnw*** a un statut particulier puisque c'est la capitale de l'Etat minéen, seul l'exemple de ***Yṯl*** permet de cerner la nature de la cité minéene.

On s'interrogera d'abord sur les institutions politiques de la cité.

La cité minéenne ne semble pas jouir de l'autonomie dans le domaine politique. On ne connaît aucun organe par lequel elle puisse s'exprimer, ni conseil, ni assemblée, notabilités municipales. La seule institution propre à la cité, le *kabīr* ***(kbr)*** de ***Yṯl,***[5] est, selon toute vraisemblance, un représentant du pouvoir cen-

Ce même clan de ***Gb'***^{n} est encore celui que citent le plus souvent les "Listes de hiérodoules" de ***Qrnw,*** document qui énumère les consécrations que les Minéens devaient faire de leur épouse étrangère.(8)
On relève 32 mentions de ***Gb'***^{n}

9	***Mwqh***
7	***Ylqẓ***
7	***'ṣr***^{m}
5	***Gḥḏ***
4	***Nswr***
3	***'qb***
3	***'ly'l*** etc.

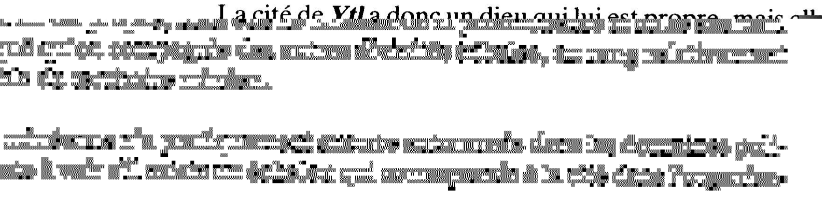
Les clans les mieux représentés dans les inscriptions de construction, c'est-à-dire ceux qui disposent de la richesse et de la puissance financière les plus grandes, sont également ceux qui dominent le commerce de caravane si on admet une relation entre le nombre des épouses étrangères consacrées et la participation à ce commmerce.

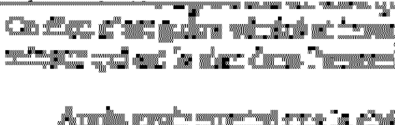
Les personnes qui font bénéficier ***Yṯl*** de leurs libéralités appartiennent donc aux clans qui dominent l'économie du royaume et non à une aristocratie locale. La cité de ***Yṯl*** apparaît comme totalement intégrée à l'économie minéenne, sans aucune autonomie particulière.

Il n'y a rien là de bien étonnant puisque l'organisation de la production agricole et les techniques commerciales minéennes ne sont concevables que dans un Etat centralisé. L'agriculture dépend entièrement d'un vaste réseau de canaux d'irrigation qui amène les eaux de ruissellement des piémonts vers le centre de la dépression du Ǧawf où sont aménagées les zones cultivées. Quant aux activités commerciales, elles s'appuient sur une chaîne de comptoirs échelonnés du Ḥadramawt aux grands marchées méditerranéens. L'ampleur des investissements nécessaires et le maintien d'un tel réseau commercial excèdent les capacités humaines et financières d'une cité.

L'autonomie de ***Yṯl*** est également très réduite dans le domaine religieux. La cité ne se distingue guère du reste de la tribu: dans les dédicaces de construction et dans les invocations qui les accompagnent, on trouve partout les mêmes divinités, énumérées dans le même ordre. Cependant ces divinités ne sont pas toutes sans attaches géographiques. Le dieu ***'ṯtr ḏ-Obḏ***^{m} qui joue le rôle de divinité fédérale a son sanctuaire à proximité de ***Qrnw,*** et il n'est pas impossible qu'il soit tout d'abord le dieu de cette ville. Une autre manifestation de ***'ṯtr, 'ṯtr ḏ-Yhrq,*** est une divinité de ***Yṯl.*** Une dédicace à ce dieu, encore inédite, a été relevée dans les environs de Barāqish;(9) ce texte s'ajoute à une inscription pénitentielle adressée à ce dieu et trouvée à Barāqish même;(10) enfin il faut rappeler les diverses mentions d'une communauté de ***'ṯtr ḏ-Yhrq***(11) qui proviennent toutes de Barāqish. A ces arguments de provenance, on pourra encore joindre le texte **M 347/2** qui parle de ***" 'ṯtr ḏ-Yhrq*** à ***Yṯl" ('ṯtr ḏ-Yhrq b-Yṯl).***

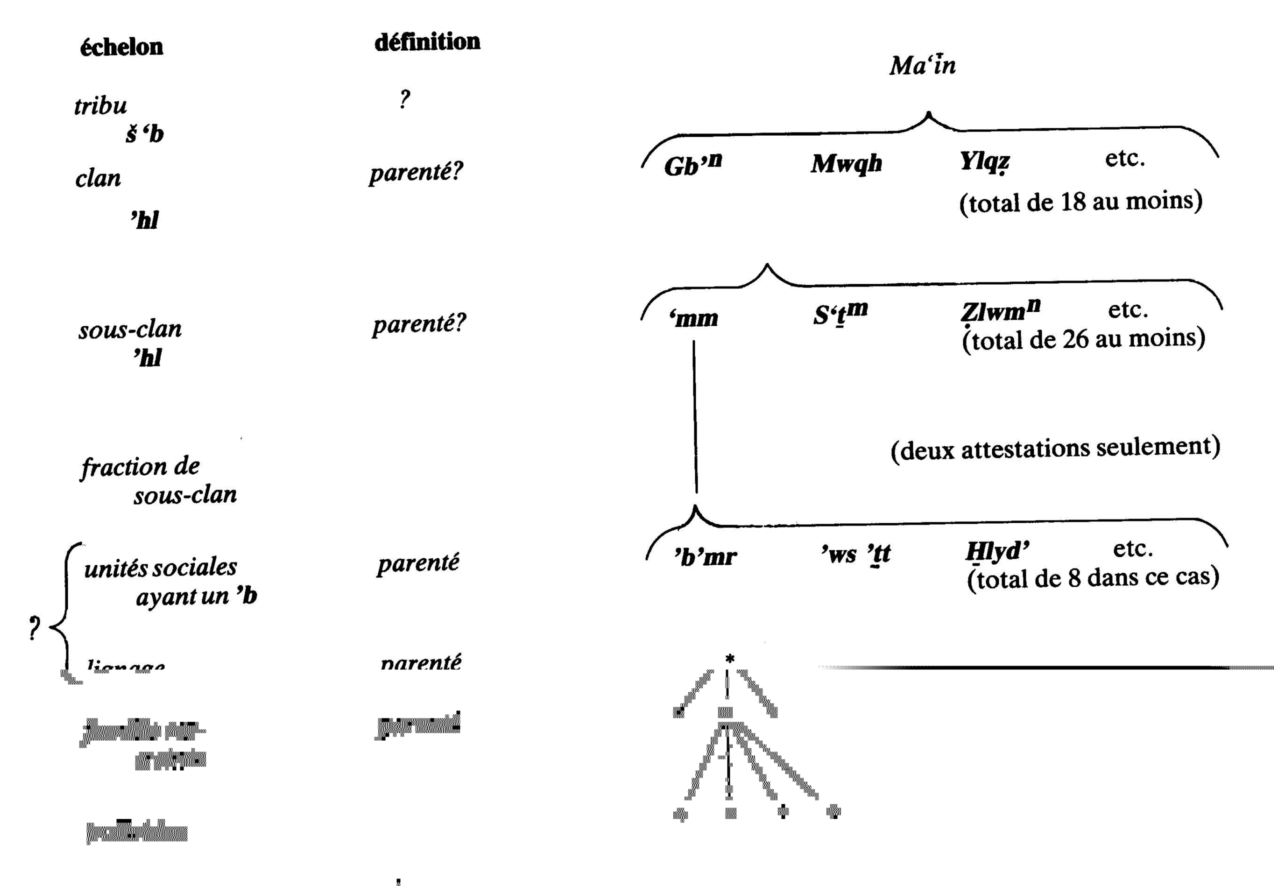
La cité de ***Yṯl*** a donc un dieu qui lui est propre, mais





échelon	définition	
		royaume de saba'
royaume	*territoriale*	***Sm'y*** Bakīl etc.
confédération **š 'b**	*territoriale* **'rḍ**	Ḥâšid Ḥumlân ***Hgr^{m}/Yrsm***
fédération **š 'b**	*territoriale* **'rḍ**	de Nâ 'iṭ de Kâniṭ etc.(?)
tribu **š 'b**	*territoriale* **hgr**	
lignage	*par la parenté* **byt**	
famille restreinte	*par la parenté*	
individus		

Fig. 40: l'organisation de *Sm'y* à l'époque des rois de Saba' et de dhū-Raydān.



[illegible]

La société minéenne est segmentaire et patrilinéaire comme celle du Haut-Plateau sabéen. La pyramide tribale compte aussi six à sept degrès (voir Fig. 41). Au sommet on trouve la tribu de Ma'īn, la seule que compte le royaume. Elle est en général appelée Ma'īn, mais aussi Ma'īn-et-**d-Ytl** au encore Ma'īn-et-**Ytl** dans l'Etat minéen mais ne remettent pas en cause l'unité tribale puisque l'expression Ma'īn-et-(**d**)-**Ytl** est toujours précédée du mot tribu au singulier et non au duel.[12] La tribu de Ma'în est gouvernée par un roi assisté d'un conseil ***(mswd)*** et de diverses instances dont la nature n'est pas clairement établie. L'existence d'une assemblée tribale ne paraît pas très sûre.

La tribu de Ma'īn est divisée en clans ***('hl)*** qui sont au moins au nombre de 18. Ces clans sont eux-mêmes divisés en sous-clans appelés ***'hl*** eux aussi:[13] dans ***Gb'n,*** clan pour lequel on a le plus de documents, on en compte au moins 26. Du fait que les mêmes clans et sous-clans peuvent être attestés sur différents sites, il ne semble pas qu'ils soient de nature territoriale. Peut-on en conclure qu'ils sont fondés sur des liens de sang? Le terme de ***'hl*** qui les désigne pourrait le faire croire, mais, en sens inverse, les noms qu'ils portent ne sont pas en règle générale des noms de personne. La définition des clans et sous-clans par la parenté apparaît donc comme probable mais elle n'est pas sûre.

L'identité d'un individu mentionne le clan et le sous-clan mais aussi le nom du père (la famille restreinte) et éventuellement celui du grand père où d'un ancêtre proche (le lignage). Ce sont donc les principaux degrés de la pyramide tribale, fondés, sûrement pour les premiers, probablement pour les autres, sur le sang.

A ceux-là peuvent s'ajouter deux degrés intermédiaires entre le lignage et le sous-clan. Il s'agit tout d'abord d'une division du sous-clan, qui semble de même nature que ce dernier et nous est connue par deux exemples;[14] elle ne se rencontre peut-être que dans les sous-clans de grande dimension. Plus importantes apparaissent ces unités sociales qui portent des noms de personne; elles ne sont attestées que de manière indirecte quand tel grand personnage tire orgueil de la fonction de ***'b*** qu'il exerce sur elles;[15] mais il n'est pas tout à fait sûr qu'il faille les distinguer des lingnages déjà mentionnés ci-dessus.

Dans cette pyramide tribale, aucun niveau ne correspond à la cité. La cité ne donne son nom à aucune unité sociale et on ne décèle aucun lien exclusif entre la cité et telle ou telle fraction de la tribu.

Non seulement la cité minéenne ne jouit d'aucune autonomie dans les domaines politique, économique et religieux, mais elle n'a pas place dans la structure sociale. Comment expliquer une situation si radicalement différente de celle observée sur le Haut-Plateau sabéen? Il est peu douteux que le cadre naturel joue un grand rôle dans ces disparités. Sur le Haut-Plateau, le *qabīlī* a un univers quotidien limité à son terroir: ses préoccupations ne dépassent guère le niveau des affaires locales. Il ne peut en être de même dans une vaste dépression ouverte sur le désert, où les éstablissement agricoles sont précaires et dépendent du bon fonctionnement du système d'irrigation. Dans ce dernier cas, la sédentarisation est fragile et la solidarité résulte davantage des liens de sang que du partage d'un même genre de vie ou de l'exploitation d'un même terroir. Alors que le Sabéen du Haut-Plateau appartient à une tribu qui se définit par le terroir qu'elle occupe, le Minéen n'a pas de réelles attaches géographiques: son univers est son clan et sa tribu.

Notes

(1) Ṣayhad, appelé aussi Ramlat al-Sab'atayn: nom du désert au bord duquel étaient établis les Etats de Ḥaḍramawt, Qatabān, Saba' et Ma'īn.

(2) Voir A.F.L. Beeston, "Functional Significance of the Old South Arabian 'Town' ", dans *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* (held at the Middle East Centre, 22nd and 23rd June, 1970. London, 1971), 26 et suiv., et Ch. Robin, *Le pays de Hamdān et Ḫawlān-Quḍā'a (Nord-Yémen) avant l'Islam,* (thèse dactylographiée soutenue le 27 mai 1977 à l'Université de Paris I, Panthéon-Sorbonne), 95 et suiv.

(3) Voir E. Gelliner, *Saints of the Atlas* (Coll. "The Nature of Human Society Series. London: Weidenfeld and Nicolson, 1969), 41 et suiv. pour une définition de cette notion.

(4) Voir Fig. 40, l'exemple de ***Sm'y.***

(5) Voir **M 161, M 247/4** et **M 337/4.**

(6) Les auteurs de construction appartiennent à ***Gb'***^{n} dans **M 151+161, 172, 185, 193, 197** et **450**(?); ils appartiennent à ***Yf'***^{n} dans **M 196, 236, 247** (un seul des deux auteurs) et **Robin/Barâqiš 1** (texte complet de **M 283**), à ***š'ṯ***^{m} dans **M 200** et **246,** et à ***Ḫḏ[l***^{n}***]*** dans **M 416,** sous-clans de ***Gb'***^{n} d'après les "Listes de hiérodoules" (voir **M 392 C/52-53, 394/10-11** et **392 B/11-12).** Appartiennent à ***Ylqẓ*** les auteurs de **M 189** et à ***Ġrbt*** (sous-clan de ***Mwqh*** d'après **M 392 B/29-30)** ceux de **M 224.** N'ont pas été retenus ***Ḍmr***^{n} **(M 222), *Ḍfg***^{n} **(M 247)** [un seul des deux auteurs] et **347)** et ***Bzr Šḥf***^{n} **(M 198),** sous-clans non attestés dans les "Listes de hiérodoules" dont on ne sait à quel clan ils se rattachent.

(7) Pour les souverains, voir **M 30, 83** et **85;** pour les ***šw'*** de ***Wd***^{m}, voir **M 400** et **401;** pour ***Gb'***^{n}, voir **M 27, 29, 43** et **59.**

(8) **M 392-398.**

(9) **Robin/aš-Šaqab 4.**

(10) **M 202.**

(11) **M 187/1, 190/1, 197/1, 226** et **405/1,** sans mentionner plusieurs inédits.

(12) Un texte unique, **M 172+174** (classé **E 3** dans la paléographie de Jacqueline Pirenne et donc relativement tardif) pourrait suggérer l'apparition d'une tribu autonome ***ḏ-Yṯl*** conçue comme partie de Ma'în: "... et par leur tribu Ma'în et par leur tribu ***ḏ-Yṯl*** [...". Mais il est possible que ***š'b*** ait ici le sens de "collectivité, communauté" comme dans quelques rares textes (voir par exemple **CIH 434/1** où on lit ***š'b***^{n} ***'hl 'ṯtr bnyw*** ... "la communauté des dévots de *'ṯtr* a construit ..."; voir aussi **'Inân 22** qui mentionne ***š'b- 'tlwt***^{n}) et non celui de "tribu" à proprement parler.

(13) Voir par exemple **M 197/2** où le sous-clan ***Ẓlwm***^{n} est désigné par le terme ***'hl.***

(14) Voir ***ḏ-'dr ḏ-Ḫfn*** de **M 151+163/1** et ***ḏ-Bzr Šḥf***^{n} de **M 198/1-2.** Pour le premier de ces exemples, une autre interprétation n'est pas exclue. ***'dr*** et ***Ḥf***^{n} sont en effet attestés l'un et l'autre comme sous-clans de ***Gb'***^{n} (voir **M 392 A/24-25** et **M 59/1),** et dans **M 151+163** on pourrait admettre que les auteurs de l'inscriptions se réclament de deux sous-clans à la fois.

(15) Voir **M 27/1, 29/1, 43/1, 59/1**(?), **89/1, 130/1, 236/1** et **401/1.**

المدينة والنظام الاجتماعي في يثل (براقش الحالية)

كريستيان روبان

(خلاصة البحث *)

انتشرت المدن انتشاراً واسعاً في جنوب الجزيرة العربية خلال العصور القديمة، وأمدتنا النقوش بأسماء عدد كبـير منهـا في منطقـة معـين. ومن المهم معـرفة ما إذا كانت تلك المدن تتمتع بنظام اجتماعي يماثل ما كانت تتمتع به المدن السبئية. ومن أجل ذلك تجري المقارنة بين مدينتي **هجر** السبئية و**يثل** المعينية.

كان المجتمع السبئي في مدينة **هجر** قائماً على أساس أن القبيلة هي أساس النظام الاجتماعي. ويقوم بناؤ ها على شكل هرمي مكون من ست إلى سبع درجات (Fig. 40)، ترتبط الدرجتان الأولى والثانية منها برابطة الأبوة أو رابطة الدم، في حين أن باقي الدرجات ترتبط برابطة المكان.

ومـع ذلـك فهنـاك تنظيـمات مهمتهـا النهوض بما يهم المجتمع ككل مثل تنظيم الحملات العسكرية أو تنظيم الشؤون التجـاريـة، وتقـريـر ما يتصـل بالمسائل الاقتصادية. وتتوزع السلطة بين القبيلة وبين اتحاد يضم عدداً من القبائل في مناطق **بكيل** و**سمعي** السبئيتين بصفة خاصة. وقد تحقق تكوين هذا الاتحاد في عهد ملوك سبأ وذي ريدان.

وللقبيلة مجلس يمارس السلطة، وتبرز فيها طبقة من الأشراف. ولاتحاد القبائل معبودها الأكبر، ولكن القبيلة تعتبره معبودها المحلي، ولا تقدسه بصفته معبوداً عاماً لاتحاد القبائل.

وطبيعي أن تكـون للقبيلة حريتهـا الـذاتيـة، وذلـك في بلد جبلي يصعب فيه الاتصال بين أرجائه، فلابد أن تتولى القبيلة حماية أفرادها وأموالهم ومصالحهم المشتركة، وبخاصة ما اتصل منها بتخزين المياه أو الحبوب.

أما في اتحاد القبائل فالسلطة يختص بها الملك الذي يساعده رؤساء (أقيال) ومجلس (مسود) ومجلس اتحادي. هذا إلى جانب اعتراف القبائل بالمعبودات القبلية، ووجود معبد اتحادي يحج إليه الجميع.

---

* المحرر:
[illegible]

وتنتسب القبيلة دائماً إلى مدينة **هجر**، ولا تتخذ لنفسها اسماً معيناً. والمدينة لا تخرج عن كونها مدينة صغيرة تحيط بها أراضٍ خاصة بها. وبينما تنتمي القبيلة إلى النظام الاجتماعي، كانت المدينة ترتبط بالنظام الجغرافي، ولا يرد اسم مدينة **هجر** في النقوش إلا إذا كان مضافاً إلى اسم قبيلة.

أما بالنسبة لمدن معين، فمعلوماتنا قليلة عن **قرناو** (معين) نظراً لما أصابها من تخريب كان أكثر مما أصاب **يثل**. وإن كانت **قرناو** هي العاصمة لمملكة معين، ولها وضع خاص، فإنه لم تبق سوى **يثل** (براقش) للتعرف منها على طبيعة المدينة المعينية.

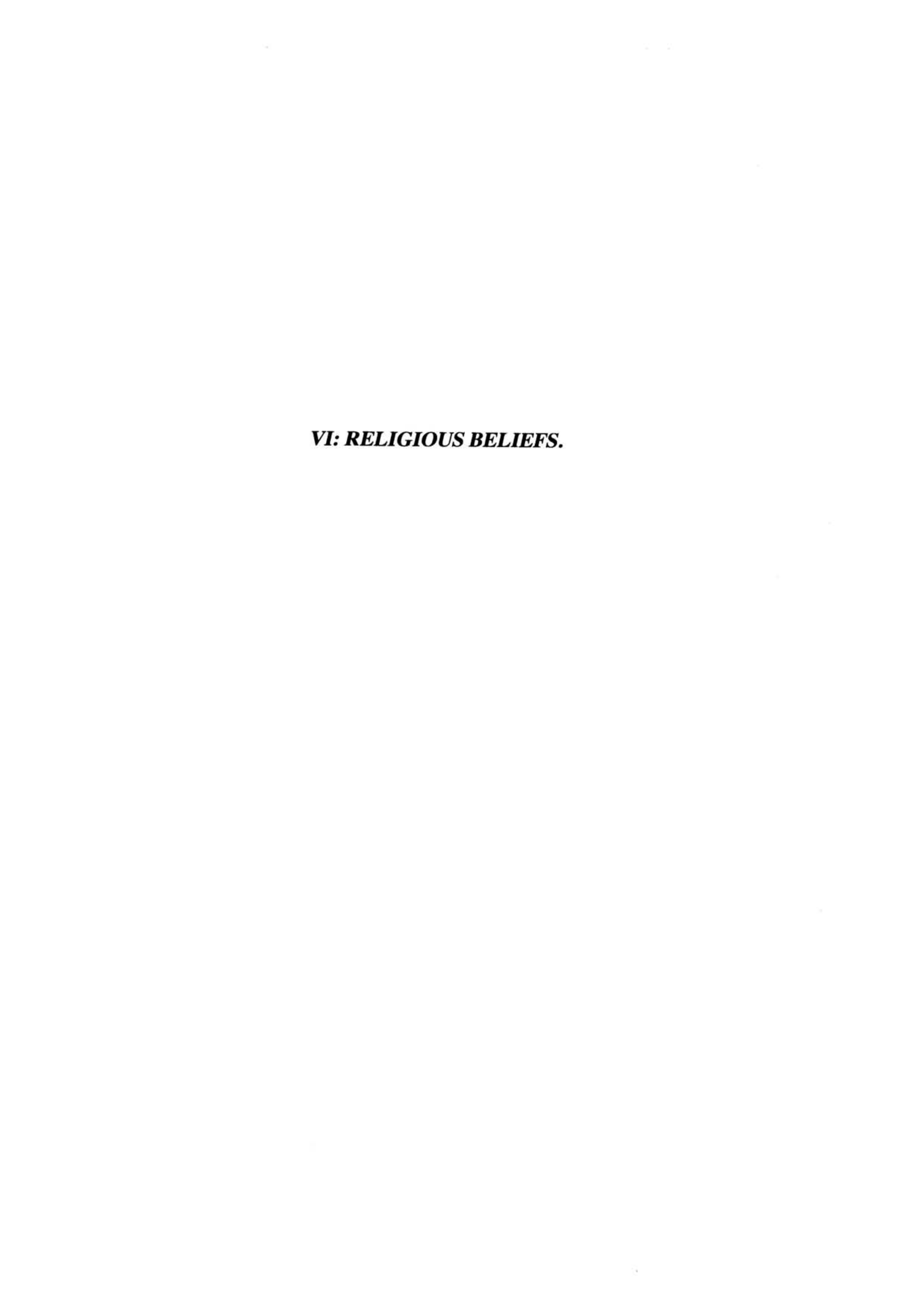
ويبدو أن مدينة **يثل** لم تكن تتمتع بالحرية السياسية، فلا يوجد بها مجلس أو جمعية أو هيئة أرستقراطية. إنما تتمثل السلطة الحقيقية في كبير (كبر) **يثل**، القائم على السلطة المركزية. أما المملكة فعلى رأسها الملك، وإلى جانبه مجلس وعدد من الموظفين. وفي مدينة **قرناو** كان الملوك هم الذين يشيدون المعابد والمباني العامة، بينما في **يثل** كانت فروع من قبائل أو عساكر معين هي التي تمتلك القوة الاقتصادية، وتتحكم في تجارة القوافل، وتنظم الإنتاج الزراعي. ومثل هذه المسائل كان ينبغي أن تكون لدولة ذات سلطة مركزية، لأن الزراعة تعتمد على شبكة من قنوات الري يجب تنظيمها وحمايتها، فضلاً عن أن المحافظة على مصالح مملكة معين التجارية كانت أمراً يتجاوز الإمكانيات البشرية العادية والموارد المالية لمدينة واحدة. وكانت **يثل** من ناحية أخرى لا تتمتع بدرجة كبيرة من الحرية الدينية.

أما فيما يختص بالتنظيم الاجتماعي لمعين، فإن المجتمع المعيني، كالمجتمع السبئي، كان مجتمعاً هرمياً متدرجاً أيضاً (Fig. 41). ففي القمة قبيلة معين، وهي وحدها المملكة، وتسمى عادة «**معين**»، و«**معين وذويثل**» و«**معين يثل**» أيضاً. وحقيقة قد تعطي هذه التسميات أهمية خاصة **ليثل** في إطار المملكة المعينية. ولكن هذه التسميات، في الواقع، لا تتجاوز الالتزام بوحدة القبيلة، لأن اسم «**معين وذويثل**» يرد دائماً مع كلمة «**قبيلة**»، وهي في حالة الإفراد لا حالة التثنية.

وكان يحكم معين ملكٌ يساعده مجلس (**مسود**). أما وجود جمعية قبلية، فإنه ليس بالأمر المؤكد.

وكانت قبيلة معين تنقسم إلى عدد من العشائر، كل عشيرة منها تنقسم إلى عدد أصغر من الفروع. وربما كانت علاقة الدم هي التي ربطت بينها، وربما كان كل قسم من هذه الأقسام يحمل اسم الأب أو أقرب جد.

ولعل قبائل معين بأقسامها المختلفة لم تكن ترتبط ارتباطاً جغرافياً بمكان معين، فالأهم في النظام الاجتماعي هو نوع الرابطة التي يرتبط بها أفراد القبيلة والعشيرة.



VI: RELIGIOUS BELIEFS.

A CONTRIBUTION ON THE SUBJECT.

Himyarite Monotheism

A.F.L. Beeston

Down to the beginning of the fourth century A.D. the religious forms of South Arabia were polytheistic. The inscriptions refer to a number of divinities simultaneously, and we have explicitly polytheistic expressions like "all gods and goddesses of the town".(1) But in the course of the fourth century a Ḥimyarite dynasty–known to the Muslim writers as the Tabābiʿa–extended its power over the whole of South Arabia, absorbing both the ancient Sabaean kingdom and its last surviving rival, Ḥaḍramawt.(2) Alongside this political event, in the latter 4th century and thereafter through the 5th, a radical change comes over the religious formularies expressed in the texts. With two exceptions (to be discussed later), references to the pagan dieties of the ancient tradition disappear completely from the texts, and we find only mention of the one unique God, referred to either under the name *Raḥman-an* "the Merciful" or simply as *'il-an* "God", to which is usually subjoined epithets such as "lord of heaven", "lord of heaven and earth" &c. These epithets may perhaps be to some extent a rejection of the pagan attitude which attributed to each of the various deities a strongly marked local character, often as the "lord" of such-and-such a temple.

In the early part of the sixth century a further change occurred. The Ḥimyarite king Yūsuf (Dhū Nuwās of the Muslim tradition) was a Jew, and conducted the famous massacre of the Najrānite Christians; this was followed by an Ethiopian invasion in which he was killed. Thereafter, the inscriptions, insofar as they contain any religious formularies at all, are exclusively Christian and use phraseology in which Raḥmān is used to designate the first person of the Christian trinity, and is accompanied by mention of either "Christ" or "his Messiah". But before the reign of Yūsuf, the texts contain no mention of Christ at all; the question thus arises, what was the nature of the montheistic Raḥmānist cult which prevailed from the latter 4th century to the beginning of the 6th?

In the course of discussion, I. Shahid properly pointed out that a Christian document does not necessarily contain a reference to Christ, and he instanced the letter of Constantius to the Axumites, which–in spite of dealing with the banishment of the great theologian Athanasius–does not anywhere mention Christ. This is a valid argument when one is considering a single document; but when the whole series of 4th-5th century Raḥmānist texts lack any mention of Christ, it surely becomes impossible to see them all as Christian. And if they are not all Christian, then there is no intrinsic reason for singling out one rather than another as Christian. J. Ryckmans, who did accept that one late-4th century king was a Christian, goes on to say that after him, "Christianity can have had very little foothold in Ḥimyarite territory until the beginning of the 6th century".(3)

The essential motivation for the assumption of a Christian episode, even if brief, in the 4th century lies in an external source: the Byzantine historian Philostorgius' claim tht somewhere about the middle of the century a missionary named Theophilus converted the Ḥimyarite leader to Christianity, and induced him to build three churches, one at ʿAdan, one at the Ḥimyarite centre of Ẓafār, and one somewhere on the coast towards the east (possibly Cane, modern Ḥiṣn al-Ghurāb).

Now there is also a parallel Byzantine claim that just at the same period the Axumite king ʿĒzāna was converted to Christianity; but this must be regarded with some caution. We have long known of a Geʿez inscription of ʿĒzāna, which is monotheistic, speaking of God as "lord of heaven" but without distinctively Christian characteristics and without mention of Christ:(4) it is only recently that a Greek version of the same text has been discovered(5), which uses a clearly Christian trinitarian formula, and this notable difference needs explanation. To me it seems that it must indicate that the king thought it politic, in order to strengthen his relations with Byzantium, to make a show of Christianity in face of the Greek-speaking world, but was at the same time unwilling to profess it wholeheartedly vis-a-vis his Geʿez speaking subjects.

Of course, this has nothing to tell us about the king's private convictions; our documents are official public records, not autobiographies; in private, perhaps he did allow himself to be baptized, but the studious avoidance of mention of Christ in the Ge'ez text indicates that such mention would have been unacceptable to the great mass of native Axumites.(6) All this is equally applicable to the situation of the Ḥimyarite king, if, as I. Shahid has suggested and as I would agree, the situation on both sides of the Red Sea at this period is likely to have been similar. As for the building of the churches, their locations strongly suggest that they were principally intended for visiting foreign merchants, not for the native population.

All in all, I feel that one must concede that there are no positive indications whatever for pre-6th century Christianity in the heartlands of South Arabian culture; Najrān is a different matter, and I would not like to embark on a discussion of when Christianity first arrived there, but Najrān was almost certainly an Arabic-speaking area(7) and did not belong to the Sabaeo-Ḥimyarite sphere proper.(8)

An alternative hypothesis, that the Raḥmānist cult was Judaism, has found a good deal of favour. Here it must be said that there are indeed positive and direct evidences of a Jewish presence within the South Arabia area proper, well before the reign of Yūsuf. Easily the most striking inscription is **Bayt al-Ashwal 1**(9), undated but probably from the early years of the 5th century; this has as author an unmistakeable Jew named Yahuda, who invokes, along with Raḥmān, "his community Israel" (though it is not altogether clear whether "his" refers to the author or to God). The word used for "community" is the common Sabaic one *sha'b,* which designates a collectivity of village communities and several of which go to make up a "nation"; it is also, like Arabic *ṭā'ifa,* used for professional groups. This suggests that the Jewish community was only one element in the population. At the end of the text, the author declares that the building activity which the text records enjoyed the approval and support of king Dhar'i'amar, and winds with aspirations for the prosperity of the royal house. W.W. Müller has taken this as evidence that the king was a Jew as well, which does not seem to me to be necessarily the case. Mediaeval Jewish communities in England and Rome enjoyed the particular patronage and protection of king and pope respectively, but neither king nor pope was a Jew. Nor, in my view, does the mention, in connection with the king, of a building called a ***mkrb*** imply this. Now in Ge'ez a synagogue is called a *mekwrab,* but this by derivation means only a "meeting house" or "place of assembly", and we ought not to infer that every "meeting house" was necessarily a synagogue (any more than in England where not every "meeting house" is necessarily a Quaker place of worship); the application of the word to a synagogue is simply a calque translation of the Greek word, which itself originally means only "assembly". Moreover, Glaser has recorded that in South Arabia he heard the term *mikrāb* applied to a heathen temple, and in Ge'ez the word is also used for the temple of Solomon as well as for a synagogue. Lastly, that ***mkrb*** in Yahuda's text refers to a synagogue seems to me excluded by the fact that it is said to possess a feature called "the king's ***mknt***": the latter word had been used in the pagan period for the niche in a temple where the god's image stood, and in this monotheistic text seems most likely to refer to a niche or alcove where the king sat in the "place of assembly", which is an unlikely feature of a synagogue.

It is not surprising that we should encounter texts with a markedly Jewish flavour during the reign of the Jewish king Yūsuf. Among these, the most noteworthy is **Ry 508** from Kawkab in southern Najd (it is the record of a Ḥimyarite military expedition), where God is referred to by the morphologically plural form ***''lhn,*** which is an obvious calque on the Hebrew Elohim.

But the number of texts which reveal themselves as Jewish by their phraseology is quite small, about one tenth of the total number of known Raḥmānist inscriptions. It does not seem to me safe to assume that all of them are Jewish. There is notable difference between the phraseology of the overtly Jewish texts and the rest with their very neutral colouring. It has indeed been argued that the term Raḥmān for the Deity is derived from the identical Talmudic term: but even if this is so, it does not prove that Raḥmānism was Judaism. In English 17th and 18th century literature it is quite common to find God referred to as Jehovah, with no implication at all that those who used the word are to be taken as Jews. There is some relevance here,

moreover, in the fact that several Palmyrene inscriptions refer to the supreme deity as *Raḥmāna*. Of course, I would agree with I. Shahid that this is not likely to be a direct borrowing, for chronological reasons, since the Palmyrene empire was crushed by Rome some three quarters of a century before Raḥmānism appears in the South Arabian texts. But if non-Jewish Palmyrenes could use such a term, why should non-Jewish Ḥimyarites not do the same? To sum up here, we certainly have a very small number of inscriptions with a decidedly Jewish slant to their phraseology; but the great majority of the Raḥmānist texts do not show this, and should not be automatically classed as Jewish, even if the Jewish presence in the area may have exercised some influence on the rest of the population. The latter possibility is in fact exactly what J. Ryckmans has envisaged when he wrote that 5th century Raḥmānism was "either Judaism or of Jewish inspiration"(10).

One other point needs mention, namely the Muslim tradition that the Ḥimyarite king Abūkarib As'ad (attested epigraphically somewhere around 425 A.D.) was converted to Judaism, with all his people, by some learned men from Yathrib. But when one looks carefully at the story as told by Ṭabarī(11), it is striking that the narrative itself contains no explicit mention of Judaism, but only speaks of "their *dīn*"; it is only after the conclusion of the narrative that we get the obviously editorial coment, "This was the beginning of Judaism in Yaman". Obviously, Ṭabarī himself thought that Abūkarib and the Ḥimyarites were converted to Judaism, but it is doubtful whether the original tradition envisaged anything more than what might be called "Jewish inspiration". Yet even if Abūkarib and his immediate circle were fully professing Jews, it still remains unproven that all succeeding kings from his reign down to that of Yūsuf, and all the other authors of Raḥmānist inscriptions, should have been Jews.

If the main body of Raḥmānists before the 6th century was monotheistic without being committed Jews or Christians, they can only have been what a Muslim would call *ḥunafā'*. The late H.A.R. Gibb, with his usual perceptiveness, has expressed the opinion that there must have been *ḥunafā'* in Arabia in the few centuries before Islam(12); and the epigraphic evidence surveyed above seems to me to support this.

European scholars have long sought to see *ḥunafā'* as an arabicization of the Syriac term ***ḥanpe***; the Arabic singular *ḥanīf* will then have been formed from the plural within the Arabic speech area (since the Syriac singular ***ḥanpa*** would sound almost undistinguishable from the plural to Arab ears), and probably well before Islam. The great difficulty in this has always been the startling difference in application of the two terms. The Syriac word is a term of abuse directed by Syrian Christians against non-Christians. Some have indeed tried to argue that the non-Christian population of Syria did include, specially among the educated classes, adherents of monotheistic forms of belief such as Neo-Platonism, Mithraism &c. While this is certainly true, there is no hint of any restriction of the term to such persons, and indeed the archetypal ***ḥanpa*** for Syrian Christians was the emperor Julian, whose policy it was to try to revive traditional Roman polytheism. The difficulty is however largely obviated if we assume that the term *ḥanīf* entered the Arabic language not directly from Syria, but by way of Najrān. The Najrānites must have been well aware that the Syrian missionaries called all non-Christians, whether polytheistic or monotheistic, ***ḥanpe,*** and have taken the word into their own vocabulary. Makkans of the 5th century, with their strong trading connections with Yaman, must have been aware that the wealthier classes there were almost overwhelmingly monotheistic, and it would thus have been easy for them to adopt the term *ḥanīf* (used by the Najrānites to designate their neighbours on the south) in the specific sense of monotheist, excluding the other applications which the term had in Syriac.

The rapidity and thoroughness of the change from traditional polytheism to monotheistic Raḥmānism is surprising. One can hardly avoid thinking that polytheism, already in the 3rd century, must have begun to lose its hold on at least the upper classes. This is precisely parallel to contemporary developments in the Mediterranean world, of which Michael Grant writes,(13) "Cults of the individual pagan deities began to fail during the third century A.D., such people increasingly thought of the Olympians as aspects of a single pagan divinity". South Arabian art forms mirror very closely those of the Mediterranean world, and it is only

to be expected that currents of thought should do the same; Grant's observation is most likely to be applicable to South Arabia as well.

Yet these considerations alone are hardly enough to explain the abruptness of the 4th century change to Raḥmānism. Official and popular cults commonly survive long after they have lost their appeal for thinking men. For instance, it was not until 495 A.D., nearly two centuries after the age of Constantine and more than a century after Christianity became the religion of the empire, that Pope Gelasius succeeded in supressing the celebrating in Rome itself of the pagan festival of the Lupercalia. The widespread adoption of Raḥmānism should be attributed at least in part to political factors.

The ancient polytheistic cults had been intimately bound up with social and political structure. They were the expression of the self-identification of social groups, whether at the level of the clan, the tribe or the nation. The Sabaean deity Ilmūqah embodied the national consciousness of the Sabaean kingdom, and the other ancient kingdoms similarly had their own national deities. So long as Saba' retained, or could hope to retain, its separate independence, the maintenance of at least the outward forms of the Ilmūqah cult was vitally necessary for the maintenance of national morale. But when the Tūbba' dynasty was securely established in control of a dominion vastly greater than that of the older Sabaean kingdom, the retention of the external forms of the individual national cults became meaningless, and in fact harmful to the cause of forging a new South Arabian national consciousness transcending the older national boundaries. This, however, did not happen quite immediately on the establishment of the Ḥimyarite dynasty. The famous Shammar Yūhar'ish (Yur'ish) and his coregent father Yāsir were the first rulers of Saba' who claimed in addition to be kings of Ḥaḍramawt; yet in the same period, Yāsir was still waging war on native 'kings of Ḥaḍramawt'(14), and Shammar (probably slightly later) was obliged to conciliate Ḥaḍramite nationalism by sending an embassy to attend the festival of the Ḥaḍramite national deity.(15) In this phase, it was clearly in the interest of the Sabaean rulers to seek the support of traditional Sabaean nationalism through the medium of the Ilmūqah cult.

In the middle parts of the 4th century there appears to be a gap in our Sabaic-language sources, and it has sometimes been held that this is attributable to an Axumite intrusion into the South Arabian area, signalized by 'Ēzāna's use of the Sabaean royal title. If this assumption is valid, it would certainly furnish an excellent reason for the final collapse of Sabaean self-confidence and trust in the national deity Ilmūqah.

The picture presented above is, however, slightly over-simplified in some ways. Quite recently, we have gained knowledge of two texts which show a limited persistence of the older cults. **MAFY-Bani Zubayr 2**(16) is dated right at the end of the 4th century A.D., and mentions a sanctuary of Ta'lab, the tribal deity of the Sam'ay folk in the Arḥab region; the location of the inscription is 4 km north of Jabal Ḏīn, in territory anciently connected with the Ta'lab cult and somewhat provincial in relation to the great centres at Ma'rib, Ṣan'ā' and Ẓafār, and hence presumbly a surviving pocket of ancient paganism.

The other inscription, **Gr 27**,(17) is more puzzling. It is from Ẓafār, and records the reconstruction of a building "after it had been destroyed by the Ḥabashites". The palaeography, and the occurrence of the name Sharaḥbi'il (unattested in this form in the pre-Ḥimyaritic period), point to a fairly late date. Yet the last line, regrettably fragmentary, reads "... 'Athtar Shariqan and their god and ...". 'Athtar was the principal deity of the polytheistic pantheon, usually mentioned first in lists of deities invoked, and worshipped alike in all the ancient kingdoms. His appearance here raises problems which it is impossible to solve satisfactorily, specially in the absence of a full context.

With regard to Christianity before the reign of Yūsuf, it has to be said that there is a small group of rock inscriptions in the Yanbuq ravine, in the Wādī Ḥabbān, datable to the very beginning of the 6th century, i.e. probably in the time of Yūsuf's immediate predecessor; and one of these has a cross at the end. Whether

this can be taken as definitively Christian is perhaps not absolutely certain.(18) If it is, however, it is not surprising, nor does it affect the general picture; by the beginning of the 6th century Christianity was certainly established in Najrān, and external sources mention Ḥaḍramawt along with Najrān as centres of Christianity.

Finally, I must say a few words about a topic with which I began my paper as delivered at the Symposium, and which caused difficulty to Jamme. The suggestion which I made was that there are some tendencies visible already before the 4th century which may have to some extent paved the way for monotheism; by this I meant tendencies towards what has been called henotheism, namely, the view that one god is entitled to the special worship of a particular individual or group, without any denial that other deities exist. In citing the Sam'ay cult of Ta'lab as an example of this, I certainly never intended to suggest that Sam'ay was unique in this respect, nor that a henotheistic attitude was universal even in Sam'ay. Both there and in other social groups, dedications, expressions of thanks, and petitions for favour may be addressed to one deity or to more than one; but a great majority of texts conclude with a final invocation, "by" one or more deities, and it is indeed rare for a Sam'ay text to have a final invocation by more than Ta'lab alone.

Notes

(1) *E.g. Répertoire d'épigraphie sémitique* 2693/6.

(2) The kingdom of Qatabān seems to have disappeared from the political map somewhat earlier.

(3) *Le Christianisme en Arabie du Sud préislamique* (Acc. naz. dei Lincei, anno 361, Atti del Convegno internaz. sul tema L'Oriente crist. Roma 1964), 426.

(4) *Deutsche Aksum-Expedition* no. 11.

(5) M. Rodinson, *Annuaire de l'école pratique des hautes études,* IVe section, (Rapports sur les conferences éth. et sudar. (1970/1)), 162.

(6) I. Shahid rightly remarked, in connection with the letter of Constantius, that in interdenominational exchanges it is common to avoid points of difference and concentrate on what is common ground.

(7) Irfan Shahid, *The Martyrs of Najran, New Documents* (Bruxelles, 1971), 242 ff.

(8) The occurrence of graffiti and short inscriptions in this area in South Arabian script does not show that the area belonged to the South Arabian culture proper: the script was widely used in areas adjacent to, but not part of, that culture, as for example at *Qarya* (al-Faw) and on the Gulf Coast.

(9) R. Degan and W.W. Müller, *Eine hebräisch-sabäische Bilinguis (Neue Ephemeris für sem. Epigraphik,* 2, 1974), 118 ff.

(10) *Op. cit.,* 439.

(11) *Ta'rīkh,* (ed. de Goeje), i. 905.

(12) "Pre-Islamic monotheism in Arabia", *Harvard Theological Review* 55 (1962), 269-80.

(13) *The Roman Forum* (London, 1970), 58.

(14) A. Jamme, *Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis* (Baltimore, 1962), **no. 665.**

(15) M. al-Iryānī, *Fī ta'rīkh al-Yaman* (San'ā', 1973), 184.

(16) Chr. Robin, 'Le pays de Hamdan' (unpublished thesis, Paris 1977), 395.

(17) Yuzhnaya Araviya, *Pamyatniki drevei istorii i kulturi* 1 (Moskva 1978), 37.

(18) My attention to this text has been drawn by Chr. Robin. The cross has been used for decorative or symbolic purposes in many places in the world with no Christian associations; and its adoption as a distinctively Christian symbol is relatively late, and not found in the earliest centuries of Christianity.

V: HISTORICAL PERIOD
(FROM 1ST. CENT. A.D. TO RISE OF ISLAM).

CONTRIBUTIONS ON THE SUBJECT.

Survey of the History of the Arabian Peninsula from the First Century A.D. to the Rise of Islam

Walter W. Müller

The attempt to give within a limited time a survey of the political history of the Arabian Peninsula covering a period of more than six centuries can only result in an historical picture of a relatively small scope. But even then we are confronted with many difficulties: we do not possess indigenous annalistic reports for this period, and authentic sources from the Arabian Peninsula consist almost exclusively of inscriptions and graffiti. These inscriptions, however, even if they are–as in the case of ancient South Arabia–relatively numerous and well preserved, can only seldom be arranged in a chronological order; and to obtain trustworthy dates for North Arabia we have to refer mainly to Greek and Roman historical sources. In the intended survey, at first an attempt will be made to gather the confirmed historical dates of the Arabian Peninsula from the first century to the beginning of the seventh century in order to obtain a fairly reliable frame-work for the history of this period. The datable events and other occurrences, the dates of which are approximately certain, are enumerated and put into an historical context for each century, first for the south of the Arabian Peninsula and then for the north. The year 115 B.C. (plus or minus one year) is taken as the beginning of the so-called Ḥimyaritic era.

The first decades of the 1st century A.D. in the history of South Arabia are only very inadequately documented by inscriptions. The Minaean kingdom had already ceased to exist and had been annexed by Saba'; consequently the trade on the incense-road to the north had fallen into the hands of the Sabaeans. Another ancient South Arabian kingdom, Qatabān (or Qitbān) had become insignificant. Her capital Timna' (or Tumna') was in the first quarter of the 1st century destroyed by Ḥaḍramawt which had grown strong, and great parts of the Qatabānian realm fell to Saba' and Ḥaḍramawt and also to Ḥimyar which hitherto had been tributary to Qatabān. The Ḥimyarites were the great rising power in the South Arabia of that time; they conquered regions which had formerly belonged to Qatabān and Saba' and founded their capital Ẓafār with the castle on top of Mount Raydān. Their rulers even laid claim to Saba' and called themselves "kings of Saba' and Dhū Raydān"; these titles were from now on also assumed by the kings who resided in Ma'rib in order to confirm on their part their legitimation as sole rulers in the Yaman. The earliest mention of the Ḥimyar is probably to be found in the Ḥaḍramitic inscription **RES 2687** from the beginning of the 1st century; it reports on the construction of the wall of Qalat (the present-day Libnā), in order to defend Ḥaḍramawt in the south against the Ḥimyar who at that time, as it seems, had already taken possession of a great part of the coast. The Ḥimyaritic metropolis Ẓafār, which from now on competed with Ma'rib for supremacy, is mentioned as *Sapphar* for the first time in the *Natural History*(1) of Pliny who worte at the time of the Roman emperor Nero (54-68). Ḥaḍramawt extended her territory to the east. King Il'adhdh Yaliṭ sent a commander-in-chief to Sa'kalān (the present-day Ẓufār) who returned this country, which at that time perhaps belonged to the Parthian empire, into the possession of Ḥaḍramawt; settlers from the Ḥaḍramitic capital Shabwa founded the fortified town of Samārum near the present-day Khōr Rōri. The only dated text from that time is a building inscription from Hakīr set up in the year 167 of the Ḥimyaritic era = 52 A.D. which reports on the construction of a cistern and of wells **(Hakir 2)** but does not give the name of a ruler. The *Periplus Maris Erythraei* will be disregarded in this survey because of the uncertain temporal setting of this Greek handbook for sailors. Towards the end of the 1st century a turbulent period began which lasted for one and a half centuries and during which the Yaman was weakened by internal dissention. Beside the traditional reigning house in Ma'rib and beside Ḥimyar further dynasties were struggling for supremacy; these were four dynasties in the Yamanite highlands, that is the Banū Bata' in Ḥāz, the Hamdānides in Nā'iṭ, the Marthad in Shibām Aqyān and the Gurat at the foot of Jabal Kanin.

The mightiest realm in North Arabia in the 1st century was, above all, undisputedly the Nabataean kingdom whose datable kings can be traced back to the year 169 B.C. Nabataean inscriptions are to be

found from the Peninsula of Sinai in the west to Ḥā'il in the east and from Damascus in the north to Hegrā (Madā'in Ṣāliḥ) in the south. The Nabataean kingdom reached the culminating-point of its power under the reign of Aretas (Ḥārith) IV (9 B.C. - 40 A.D.); according to the testimony of the apostle Paul(2) around the year 37 even Damascus was under his dominion. In the year 70, however, Rabb'el II mounted the throne as the last Nabataean king. Of another Arab king named 'Akbar who resided in *Emesa* (Ḥimṣ) we hear that he supported the Romans in their struggle against the Parthians in the middle of the 1st century.

After the fall of Timna' Dhū Ghaylim (i.e. Ḥajar bin Ḥumayd) with its palace Ḥarib seems to have become the capital of what was left of the former Qatabānian realm; in the first half of the 2nd century the kingdom of Qatabān finally ceased to exist and was annexed to the Ḥaḍramitic empire. The traditional dynasty in Ma'rib came to an end, too, in the course of the 2nd century. Henceforth Ma'rib no longer played a role as capital; it was, however, still a town of great prestige and influence, especially in its function as a religious centre. 'Alhān Nahfān, a ruler of the Hamdānides who lived in the last quarter of the 2nd century, concluded a treaty with Gadūrat, the king of Ḥabashat and of the Axumites **(CIH 308)**; his son, however, waged war against this Abyssinian king. This son, Sha'irum Awtar, brought for some time vast parts of the Yaman under his control. At the end of the 2nd century he even subjugated Ḥaḍramawt temporarily by conquering its capital Shabwa **(Iryânî 13)**, and returned from this campaign with super-abundant booty.

In North Arabia in the year 105 the Roman legate Cornelius Palma was given order by emperor Trajan to liquidate the Nabataean kingdom. The northern part of the Nabataean dominion was at first joined to Syria and Palestine; in the year 106, however, it became the autonomous province of Arabia under an imperial legate who resided in Petra and later on in Bostra; the particular era of the town of Bostra was derived from this event and held good in North Arabia for some centuries. The southern part of the Nabataean dominion became a Roman sphere of influence and lost more and more of its importance. The reason for not mentioning the name of Dēdān (al-'Ulā, Madā'in Ṣāliḥ) in this survey is that scarcely any reliable historical dates are available on this oasis for the time in question here. From the 2nd century we also possess some dated Ṣafa'itic graffiti which, however, do not report on any remarkable event. The last Liḥyanite inscriptions also derive from the second half of this century; they show the beginning of the bedouinisation of Arabia and indicate at the same time the onset of an Arabic literary language. Since the time of the Sabaean kings 'Alhān and Sha'irum Awtar Bedouin camel-riders and later on also horse-riders were increasingly taken into service by the South Arabian rulers after the strategic significance of the riders in warfare had been recognized. The geographer Ptolemy of Alexandria who wrote in the second third of the 2nd century lists on his map of Arabia for the first time the town of Makka under the name *Makoraba* (= makāriba "sanctuaries"?). The Sabaean king Sha'irum Awtar who has been mentioned repeatedly is the first South Arabian ruler of whom we know who undertook campaigns north of Najrān; he led an expedition against Rabī'a Dhū' Āl Thawr, the king of Kinda and Qaḥṭān, in Qaryat Dhāt Kāhilim (i.e. in *Qarya* (al Faw); **Ja 635**).

A South Arabian building inscription **(RES 4196)** from the year 316 H.E. = 201 A.D. reports on the construction of two cisterns at the time of the two Ḥimyaritic kings Yāsirum Yuhan'im (I) and Shammar Yuhar'ish (I); the latter is identical with Shammar Dhū Raydān who was the adversary of Ilsharaḥ Yaḥḍib and Ya'zil Bayyin. These two kings were descendants of the dynasty of Gurat and exercised sovereignty in co-regency. They fought together successfully against the Ḥimyar and brought large parts of the Yaman under their sway. The inscriptions **Ja 574-600** from the temple Awām (Maḥram Bilqīs) near Ma'rib inform us of their military enterprises, especially the long texts **Ja 576** and **577**. The inscription **Ja 576** mentions among others the capture of a king of the Kinda named Mālik ***(mlkm)***, and **Ja 577** reports on a campaign against Najrān from which the Abyssinians were expelled; at the end of the text they boast of having exterminated every enemy from the north and from the south and from the sea and from the land. At the middle of the 3rd century only two dominions continued to exist in South Arabia: the Sabaeo-Ḥimyaritic empire, with emphasis on Ḥimyar, which probably comprised the whole of the Yaman, and the kingdom of Ḥaḍramawt which extended from the central region of what was formerly Qatabān to Ẓufār; the sporadic mention of

Qatabān in Sabaean reports on military campaigns had already come to an end at that time. A building inscription from Yakār (**CIH 46 = Gl. 799**), which was set up in the year 385 H.E. = 270 A.D., refers to the two kings Yāsirum Yuhan'im (II) and Shammar Yuhar'ish (II), likewise a text (**Gl 1594**) from Būsān from the year 389 H.E. = 274 A.D. and a further inscription from Hakir (**CIH 448 + Hakir 1**) from the year 396 H.E. = 281 A.D. which reports on the fortification of the town of Hakir under the two rulers mentioned above. In the last decade but one or in the last decade of the 3rd century the Ḥimyaritic king Shammar Yuhar'ish determined to conquer Ḥaḍramawt and to take in possession the whole of South Arabia. In a hitherto unpublished building inscription from Wa'lān from the year 409 H.E. = 294 A.D. Shammar is mentioned as sole ruler who already bears the title of a "king of Saba' and Dhū Raydān and Ḥaḍramawt and Yamanat", thus demonstrating the unity of South Arabia; Yamanat designates perhaps the region which lies between the Wādī Ḥaḍramawt and the coast, provided that it is not the name for the south-western corner of the Arabian Peninsula. Since Shammar also bears this longer title in an inscription which reports on a battle against kings of Ḥaḍramawt (**Ja 656**), the question arises whether he only claimed the possession of Ḥaḍramawt or Ḥaḍramawt made itself independent again after a transitory conquest. His governor in Ṣa'da was sent by Shammar as delegate to Ctesiphon and Seleucia, the royal cities of the Sasanian empire. This embassy probably took place before the year 297, that is, before the victory of the Roman emperor Diocletian through which the Persians lost Mesopotamia and the Tigris became the frontier between the two hostile empires. Shammar had peaceful connections with Kinda ***(kdt)***, for they are mentioned together with the Madhḥij as Bedouin mounted warriors in the army of the king.

About the beginning of the 3rd century a Sabaean inscription which became known only recently (**Zayd 'Inânî 75**) reports that under Ilsharaḥ Yaḥḍib envoys had been sent to the kings of the Ghassānids, al-Asd (= al-Azd), Nizār and Madhḥij; this text does not only offer the earliest attestation of the enumerated North Arabian tribes but provides at the same time the sole known references to the Ghassānids and Nizār in Sabaean inscriptions. Under Ardashīr I (227-241), the first ruler of the new dynasty, Baḥrayn and 'Umān (Persian Mazūn) came under the influence of the Sasanian empire. His successor Shāpūr I (241-272) transfered the rule over the Arabs in Babylonia to 'Amr ibn 'Adī from the lineage of the Lakhmids in order to protect this province, in which the capital Seleucia-Ctesiphon lay and which was endangered by incursions from the desert, against the North Arabian bedouins. The seat of this dynasty became the camp-town al-Ḥīra near the ancient Babylon which belonged till then to the large tribal confederation of Tanūkh, whose king Jadhīma is mentioned in the inscription of Umm al-Jimāl in Ḥawrān (about 270), an important document for the history of the development of the Arabic script. In the year 244 Philippus Arabs, the son of an Arab shaykh from the Trachonitis (Ḥawrān), became Roman emperor (until 249); in the very first year of his reign he came to an arrangement with the Persians, and in the year 247 he celebrated the brilliant millenary of the city of Rome. Since the year 260 king Odaenathus (Udhayna) of Palmyra who was an ally of Rome expanded his dominion by campaigns against the Persians so that emperor Gallienus bestowed on him the titles of a king of kings and of a *Restitutor totius Orientis* and had to appoint him co-regent (corrector) of the Orient. The city-state of Palmyra which lay on an important caravan-route was, it is true, an Aramaic foundation, but its inhabitants were mainly Arabs. When Odaenathus was murdered in 268 his widow, Zenobia (Zaynab), seized the reins of power; she extended the Palmyrene sphere of influence as far as Syria and Asia Minor and brought even Alexandria under her control. Her regency was one of the culminating-points in the political history of the Arabs in antiquity. This glorious epoch was, however, only of short duration; in the year 273 Zenobia was decisively defeated by emperor Aurelian and led as captive to Rome. Palmyra was destroyed and its region came anew to the Roman empire; one year after that event, in 274, the latest dated Palmyrene inscription was set up and concluded therewith an epigraphical period which lasted for 300 years. Approximately at the same time the Nabataean inscriptions also ceased; one of the last of them, engraved in the year 267, gives at the same time an assured date for a Thamūdic text which was incised next to it; this is a rare exception among the very numerous Thamūdic graffiti, which can only be arranged chronologically with some degree of difficulty. In the year 290 Diocletian had to avert at the border of the province of Arabia an incursion of Arabian tribes who were allied with the Persians; whether this was done even at that time with the help of the Ghassānids is not known.

The reign of Shammar Yuhar'ish in South Arabia probably lasted until the first years of the 4th century. In the long run he seems to have been successful in his struggle against Ḥaḍramawt since the last reference to Shabwa is to be found in Sabaean votive-texts from his time; finally Shammar may have borne rightly the title of a "king of Saba' and Dhū Raydān and Ḥaḍramawt and Yamanat". In the north he extended his dominion as far as Najrān which is called the town of Shammar in the inscription of al-Namāra; only still farther to the north a strong adversary arose for him in the person of Imru' al-Qays. Shammar united South Arabia into a mighty empire by a successful policy of expansion and decided the struggle for the production areas and trade routes in his favour. Ḥaḍramawt, it is true, was again lost to the Sabaeo-Ḥimyaritic rulers and had to be conquered anew under the kings Yāsirum Yuhan'im (III) **(Ja 665)** and his son Dhamar'alī Yuhabirr **(Iryânî 32)**; from that time on the reports of Ḥaḍramawt become more and more scanty, and those on Sa'kalān (Ẓufār) cease completely. The donation and erection of the famous bronze statues, which are above life-size and which were found during excavations at an ancient palace in Nakhla al-Ḥamrā' also took place under Dhamar'alī Yuhabirr. The first dated text from the 4th century is the rock-inscription of Maṣna'at Māriya engraved in the year 434 H.E. = 319 A.D. It reports that under Tha'rān Yuhan'im, the son of Dhamar'alī Yuhabirr ways were laid out leading from Sami'ān (Maṣna'at Māriya) into the mountains of Ḥarāz in the region of Manākha. The first epigraphically attested bursting of the dam of Ma'rib falls in the reign of Tha'rān Yuhan'im and his son Malikkarib Yuha'min **(Ja 671)**. The votive-texts from the period of this first bursting of the dam end at the same time the long row of texts which were set up for the god Almuqah in the temple Awām (Maḥram Bilqīs) near Ma'rib. The multitude of the celestial deities was replaced by Raḥmānan, the lord of heaven and earth, and the old temples became desolated since the rulers professed monotheism. The soil for this monotheism had been prepared by Jewish and Christian missionary labours. We know, for example, from the Greek ecclesiastical history of Philostorgios that at the time of the Roman emperor Constantius II (337-361) bishop Theophilos was sent around the year 354 from the island of Sūqutra to the Ḥimyaritic court, which led to the foundation of several Christian communities and to the construction of churches. The two last dated South Arabic inscriptions from the 4th century are from the year 493 H.E. = 378 A.D. **(Glaser 389** and **Bayt al-Ashwal 2)**; Malikkarib Yuha'min and his sons, Abūkarib As'ad and Dhara''amar Ayman, were rulers at that time and built two palaces in Ẓafār, the capital.

In North-East Arabia the littoral area with its main town of Gerrha including the coastal strip of 'Umān was occupied by the Persians and was put under the command of the Lakhmids after this region had come under Iranian cultural influence long before this. In the funerary inscription of al-Namāra which was set up in 328 Imru' al-Qays ibn 'Amr is desginated as "king of all Arabs"; at his time he associated himself with the Roman empire which then had grown strong in the east. His real power probably extended only over the tribes of the Asd (Azd) and Nizār, nevertheless he carried out raids as far as Najrān and subdued the Ma'add and Madhḥij (***mḥgw***, perhaps ***Ma'ḥig*** in the Namāra inscription; epigraphic South Arabic ***mḏḥg***). Thus the Kinda and Madhḥij moved by way of evasion to the south; later on the Madhḥij settled in the region which in ancient times belonged to Awsān and which is designated by al-Hamdānī as Sarw Madhḥij. After the death of Imru' al-Qays his Arabian realm failed quickly; his successors, on whom the title of king was bestowed, became governors of the Sasanids in al-Ḥīra. The latest Thamūdic graffiti also extend to the 4th century; these epigraphic documents come from widely dispersed regions, especially in the western and central parts of North Arabia, chiefly in Midian, from the oases and from places along the ancient trade-routes far to the south. After the death of the Roman emperor Julianus Apostata on the way back from a campaign against Ctesiphon in the year 363 his successor Jovian made peace with Shāpūr II (309-379); by this peace-treaty, which was unfavourable for the Romans, the border of the Sasanian dominion was again removed far to the west. An increase in power of the Persian empire also meant at the same time a strengthening of the Sabaeo-Ḥimyaritic realm.

In the first third of the 5th century Abūkarib As'ad, who was one of the greatest figures in South Arabian history and whose name is kept alive in the memory of the Yamanites to this day, reigned over the Yaman. Under his reign the Sabaeo-Ḥimyaritic empire reached its greatest extension; he undertook cam-

paigns as far as Central Arabia, and it is said that he even came to Yathrib (al-Madīna). In the official formula of the ruler he introduced the titles "king of Saba' and Dhū Raydān and Ḥaḍramawt and Yamanat and of their (*pluralis majestatis*) Arabs (Bedouins) in the highland (*ṭwd*) and in the coastal plain (*thmt*)"; it is therewith expressed that beside the rural population of the Yaman the North Arabian Bedouins are recognized as a bearing element of the government and incorporated into the polity. An inscription dated in the year 543 H.E. = 428 n.Chr. (**Ry 534**) still mentions Abūkarib As'ad with his sons Ḥaššān Yuha'min, Sharaḥbi'il Ya'fur and at least one further son as co-regents. The reign of Sharaḥbi'il Ya'fur is relatively well attested by several dated inscriptions. During that time the dam of Ma'rib burst anew in the year 565 H.E. = 450 A.D., but it was restored in the same year after five months of repairs by a large employment of labour (**CIH 540**). Two inscriptions report from the year 572 H.E. = 457 A.D. that Sharaḥbi'il Ya'fur had a magnificent edifice constructed.(3) A building inscription from the year 573 H.E. = 458 A.D. mentions a certain ***'bdkllm* (CIH 6)** who is perhaps identical with the elder of the two 'Abd Kulāl (ibn Dhi'l A'wad) whom Arab tradition still knows by name; like the preceding one, a further building inscription from the year 574 H.E. = 459 A.D. (**Ry 520**) does also not give the name of a ruler. The text **CIH 644,** most probably set up in the year 575 H.E. = 460 A.D., originates already from the reign of king Sharaḥbi'il Yakkaf. A building inscription from the year 582 H.E. = 467 A.D. gives the name of Sharaḥbi'il Yakkaf and of three of his sons as co-regents (**CIH 537 + RES 4919**). The last building inscription from the 5th century, dated in the year 614 H.E. = 499 A.D., reports on the erection of a stately house in Ma'rib showing thus that the prosperity of this town had not yet passed away; at that time Marthad'ilān Yanūf was king (**Fa 74**).

At the beginning of the 5th century the Lakhmid king al-Nu'mān I al-A'war (400-418) reigned in al-Ḥīra; his son and successor al-Mundhir I (418-462) exercised already such a great influence that he could intervene in the quarrel about the succession to the Persian throne. Abūkarib As'ad came on a campaign to the north against the tribal confederation of the Ma'add as far as the Wādī Ma'sil (**Ry 509**); later on there arose in Central Arabia a new kingdom of the Kinda, the founder of which was Ḥujr Ākil al-Murār. In the last decade of the 5th century Ghassānids, Kindites and Arab tribes allied with them repeatedly undertook incursions into Byzantine territory; only after some years were they forced by a Roman counter-attack to retreat again. In east Arabia under the weak rule of the Sasanid Kawādh (488-531) the immigration from the west to 'Umān reached its high point; North Arabian tribes like the Azd Shanū'a created there for themselves new tribal territories.

The first South Arabic inscription from the 6th century which mentions a ruler was set up in the year 619 H.E. = 504 A.D. It reports that under king Marthad'ilān Yanūf an Abyssinian embassy built a house in the capital Ẓafār.(4) In the year 631 H.E. = 516 A.D. the then king Ma'dīkarib Ya'fur undertook a campaign to Central Arabia, again as far as the Wādī Ma'sil in the region of the Ma'add, in order to fight against rebellious Bedouins (**Ry 510**). In the following year the "king of all tribes", Yūsuf As'ar Yath'ar (Dhū Nuwās) from the family of the Dhū Yaz'an, was already in power and starts his warlike enterprises against the Abyssinians who were in South Arabia and against the Christians who were allied with them and protected by them. The Abyssinians in Ẓafār were exterminated, their castles in Shamīr were taken possession of and the Yamanite coastal plain was reconquered. The town of Najrān had to give hostages and the acesses to that oasis were cut off (**Ry 508, Ry 507, Ja 1028,** incised in the rock in the year 633 H.E. = 518 A.D.). Shortly after these events, namely at the end of the year 518 (and not, as hitherto has been assumed, in the year 523), the besieged town of Najrān was occupied and the Christian community massacred. This unprecedented occurrence led the Abyssinians to prepare a military intervention. In the year 525 the invasion took place under king Ella Aṣbeḥā with the help of a fleet which was placed at the Abyssinians' disposal by Byzantium; thereby Yūsuf was decisively defeated and killed (*cf.* probably **CIH 621** from the year 640 H.E). The Yaman became an Abyssinian dominium under Simyafa' (Εσιμιφαῖος), the native Christian vassal, until finally the Abyssinian comander Abrehā (Abraha) ascended to power. In the year 657 H.E. = 542 A.D. Abraha was still viceroy or governor of the Abyssinian Negus (**CIH 541**); in that year a new rupture of the dam of Ma'rib took place, and a large employment of workmen and an enormous expediture of

material was necessary to restore it. Abraha received envoys of the Abyssinian ruler, of the powers Byzantium and Persia, which waged war against each other at that time, and of the Lakhmids and Ghassānids. In an inscription from the year 662 H.E. = 547 A.D., which reports on a campaign against the rebellious Ma'add in Central Arabia, Arbaha bears already the title of a king, as well as in a text from the year 668 H.E. = 553 A.D., which was found near the dam of Ma'rib (**Ja 546 + 545**). From the year 669 H.E. = 554 A.D. originates the youngest dated inscription of the Ḥimyaritic era (**CIH 325**); with this text a richly documented epoch comes to an end, announcing, so to speak, the fall of the Sabaeo- Ḥimyaritic empire. The social tensions, which were nevoked by an excessive feudalism, the religious contestations and the increasingly strong influence of the Bedouin element had gradually prepared the definite collapse of the ancient South Arabian culture. The events of the second half of the 6th century which are hardly datable are not more than sequels. In that period falls the catastrophic destruction of the dam of Ma'rib of which mention is made in the 34th *sūra* of the Qur'ān and which caused the desolation of the oasis of Ma'rib. Between 570 and 575 the Persiophil party in the Yaman made contacts with the Sasanid king of kings by way of the Lakhmid sovereigns in al-Ḥīra; the Persian king sent troops under the commander Wahriz, and with the help of these forces the semi-legendary Sayf ibn Dhī Yazan succeeded in expelling the Abyssinians from the Yaman. South Arabia became a sphere of influence of the Sasanid empire under a Yamanite as Persian vassal. When later on anti-Persian tendencies made themselves conspicuous, an army was again sent to the Yaman, and in 597/8 South Arabia became a province of the Sasanid empire under a Persian satrap. This measure was a consequence of the Sasanid power-politics under Khosrau II Parwēz (590-628) who wanted to secure even regions on the outskirts of the Persian realm like the Yaman.

Around the beginning of the 6th century the tribe of the Quraysh under Quṣayy with the by-name Mujammi', "the unifier", took possession of the town of Makka; the Quraysh laid the foundations of the prosperity of this important Arabian religious and economic centre. After repeated incursions into Roman territory at the beginning of the 6th century the Ghassānids were taken into service by the Byzantines and entrusted with the defence of the Syrian border-land; the Ghassānids were originally a South Arabian tribe which had migrated rather early to the north and finally settled in the plain south-east of Damascus. By engaging the Ghassānids under their ruling family, the Jafnids, the Byzantines provided for themselves a counterbalance against the Lakhmids, the Persian vassals in al-Ḥīra. One of the most remarkable sovereigns of the Lakhmids in the 6th century was al-Mundhir III ibn al-Nu'mān (505-554) who quite deserves to be mentioned beside other contemporary rulers like Justinian, Khosrau I Anūshīrwān, Yūsuf Dhū Nuwās and al-Ḥārith ibn Jabala; under him the dynasty of the Lakhmids reached its greatest power and prestige, and its territory comprised large parts of North Arabia. When in the year 516 the South Arabian king Ma'dīkarib Ya'fur marched to Central Arabia to fight against rebellious Bedouins, he was supported in this battle by al-Mundhir ***(mdrm)***. In the years 519/20 al-Mundhir repeatedly undertook on his own incursions into Roman territory, although there was peace between Persia and Byzantium at that time, and in 532 he even received tribute from the Roman emperor after peace was concluded between the two great powers of that period. As a vassal of the Sasanids he was, however, engaged in continuous struggles with the Ghassānids; in one of these battles he was killed. Besides the realms of the Lakhmids and Ghassānids in North Arabia and besides smaller Arab principalities, which will be passed over in silence, mention must be made of the kingdom of the Kinda. Their most renowned ruler in the first half of the 6th century was al-Ḥārith ibn 'Amr. He brought vast regions of East Arabia and the whole of Ḥadramawt under his dominion, and in the years 525-528 he even succeeded in taking possession of al-Ḥīra. When the Lakhmids reconquered the town he was killed by their king al-Mundhir III with his own hand; after the death of al-Ḥārith ibn 'Amr the kingdom of the Kinda lost its importance, in the middle of the 6th century, however, the "Royal Kinda" *(kindat al-mulūk)* still reigned over large parts of Central and East Arabia. The first historically assured sovereign of the Ghassānids and at the same time their most eminent ruler was al-Ḥārith ibn Jabala (529-569); he was a great warrior who extended his dominion in the north to the Euphrates and in the south far into the land east of the Jordan. After he had defeated and killed the Lakhmid king al-Mundhir in 554 in the battle on the "day of Ḥalīma", al-Ḥārith was honoured by emperor Justinian (527-565) with the title of a *patrikios* and

phylarch. His later Lakhmid opponent 'Amr ibn al-Mundhir (554-569) was also a great warrior; already before 'Amr became king, Abraha placed the tribal confederation of the Ma'add under his command. This occurred during Abraha's campaign to Central Arabia in the year 547 after the Roman-Persian war which took place from 540 to 546. This first campaign of Abraha to the north was perhaps only the prelude to the other major one which was borne in the minds of the Arabs because of the elephant which accompanied the army. This second campaign, which, however, did not reach its destination, namely Makka, and had to be broken off without success, is said to have taken place in the year 570 in which according to the Islamic tradition, the Prophet Muḥammad was born. After the death of the Ghassānid al-Ḥārith his son al-Mundhir (569-581) ascended to power. He continued waging war successfully against the Lakhmids and he even burnt down their residence al-Ḥīra. Therefore emperor Tiberius II (578-582) felt compelled to offer him the crown of the king instead of the diadem; later on he fell under suspicion of a conspiration with the Persian, was brought as captive to Constantinople and died in exile in Sicily. His son and successor al-Nu'mān (581-584) tried, indeed, to avenge his father by invading Byzantine territory; he fell, however, into the hands of the imperial troops. After his death the reigning house of the Jafnids failed, and the kingdom of the Ghassānids was dissolved into a number of fragmentary principalities. With the accession to the throne of the contemporary Lakhmid king of the same name, al-Nu'mān III (580-602), the time of the last ruler of an autonomous realm had come as well. After he had first succeeded in gaining more independence following the peace treaty between Khosrau II and Mauricios in the year 591, his relations with the Persian king of the kings later on took a turn for the worse; he finally had al-Nu'mān murdered in Ctesiphon.

After the death of al-Nu'mān III in the year 602 the Lakhmid kingdom with its capital of al-Ḥīra became *de facto* a province of the Sasanid empire under a Persian satrap. The consequence was that most of the Bedouin tribes which had acknowledged the authority of the Lakhmids became disloyal. Only few years later Arab Bedouins invaded Mesopotamia and inflicted a decisive victory over the Persians at Dhū Qār; also Baḥrayn and 'Umān were lost for the Sasanid empire. A Ghassānid, Abū Ḥujr al-Nu'mān, tried in the first decade of the 7th century to restore the former glory of his dynasty by undertaking extensive raids to the east and south. When, however, Syria was conquered by Khosrau II Parwēz in the year 613/4, the end of the Ghassānids had also come. It remains uncertain whether the Byzantine emperor Heraclius (610-641) renewed the phylarchate of the Ghassānids after the reconquest of Syria in the year 629.

With the decline of the client kingdoms Central Arabia grew strong and Makka, the centre of the Quraysh, occupied a more and more important position. The appearance of the Prophet Muḥammad and the formation of the Islamic community made Central Arabia the cradle of a new universal religion. When after the death of Khosrau II Parwēz in the year 628 the then Persian governor in the Yaman accepted Islam, the Arabian Peninsula was for the first time in its long history also politically united. It had already at that time displayed a power which neither the Sabaeo-Ḥimyaritic empire nor Palmyra had ever known in their heyday.

Notes

(1) VI, 104.

(2) **II Corinthians 11:32.**

(3) *AION* 29 (1969), 560.

(4) *AION* 30 (1970), 546.

Nabataeans and Romans in the Wādī Sirḥān

G.W. Bowersock

The experience of the Nabataeans in building up an influential kingdom from nomadic beginnings gave them an exceptional skill in dealing with the nomads inside and outside of their borders. Or, to be more precise, they knew that in the desert there were no real borders at all; to safeguard their cities and crops as well as to maintain inland trade they had to control the movement of tribes far out in the desert itself. Recent epigraphical discoveries in places that foreigners have rarely visited show the Nabataean presence and domination. Of these the deep inland depression of the Wādī Sirḥān, with its scattered oases, which constitutes the principal desert route from the Arabian Peninsula into Syria, is as prominent in Nabataean administration as the gloomy basalt country of northern Jordan and southern Syria and the bleak north-west corner of Saudi Arabia.

Graffiti allude mysteriously but unmistakably to wars of Nabataeans with nomadic tribes. A well-known Ṣafa'itic text, first published by Littmann[1] records ***SNT ḤRB NBṬ*** "the year of the Nabataean War". Recently, F.V. Winnett and G. Lankaster Harding have published another Ṣafa'itic text with the same words.[2] Both are best understood in terms of local conflicts with Ṣafa'itic tribes (not, certainly, wars with Rome, for which **Winnett-Harding 1734=2815** may possibly be relevant). One Nabataean inscription from the oasis of al-Jawf,[3] far out in the desert at the southern end of the Sirḥān, testifies to the presence of a ***RB MŠRYT'*** – the head of the camp, whose title is evidently a Semitic version of the Greek *stratēgos* or, as it appears in Semiticized dress, ***'SRTG'***. Forts and fortified cities were built by the Nabataeans in the desert to monitor tribal movements and to intimidate the nomads far from the settled land. The Nabataeans were adept in the use of camels, like their fellow-Arabs, the Palmyrenes, to the north.

The Nabataeans' desert patrol was in their own interest in the first century, when their kingdom flourished. But it was equally in the Romans' interest because incursions of nomads into Nabataea would automatically take them to the gates of Syria and Palestine. In the Syrian desert above the Nabataean sphere of influence, the Palmyrenes were exercising much the same kind of vigilance as the Nabataeans. It was they who kept the line of trade and communication open to the Euphrates from the great cities of Damascus, Emesa and Antioch. The Palmyrenes functioned as Roman clients like the Nabataeans. Both Arab peoples had commercial interests of their own, whose protection was of advantage to the Romans as well.

As Glueck and Stein both surmised,[4] the Nabataeans made good use of the Wādī Sirḥān as an inner passage for commerce with the north. The *wādī* communicated directly with the environs of Bostra and explains, in part, the growing pre-eminence of that city – from which links with Damascus were well established. At the southern end of the Sirḥān lay the significant stations of al-Jawf and Sakaka. In the former, the Nabataean presence has been attested for some time, notably by the military inscription found there;[5] and the investigations of Winnett and Reed[6] have confirmed it. At Sakaka as well Winnett and Reed discovered, just as was to be expected, evidence of Nabataean occupation.[7] At the north of the Sirḥān, the story is the same. Nabataeans are now documented in the salt villages, at Ithra. From there tribes and traders could pass directly to Azraq and on to major Nabataean settlements on the way to Bostra, especially Umm al-Jimāl.

Although precise details of Nabataean activity within the Wādī Sirḥān are not yet available, it is clear in general that nomads were a serious threat right down to the Roman annexation of trans-Jordan as *provincia Arabia* in A.D. 106. It is not only the graffiti that evoke the struggles between the Nabataeans and the raiding desert people, but also the signs of destruction at excavated Nabataean settlements where the archaeological record is punctuated by periodic fresh starts. One dossier of graffiti examined by Winnett[8] points to a major tribal rebellion by a certain Damasī in A.D. 71 at the time of the accession of the last Na-

bataean king, Rabbel II. The implication is that the leaders of certain desert tribes had formerly been co-opted by the Nabataean administration and were disappointed, at a time of changing authority, not to be preferred for positions of trust in the control of the desert. The traditional titulature of the new king, as seen on inscriptions, "he who brought life and deliverance to his people," may well refer to this crisis of his accession. Certainly no better explanation has been produced, and this one suggests a reasonable, if occasionally risky policy of using nomadic groups as allies of the government of the sedentary nation at the edge of the desert.

The disturbances that shook the last decades of Nabataean rule have important implications for the historian of the Wādī Sirḥān. For it was precisely during this period at the end of the first century A.D. that the centre of gravity in the kingdom was shifting from Petra to Bostra, where it was to remain under Roman rule. The diminished role of Petra seems to have been due, in large measure, to the enfeeblement of the old overland trade route after the discovery of the commercial utility of the monsoons. Trade that formerly passed northward through Petra to Gaza was going more and more to the Egyptian coast and thence north to the Mediterranean. Inland traffic became concentrated on the Wādī Sirḥān, which provided an efficient route for conveying goods from the ports on the east coast of the Arabian Peninsula as well as from the south.

When King Rabbel II died in 106, no suitable successor seems to have been available; it may also have become obvious to the Roman authorities in Syria and perhaps even to their representatives at Palmyra that the Nabataeans were no longer able to administer the huge tracts of desert under their control. These tracts extended by then deep into the Arabian Peninsula and, as we have seen, included the main interior commercial route to the north through the line of oases in the Wādī Sirḥān.

The annexation of Arabia appears to have been effected without any significant use of force. It was advertised by the slogan *Arabia adquisita* rather than *Arabia capta.* It was probably accomplised by mutual consent. From that moment, the Romans inherited the desert patrol of the Near East to the south of the region which was policed by the Palmyrenes. The extent of the Roman province was almost certainly identical to that of the Nabataean kingdom. Recent discoveries at Ruwwāfa in the Ḥijāz revealed the direct intervention of the provincial governor of Arabia in temple construction there;[9] and inscriptions showing *beneficiarii* between Madā'in Ṣāliḥ and al-'Ulā[10] imply, as M. Speidel has observed, the existence of a border station in that area. Furthermore, 'Abdullah Al-Wohaibi has demonstrated that the expression *Qurā 'Arabiyya* for a region in the Ḥijāz mentioned by Arab geographers preserves the ancient designation of the province of Arabia.[11] Qurā, which is the same here as *kūra,* represents the Greek *chōra* rather than (as suggested) the Latin *curia.*

With the evidence that has accumulated it has become clear that the Romans undertook from the start to continue and to strengthen the patrol system they took over; and they did this, as much as they could, with Nabataean personnel. Trajan, who authorized the annexation of the new province, was responsible for installing a legion there (I am now persuaded by M. Speidel that this was the III Cyrenaica) and for raising troops from the former Nabataean army both to serve in the legion and to supplement it with auxiliaries. The natives were particularly valuable to Rome for their expertise in mounted archery and in camel riding. Some indeed, like the new archery cohorts *Ulpiae Petraeorum* (Trajanic units from Petra), were used elsewhere in the Near East to reinforce defences. But there is explicit epigraphical testimony for the use of Nabataean cavalry in the III Cyrenaica and for camel riders in the Arabian *auxilia.* A group of rock inscriptions in the Ḥijāz in north-west Saudi Arabia records the presence of *dromedarii* in the the southernmost part of the Nabataean kingdom.[12] Some of the inscriptions are in Greek, some in Nabataean. One mentions, as we have already noted, a *beneficiarius.*

The presence of detachments of the III Cyrenaica deep into the desert at key points is now at last beyond doubt thanks to the new discoveries and proves that the Roman administration undertook a general

patrol of the desert, just as the Nabataeans did, far away from the settled areas. The pattern discernible in the Ḥijāz could be expected to recur in the Sirḥān. And it does. A centurion is strikingly attested at the main oasis of the central desert, al-Jawf, whence traders took the inner route of the Wādī Sirḥān into Syria. The inscription recording this centurion was courteously made public by Maḥmūd Ghul in 1972 at a conference on pre-Islamic Arabia at Harvard University. At the head of the Wādī Sirḥān are a cluster of military installations (forts or watchtowers) set up by the III Cyrenaica, some at Nabataean sites like the desert city of Umm al-Jimāl, others of a simple design on elevations or at oases. The system of forts and watch-towers provided for early warning as well as for the prompt intimidation and dispersal of nomadic raiders. I have outlined some of these developments in a previous paper.(13) The exact chronology of this Roman move into the desert, with the aid of experienced native recruits, is elusive; but the name *Ulpia* attached to various cohorts and cavalry units suggests that the strategy was adopted in principle by Trajan soon after he annexed Arabia and was carried forward by others.

Of subsequent emperors before the Tetrarchy Septimius Severus was particularly concerned to strengthen the desert defenses. This may have been due to his annexation of Mesopotamia, which required that the intervening tracts of desert be even more secure than before. In any case, his reign witnessed notable activity in the Arabian frontier zones, especially at the head of the Wādī Sirḥān in the vicinity of Azraq. In a recent article S. Thomas Parker and P.M. McDermott(14) have documented construction in the area of Qaṣr Usaikhin under Severus, and the well-known inscription of 213 at Qaṣr al Ḥallābāt presupposes attention to the site in the foregoing years. Severus' extension of the provincial boundaries of Arabia in the north, as demonstrated by Brünnow and Domaszewski(15) seems now, in the light of present evidence, to reflect a recognition of the control role of the Wādī Sirḥān in the administration of the area. That passage through the desert, from south to north (in the direction of Bostra and Damascus), was at least as crucial for trade and for control as the old King's Highway to the west.

It is gratifying to observe that the Nabataeans fully understood the importance of the Wādī Sirḥān in the geography of their realm. With their ancient desert traditions, that was to be expected of them. More remarkable perhaps was the Roman arrogation of the Nabataean organization of the region, with the help of the Nabataeans themselves. The Wādī Sirḥān played a vital role in the prosperity and the defences of Roman Arabia.

Notes

(1) E. Littmann, *Publications of the American Archaeological Expedition to Syria,* Part IV (1904), 143, no. 45.

(2) F.V. Winnett and G. Lankester Harding, *Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns* (1979), no. 2113.

(3) *Revue Biblique* 64 (1957), 215.

(4) *Journal of Roman Studies* 61 (1971), 221.

(5) *Revue Biblique* 64 (1957), 215.

(6) *Ancient Records from North Arabia* (1970), 15, 144.

(7) *Op. cit.*, 7, 144.

(8) F.V. Winnett, "The Revolt of Damasī: Safaitic and Nabataean Evidence", *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 211 (1973), 54-57.

(9) G.W. Bowersock, "The Greek-Nabataean Bilingual Inscriptions of Ruwwāfa, Saudi Arabia", *Le Monde grec: Hommage à Claire Préaux* (1975), 513-22.

(10) *Aufstieg und Niedergang* II. 8 (1977), 703-4.

(11) *The Northern Hejaz in the Writings of Arab Geographers 800-1150* (1973), 214.

(12) *Aufstieg und Niedergand* II. 8 (1977), 703-4.

(13) On *"Limes Arabicus", Harvard Studies* 80 (1976), 223.

(14) *ZPE* 28 (1978), 61-5.

(15) *Die Provincia Arabia* III, 268-70.

Qurayya and the Midianites

George E. Mendenhall

According to biblical tradition, the Prophet Mūsā was married to the daughter of a Midianite priest, and shepherd of large flocks, –and thereby hangs a tale, as the old English saying goes. The present paper is a tentative venture to reconstruct from all sources available from the ancient world a portrayal of the nature of that Midianite society, so that traditions that have been known for several millennia can be put into the context of cultural history and thus can be better understood. In particular, the archaeological researches of P.J. Parr and colleagues have produced extremely important evidence that fits extremely well the evidence from other sources. As a result, the Midianites who were barely more than a name dimly remembered from very remote traditions emerge into the full light of history–or at least, shall we say, into a twilight of history, to be more circumspect.

It is useful to summarize what is known about the Midianites from the biblical traditions, for they played a considerable role in the events that took place during the lifetime of the Prophet Mūsā, and for a short period afterward. Those traditions can now be dated at least roughly to the period between approximately 1225 B.C. and 1100 B.C., and a century later the situation in the Sinai and southern Transjordan is so radically different that it is necessary to conclude that Midianite society by that name, at least, no longer played a role in those regions and seems to have disintegrated as a social unit.

a) After the flight of the Prophet Mūsā from Egypt necessitated by his murder of an Egyptian overseer, he was given refuge by a Midianite, Jethro, and married the latter's daughter, Zipporah.

b) After Mūsā led a small band of slaves out of Egypt, there was a relationship with the Midianite clan or other group of his father-in-law. There are three recorded instances: a Midianite was guide in the Sinai desert; the organization of the society into sub-groups, and the Prophet Mūsā inviting his father-in-law to join his group in rejection of the *jāhiliyya* to worship one God. Jethro refused, preferring the life of the desert, and of his own society.

c) A confrontation between the band of Hebrews led by the Prophet Mūsā, and the king of Moab, Balaq ben Zippor induced the latter to send a delegation of Midianite elders all the way to northern Syria to fetch a diviner called Balaam to curse Israel. Until recently there was no conceivable context for this whole episode, and scholars usually dismissed the entire narrative as a groundless fairy tale. However, it does furnish two items of information that now do fit in with what is otherwise very probable. First, that Midianites comprised an important segment of the population ruled by a king of Moab, and second, that segment had some sort of contacts or affiliation with northern Syria.

d) Shortly afterward, the women of the Moabite kingdom held a festival dedicated to their pagan god, involving feasting, sacrifices, and ritual prostitution, to which the men of the Prophet Mūsā's group were invited and participated. The result was divine wrath in the form of epidemic disease, and a religious zealot felt impelled to punish the apostasy by murdering a Midianite princess, Kozbi, and her Israelite sexual partner. The aftermath was a war against the Midianites, and permanent hostility between them and the monotheists led by Mūsā.

e) A generation or more later, Midianite camel-riding raiding parties carried out *ghazwas* against the land of Palestine, and were defeated by the military leader, Gideon. The raiders wore gold rings and gold *śaḥaronim,* probably crescent moons, about their necks, and seem to have placed them also around the necks of their camels. We are told also that the leaders wore garments of *argaman,* usually identified with red-purple dyed wollen cloth, of the sort later associated with the textile industry of Tyre. It would be interesting if *murex* shell heaps were to be found along the shore of the Gulf of 'Aqaba, or the Red Sea.

f) This seems to be the last historical reference to the Midianites as an existing social entity in the biblical sources. In the Sinai and southern Transjordan, other tribal names are used instead, especially Qenite and Amaleqite.

g) Genealogical traditions that are exceedingly difficult to date derived Midian from Ibrāhīm/Abraham by a certain Qeṭurah (given the status of 'concubine' by the Israelite tradition–a familiar technique of genealogical "history"). The same tradition includes information that these sons of Ibrāhīm that included also Shēba and Dēdān were originally of Palestinian origin who migrated *to the East* "during the lifetime" of Ibrāhīm. In spite of very vigorous recent controversy, this tradition can reasonably be correlated with the period of chaos that marks the transition from the Early Bronze to the Middle Bronze Age, ca. 2100 B.C. to 1900 B.C. This same period has yielded archaeological evidence for a surprising number of settlements in the northern Sinai.

To summarize, the evidence from the oldest preserved traditions, the archaeological evidence available, and the linguistic evidence presented in the paper on "The Bronze Age Roots of Pre-Islamic Arabic"*(a) most remarkably coincide to support the same conclusion: that at the end of the Early Bronze Age there was a movement of people *from* Palestine *to* the East and South, toward the desert fringe where they rapidly adapted to a more harsh environment, and established a cultural tradition that in many features survives until the present day. Thus, in direct contrast to much modern scholarly opinion, the Midianites were by no means a primitive, undifferentiated nomadism with no cultural history, and with no ties to the more densely populated regions of the Syro-Palestinian area.

The Onomastic Evidence

The narratives summarized in the foregoing discussion fortunately include a number of personal names, most of which occur nowhere else in the biblical materials. Those names that are either specifically designated as Midianite or are closely associated with the Midianites are listed, and their Bronze Age antecedents as well as their pre-Islamic Arabic descendants shown in tabular form in Fig. 39.

Several comments are necessary at this point. An extended discussion on non-Semitic names in sources from the Late Bronze and Early Iron Ages has already been presented in *The Tenth Generation* (Johns Hopkins, 1973), and cannot be repeated on this occasion. It is a well-known fact that a high percentage of the kings of city-states in Palestine and Syria already in the Amarna Age had non-Semitic names, many of which stem from both Indic and Iranian branches of the Indo-European languages. It is also well-known that at Ugarit itself, for example, hardly half of the proper names stem from any of the various then branches of the Semitic languages which existed at that time, and the same is true to a lesser degree of cities further south. We are probably well justified, as the texts from Ebla may demonstrate, in concluding that the Eastern Mediterranean region has since the dawn of history been cosmopolitan, particularly the cities. There is, further, no evidence whatever for the modern idiocies of racist ideology.

The interpretation of personal names in ancient documents is admittedly and notoriously a most slippery and uncertain undertaking, particularly when we must deal with names deriving from very poorly known non-Semitic ancient languages. This is a field of scholarly research that is still in a stage of infancy, and is not the main focus of the present paper.

**Editor:*

(a) pp. 95-102.

Instead, as the chart (Fig. 39) graphically illustrates, the Midianite names fall with astounding regularity into two groups; the first group consists of names that can be identified already in the Mari, Amorite, onomastic tradition, and recurs half a millennium later in Ugaritic sources. The second group never occurs in these Bronze Age Semitic languages, but has a probable (if not certain) antecedent in the various Bronze Age languages of Anatolia: Hurrian, Hittite, Luwian or other.

Most astonishing of all is the fact that *every* name is at least attested, and sometimes is very frequent, specially in the North Arabic inscriptions. Curiously, the highest degree of correlation is with the latest group, Ṣafa'itic. I have not yet compared Nabataean names attested in that corpus of inscriptions.

This evidence from personal names correlates precisely with the evidence from the history of the alphabet presented in the First International Symposium*[(b)], and with the history of language, to support the hypothesis that proto-Arabic represents a continuity of a Bronze Age complex of languages, cultures, and even peoples. Whatever other elements went into the make up of pre-Islamic cultures–and there certainly must have been many–there can be no doubt that a most important element was of Syro-Palestinian origin that can be traced far back into the Early Bronze Age. It will be most interesting to learn, eventually, what modifications, illustrations, or perhaps refutation of this thesis may emerge from the texts of Early Bronze Age Ebla. At the very least, it should be clear that the onomastic tradition of the pre-Islamic inscriptions, northern or southern, cannot be regarded as completely unrelated to that of the Bronze Age Semitic languages.

The Midianite Associations of the Prophet Mūsā

1. *Ṣipporah:* wife of Prophet Mūsā, daughter of a priest of Midian.
   Amorite: ***ṣa-pur-sa-lim; ṣu-up-ri-e-ra-aḫ.***
   Ugaritic: ***ṣpr, ṣprn; ṣu-pa-ra-nu.***
   Arabic: ***ṣfrh,*** but also ***ḍfr, ḍfrn,*** and ***ẓfr.****[(c)]
   Cf. also the modern name, ***Ḍufar.***

This name occurs nowhere else in the biblical onomastics, except as the name of the father of Balaq, king of Moab.

2. *Yiṯro:* father-in-law of Mūsā, according to one source. Certainly from the root ***WTR.***
   Amorite: ***ya-tar-*** very common. Shift from /*w*/ to /*y*/ is regular in Amorite.
   Ugaritic: ***ya-tar-*** also common, with various combinations.
   Arabic: ***YTR*** in both Ṣafa'itic*[(d)] and Thamūdic, transmitted through Canaanite.
   WTR is more original Semitic, and more common in both North and South Arabic.

**Editor:*

(b) See G.E. Mendenhall, "Writing systems in the context of cultural history", *Sources for the History of Arabia* Part 1 (*Studies in the History of Arabia* I, Riyad: Riyad University Press, 1399/1979), 101-114.

(c) *Sic.* It is difficult for one to see the word associations, especially from the Arabic point of view, that the author has not given the possible English translations of the instances cited here as elsewhere in the paper. This does not vitiate the high quality of the investigation.

(d) The author, often in these comparative citations, gave the names of this and other languages in abbreviated forms. It is for the benefit of our students that the editor thought it best to have them written fully.

3. *R^e'u-'il:* according to different tradition, also name of father-in-law of Prophet Mūsā.
   Amorite: ***I-la-ra-ḫi-ya*** (reversed order of words).
   Ugaritic: ***r'y.***
   Arabic: (Ṣafa'itic) ***R'Y*** and ***R'Y-'L.***

4. *Ḥobab:* According to one source, still another name of father-in-law of Prophet Mūsā, according to another, the "Qenite."
   Not in Amorite; once in Ugaritic, probably of foreign origin. Not used in Canaanite.

Hurrian: ***Ḫupabe, ḫumpabe.*** Common element.
Arabic: ***ḪBB, ḪBB.*** No doubt fell together with common Arabic roots.

5. *Qēnī:* Gentilic. Not in Amorite. Once, probably foreign, in Ugaritic. Not used in Canaanite except in biblical references to the son of Adam, and also associated with the Anatolian land of Tubal as well as with the beginnings of metallurgy. Probably a very old Anatolian, Indo-European?, root meaning "miner." Arabic: ***QYN***, and variants.

6. *Mi/adyan:* Tribe of Yitro. Not in Amorite, Ugaritic, or Canaanite except in reference to Midianites.
   Anatolian: Root ***Mad-*** quite common, probably related to ***Madai-'Mede'.***
   Arabic: ***MḎY,*** sometimes according to Harding, specifically designates Medes in Ṣafa'itic.

The Five Kings of the Midianites

7. *Ewi:* Not attested except in late North African Punic.
   Hittite: ***awi(ti),*** 'lion'.
   Arabic: (Ṣafa'itic) ***'WY, 'WYT.***

8. *Reqem:* Not attested as personal name in earlier Semitic. Palestinian place-name located north-west of Jerusalem. Name of the city "which the Greeks call Petra", in Transjordan. No plausible Semitic etymology, possibly cognate to a root underlying English 'rock', thus a translation of Semitic ***ṣr,*** and Greek *petra.*
   Arabic: (Thamūdic) ***RQM.***

9. *Ḥur:* Common Semitic. Already in Byblos Syllabic, Ebla, Amorite, Ugaritic and Canaanite. Probably more than one root is involved, as indicated by Ṣafa'itic:
   Arabic: ***ḤR, ḤWR,*** and ***ḪR.***

10. *Ṣur:* Common and very ancient Semitic.

11. *Reba':* No Semitic predecessor.
    Hurrian: ***ar-pi-ḫe,*** at both Nuzi and Ugarit. Probably related to old name of Hebron: Qiryat 'arba'.
    Arabic: various combinations in all pre-Islamic dialects.

Other Transjordanian Names

12. *Kozbi:* daughter of Ṣur, who is identified as the Midianite head of an *Umma.*(1)
    No Semitic predecessor, which is understandable since it fell together with the Semitic root, ***KḎB:*** 'liar'.*(e)
    Luwian: ***kunzum-piya,*** which the Greeks later heard and wrote as ***kozabe-.***
    Arabic: (Qatabānian) ***KDBT,*** which Harding connects with ***KḎB.*** The only name in the list that does not occur (for comprehensible reasons) in North Arabia.

**Editor:*
(e) Being a verb it means "to lie".

13. *Bela':* King of Edom, son of Be'or, first in a series of eight kings who ruled before the Israelites established a political state. The same name is found in lists of early Israelites.
No Semitic predecessor.
Anatolian: ***palḫ,*** which occurs in Ugaritic, ***plǵn,*** a foreign name.
Arabic: BL' in Liḥyanite, Minaean and Ṣafa'itic.

14. *Bil'am:* diviner from the land of Amaw near Pitru on the Euphrates in northern Syria. No Semitic predecessor; it is probably a variant of the preceding name with a suffixed ***-m.***
Arabic: Sabaean ***BL'M,*** and *cf.* ***BL'*** above.
Note that both North and South Arabic names include also ***BLǴ*** and ***BLǴM,*** which would exhibit the same original pronunciation attested in Ugaritic ***plǵn.*** The names with *'ayin* could then have been transmitted by a Canaanite source where the name actually occurs.

15. *Balaq:* king of Moab who summoned Bil'am from North Syria. Not attested elsewhere, no Semitic etymology from earlier sources.
Arabic: ***BLQ, BLQT, BLQY.***
Note also Jabal Balaq at San'ā', and the name Bilqīs, the name of the legendary Queen of Sheba.

16. *Ṣippor:* father of Balaq. Masculine of Ṣipporah. In the eighth century inscription of Azitawadda at Karatepe in southern Turkey, a plague god, Reshef of ***ṣprm*** is mentioned, as is also the following place-name.

17. *Pe'or:* sacred mountain and god of Moabites in time of Prophet Mūsa. The name is not otherwise attested except at Karatepe, where it is the Phoenician translation of Luwian, ***paḫura,*** 'fire'.
Arabic: ***F'R*** (Ṣafa'itic and Sabaean)

Two Qenite Names

18. *Heber:* husband of Ya'il. Not in earlier Semitic.
Arabic: **ḤBR** (Thamūdic and Sabaean)

19. *Ya'il:* Woman who killed Sisera, commander of army of the king of Ḥaṣor in northern Palestine.
Amorite: ***ya-ḫi-la,*** 'ibex'.
Ugaritic: ***y'l.***
Arabic: **Y'L** (Ṣafa'itic and Liḥyanite), another name transmitted through Syro-Palestinian sources, over against ***W'L*** in (Ṣafa'itic and Sabaean), where the original /***w***/ is preserved.

It is to be expected that some of these names that have no Semitic predecessors in the Bronze Age will turn up at Ebla, and may include some names for which an Anatolian origin is here suggested. However, there is a very strong reason for suggesting that Anatolian populations did form some part of southern and northern Transjordan, not the least of which is the fact that three different and seemingly independent biblical traditions state that the south particularly was inhabited by Horites–Hurrians, who gave way to Edomites. Such simple statements cannot, of course, be taken too literally, and the historical situation that those traditions describe can be most easily understood by a seemingly perfect parallel of the Philistine temporary domination of Palestine. No one denies the Anatolian origin of the Philistines, but curiously, we have far fewer Philistine names of Anatolian origin than we now have for Transjordan and the Midianites. Goliath, for example, also occurs probably in Ṣafa'itic ***JLYT.***

It is at this point that the recently discovered evidence from Qurayya and Taymā' powerfully reinforces this evidence from tradition and from personal names, for the latter is by itself uncertain because of the enormous variations in pronunciation and interpretation to which proper names are subjected in every language. The most we can say with certainty is that Midianite names continued to be used down to Ṣafa'itic times, on the one hand, and many of them can be traced to northern origins well back into the Bronze Age.

The task of thus integrating the entire pre-Islamic history of Arabic dialects into the history of the Semitic languages is thus barely begun, and on this occasion it is hardly possible to do more than point out relationships that have previously been entirely unknown, or that have simply been ignored because they did not fit dominant academic theories concerning the origin and early history of Arabic languages and peoples.

The Midianites and Qurayya

The following discussion is an attempt to present an interpretation of Midianite culture of the Early Iron Age, integrating the various sources of information at present available, from tradition, from language, and from names.

Social Organization

This must have been a relatively large social unity with a quite complex social structure. There are at least five kinds, who were at least temporarily subjected to the king of Moab in the early twelfth century –but it must be kept in mind that the term 'king' was loosely used at the time. In addition, there were concentric circles of smaller tribal units in some sort of allied or affiliated status, such as Qenites and Amaleqites. It seems almost certain that an Anatolian population had established its political influence or dominance over a predominantly Semitic-speaking population, a considerable part of which had probably originated centuries before in the Amorite country of eastern Syria.

At least by 1100 B.C. armed units of camel riders were carrying out raids on the West Bank, and it is difficult to avoid the conclusion that these were probably professional military groups. Only three centuries later, such a contingent was sent to join the coalition of kings from Samaria and Damascus to southern Turkey to do battle against the Assyrian Empire at Qarqar in the Orontes River valley.

The ties to the North are illustrated by Midianites sent by the king of Moab to fetch Balaam, and it would seem , by the possession of large numbers of camels that are not previously attested anywhere in the Semitic-speaking Near East.

Thanks to Qurayya and probably Taymā', there were also simple walled cities in the south, and Egyptian sources also attest the fact that groups designated by a term that Egyptologists persist in translating 'Bedouin' also had walled cities. Whatever else an ancient city may be, it implies at least some sort of specialization whether of artisans or of political administration, and usually as a result of accumulation of wealth in the form of movable property. Perhaps excavations at Qurayya will some day tell us.

Technology

There is every reason to believe that Midianite society was characterized by a considerable diversity, of occupation as well as habitat. Perhaps most characteristic, as it always is along a desert fringe, from ancient Syria to modern Wyoming, is sheep-herding probably on a fairly large scale. The necessity of alternating between summer and winter pasturage often meant covering very long distances, which is well attested for a much earlier period at Mari in Syria. From a base near the head of the Gulf of 'Aqaba, it is hardly one hundred miles to the south-western side of the Sinai Peninsula, so it is not at all unlikely that Midianite sheepherders would be in the vicinity of Egypt, at least at certain times of the year.

In addition to a major source of economic resources derived from sheepherding, agriculture and some sort of irrigation seems most probable from the description of Qurayya, and this can hardly have been the sole such example. It remains to be seen whether there was also at least a household weaving industry. It seems inevitable in a society in which sheep are a major form of wealth, and as we know from Ebla as well as other cities, textiles are a major product of city activities.

It is most probable that specialists in metal working such as Qenites were also affiliated with the Midianites, and the smelting and mining centre at Timna south of the Dead Sea that dates to this very time probably illustrates what must have been carried on elsewhere as well. It also illustrates close ties with, if not actual control by, Egypt.

Finally, there can be little doubt about Midianite trading activities, and this may well reach far back in time. The small caravan of donkeys bearing loads of some sort depicted in the Middle Egyptian tomb at Banī Ḥasan is certainly relevant here, particularly if the interpretation is correct that they are carrying tools of metal workers. Biblical traditions about Midianite traders in the Joseph story were composed long after the Midianite social organization had ceased to exist, but it at least illustrates the fact that later tradition believed some Midianites to be travelling tradesmen dealing with Egypt.

In short, we have every reason to believe that the Midianite society was quite diverse, involving agriculture, sheepherding, metal working, and inter-regional trade.

Ideology

Concerning religion and its close relationship to social organization we know next to nothing. The origin of the divine name ***YHWH*** in Midianite or Qenite sources has long been a subject of speculation on which nothing new can be said at present. It is certain that the form of the name coincides perfectly with attested Amorite forms both of grammar and of divine names.

We do know also that the daughter of a tribal head engaged in ritual prostitution in honour of the fire and plague god, Pe'or, who is otherwise known *only* at Karatepe in Anatolia. This was doubtless regarded at the time as some sort of religious piety that was not appreciated by the monotheists led by Prophet Mūsā who had rejected such works of the *jāhiliyya.*

It is even possible, if not probable, that the name of the new community of monotheists may have derived from Midianite tradition, for the name *Yiśra'el* is not a Yahwist name, and it actually occurs in Sabaean, written ***yśr'l,*** and a number of scholars believe that the reference to ***ysr'l*** in the Mereneptaḥ stela does not necessarily refer specifically to the community of Prophet Mūsā. The name occurs also with the normal Canaanite sibilant ***yšr'il*** at Ugarit.

The golden crescents worn by the Midianite raiders certainly point to a high regard for the moon god who is also so important culturally in later Arabic cultures.

What little evidence we have at present indicates a relatively (for the Early Iron Age!) wealthy society, and it is from this starting point that the interesting and unexpected ceramic tradition of Qurayya and Taymā' must be interpreted historically. If potters were locally engaged in producing imitations of Mycenaean wares, crude as it may be by LB*[(f)] Mycenaean standards, there must have been both a familiarity and a de-

Editor:

(f) Late Bronze Age.

mand for such wares. There can be no doubt that Mycenaean wares were expensive, imported, luxury goods, and with the disruptions of commerce and production that everywhere attended the end of the Late Bronze Age, the imported goods were difficult if not impossible to obtain. In fact, the question should be

Midianite	Amorite	Ugaritic	Anatolian	S. Arabic	N. Arabic
Ṣipporah	X	X			X
Ṣippor	X	X			X
Yiṯro	X	X		X	X
Re'u'il	X	X			X
Ḥur	X	X		X	X
Ṣur	X	X		X	X
Ya'il	X	X			X
Ḥobab			X		X
Qayn			X		X
Madyan			X		X
'Ewi			X		X
Reqem			(X)		X
Reba'			X	X	X
Bela'			X	X	X
Bil'am			X	X	X
Pe'or			X	X	X
Kozbi			X	X?	
'Oreb					X
Ze'eb					X
Ḥeber				*X*	*X*

Fig. 39: Names, specifically, or designated as, Midianite, or closely associated with Midianites, listed with their Bronze Age antecedents and Pre-Islamic Arabic descendents.

IV: PREHISTORICAL AND HISTORICAL PERIODS (DOWN TO 1ST. CENT. B.C. INCLUSIVE)

A CONTRIBUTION ON THE SUBJECT

The Jamdat Naṣr Culture Complex in the Arabian Gulf *ca.* 3000 B.C.

Daniel Potts

One of the most important results of the last twenty-five years of archaeological discovery in the Arabian Gulf area has been the systematic exploration and excavation conducted by Karen Frifelt (Moesgaard, Denmark) in the 'Umān Peninsula. Her work,(1) which is now being complemented by the work of American, Italian, British, and French expeditions, has provided the initial delineation of the two major cultural complexes identified with proto-historic 'Umān: the 'Umān Jamdat Naṣr, so-called because of its affinities(2) with Mesopotamian material of the Jamdat Naṣr period (*ca.* 3000 B.C.), and the Umm al-Nār culture (*ca.* 2500-2000 B.C.) of 'Umān. The purpose of this paper will be to focus on the 'Umān Jamdat Naṣr, providing an account of what it is, its cultural relations, and it importance, within the framework of its environmental setting in place and its historical situation in time. Because of the undeniable importance of the Gulf role as a corridor between Mesopotamia and the Indus Valley, and as the axis of a cultural universe encompassing the lands and peoples of the Arabian Peninsula, southern Mesopotamia, Iran, and the Indus Valley, it will become clear through the course of this essay that any discussion of cultural growth and adaptation in the Gulf during the period from *ca.* 3000-1500 B.C. cannot be understood fully without considering the changing relationships which prevailed with the region's neighbours.

In the broadest sense we can describe the geographical setting and subsistence alternatives of pre- and proto-historic cultural developments in the Gulf with reference to three major divisions.

The Off-Shore Island Regime

The islands of Faylaka, Tārūt, Baḥrayn, and Umm al-Nār (and to a lesser known extent perhaps also Jinna, Musallamiyya, Abū 'Alī, and al-Bāṭina) all enjoy strategic locations, and these were certainly exploited in antiquity. Faylaka, for example, controls access to Kuwayt Bay, the largest bay on the Gulf;(3) Tārūt is the traditional port for the Qaṭīf oasis, one of the two major oasis of the Eastern Province of Saudi Arabia along with al-Ḥasā (Hufūf); Baḥrayn is simply the largest, most well-watered island in the Gulf, and thus of obvious importance to the ancient populations of the area; and Umm al-Nār is in a position to have served as an outlet for travel and trade along the principal inland routes of the 'Umān peninsula which run from the mineral-rich interior through Ibrī and Buraymī to the coast. It is thus not surprising that each of these islands played an important role in the ancient trade networks of the third millennium B.C., whether as outlets for goods coming from the Arabian mainland (*e.g.* Tārūt and Umm al-Nār) or as principal way-stations and market places for ocean-going commercial traffic between the Indus, eastern Iran, 'Umān, and Mesopotamia (*e.g.* Baḥrayn and Faylaka). The preponderance of goods, sheltered anchorages and fresh water sources on these islands and on the adjacent Arabian hinterland determined to a great degree the obvious preference in antiquity for settlement and sea-faring utilization of the Arabian side of the Gulf as opposed to the Iranian side.

Leaving the question of maritime commerce aside for a moment, we note from the archaeological excavations conducted on these islands that subsistence was based on a heavy reliance upon fishing; hunting of shore fowl, sea-cows, and large marine turtles; and the gathering of shallow-water shellfish and shrimp.(4) These resources were sometimes complemented by the inclusion of certain land mammals such as oryx-antelope *(Oryx leucoryx)*, camel (*Camelus dromedarius*?), and a large ox, perhaps the zebu (*Bos domesticus* "zebu" = *Bos indicus*) at Umm al-Nār.(5) Pearling, of course, is historically attested for Tārūt and Baḥrayn and may have provided the "fish-eyes" sought by the Mesopotamians of the third and early second millennium B.C. as suggested by A.L. Opennheim some 25 years ago.(6)



Map 8: Map of the major archaeological sites discussed in the text.

The East Arabian Littoral/Desertic Strip (including Qaṭar and the Trucial Coast)

This region is by no means completely uniform. It is, however, basically desertic and punctuated only infrequently by oasis settlement (we exclude, of course, the modern oil towns). The coast itself is quite formidable, and good ports are rare. Settlements of note are Jubayl, Qaṭīf, 'Uqayr, Hufūf and Dawḥa. Small-craft travel between the scattered coastal towns, as well as traffic along the well-worn inland caravan routes which linked Qaṭīf, Hufūf, 'Uqayr, Qaṭar, Inner Arabia, and Buraymī served mainly to facilitate internal communication and exchange of various commodities acquired through the three principal subsistence activities practiced in the area in recent times: fishing, farming, and pastoralism.(7)

Fishing, and of course pearling have always been the primary subsistence activities of the coastal settlements. These were complemented by the exchange of salt gathered from the coastal *sabkhas* and clay from coastal cliffs.(8) Farming probably abounded around Hufūf and Qaṭīf. The abundance of fresh-water in both areas has, in historic times, permitted the intensive cultivation of the date palm, as well as a long list of secondary products in more recent times including grains, vegetables and common oasis fruits. The marine and cultivable resources thus acquired have historically always been traded between marine and inland inhabitants, and have probably always been complemented by meat from the pastoral sector of society. Indeed, the entire coastal strip offers to varying degrees pastureland for the seasonal grazing of sheep, goats and camels.(9) We also note that traditionally the sedentary populations of the oases have owned livestock as well, and thus have not been entirely dependent on the bedouin for meat.

The 'Umān Peninsula

We come now to the area of greatest importance for this discussion, the 'Umān peninsula. Tosi(10) has subdivided the area into five geographical zones, each with differing subsistence and mineral potential. We may summarize his five zones as follows:

1) The coast itself, which offers a mixed economic potential revolving around deep sea fishing, fresh-water estuary gathering, off-shore shellfish gathering, farming and hunting.

2) The coastal foothill strip, which is less suitable for settlement except in certain large *wādīs*.

3) The central mountainous zone, characterized by a rich supply of mountain fauna, abundant copper resources and plentiful acacia wood, useful for fuel in the smelting of copper.

4) The interior foothill strip, where the highest rainfall levels in eastern Arabia and plentiful groundwater endow the many oases here with an extremely high potential for intensive farming.

5) The Sharqiyya plain, which is not unlike the interior foothills trip in utilization potential, as demonstrated by evidence for nearly uninterrupted settlement of the area between Buraymī and Ibrī in antiquity.

If we turn now to a consideration of the Jamdat Naṣr complex of 'Umān we find it consists of five concentrations of circular stone tombs containing several burials each. Almost without exception these grave groups are located along the principal inland routes of communication which traverse the mineral-rich interior of 'Umān. Jamdat Naṣr graves have been lacated at Jabal Hafīt, south of the Buraymi oasis along the road to Ibrī; near Qarn Bint Sa'ūd, a point along the route from Buraymī to Dubai on the coast; at Ibrī, the main crossroads of the interior where the route running from Dhufār to Khābūra, and the route between Buraymī and Masqaṭ via Bāhla and Nizwa intersect;(11) at Ba'at, *ca.* 25 kms. east of 'Ibrī; and at Siya, some 30 kms. south of Masqaṭ.(12)

The complex is notable in that it is strictly a funerary complex, and no convincing evidence for a Jamdat Naṣr period settlement complex has yet been recovered in 'Umān.[13] To date the Danish expedition, principally under the direction of K. Frifelt, has excavated more than fifty Jamdat Naṣr graves along Jabal Hafīt, a number near Qarn Bint Sa'ūd, and several at Ibrī. More tombs were dug in the Sharqiyya plain during the 1978 winter campaign conducted by Miss B. DeCardi.[14] Two cairns were also excavated by amateurs in 1963 and 1965. The finds from these excavations were subsequently purchased by the British Museum, and published by During Caspers.[15]

In general, the finds from all of these grave groups form a coherent complex, varying little from site to site. The characteristic ceramic fossil index from the Jamdat Naṣr graves of 'Umān is a small, biconical vessel with everted rim, often with signs of a painted panel of design around the shoulder of the vessel, although this is often badly weathered. This type of Jamdat Naṣr ware is particularly reminiscent of wares found often in funerary loci of this period in Mesopotamia, such as the famous Jamdat Naṣr cemetery at Ur, although comparable wares have also been recovered at Tall 'Uqayr and Jamdat Naṣr itself in non-funerary contexts. The distinction between a largely funerary Jamdat Naṣr pottery in both 'Umān and Mesopotamia, and a storage vessel Jamdat Naṣr ware, absent in 'Umān, is, I believe, an important one.

In addition to the characteristic Mesopotamian-like Jamdat Naṣr pottery we note also a local ceramic component, described as "small egg-shaped vases and jars with perforated neck or shoulder" of a red, micaceous ware;[16] common copper-bronze implements such as pins, needles, rivets, etc.; beads of frit, with parallels at Ur, Tello, Jamdat Naṣr, and Khafāja;[17] pendants, and miscellaneous shell objects.

We should note, however, that while the grave goods recall Mesopotamian funerary practice–the most obvious parallel is with the Jamdat Naṣr cemetery at Ur–the architecture is part of an indigenous 'Umānī tradition which spans over a millennium, and is quite unlike the graves of Mesopotamia. Frifelt has documented a succession of grave types, all of dry stone, running from the Jamdat Naṣr type (*ca.* 3000 B.C.) through the Ba'at type (*ca.* 2900-2500 B.C.) to the Umm al-Nār type (*ca.* 2500-2000 B.C.) and finally to the Wadī Sūq/Wādī Sunaysl type (*ca.* 2000-1700 B.C.).[18] The distinction between grave goods, reflecting an alien tradition and grave architecture, reflecting a local tradition, is important.

Jamdat Naṣr finds have also been discovered on Baḥrayn and Tārūt. A single polychrome Jamdat Naṣr sherd was found on Baḥrayn "in a layer north of the first temple" of Barber.[19] A hemispheroid stamp seal, probably recut and possibly of limestone in Jamdat Naṣr style was found in a tomb at al-Ḥajjār 1, also on Baḥrayn.[20] Illicit excavations on Tārūt have produced plain orange-buff jars with everted rim, globular body and short neck comparable to the 'Umān Jamdat Naṣr material, as well as chlorite cups and bowls from stone-lined graves near Rufay'a which are comparable to material from the Jamdat Naṣr cemetery at Ur.[21]

This, then, is the enigmatic complex of funerary finds which so clearly recalls finds of the Jamdat Naṣr period in Mesopotamia dated *ca.* 3000 B.C. Insofar as we are able to date the pre- and protohistoric ceramics of the 'Umān peninsula, the 'Umān Jamdat Naṣr biconical jars represent the earliest facies of ceramic culture in the area. Such a refined style does not spring suddenly from a formerly aceramic stratum of hunter-gatherer and fisher communities. We suggest that Mesopotamia is the source for the complex, raising the question of what mechanism effected the appearance of a Mesopotamian grave good complex in a grave type which is part of a long, local tradition in funerary architecture indigenous to 'Umān? The answer, we believe, is to be found in a consideration of the socio-economic forces operating in southern Mesopotamia during the late fourth millennium and early third millennium B.C. which set in motion a pattern that was to continue, in modulating form, until the mid-second millennium B.C.

If we begin by looking at developments in Mesopotamia during the Late Uruk period we find that a considerable amount of expansion on the commercial front was taking place, backed up by the foundation of quasi-military colonies at points adjacent to regions which could supply the cities of Sumer with the raw materials demanded by their populations. This trend is best seen in the Sumerian effort to control the Middle Euphrates region of northern Syria and south-central Anatolia where colony sites were founded "assuring direct political control over contacts with the producers of timber, metals, etc. without the interference of middlemen".(22) The finest example of such a site is Habūba Kabīra, a large walled city *ca.* 17 ha. in area, excavated by Eva Strommenger under the auspices of the Deutsche-Orient-Gesellschaft. This site is undeniably a Late Uruk period Sumerian intrusion into the north Syrian commercial sphere.(23)

Mellaart proposes that there was a Syrian reaction at the end of the Uruk period against this economic exploitation by Sumerians from the south, resulting in the expulsion of the Sumerians, the destruction and abandonment of the Sumerian colony sites, and the restoration of Syrian control over the production and distribution of her own locally produced goods. We suggest that due in part to these setbacks certain cities such as Ur, still in need of raw materials and finished goods from foreign sources (Fig. 38), directed their commercial interests to the east where they encountered the Proto-Elamite configuration in Iran, and to the south where they made contact for the first time with what was to remain their principal copper source for a thousand years, Magān. Following a majority of Assyriologists(24) working with third millennium problems we accept the identification of Magān and 'Umān and admit a great degree of likelihood to the suggestion that it included the part of eastern Iran and Baluchistan (Makrān) which lies just opposite 'Umān on the northern side of the straits of Hurmuz.(25) We suggest that the richness of the copper resources in the interior of 'Umān, once discovered, provided the stimulus for early Sumerian forays into the area, that these date from the Jamdat Naṣr period, and that the grave complex we have been considering is a reflection of that contact.

Unlike the situation which has been documented on the Saudi Arabian coast and in Qaṭar for the 'Ubayd period, *ca.* 5000-3700 B.C., Mesopotamian interest in 'Umān did not reside in the seasonal exploitation of its rich off-shore fishing banks.(26) Quite to the contrary, the 'Umān Jamdat Naṣr sites are of an entirely different nature.

First, as pointed out above, the sites are all located inland which rules out any suspicion of their representing a later continuation of the 'Ubayd period type of marine resource exploitation. Secondly, and of greatest importance, they are nearly all located along the major inland routes of communication, and are in the copper-rich interior of 'Umān. Several copper mine sites and slag deposits discovered by the Harvard survey of 1975 may date to the third millennium such as Wādī Samad 5 where slag and crucible fragments occur with pottery dated by Hastings *et al.* to the third millennium.(27) This direct evidence for copper smelting in 'Umān corroborates a third millennium text from Adab which records the import of a "za-hum" in bronze from Magān.(28)

But how exactly should the Jamdat Naṣr graves of 'Umān be interpreted? We think there is reasonable certainty, due to their location, in associating the Jamdat Naṣr presence in 'Umān with copper procurement. Furthermore, the pursuit of copper and other resources is well-attested in third millennium Mesopotamian sources. One particular reference should be noted here. The class of sea-faring merchants ***(ga-aš-a-ab-ba)*** who went directly to Magān to purchase copper during Ur III times is attested in pre-Sargonic times as well.(29) Furthermore, M. Lambert has published Ur III texts from Lagash which discuss the construction of the boats used for voyages to Magān.(30)

Do these graves represent the graves of Sumerian merchants who died in Magān while contracting business? It is a possibility that such individuals may have been buried with grave goods of their own tradition in tombs of the local tradition. However, it seems perhaps more likely, given the large number of such graves

and rejecting the possibility of such a high mortality rate among the Sumerian traders as these graves would then indicate, that these grave interments reflect an often noted phenomenon in culture contact situations, the emulation of the status goods of a sophisticated group by another, less "civilized" group. Thus these burials, architecturally part of a purely local tradition, may signify the emulation of Sumerian status through the inclusion of goods acquired by members of the local population either through trade with visiting Sumerian traders or on journeys to Sumer itself. We shall see that throughout the third millennium there is ample evidence for traffic in both directions, as the reltionship between Magān source of raw materials and a variety of goods (Fig. 38) and Mesopotamia – one of its main buyers – continued down to the mid-second millennium B.C.

During the Early Dynastic period there is reason to suspect a continuation of the same type of contact and social relations as prevailed during the Jamdat Naṣr period. From the island of Umm al-Nār comes a cylinder-sealed sherd, dated by P. Amiet to ED I,(31) which probably reflects continuing commercial traffic between southern Mesopotamia and Magān via Umm al-Nār. As we have noted above Umm al-Nār may have been a major sea-port terminus for the inland routes which transect 'Umān. Furthermore, a group of graves at Hili shows a grave good complex characterized if not by Jamdat Naṣr vessels then by functional counterparts in the form of suspension vessels virtually identical to those known from ED I levels at Tall 'Aqrab in the Diyāla region.(32) We have already mentioned the occurence of the Sumerian title denoting individuals who went directly to Magān to purchase goods in pre-Sargonic texts.

Following the ascension of Sargon of Akkad to the throne of Sumer and Akkad around 2340 B.C. we read, in Sargon's geographical listing of his conquests and in the legend of his birth, that ships from Meluḫḫa,(33) Magān, and Dilmun all docked at the quay of Agade. Whether or not these regions were actually subjects of Sargon as Gadd(34) suggested, or whether there was some kind of merely nominal allegiance to Sumer is unclear. What is clear is that these three regions thrived commercially in their relationships with Sumer and it may indeed be due in part to this lucrative trade that, following Sargon's rise and the institution of more regularized trade with Magān, we see the fluorescence of the Umm al-Nār culture (*ca.* 2500-2000 B.C.).

The impressive Umm al-Nār settlement on the island of the same name is built entirely of dry-stone set in regular courses and reflects considerable wealth. This may well be due to its strategic position as the Gulf outlet for any goods coming from the interior to be transshipped to points north and east. Moreover K. Frifelt has excavated what appears to be a large fortification tower near Hili, i.e. right on a main road through the mineral-rich interior of 'Umān. There is the distinct impression that by the mid-third millennium B.C., Magān was reaping the full benefits of the copper and stone trade with the cities of Sumer, in contrast to the earlier Jamdat Naṣr period when we see evidence only for emulation of Sumerian status goods and burial rites which, though probably reflecting contact with the consumers of their valuable commodities, does not show that the Magān people were in control of the trade relationship or accruing any significant benefits from it. Perhaps the greatest benefit of Magān's relationship with Sumer during the Jamdat Naṣr period was the realization that it contained some very valuable natural resources which could be exploited to considerable benefit. The harnessing of those resources and the benefits thus reaped are, we suggest, reflected in the richness of the Umm al-Nār culture.

There is evidence to demonstrate that the partnership was not always amiable, however. Narām-Sin, Sargon's grandson, was forced to put down a number of rebellions throughout his empire upon his accession to the throne, and one of the campaigns he waged was against Magān. He conquered Manium, king of Magān, and recorded his triumph by having a number of looted alabaster vases which he later dedicated at Sūsa inscribed "booty of Magan" along with his own name.(35)

Relations did not necessarily cease, however, and we find that during the period of Guti domination in Mesopotamia Gudea of Lagash records the import of goods from Magān. The trade was probably interrupted at the end of the Guti period, perhaps by the wars of Uto-hengal against the Guti, or between Utu-hengal and Ur-nammu, eventual founder of the succeeding Third Dynasty of Ur. But when trade was restored, as we know it was from a dedication to Nanna made by Ur-nammu **(UET III 50)**(36)we find that Magān emerges with the strongest commercial tie to southern Mesopotamia. Ships from Magān go to Ur, while merchants from Ur, like Lu-enlilla, are sent to Magān to purchase large quantities of copper with wool and textiles. Trade with Dilmun is also attested **(ITT II 776)** at this time.(37)

The fall of the Third Dynasty of Ur, however, brings about a major change in trade relations between Magān and Sumer. Dilmun succeeded in establishing a monopoly on trade with southern Mesopotamia even as Ishbi-Erra fought with Ibbi-Sin, last king of the Ur III dynasty.(38) This signalled the end of any direct trading between Sumer and either Magān or Melūḫḫa, and the meteoric rise of Dilmun to power as the Gulf trade entrepot par excellence. While this in no way meant that southern Mesopotamia was cut off from the goods which it imported from Magān it did mean that all exports from Magān to Sumer went directly to Dilmun before being passed on to Sumer. In this way, Magān seems to have lost a good share of the profits it had formerly gained through the trade, Dilmun grew wealthy, and Sumer was satisfied with a continuing supply of certain essential raw materials. Principally this meant copper, for it was important for southern Mesopotamia to keep up the supply from Magān since the price of Magān copper was considerably less than that of Anatolian copper – available through the Old Assyrian trade network – particularly when one figured in costs of transportation.(39)

It is possible, moreover, that the end of Magān's control over the export of its own products to Mesopotamia is partially reflected in the demise of the Umm al-Nār culture. If the Umm al-Nār culture, as suggested, was economically integrated into an international trade network using the southern Mesopotamian city-states as its principal outlets then it is easy to imagine the depression which could have ensued once that important source of profit was drastically diminished by Dilmun's usurpation of the Gulf trade. We may even be able to detect the presence of Dilmun traders in Magān by looking at the Wādī Sūq and Wādi Sunaysl grave complexes. Dated to *ca.* 2000 B.C. these graves show clear late Barbar ties. Indeed, up until this point there is very little, archaeologically speaking, in the 'Umān peninsula which relates directly to the culture of Baḥrayn or Dilmun.

We hope this has proven a useful review of the problem of Magān and the Jamdat Naṣr complex of 'Umān. Using arahaeological sources, and textual information on third millennium trade, it has been possible, within the context of an historically attested pattern of changing relations between southern Mesopotamia, Dilmun and Magān to suggest reasons why a Mesopotamian-like complex of funerary goods would have been deposited in a series of cemeteries in the land which we suggest was ancient Magān. Future work in the area will undoubtedly cast doubt on the hypotheses presented here. Yet we offer this as a contribution to the proto-history of the Arabian Peninsula, hoping it may serve to extend the horizon of our common research effort that much farther.

Origin	Product	Destination	Date	Reference
Magān	lumber	Lagash	ED Ur III	Enki and the World Order **126** Gudea Statue **D IV 7** Gudea Cylinder **A XV 8**
	diorite	Lagash	Gut	Gudea Statue **A II 6 - III 3**
	anvils	Lagash	Gut	Gudea Cylinder **A XVI 31**
	copper	Ur	Ur III	**UET III 1511, 1689**(40)
	copper-br. ***"za-ḫum"***	Adab	ED	**OIP 14**, p. 103(41)
	palm	unspec.	OB-Sum	**HAR-ra III 286**
	tables	unspec.	OB-Sum	**HAR-ra IV 194**
	thrones	unspec.	OB-Sum	**HAR-ra IV 98**
	reeds	unspec.	OB-Sum	**HAR-ra VIII 4-4e**
	ravens	unspec.	OB-Sum	**HAR-ra XVIII 343**
	swine	unspec.	OB-Sum	**HAR-ra XIV 165-166**
Ur	wool	Magān	Ur III	**UET III 1689**
	garments	Magān	Ur III	**UET III 1511, 1689.**
	leather goods	Magān	Ur III	**UET III 1511**
	sesame oil	Magān	Ur III	**UET III 1511**
Lagash	barley	Magān	Ur III	**ITT II 776**

Abbreviations
ED = Early Dynastic
Gut = Gutian period
UET = Ur Excavations Texts
OB = Old Babylonian
Sum = Sumerian
HAR-ra = lexical list published by B. Landsberger in *Materialien zum Sumerischen Lexikon*
ITT = *Inventaire des tablettes de Tello conservées au Musée imperial Ottoman* I-IV (Paris 1910-1921)
OIP = Oriental Institute Publications

Fig. 38: Synopsis of goods moving between Sumer and Magān in the third millennium B.C. according to written sources.

Notes

(1) Karen Frifelt, "Jamdat Nasr Fund Era Oman", *Kuml* (1970), 355-383, "Excavations in Abu Dhabi (Oman)", *Artibus Asiae* XXXIII, No. 4 (1971), 296-299; "A Possible Link Between the Jemdet Nasr and the Umm an-Nar Graves of Oman", *JOS* (1975), 57-80; "On Prehistoric Settlement and Chronology of the Oman Peninsula", *East and West* N.S. 25, Nos. 3-4 (1975), 359-424; "The Umm an-Nar and Jemdet Nasr of Oman, a Summary after the Latest Investigations", paper read at the Seminar for Arabian Studies, London, July 1978.

(2) There is some controversy over whether or not the material from 'Uman under discussion is, in fact, to be related in time at all to the Jamdat Naṣr material of Mesopotamia. This is obviously a necessary premise for any argument at all. I have examined both the 'Umānī and the mesopotamian material, and am compelled to admit their great similarity. For the present time, then, I accept the identification of the 'Umān material with the name "Jamdat Naṣr" implying a clear affinity with stylistically comparable and, by extension, temporally coeval material from southern Mesopotamia.

(3) Great Britain Naval Intelligence Division, *Iraq and the Persian Gulf,* (B.R. 524, Geographical Handbook series, 1944), 149.

(4) Maurizio Tosi, "Some Data for the Study of Prehistoric Cultural Areas on the Persian Gulf", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies,* IV (1974), 162; A.H. Masry, *Prehistory in Northeastern Arabia: The Problem of Interregional Interaction* (Coconut Grove: Field Research Publications, 1974), 47.

(5) Ella Hoch, "On the Animal Remains from the Umm an-Nar Settlement (3rd. Mill. B.C.) on the West Coast of the Oman Peninsula", abstract of a paper read at the Fourth International Conference of South Asian Archaeology, Naples, 4th to 6th July, 1977.

(6) A.L. Oppenheim, "The Seafaring Mechants of Ur." *JAOS* 74 (1954), 6-17.

(7) Masry, *op. cit.,* 60.

(8) *Ibid.,* 59.

(9) *Ibid.,* 38.

(10) Maurizio Tosi, "Notes on the Distribution and Exploitation of Natural Resources in Ancient Oman", *JOS* I (1975), 187-206.

(11) Frifelt, *Kuml* (1970), 355-383, *East and West* N.S. 25 (1975), 359-424.

(12) Frifelt, "The Umm an-Nar and Jemdet Nasr", (n. 1 *supra*).

(13) The Harvard Survey of 1975 did recover sherds at sites in the Sharqiyya plain (BB-19), Wādī Samad 5, Wādī Andam 1, Wādī Andam 28, and Wādī Ibra 2 with certain Jamdat Naṣr characteristics such as nose lugs and everted rims (Hastings *et al.* 1975: 14, and Figs. 15:o, Fig. 21:v, x, y, Fig. 11:bb, Fig. 12:cc Fig. 17:ff). These are the only, and very slim evidences for non-funerary sites of the Jamdat Naṣr period in 'Umān found to date. It is interesting to note, however, that none of the Jamadat Naṣr-like vessels found in a tomb context has nose lugs. This is a characteristic of Jamadat Naṣr storage jars, not of funerary jars.

(14) Frifelt, *op. cit.*

(15) E.C.L. During Caspers, "New Archaeological Evidence for Maritime Trade in the Persian Gulf During the Late Protoliterate Period", *East and West,* N.S. 21, Nos. 1-2 (1971), 21-55.

(16) Frifelt, *op. cit.*

(17) During Caspers, *op. cit.*, 27ff.

(18) Frifelt, *JOS* (1975), 57-80.

(19) Peder Mortensen, "Om Barbartempelets Datering", *Kuml* (1970), 395.

(20) Michael Rice, "The Grave Complex at al-Hajjar, Bahrain", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* II (1972), 68.

(21) Marny Golding, "Evidence for Pre-Seleucid Occupation of Eastern Arabia", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* IV (1974), 26 and Fig. 4.

(22) James Mellaart, "Mesopotamian Relations with the West, Including Anatolia During the 4th and 3rd. Millennia B.C.", paper read at the XXVth Rencontre Assyriologique Internationale, Berlin, 3-7 July 1978.

(23) Eva Strommenger, "Kulturbeziehungen der Stadt Habuba Kabira - Süd nach Mesopotamien/Elam und nach Syrien", paper read at the XXVth Rencontre Assyriologique Internationale, Berlin, 3-7 July 1978.

(24) I.J. Gelb, "Makkan and Meluhha in Early Mesopotamian Sources", *RA* LXIV (1970), lff; G. Pettinato, "II Commercio con l'Esterio della Mesopotamia Meridionale nel. 3. Millenio av. Cr. alla Luce delle Font: Letterorie e Lessicali Summeriche", *Mesopotamia* VII (1972), 100, ff; Edmond Sollberger, "The Problem of Magan and Meluhha", *Bull. Inst. Arch.* Nos. 8-9, (1968-69), 247-250.

(25) The possibility is certainly supported by the convergence in material culture documented for the mid-to late-third millennium. Archaeological assemblages from Umm al-Nār in 'Umān; Bampur V-VI, Tepe Yahya IVB, and Shar-i Sokhta IV in eastern Iran; and Mundigak IV_3 in Afghanistan (Frifelt, "On Prehistoric Settlement", 371) show strong parallelisms in the black on grey ware, incised grey, black on red, and snake cordoned wares which are certainly indicative of some strong ties, whether ethnic, political, economic, or otherwise.

(26) Joan Oates *et. al,* "Seafaring Merchants of Ur", *Antiquity* LI (1977), 221 ff.

(27) A. Hastings, J.M. Humphries and R.H. Meadow, "Oman in the Third Millenium BCE", *JOS* I (1975), 12.

(28) H. Limet, "Les Metaux à l'Époque d'Agadé (2370 - 2250 av. J. -C.)", *JESHO* XV, Nos. 1-2 (1972), 14.

(29) Oppenheim, *op. cit.*, 13.

(30) M. Lambert, *Tablettes Économiques de Lagash (Époque de la IIIe Dynastic d'Ur),* (Cahiers de la Société Asiatique, Paris, 1968), 9.

(31) Pierre Amiet, "A Cylinder Seal Impression Found at Umm al-Nar", *East and West* N.S. 25, Nos. 3-4 (1975).

(32) Frifelt, *KUML* (1970), 355-383.

(33) We accept the widely held identification of Meluḫḫa with the Indus Valley-centred Harappan civilization. Gelb, *op. cit.*, Pettinato, *op. cit.*, Sollberger, *op. cit.*

(34) C.J. Gadd, "The Dynasty of Agade and the Gutian Invasion, *CAH* I, No. 2 (1971), 422.

(35) *Ibid.* 445.

(36) The dedication reads: "For Nanna, the first-born son of Enlil, his Master, did Ur-Nammuk, the mighty male king of Ur, King of Sumer and Accad, did the man who built the temple of Nanna, have the primordial (state of) things (re) appear. On the shore of the 'sea' in the registry place he saw the sea-trade(rs) safely home and returned the Magan ships to his (i.e. to Nanna's) hand." Jacobsen suggests that this indicates Ur-Nammu "re-established an earlier practice of detaining ships returning with cargoes from ... (Makkan) at a registry place on the shore of the sea until all accounting for, and claims on, merchandise and profits had been properly settled in orderly fashion in Ur, after which the ships were allowed to proceed to the harbour of the city to unload." Thorkild Jacobsen, "On the Textile Industry at Ur under Ibbi-Sin", in W.L. Moran, ed., *Towards the Image of Tummuz and other Essays on Mesopotamian History and Culture* (Cambridge: Harvard University, Press, 1970), 175.

(37) W.F. Leemans, *Foreign Trade in the Old Babylonian Period* (Studiaet Documenta ad Iura Orientis Antiqui Pertinentia VI, Leiden: Brill, 1970), 22.

(38) C.J. Gadd, "Babylonia c. 2120-1800 B.C.", *CAH* I, No. 2 (1971), 631.

(39) Leemans, *op. cit.*, 121ff.

(40) Leemans, *op. cit.*, 19.

(41) Limet, *op. cit.*, 14.

(42) Pettinato, *op. cit.*, D.T. Potts, "The Zagros Frontier and the Problem of Relations between the Iranian Plateau and Southern Mesopotamia in the Third Millenium B.C.", revised version of a paper read at the XXVth Rencontre Assyriologique Internationale, Berlin, 1978.

Bibliography

AMIET, P.
"A Cylinder Seal Impression Found at Umm an-Nar," *East and West* N.A. 25 nos. 3-4 (1975), 425-526.

DURING CASPERS, E.C.L.
"New Archaeological Evidence for Maritime Trade in the Persian Gulf During the Late Protoliterate Period", *East and West* N.S. 21, nos. 1-2 (1971), 21-55.

FRIFELT, K.
"Jamdat Nasr Fund Fra Oman", *Kuml* (1970), 355-383.

"Excavations in Abu Dhabi (Oman)", *Artibus Asiae* XXXIII no. 4, (1971).

"A Possible Link Between the Jemdet Nasr and the Umm an-Nar Graves of Oman", *JOS* I (1975), 57-80.

"On Prehistoric Settlement and Chronology of the Oman Peninsula", *East and West* N.S. 25, nos. 3-4 (1975).

"The Umm an-Nar and Jemdet Naṣr of Oman, a Summary after the Latest Investigations", paper read at the Seminar for Arabian Studies, London, July 1978.

GADD, C.J.
"The Dynasty of Agade and the Gutian Invasion", *CAH* I no. 2 (1971).

"Babylonia c. 2120 - 1800 B.C.", *CAH* I, no. 2 (1971) 595-643.

GELB, I.J.
"Makkan and Meluhha in Early Mesopotamian Sources", *RA* LXIV (1970), 1-8.

GOETTLER, G.W., FIRTH, N. and HUSTON, C.C.
"A Preliminary Discussion of Ancient Mining in the Sultanate of Oman", *JOS* II (1976), 43-55.

GOLDING, M.
"Evidence for Pre-Seleucid Occupation of Eastern Arabia", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* IV (1974), 19-32.

Great Britain Naval Intelligence Division
Iraq and the Persian Gulf, (B.R. 524 Geographical Handbook Series, 1944).

HASTINGS, A., HUMPHRIES, J.H. and MEADOW, R.H.
"Oman in the Third Millennium BCE", *JOS* I (1975), 9-55.

HOCH, E.
"On the Animal Remains from the Umm an-Nar Settlement (3rd. Mill. B.C.) on the West Coast of the Oman Peninsula", abstract of a paper read at the Fourth International Conference of South Asian Archaeology, Naples, 4th to 6th July, 1977.

JACOBSEN, T.
"On the Textile Industry at Ur under Ibbi-Sin," in Moran, W.L. ed., *Towards the Image of Tammuz and other Essays on Mesopotamian History and Culture* (Cambridge: Harvard University Press, 1970), 216-230.

LAMBERT, M.
Tablettes Économiques de Laqash (Époque de la IIIe Dynastie d'Ur), Cahiers de la Société Asiatique XIV, Paris.

LEEMANS, W.F.
Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Studia et Documenta ad Iura Orientis Antiqui Pertinentia VI (Leiden: Brill, 1960).

LIMET, H.
"Les Métaux à l'Époque d'Agade (2370-2250 av. J.-C.)", *JESHO* XV, nos. 1-2 (1972), 3-34.

MASRY, A.H.
Prehistory in Northeastern Arabia: The Problem of Interregional Interaction (Field Research Publications, Coconut Grove, 1974).

MALLART, J.
"Mesopotamian Relations with the West, Including Anatolia During the 4th and 3rd. Millennia B.C.", paper read at the XXVth Renocontre Assyriologique Internationale, Berlin, 3-7, July 1978.

MORTENSEN, P.
"Om Barbartempelets Datering," *Kuml* (1970), 385-398.

OATES, J. *et al.*
"Seafaring Merchants of Ur?", *Antiquity* LI (1977), 221-234.

OPPENHEIM, A.L.
"The Seafaring Merchants of Ur", *JAOS* 74 (1954), 6-17.

PETTINATO, G.
"Il Commercio con l'Esterio della Mesopotamia Meridionale nel. 3. Millenio av. Cr. alla Luce delle Fonti Letterarie e Lessicali Sumeriche," *Mesopotamia* VII (1972), 43-166.

POTTS, D.T.
"The Zagros Frontier and the Problem of Relations Between the Iranian Plateau and Southern Mesopotamia in the Third Millennium B.C.", revised version of a paper read at the XXVth Rencontre Assyriologique Internationale, Berlin, 1978.

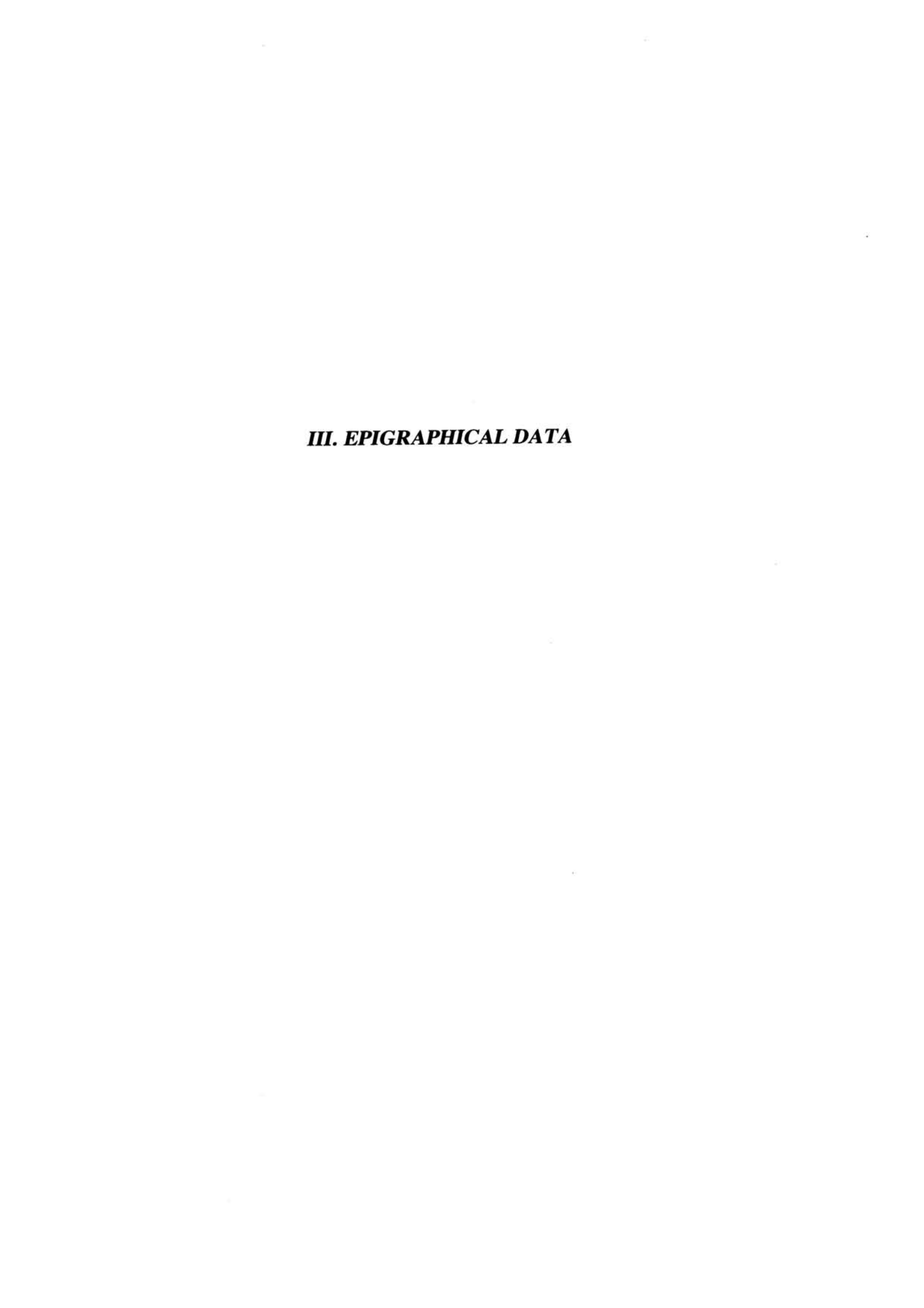
RICE, M.
"The Grave Complex at Al-Hajjar, Bahrain," *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* II (1972), 66-75.

SOLLBERGER, E.
"The Problem of Magan and Meluhha," *Bulletin of the Institute of Archaeology,* Nos. 8-9 (1968-69), 247-250.

STROMMENGER, E.
"Kulturbeziehungen der Stadt Habuba Kabira-Süd nach Mesopotamien/Elam und nach Syrien," paper read at the XXVth Rencontre Assyriologique Internationale, 3-7 July, Berlin, 1978.

TOSI, M.
"Some Data for the Study of Prehistoric Cultural Areas on the Persian Gulf, "*Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* IV, (1974), 145-171.

"Notes on the Distribution and Exploitation of Natural Resources in Ancient Oman", *JOS* I, (1975), 187-206.



III. EPIGRAPHICAL DATA

A CONTRIBUTION ON THE SUBJECT.

Alphabets, Scripts and Languages in Pre-Islamic Arabian Epigraphical Evidence

Jacques Ryckmans

The general topic of the present paper is an analysis of alphabets, of the use of various scripts within the range of a given alphabet, and of their relation to the language for which they are used.

We shall first consider the correlation – both in time and space – between a given alphabet and the languages or dialects for which it has (even occasionally) been used, and in the first place in South Arabia. Recently published texts show that the South Arabian monumental alphabet has been used to record more languages or dialects than the ones that were generally recognized so far. While some Ḥaḍramī texts already were known to show various phonetic particulars, which to a certain extent betray dialectal differences, dialectal discrepancies now appear in several texts from the region of the ancient Ḥimyarite and Qatabānian borders significantly a contested region both in ancient and present times. In the text **Ja 2353**,(1) for instance, from Wādī Shirujān, the use is attested of an enclitic element ***-k*** at the end of some nouns, apparently as a not otherwise attested marker for the emphatic state of the noun. Other evidence on hitherto unrecorded epigraphical South Arabian dialects will be mentioned further on.

Early Arabic, that is, North Arabian dialects of some sort, was certainly spoken in Yaman in pre-Islamic times, as is evidenced by the growing North Arabian influences on the language of the later Sabaean texts. Ptolemy (*Geogr.*, VI,7,5-9) places the South Arabian havens of Mouza and Okēlis in the country of the *Elisaroi.* The name has already been identified by A. Sprenger(2) as being that of the tribe al-'Ash'ar, the ***'-sh-'-r-n*** of the South Arabian inscriptions. The identification is now widely accepted; it implies(3) the important fact that in the Yamanite Tihāma a form of Arabic with prefixed article *al-* was spoken in the 2nd century A.D.

Another interesting place in that connection is Najrān, still within the traditional boundaries of ancient Yaman. A limited number of monumental inscriptions from Najrān written in Sabaean has been published, among other some bronze tablets, and the late fragmentary text **Twitchell 3**,(4) Irfān Shahīd(5) has argued from various indications in the Syriac text and Karshūnī version of a new letter of Simeon of Bēth Arshām on the martyrs of Najrān, which he published eight years ago, that the native language of Najrān, at least in the 6th century A.D., was Arabic, not South Arabian. Among various arguments cited, a striking one is the Syriac transcription ***lwdyā*** for the name of a place glossed as meaning "valley"(6): the word is clearly a corruption from an Arabic word *al-wādī,* or in the dual *al-wādiyān.* An interesting piece of evidence in that respect is an inscription from Najrān, written in South Arabian monumental writing and published by Walter W. Müller,(7) which uses the form ***dh-'-t '-h-l*** to express the tribal affiliation. This feature he quite rightly ascribes to an early form of North Arabic, as evidenced by the use of a similar expression in texts from al-Ḥasā and Qarya. He further indicates that the same expression, used with the same tribe is met with in a bronze inscription from Najrān previously published (**Ja 859**(8)). This probably indicates that the tribe mentioned was a local tribe, and not that of foreign colonists or merchants. If a form of North Arabic was written in Najrān in the 2nd century A.D., it appears quite probable that Shahīd's contention on the use of Arabic was true at least for a substantial part of the population of Najrān in the 6th century.

Coming back to the South Arabian inscriptions in general, we have to consider the *non-standard* texts: texts which do not conform to the rigid pharaseology normally in use for the type of contents they present. Such texts provide useful indications on the differences between the spoken speech and the rigid pattern and style fixed by a long tradition in the schools of stone carvers. They raise no problem when both their contents and script do not conform to standards, as for instance **Ja 702** and **720.** On the contrary, texts of non-standard contents but written in a standard hand, certainly raise the question why a regular stone carver should have indulged in carving a text at variance with the formulation enforced by professional tradition.

Mixing two different dialects in the same inscription is not an unknown feature in the South Arabian epigraphical material. **RES 3858,** from Lay'ān, is a Qatabānian decree, part of which, concerning Ḥimyarite territories under Qatabānian suzerainty, is written in Sabaean or Ḥimyarī. The date of some Sabaean or Ḥimyarite inscriptions (**RES 3958, 4197** bis,..) is given in Ḥaḍramī. A possible explanation is that the era mentioned was Ḥaḍramī, and that the number of the years had to be expressed in Ḥaḍramī, to distinguish it from a Ḥimyarite computation which had started at about the same time. But the existence of a number of eras other than the common Ḥimyarite era, is still a matter of discussion.

A last question related to the use of the South Arabian writing in South Arabia is that of its disappearance and definite replacement by the Kūfic Arabic script, some time after the conversion of Yaman to the Islamic faith.

A possible piece of evidence on the survival of the South Arabian language and writing, well in Islamic time, is a seal with a South Arabian inscription and invocation of Qur'ānic inspiration in Kūfic, published by John Walker(9) in 1962. After having contemplated the possibility that the motif and South Arabian inscription were contemporary to the Kūfic inscription, and therefore dating to Islamic times, Walker finally considered it more probable that a pre-Islamic seal with South Arabian inscription had been reused in Islamic times, and provided with a Qur'ān inspired invocation in Kūfic script.

Yet another possible evidence on a limited survival of the South Arabian writing in Islamic times was found in 1952 by the Philby-Ryckmans-Lippens Expedition on a rock bearing inscriptions in monumental South Arabian writing, in Ān al-Jamal in the Qāra range north of Ḥimā. There, a graffito in South Arabian writing is written askew, apparently in order to avoid interfering with a short Kūfic inscription which the editor of the text, A. Grohmann,(10) dated to the 7th century A.D. If this interpretation of the respective situation of the texts is correct, the South Arabian text was written when the 7th century Kūfic inscription was already there.

A last piece of evidence is quite conclusive, and could be considered to give some support to the preceding ones. It consists of two rock inscriptions from Umm Laylā near Ṣa'da in the North of the Yaman Arab Republic, published a few years ago by Chr. Robin.(11) While the script is South Arabian, the text is in Arabic: the verb *kataba,* "to write„ is used, instead of South Arabian *saṭara*. The writers are undoubtedly Muslims: Muḥammad (or Maḥmūd) bin 'Abdallā bin 'Alī, and 'Alī bin 'Abd al-Raḥmān. These texts give definite proof that the South Arabian writing continued to be used, even after two Islamic generations, to transcribe Arabic. An attempt will be made later on to explain the rather conservative South Arabian script of the texts.

Let us now examine various unexpected uses of the South Arabian monumental alphabet outside South Arabian proper. Of course, we are interested here only in South Arabian inscriptions in so far as they are written by non-South Arabian people, and in inscriptions in South Arabian writing transcribing a non-South Arabian dialect. They illustrate a point of A.J. Drewes's stating that documents written in essentially the same alphabets may be linguistically diverse.

Going from Najrān in a north-easterly direction, through Ḥimā towards Qarya, along the ancient caravan roads to al-Ḥasā and the Gulf, one meets in the region of Ḥimā and Kawkab a great number of rock inscriptions and graffiti, in various "Thamūdic" scripts, but also in South Arabian writing, sometimes a very well-formed monumental writing. The temptation is great to assign the texts in South Arabian writing as a whole to Sabaeans or Ḥimyarites. That such a conclusion would be preposterous in a number of cases will be shown by one typical example. A graffito in South Arabian writing which we found in 1952 in Nafūd Musammā, about 10 km north-east of Kawkab reads: "Ḥugr bin 'Amr, malik Kiddat"(12) Had the royal title been left out, one would normally have added these names to the late Sabaean, and not Central Arabian, stock of personal names.

More precise evidence on the use of the South Arabian monumental writing to transcribe North Arabian dialects is given by an analysis of various series of inscriptions found since 1948 on and around the site of Qarya (al-Faw), in south-western Saudi Arabia.[13] The texts comprise (1) "Thamūdic" graffiti from Jabal 'Ubayd, about 10 km north of the site (**Ry 429, a-1; Ja 2813-2814**); (2) "Thamūdic" and other graffiti in middle or late South Arabian scripts on the cliffs of the Ṭuwayq range overlooking the wells (**Ry 427-428; Ja 2126-2127, 2524-2808**); (3) carved and painted inscriptions in middle or late South Arabian writing found on the surface of the site, or reused in the wells, or discovered by excavation (**Ry 405-406, 455; Ja 2122-2123, 2810-2812**; texts excavated by Al-Ansary); (4) graffiti in late South Arabian script incised on the plaster walls of the anteroom of a funeral underground chamber (**Ry 407-425; Ja 2809, a-i**). This reveals a complex situation, which appears even more complicated when one studies some of the texts in South Arabian monumental writing. The regular excavations lead by Al-Ansary on the site since 1971 have brought to light the epitaph, written in Sabaean, of a Mu'awiya king of Qaḥṭān and Madḥij, but also an inscription of a 'Ijl bin Yāfi', written in South Arabian script, but in North Arabic, since the article ***'al-*** is used. The same text also contains the expression ***dhū-'Āl*** already met with in Najrān. This North Arabic expression is ascribed to the region of Qarya by the Sabaean text **Ja 635** from Ma'rib, which mentions an operation in Qarya against Rabi'ā dhū al-Thawr. A monumental text published by A. Jamme (**Ja 2122**) contains the verb ***'-ḥ-d-th*** in the North Arabic form of the causative (Jamme unduly corrects in a Minaean form ***((s)-ḥ-d-th)***).

Further interesting texts from Qarya, so far not identified as such, have turned up among inscriptions from the Riyaḍ Museum, which A. Jamme[14] published as Sabaean, and without stating their provenance. They were in fact found, scattered on the surface of the site, by the Philby-Ryckmans-Lippens expedition in February 1952, and handed over to the Jidda Museum, later transferred to Riyaḍ. The Qarya provenance of these texts gives them a special significance, since some of them appear not to be Sabaean. One of the texts (**RM 118 = Ja 2135**), a tombstone bearing a double name, published as "Sabaean", is in fact written in a definite "Thamūdic" script, and must be classified as "Thamūdic". On the stone of **RM 60 = Ja 2142** I noticed, when I found it, the remnants of mortises of a bronze statue. The text was therefore a dedication, so that the mutilated word beginning with the letters *alif-qāf* may confidently be completed in the form ***'qny***, the North Arabic form of the causative just mentioned. The text, writen in South Arabian letters, is in fact North Arabic. The dedication is apparently offered to the North Arabian god al-Lāh. In another of our texts, **RM 56 = Ja 2138**, published as "Sabaean", the very ***hqny*** appears in its normal Sabaean form. But the tribal affiliation is to be restored as ***(dh)-'-l***, the North Arabic expression already mentioned. Furthermore, the text is offered to the North Arabian goddess al-'Uzzā, mentioned under the Arabic form of the name, *al-'Uzzā*, not the South Arabian form *'Uzzāyān*. This A. Jamme did not realize, since he transcribes the name ***'Īl'azay***, and considers it to be the name of a woman offered to an unknown divinity.

A general interpretation of the epigraphical evidence in Qarya remains difficult, since the last stage marked by graffiti in late South Arabian script in the anteroom of the funeral chamber, and on the Ṭuwayq cliff, are too short to allow to classify them either as "Sabaean" or as "North Arabic". I would suggest as a provisional hypothesis that in an earlier stage, a strong Sabaean cultural influence eliminated the local "Thamūdic" writing, and superseded the local dialect at least in the top layers of the population. Later on, the local–or at any rate, a North Arabic–dialect, henceforth written in South Arabian writing, eventually (re)gained prominence, already before the destruction of the city (presumably under the Sabaean king Sha'r 'Awtar) and the beginning of the late South Arabian phase of the script.

The Hasaean inscriptions form another, probably earlier (3rd-2nd centuries B.C.), example of a North Arabic dialect written in a (slightly particular) South Arabian monumental script. A catalogue of these texts with a discussion of their linguistic features has been published recently by Chr. Robin,[15] so that I need not dwell on the subject. A British Museum text of unknown provenance (**RES 3608 bis = Ry 547**[16]), also shows North Arabic features, but is written in a monumental script which in my opinion looks definitely Minaean: this text is probably to be ascribed to the region of North Minaean influence in the Ḥijāz. The text

CIH 450, also of unknown provenance, might originate from the same region (it could not originate from Qarya, which was quite unknown when the text was published in 1908). It contains the expression ***dhū Āl-'hnkt*** with the *al-* article, as F.V. Winnett has shown,(17) which is a perfect *calque* of the Liḥyanite expression ***dhū Āl hn-'hnkt*** of the inscription **Jaussen-Savignac 71, 3.** The connection of the ***ḤNK*** tribe with the Āmir tribe in the North of Yaman, and with the region northwards to Qarya (**Ry. 455**), is well established.(18)

In connection with the evidence of the Ḥasaean texts, mention is to be made of the use of the South Arabian script in legends or isolated letters on North Arabian *imitations of coins of Alexander,* of which Chr. Robin(19) has made a comprehensive study. They date roughly from 240-130 B.C., that is, probably the same general date as the Ḥasaean inscriptions themselves. One of these types of coins presents a variant in which the legend in South Arabian writing is replaced by an Aramaic text. Robin(20) quite appropriately commented on this that the same chronological succession: "South Arabian writing -Aramaic" is evidenced by two bilingual Ḥasaean-Aramaic texts and two other Aramaic texts, found in al-Ḥasā and al-Qaṭīf. It is not out of place to point out a similar case of replacement of one language by another, clearly evidenced by the texts: the Nabataean inscriptions of a "Mas'ūdu, king of Liḥyān" (**Jaussen-Savignac, Nab.** nos. **334, 335** and **337**) or the use of the Nabataean and Greek languages for their monumental inscriptions by members of the Thamūdic nation on their temple in Ruwwāfa.

The extensive use of the South Arabian writing to transcribe North Arabian dialects in Central and North Arabia suggests a new evaluation of the significance of another Pre-Islamic text written in a foreign writing: *the al-Namāra inscription* of Imru' al-Qays, king of all Arabs, which was written in 328 A.D. in a form of North Arabic(21) transcribed in Nabataean writing.

While it was generally assumed that this text was the first link of a single evolution process leading through various consecutive steps to the development of the Kūfic script, a reputed specialist of Nabataean, J. Starcky,(22) aided by J. Milik, had advocated a Syriac origin of the Kūfic script. Starcky points out a fundamental difference between the Nabataean writing and the ancient Arabic and Kūfic scripts. While the former appears to be as it were suspended to an ideal upper line, the latter rests *on* the line, exactly like the Syriac script. This is an important point (in spite of the view expressed by Schmitt-Korte during the discussion). Specialists in Greek palaeography are well aware that old minuscule Greek writing was written *on* the line up to the 9th century A.D. At the end of that century appears the use of suspending the letters *under* the line, the oldest dated manuscript mostly written in that fashion being dated from 896 A.D. In less than one century's time, and for some obscure but powerful reason, the new way of writing Greek minuscule was adopted in *all scriptoria,* the latest known dated minuscule Greek manuscript with the writing set down *on* the line being dated from 978 A.D. Starcky further argues that the script of the ancient texts in Arabic script exhibits a number of letters–*'alif, jīm, ṣād* and *shīn,* for instannce–and other features closer to Estrangelo Syriac than to late Nabataean, and thinks it probable that the Kūfic writing is evolved from a chancellery form of Estrangelo Syriac, developed in the Lakhmid kingdom of al-Ḥīra. In his criticism of Starcky's views, A. Grohmann(23) has quite rightly shown that Starcky had not taken into account the texts of Jabal Rumm and Umm Usays (the latter dated to 528 A.D.), which greatly contribute to our knowledge of the ancient Arabic writing. It is quite true–and Starcky admits that point–that the Arabic letters *ṭā'* and *mīm* are closer to the Nabataean than to the Syriac script. But on the other hand (as A.F.L. Beeston remarked in the discusion of the present paper), *rā'* and *dāl* are similar in the Nabataean script, but not in Arabic, in which *rā'* goes with *zāy,* and *dāl* with *dhāl.* Grohmann's criticism of Starcky's key argument–the incompatibility of ductus–seems quite inconclusive. Finally Grohmann did not take into account a recently published Nabataean inscription from Ḥegrā, dated to 356 A.D.(24) This text shows that the Nabataean language and script were still in use about 30 years after the date of the al-Namāra inscription, making it no more possible to hold the view that the latter text illustrates a process already well under way, of the disappearance of Nabataean and its replacement by Arabic. Any way, it becomes extremely difficult to maintain Grohmann's view

that the Arabic inscription of Jabal Rumm dates to before 350 A.D., and that the script is directly evolved from that of the al-Namāra inscription. I rather favour G. Garbini's[25] position, who remarks that both points of view on the origin of the Arabic script are not incompatible: the Arabic script of the 4th century is undoubtedly Nabataean, while that of the 6th has clear affinities with the Syriac one. The intervening development must not, in my opinion, be considered as a linear progression in one direction (from Nabataean to Kūfic), but as a sum of various trials, influences, innovations and dead ends in a discontinuous cultural milieu. In this perspective, the al-Namāra inscription appears no more as a first link, but as one out of several dead ends in the history of the early transcription of Arabic, another of those dead ends being of course the transcription of North Arabian dialects in South Arabian writing in Central and North Arabia. The respective choices of the Nabataean, South Arabian, Liḥyanite[26] or Syriac[27] scripts to transcribe early Arabic dialects constitute analogous manifestations of the local pre-eminence of another language, and may to a certain extent be further compared to the use of the Karshūnī script by Syrian Christians and of the Hebrew script by Yamanī Jews, to transcribe Arabic.

Similarly, the prestige the South Arabian civilization enjoyed at the court of the Ethiopian kings in Axum, as evidenced by their borrowing of the South Arabian title 'King of Saba and dhū-Raydān', explains that they sometimes transcribe the Ethiopic text of their inscriptions in Ethiopic and/or South Arabian writing, in the last case written from right to left (as in South Arabian) or from left to right as in Ethiopic.[28]

These examples will suffice to illustrate the first type of correlation I wanted to examine. A second type of correlation is that which exists between the various kinds of scripts within the sphere of a given writing, according to the material on which they are used. Of course the material chosen generally agrees with the level of language, or the purpose, of the written document: a personal letter is not expected to be carved in monumental writing on a stone slab.

Owing to the fact that the original written documents from Pre-Islamic Arabia are practically limited to texts incised on hard material, we epigraphists are prone to forget the important role of the scripts used much more frequently on lighter material, the nature of which we do not even know for sure. What we know of the South Arabian writing is about of the same order as what an epigraphist of 3000 A.D. could ascertain of our Roman writing in the atomized ruins of London, for instance, if only stone inscriptions from cemeteries, churches and public buildings had survived.

The question of the influence of cursive scripts on the monumental writing is a difficult one. The great conservatism of the ancient monumental writing probably is to be explained by the parallel existence of a very different cursive script, written on soft material, and which, being very different, did not exert much influence on the monumental writing. This, and the rather limited use of monumental inscriptions in provincial regions as the North of Yaman, for instance, could explain the very conservative aspect of the Arabic inscriptions of Umm Laylā, which certainly do not correspond to the idea one could have of the evolution of the South Arabian writing expected in the 7th century A.D.

But at the beginning of the middle South Arabian period, the growing importance of the serifs of the letters seems to be due to the influence of a manuscript writing written with ink or on wax. As we all know, the script of most of the inscriptions of the reign of Shamir Yūhar'ish have exaggerated serifs, and a marked oblique slant of the letters. Does this mean that at that time the cursive scripts were closer to the monumental one, and therefore more likely to influence them? But, conversely, one might observe that precisely those inscriptions show an unusual number of forgotten letters and other mistakes, so that the features mentioned could be ascribed just to a decadence in the art of carving monumental inscriptions.

The use of two kinds of scripts in the same inscription has been reported by F.V. Winnett[29] for the funerary inscription **Jaussen-Savignac Lih. 71,** in which the first lines, which record the name of the dead man,

are written in monumental Liḥyanite, while the rest of the text is in cursive script. This Winnett compares to a habit occasionally found in Ṣafa'itic inscriptions: the author writes his name and genealogy in large letters but uses a smaller, though identical, script for the rest of the text. Winnett further comments that the use of a cursive script in Dēdān "is a matter of considerable interest since it presupposes the existence of documents on such material as parchment; a script employed exclusively for writing on rock would never develop cursive forms." This remark seems to me quite appropriate: there is no doubt, for instance–as Starcky(30) remarks– that the classical Nabataean monumental writing in Petra, developed since the 1st century B.C., with all its ligatures, is a transposition on stone of a calligraphy for which there are only later (1st century A.D.) papyrus specimens found near Engaddi. But Winnett's remark further implies, of course, that both Liḥyanite scripts were used on stone or rock at the same time, a fact that presents an interesting parallel with South Arabian, as we shall see. A.F.L. Beeson(31) notes that Winnett's observation "if regarded as valid, has far-reaching implications; for the so-called 'Thamudic' graffiti are undoubtedly in a 'cursive' script". Certainly, the presence of thousands upon thousands of so called "Thamūdic" inscriptions in Arabia implies–to quote Peter Parr's paper–"the general spread of at least a certain measure of literacy"* which was certainly not limited to the rock as a material, although there are no features, such as ligatures or trends towards standardization, which could be ascribed to a calligraphic usage, as is the case for Nabataean. There is also a *prima facie* possibility that some of the "Thamūdic" texts scattered in the vicinity of such urban centres of South Arabian culture as Dēdān, Qarya, or South Arabian towns, are the cursive counterpart of the writing used for monumental inscriptions in the town, but such a possibility looks very remote. For one thing, it is not conceivable that two contemporary scripts within the same system of writing could have had antinomous positions on the use of word-dividers.

For the South Arabian epigraphical material we have now at our disposal a limited number of data on the existence of various types of scripts. The monumental script of inscriptions carved in stone and cast in bronze forms a single type, in contrast to most of the inscriptions incised in metal, which present a type with a double line tracing, for which there is practically no evidence in stone inscriptions(32). In the two bronze plaques **RES 2693** (from Shabwa) and **CIH 567**, which are cast in relief, we are fortunate to meet with the two kinds of scripts side by side in the same text: the last words of each inscription had to be incised on the frame for want of space. There cannot be any doubt that in both cases the incised text completes the inscription in relief, and is strictly contemporary to it. It is clear from a comparison of the two kinds of scripts, in relief and incised, in each plaque, that both types belong to parallel but different lines of evolution: the incised script with its *yā'* with triangular shaft, its *mīm* with inserted lines or triangles at both ends, etc., looks more evolved than the contemporary relief script and closer to the script of the late Sabaean inscriptions. Obviously this script, incised on a smaller scale than the usual monumental inscriptions, and maybe also written on wax tablets, was less traditional and already contained trends which would only later be integrated in the monumental script.

Similar differences in the rythm of evolution, depending on the material used, are obvious in the epigraphic material found in Ḥajar bin Ḥumayd.(33) Stone texts show a monumental writing, traditional and conservative, while the text incised in plaster or on pottery generally show a greater suppleness of forms, and may look earlier or later–according to the letter considered–than the monumental inscriptions found in the same archaeological level. In such cases it is quite unsound to appreciate–as has been done–the relative chronology and rate of evolution of the monumental script by comparison with contemporary texts from the same site, written on potsherds or incised in plaster.

---

* *Editor:*
See p. 51.

Still another type of Arabian script is documented by the two inscribed wooden sticks, of the size of a large Havana cigar, which M.A. Ghul deciphered and described in unpublished papers read in 1972 at Harvard at the International Symposium on Arabia in Antiquity, and in 1973 in London at the Seminar for Arabian Studies. The very cursive letters incised in the wood are clearly evolved from the monumental script of the middle period. That this is a *manuscript* writing, normally traced with ink on such material as papyrus, parchment, ostraca – or perhaps even written on wax tablets – is demonstrated by the strong left-hand slant of the bottom shaft of most of the letters. The contents of the texts – a personal letter according to Ghul's interpretation, which seems quite justified – probably explains that this script, used for texts written in ink, served also for a message inscribed on a stick.[34]

One might expect the cursive script of the sticks to occur occasionally in South Arabian rock graffiti from South or Central Arabia, but I cannot give one example. This must be explained, I think, by the fact that this script was practically restricted to one type of documents (such as personal letters) which were usually written in ink. A modern comparison will, I hope, make this point clear. A study of the graffiti found on the walls of cities in Western Europe would certainly reveal that block letters or print types, and practically never handwriting, are used for incised graffiti, while texts written with pencil, ink or paint, can occasionally be written in handwriting.

A last part of my paper will be devoted to some considerations on the relation of the South Semitic group of scripts to the North Semitic one, especially from the point of view of the data obtained by a comparison of the form of the letters and of their respective order in the various alphabets.[35]

There is certainly a general agreement on the view that South Semitic alphabets, from Ethiopic to Ṣafa'itic, belong to a single group of alphabets, as a superficial glance at a comparative table of those alphabets will show. That most of the South Semitic signs have the same origin as their North Semitic counterpart is also quite evident. But the discrepancies are important. To take the Old South Arabian script as a reference, the signs for *h, ḥ, ṣ, w* and *y* seem graphically incompatible with their North Semitic counterparts. The Phoenician sign for *yōd,* "hand" has been thought to be evolved from a sign representing a flexed arm with hand ( )[36], while the South Semitic sign–a circle or lozenge attached to a vertical stroke — might have been derived from a variant representing a raised hand with arm ( ). Ethiopic *zay* is known to represent graphically South Semitic *dhāl.* Most interesting is also the case of Ethiopic *sāt,* because a substitution has taken place, similar to that of *zay.* The phonemic value was that of North Semitic *sāmek* (= South Arabian , *ś* or ***s3,*** probably graphically cognate to Ugaritic ***s2***) but the name and graphic form are those of the special South Semitic sibilant ***s*** or ***s1*** (probable graphic cognate of Ugaritic , ***s***.[37] A similar confusion occurred in Late Sabaean, in which the sign , ***s1***, frequently replaces , ***s3.***

This confrontation between the North Semitic and South Semitic groups of scripts shows general affinities but also clear incompatibilities. While the differences exclude, in my opinion, a direct dependence of the South Semitic scripts on Phoenician, [38] the correspondences indicate a common origin. But following M. Rodinson, [39] I would conceive this common stock not as a single alphabet, but as a set of very closely connected types of scripts, trials, exhibiting variants in the form of the letters, and–as we shall presently see–in their order of sequence in the alphabet. The type which directly inspired the variants adopted by the South Semitic system of writing must have included, within a specific letter-order, those Semitic phonemes lost in Phoenician, but still used in South Semitic.

Speaking of the form of the letters, I would like to comment on the particular situation of the monumental South Arabian script. Miss Pirenne, [40] has stressed the similarity of the South Arabian script with the canon of proportion of the ancient Greek alphabets of the 5th century, with their vertical axes. Her assumption that the monumental South Arabian script was directly inspired by a Greek Peloponnesian al-

phabet in the 6th century B.C. is objectionable at least in so far as it rests on the comparison of signs from various archaic Greek alphabets with South Arabian letters *having other phonemic values,* and in so far as the adoption of vertical axes and of a more or less similar canon of proportion is presented as a proof of an influence of the Greek script on the South monumental writing. But I think that a more important point ought to be stressed: the fact that the normalization to which the South Arabian monumental alphabet has been subjected, even exceeds that which was effected in the Greek alphabet. Following M. Lidzbarski, M. Höfner, [41] and more recently G.M. Bauer, [42] have rightly underlined the great proportion of South Arabian letters built around one or even two axes of symmetry. I thought it interesting to calculate the percentages and to compare them to those of the Greek classical script.

In the South Arabian monumental alphabet of 29 signs, 21 (or 72%) are symmetrical, and out of those 11 (or no less than 37% of the whole alphabet) have double axis of symmetry. For the Greek alphabet of 24 signs, out of a total of 21 symmetrical signs (87.5%), 7 (or 29% of the whole alphabet) have a double symmetry. To the South Arabian count of symmetrical letters must still be added another type of symmetry: *alīf* and *hā',* when written upside down, are identical to *khā'* and *s* (*sl*). In the Greek alphabet, it is true, there is one rather similar case: the letters ***M*** and ***Z***. All this indicates a trend towards symmetry even greater in the South Arabian writing than in the Greek one, and allows to consider it a genuine South Arabian tendency. This trend towards symmetry, both vertical and horizontal, seems to me to be essentially due to aesthetic considerations related to the use of boustrophedon writing in large type on walls of well trimmed stones. The overall effect of a few boustrophedon lines, with slightly oblique vertical shafts and slightly oblique horizontal strokes, the two kinds of obliqueness being reversed every line, would simply be disastrous. Conversely, the disappearance of the boustrophedon as a normal direction of writing during Miss Pirenne's "C" period, could very well have been related to the recorded appearance, in the first phases of the same period, of an oblique (instead of horizontal) middle stroke in such letters as *nūn* and *khā'*.

Still another way of investigation into the origins of the South Semitic scripts is given by the *order of the letters* of the alphabet. Less than thirty years ago, the very peculiar letter-order of the Ethiopic alphabet, the only one then recorded for a South Semitic alphabet, could appear to be due to an arbitrary reshuffling, since it bore no relation to the Phoenician or Ugaritic order. The publication by A.M. Honeyman[43] in 1952 of a pavement from Timna', in which the tiles bore a numbering effected through a numbering by the letters of the alphabet, arranged in an order very close to the Ethiopic one, was proof that the Ethiopic letter-order depended from an older South Semitic one. But Honeyman's reconstruction was fragmentary and partly speculative. F. Bron and Chr. Robin[44] recently succeeded in identifying, in one unpublished and several already published texts, parts of alphabets, which allowed to establish the correct sequence of two thirds of the South Arabian alphabet.

M.A. Ghul generously allowed me to announce in a lecture I gave in Paris in March 1978[45] his very important discovery of a practically complete South Arabian alphabet in a text, published long ago, but thought to be unintelligible. I hope he will be able to publish this alphabet very soon. I shall not enter into details before that, but I think that some general observations may be done on the South Arabian alphabet.

In the first place, the letter-order is entirely different from the North Semitic or Ugaritic one. We are here confronted with a quite independent tradition. In the eighth book of his South Arabian encyclopaedia *al-Iklīl,* al-Hamadanī (d. 334/945 A.D.)[46] transcribes the Arabic alphabet in South Arabian letters by naming the Arabic letters according to an order which is neither the traditional, nor the *abjad,* nor the Maghribī one. I checked of course if this Yamanī order of the alphabet had any relation to the Old South Arabian one. The result is negative: Hamadānī's variant is clearly a variant of the Arabic alphabet; and it had already disappeared by the time the Naswān al-Ḥimyarī (d.H. 573/1117 A.D.) composed its own work *Shams al-'Ulūm.*

A comparison of the South Arabian alphabet with the Ethiopic one shows clearly that the Ethiopic order has modified the original place of certain letters, in order to put together letters which are more or less similar–for instance, *wāwē* displaced towards the *'ayn,kāf* put together with *alif*–or conversely, in order to insert a neutral sign between very similar neighbouring letters of the South Arabian alphabet, with the purpose of distinguishing them better – for instance *qāf* being inserted between the very similar letters *sāt* and *bēt*.

Another important point is that the order of the South Arabian alphabet reveals absolutely no proximity of letters (similar to the groups *dāl-dhāl, 'ayn-ghayn, ṣād-ḍād* of the Arabic alphabet), or grouping together of supplementary letters (as *ypsilon-phi-khi-psi-ōmega* at the end of the Greek alphabet) which could give consistence to the assumption that the South Arabian alphabet of 29 letters has been "expanded" from a shorter North Semitic alphabet (as it happened in Arabic): in such a case one would expect the supplementary letters (mostly interdentals) to be inserted at a given place (for instance, the interdentals after the dentals, as in Arabic), or at the end of the alphabet.

The same arguments are valid against a conception according to which a number of South Arabian or South Semitic letters are conscious inventions devised by modifying a primary sign to express a South Semitic value not present in the Phoenician alphabet. This has been said for ***s*** *(s3)*, , in South Arabian, supposed to be formed of two opposed ***sh*** ( )[47] (although this sign, which corresponds graphically and phonetically to *sāmek* in Hebrew and *ksi* in Greek, existed in North Semitic and had not to be created), and for a number of other letters: ***kh*** created from a modified ***h***, ***z*** from ***t***, ***gh*** from ***k*** and ***ḏ*** from ***ṯ***[48]. The independent and random place of these letters in the South Arabian alphabet seems to deprive these views of any foundation.

I hope these general remarks on various epigraphical topics will prove to be sufficiently controversial to start an interesting discussion on the same questions or on related problems.

Notes

(1) A. Jamme, *Miscellanées d'Ancient* (sic) *Arabe*, 3 (Washington, 1951), 86 ff. Other apparent examples of texts in so far unrecorded dialects are: (1) **Zayd 'Inān 11** (cf. M.A. Bāfaqīh and Chr. Robin, *"Min nuqūsh Maḥram Bilqīs"*, in *Raydān* (Aden) 1 (1978), 16-22 (the text is addressed to ***Khl***, the patron-god of *Qarya*); (2) an enigmatic "qaṣīda" of about 30 lines with the same rhyme of two consonants, written on a rock in South Arabian monumental script, the discovery of which, in the Yaman Arab Republic, has been reported from various sources.

(2) *Die alte Geographie Arabiens* (Bern 1875, reprint Amsterdam, 1966), 63.

(3) Jacques Ryckmans, "Petits royaumes sud-arabes d'après less auteurs classiques", *Le Muséon* 70 (1957), 80, no. 13, with a reference to E. Glaser, *Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens*, 2 (Berlin, 1890), 150, explaining the place-name *Elmataceis* in Pliny.

(4) *Cf.* A. Jamme, "South Arabian Antiquities in the U.S.A.", *Bibliotheca Orientalis*, 12 (1955), 152 and pl. II. The text had previously been published by H. St. J.B. Philby, "Three New Inscriptions from Hadhramaut", *Journal of the Royal Asiatic Society* (1945), 133, and by A.S. Tritton in H. St. J.B. Philby and A.S. Tritton, "Najran Inscriptions", *Journal of the Royal Asiatic Society* (1944), 125,

in both cases from a bad copy made by Philby. A. Jamme later republished this copy as a genuine "Thamūdic" text, in *Sabaean and Hasaean Inscriptions from Saudi Arabia* (Studi Semitici, 23. Roma, 1966), 61.

(5) *The Martyrs of Najran. New Documents* (Subsidia Hagiographia, 49) (Bruxelles, 1971), 242-250.

(6) *Ibid.*, 54, 55, etc.; 244. For a negative evaluation of Shahīd's arguments, cf. W.W. Müller's review in *Oriens Christianus* 58 (1974), 179-190. Shahīd uses as a further argument the North Arabian origin of most of the personal names in Najrān. This point I had already put forward: "Les rois de Hadramawt mentionnés à 'Uqla", in *Bibliotheca Orientalis,* 21 (1964), 279-280, by pointing to the common North Arabian affinities of the stock of names of Najrān, al-'Uqla and, to a lesser degree, of the Minaean texts *cf.* now the North Arabian onomastics pointed out by W.W. Müller, "Sabaische Felsinschriften von der jemenitischen Grenze zur Rub' al-Ḫālī", in R. Degen, W.W. Müller and W. Rollig, *Neue Ephemeris für Semitsche Epigraphik* 3 (Wiesbaden, 1978), 113-136, in Sabaean texts from a region to the S.E. of Najrān. In his review, Müller contradicts Shahīd's views by quoting corresponding South Arabian references mostly in Minaean, in al-'Uqla Haḍramite, or in Late Sabaean, especially graffiti from Southern Central Arabia, without realizing that the stock of names precisely from those provenances is the most contaminated by North Arabian influence (*cf.* for instance hereunder n.12). – But of course, the northern affinities of Najrān's personal names are by themselves no proof that the language spoken there was Arabic.

(7) "Ein Grabmonument aus Nadjrān als Zeugnis für das Frühnordarabische", in R. Degen, W.W. Müller and W. Röllig, *op. cit.*, n.6, 152-156 (**Mü 2**).

(8) *Op. cit.*, 152-153, and pl. III.

(9) "A South Arabian Gem with Sabaean and Kūfic Legends", in *Le Muséon* 75 (1962), 455-457.

(10) A. Grohmann, *Arabic Inscriptions* (Expédition Philby-Ryckmans-Lippens en Arabie, II, 1, Bibliothèque du *Muséon* 50) (Louvain, 1962), 168 and pl. XXII, 3-4. *Cf.* already Chr. Robin, "Résultats épigraphiques et archéologiques de deux brefs séjours en Republique Arabe du Yemen", in *Semitica* 26 (1976), 191, n.3.

(11) *Op. cit.*, 188-192 and pl. XXV (**Robin/Umm Layla 2-3**).

(12) *Cf.* G. Ryckmans, "Graffites sabéens relevés en Arabie Sa'udite" in *Rivista degli Studi Orientali* 32(1957) [= Scritti in Onore di Giuseppe Furlani], 561.

(13) *Cf.* G. Ryckmans, "Inscriptions sud-arabes, 8e série", in *Le Muséon* 62 (1949), 87-102, and pls. IV,V,VIII, figs. pp. 101 and 113 **Ry 405-430;** *idem,* "Inscriptions sud-arabes, 9e série", in *Le Muséon* 64 (1951), 111 and fig. p. 116 (**Ry 455**); A. Jamme, "New Hasaean and Sabaean Inscriptions from Saudi Arabia", in *Oriens Antiquus* 6 (1967), 181-187, and pls. 47-49 (**Ja 2122-2123** and **2126-2127**); *idem, Miscellanées d'Ancient* (sic) *Arabe* 4 (Washington, 1973) 2-147 and pls. 1-24 (**Ja 2524-2814**); A.R. Al-Ansary has made known his texts in a paper presented at the "First International Symposium on Studies in the History of Arabia" (Riyadh, April 1977); [*Editor:* Published in *Sources for the History of Arabia,* Part 1, *Studies in the History of Arabia* I (Riyad, 1399/1979), 3-11. A photograph of both texts is given in *Dalīl al-Ma'raḍ al-Thānī li-Āthār Mintaqat Qaryat al-Faw, 23-28 Jumāda al-Ūlā 1397 H.)* (Riyadh, 1977), 17. For the second of the Al-Ansary texts mentioned hereunder, *cf.* now A.F.L. Beeston, "Nemara and Faw", in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* 43 (1979), 1-2, *Cf.* the next note for futher texts from Qarya.

(14) "The Pre-Islamic Inscriptions of the Riyadh Museum", in *Oriens Antiquus* 9 (1970), 119-122 and fig. 1 (**Ja 2134, 2135, 2138** and **2142**). [All **RM** numbers are quoted here in a shortened form; add everywhere the same number "-1-86"]. A photograph of the texts **Ja 2135** and **2142,** taken in January 1952 in *Qarya,* is published (the wrong way round) in Benoist-Méchin, *Arabie Carrefour des siècles* (Lausanne, 1961), 23. See further on these texts my article "'Uzzā et Lāt dans les inscriptions sud-arabes: à propos de deux amulettes méconnues", to be published in *Journal of Semitic Studies.* The linguistic situation in *Qarya,* and probably in Najrān, is in a way somewhat comparable to that of the Nabataean inscriptions, written in an Aramaic dialect by the Arabic-speaking people – or to the presence of Aramaic inscriptions in ancient Taymā'.

(15) "Monnaies provenant de l'Arabie du nord-est", in *Semitica* 24 (1974), 112-115. *Cf.* for some complements W.W. Müller, "Ein Grabmonument ...." [quoted n.7], 149-152.

(16) G. Ryckmans, "Inscriptions sud-arabes, 15e série", *Le Muséon* 70 (1957), 113-117, and pl. IV. In this text the expression ***'lwt 'l*** (plural of ***dh-'-l***) is used; some proper names ending up in **-'** also seem to point to an Aramaic (Nabataean?) influence. *Cf.* this to the following paragraph. Chr. Robin, *Semitica* 24, 114 n.4, mentions this text (and **CIH 450** cited hereunder) as found in South Arabia; to the best of my knowledge the provenance of both inscriptions is unknown.

(17) *Cf.* A.F.L. Beeston *et al.*, "The Inscription **Jaussen-Savignac 71"**, in *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 3 (1973), 70-71.

(18) *Cf.* H. von Wissmann, *Sammlung Eduard Glaser III. Zur Geschichte und Landeskunde von Alt-Südarabien* (Österreichische Akademie der Wissenschaften, Phil.-Hist. Kl., Sitzungsberichte, 246. Bd.) (Wien, 1964), 92-95.

(19) *Semitica* 24, 85-102, and pl. I.

(20) *Ibid.*, 118.

(21) On this text *cf.* lastly J. Blau, "The Beginnings of the Arabic Diglossia. A Study of the Origins of Neoarabic", in *Afroasiatic Linguistics* 4 (1977), 184-188; A.F.L. Beeston, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 43, 2-6. Irfan Shahīd, "Philological Observations on the Namâra Inscription", *Journal of Semitic Studies* 24 (1979), 33-42.

(22) "Pétra et la Nabatène", in *Supplément au Dictionnaire de la Bible* 7 (Paris, 1966), cols. 932-934; *cf.* J. Sourdel-Thomine, "Les origines de l'écriture arabe, à propos d'une hypothèse récente", in *Revue des Études Islamiques* 34 (1966) Paris, 1967, 151-157.

(23) *Arabische Paläographie,* II (Österreichische Akademie der Wissenschaften, Phil. -Hist. Kl., Denkschriften, 94. Bd., 2. Abh.) (Wien, 1971), 11-26.

(24) Published by F. Altheim und Ruth Stiehl, *Die Araber in der Alten Welt,* V,1 (1968), 305-310.

(25) *Storia e problemi dell'epigrafia semitica* (Supplemento n.19 agli *Annali dell'Istituto Orientale di Napoli,* 39, 1969, fasc. 2), 66, n.27.

(26) *Cf.* A.F.L. Beeston's interpretation of the text (in Liḥyanite script) of **Jaussen-Savignac 71,** in A.F.L. Beeston *et al., Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 3 (1973), 69-70.

(27) Shahīd's (*op. cit.*, 246, n.7) suggestion, that the Christians of Najrān may have used a Syriac script to transcribe Arabic, is not unlikely (at least as far as liturgical purposes or the like are concerned). Further examples of early transcriptions of Arabic in foreign scripts are: (1) 8th century fragments of **Ps. 77,** in Greek with an Arabic version transcribed in Greek letters, found in the Great Mosque of Damascus, *cf.* B. Violet, "Ein zweisprachige Psalmenfragment aus Damascus", *Orientalistische Literaturzeitung* 4 (1901), cols. 384-403; 425-441; 475-488 [cf. A. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur,* 1, (Studi i Testi 118), (Roma, 1944), p. 115]; (2) two Christian Arabic texts transcribed in Coptic script, cf. A. Graf, *ibid.*, 387, with the addendum in Vol. 2, (Studi i Testi 133), (Roma, 1947), 495. Cf. to all this I. Gelb, *A Study of Writing* (London, reprinted 1974), 227: "Normally a language uses only one writing at a time (...). Cases in which one language is expressed at the same time in different writings are few and unimpressive". Next to ancient Arabic, one could contrast to this view the case of Malay, Sanskrit, Sogdian, Swahili ....

(28) *Cf.* E. Littmann, *Sabäische, griechische und altabessinische Inschriften* (Deutsche Aksum-Expedition hrsg. von der Generalverwaltung der Königliche Museen zu Berlin 4), 9-16 (**DAE 6**), 18-24 (**DAE 8**); two of the inscriptions set out by R. Schneider, "Trois nouvelles inscriptions royales d'Axum" in *IV Congresso Internazionale di Studi Etiopici, Roma 10-15 April 1972* (Accademia Nazionale dei Lincei, anno 1974, *Problemi attuali di Scienzia e cultura, Quad. 191)* (Roma, 1974), I, 767-786 (which I was unable to consult). The first of these inscriptions, at any rate, is written from left to right, according to R. Schneider, "L'inscription chrétienne d'Ezāna en écriture sudarabe", in *Annales d'Ethiopie* 10 (1976), 109.

(29) Beeston *et al., Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 3, 70-71.

(30) "Pétra et la Nabatène", col. 931.

(31) Beeston *et al., op. cit.*, 17. Regarding my comment on this, *cf.* already A. Grohmann, *op. cit.*, n.23, 8-10.

(32) *Cf.* Jacques Ryckmans in collaboration with I. Vandevivere "Some Technical Aspects of the Inscribed South Arabian Bronze Inscriptions Cast in Relief", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 8 (1978), 55-56, and 60, n.3. To the texts in double-line tracing mentioned in that note, add: (1) and (2) **Ja 861** and **862** (A. Jamme, *Bibliotheca Orientalis* 12, 154, n.4 and pls. II-III; (3) **CIH 559**; (4) **Caton Thompson 58,** published by G. Ryckmans, "Epigraphy" in G. Caton Thompson, *The Tombs and Moon Temple of Hereidha (Hadhramaut)* (Reports of the Research Committee of the Society of Antiquaries of London 13) (Oxford, 1944), 178 and pl.xliv, 4; and (5) lines 11 (end) and 12 of **CIH 567**, a good photograph of which is now published for the first time by Chr. Robin, "Les inscriptions sudarabiques anciennes", in *Les dossiers de l'archéologie* (Dijon), no.33, mars-avril 1979, 71.

(33) *Cf.* A. Jamme, "Inscriptions of Hajar bin Humeid", in G.W. van Beek, *Hajar bin Ḥumeid, Investigations at a Pre-Islamic Site in South Arabia* (Publications of the American Foundation for the Study of Man 5. Baltimore, 1969), 331-352; *cf.* my review in *Bibliotheca Orientalis,* (1972), 237.

(34) I am indebted to the kindness of M.A. Ghul for photographs of the sticks. Further apparent examples of the same writing are: (1) **Ja 768,** a graffito from the Ma'rib temple (A. Jamme, *Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqîs (Mârib).* Publications of the American Foundation for the Study of Man 3. Baltimore, 1962), 230 and pl. P; (2) a graffito (**H I 2-B**) found in Hajar bin Ḥumayd: A. Jamme, in Van Beek, *op. cit.*, 337 and fig. 131 (apparently to be read the other way round); (3) a graffito found on one of the bronze statues from al-Nakhla al-Hamrā' (Ṣan'ā' Museum), now in res-

toration in Mainz; see W.W. Müller, "The Inscriptions on the Hellenistic Bronze Statues from Nakhlat al-Hamra", *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 9 (1979), 79-80; (4) (possibly) the disputed legend (generally read ***sh-h-r h-l-l*** on South Arabian coins imitating respectively the older and the latter Attic types; (5) (possibly) similar legends appearing on newly discovered and still unpublished South Arabian coins, now in Ṣan'ā', according to oral reports; (6) (possibly) a short graffito published by G. Garbini, *Storia e problemi dell'epigrafia semitica* 100 and fig. 16 *f.*

(35) The distinctive name of the letters found in European grammars of Ethiopic are useless for comparison with North Semitic, since these names do not belong to a local tradition but were introduced by western scholars in the 16th century, *cf.* E. Ullendorff, "Studies in the Ethiopic Syllabary", *Africa* 21

(36) *Cf.* F.M. Cross, "The Evolution of the Proto-Canaanite Alphabet", *Bulletin of the American Schools of Oriental Research,* no. 134 (April 1954), 19-21. Name of the letters found in European grammars of Ethiopic are useless for comparison with North Semitic, since these names do not belong to a local tradition but were introduced by western scholars in the 16th century, *cf.* E. Ullendorff, "Studies in the Ethiopic Syllabary", *Africa* 21 (1951), 211-213.

(37) North Semitic *sāmek* is mistakenly compared (graphically) to South Arabian ***s*** (***s1***), instead of ***s*** (***s3***), for instance by M. Höfner, *Altsüdarabische Grammatik* (Porta Linguarum Orientalium, 24, Leipzig, 1943), 5, and M. Rodinson, "Les Sémites et l'alphabet, les écritures sudarabiques et éthiopiennes", *L'écriture et la psychologie des peuples* (Centre international de Synthèse, XXII^{e} Semaine de Synthèse, Paris, 1963), 133.

(38) Still advocated by Jacqueline Pirenne in *La Grèce et Saba* (Extrait des Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 15. Paris, 1955), 43, fig. 6, and more recently: "Les royaumes sud-arabes dans l'Antiquité", in *Les dossiers de l'archéologie,* 58-59.

(39) *Op. cit.,* 132 (n.37 *supra*).

(40) *La Grèce et Saba,* 28-35.

(41) *Altsüdarabische Grammatik,* 8.

(42) G.M. Bauer, *Jazyk juzhnoaravijskoj pis'mennosti* (Jazyki narodov Azü i Afriki. Moskva, 1966), 25.

(43) "The Letter-Order of the Semitic Alphabets in Africa and the Near-East", *Africa* 22 (1952), 136-147. The original affinities I thought I could establish [Bibliotheca Orientalis 12 (1955), 6-8] between the Ugaritic and South Arabian letter order as partly reconstructed by Honeyman, appear to be without foundation.

(44) "Nouvelles données sur l'ordre des lettres de l'alphabet sud-arabique", *Semitica* 24 (1974), 77-82.

(45) "En marge de la redaction du dictionnaire sabéen", at the Collège de France, March 21st, 1978.

(46) *Al-Iklīl, al-Juz' al-Thāmin,* ed. by N.A. Faris (Princeton Oriental Texts, 7. Princeton, 1940), 123; N.A. Faris, *The Antiquities of South Arabia (...) A translation of the Eighth Book of Al-Hamdānī's al-Iklīl* (Princeton Oriental Texts, 3. Princeton, 1938), 73. The Yamanī letter-order of the Arabic alphabet used by al-Hamadānī has not, to my knowledge, attracted the attention of scholars. It is not, for instance, mentioned in A.M. Honeyman's article (n.14 *Supra*), nor in the relevant articles of the *Encyclopaedia of Islam,* 2nd edition.

(47) M. Höfner, *Altsüdarabische Grammatik,* 19.

(48) M. Rodinson, *op. cit.,* 133.

The Composition of Arabic Poetry in the Fourth Century

Irfan Shahîd

The views of Margoliouth on the authenticity of Arabic poetry may be said to be dead beyond resuscitation.[1] The student of pre-Islamic poetry must now turn to other important problems, one of which is the beginnings of Arabic poetry, shrouded in obscurity. But if the beginnings cannot be determined with accuracy, it can be safely assumed that the composition of Arabic poetry goes back to at least the fourth century A.D. The truth of this statement may be defended inferentially and supported evidentially. Developed poems such as those of 'Amr b. Qamî'a[2] al-Bakrî, a very early pre-Islamic poet whose birthdate may be assigned to *ca.* 480 A.D., clearly imply a tradition of poetic composition that antedates them by at least a century, going back to our fourth. More important is a statement from a Greek historian who lived partly in the fourth and partly in the fifth century, Sozomen,[3] and who explicitly states that the Arabs celebrated the victories of their Queen, Mavia, over the Roman emperor, Valens, *ca.* 380 in songs that were still recited in the middle of the fifth century.

Sozomen's account is the earliest extant reference to the composition of Arabic poetry in any language. And yet it has not been closely examined or analyzed[4] although it deserves a detailed analysis for the precious light it sheds on the state of Arabic poetry in the second half of the fourth century. Relevant conclusions which a detailed analysis of Sozomen[5] and other historians of the period yields may be presented as follows:

1) Mavia mounted an offensive against the Romans in most of the limitrophe provinces of Oriens; the main battle described in detail by Sozomen was or must have been in *Phoenicia Libanensis;* and the name of the Byzantine general beaten by Mavia and who had the rank of Master of Horse and Foot in the Orient was Julius.

2) For the Arabs this battle would have been one of the *ayyām,* and thus it is practically certain that the poetry that was written to celebrate Mavia's victories was of that genre, which confirms Ibn Sallām on the close relationship that obtained between war and the rise of Arabic poetry.

3) The Greek historian speaks not of one song but of songs, *ōdai,* and this suggests that what is involved is a cycle of poems written by various poets on this battle in much the same way that the *yawm* of Dhū Qār, fought in the first decade of the seventh century, was celebrated in a number of poems. This cycle of poems on the victory of Queen Mavia thus antedates the fragments of a similar cycle, that of the Basūs War, by a century and thus it is the earliest datable cycle of Arabic poems of the *ayyām* genre.

4) According to the Greek historian, the exploit of Mavia lived in the memory of the people of the country where the battle was fought and was celebrated in *ōdai* by the Saracens. The Greek historian was reporting some three quarters of a century after the exploits of Mavia, and this is a late date for the transmission of both the poems that were composed then and the accounts of the events that took place, thus confirming the possibility of the transmission of pre-Islamic poetry over long intervals of time.

5) The transmission of the account of the *yawm,* (the *khabar*), and of the *ōdai* raises the question of whether the transmission was oral or written. Fundamental research on the problem of transmission in pre-Islamic times conducted in recent times has inclined scholars in favour of written transmission or at least of its reality in pre-Islam.[6] The Arab allies of Byzantium in the fourth century, whose Queen Mavia was, were not illiterate, since the Namāra inscription earlier in the century clearly points to the use of writing for recording the exploits of the Arab federate king, Imru' al-Qays. Later in the century, there are Greek inscriptions associated with Mavia or one of her relatives. The chances are that these poems which celebrated

a victory so dear to the hearts of the Arabs were also recorded. Furthermore, if the non-Saracens remembered in the middle of the fifth century the events and details of Mavia's exploits, the chances are that the Saracens, too, remembered them and, what is more, recorded these details in the form of *akhbār,* the well-known genre which consisted of writing prose accounts of the *ayyām* and other happenings. Thus Sozomen's account attests the earliest extant reference to the transmission as well as to the composition of Arabic pre-Islamic poetry, and thus, it is doubly unfortunate that neither the *ōdai* nor the Arabic versions of the *akhbār* have survived.

6) Who were these poets and what was their tribal affiliation? The question is asked in the context of the view that Arabic poetry is supposed to have appeared late in Bilād al-Shām, even in Umayyad times, when the region produced only one notable poet – 'Adī b. al-Riqā'. However, when it is remembered that Tanūkh and Lakhm were not native Syrian tribes but emigrant ones from Mesopotamia, the problem admits of an answer. The Arab tribes that had emigrated brought with them the tradition of Arabic poetry just as they brought with them the tradition of Arabic writing reflected in the Namāra inscription.

7) In this earliest attestation of the composition of Arabic poetry in pre-Islam it is noteworthy that the historian uses the term *ōdai* rather than *poēmata,* thereby confirming the view that the recitation of early Arabic poetry was *inshād.*

8) Although this poetry composed for Queen Mavia and her Arabs, Tanūkhid or Lakhmid, has not survived, it can be conceived through analogy with such *ayyām* poetry as that composed on the Basūs War, but this was an inter-Arab war; the *yawm* of Dhū-Qār might be better since it involved a foreign power, Persia; better still would be the poetry composed on such battles of the seventh century as al-Yarmūk and Ajnadayn, since these involved Byzantium.(7)

In spite of its brevity, the account of the Greek historian has proved invaluable for drawing the foregoing conclusions on the reality of Arabic poetic composition in the second part of the fourth century, thus testifying to the employment of metre in the composition of Arabic verse. The loss of these poems is regrettable since if they had survived, they would have enabled the investigator of pre-Islamic poetry to examine the second major problem after metre that he must solve, namely, the *language* of these poems – how developed it was and how close or distant it was from that of the earliest extant poems of the fifth century such as those of 'Amr b. Qamī'a. The language of these poets is mature and developed and suggests that the Arabic of the fourth century must have been almost identical with it or very close to it, just as the employment of developed metres in the fourth century is inferable from their employment in these poems in the fifth. This inference on metre has been confirmed by the testimonial evidence of Sozomen, and now we must turn to another document which confirms the phase of development that the Arabic language had reached in the fourth century and which was used in these poems, composed for Queen Mavia, namely, the Namāra inscription. This is important since the language of pre-Islamic poetry has been one of the major issues in discussing the problem of authenticity, and the Namāra inscription deserves more attention as the most important document for discussing this problem. It is testimonial evidence for the state of the Arabic language in the fourth century, evidence which would enable the investigator to proceed in examining concrete poems attributed to this early period and rejected by those sceptical of its authenticity. Without it, we would be dealing only with inferences on what Arabic must have been like in this early period, but with it, the evidence is incontestable and it is as welcome as that of Sozomen on metre – the two documents complementing each other, since the one without the other would not enable us to examine concrete specimens of early poetry from the two important viewpoints of language and metre.

A close examination of the language of the Namāra inscription(8) reveals that it is none other than Classical Arabic. No one who reads the inscription which consists of sentences such as the following

امرء القيس . . . ملك العرب كلّه ذو أُسر التاج ومَلك الأسدين ونزار وملوكهم وهَرَّب مذحج . . . وجاء . . . في حبيج نجران مدينة شَمَّر . . ومَلَك معدّ وبَيَّنَ بنيه الشعوب . . فلم يبلغ ملك مبلغه . . هلك سنة . . . بالسعد ذو وَلَدَه .

can deny that the language is Classical Arabic. What seems strange or unintelligible or un-Arabic in the inscription is or may be due to the following: (a) the employment of the Aramaic-Nabataean script which may have obscured some of the words, a condition made worse by the longevity of the inscription carved on a stone some sixteen centuries ago; (b) that its Arabic was written under the influence of Aramaic, the language of the Semitic inscriptions in Syria which was also used by its Arabs such as the Nabataeans and the Palmyrenes; this is reflected in such a feature as the employment of the word *bar* for *ibn;* (c) some of the words are most probably old technical terms whose meanings are no longer intelligible just as certain words in pre-Islamic poetry are. It is only when one remembers all this that one is forced to conclude that the Arabic of the Namāra inscription is resoundingly classical and identical with the literary Arabic of pre-Islamic poetry.

In addition to the language, the inscription is remarkable for two other relevant facts: (a) its early date in the fourth century, slightly after the close of the first quarter; (b) the Lakhmid and thus the Mesopotamian origin of its honorand – Imru' al-Qays,(9) who brought with him to the western half of the Fertile Crescent the tradition of Classical Arabic and of the composition of Arabic poetry as developed in the Land of the Two Rivers.

The first fact makes it possible to judge poetic fragments that are ascribed not only to the fourth but also to the third century A.D., since Imru' al-Qays must have lived at least a quarter of a century in the third; the second makes it possible to judge these earliest fragments of Arabic poetry, some of which were composed in the eastern half of the Fertile Crescent such as the poetry attributed to the Lakhmids and to the Tanūkhids of Mesopotamia, to whom belonged Imru' al-Qays himself. Thus, the Namāra inscription provides the philological, chronological, and regional framework within which some of these fragments may be briefly discused.

Some of the earliest fragments of pre-Islamic poetry are attributed to 'Amr b. 'Adī, the first Lakhmid king of Ḥīra, who reigned in the last quarter of the third century. Important in this context is the couplet which tells of his contest with a certain 'Amr b. 'Abd al-Jinn.(10) In view of what has been said on the antiquity of Arabic verse and on the developed state of the Arabic language in the early part of the fourth century, the fragment ascribed to 'Amr (who, moreover, was the father of the same Imru' al-Qays, honoured in the Namāra inscription) may conceivably be taken for what it purports to be – a fragment composed by 'Amr – and so may be the other fragment, ascribed to 'Amr b. 'Abd al-Jinn. There is, thus, no cogent reason for rejecting the two fragments as unauthentic, and the following reasons may be suggested in support of their authenticity or at least the possibility of their authenticity.

1) The one of whom one of the two fragments is ascribed is no longer a shadowy but an historical figure whose reign in the last quarter of the third century is attested by epigraphy and papyri.(11) What is more, the data provided by the sources on 'Amr indicate that he was involved in the religious movements of the period, when Ḥīra, his capital, became a refuge for the Manichaeans, after they were persecuted by the Persian king, Shāpūr I; indeed 'Amr appears as the protector of this sect and writes letters in its behalf to the Persian king, Narse, towards the end of the third century. The tone of the retort composed by 'Amr b. 'Abd al-Jinn is strongly religious, referring as it does to al-'Uzzā and al-Nasr, the two Arabian deities, to the monks, *ruhbān,* and to al-Masīḥ b. Maryam. All this suggests a milieu such as that of Ḥīra where paganism, Christianity, and Manichaeism were represented. Furthermore, the employment of such terms as *abīl al-abīlīn* of al-Masīḥ b. Maryam suggests a Syriac-Aramaic influence such as Ḥīra was under.

Thus the contents of the two couplets in the poetic contest between 'Amr b. 'Adī and 'Amr b. 'Abd al-Jinn could speak for their genuineness as they reflect conditions that obtained in the Ḥīra of the distant past – that of the last quarter of the third century. It would be difficult to imagine that a poet of late Islamic times was so well-informed about third-century Ḥīra as to reflect so accurately in his verses the cultural milieu of that city, or that he had the interest to compose such poetry which serves none of the purposes that – according to sceptics – had motivated forgers of pre-Islamic poetry to compose it in Islamic times. so neither the language, nor the metrical structure, nor the content of these fragments can argue against their authenticity, and no convincing motivation behind their composition can be suspected which might suggest the work of a forger.(12) Even if such can be suspected, the suspicion would affect these particular fragments rather than the reality of Arabic metrical composition in the second half of the third century.

2) Then there is the tradition of poetic composition in and around Ḥīra at this time. It is well known that religious hymns were a feature of Manichaeism and 'Amr b. 'Adī, its protector, could easily have been influenced by such compositions. More important is the tradition of Arabic poetry with which is associated one of his closest relatives, namely, his maternal uncle Jadhīma to whom is ascribed also some poems which must antedate those of 'Amr.(13) Jadhīma is an important figure in the history of the Arabs in the third century and the historicity of this figure, vouched for by the Arabic sources, has been confirmed by a bilingual Greek and Aramaic inscription.(14) Thus, correspondingly, the authenticity of poetry that has been ascribed to him may now be seriously entertained,(15) especially after it has been shown in this paper that the fourth century witnessed the composition of an important cycle of poems, and after the relevance of the Namāra inscription to the language of such verse as dated to the third century has been demonstrated. It is no longer possible to dismiss without further ado even this earlier verse that is ascribed to Jadhīma and which thus withdraws the earliest fragments backward from the last quarter of the third century to its middle and which relates the two sets of fragments to two figures related to each other as uncle and nephew, a common spectacle in the annals of Arabic poetry.(16) Furthermore, the genetic relationship that obtained among the three figures Jadhīma, his nephew, 'Amr, and the latter's son, Imru' al-Qays, has facilitated the discussion of the literary documents that are associated with their names, and has strengthened the possibility of entertaining the authenticity of what may turn out to be some of the earliest fragments of Arabic poetry that have survived from the third century.

The problem of the transmission(17) and the survival of these third-century fragments may now be discussed:

(1) The most literate Arab community in pre-Islamic times was that of Ḥīra, which emerges with the rise of the Lakhmids as the main centre of Arab and Arabic culture and continues to be such for three centuries before the rise of Islam. It is natural to suppose that poetry composed in and around it should have been committed to writing, especially when it was composed by two of the kings of the region, Jadhīma and 'Amr.

2) The Lakhmids in particular were very conscious and proud of their achievements and they had it recorded in inscriptions and in books that survived well into the Islamic period; it was from these two sets of sources, literary and epigraphic, that the main historian of pre-Islamic Arabia, Hishām b. Muḥammad al-Kalbī, derived his information on the Lakhmids.(18) Such documents would certainly have preserved the poetry of the founder of the Dynasty, who himself was literate, and was known to have written letters to Narse, the Persian Shāh.

3) Most important in this connection are the accounts of the Arabic Islamic sources of a *dīwān,* which was made for the last Lakhmid – al-Nu'mān, and which contained the poetry that was composed in praise of the Dynasty. Although these accounts speak of poetry composed for the Lakhmids, it cannot be ruled out at all that it also contained their own poetry, including these very fragments, attributed to 'Amr. Alternatively, these may have come from one of the monographs which Ibn al-Kalbī wrote on the Dynasty.

Perhaps the foregoing discussion has carried the examination of the authenticity of pre-Islamic poetry to its farthest limits by entertaining the authenticity of fragments that go back to the middle of the third century. This has been made possible by the intensive analysis of the content of these fragments and by relating it to the conditions that obtained in that region in the third century, but more importantly, by discussing the problem within the larger framework of the reality of the composition of Arabic verse in the fourth century, a conclusion drawn after laying under contribution two entirely different documents – a literary one hailing from the world of Byzantine historiography and an epigraphic Arabic one hailing from al-Namāra in the *Provincia Arabia.*

Notes

(1) On the problem of authenticity, see F. Sezgin, *GAS* II, 14-33, with an extensive bibliography; an outstanding contribution in Arabic to the problem and indeed to the study of pre-Islamic poetry in general is Nāṣir al-Dīn al-Asad's *Maṣādir al-Shi'r al-Jāhilī* (Cairo, 1962), 379-428, are devoted to a discussion of Ṭāhā Ḥusayn's views; the latest substantial contribution in English is Michael J. Zwettler's *The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry* (Ohio State University Press, 1978); see the present writer's review of this book in *Journal of American Oriental Society* (1980).

(2) Sezgin, *op. cit.*, 7, 152.

(3) Sozomen, *Historia Ecclesiastica, GCS*, (Berlin, 1960), 298.

(4) It has received more than a passing mention only in F. Altheim and R. Stiehl, *Die Araber in der alten Welt* (Berlin, 1966), III, 101-107, but the discussion is vitiated *inter alia* by dating the victories of Queen Mavia to the first half of the fourth century and relating them to the Namāra inscription, whereas it is clear from the account of the Greek historian that these must be assigned to the seventies, in the reign of the emperor Valens.

(5) For this detailed analysis, see the chapter on the reign of Valens in the present writer's forthcoming book *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century.*

(6) For the written and the oral traditions of pre-Islamic poetry, see the works of al-Asad and Zwettler respectively, cited *supra*, n. 1.

(7) See al-Nu'mān A.M. al-Qāḍī, *Shi'r al-Futūḥ al-Islāmiyya* (Cairo, 1965), 153-161. What metres were in use in the fourth century is difficult to tell. Almost certainly the *rajaz*, and some of the qaṣīd-metres, since the latter are fully developed and employed in fifth-century poetry that has survived, and some of them are used in poetry attributed to third-century figures for whom, see *infra*, 7-9.

(8) See the present writer in "Philological Observations on the Namāra Inscription", *JSS*, (1979), 33-42.

(9) For the identity of the honorand as the second Lakhmid king, the son of 'Amr b. 'Adī, the founder of the Dynasty, see the present writer's forthcoming book *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century.*

(10)

دَعَوْتُ ابْنَ عَبْدِ الْجِنِّ لِلسِّلْمِ بَعْدَمَا تَتَايَعَ في غَرْبِ السَّفَاهِ وَكَلْسَمَا
فَلَمَّا ارْعَوَى عَنْ صَدِّنَا بِاعْتِرَامِهِ مَرَيْتُ هَوَاهُ مَرْيَ آمٍ رَوَائِمَا

فقال عمرو بن عبدالجنّ مجيباً له:

أَمَا وَدِمَاءٍ مَائِرَاتٍ تَخَالُهَا عَلَى قُلَّةِ الْعُزَّى أوِ النَّسْرِ عَنْدَمَا
وَمَا قَدَّسَ الرُّهْبَانُ في كُلِّ هَيْكَلٍ أَبِيلَ الْأَبِيلِينَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَا

For these verses in the *ṭawīl* metre, see Ṭabarī, *Tārīkh*, ed. M. Ibrāhīm (Cairo, 1960), Vol. I, 622; for the background of the contest, see *ibid.*, 621. According to Ṭabarī (620-21) ʿAmr b. Abd al-Jinn belonged to Jarm, according to Masʿūdī, he belonged to Tanūkh; (*Murūj*, ed. Ch. Pellat, Vol. II, 220). His tribal affiliation, however, is ultimately Tanūkhid since Jarm was a tribe within the larger group, Nizār, one of the three componenets of Tanūkh, namely, Fahm, Nizār, and al-Aḥlāf; see Caskel, *GN*, II, 82-83. The name ʿAbd al-Jinn is attested in the Greek inscriptions of Palmyra.

(11) For ʿAmr in these non-Arabic sources – the Iranian inscription of Paikuli and the Coptic Manichaean papyri – see the present writer's paper (in Arabic), "The Campaign of Imru' al-Qays against Najran: the non-Arabic Sources" read at the First International Symposium, *Sources for the History of Arabia* Part I (1399/1979), 73-79. Valuable in this context is the entry on ʿAmr in al-Marzubānī, *Muʿjam al-Shuʿarā'* (Cairo, 1960), 10-11, where he is considered a poet, his father's association with al-Ḥadr and Mesopotamia rather than South Arabia is stated, and a few more verses are attributed to him.

Equally valuable is the entry on ʿAmr b. ʿAbd al-Jinn (*ibid.*, 18) who, too, is considered an old pre-Islamic poet. The historicity of this pre-Islamic figure is also confirmed by a significant reference to him in one of the fragments which have survived from the poetry of one of his descendants, another pre-Islamic poet, Ibn-Nāʿiṣa al-Tanūkhī; see al-'Āmidī, *al-Mu'talif wa al-Mukhtalif* (Cairo, 1961), 299-300.

(12) The glorification of ʿAmr b. ʿAdī might be suspected as motivating a late admirer of the founder of the Dynasty to fabricate this poetry, were it not for ʿAmr b. ʿAbd al-Jinn's retort. Although not complete as ʿAmr's couplet is, the retort could imply a certain pride in ʿAmr b. ʿAbd al-Jinn and could thus reflect on the authority of ʿAmr, and this is not consonant with the view that the couplet attributed to ʿAmr is the work of an admirer; on ʿAmr as "the first of the Arab kings in Iraq whom the inhabitants of Ḥira glorified in their books", see Ṭabarī, *op. cit.*, I, 627.

(13) One of these is a relatively long poem from which Ibn al-Kalbī accepted only three verses as genuine although he does not indicate which three; *ibid.* 613-614, Ibn al-Kalbī's judgement has, of course, to be taken seriously, but what is important is not the number of verses attributed to Jadhīma but the fact itself that he composed verses which Ibn al-Kalbī accepts. Some of the poetry attributed to Jadhīma, especially in connection with his encounter with Zenobia, sounds quite spurious; *ibid.*, 615.

(14) See the present writer in the *New Encyclopaedia of Islam*, *s.v.* Djadhima.

(16) Such as Zuhayr and his uncle, Bashāma b. al-Ghadīr.

(17) On this, see *supra,* n. 1

(18) Ṭabarī, *op. cit.,* I, 628.

The Bronze Age Roots of Pre-Islamic Arabic

George E. Mendenhall

For a century or more specialists in comparative Semitic languages have been striving to reconstruct an ideal parent Semitic language from which the others derived. In this attempt at reconstruction, the Arabic phonetic and grammatical system has always been the most important single source. It has always been also an unresolved paradox, for it is the latest attested of all the Semitic languages that seemed to exhibit in purest form many of the important features of this supposed "proto-Semitic". The old classical theory held that successive waves of Semitic-speaking nomads poured out of the Arabian desert bringing with them the successive regional languages of the Fertile Crescent: first, the Old Akkadian in Mesopotamia, then Aramaic in Syria, and finally Hebrew in Palestine.

Were it not for the observation of the Greek historian Herodotus in the fifth century B.C. that the Phoenicians derived from the Erythrean Sea (which has never been identified for certain), it seems highly improbable that such a thesis would ever have arisen, much less have continued to be held to the present day. It is true that Herodotus was a careful observer, and in general a reliable reporter of his sources. It may well be true that there were traditions of a southern origin among the Phoenicians of his day, but there is no reason at all to take this fifth century tradition as an explanation for linguistic phenomena that reach back now almost exactly two thousand years earlier.

In view of the mass of new evidence available, a thorough re-examination of the history and relationships of the Semitic languages is now in order. The basis cannot be a mere evolutionary theory, but the much more solid foundation of historical linguistic evidence on the one hand, and archaeological evidence of population centres and diffusions, on the other.

The question now facing us is a simple one: if various Semitic languages existed and were already differentiated in the Near East in the Early Bronze Age, how best can the ancient characteristics of Arabic be explained on the basis of historical contacts? After all, languages are used and transmitted by human beings, and if languages are closely related, the speakers must have been in close contact at some stage in now forgotten history, and in some specific geographical localities.

A related question is of primary importance to historical linguistics, and therefore to cultural and social history as well: what was the process in the history of the Semitic languages by which the various branches became differentiated and systematized into the structures that have long been known from contemporary speech, ancient literary works, and the increasing corpus of newly discovered inscriptions? This question could only be asked after the discovery of new evidence that far antedates (except for Akkadian) all the languages known to the nineteenth century specialists in Comparative Semitic Grammar. Though there is no possibility of dealing with this extremely complex subject on this occasion, it may be worthwhile to suggest three fundamental axioms that must be kept in mind. First, linguistic change is a function of social and cultural change. One need think only of the 40,000 new words and new word meanings that have been introduced into the English language alone as the result of new technology and other cultural changes in the past thirty or forty years. This kind of change is of course most immediately reflected in such semantic change, which is the aspect of any language that changes most easily and rapidly.

Second, linguistic change is an inevitable result of languages in contact that results in turn from non-linguistic historical factors such as religious communities, trade, educational systems, and migration. Even warfare has such an effect. This process may be characterised as externally induced diffusion.

Third, is a factor to which too little attention has been given, but which seems to be of crucial importance to many problems of historical linguistics. This is simply the observation that wherever a society de-

velops a large group of trained specialists, they will develop a body of language habits that contrast to those of the man in the street and the man in the fields. The result is an ever increasing gap between the educated language of the elite, and the local dialects of the countryside. From ancient Ebla to modern Washington, D.C. the political bureaucracy develops a peculiar language of its own, and in very many societies that language may stem from an entirely foreign source, as for example, Sumerian at Ebla, Aramaic at Petra, or Latin everywhere in medieval Europe.

These three axioms are, to be sure, mere truisms, but they are essential to the interpretation of new linguistic evidence, on the one hand, and they are equally valuable for the recovery of at least some aspects of otherwise long forgotten history: of social realities and of historical events that took place and ceased to exist long before history itself existed as a literary narrative form.

Early Bronze Age Semitic: The Present State

Fortunately, we now have a wealth of evidence undreamed of by those nineteenth century pioneers in Comparative Semitic Grammar, and the evidence reaches much further back in time than they could possibly have imagined. Yet many scholars still attempt to base work on those century-old methods and theories, often enough reaching conclusions that are simply absurd.

The situation can be described in simplified terms as follows, keeping in mind the fact that the new evidence we have represents only accidental and minimal samples of what must have been an infinitely more complex historical reality. Already by the middle of the Early Bronze Age there is direct or indirect evidence for the existence of four different branches of the Semitic languages, about 2500 B.C. Proceeding from east to west, Akkadian evidence begins not long after 3000 B.C. in Mesopotamia, and in its earliest manifestations, it is clear that this language had already undergone changes from a theoretical earlier Semitic language prototype. Certain consonants of Semitic had been lost, and in the process vowel changes were induced; it is from West Semitic where those consonants were preserved that the original prototype can be constructed.

Shortly after 2500 B.C. the texts from Ebla perhaps illustrate a similar process, though far too little has been published to justify any generalization as of now. It should be strongly emphasized, however, that the 11,000 professional scribes of Ebla were in close contact with both the Sumerian and Old Akkadian languages, and the law of bureaucratic elites must warn against any over hasty conclusion that those archives represent the normal native tongue of Ebla and its environs. In addition, the grossly inadequate nature of the Sumerian writing system for representing West Semitic will certainly leave many uncertainties. At the same time, there is no reason to doubt that most of the Semitic elements in that specialized scribal dialect did derive *ultimately* from the local spoken language, and can be used to illustrate regional contrasts.

The third body of evidence is not really attested untill about 2000 B.C. and later, but can be taken into consideration here because it does contrast in important ways to both Old Akkadian and Eblaite. This language is unfortunately known so far only from personal names, and has long been known as "Amorite" in the scholarly world. Certainly West Semitic, this language is also known almost exclusively from texts in the Akkadian writing system that is grossly inadequate to represent West Semitic consonants.

For the sake of further discussion, I would suggest that the homeland of Amorite is to be found in the hundreds, if not thousands, of village *talls* located in the north-eastern sector of the Syrian Jazīra. There must have been an almost unimaginable density of village populations south of the Anatolian mountains, and there is no doubt that those villages represent a continuity of culture reaching back into the Chalcolithin period, long before the beginning of the Bronze Age. Since proper names in all cultures tend to have continuous use over many centuries before they fall into disuse, there is little reason to doubt that those village populations used proper names of Amorite type long before they become attested in cuneiform sources.

Thus far, then, we have noted three different Early Bronze language traditions, each stemming from a geographical region of high population density, and illustrating a differentiation must be projected back by many centuries, which means that a common ancestor (if such really existed) must be sought in that very remote cultural history that extends from the pre-pottery Neolithic to the beginning of the Early Bronze Age. It must be noted also that at least two sites in the Euphrates Valley in Syria have already produced cuneiform tablets in the proto-Literate Warkān system, which means that before the beginning of the Bronze Age, before the First Egyptian Dynasty, the rudiments of writing were already known in Syria–almost a thousand years before the texts of Ebla.

The fourth body of evidence is by far the most meagre, but it is also the most illuminating and indeed surprising. This is a small collection of ten texts inscribed on stone and copper sheets that were excavated by the French expedition to Jubayl in Lebanon, ancient Byblos. There was a general agreement that the texts exhibited a syllabic system of writing, and were formally closely related to the Hieroglyphic system of Egyptian, but there was no agreement, nor indeed any evidence for their date.

Ten or fifteen years ago the name of the king of Byblos emerged in text *d* of the corpus, ***Ḫu-ru-Ba-ʿi-lu***. By an entirely unexpected coincidence, the same name is now attested, according to Pettinato, in the Ebla texts as a king of Byblos, which means that the Byblos Syllabic texts must be at least roughly contemporaneous, about the 24th century B.C.

These texts therefore antedate any present evidence for an alphabetic system by some seven centuries, and are the most important (though probably not the *sole*) source for the signs used in both the pre-Islamic and Canaanite alphabets. This was argued in a paper presented at the First International Symposium on Studies in the History of Arabia in 1977.*(a) The major purpose of the present paper is to supplement with linguistic evidence the evidence of the pre-Islamic alphabet in order to show that the roots of pre-Islamic Arabic language and culture reach far back to the Early Bronze Age cultures of the Syro-Palestinian region. More specifically, in the eastern Mediterranean coastal region, a language was both spoken and written that was ancestral to both pre-Islamic Arabic and also to the Middle and Late Bronze Age Canaanite, for many features of this Early Bronze Age language are known elsewhere and were preserved only in Arabia. The linguistic contrasts between Canaanite and Arabic are thus a function of time, becoming progressively greater with the passing of the centuries, and we are dealing with a time span of some 1500 years between the date of the Byblos Syllabic Texts and the date of the earliest known Old South Arabic inscriptions. We thus have a historical, chronological and geographical context for understanding relationships between two important branches of the Semitic languages, that the old nineteenth century grammarians sought to establish on the basis of purely formal comparisons of very late texts.

Byblos Syllabic (BS) and Arabic: Similarities

Phonetic Evidence

a) The Byblos Syllabic consists of approximately ninety different signs, the exact number is uncertain because a considerable number occur only once or twice and it is therefore next to impossible to determine their phonetic value. Consequently, it is possible to determine how many of these are mere graphic variants

---

**Editor:*

(a) See G.E. Mendenhall, "Writing systems in the context of cultural history", *Sources for the History of Arabia* Part 1 (*Studies in the History of Arabia* I, Riyad University Press, 1399 A.H./1979), 101-114.

rather than distinct syllabic signs. Nevertheless, it is clear that the language possessed approximately thirty consonants, for three signs were required for each consonant to distinguish its reading with each vowel, **/a/**, **/i/**, and **/u/**. It must now be assumed that the 28-30 consonant phonetic system must have been common to all West Semitic languages and dialects during the Bronze Age, though until now only the Ugaritic and Arabic writing systems could adequately represent all of the consonants. Presumably the Bronze Age alphabet could also, but evidence is far too meagre to furnish proof. On the other hand the Ugaritic cuneiform alphabet presupposes the existence of the Canaanite linear alphabet, and thus also the 30 consonant system. It follows, then, that the 22 consonant alphabet of Iron Age Phoenician is what needs to be explained, for the Arabic is in continuity with what we know to have been generally true except in the East Semitic, Akkadian, dialects.

b) Similarly the vowel system is identical to early Arabic, consisting of long and short vowels, **/a/**, **/i/**, and **/u/**. The diphthongs **/ai/** and **/aw/** are not reduced to **/ē/**, and **/ō/**, and in fact words like *baytun* are written as though they were three syllables *ba-yi-ta.* As elsewhere, there is no graphic device for signalling the distinction between long and short vowels, unless two or three otherwise inexplicable occurrences of an extra sign between a noun and an appended suffix may have this function.

Again, it is not Arabic that needs explanation, but instead the linguistic changes that produced **/e/** and **/o/** vowels elsewhere in West Semitic of the Iron Age–but changes for which some evidence exists for at least Palestinian Canaanite already in the Late Bronze age.

c) The unvoiced sibilants: it seems at present most improbable that there is any significant difference from Arabic *sīn, shīn,* and *thā'*. There is a causative reflexive form written with the identical sign that becomes *semek* in the Phoenician alphabet, not with the *ša* sign. Therefore this dialect coincides in this respect also with *OSA**(b) and contrasts to Akkadian, Ugaritic, and Aramaic. The sibilant system has some similarity to that of Amorite (e.g. *sumu, sama'*, over against Canaanite *šum-* and *šama'*), but so far there is no evidence for a *s-* causative in Amorite. In fact, there is no parallel outside Arabic to this feature of the Byblos syllabic language.

d) Medial **/h/** instead of medial **/w/**: there are several occurrences of this phenomenon that is unparalleled in any other Semitic language. Aramaic Canaanite root ***'w/yD,*** for example, is spelled as in Arabic ***'HD.*** *OSA* in particular has an extraordinary number of medial **/h/** roots but only remnants of this older feature have been preserved elsewhere. Two examples may be of interest here. The plural of ***BYT*** 'house' in Ugaritic is ***bht,*** which is probably a very archaic survival of an older system, that in this case is not preseved even in the Byblos Syllabic. The other case is of even more historical interest since it involves the ancient name Ibrahīm, Abraham. In the biblical tradition there was a variant form, Abram which has been reported from Ibla as ***Ab-ra-mu.*** For the more common form with the verbal root ***RHM*** there has been thus far no parallel, but now it seems an inescapable conclusion that this form is a very archaic survival of a proto-Canaanite and proto-Arabic personal name that originally had nothing to do with ancient Israel.

e) Again in contrast to non-Arabic West Semitic languages and dialects, the consonant **/w/** is very much in use, though it behaves in a peculiar way, which may help explain its virtual disappearance in the northwest. Amorite seems virtually to have lost this consonant already in the Middle Bronze age. In Late Bronze age Ugaritic it is rare and evidently disappearing, and by the Iron Age it is almost completely gone except as a conjunction *wa-*.

**Editor:*

(b) OSA = Old South Arabian.

Morphological Evidence

a) Most important for historical grammar perhaps is the fact that Byblos Syllabic exhibits both ***h***- and ***s***- causatives, that seem to become specialized in different dialects of *OSA*. Both are most clearly attested with a prefixed ***/t/***: on the one hand ***ya-tu-ha-'i-hi-du*** is evidently a reflexive causative, 'they have bound themselves by oath', and this form may be reflected in the Arabic VI form: *ta'āhid*,*(c) as is certainly its meaning.

The ***s***- causative is illustrated in a very complex verb ***ya-ta-sa-'a-bu-du+ma+ni-ni*** for which I do not venture a translation, but which is evidently a reflexive causative.

b) The preposition ***bn*** is well known in *OSA* meaning 'from' and may occur in the word ***bi-ni-hu-mu*** 'from them'; unfortunately the context is not clear enough to yield certainty.

c) It is again probable that the Byblos Syllabic has an antecedent to the otherwise unknown "broken plurals" of Arabic: ***'u-bu-du-tu*** can hardly be interpreted in its context other than as a collective plural, 'servants', here in its political sense.

d) Verbal nouns are very common and have a variety of forms. Mentioned here will be two striking adverbial accusatives: ***ha-ki-'a*** 'submissively' which is virtually identical to a similar form in the *qaṣīdas*; and ***pu-tu-ya*** which is to be compared with *futuwwa* 'honourableness, generosity'.

e) The most frequent conjunction is ***pa-***. In contrast to all other West Semitic languages, the conjunction ***wa-*** does not occur at all. There is a frequent use of a suffix ***-ma*** as in Akkadian that may function as a weak conjunction, but in the majority of cases it cannot even be translated.

f) In contrast to East Semitic Akkadian, the Perfect Tense verbal form is attested, involving a most common root in both Arabic and later Phoenician, ***ka-wa-na,*** 2p ***ka-wa-ta.*** The verbal system seems actually to be more complex than that of Arabic, and probably involves two prefix tenses (imperfect forms in later Semitic) as well as a suffix tense (Perfect).

In addition to the reflexive causatives mentioned above the derived stems include Form II: ***ta-ka-yi-na+ma ba-yi-ta+hu,*** 'she shall establish his house' (i.e. with children; a part of the marriage contract). Probably Form V: ***ta-ta-sa-ta-ru,*** 'you place yourselves under protection'.

g) Passive verbal noun: intriguing is the designation of the bride in the marriage contract as the ***ru-ḥi-ma-tu*** of the groom, particularly since the young lady is referred to in a threat formula later in the marriage document as the ***ra-ḥi-ma-ta.*** The first corresponds to the Arabic Qāl Perfect Tense, but has here a feminine nominative noun ending.

h) Relative pronouns include ***d̲u****(d), but there are too few such to establish a series, *i.e.* of masculines and feminines, singulars and plurals.

**Editor:*

(c) *Sic.* Obviously *ta'āhada.*

(d) *i.e., dhū.*

Semantic Evidence

It is generally held to be a valid principle in historical linguistics that semantic change is the most rapid and facile of the various sorts of linguistic change. If so, then the fact that the lexicon of Classical and pre-Islamic Arabic was much more useful in the interpretation of these texts furnishes very powerful support for the thesis presented here. There can be little doubt that a part of the reason for the usefulness of Arabic is due to the fact that it has such enormous volume, but nevertheless that of itself does not explain why it was so seldom that the Ugaritic lexicon furnished parallels, and when there were semantic relationships to Ugaritic the words in question were most often common Semitic.

a) Particularly striking were Arabic parallels involving vocabulary having to do with terminology for social bonding:

i. ***ya-tu-ha-'i-hi-du***=Arab. *ta'āhid,* *(e) 'make a covenant'.

ii. ***'i-'i-tu-'u-ni ma-ta-ti la+ki-ti,*** 'I brought the lands into covenant'=*OSA w'tw bslm sb' wqtbn,* 'and he brought Saba' and Qatabān into peace'. Cf. also South Canaanite ***wyt' r'šy 'm,*** 'he brought (in) the heads of the people'. In all three cases the root ***'T'='TW*** is transitive, in contrast to later usage in all three languages. Finally, note in the Qur'ān **Sūra ii.143:** *ya'tī bikum jamī'an.* *(f)

iii. Closely parallel is the verb ***BW'*** or ***BH': ma-mu ba-'i ba-nu-ma,*** 'whoever enters among us...'. Compare *OSA BH'* with the meanings, 'go in (to a woman)', and 'to become friendly'.

b) ***Pu-tu-ya***=Arab. *futuwwa,* 'honourableness'.

c) ***Ia-wa-ra-ti*** pl. ***Ta-wa-ra*** sg. 'clan, tribe' or some such designation of a social grouping. Compare Arab. *ṯwr*, 'chief of a people'.

d) ***'i-li-la ti-'a-ṯu,*** 'if they act corruptly. . .'.

This is only a representative sample of the semantic relationships that have been observed between these Syllabic texts from Byblos and the various branches of Arabic. I have little doubt that those who know the Arabic sources much better than I would find many more such similarities.

Conclusions

This small collection of texts from the Early Bronze Age city of Byblos is rapidly opening up to us a whole new chapter in the history of the Semitic languages in general, and in the history of Arabic specifically, as the foregoing discussion should demonstrate. To say the very least, it should be clear that theories concerning the relationships of the various Semitic languages based merely upon formal and speculative

---

Editor:

(e) *ta'āhada*

(f) The verse proved too difficult to find. Note should be taken of the fact that here the pronoun is not a direct grammatical object, rather it is a logical indirect object, for the act is extended to the pronoun by means of the preposition *bi.*

methods are grossly inadequate to place into an orderly framework the evidence that is now available. A new hypothesis based upon actual inscriptions and upon a more adequate understanding of historical processess is both possible and necessary.

To begin with what is now known, long before 2000 B.C. (and probably before 3000 B.C.) the region from the Delta of Egypt to the Tigris River had various centres of relatively dense population that spoke very early but recognizable forms of Semitic languages. Each major region must have been characterized in turn by an indefinite number of local dialects. With the rapid growth of cities during the Early Bronze Age populations became rapidly cosmopolitan, and in the process the various branches of Semitic were not only in contact with each other, but also were in contact with completely unrelated languages or language families. Wherever that contact was highly concentrated over a period of time, an older phonetic and grammatical structure broke down. Thus in Mesopotamia an older structure became Old Akkadian in pre-historic times, and at the other extremity of the Semitic language region there emerged Pharaonic Egyptian that seems to be a blend of Semitic and African–Hamitic traits. In the heartland of the Syro-Palestinian area, the older structures were fairly well preserved until the end of the Bronze Age, as we know from Ugaritic and some other rather meagre sources.

Not until the incalculable destruction, chaos, and social disruption that attended the end of the Late Bronze Age, about 1200 B.C., did this older linguistic structure break down. However, in the later Ugaritic texts there seem to be fairly good evidence that the process was already under way prior to the destruction of that city state. We also know from the study of Ugaritic personal names that barely half of the people mentioned in those texts carried Semitic personal names. The same is true to a lesser degree of all LB*[(g)] cities that have yielded written documents.

It is not, therefore, Arabic that needs explanation, for it represents a language complex that escaped the processes of phonetic and grammatical disintegration; it represents the continuity of linguistic traits that had been characteristic of the whole Syro-Palestinian region prior to the Iron Age. Rather, it is the Iron Age languages that need explanation, for they exhibit radical discontinuities from Bronze Age languages, and resulted in the development of new systems that have been long known: Aramaic in the northern inland region, where there was massive contact with, and political domination by, Anatolian populations of Hurrian and Hittite origin, and Phoenician in the coastal region where there was similar domination by the "Sea-Peoples" of whom the Philistines were best attested. In the South, a Palestinian dialect of Canaanite has long been known as biblical Hebrew, and a very similar language is attested in inscriptions from Transjordan probably representing the literary, educated, language of the Moabite and Ammonite political elites.

This complex of coastal dialects of the Iron Age should most probably be thought of as a sort of *lingua franca* of the Iron Age, attested from North Syria to Egypt, and from Transjordan to Cyprus, North Africa, Sardinia and Spain. Similarly, Aramiac was even more widespread during the Persian Empire, and subsequently Greek became dominant during the Hellenistic-Roman period.

Meanwhile, the older linguistic structure must have continued quietly in use in many regions especially along the desert fringe from Aleppo to Yaman–a region concerning which we know extremely little from excavation of Iron Age sites. We do know that Arabic was written in the seventh century B.C. at the site of Umm al-Rujam, five kilometres north of 'Ammān. We know also that already at that time the much later Thamūdic and Ṣafa'itic types of writing are illustrated in certain forms, and possibly had already become

**Editor:*

(g) Apparently for Late Bronze Age.

differentiated. We know also that centuries later the Nabataean kingdom used Aramaic writing and language for official purposes, while the population spoke and many wrote Arabic.

It was only in the remote south that the native language was developed into an elegant written system attested only shortly earlier than the North Arabic inscriptions of Umm al-Rujam. The northern scripts were evidently never, or rarely, used for public political purposes. Not until the coming of Islam did three distinct processes take place simultaneously: the unification of a writing system, the development of a unified educated, elevated language, and the use thereof for all public and political purposes.

The New Bilingual Inscription from Barāqish

G.W. Bowersock

In the centre of Minaean civilization, on an elevation that commands a broad view of the plain known as the Jawf of the Yaman, lie the imposing remains of an ancient settlement. The place is known today as Barāqish (براقش), but inscriptions prove that in the pre-Islamic era it was called ***YTL***. The name may be resolved as Yathil, although other possibilities have lately been explored by H. von Wissmann.(1) The large, strong city wall, of which substantial parts survive, as Ahmed Fakhry has well recorded in his archaeological journey to the Yaman,(2) show that the site was not only well suited to serve as a fortress but actually was one. No systematic excavation has been conducted in this area; but the Department of Antiquities at San'ā' has endeavoured, since the establishment of the National Museum in 1971, to encourage clandestine diggers to sell or donate their finds to the museum. Paolo Costa has recently published a most interesting inscription sold by the tribesmen of the Banū Ashraf and said to come from a cemetery near Barāqish.(3) The text is in both Greek and Latin, and it is the first of its kind to have appeared in South-West Arabia. The highly unusual character of this find prompts one to look for an historical explanation of its presence in a region so remote from the habitation of Greeks and Romans.

The text is tantalizingly brief, but it is at least clear that the substance was identical in the two languages:

[P.] CORNE[LIVS - - - - - - - -]
EQVES . Ṇ[- - - - - - - - - -]
ΠΟΥΒΛΙΣ ΚΟΡΝ [ΗΛΙΟΣ ---]

The restoration of the praenomen in the Latin is assured by the line of Greek. The letter after the point in the second line could be either **N** or **M**, and there is really no way of telling. Costa's suggestions, **n[umeri]** or **M[aurus]**, are indefensible and improbable. **N[atione]** or **N[at.-]** is possible, followed by an indication of ethnic origin (cf. e.g. **ILS 2319, 2345**); but nothing more than that. Costa correctly recognized that **eques** could not mean here a member of the equestrian order, whose rank would be shown by the offices he held, but simply means a cavalryman. Presumably the Greek text had an equivalent word, such as ἱππεύς ; and it seems likely, in view of the distribution of words in the first three lines, that the Greek equivalent term was the first word in the fourth line.

Since there is much more space between lines two and three than between lines one and two, it is evident that the text consisted of two parts, distinctly separated–one in Latin and one in Greek–and that each part consisted of two lines. It is impossible to say exactly how far the lines extended to the right; but since **eques** would naturally occur after the name, one may assume that the first line of both the Latin and the Greek parts contained nothing more than the remainder of the ***gentilicium Cornelius*** and a filiation or cognomen or both. The existence of the word beginning with **N** or **M** guarantees that the first line in each case went further than the ***gentilicium.*** In general we can form a fairly reliable notion of the format and size of the inscription: it was balanced in two sections of two lines each, and it commemorated the name and occupation of a certain P. Cornelius.

This was clearly a simple text. It was designed for a community of persons among whom Greek and Latin were, to a greater or lesser degree, current languages. Costa believed the stone to be dedicatory rather than funerary, but he offered no argument for this presumption. It is, on the contrary, far more likely to be a tombstone than anything else. (Of course the fact that it was found in a cemetery, where it had undoubtedly been reused by natives at some later time, is entirely irrelevant.) Costa is right in assuming that the stone, with its back left unworked, was not a statue base; but it may well have been fitted into a small funerary monument. The brevity of the text suggests as much, and line two in the two parts could best be completed, after the enigmatic word beginning **N** or **M** in the Latin, with ***h(ic) s(itus) e(st)*** and ἐνθάδε

κεῖται- . Since the length of line can be no longer in its entirety than the name P. Cornelius with the addition of (at most) filiation and cognomen, a sepulchral formula commends itself above any other. There is room for only a few words or spaced abbreviations.

No conclusions should be drawn about the date of this stone from the shape of the letters that appear on it. Dating by letter-forms is at best a risky business, even where there is a large dossier of texts for comparison. Hands and styles varied in the different parts of the Roman Empire, and in the most remote corners we have no adequate controls for letter-forms. The wide range of possibilities in a single place was well illustrated several decades ago by Bradford Wells in his outstanding epigraphical contribution to the volume on Gerasa.[4] Welles noted[5] that the large number of Gerasene inscriptions in Greek permitted an attempt at a rough classification of the various styles, but he refrained from doing anything of this kind for the Latin texts because there were not enough of them at Gerasa alone. It is true, as Costa observes, that in the Barāqish text the letters **O** and **Q** are oval-shaped, that the letter **E** has short horizontal bars, and that the letter **V** has an unusually wide angle. He might also have noted that the Greek employs a lunate *sigma* and a *kappa* with short side-strokes, of which the bottom one is close to horizontal. Without a photograph, such a description would be helpful; but Costa's article included a photograph. No date can be extracted from these letter-forms when there is no other inscription from the same part of the world with which to compare them.

Costa opts for a date ultimately on the basis of the Greek spelling of the name Publius. He argues as follows: "It is in fact to be noted that the way of writing "PUBLIS" instead of "PUBLIUS" is not to be considered a mistake, but it is due to a peculiar way of pronouncing the popular Latin *prenomen* [sic] in the Greek speaking area of the Roman Empire, which became rather common during the late III century A.D. and is never attested before. I think therefore that the bilingual inscription can be tentatively dated to the end of the III century or the beginning of the IV century A.D." Now the name Publius, which appears in Greek dress as Πούβλιος, Πόβλιος, Πόπλιος *vel sim.*, could suffer an alteration in the termination just as many other words in Greek with the ending —ιος. The use of —ις and —ιν in place of —ιος and —ιον appears already in the Hellenistic period from the third century B.C.[6] There is accordingly no reason why this phenomenon should not show itself at any time after that in an inscription from an area where the very existence of a text in reasonably correct Latin and Greek is in itself remarkable. No date should be inferred from the Greek equivalent of Publius here. Some might even wish to restore Κορν[ήλις] in the last line.

The only way to date and understand this new inscription is by searching for an historical context within which it will plausibly fit. Barāqish, the ancient ***YṮL***, appears on only one occasion in the annals of Graeco-Roman history. Two important Greek sources, Strabo and Casius Dio, recounting the same story, mention a city of south-west Arabia, north of Ma'rib, and not too far from it. The city served as base from which the forces of Aelius Gallus moved on to their unsuccessful siege of Ma'rib in the early years of the reign of Augustus at Rome. Strabo calls the place *Athroula* and *Dio Athloula.* The confusion of the liquids ***L*** and ***R*** is insignificant, unless one follows von Wissmann in believing that the ***L*** in ***YṮL*** is double and therefore that the second liquid in the Greek is indeed significant. Most scholars are, however, agreed that the name ***Ath(?)oula*** represents a Greek version of ***YṮL***.[7] Strabo (782C) reveals that the Roman forces under Gallus installed a garrison at the site: εἰς Ἄθρουλα πόλιν ἧκε, καὶ κρατήσας αὐτῆς ἀκονιτί, φρουρὰν ἐμβαλών... "He went to the city Athroula, and having conquered it without a struggle, he placed a garrison in it. . ." After this the army went on to what Strabo calls *Marsiaba,* clearly Ma'rib. Dio, writing in the third century A.D., notes that this expedition was the first and, as far as he was aware, the only time that Roman forces had penetrated so far into the Arabian Peninsula:

πρῶτοι μὲν δὴ Ῥωμαίων οὗτοι, νομίζω δ' ὅτι καί μόνοι, τοσοῦτον ἐπὶ πολέμω τῆς Ἀραβίας ταύτης ἐπῆλθον μέχρι γὰρ τῶν Ἀθλούλων καλουμένων, χωρίου τινὸς ἐπιφανοῦς, ἐχώρησαν (8))
"These were the first of the Romans, and I think the only ones to invade so far into this part of Arabia in the course of war; for they advanced as far as so-called Athloula, a famous place". The uniqueness of this episode, at least as far as the second or third decade of the third century A.D., is thus attested. The suitability of Barāqish for a garrison is underscored by Ahmed Fakhry's eyewitness account of its situation. "The traveller", he wrote, "can see Barakish from a great distance, as it is built over a high ridge commanding the whole neighborhood".(9) The photographs of the site, both in Fakhry's volume of plates(10) and in Grohmann's work(11) fully substantiate Fakhry's description.

The seizure of the city by the troops of Aelius Gallus and the imposition of a garrison there provide the only reasonable historical context for the new inscription. The presence of his army in about 26 B.C. is the only known occasion on which a community of Greek and Latin speakers was settled, however momentarily, in the Jawf of the Yaman. The cavalryman Cornelius can be seen as one of the occupying troups. If he died during the short life of the garrison of Barāqish, it may well have been while the garrison army was securing the rear of the besiegers at Ma'rib.

In any case, this unique presence of a Graeco-Roman army in the Yaman serves to explain the equally unique bilingual inscription from the area of Barāqish. It sheds new light on a famous Roman failure, which has already been thoroughly investigated by other scholars in recent decades. It would be fitting to mention in particular the treatment of Gallus' expedition by Jacqueline Pirenne,(12) Albrecht Dihle's remarks on the campaign (with speculations about Athroula which the new text will perhaps lay to rest),(13) Shelagh Jameson's argument for a date of 26 B.C.,(14) Naphtali Lewis' re-interpretation of *P. Oxy. 2820*(15) and the important paper, already mentioned, by von Wissmann.(16)

In conclusion I should like to express my warm thanks to Paolo Costa for his generosity in sending me a good photograph of the new inscription as well as a copy of his article as soon as it was available. My disagreement with some of his interpretations should in no way obscure my deep appreciation of the care with which he saw to the publication of his text.

Notes

(1) In an article in the series *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt* II. 9.

(2) *Archaeological Journey to the Yemen* (1952).

(3) *Proceedings of the Seminar for Arabian Studies* 7 (1977), 69-72.

(4) Prepared by C.H. Kraeling (1938).

(5) *Op. cit.*, 358.

(6) *Cf.* E. Schwyzer, *Griechische Grammatik* I, 472.

(7) See, for example, A. Grohmann, *Arabien* (1963), 164.

(8) *LII: 29 - 8.*

(9) *Op. cit.* I, 141.

(10) *Op. cit.*, pls. 52-54.

(11) Grohmann, *op. cit.*, pls. 5, 6.

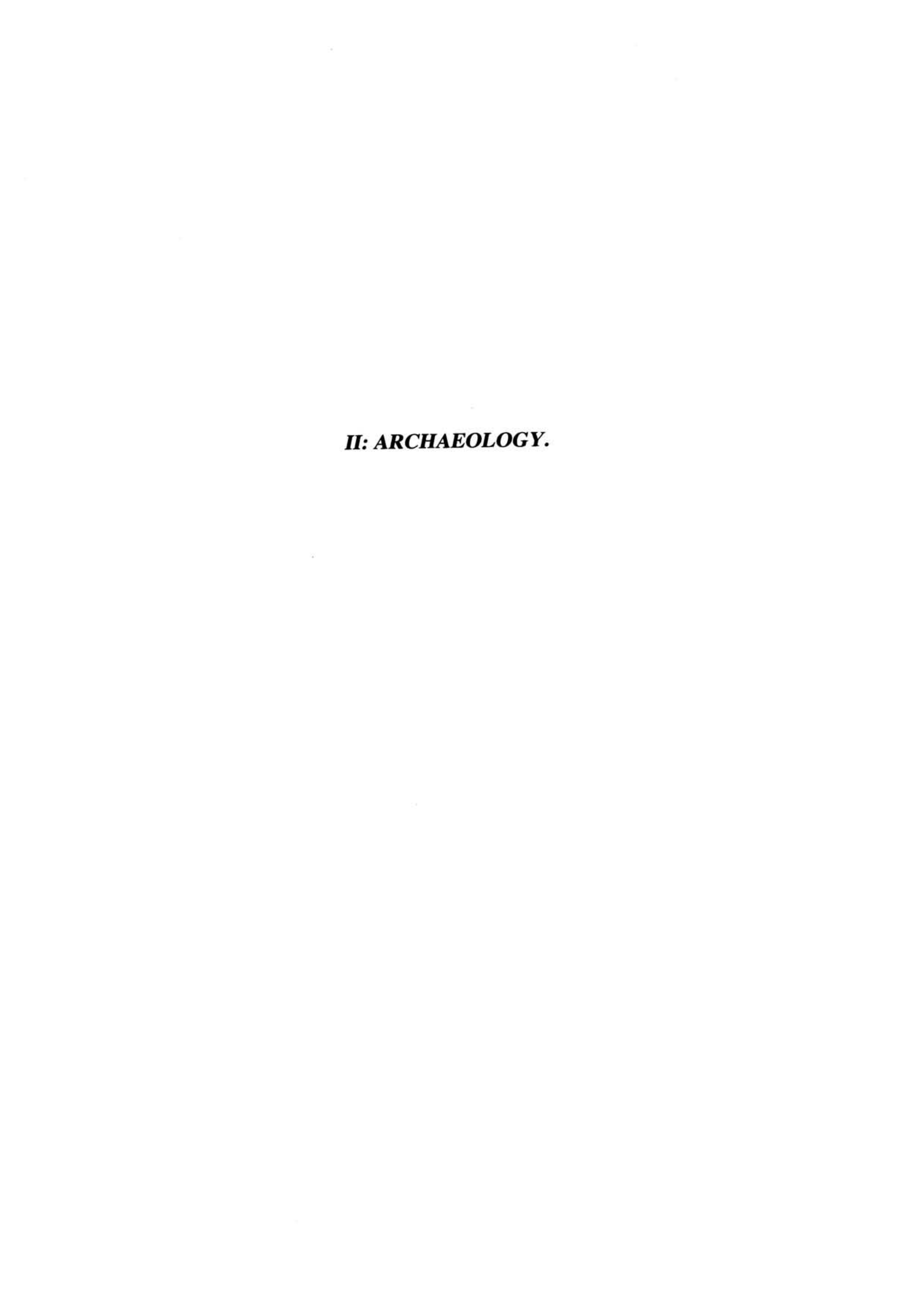
(12) *Le Royaume Sud-arabe de Qataban* (1961).

(13) *Umstritten Daten* (1964).

(14) *Journal of Roman Studies* (1968).

(15) *Greek, Roman and Byzantine Studies* (1975).

(16) *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt* II. 9 (1976).



II: ARCHAEOLOGY.

CONTRIBUTIONS ON THE SUBJECT.

The Present State of Archaeological Research in the Arabian Peninsula: Achievements of the Past, and Problems for the Future

Peter J. Parr

It may be said without any fear of exaggeration that the Peninsula is experiencing an archaeological revolution, a time when, following the relative stagnation of many decades, new intitiatives in archaeological research are producing a mass of new data and new insights which promise to upset many of the previously held views concerning the role of Arabia in the history of civilisation. Of these initiatives, it is appropriate to mention straightaway the excavations carried out since 1972 by Al-Ansary and his colleagues at the important Central Arabian site of *Qarya* (al-Faw), and the archaeological survey of Saudi Arabia inaugurated in 1976 by Abdullah Masry and the Department of Antiquities; but there have been other important developments in other parts of the peninsula to which I shall refer later. It is a time of great change, therefore, and of great opportunity, and we should all be thankful for having some part to play in these developments.

In some ways the middle of a revolution is a very inappropriate moment at which to take stock of a situation. A few years ago, living in a kind of archaeological fool's paradise, it would have been easier to have summarised our knowledge–or rather our ignorance–of Arabian archaeology; while a few years hence, when the results of current activities have been published and assimilated, it should be easier to produce a more realistic evaluation of Arabia's past based on the archaeological evidence. Yet I shall not apologise for attempting some such stock-taking, as the opening contribution to the present Session. It seems to me that the danger of such an exercise–that any appraisal of the present state of archaeological research will be out of date almost before it is delivered and certainly before it is published–is far outweighed by the hope that it will enable us to contemplate the strategies and methodologies which have governed archaeological research in the past, and encourage us to establish priorities for future work before the momentum of the revolution is spent. For I should emphasise that I do not intend this review to be merely descriptive. It will have a didactic purpose as well. There is, I think, little to be gained from recounting the history of a subject unless one is prepared to benefit from the achievements and the mistakes of one's predecessors. The history of serious archaeological research in the Arabian Peninsula goes back a surprisingly long way, at least a century, to the time when, for example, such scholars as Halévy and Glaser, Euting and Hüber were making their discoveries in the Yaman and the Ḥijāz, or when Captain Durand was excavating amongst the Baḥrayn tumuli. Yet the story of the adventures of these and other pioneers is surely of more value for the light it sheds on the Arabia of the late 19th century A.D. than for what it tells us of the pre-Islamic period. It is for that reason that I do not propose to atempt here even a partial review of the history of archaeological discovery in the Peninsula. My approach will be much more selective, and I shall refer only to such previous work as seems relevant to my purpose. And that purpose is two-fold. In the first place I shall try to summarise what is known about the archaeology of Arabia, beginning in about the middle of the 5th millennium B.C. with the appearance of the first pottery-using cultures in the Peninsula, and ending in the early centuries of the 1st millennium A.D. Such a summary can of course only be superficial, and rather than describe the evidence in any sort of detail I shall concentrate on the differences which are apparent between the various regions of the Peninsula and on the eivdence there is for inter-regional contact. This attempt at a regional comparison will be particularly useful, I feel, since it is my impression that in the past the archaeology and early history of the three major cultural divisions of the country–the east and south-east; the south-west; and the north and north-west–have been studied too much in isolation from each other, with specialists in one area rarely looking outside it. A notable–and perhaps the single exception in a Western language at least–is the survey presented by Abdullah Masry in the first volume of the new *Journal of Saudi Arabian Archaeology*,[1] which covers much the same ground as I shall be covering here, though I think with different emphasis. For my emphasis–and this brings me to the second and more important part of my purpose-

–will be on the gaps in our knowledge, on what we do not know rather than on what we do, and I shall attempt to offer reasons for those gaps and to suggest ways in which they might be filled by future research.

My point of departure is marked by the appearance of pottery-using communities along the eastern seaboard of the Peninsula in the latter part of the 5th millennium, and it is appropriate that we should begin with these since their identification, initially in the 1960's by amateur archaeologists in the Eastern Province, stands close to the beginning of what I have called the archaeological revolution. For it is fair, I think, to date that beginning to the inauguration in 1953 of the Danish excavations in Baḥrayn, under the inspiration and direction of Geoffrey Bibby. It is true that, a few years previous to this, the American Foundation for the Study of Man had begun extensive archaeological work in another part of the Peninsula, in 'Adan and the Yaman, while scientific excavations had been carried out from time to time long before this, notably by Gertrude Caton Thompson at Ḥurayḍa in Ḥaḍramawt in 1937. Nevertheless, in respect both to actual additions to archaeological knowledge and, perhaps more important, to the stimulus it gave to future work in the Gulf region, the credit for opening a new chapter in the history of Arabian archaeology must properly go to the Danish expedition. As a result of its work, and of the work done in the past twenty-five years by scholars of other nationalities who have been inspired by the Danish example and who have taken advantage of the enlightened attitude towards archaeology evinced by the govenments of the Gulf states, we can now trace, in outline at least, the course of civilisation in eastern Arabia through much of its early history.

The clue to the dating of these early settlements was provided by the discovery at a number of them of Mesopotamian 'Ubaid pottery, an identification which was first made by Bibby in 1968, and announced by him two years later in his book *Looking for Dilmun.*(2) Since then much discussion has taken place concening the nature and significance of the "Ubaid sites" – a term which is, strictly speaking, improper, since it appears that the distinctive painted pottery is the only 'Ubaid feature found in these settlements, which otherwise exhibit a purely local Arabian assemblage.(3) In particular, the publications of Abdullah Masry and of Joan Oates,(4) have done much to clarify our understanding of this period. It seems generally agreed now that the pottery belongs to the later phases of the Mesopotamian 'Ubaid sequence, dating therefore, on conventional uncalibrated C^{14} determinations, to the late 5th and early 4th millennia. The distribution of most of the 40-50 sites known suggests an essentially maritime orientation (though there are inland sites as well, especially in the al-Ḥasā oasis and perhaps as far south as Yabrīn) and it seems probable that the painted pottery was brought from southern Mesopotamia by settlers and traders exploiting the natural resources–fish, animal products, and perhaps pearls–of the coastal region. Be that as it may, the 'Ubaid pottery provides the first clear evidence–clearer than is provided, for example, by the mostly vague and difficult to interpret similarities between some of the Paleolithic stone industries of the Peninsula and those of neighbouring regions–of foreign involvement in Arabian affairs.

It is symptomatic of the prevailing attitude towards Arabian archaeology that most of the discussion concerning this 'Ubaid material has centred on the nature of the external contacts, and not on the impact of those contacts on Arabia itself. What seems clear from the archaeological record, sparse though it is, is that Eastern Arabia was not at this time drawn into the Mesopotamian cultural sphere, as it was to be a thousand years later, for no other Mesopotamian features are visible in the material culture of the Arabian 'Ubaid sites, and at least one of them (al-Markh in Baḥrayn) seems to revert to an aceramic culture after contact with southern Mesopotamia ceased. Yet it seems unlikely that the economic stimulus provided by the Mesopotamian entrepreneurs should not have had a more profound effect upon conditions in Arabia than simply the transitory appearance of pottery containers, and it is concerning the fortunes of the indigenous population in the eastern part of the Peninsula at this time that the most interesting questions are to be asked. The distribution of that indigenous population can be plotted to some degree by reference to the so-called 'D-group' stone industry, which has been shown to be contemporary at least in part with the 'Ubaid pottery and which is characterised by small pressure-flaked barbed arrowheads and by tabular scrapers and knives. Although a number of authors have discussed the D-group industry,(5) and have noted typological

comparisons with industries elsewhere, as far afield as Egypt and North Africa, no systematic study has been made, so far as I am aware, of its distribution in Arabia itself.(6) There is certainly enough material, published and unpublished, to make at least a start to such a study. What is already apparent is that the industry, or something closely related to it, is distributed very widely over the Peninsula, a fact which argues for the basic cultural homogeneity of the region at this time. It must be remembered in this connection that it is possible–though the evidence is neither consistent nor conclusive–that the climate of eastern and south-eastern Arabia was less arid before *ca.* 4000 B.C. than it is today,(7) and that far-ranging travel and exploitation of the natural resources of the region by nomadic and semi-nomadic groups would have been entirely possible. To what extent this exploitation and movement, as evidenced by the distribution of D-group industries, was stimulated by the Mesopotamian involvement in the affairs of the coast, is a question which can be asked but not answered in the present state of knowledge.

East Arabia is not the only area from which there is evidence for sedentary occupation in the 4th millennium. During the first phases of the Department of Antiquities' Survey in the north of Saudi Arabia, in 1976 and 1977, numerous sites were found ranging from simple stone enclosures to complex villages of stone huts, which can, on the basis of surface collections of stone implements, probably be dated to this period. Some of these sites have been described in recent reports on the Survey,(8) and I shall not repeat the descriptions now. I would like only to mention one aspect, relevant to the theme of inter-regional contact in the Peninsula, which perhaps deserves further consideration. The stone industry associated with these sites is comparable most readily with that of the Chalcolithic and (possibly) the preceding Late (or Pottery) Neolitic of the Levant, and the distribution of the sites, which on present evidence is concentrated in the Wādī Sirḥān and the regions of al-Jawf and Ḥā'il, suggests that they may be part of a Levantine cultural phenomenon rather than a strictly Arabian one. The 5th and 4th millennia in the southern Levant represent a time of small agricultural and pastoral settlements which, in the latter part of this period, are frequently sited in what are today relatively inhospitable regions; and the Arabian sites would seem to fit rather well into this general pattern of settlement. With the apparent absence, or near-absence, of pottery from the North Arabian sites, the situation in this region might well correspond to the situation in the east which we have just discussed, with a kind of aceramic hinterland (represented in the east by the D-group sites) dependent upon a more advanced nuclear area comprising the east Arabian "Ubaid sites" and southern Mesopotamia itself, in the one case, and the Pottery Neolithic and Chalcolithic sites of the Levant in the other. Moreover, there is one feature of the archaeological evidence which suggests to me the possibility of some sort of actual contact between eastern and north-western Arabia at this time; namely, the presence in the stone industry of both the North Arabian Chalcolithic and the eastern Arabian D-group of characteristic tabular scrapers.(9) It is true that the other characteristic D-group form, the pressure-flaked arrowhead, is much less common, apparently, in the North Arabian assemblages, and if the two industries are in any way related it is difficult to account for this fact.(10) But the common presence of tabular implements seems to me significant, and merits further study. And finally, just as Abdullah Masry has suggested that the eventual abandonment of the 'Ubaid sites in eastern Arabia might well have been associated with a movement of population from this area into southern Mesopotamia,(11) so also the abandonment of the 4th millennium sites in North Arabia–for abandoned they appear to have been–may help to explain the population increments which are apparent at this time in the southern Levant, and which probably played a major part in the rise of an urban civilisation there,

The presence of so much archaeological evidence for sedentary occupation in eastern and northern Arabia in the 5th and 4th millennia makes it unlikely, in my opinion, that the southern and south-western parts of the Peninsula were not similarly settled at this time; but so far, with the exception of some occasional finds of pressure-flaked implements of a generally similar character to those of the D-group, there seems to be no evidence for this. The problem is part of a larger one concerning the cultural history of these areas, however, to which I shall return.

Clear evidence for the sedentary occupation of Arabia in the third and the first half of the second millennium comes only from the eastern area bordering the Gulf, and conditions in the rest of the Peninsula remain obscure. Our relatively detailed knowledge of conditions in the east is the result of a quarter of a century of well conceived and carefully executed archaeological research, based on a judicious mixture of survey, excavation, and comparative studies, which should serve as a model for similar activities in the rest of the Peninsula. Through the work of such scholars as Geoffrey Bibby, Beatrice de Cardi, Karen Frifelt, and Serge Cleuziou, the main features and distribution of the so-called Umm al-Nār and Dilmun cultures are well known, and do not need rehearsing here. Centred on the 'Umān peninsula and the island of Baḥrayn respectively, these cultures testify to the presence of an advanced urban civilisation along the littoral at this period, the result undoubtedly of the intensive commercial activities which characterised the Gulf and which brought the civilisations of Mesopotamia, the Indus Valley and south-western Iran into contact with one another, and with eastern Arabia itself. The resultant picture has been well painted by Abdullah Masry when, in connection with the Dilmun town on Tarūt, he writes of the 'availability of such luxury items as steatite, alabaster, lapis lazuli as well as copper ... within the context of a highly developed and prosperous urban setting'.(12)

The primary cause of this prosperity in the Gulf was clearly the renewed interest of Mesopotamia in the area, and the date of the beginning of this interest is of some considerable significance for events outside Arabia as well. If I understand the situation correctly, there is as yet no evidence for contact between Mesopotamia and Arabia during the Urūk period (that is the second half of the 4th millennium), and the earliest Mesopotamian material (after the 'Ubaid episode) is provided by the Jamdat Naṣr pottery of *ca.* 3000 B.C. found in 'Umān.(13) Now this is precisely the period when cultural links between Mesopotamia and the Nile Valley are also known to exist, links which had a formative influence on the development of Egyptian civilisation. For many years now scholars have argued over the significance of these links and the routes by which they were forged.(14) One possibility is the land route through northern Mesopotamia, Syria, and the Levant; another is the sea route around the Arabian Peninsula and into the Red Sea. Recent archaeological research has revealed an interesting pattern of Mesopotamian cultural–and possibly political–expansion at about this time, with the discovery of large Urūk urban sites along the Upper Euphrates in northern Syria,(15) and (as we have just seen) the existence of Jamdat Naṣr sites in the lower Arabian Gulf. Until Egyptologists can tell us more about the exact date and nature of the Mesopotamian influence in the Nile Valley it cannot be claimed that the problem of the routes is any nearer solution than it was a quarter of a century ago; but, with regard to the sea route, the discovery of a Mesopotamian presence in 'Umān at least somewhat closes the gap in the sea route, and proves that maritime contact was more feasible than has sometimes been thought. What is now required is an intensive survey of the southern coasts of the Peninsula, to test the hypothesis that late 4th and early 3rd millennia voyagers may have used harbours here on their way to Africa.

Away from the Gulf, the archaeological map of Arabia during the 3rd and for most of the 2nd millennia remains a blank. It is true that some of the enigmatic stone structures which are found widely distributed across the Peninsula could belong to this period, and the small Late Neolithic and Chalcolithic sites in the north-west of the country, of which we have spoken, may have continued into the 3rd millennium, though there is no archaeological evidence for this so far as I know.(16) Indeed, a depopulation of this northern region about 3000 B.C. would agree quite well with what is known of the history of settlement in marginal areas further north, in eastern Jordan and Sinai for example, where the number of E.B.2 and E.B.3 sites known is far less than the total for the Chalcolithic and E.B.1 periods.(17) In the same connection, however, it is worth noting that these same marginal zones appear to have been partially re-settled around 2000 B.C. (a process which is sometimes associated with the sedentarization of the Amorite tribes) and it would be interesting to know if these events effected North Arabia as well. Only further investigation, particularly the excavation of some of the North Arabian stone structures to establish more exactly their chronological limits, can supply the answer.

Turning to western and south-western Arabia at this period, it would certainly be surprising, in my view, if future research did not show the existence of contacts with Egypt. During the Old Kingdom the pharaohs were increasingly concerned with the acquisition of raw materials, as were their Mesopotamian contemporaries. The exploitation of the Sinai turquoise deposits began as early as the 3rd Dynasty, while by the 6th Dynasty expeditions were regularly going to Nubia and Punt for gold, incense, ivory and precious woods. The precise location of Punt is in doubt, but it probably comprised what are now Eritrea and Somalia.[(18)] To begin with these expeditions need not have involved sea traffic, but by the 6th Dynasty voyages to Punt down the Red Sea are recorded, and considering the proximity of the Somalia and Yaman coasts, it is difficult to believe that an Egyptian land-fall was not soon made on the Arabian side and that, before long, Arabian incense as well as African was not finding its way to Egypt. There is, it is true, no archaeological evidence for this at present, and casual contacts need not be expected to have left any trace in the archaeological record. But the possibility should at least be reckoned with, and the evidence should be looked for.

Let me now turn from speculation to fact – or at least to probability. Enough work has been done in the Gulf states and in the Eastern Province of Saudi Arabia to show that the paucity of archaeological data from the latter part of the the 2nd and much of the 1st millennia, prior to the Hellenistic period, indicates a real decline in the settlement and prosperity of the region, and is not simply a reflection of inadequate archaeological research. Apart from such exceptionally favoured sites as Qal'at Baḥrayn, there appear to be very few if any settlements that can be dated to this period of about fifteen hundred years, though burial cairns in 'Umān and elsewhere testify to continuing occupation of some sort. The reasons for this decline are likely to be found in events external to Arabia, and cannot be discussed here; though it is hard to resist the temptation to speculate on the possible connection between this breakdown of urban conditions and the rise of camel nomadism, which probably took place during the same period. Such speculation must be left for another occasion, however, and what I wish to emphasise here is the apparent contrast between the situation in the east and that in the west of the Peninsula. In south-west Arabia, the late 2nd – early 1st millennium is generally conceded to be the formative period in the rise of South Arabian civilisation, when techniques of irrigation agriculture, monumental architecture and literacy either developed indigenously or were implanted. I shall return to these problems of South Arabian archaeology in a moment. As for the north-west, I discussed the early history of this part of the country in a paper delivered here in Riyad two years ago at the first of these Symposia,[(19)] and I need only repeat the salient points now. It seems established that towards the end of the 2nd millennium, perhaps around 1300 B.C., the first walled towns appeared in this region; certainly the site of Qurayya, just south of the present frontier with Jordan;[(20)] probably further south still at Taymā';[(21)] and possibly at a number of other sites also, though much more fieldwork will be needed before the distribution of what has been called the 'Midianite culture' is known. The reasons for the re-establishment of settled communities in north-west Arabia at this time, after what is apparently a long gap,[(22)] and for the urban character of that re-settlement, can only be surmised until some of the relevant sites are excavated. The fortunes of this corner of Arabia are usually thought to be linked with those of the incense trade with the south, and this is certainly true for some periods of history.[(23)] But I suggested in my previous paper that Egyptian exploitation of the mineral resources of north-western Arabia and Midianite participation in this activity–facts both demonstrated at the contemporary and neighbouring site of Timna, in the Wādī 'Araba, just north of the modern frontier–may equally well have provided the economic basis for Midianite prosperity, and have created the motive and the conditions for sedentarization and urbanization at this time. Again, this is a hypothesis which can only be tested when the ancient mining sites in western Arabia, first visited by Sir Richard Burton a century ago, are subjected to renewed investigation. But whatever the explanation of the Midianite phenomenon, it is reasonably clear that from this time onwards, though not necessarily continuously, north-west Arabia was the setting for a flourishing urban and commercial civilisation, controlling an important nexus of trade routes from such oasis centres as Taymā', Dēdān and Yathrib, and playing (as the episode of Nabonidus' ten-year stay in Taymā' illustrates) a part in the affairs of a much wider stage than the Peninsula itself.

Undoubtedly, the most important development in Arabia during the 1st millennium, however, was the growth of a spectacular and distinctive civilisation in the south-west of the Peninsula, and it is to this that I now wish to turn. Compared with the archaeology of the rest of the country, that of South Arabia has been intensively studied for over a century, and workers in other regions have cause to be envious of the amount of information which South Arabian specialists have at their disposal; information which is largely drawn from textual sources and which has enabled the social, political and religious institutions of the area to be studied in some considerable detail. Yet is seems to me that archaeology in South Arabia has, paradoxically, suffered to some extent from the very abundance of the monumental remains and inscriptions. I am not myself an expert, nor even a novice, in these matters, and it is with some reluctance and much trepidation that I venture to comment upon them. But it needs to be said that many of the things which ought to be known about South Arabian civilisation are not known, even after a century of research, and it is my belief that this is not because of any modern logistic factors, but mainly because the direction of that research has been too often towards the more spectacular monumental and epigraphic remains and not towards the humbler flint or potsherd. There have been, of course, notable exceptions to this lop-sided approach; I have already mentioned the pioneering excavations of Gertrude Caton Thompson[(24)] and the work of the American Foundation for the Study of Man, some aspects of which, particularly the investigation of the irrigation systems of the Wādī Bayhān[(25)] and the attempt to secure a sequence of pottery at Ḥajar Bin Ḥumayd,[(26)] were entirely praiseworthy in intention if not entirely successful in execution. But such work is the exception rather than the rule, and there has been very little attempt at archaeological–as distinct from epigraphic–survey, again with the notable exceptions of the work of Harding and Van Beek[(27)] in the Ḥaḍramawt. It is my belief that, without the kind of integrated programme of systematic survey and selective excavation of habitation (as distinct from monumental) sites which is proving so successful in elucidating the history of eastern Arabia, many of the problems of South Arabian civilisation will remain unsolved for a long time to come.

A brief look at what are probably the two most basic of these problems will, I hope, illustrate my point: the problems of the date and the nature of the origin of South Arabian culture. The primary enabling condition for the civilisation of this part of Arabia was, of course, climatic; the south-west is the most fertile part of the Peninsula, with the most abundant agricultural resources. But the date at which man first made use of these resources, and the precise manner in which an agrarian-based society first developed here, seem to be completely unknown. I have already referred to the lack of data regarding the earlier periods of history in south-west Arabia, from the 5th millennium until the late 2nd millennium, and the roots of classic South Arabian civilisation might well lie in these periods for which we have as yet no evidence. But even when, in later periods, we do have evidence, in the form of sites, buildings and inscriptions, we are still plagued with difficulties of interpretation and chronology. The chronological problems are particularly intractable, and relate to both the epigraphic and the more strictly archaeological material. If I understand the position correctly, the epigraphic problems involve, on the one hand, the dating of the South Arabian scripts on the basis of palaeographic comparisons, and, on the other hand, the validity or otherwise of synchronisms between names of South Arabian rulers and names mentioned in Assyrian texts. I am certainly not competent to enter into these discussions, and I can do no more than regret a situation in which there seems to be disagreement of the order of at least three or four hundred years over the dating of the earliest inscriptions. The archaeological problems are just as complex, but I feel more able to comment upon them, though briefly, since time is short. The main archaeological evidence for the beginnings of South Arabian civilisation comes from the excavations at Ḥajar Bin Ḥumayd, where there was excavated a sequence of nineteen strata, the lowest nine of which (K - S) being dated by Van Beek to the 10th - 8th century B.C. This dating was based largely on comparisons between certain types of red-burnished pottery found at Ḥajar Bin Ḥumayd and similar material from the Levant.[(28)] It would take too long to discuss these comparisons in detail and evaluate the validity of Van Beek's conclusions, and it must suffice to say here that the comparisons do not seem compelling to me, nor the conclusions final. Furthermore, the basic homogeneity of the pottery from all nineteen strata, particularly the homogeneity of technique,[(29)] argues in my view for a shorter time span

for the site than the fourteen hundred years or so that Van Beek suggests; though in this connection it must be noted that the stratigraphic separation at the site may not be entirely reliable (as the excavators admit), and the pottery of the various layers could therefore be mixed to some extent. Nor do the C^{14} determinations published by Van Beek necessarily support his dating, though he must be congratulted for being the first to use this method to elucidate Arabian chronology. The earliest carbon sample, from Stratum Q (the third from the bottom of the mound) provided two dates which, without dendrochronological calibration, are given as 852 ± 160 B.C. and 840 ± 100 B.C. respectively. Several things should be noted about these dates. First, if the standard deviation is quoted in full the resultant figures are 1012 - 692 B.C. and 940 - 740 B.C.; and it should be remembered that in this method of dating the median figure is no more probable than either the highest or the lowest. In other words, the sample is just as likely to date from the early 7th century B.C. as it is from the late 11th century. Secondly, the sample comes from a large roofing beam, which is likely to have been fashioned from timber already quite old at the time of its use; and it is the age of the timber, not the date of its final use, that the C^{14} determination establishes. And, thirdly, two determinations from one sample are not really enough evidence on which to base any chronology at all.

Let me hasten to say that I have gone into this question of the dating of the lower levels of Ḥajar Bin Ḥumayd in some detail, not in order to disprove Van Beek's chronology, nor indeed to argue for or against any alternative chronology for South Arabian civilisation, a matter on which I have no particular views of my own. I have done so merely to point out what seems to me to be the extreme frailty of the archaeological evidence for the chronology of the region, and to stress the need for more excavations, more comparative studies, more C^{14} analyses. For until the chronological problem is solved, I do not see how any of the other problems concerning the origins of South Arabian civilisation can be discussed meaningfully.

Of these other problems, one of the most important is that of the role played by irrigation in the formation of the South Arabian states. That flood irrigation was a dominant feature in the economic and social life of the area cannot be doubted, of course, and the technical aspects of this system have been illuminated especially by the work of Gardner and Bowen in the Wādīs 'Amd and Bayhān, respectively. But we are still in ignorance, I think, about the date and nature of the beginnings of this system. Nor, so far as I am aware, has any comparable work been done on the agricultural terrace systems which today are such a striking feature of the South Arabian landscape. Flood control is a device of far greater antiquity in the Middle East, it would seem, than terracing; yet in the hill-country of the Levant, with a terrain not dissimilar from that of the 'Asīr and Yaman mountains, agricultural terraces apparently go back as far as the late 2nd millennium. Dating such terrace systems by archaeological methods is even more difficult than dating flood control devices, but a careful prospection for sites in the Yaman hills, as distinct from the valleys, with particular attention to ecological factors such as water and vegetation resources, might reveal something of the early history of the terraces and enable us to compare their role with that of the better known *wādī* irrigation.

Detailed archaeological survey–once we have the necessary dating criteria–might also help to throw light on another major problem, that of the extent to which South Arabian civilisation, based on literate, trading, urban communities, was imported into the region or grew indigenously from local beginnings. 'Foreign influence' versus 'local development' is a constant theme in the archaeological literature; fashions in interpretation tend to fluctuate from one extreme to the other, while the truth is usually somewhere in between. In the case of South Arabia it is hard to believe that some considerable cultural influence from outside was not involved, but we must ask ourselves by what routes it came and whether actual population movements were also involved. If we argue for major foreign cultural participation, we must face the difficulty that there is little in the archaeological record of the rest of the Peninsula to show the passage of such influences or participants. The east and centre are (we may recall) at this period almost archaeological blanks, while in the north-west, although (as we have already mentioned) walled settlements and flood irrigation were known in the late 2nd and the 1st millennia, the basic archaeological assemblage (for example, the pottery) of this area seems quite unrelated to anything in the south. Did the supposed foreign influences

come, then, by sea; and if so, from the east, via the Arabian Gulf, or from the north, via the Red Sea; or indeed, from East Africa or Egypt, across the narrow Bāb al-Mandab,* which certainly carried much traffic at a later period in South Arabia's history. If, on the other hand, we think mainly in terms of a local, indigenous development in the south, it is logical to suppose that small village settlements would have preceded the larger urban centres, which would have grown up only as the economy of the region progressed. A study of settlement patterns, based on intensive field survey and utilising the techniques of locational analysis, is called for to test such a hypothesis. Whether we think in terms of outside cultural influences or not, we must still ask ourselves whether population increments were involved in the establishment of South Arabian civilisation, or whther the sedentarization of pre-existing local nomadic groups is a sufficient explanation. In this respect, it is tempting to recall the evidence for the apparent abandonment of East Arabian settlements in about the middle of the 2nd millennium, a process which in theory might well be linked with migratory movements towards the south-west.

These obscurities in the early formative phases of South Arabian civilisation are to some extent due to the absence of convincing archaeological evidence for contacts with the rest of Arabia and with the outside world. When we come to the much better known period of the classic South Arabian states–the last few centuries B.C. and the first few centuries A.D.–the situation is quite different, and one of the most striking features of the material culture of at least the wealthier of their inhabitants was its cosmopolitanism. This is revealed best in some of the sculpture and metalwork that has survived–as a glance at Mlle. Pirenne's new *Corpus* of South Arabian antiquities shows–though the evidence of imported *terra sigillata* and lead-glazed pottery should not be forgotten. The sources of these objects and the precise foreign styles they illustrate were no doubt diverse–the Mediterranean countries, Syria, Mesopotamia, Iran–but the predominant cultural influence they demonstrate can broadly be termed Hellenistic. For although South Arabia was clearly never part of the Hellenistic world in the sense that Egypt or the Levant were, none-the-less it was inevitably drawn into the orbit of that world by its trading activities.

All this is well known. What has been established by archaeology during the past few years is that South Arabia was not the only part of the Peninsula to be affected by Hellenism, to a greater or lesser degree. In the east it should occasion no surprise to learn that an important Seleucid city was built on Baḥrayn, to continue the trading functions of its Dilmun ancestor; but recent survey has shown a surprisingly intensive occupation of the mainland as well, for some considerable distance from the coast–at least as far inland as the Ḥasā oasis–and this apparently for the first time since the 3rd millennim.[30] The well documented emporium of Jerrha is still not located to the satisfaction of the archaeologist, but a remarkable walled city at Thaj, 100 kms. inland along the route to the west, testifies to a flourishing trans-Peninsular trade, which in this direction must ultimately have linked up with that of the Nabataeans, in the north-west.[31] Here, again, while the very largely Hellenistic material culture of the Nabataeans at such Arabian sites as Madā'in Ṣāliḥ and al-Bida' has been known for over a century, the extent of Nabataean occupation of northern Arabia is only now being revealed, with (for example) the recent discovery of a walled town at al-Jawf and of other contemporary sites in the same region.[32] The Nabataeans had links south as well, of course, and some sherds of their distinctive painted pottery have been found in Al-Ansary's excavations at *Qarya* (al-Faw), over 1000 kms. south of Mada'in Ṣāliḥ. In fact, nothing illustrates better, to my mind, the opening up of Arabia at this period than the discoveries at *Qarya* (al-Faw). It is not for me to describe these here, but those who have been priviledged to see the exhibits in the University Museum, including South Arabian inscriptions, coins, Nabataean and Parthian pottery, and many other objects of similarly diverse origins, will be able to testify to the cosmopolitan nature of this important inland town.

Editor:

The editor would prefer the route via the Island of Dahlak, opposite which on the African coast, arose Adūlis and later on Musawwa'. This view is based on linguistic and geographical considerations.

And we may be sure that this is not the whole story. With dynamic communities engaged in trade and dependent for survival upon their inter-relations, existing for the first time simultaneously in the south-west, the north-west and the east, it is inconceivable that the interior of Arabia at this period should have been the domain only of the tribal nomad, as it was once thought to be. Archaeological exploration has already begun to reveal many more settlements along the trade routes and in the oases, and we have only to look at the density of place names on the map of Ptolemy to see that Arabia was now at one of the peaks–perhaps the peak, until recent times–of its economic prosperity. The main reason for this prosperity was clearly the important commercial role it was called upon to play in the prosperous world of the Seleucids, Romans, Parthians and Sasanians; but it is probable also that factors internal to Arabia were also involved in this opening up of the Peninsula. One such may have been another climatic fluctuation, but this can only be mentioned tentatively until environmental data from some of the sites in question have been collected and analysed. Another, and more certain factor, if we are to believe Dostal, could have been the invention of a more efficient camel saddle at about this time, which would have made for greater mobility and greater security along the trade routes;[(33)] and it is significant that the earliest known representations of such an improved saddle seem to occur on small camel figurines made by the Nabataeans.[(34)] Yet another possibly related Arabian development at about this time was the spread of at least a certain measure of literacy throughout the Peninsula, if we are to judge by the number of Thamūdic texts widely found scratched on rock surfaces. This has always seemed somewhat surprising among a population thought of as largely nomadic and illiterate pastoralists, but if in fact these nomads were in reality merchants not only in constant touch with the outside world but also themselves based for much of their time on permanent villages and towns throughout Arabia, then the development may not appear so strange.

With this view of a–relatively speaking–prosperous, dynamic, outward looking and perhaps largely literate Arabia in the centuries immediately preceding Islam, I bring my paper to an end. In it I have attempted to show some of the recent achievements of archaeology in helping us to understand Arabia's history, and have hoped to suggest a few ways in which future research might usefully proceed. I have deliberately indulged in speculation; but the time for speculation is now over, and for the rest of this Symposium we look forward to hearing some hard facts with which to expand and correct the picture I have tried, very inadequately, to paint.

Notes

(1) Abdullah H. Masry, "The Historic Legacy of Saudi Arabia", *Atlal. The Journal of Saudi Arabian Archaeology,* 1 (1397/1977), 9-19.

(2) Geoffrey Bibby, *Looking for Dilmun* (1970), 376.

(3) During the discussion following this paper, Abdullah Masry suggested that the discovery on contemporary sites in both Mesopotamia and eastern Arabia of fragments of mud plaster with reed impressions, and the general economic orientation in both areas towards maritime exploitation, provided additional reasons for attributing the east Arabian sites to the 'Ubaid culture. However, to the writer such comparisons seem too general to have much significance.

(4) Abdullah H. Masry. *The Prehistory of North-Eastern Arabia,* Field Research Projects (Miami, 1974); Joan Oates, "Prehistory in North-Eastern Arabia", *Antiquity* 50 (1976), 20-31; Joan Oates, *et al.* "Seafaring Merchants of Ur", *Antiquity* 51 (1977), 221-234.

(5) H. Kapel, *Atlas of the Stone Age Cultures of Qatar,* Jutland Archaeological Society Publications VI (1967); E.H. Smith. "The Stone Industries of Qatar", in B. de Cardi (ed.) *Qatar Archaeological Report: Excavations 1973,* O.U.P. (1978), 35-38.

(6) Since these words were written a study of the chipped stone industry of Arabia has been begun as part of the Saudi Department of Antiquities' survey programme.

(7) H.A. McClure, "Radiocarbon Chronology of Late Quaternary Lakes in the Arabian Desert", *Nature* 263 (1976), 755-756.

(8) R. McC. Adams, P.J. Parr, M. Ibrahim and A.S. al-Mughannum, "Saudi Arabian Archaeological Reconnaissance 1976", *Atlal* 1 (1397/1977), 34-36; P.J. Parr *et al.* "Preliminary Report – the Second Phase of the Northern Province Survey 1397/1977", *Atlal* 2 (1398/1978), 36-42.

(9) Compare, for example, Kapel, *op. cit.,* fig. 446 with Parr *et al., op. cit.,* plate 42, nos. 111-112.

(10) A few examples of similar arrowheads were found in the 1977 Northern Province Survey; see, Parr *et al., op. cit.,* plate 39, no. 29; plate 42, no. 107. In Palestine these arrowheads are best paralleled in the Late (Pottery) Neolithic, spanning the 5th millennium (see conveniently A.M.T. Moore, "The Late Neolithic in Palestine", *Levant* V (1973), esp. fig. 4). The relationship, if any, between these widely separated industries will only be elucidated after much more detailed study.

(11) A.H. Masry, *The Prehistory of North-Eastern Arabia* (1974), 142.

(12) *Atlal* 1 (1397/1977), 12.

(13) See, for example, K. Frifelt, *Kuml* (1970), 355-383.

(14) For a brief discussion of these contacts see H. Kantor, "Egypt and its Foreign Correlations", in R.W. Ehrich (ed), *Chronologies in Old World Archaeology* (Chicago, 1965), 10-14. For a more extensive treatment see W. Ward, "Relations Between Egypt and Mesopotamia from Prehistoric Times to the End of the Middle Kingdom", *Journal of the Economic and Social History of the Orient* VII (1964), 1-45.

(15) Most spectacularly at Habuba Kabira, on which see Eva Strommenger, "Ausgrabungen der Deutschen Orient-Gesellschaft in Habuba Kabira", *Annual American Schools of Oriental Research,* 44 (1977), 63-78.

(16) Following the paper, Abdullah Masry argued that the appearance of urban settlements in North-West Arabia in the late 2nd. and early 1st. millennia strongly pre-supposed the existence of settled communities in the area in the preceeding centuries; and he suggested that some of the enigmatic stone circles and related sites should accordingly be dated to the early 2nd. millennium. In theory I agree: logically, a sedentary, but non-urban, phase of occupation can be expected to have existed prior to the emergence of towns, just as it can also in south-west Arabia (as I suggest later on in the paper). However, the fact remains that positive archaeological evidence for this phase does not yet exist. Probably the non-urban beginnings of such towns as Taymā' and Qurayya are still burried at the bottom of these sites.

(17). See T.L. Thompson, *The Settlement of Sinai and the Negev in the Bronze Age* (Wiesbaden, 1975) and *The Settlement of Palestine in the Bronze Age* (Wiesbaden, 1979), for a general statement of the situation. This reduction in the number of sites in marginal areas soon after the beginning of the 3rd. millennium may well be the result of environmental changes. K.W. Butzer has shown that in Egypt a 'Pre-Dynastic moist phase' ended *ca.* 2900 B.C., and has suggested that this would have brought to an end pastoral activities in the deserts bordering the Nile Valley, *Early Hydraulic Civilization in Egypt,* (Chicago, 1976), especially p. 39. Such a development may be true for Sinai also, if not for east Jordan and Arabia.

(18). I am indebted to Abdul Mun'im Sayyid of King 'Abd al-'Azīz University, Jedda, for his helpful remarks following this paper concerning the location of Punt and the chronology of Egyptian relations with it.

(19). P.J. Parr, "Archaeological Sources for the Early History of North-West Arabia", *Sources for the History of Arabia,* Part I (Riyad, 1379/1979), 37-44.

(20). P.J. Parr, G.L. Harding, J.E. Dayton, "Preliminary Survey in N.W. Arabia", *Bulletin of the Institute of Archaeology* (London), Nos. 8-9 (1970), 219-241.

(21). F.V. Winnett and W.L. Reed, *Ancient Records from North Arabia* (Toronto, 1970), fig. 84, for examples of distinctive Midianite painted pottery from Taymā'.

(22). See note 16 above.

(23). For stimulating discussion on the possible role of north-west Arabia in the incense trade with Egypt in the 18th Dynasty, see Abdel-Aziz Saleh, *Orientalia.*

(24). G. Caton Thompson, *The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadramaut)* (Oxford, 1944).

(25). R. LeB. Bowen and F.P. Albright, *Archaeological Discoveries in South Arabia* (Baltimore, 1958).

(26). G. Van beek, *Hajar Bin Humeid* (Baltimore, 1969).

(27). G.L. Harding, *Archaeology in the Aden Protectorate.* G. Van Beek, G.H. Cole and A. Jamme, "An Archaeological Reconnaissance in Hadhramaut", *Annual Report of Smithsonian Institution* (1963), 521-545.

(28). G. Van Beek, *Hajar Bin Humeid* (Baltimore, 1969), 356-358.

(29). Particularly the almost total absence of wheel-made pottery, and the prevalence throughout all levels of straw-tempered fabrics.

(30). *Cf.* the remarks of R.McC. Adams, *Atlal* 1 (1397/1977), especially p. 31; and D. Potts, *et al., Atlal* 2 (1398/1978), 9.

(31). G. Bibby, *Preliminary Survey in East Arabia 1968* (Copenhagen, 1973), 10-28.

(32). R. McC. Adams, P.J. Parr, M. Ibrahim and A.S. al-Mughannum, "Saudi Arabian Archaeological Reconnaissance 1976", *Atlal* 1, (1397/1977), 38-39.

(33). W. Dostal, "The Evolution of Bedouin Life", in F. Gabrieli (ed.), *L'Antica Societa Beduina* (Rome, 1959), 15-21.

(34). On the evidence of the writer's excavations at the Nabataean capital of Petra, in Jordan, these date mainly to the 1st. century A.D. They are being studied and published by Mrs. Eve French, to whom I am grateful for this information.

Where to Search for the Ancient Port of Leuke Kome

Sir Laurence Kirwan

There are two principal sources of information about the ancient harbour and settlement of Leuke Kome; Strabo's *Geography*(1) and the *Periplus of the Erythraean Sea.*(2) Leuke Kome is also mentioned in the Greek inscription of an unknown (probably South Arabian) king copied by Cosmas Indicopleustes at Adūlis, south of Musawwa'; the subject of the paper the writer presented to the First International Symposium.(3) It is obvious from these sources that Leuke Kome had an important role in Arabian history and in the network of ancient Arabia's trade communications. The name is not, of course, an indigenous one. It is Greek, meaning 'The white village': a name coined possibly by the Greek-speaking shipmasters of Roman Egypt because of Leuke Kome's value as a landmark. The name describes the coastal settlement. But Leuke Kome was also a *hormos* according to the *Periplus. Hormos,* strictly speaking, means a roadstead, an anchorage, the inner part of a harbour rather than a port. It is this that one has to look for in the search for the site of Leuke Kome.

I. The Historical Significance of Leuke Kome

According to Strabo who was in Egypt himself about this time, Leuke Kome was where Aelius Gallus landed in the spring of 25 B.C. with an army of ten thousand men (equivalent of a legion plus Nabataean and Jewish auxiliaries) in the course of his abortive expedition to south-west Arabia. His voyage south from Cleopatris, the modern Suez, had been an unhappy one. His troops were afflicted by ailments of various kinds and he lost many ships and crews from his fleet of a hundred vessels because of storms and perhaps faulty navigation. The Roman general and future Prefect of Egypt–a personal friend of Strabo's–must have been highly relieved at ending his fourteen day voyage and landing at Leuke Kome, then within the territory of Rome's ally, the Nabataean kingdom.

Aelius Gallus remained at Leuke Kome all that summer and the following winter to give his men time to recover. In the spring of 24 B.C., he set off on his long desert march towards the incense-bearing lands of south-west Arabia. Returning a few months later, his army diminished by fever, he did not embark for Egypt from Leuke Kome but from another Nabataean port, Egra where his fleet must have been waiting for him.

Some useful inferences can be drawn from Strabo's story. In the first place, Leuke Kome must have had a remarkably spacious harbour to provide anchorage for so large a fleet, which included cumbrous warships. It must also have been sited in a spacious and fertile stretch of coast to allow for the encampment and the nourishment of so large a body of troops for almost a year, even allowing for some characteristic exaggeration of numbers of Strabo's part. Then there is the reference to Egra. This bears directly on the location of Leuke Kome. Egra must have been situated to the south, and well to the south, of Leuke Kome. Aelius Gallus took eleven days to reach Myos Hormos, on the Egyptian coast, from Egra on what appears to have been a quite uneventful voyage. Yet, the *Periplus* allows only two to three days for a direct east to west crossing between Leuke Kome and Myos Hormos.

Musil(4) has convincingly identified Egra with al-Wajh, one of the relatively few ports along this stretch of coast today. Egra or Hagra (al-Ḥijr) was the ancient name for Madā'in Ṣāliḥ, with which al-Wajh is linked by a route climbing up through the mountains, the western edge of the Arabian massif. However, Musil suggests that the name must have been extended from Madā'in Ṣāliḥ to cover its ancient harbour as well, as happened elsewhere in this part of Arabia. One telling factor which strongly supports Musil's identification of Egra with al-Wajh is the way in which the latter can be directly approached from the south-east by way of the broad and fertile Wādī Ḥamd. This would have been the natural avenue of advance for an army marching up from the south.(5)

Leuke Kome with its ample anchorage facilities and presumably fertile hinterland must have been of considerable strategic importance. it was also an important entrepôt. Strabo describes it as a 'large emporium' (mart), importing aromatics of various kinds from south-west Arabia. This highly valued merchandise was then transported from Leuke Kome to Petra by large camel caravans which travelled backwards and forwards between two places with 'safety and ease'. The *Periplus,* composed in the second or possibly even the third century A.D., also speaks of this inland route to Petra.

Strabo records that some of this merchandise was dispersed from Petra to Egypt, Phoenicia and elsewhere but that this traffic was on the decline, there being an increasing tendency to ship exports from Arabia and India directly to Egypt by way of Myos Hormos. This may account for what appears to have been the somewhat diminished importance of Leuke Kome as an entrepôt by the time the *Periplus* was written. The inland route from Leuke Kome to Petra was still functioning. And Leuke Kome's trade was sufficiently lucrative to warrant the stationing of a Collector there and the levying of a tax of one quarter on all imports. There was moreover a fort at Leuke Kome and a garrison commanded by a centurion to provide for its security. Nonetheless, the unknown author of the *Periplus* says that Leuke Kome had only 'some reputation with the ships as a mart, though they are not large ones which come loaded from Arabia ...'.[6]

This distinction between Leuke Kome on the one hand and 'Arabia' on the other is spelt out more specifically in a subsequent passage from the *Periplus.* 'Immediately after this place', says the author, 'and contiguous with it, is the land of Arabia'.[7] Earlier, Leuke Kome had been well within the Nabataean kingdom. Here, in the *Periplus,* it appears as a frontier settlement. What was this territory in which Leuke Kome stood, bordering Arabia? Since the author of the *Periplus* was almost certainly a citizen of Roman Egypt, it is hard to imagine that it could have been any other than *Arabia Petraea* (established after Trajan's conquest of Petra in 105 A.D.) and that he thought it superfluous to name it. If this was the case, then it would help to explain the reference to a garrison commanded by a centurion at Leuke Kome.

Leuke Kome seems to represent a territorial limit, a boundary or frontier which the unknown king did not transgress, in the Adūlis inscription copied by Cosmas. This may be a clue (as with the *Periplus*) to its earliest possible date. 'After I had sent a fleet and an army against the Arabites and the Kinaidokolpites[8] who live across the Red Sea', says the king, 'and forced their kings to submit, I commanded them to pay tribute for their land and to keep the peace by land and sea and I waged war from Leuke Kome to the Land of the Sabaeans'.[9] Conditions to the south of Leuke Kome at that time seem remarkably similar to those described in the *Periplus.* The country did not belong to a single state or kingdom as in Nabataean times. It appears to have been divided among several tribal groups, the Arabites and the Kinaidokolpites in the Adūlis inscription, the Kanraitai and others in the *Periplus,* 'scoundrelly people' according to its author, who raided ships sailing close to the shore and carried off sailors into slavery; marauders by land and sea like the Arabian tribes in the Adūlis inscription.

It is very noticeable that the author of the *Periplus* does not include Egra in his list of ports. After Leuke Kome there is nothing until Jabal Tair is reached (15°35' N, 41°50' E)[10] and Muza (Mocha). Sea captains, indeed, are advised to keep well away from this dangerous coast and to steer a middle course southwards through the Red Sea. This comparison between the references to Leuke Kome in the *Periplus* and in the Adūlis inscription does suggest that the latter should be dated later than 105 A.D.

II. The Location of Leuke Kome*

One can now look in rather greater detail at the question posed in the title to this paper, the location of Leuke Kome. Most scholars have identified it with al-Hawra, on the coast behind Ḥassanī Island.[11] Huntingford[12] identified it with Yanbu' al-Baḥr. But these places are too far south. As Strabo demonstrates, Leuke Kome must have been some way north of Egra (al-Wajh). It must also have been reasonably close to the route leading to Petra along which Strabo's large camel caravans travelled 'with safety and ease'. I have no first hand knowledge of this part of north-west Arabia, but it seems clear from the accounts of those who have that the routes leading inland from the coast through the coastal mountain chain, linking small ports like al-Muwayliḥ with inland towns are not only very limited in number but precipitous and tortuous in their higher reaches. Nor do they lead in the direction of Petra, they link up with the ancient north-south Incense Road. As Parr, Harding and Dayton point out in their report on their 1968 survey,[13] there is really only one practicable route through this mountain chain. That is the Wādī 'Ufāl. This is the only one of these routes which leads directly to Petra. It is also the only route which appears at all likely to have been usable by large camel caravans. It seems then that one should look for the site of Leuke Kome no farther south than the Muwayliḥ Ḍuba region.

That this deduction is probably correct can be confirmed from the passage in the *Periplus* dealing with Leuke Kome. 'On the left from Berenike', says the author – that is, looking northwards along the Egyptian coast from Berenice, in the latitude of Aswan 'two or three days from Myos Hormos eastwards crossing the gulf which lies alongside, there is another harbour with a fort called Leuke Kome ...'.[14]

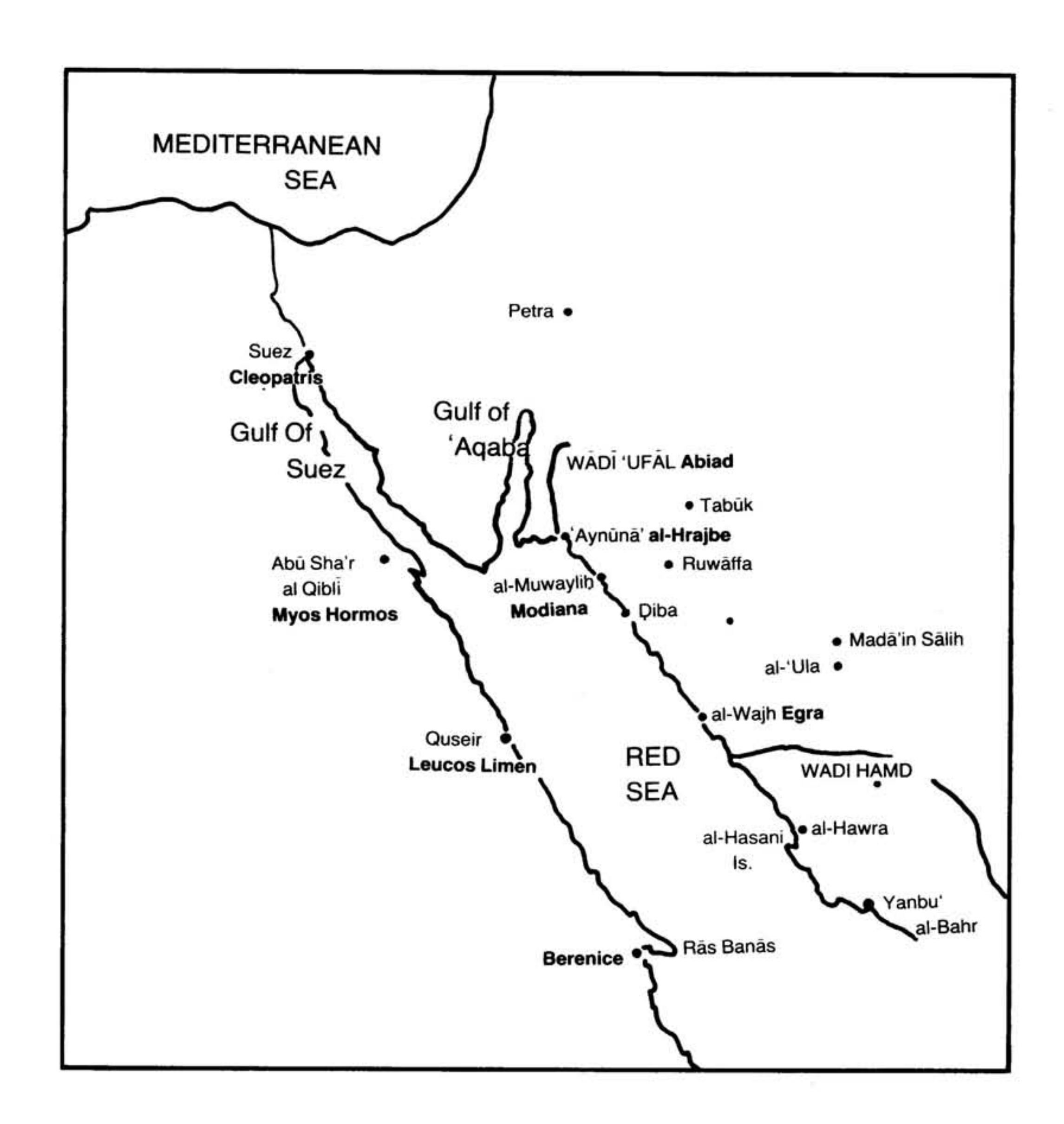
The position of Myos Hormos (Mussel Harbour) is well established.[15] It lies some 50 kilometres south of the entrance to the Gulf of Suez, at Abū Sha'ar al-Qiblī. The site has been visited and superficially investigated several times.[16] The harbour, with two winding entrances, was originally founded as 'Aphrodite's Harbour' by the Ptolemies as a naval base for operations against Arab pirates. It was renamed Mussel Harbour in Roman times and mussels are still to be found in the deep waters off the coast. The harbour settlement received its fresh water supply from the *Fons Tadnos* (Bīr Abū Sha'ar) four kilometres away. Myos Hormos was linked to the north by the Via Hadriana running parallel to the Gulf of Suez, and with the Nile by a route running south-westwards to Qifṭ, the route taken by Aelius Gallus on arrival from Egra.

Taking a line approximately due east from Myos Hormos–and one can hardly expect absolute precision from the *Periplus*–would carry one to the al-Muwayliḥ-Ḍuba area. But 'crossing the gulf which lies alongside' presents a problem. This must mean passing across the entrance to the gulf, probably the Gulf of 'Aqaba rather than the Gulf of Suez because the crossing appears to occur towards the end of the voyage, as one nears the harbour of Leuke Kome. If this interpretation is correct it entails a line from Myos Hormos somewhat north of east and this calls for a search along the whole coast between Ḍuba and the entrance to the Gulf of 'Aqaba. Entering the gulf itself is improbable; that would be veering mainly north, not east.

The rather enigmatic phrase in the *Periplus* suggests that Leuke Kome lay close to, but outside, the gulf. But it is arguable that it could be differently interpreted: to mean voyaging eastwards then entering the gulf and crossing to its south-east coast. One would then have to look at harbours serving the historically rich Ḥawrā'-Bida'-Magna zone, on or near the Wādī 'Ufāl. But none of these sites seem easily accessible from the coast. Entering the gulf with Aelius Gallus's large fleet would entail an awkward navigational exercise, nor would a harbour along this south-eastern coast have been convenient as a landing place for an army bound for south-west Arabia overland, or as the site for a large emporium trading with that region.

**Editor:*

For this section consult Map 7.



Map 7: Map showing the northern part of the Red Sea.

To judge from the *Red Sea and Gulf of Aden Pilot* (1967), Ḍuba would satisfy none of the requirements for Leuke Kome; ample and protected anchorage, a sufficient breadth of fertile coastal plain to provide food supplies; water for men and camels; and proximity to the Wādī 'Ufāl. The *wādī* is over 100 kilometres away. Nor does al-Muwayliḥ 40 kilometres north up the coast, offer a better prospect. As Musil points out, al-Muwayliḥ is essentially the port for Tabūk by way of a transverse route through the mountains; a route passing by the spring and little temple (Syrian in style) at Rawwāfa built beyond the frontier in the late second century A.D. by the 'nation' or 'federation' of Thamūdeans,(17) among them perhaps some of those tribes mentioned in the *Periplus* and in the Adūlis inscription. Besides, al-Muwayliḥ has been identified with the ancient Modiana.(18)

Unless conditions have changed markedly since Roman times, the northern section of the coast, from the entrance to the gulf as far as 'Aynūnā' – Musil's Adj'nuna – is largely inaccessible so narrow and tortuous are the few channels which pierce the belt of coral reefs. But at 'Aynūnā', there is a spectacular change. 'Aynūnā' Bay, with ample room for anchorage and deep water, meets all the requirements of a *hormos,* a roadstead well-protected in this case by a semi-circle of islands and islets. The coastal plain moreover, compared with Ḍuba and al-Muwayliḥ, is relatively broad. Two kilometres inland, there is the Wādī 'Aynūnā', two kilometres wide which Alois Musil when he was there at the beginning of this century, thought 'might easily be transformed into one great palm garden'. Beyond this valley lies the Oasis of 'Aynūnā' 'famed', says Musil, 'for its good, fresh water which once flowed through a walled acqueduct, now ruined in places, to the coastal settlement at al-Hrajba'.(19) The walled acqueduct, reminiscent of the acqueduct linking the *Fons Tadnos* with Myos Hormos, was noted by the contributors to the *Red Sea and Gulf of Aden Pilot* (1967) together with many other ruins. Musil found a fort and a garrison under a Turkish commander at al-Hrajbe. They received supplies every two or three months by steamer from Suez. Finally, the inland settlement of 'Aynūnā' lies close to the entrance to the Wādī 'Ufāl.

'Aynūnā', then, seems to meet all that one would expect of the site of ancient Leuke Kome; a spacious harbour, an ample and potentially productive hinterland, fresh water for men and caravans, and close proximity to the entrance to Wādī 'Ufāl along which Strabo's camel caravans could have travelled easily to Petra, carrying–as indeed they continued to do at the time of the *Periplus*–their loads of frankincense to Petra. Indeed it appears from the literature and the maps that 'Aynūnā' is the only place along the whole stretch of coast from al-Wajh to the Gulf of 'Aqaba which has all these advantages.

Notes

(1) 16, 4; 23-25.

(2) H. Frisk, *Le Périple de la mer erythrée* (1927); W.H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea* (1912); G.W.B. Huntingford, *The Periplus of the Erythraean Sea* (1978).

(3) L.P. Kirwan, "The Arabian Background to one of the 'Cosmas' Inscriptions", *Sources for the History of Arabia,* Part 1 *(Studies in the History of Arabia* I, 1399/1979), 93-99.

(4) A. Musil, *The Northern Hegaz,* (1926).

(5) P.J. Parr, G.L. Harding and J.E. Dayton, *Preliminary Survey in N.W. Arabia* (1968).

(6) G.W.B. Huntingford, *The Periplus of the Erythraean Sea* (1978).

(7) *Op. cit.*

(8) According to a fragment of the *Periplus* of Marcianus of Heraclea (*ca.*400 A.D.), the capital or royal residence of the Kinaidokolpites was Zadrame. C. Müller, Marcianus of Heraclea, *Periplus maris exteri. Geographi graeci minores* (1855), 527.

(9) L.P. Kirwan, "*The Christian Topography* and the kingdom of Axum", *Geographical Journal* 138:2, 166-177.

(10) A. Musil, *op. cit.*

(11) Schoff, *op. cit.;* Musil, *op. cit.;* M. Carry and E.H. Warmington, *The Ancient Explorers* (1963).

(12) Huntingford, *op. cit.*

(13) P.J. Parr, G.L. Harding and J.E. Dayton, *op. cit.*

(14) Huntingford, *op. cit.*

(15) D. Meredith (ed.), *Tabula imperii romani.* Coptos Sheet N.G. 36.

(16) For example, L.A. Tregenza, *The Red Sea Mountains of Egypt* (1955); G.W. Murray, "Trogodytica; the Red Sea Littoral in Ptolemaic Times", *Geographical Journal* 133:1 (1967), 24-33.

(17) P.J. Parr, G.L. Harding and J.E. Dayton, *op. cit.*

(18) D. Meredith (ed.), *op. cit.*

(19) A. Musil, *op. cit.,* 125.

Bibliography

CARY, M. and WARMINGTON, E.H.,
The Ancient Explorers (Pelican books. Revised edition, 1968).

FRISK, H.,
Le Périple de la mer erythrée (Göteborg, 1927). The best Greek text.

HUNTINGFORD, G.W.B.,
The Periplus of the Erythraean Sea (Hakluyt Society, 1978).

KIRWAN, L.P.,
"*The Christian Topography* and the Kingdom of Axum". *Geographical Journal* 138: 2 (1972), 166-177.

MEREDITH, D. (ed.),
Tabula imperii romani. Coptos sheet, N.G. 36 (Oxford for Society of Antiquaries, London, 1958).

MÜLLER, C.,
Marcianus of Heraclea, *Periplus maris exteri. Geographi graeci minores* 1 (Paris, 1855), 527.

MURRAY, G.W.,
"Trogodytica; the Red Sea Littoral in Ptolemaic Times", *Geographical Journal* 133: 1 (1967), 24-33.

MUSIL, A.,
The Northern Heğaz (American Geographical Society of New York, 1926).

PARR, P.J. HARDING, G.L., and DAYTON, J.E.,
Preliminary Survey in N.W. Arabia, 1968 (London: Institute of Archaeology, 1970).

SCHOFF, W.H.,
The Periplus of the Erythraean Sea (London, 1912). The new translation by the late Dr. G.W.B. Huntingford, with notes and commentary, has now superceded this work.

TREGENZA, L.A.,
The Red Sea Mountains of Egypt. (Oxford, 1955).

Recent Discoveries in the Necropolis of Petra

Fawzi Zayadine

Systematic excavations conducted at Petra in the last twenty years by the Jordanian Department of Antiquities, the British School of Archaeology and the University of Utah have shed light on the chronology of its main monuments. The theatre is dated to the early reign of Aretas IV (9 B.C. - 40 A.D.) and the Qaṣr al-Bint temple was constructed, according to the research of P. Parr, in the 1st century B.C. Recently, the excavations of Ph. Hammond on a hill opposite the monumental gate, unearthed a square temple of the Nabataean type, characterized by a central platform, surrounded by porticoes. A goddess relief, similar to a stela found at Taymā', can be dated by the Nabataean inscription to the reign of Maliku II (40-60 A.D.).

As excavations progress, new evidence for a flourishing Nabataean city is revealed. But since the general surveys of Brünnow and von Domasewski in 1897-98 and of Dalman in 1908-1911, no real progress was made in the interpretation and identification of the main rock-cut façades. The Horsfields undertook important excavations in the al-Ḥābis and Ma'ṣara area and discovered material dating to the 3rd-2nd century B.C. The main monuments, such as the Soldier's Tomb and the Sextius Florintinus sepulchre produced no relevant objects for they were looted in ancient times. To demonstrate the need for excavations in the tombs to secure epigraphical material, the writer undertook short but rewarding campaigns in theKhubtha area. On the other hand, a newly deciphered funeral inscription can help to date tombs in the Bāb al-Sīq area.

In 1978-79, a new campaign was sponsored by the Department of Antiquities at the Qaṣr al-Bint temple in preparation for a restoration programme. Epigraphical evidence came to light and corroborates the

ritual exposure. But there is no clear evidence of such use of the sacred places of the Nabataean city. It is probable that Strabo's description applied to the shaft-tombs of Petra, which were so common at that time. Monumental mausolea such as the Khazna, the Corinthian tomb and others were not mentioned because they did not exist, as one can assume, at that early period.

Tower Tombs

In the Bāb al-Sīq area, at the entrance of Petra, three disengaged tower tombs called Ṣahrīj are the first funerary monuments to be noticed. Tower No. 9 is isolated from the rock cliff. It is adorned on the four faces by engaged columns and a cornice fragment, still *in situ.* Above the attica is the indication of an upper structure, probably built with stones. The tower is probably of the Hegra type. In the rock wall to the north, a ramp was cut as the only access to the top. A shaft was noticed in the flat terrace of the tower. This was an irresistible appeal to investigation which was undertaken in the winter of 1978-79. A ladder was thrown with the help of ropes between the ramp and the monument.

The shaft contained blown-in sand. The clearance of the top shows cutting around the top of the tower which was prepared to build the upper structure. The clearance of the interior of the dump revealed no objects except for fragment of water pipes which were probably thrown in by the workers preparing the water aqueduct along the cliff. The two-metre-deep shaft is provided with a ledge on the south and north short sides but not on the long flanks. In this case, it is probable that the cist was never used as a burial. Few Byzantine sherds indicate it was used in the fifth-sixth century. Its access was probably made possible by a wooden bridge, for engraving can be noticed in the ramp. At any rate, the aqueduct can be tentatively dated to a later period, for the water pipes found in the shaft are associated with Byzantine pottery.

A Bilingual Funerary Dedication

Opposite the Obelisk Tomb, on the right side of the Wādī Mūsā, a rock is engraved with a bilingual Nabataean and Greek inscription, newly deciphered by J.T. Milik. It reads:

> "This tomb was built by Abdomanchos, son of Achaios, son of Shullai, for himself and his posterity, in the time of Maniku."

The inscription belongs to a family tomb dated to the time of Maniku II (40-60 A.D.). But it is unknown to what burial the dedication belongs. Above the rock, two cists in the open air cannot be a family tomb. A more important mausoleum must be searched for in the vicinity.

The Obelisk Tomb is crowned with four pyramids which, with the central statue in the niche, are to be considered as substitutes for the deceased entombed in the five loculi. Pilasters and Doric friezes on both the door of the chamber and the niche suggest a date not earlier than the first half of the first cenury A.D. The disc-shaped metopes of the Doric friezes appear on the Corinthian and the Soldier's Tomb, which are generally dated from the 1st-2nd century A.D.

The lower triclinium-tomb No. 35 is considered as a late façade, for it is ornamented with baroque architectural elements. But if we accept the dating of the Qaṣr in the 1st century B.C., the broken and segmental pediments which were compared to the stucco of the southern wall of the temple could be attributed to the second half of the first century A.D.

In this case, the funerary dedication may belong to the family tombs which are cut on both sides of the façades. According to J.T. Milik, the inscription was put at that place to be noticed by the passers-by.

In the Khubtha cliff, at the exit of the Sīq, and facing the theatre, Tomb 813 of the Hegra type dominates a row of façades of the merlon type. It is connected with Tomb 808 of exactly the same architectural type. Nearby, a cistern is dug in the rock wall and is connected with a canal. It collected rain water from a water reservoir. A stairway ascends to the top of the monument. Behind the façade, in the *wādī*, the retaining wall of a dam can be observed.

A square esplanade, originally limited on the eastern and western flanks by Doric columns, extends in front of the façade. A tomb-triclinium opens on the northern side, and an eroded obelisk is standing to the south, accessible from the courtyard by a stairway. In 1896, Gray Hill, a British explorer, entered a tomb and noticed an engraved slab from a freshly robbed tomb. The inscription was a dedication to "Uneishu, Brother of Shaqilat, Queen of Nabatu, son..." He was most probably the minister of Shaqilat, who reigned from 70 to 75 A.D., during the minority of Rabel II. In the 1973 campaign, fragmentary inscriptions on a sandstone slab and on plaster were discovered, together with jewellery objects.

In 1978, loculus 3 on the eastern side was excavated. A sunken grave covered by slabs and a thick layer of lime mortar appeared. In front of it a rectangular groove was probably carved to house a slab.

One of the covering slabs was removed and the grave enterance was blocked by tumble. An engraved sandstone slab fragment was discovered which reads:

"MLKT
(NBT)W

to be translated: "Queen of the Nabataeans". A fragmentary gold bracelet and a silver coin of Maniku II suggest that the grave belonged to a queen of the Nabataean dynasty. It is well known that the princes of the royal family can bear a royal title. But it is likely that the tomb belongs to one of the wives of Maliku II. At any rate, this discovery helps to draw a few conclusions:

1 - Complex tombs provided with cistern and triclinium were probably prepared for the Nabataean kings and nobility. The situation of Tomb 813 in the Khubtha area is an indication that other royal sepulchres are to be sought in the same cliff. But it is surprising to notice that none of the Corinthian and Palace Tomb show evidence of graves. Sarcophagi may have been used, but no conclusive traces of them were discovered.

2 - The absence of dedications on the façades can be explained by Nabataean custom of preferring individual inscriptions, as proved by the many *nefesh* or stela dedications.

3 - The door decoration consists of two frames: the outer one shows pilasters combined with columns and crowned by a pediment while the inner one consists of pilasters and an architrave. This double frame is common in the necropolis of Alexandria.

4 - Similar doors of Hegra of tombs E18,A5 and F4 are dated from 31 A.D. to 64 A.D. Other tombs at Petra provided with similar doors can be dated to the same period. The Turkmaniyya Tomb with short pilasters in the Attica engraved with an undated inscription can be attributed, on epigraphical grounds, to A.D. 50. In the Naṣra necropolis, No. 649 with a frieze of shields in the Attica may be dated to the second half of the first century A.D.

Recent Excavations in the Qaṣr al-Bint

The main temple of Petra was partly excavated by P. Parr in 1965. Part of the marble stairway was exposed. A new campaign was started by the Department of Antiquities to uncover the pronaos and stairway. A medieval occupation was recognised on the western side of the steps. A surface coin of al-Malik al-ʿĀdil brother of Ṣalāḥ al-Dīn and many pottery sherds of the Ayyūbid period are the first evidence in the area of an Arab occupation during the Crusaders' period.

Marble steps and slabs demonstrate that the whole monument was revetted with marble. A square white marble block was engraved in Nabataean with the inscription: "Shuʿudat daughter of Maniku". This princess is mentioned in other inscriptions. The block was probably a statue base. It is a new evidence which corroborates the Nabataean origin of the main temple.

Conclusion

With the discovery of the Temple of the Winged Lion by Ph. Hammond, it becomes clear that the city-planning of Petra was achieved under the Nabataean Dynasty. On both sides of the main street, sacred and domestic buildings were erected. It is time actually to reconsider Kohl's statement that the stucco decoration of the Qaṣr are the "most important element of the architectural decoration". Since they show connections with the Second Style of Pompei, they should be taken into consideration when the Khazna and other classical monuments of Petra are studied.

Note

(1) XVI: 4, 26.

What is a Ṣafa'itic Cairn?

A. Jamme

The question serving as the title of this paper is relevant because even in the northern part of Saudi Arabia, there are many Ṣafa'itic cairns. The country of 'Ar'ar may be considered as the south-eastern end of the Ṣafa'itic habitat. As is well known, a cairn normally means a heap of stones. However, we shall see later that a detail of information released in the voluminous publication of F.V. Winnett and G.L. Harding, *Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns,* if accurate, should drastically alter the ordinary meaning of a cairn.

The question is also important because the answer to the question "What is a Ṣafa'itic Cairn?" directly influences the interpretation of many Ṣafa'itic words, such as ***wgm, jtt,*** etc., which have been translated "to build, build a tomb" and "tomb", respectively. If a cairn is not a tomb, then these two words simply mean "to mourn" and "a cairn, a heap of stones" respectively.

It all started when G. Lankester Harding discovered in the northern part of Jordan a large cairn with many inscriptions referring to a deceased person called Hani'. G.L Harding excavated that cairn and found a human skeleton beneath it. The solution to the problem was immediately found: the cairn was the tomb of Hani', and the solution was also immediately generalized to the effect that "cairn" became synonymous of "tomb".

I objected to such a theory by making the two following remarks.

1 - It was unthoughtful of me not to mention that G.L. Harding had also found along with the human skeleton a tuft of hair and a few pieces of leather. Consequently, I noted that such perishable items, a tuft of hair and a few pieces of leather, could hardly belong to the first centuries A.D.

2 - The Ṣafa'itic stones could have been reused in more recent times by non-Ṣafa'itic persons.

Here one needs to illustrate the first remark. The parallel is not perfect, but is nevertheless relevant. When in 1968 I was working some 20 km south of Bi'r Ḥimā recording the numerous Sabaean inscriptions covering a huge boulder which must have been seen some 16 years earlier by J. Ryckmans, I noticed a small cemented panel about 15 cm to the left of a Sabaean inscription. Using my pocket knife and nails, I scratched and finally knocked down the hardened sand used as cement and removed the few stones blocking the entrance of a hole where a tuft of pitch-black hair had been deposited. Needless to say, I never thought that the tuft of hair belonged to the Sabaean man who engraved his text some 15 cm to the right.

During the following years, a few papers were published in the *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* where the "cairn=tomb" theory was again reaffirmed. Finally, the voluminous book of F.V. Winnett and G.L. Harding was released. At long last, a very large documentation was put at the disposal of scholars and the two theories of the cairn could be tested.

F.V. Winnett and G.L. Harding visited 53 cairns in 1958 and 1959 and their book contains the publication of more than 4000 Ṣafa'itic texts. All relevant details on that publication may be omitted here; you will find them in my long review of the book scheduled for publication before the end of the year. Here follows the summary of the question.

On the one hand, although the word "cairn" is a part of the title of the book, not a single line of the introduction is devoted to the exposé of the authors' understanding of what a Ṣafa'itic cairn really was.

On the other hand, in their introduction to about 47 cairns the authors do not, either explicitly or implicitly, refer to a single text alluding to any kind of burial.

In good logic, it is already obvious that a cairn is not a tomb, but the possibility of a cairn accidentally becoming a tomb remains.

In fact, F.V. Winnett and G.L. Harding excavated several cairns and they found a human skeleton beneath one of them, cairn 9B. This fact was naturally understood by the two authors as the proof that cairn is synonymous of tomb. Two remarks are called for.

1 - Neither the skeleton found beneath the cairn of Hani' mentioned before nor the skeleton found below cairn 9B have ever been submitted to medical analysis to ascertain not only the age of the bones but also the sex of the person they belong to.

2 - It is extremely important to note that no inscription found on cairn 9B mentions a burial.

In my opinion, the "cairn=tomb" theory is based on the misunderstanding of various data, such as the demonstrative value of the Ṣafa'itic article and the factual interpretation of several words.

Indeed the Ṣafa'itic article often has an accurate demonstrative value. An example is the well-known expression *Li Fulān ha-jamal* accompanying the picture of a camel. In other instances, the article does not pinpoint with the greatest accuracy the location where an event took place. A very common example is the phrase *Li Fulān ha-dār* "This place [belongs] to Fulān" found on a stone of a particular cairn. The demonstrative value of the article is justified and explained by the accurate and permanent location of the cairn. The bedouin indeed could hardly have pitched his tent atop the cairn, and a cairn could hardly be used except for a *faqīr* or for climbing exercises provided the climber keeps his balance. The text means that the author pitched his tent in the immediate vicinity of the cairn. When a text engraved on a stone found on a cairn says that a person buried his companion or his relative, the exact location of the burial remains unknown. What is certain is that the burial took place either during the trip or at the end of the trip, viz. in the general area of the cairn where the author stopped, pitched his tent and had the time to engrave his text.

The reader of F.V. Winnett-G.L. Harding's volume has to read many pages before at long last finding the authors' theory on a cairn, viz. in the introduction to cairn 15, where they state that the cairn was a structure which did not remain unchanged or intact all through the centuries. This is hardly any explanation at all since it is common knowledge that everything changes on the surface of the earth and that an ordinary, simple structure, whether plastered or not, would not last very long.

In the same introduction to cairn 15, the authors reconstruct the historical development of the cairn by stating that it was first some kind of plastered structure which was subsequently reused as a tomb. They justify their historical reconstruction by making an extremely important remark, viz. the Ṣafa'itic people would not have reused any funerary structure to accommodate the living. Consequently, the "cairn=tomb" theory would practically demand that the use of a cairn as a tomb would necessarily have to be the last stage in the historical development of each cairn. Furthermore, it is precisely in their historical reconstruction of the same cairn 15 that they, themselves, destroy the validity of their remark by stating that the third and last historical development of cairn 15 was its use as a lookout point.

In their argumentation on cairn 9B where the human skeleton was found, the authors put great emphasis on what they call "the concentration of texts on the figure" of the deceased person. First of all, all these texts belong to cairn 9A, not to cairn 9B. In order to make their argumentation easier, the authors consider cairns 9A and 9B as a double cairn because they are separated from each other by 6 metres only. However, there are in fact two cairns and no human being can be buried in two different places at the same time even if they are only 6 metres apart. Secondly, if the so-called "concentration of texts" is a valid argument, then there is no question at all of a "cairn=tomb" theory because, in all 53 cairns, the texts speaking of settle-

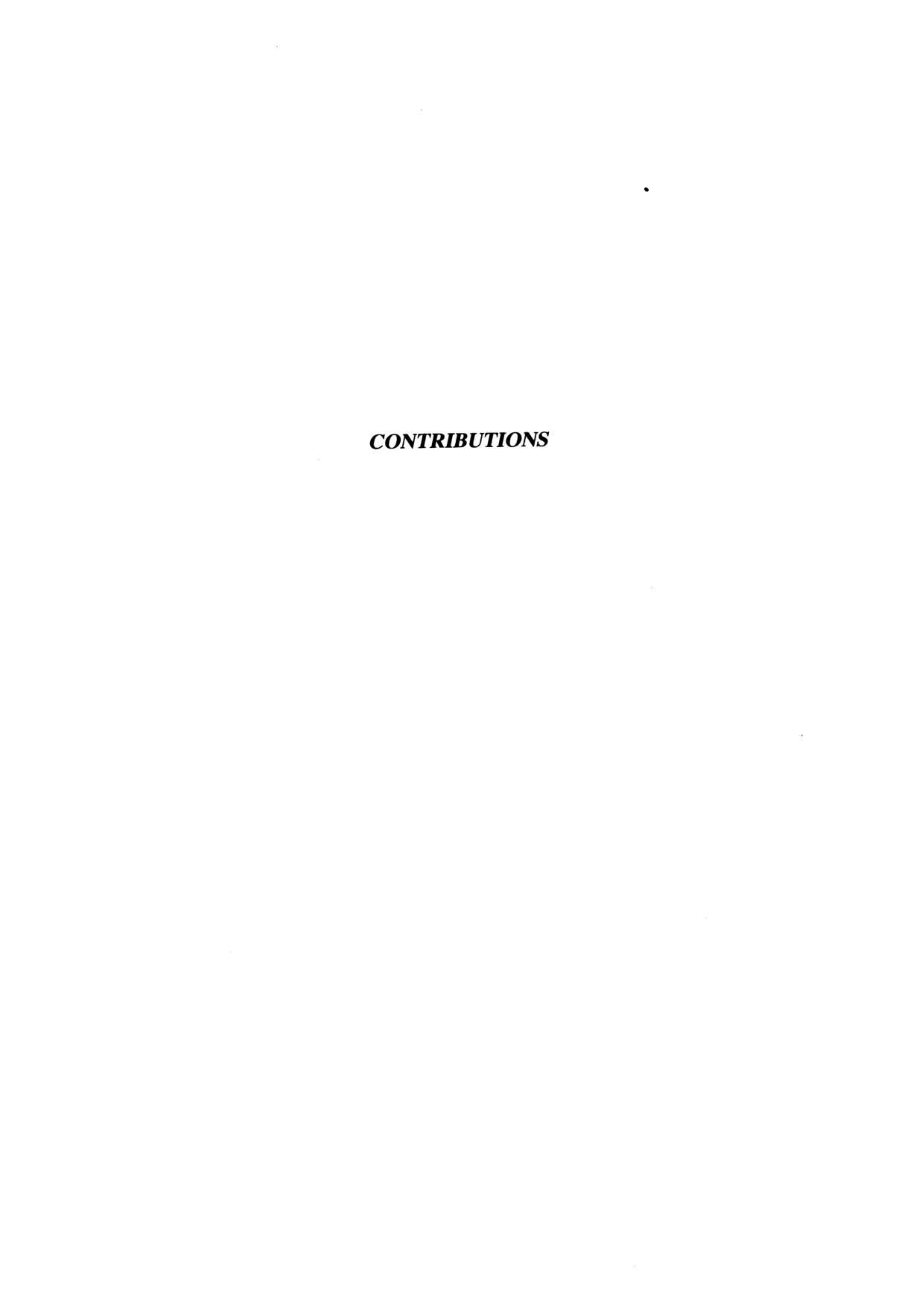
ment, structure or lookout point, are twice or thrice or even twelve times as numerous as those expressing some kind of burial.

The origin of each individual cairn remains unknown. One cairn may have been built to commemorate a special event in the life of a bedouin. Another cairn may have been the result of a bedouin cleaning up a certain area to pitch his tent and that cairn may have become the place where the individual used to halt. Still another cairn may have been built as a guide along the trail, etc. It seems, however, certain to me that had the Ṣafa'itic people known that a cairn was a tomb, they would have repsected it as such and would never have reused it for any other purposes, not even to store their texts which have nothing to do with burial. But travellers who were not Ṣafa'itic could have reused them for their own purposes and we have examples of Ṣafa'itic stones reused by Arabs, Palmyrenes, Greeks and Jews.

Two last remarks may be made here.

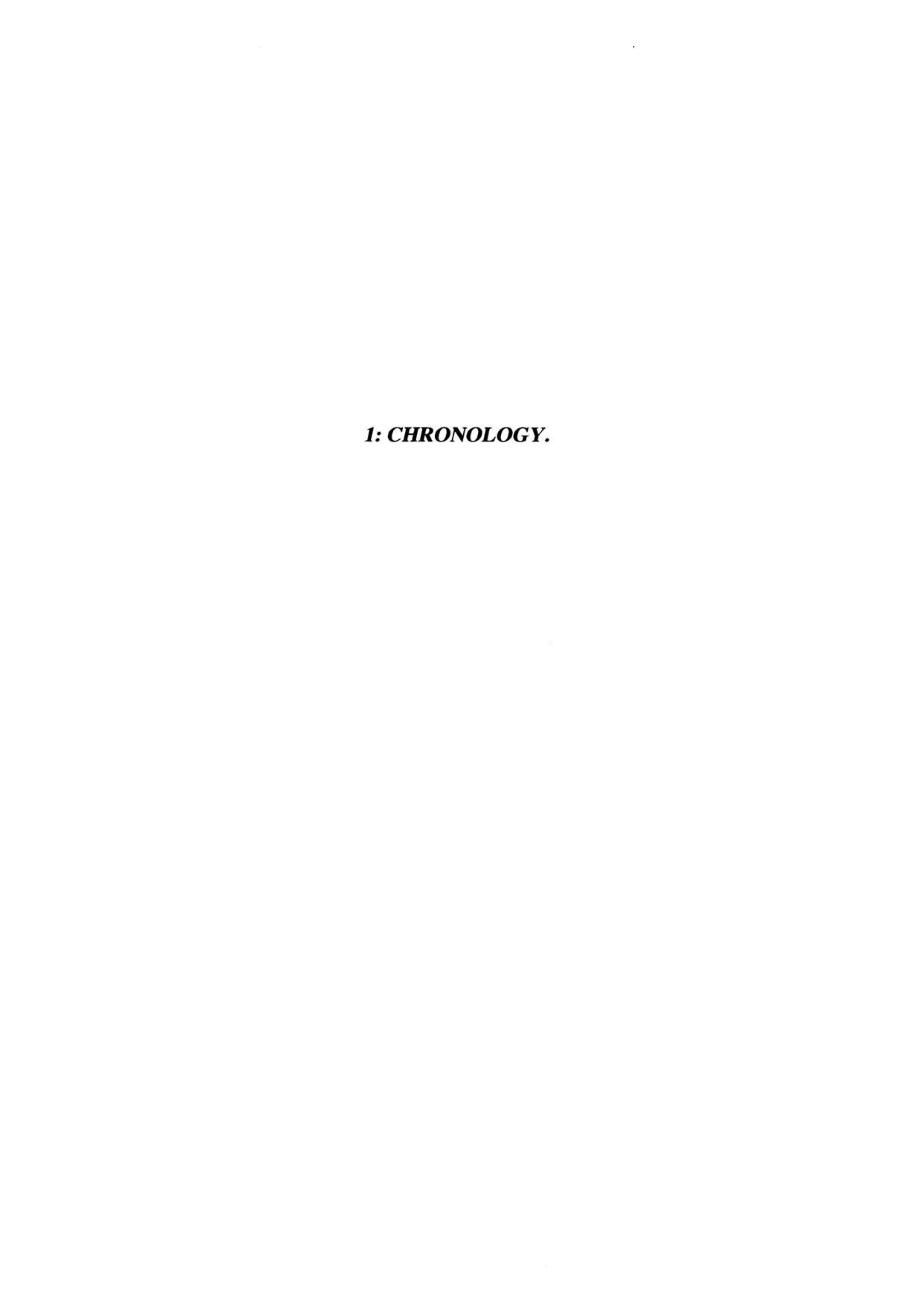
1 - With regard to the definition of a Ṣafa'itic cairn, a detail lost in the introduction of F.V. Winnett-G.L. Harding's book is very disturbing. They state that the letters of very few texts are as high as 1 metre. No reference is given to any text, although it would have been very easy to do so since only very few texts are involved. Furthermore, a text of ordinary length and composed of such letters could hardly be engraved on an ordinary stone. One may also ask how many texts are composed of letters 90, 80, etc., cm high? If their information is correct, the ordinary meaning of a cairn should be altered because boulders are involved. If one takes into consideration that several cairns yielded more than 100 texts each and one of them about 400, and if several of those inscriptions are composed of large letters 40, 50, etc., cm high, one should speak of a hill instead of a cairn. It is also unfortunate that the authors did not see fit to reproduce the photograph of a single cairn.

2 - The phenomenon of thousands and thousands of Ṣafa'itic texts mainly found on cairns is not as strange as it looks. In my opinion, it fits very well into what we know of pre-Islamic Arabia. The South-Arabians, the Thamudaeans and the Liḥyanites had at their disposal a great number of panels in the surrounding mountains where they could record their activities; their sufferings and their joys, and they took full advantage of their mountains. The Ṣafa'ites had the same need but living mostly on the flat country of the Ḥarra, they only had ordinary stones at their disposal and they, too, took full advantage of them and got used to prefer ordinary stones. And most probably to make the reading of their records more accessible to an eventual passing-by traveller, they piled them up, thus creating in their own way centres of records parallel to the mountains found elsewhere in the Peninsula.



CONTRIBUTIONS





1: CHRONOLOGY.

CONTRIBUTIONS ON THE SUBJECT.

Chronological Problems of the Ancient South Arabian Culture

A.F.L. Beeston

Firstly, I should like to thank all those who participated in the discussion which followed this paper, whose questions and remarks have enabled me here to make several necessary clarifications of what I had intended to say. I wish also to observe, that what I said was not uttered in any spirit of cynicism or of purely destructive criticism, but by way of a warning for the future. Possibilities–even sometimes probabilities–are not certainties; and if we forget this basic principle, we are in grave danger of distorting future evidence, which is continually accruing, in order to fit preconceptions which have been treated as certainties instead of what they are, simply possibilities which need constant re-assessment in the light of *all* the evidence available at any given time.

Establishment of the chronology of any culture demands on the one hand an internal chronology of the sequence of events, and on the other hand synchronisms with events external to the culture-area in order to obtain absolute datings. Both types of evidence are regrettably scarce for ancient South Arabia, at any rate for the older phases of the culture.

During the last two and a half centuries or so of the culture, that is to say during the period of the Ḥimyaritic kings known as the Tabābiʻa we do have a series of dated inscriptions which give us an internal framework for the course of events; and correlation of this with absolute datings is partially assisted by some external evidence. In the early years of the reign of the Byzantine emperor Justin (who acceded in 518 A.D.) the Ḥimyarite king is said by an ample literature in Greek, Syriac and Ethiopic to have persecuted the Christians of Najrān, and to have provoked thereby an Ethiopian invasion in which the persecuting king was killed. Now the Ḥiṣn al-Ghurāb inscription, dated in the year 640 of the Ḥimyarite era, contains what seems to be a reference to this invasion; unfortunately, its wording is so obscure that it is difficult to understand precisely which of the events mentioned by the external chroniclers it envisages. Halevy thought that he could pin it down to 525 A.D., which would give us a theoretical point of origin for the era in 115 B.C. Much disucssion has since taken place, including a suggestion by J. Pirenne (made at the International Congress of Orientalists held in Paris recently) that our inscriptions refer not to one single era, but to several slightly different ones; this however need not trouble us greatly, since the discrepancies which she envisages do not amount to more than a year or two on either side. It can also be said that some limited support for the beginning of the era (or at least one of the eras) being in 115 B.C. is afforded by the Ma'rib dam inscription of Abraha, mentioning a plaque which raged in South Arabia in Ḥimyarite year 657, and can be plausibly seen as connected with the plague which smote Byzantium in 542 A.D. Here again, absolute precision cannot be achieved because we cannot know how rapid the spread of the plague was. But in short, datings based on an era beginning in 115 B.C. are reasonably satisfactory, provided that they are given the due cautionary note of *circa*.

The Namāra funerary inscription of Imru' al-Qays, dated 328 A.D., mentioning a defeat inflicted on "the realm of Shammar" does not give us any firmer base for chronology than what has been said above, since the event may have taken place at any time during the reign of Imru' al-Qays (which, according to Ṭabarī, lasted thirty years), and at any time during the reign of the South Arabian king Shammar. The most that can be said is that era datings of the latter are not contradictory to the view that the common Ḥimyarite era began in 115 B.C.

A good deal has been made of Byzantine sources which claim the conversion of an unnamed Ḥimyarite king to Christianity in the mid 4th century A.D. But since no South Arabian texts before the 6th century

A.D. contain any hint of Christianity (something I have tried to show in my later paper),* the claim was either false or over-optimistic; at all events, there is nothing in the internal evidence which would serve as the second member of a synchronism.

There are no texts dated in the first or third century of any era, and only three dated in the second century of some era; these all come from the Radmān area, which is at least adjacent to Ḥimyarite territory. If this era is indeed the common Ḥimyarite era used later, these texts would belong to the middle of the first century A.D. While this is possible, it would be extremely unwise to take it for a firm datum unless further evidence turns up.

In the period immediately preceding the reign of Shammar, Qatabānian texts and those from the Sabaean heartlands are dated only by years of eponymous officials. Although A.G. Lundin has worked out a scheme of the principles of succession in the Sabaean eponymate, and on this basis drawn up a list of eponyms covering several centuries, this again can provide us with only approximate indications for a particular year, since the general principle (of a seven-year tenure of office) was infringed on at least one occasion, and may have been infringed on more. Some possible relative datings can be suggested by the use of his list, but absolute datings are subject to great caution. As for the Qatabānian eponymate, this worked on somewhat different principles from those of Saba', and little is known about them.

Going back into the centuries B.C. we find no dated texts at all except for Minaean references to the reign of such-and-such a king (but without specific mention of a regnal year), and datings by eponyms. From all this it is very difficult to extract any coherent chronological scheme for the internal events. On the external side we have the Giza sarcophagus inscription, dated in "the 22nd year of Ptolemy, son of Ptolemy". This has certainly considerable significance in that it attests Minaean florescence during the Ptolemaic period, but beyond that it can hardly help us chronologically at all. Obviously the Ptolemy concerned cannot have been Ptolemy I (who was not son of Ptolemy), nor Ptolemy IV (who reigned only 18 years); but all the others reigned at least into their 22nd year, and it can have been any one of these. One other attempt at an external synchronism has been made: the Minaean text **RES 3022** contains a reference to a war between ***M-DH-Y*** and Egypt. Current opinion tends to see this as an allusion to the battle of Raphia in 217 B.C. between Ptolemy IV and Antiochus III. There is something to be said for this, in that the palaeography of the text concerned seems to belong to a late rather than an early stage in the whole series of Minaean texts. Yet a precise dating to the battle of Raphia seems somewhat over-confident; there were hostilities between Egypt and the Seleucids in 275 B.C., and undoubtedly minor brushes which, though they do not catch the attention of the historian, would be enough to disrupt the trade routes followed by the authors of the text, who traded to "Egypt, 'Abr-Nahrain (Jordan) and Assyria". Assyria here is of course simply a geographical expression, with no reference to what we call the Assyrian empire; and as a geographical term for the Levantine areas in general it remained current in Roman sources until well into the Christian era, being used by Virgil, Statius and Justin &c.

The Roman expedition to South Arabia under Aelius Gallus in 24 B.C. has left no trace in the South Arabian epigraphic record; and even the name of a South Arabian king mentioned in the Roman record is one of the commonest of all South Arabian royal names, so that it is impossible to identify him with any one attested king in the Sabaean inscriptions.

**Editor:*

See pp. 149-154.

The dating of the earliest epigraphically attested phases of South Arabian culture (it must always be remembered that the earliest inscriptions show a culture already at a high level, and tell us nothing about the way the culture developed) is probably the most acutely disputed question of all. Hommel's views still enjoy considered favour in some quarters – largely because they were presented in the impressive-looking *Handbuch der altarabischen Altertumskunde* (1927), whereas rebuttals have to be extracted from a mass of articles dispersed in a wide variety of journals, apart from Pirenne's *Paléographie des Inscriptions sud-arabes* (1956). However, the pivotal point of the whole of Hommel's chronological scheme is his so-called Assyrian synchronism. Unfortunately this is not a synchronism at all, because it lacks the internal component of a true synchronism. The Assyrian annals record for us a Sabaean king named Itiamra shortly before 600 B.C., and another named Karibailu shortly after, but with a gap of about thirty years in between. Hommel quite unjustifiably assumes that these two kings must be mentioned in the Sabaean inscriptions, and that the second must be the immediate successor of the first; he therefore stated with the utmost confidence that a Krb'l son of Yṯ''mr[1] of our texts was the Assyrian Karibailu. Clearly, his two assumptions will not hold water for a moment; we cannot assume that a king was necessarily the immediate successor of another king reigning 30 years earlier, nor can we assume that either of the kings mentioned by the Assyrian record necessarily figures in the South Arabian texts.

A further point in Hommel's scheme is that he placed a long series of Minaean texts wholly anterior to the earliest Sabaean texts, thus bringing the earliest Minaean inscriptions back to 1000 B.C. or earlier. Here I am obliged to refer to Mr. Sharafaddīn's remarks during the discussion: he said that this view of Hommel's should be accepted on three grounds, one that Minaean towns are older than Sabaean ones, secondly that the Minaean deities are older than the Sabaean ones, and thirdly that the phraseology of the Minaean texts is earlier than that of the Sabaean ones. With all due respect, I must totally deny all these statements. No stratigraphic excavations have been conducted at any Minaean or Sabaean site, and without these it is utterly impossible to affirm that the Minaean sites are earlier. Secondly, there is nothing whatever to suggest that the divine names occurring in the Minaean texts are earlier than the Sabaean ones; 'Athtar, mentioned particularly by Mr. Sharafaddīn, is not distinctively Minaean, but was worshipped universally throughout the South Arabian culture area, in all periods down to the beginning of the 4th century A.D. (and even later). As for the phraseology, one must remember that Minaean and Sabaean are two different languages, not chronologically different phases of one language. Nothing suggests that Minaean was linguistically earlier than Sabaean, and in one particular, that of the forms of the numerals, the Minaean forms are shared by all the Sabaean texts down to the beginning of the Christian era, and it is only thereafter that newer forms begin to appear.

Pirenne has the credit of being the first to exploit systematically the paleographic evidence of the Minaean texts and the earlier Sabaean and Qatabanian ones; though in fairness to Hommel it must be said that he did not have the possibility of exploiting this evidence, because he was acquainted with the great majority of the Minaean texts only in hand copies made by Halevy which give no idea of the true palaeographic characteristics. Pirenne's researches, based on photographs, produce a relative chronology which shows the oldest Minaean texts as slightly younger than the oldest Sabaean ones. However, it is doubtful whether this relative chronology can furnish precise datings, since we cannot easily judge the pace of palaeographic development – there may have been alternating phases of rapid and slow evolution.

The really contentious issue, however, is not so much the relative chronology as whether we can achieve any approximate (though certainly not precise) absolute dating for the beginning of our epigraphic record. Here Pirenne has produced arguments which I personally find plausible, though not of course so conclusive as to override any possible future archaeological evidence as may turn up. One of these arguments is that the building technique used in constructions which bear our earliest Sabaean inscriptions show features which did not appear in other parts of the Near East until the 5th century B.C. A second is that Greek inscriptions of the 5th century show a remarkable stylistic development of the use of careful propor-

tional canons extremely unlike anything seen earlier either in Greek or in Semitic inscriptions, and precisely the same type of stylistic development appears in the earliest substantial body of South Arabian texts, contrasting in this respect with the tiny handful of very archaic inscriptions preceding that body. Now if any archaeologist is confronted with a technical or stylistic development which is closely similar in two adjacent culture areas linked by strong trade connections, he would unhesitatingly say that the developments in the two areas cannot be widely separated in time. This is a fundamental principle in archaeology, and it would be rash for students of ancient South Arabia to disregard it.

To sum up. No site has yet yielded stratigraphic evidence which can be securely correlated with epigraphic data; only Hureiḍa in the Wadi Ḥaḍramawt and Timna' and Ḥajar bin Ḥumeid in the Wadi Bayhān have received stratigraphic handling, and the results from those sites are by themselves inadequate for a really secure absolute dating. It was precisely for that reason that G. Caton Thompson, a thoroughly experienced archaeologist, abstained from proposing firm absolute datings for the Ḥureiḍa site, saying that much more eivdence, with comparative material, would be needed. For the most part, therefore, we are driven to reliance on palaeography for a relative chronology, aided by a minimal amount of other evidence for absolute chronology. On this basis we can set up a very broad framework of periodization; but specific datings (as one would in any case have expected) become less and less secure as we go backwards in time. For the mid-4th to the mid-6th century A.D. we can achieve dates which are, or appear to be, reasonably secure to within a few years; from the mid-3rd to the mid-4th century A.D. the margin of error increases to about a decade either way; earlier than that the problems increase, and indeed the first century A.D. is a particularly disputable one. In the pre-Christian period we would be wise for the present to content ourselves with century datings.

It can of course be hoped that as time goes on fresh evidence will accumulate and contribute to solving some of the problems mentioned above. But as I remarked at the beginning, what is specially important is that any such new evidence should not be distorted by preconceptions arising from mistaking a possibility for a certainty.

Note

(1) *CIS* iv, 637 & c.

Nabataean Pottery: A Typological and Chronological Framework

K. Schmitt-Korte

Introduction

The discovery of Nabataean pottery in the spring of 1929 at Petra by G. Horsfield and A. Con…
…way is now 50 years … old. This anniversary presents us with an excellent opportunity to summarize what is known (or still unknown) about this group of ceramics after half a century of research.

No doubt, the … most known type of Nabataean pottery is the famous painted 'egg-shell ware'. However, the Nabataeans made … also pottery other than this. Altogether, about ten different types of ceramic wares, ranging from the 1st … century B.C. to the 3rd or maybe 4th century A.D., can now be considered as Nabataean. This fact is … not yet generally acknowledged and raises the question "Which pottery is Nabataean?".

History and Termin…ology

In the history … of the Nabataeans almost nothing is known before the 4th century and very little down to the middle of the 2nd … century B.C. During this period they were already settled at Petra, but obviously no remains have as yet b… een found. This is the time when they were still nomadic Bedouin tribes, who produced no pottery of their own … . Since about 170 B.C. Nabataean kings are mentioned in ancient records and their history becomes know… n in more detail. In 85 B.C. their king Aretas III gained control over the Hellenized city of Damascus, an ev… ent which marked a turning point in their history. The Nabataeans controlled the spice and incense trade fr… om South Arabia to the Mediterranean Sea and accumulated great wealth. During the 1st century B.C. th… ey began major construction works (temples, houses and rock tombs), started to mint coins and began to p… roduce pottery. This century and the next saw them at the peak of their wealth and power. During this peri… od they produced the most sophisticated pottery. Around 70/80 A.D. their trade declined. To balance t… his they introduced elaborate agricultural methods and became more rural. Their pottery now changed i… nto somewhat standardized types. In 106 A.D. the kingdom was conquered by the Romans. The Nabatae… ans as a nation continued to exist but their cultural achievements were gradually superseded by Roman ar… t. In religious life, however, traditions survived until the beginning of the Byzantine era (ca. 300 A.D.), whe… n the Nabataeans appear to have accepted Christianity. By doing so they lost their cultural heritage and t… heir identity. Their pottery, during these last centuries, is quite monotonous and merges more and m… ore with other contemporary ceramics.

In previous arc… haeological research there has been a general tendency to call something only "Nabataean" if it falls into t… he classical period of the 1st century B.C. or A.D. and not to apply this term to anything after the fall of the N… abataean kingdom. This restricted view might be justifiable in the political field but it would be quite out … of place in the cultural sphere, where things last much longer until they change or cease to exist.

The various pol… itical and cultural phases in the history of the Nabataeans are not synchronous. The following table is an at… tempted correlation for the pottery over the 500 years under discussion.

Date	Political Status of Nabataea	Cultural phases of Pottery
4th cent. B.C.	Federation of Tribes	No Nabataean Pottery
3rd cent. B.C.		
2nd cent. B.C.	Nabataean Kingdom	
1st cent. B.C.		Early Nabataean Pottery
1st cent. A.D.		Middle (Classical) Pottery
2nd cent. A.D.	Roman Province	Late Nabataean Pottery
3rd cent. A.D.		
4th cent. A.D.	Byzantine Period	Post-Nabataean (Byzantine) Pottery

Fig. 29: Terminology proposed for Nabataean pottery.

The general phases of Nabataean art and architecture are different from the pottery phases but it would lead too far in the present context to deal with them as well.(1) Whereas the beginning of Nabataean pottery in the first century B.C. is quite well attested, its end is still not properly established. In older literature such expressions as 'Nabataean-Roman' or 'Nabataean-Byzantine' are met. The reason for this vague terminology is the fact that we are still unable to separate the late Nabataean pottery on the one hand from the general Roman and Byzantine wares on the other. It would in all cases of doubt be much clearer to employ terms like 'Nabataean pottery of the . . . century A.D.' for the problematic later period.

In the present study 'Nabataean' is used consistently as a cultural term. It is intended to designate pottery which can be directly related to the Nabataeans as an ethnic entity. The linkage might be through artistic tradition (shapes and painting), context (burials, funerary meals) or by being specific to Nabataean sites.

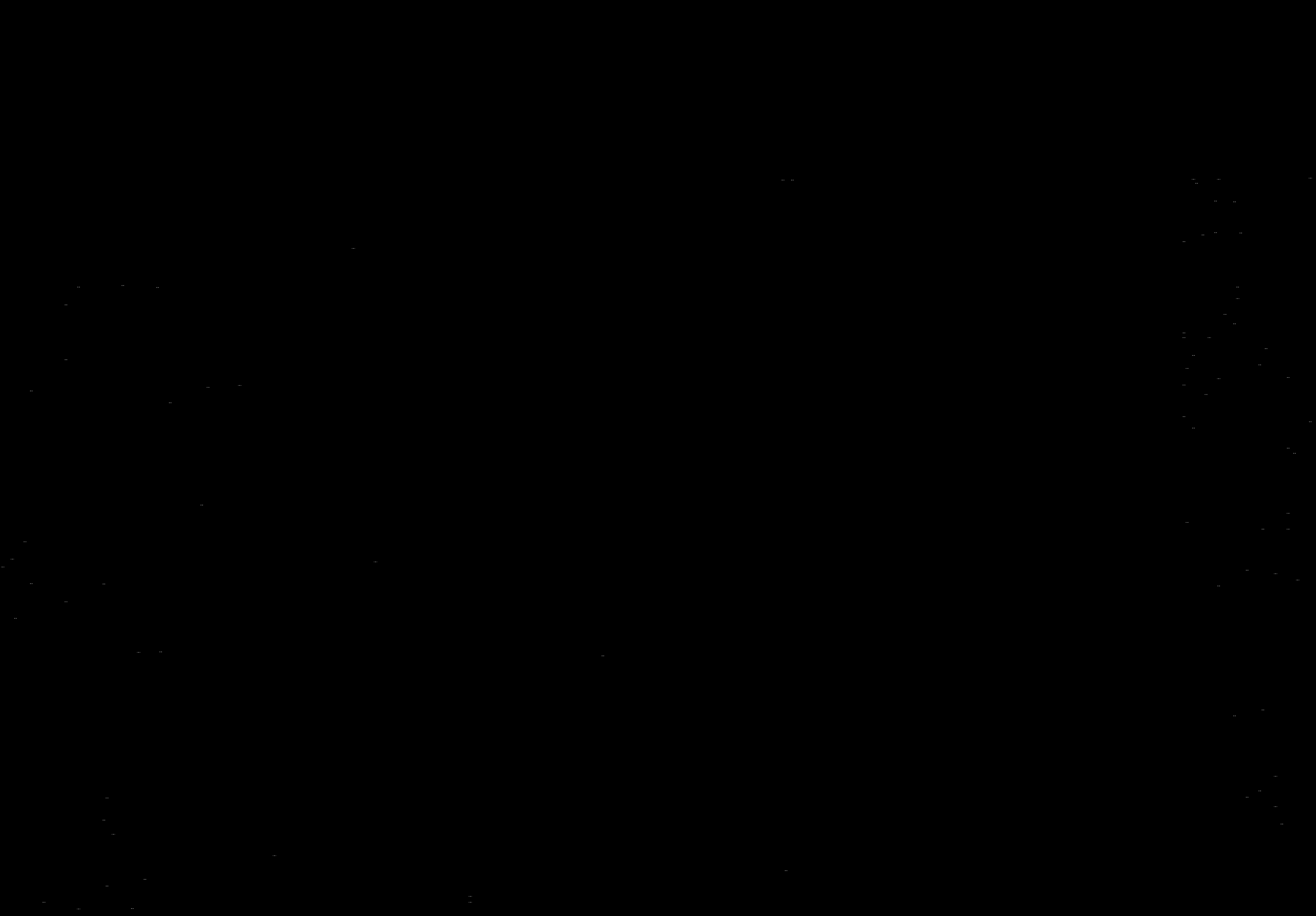
The study of Nabataean pottery as a whole is still in the comparative beginnings. Some principal works dating or describing this pottery are the publications of Horsfield/Conway,(2) Glueck,(3) Murray,(4) Harding,(5) Hammond,(6) Parr,(7) Negev,(8) Schmitt-Korte,(9) Tushingham(10) and Zayadine.(11)

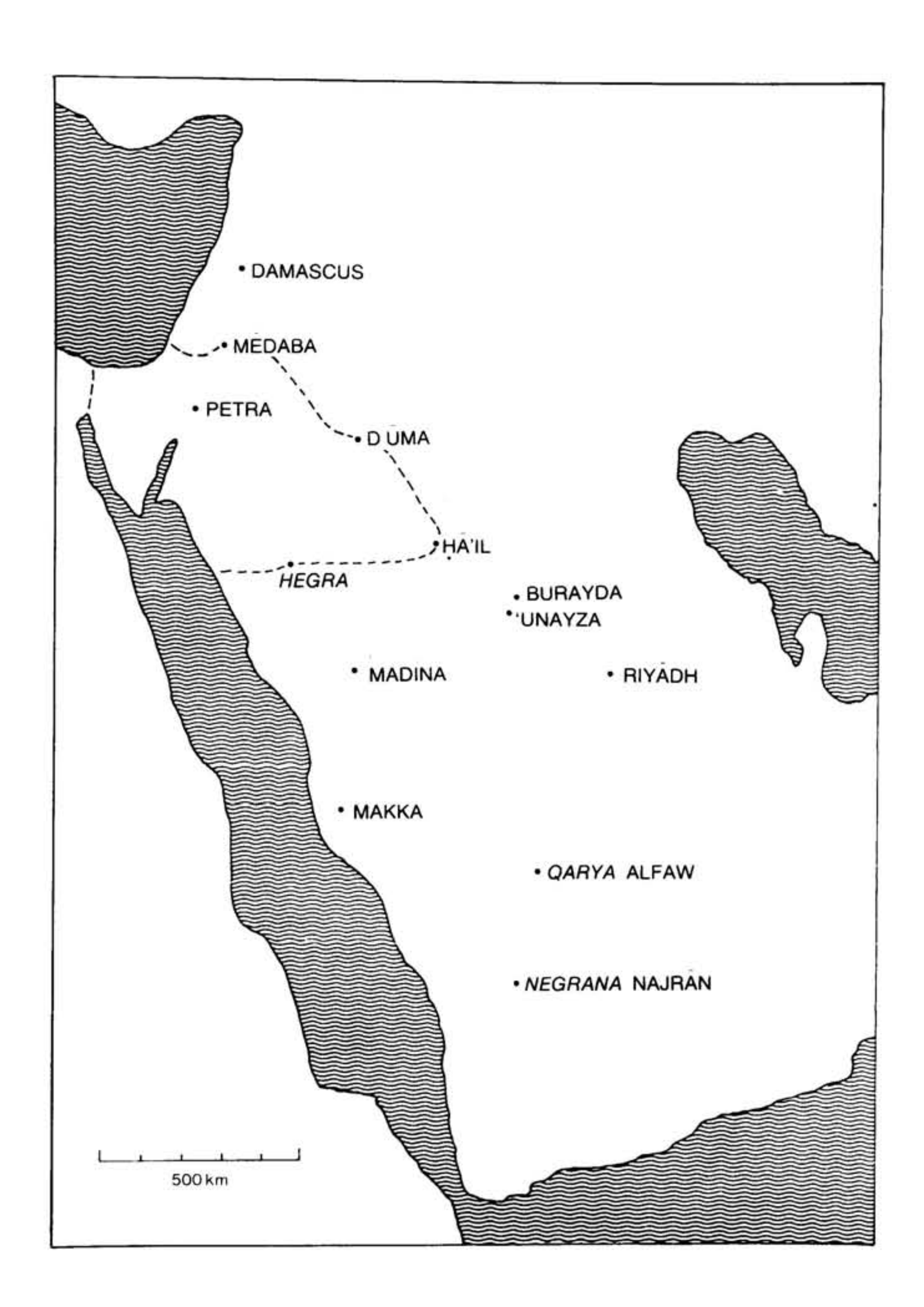
Distribution

The geographical distribution of Nabataean pottery does not coincide with the territory that was once under Nabataean influence, nor does its occurrence agree with the period of Nabataean political power.

The geographical distribution was in the outline determined by N. Glueck in 1934-1962 when he identified about 700 sites east and west of the Wādī 'Araba as Nabataean by using the pottery as evidence. Glueck established the so-called 'Mēdaba Line' as the northern limit.

When taking the painted ware as a hallmark (as N. Glueck did) the area of distribution can be broadly indicated by a line running from Gaza through Mēdaba to Dūma (al-Jawf) and Ḥā'il in the desert, from there to *Hegra* (Madā'in Ṣāliḥ) and all along the shores of the Red Sea to *Clysma* (Suez) and back to the Mediterranean Sea (Map 5). From this vast area only the region on both sides of the Wādī 'Araba has been surveyed in detail.





Map 6: **The distribution of Nabataean pottery and the question of its southern limit.**

The country north of 'Ammān and the Ḥawrān region is devoid of Nabataean pottery. The reasons for this phenomen are somewhat speculative. Towards Petra the northernmost point with regular finds is the Mēdaba area. The discovery of Nabataean pottery in 'Ammān and a few other places represents purely isolated finds. At Petra itself the amount of Nabataean pottery is almost incredible, sand layers several metres thick are strewn with sherds which must come from hundreds of thousands of different vessels. No other place has nearly as many sherds. The whole country of Edom is full of Nabataean sites which were mapped by Glueck.

In the Negev district the ancient towns of *Oboda, Mampsis, Sobata, Nessana, Rehoboth* and *Elusa*(12) have Nabataean pottery and hundreds of smaller sites yielded fragments of this ware as well.

Nabataean pottery has been reported from all principal parts of the Sinai Peninsula, some prominent points are the Qusseima region,(13) Pharan(14) and Kassarwit (near *Pelusium*).(15) A statement from Strabo indicates that the entire Sinai was under Nabataean control at his time.(16)

To the South our knowledge has been considerably extended during recent years by the archaeological survey of Saudi Arabia. Nabataean pottery, already reported from Hegra (Madā'in Ṣāliḥ)(17) is also known from Ḥā'il,(18) Dūma(19) and some other places, but the whole question of its southern limit is still problematical. Painted Nabataean ware has been discovered by King Saud University in its excavations as far afield as al-Faw (Qaryat),(20) an ancient trading centre and caravan station over 700 km south of Riyadh on the way to Nagran (Najrān) (Map 5). Such a discovery, in a region which was certainly not part of the proper Nabataean realm, is really striking. The sherds, on display in Riyadh, look identical with the pottery from Petra. Why the Nabataeans carried this fragile material over 1500 km from their capital (or whether it was also made in the south) remains obscured.* Trade or religious customs, maybe even pure affection, are possible explanations. The Nabataeans may have had a custom of carrying such vessels with them (for prayer or offerings?) and the finds in remote parts of the Sinai seem to reinforce this assumption. If this is so, then it should also be expected at other sites with presumable Nabataean contacts such as the oasis of 'Unayza and Burayda or maybe even at Makka and Madina. It would, on the other hand, make its absence in Syria even more difficult to explain.

The production centres are not yet known. The first and only Nabataean potter's workshop discovered so far is at Oboda. It was found by A. Negev in 19[illegible] and published by him.(21) There can, however, be no doubt that Petra was a chief centre and must have had sizeable factories to provide the population, but they are still under the sand waiting to be uncovered.

Origin

Nabataean pottery is a phenomenon which occurs almost out of nothing without discernible antecedents. The present writer and also P.J. Parr have pointed to the possibility that its introduction might have been a deliberate act of cultural prestige at the time when the Nabataeans opened themselves to outside influence under Aretas III around 80 B.C.(22)

---

*Editor:
It need not be the Nabataeans who carried their pottery there.

The motifs of decoration show Hellenistic and Roman affiliations.[23] Notably the motifs and colouring have parallels in the pottery from the Hellenistic cemetery of Hadra in Alexandria.[24] The rouletting on some vessels recalls the treatment of Roman *Terra Sigillata*.[25] A Parthian influence has been noted on the shape of bowls.[26]

The influence which Nabataean pottery could have exercised onto other ceramics (*e.g.* Byzantine or Islamic) might be conceivable but cannot be demonstrated in a convincing way.

The whole matter of the influence of Hellenistic-Roman pottery on Nabataean ware and in turn its influence on other pottery would substantially require more research.

Characteristics

The chief characteristic of Nabataean pottery is the type of clay, usually brick-red after firing. This colour is entirely due to the nature of its substance, namely the chemical composition of clay (iron content) as found in particular places. When using this clay the red colour comes automatically by proper firing, though this is not absolutely inevitable. Shortage of oxygen, too low firing temperature or too short exposure lead to a black core which can be seen in many sherds found at Petra.

But not all Nabataean pottery is red. When using different types of clay a grey or brownish pottery will result. Certain types of oil lamps of which clay fires ochre, buff, grey or brownish are undisputably Nabataean because they bear Nabataean inscriptions at the bottom. At least in Mampsis whole series of vessels of grey pottery were found which A. Negev proved to be Nabataean.[27] In another context he also mentions a "green ware" as Nabataean.[28] The availability of various clays as raw material, the discovery, utilisation and exhaustion of the pits and the processing conditions in the kiln play the decisive role and will require more research to define which of the unpainted types are really 'Nabataean'.

The most characteristic ware that can be safely called Nabataean are those exceedingly thin vessels (1 - 4 mm thickness) in brick-red to brownish clay which are covered with delicately painted stylized floral motifs in red-brown to black paint; in other words the classical painted ware (PL. 44b). In the literature this is often referred to as 'egg-shell ware', a term which is attractive but somewhat exaggerated because a real eggshell has a thickness of about 0.25 mm. It has been said so rightly that without the painted variety in Nabataean pottery hundreds of sites would have been dismissed as Roman. In fact the discovery of an indigenous pottery proved a decisive step without which a large part of the whole Nabataean culture would have remained unidentifiable.

Other wares range from 'near-certain' to 'suspected' Nabataean, their texture varying from thin and extremely fine wares with a 'metallic' touch to coarse grey or brown wares with gritty inclusions.

A selection of shapes is given in Fig. 30.

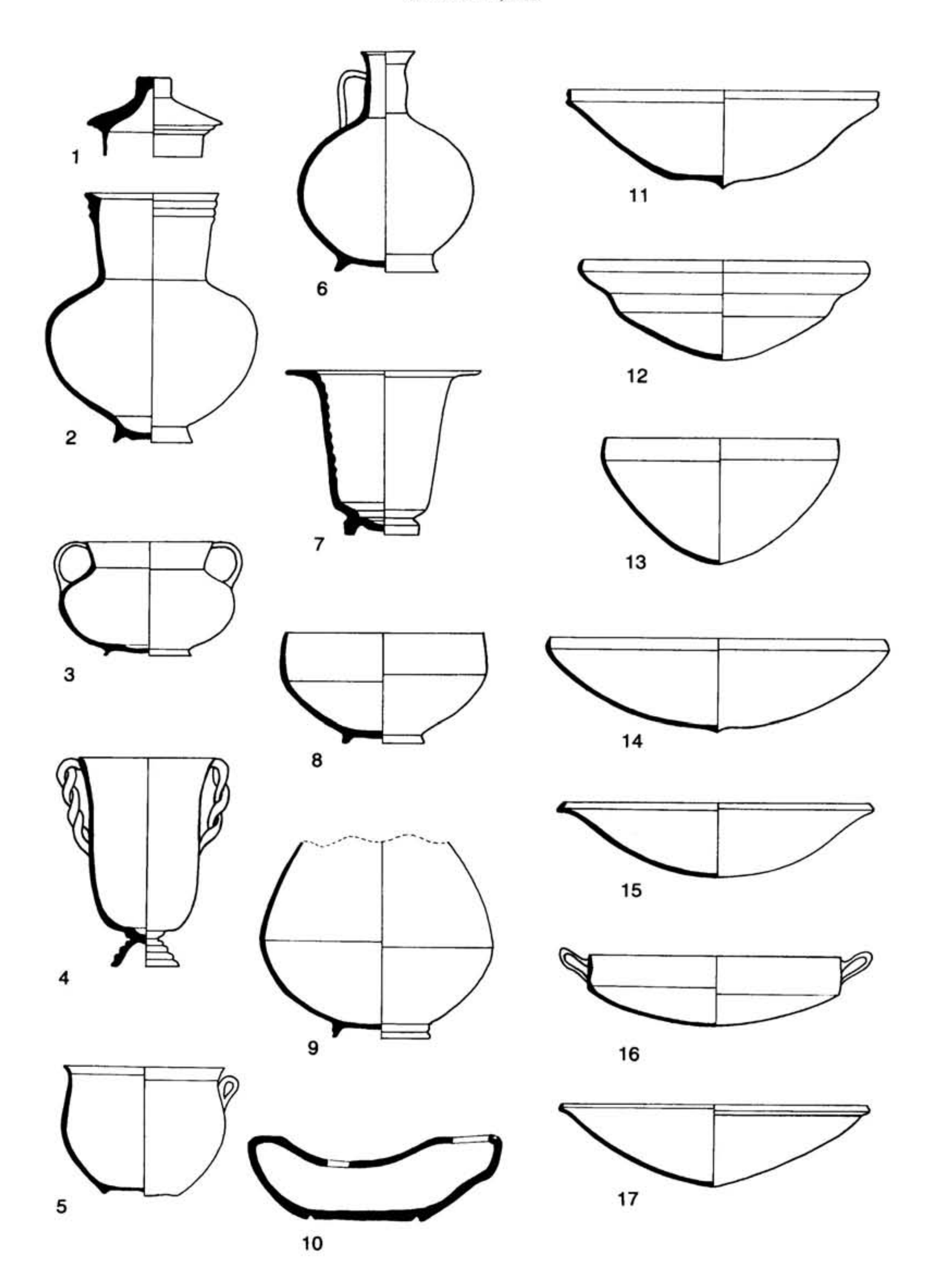


Fig. 30: Selected shapes of Nabataean pottery.

Painted Ware

Decoration

The fabric of the painted ware is usually brick-red to brownish. The paint itself varies from red-brown to blackish, other colours do not occur. This combination of brown and red yields vessels with very little colour contrast, their elegance resting solely on form, fineness and finish. The principal shapes of the painted ware are

- bowls
- cups and beakers
- jars and juglets

Bowls vary from shallow flat to hemispherical shapes. The decoration of bowls covers the interior face. Some slim beakers are also decorated on the interior, whereas all other shapes received the painting on the exterior. There are only 2 single sherds known with painting on both sides. The flat bowls of 10-25 cm diameter appear to constitute the majority of all painted ware (perhaps 80 - 90%). Cups and beakers are exceedingly rich in variation but small in number, and painted jars or juglets are rare. Perhaps the most distinct shape is a conical cup with wide flaring rim which comes in different sizes, both painted and unpainted.

All shapes are wheel-made. Shallow bowls were manufactured by a combined process of wheel-throwing and moulding.

Besides a few patterns of geometric origin, decoration of the painted ware is dominated by floral motifs some being identifiable as pomegranates, figs, olives, almonds, dates or grapes, while others constitute palmettes, rosettes, daffodils or leaves of ivy and of mimosa (?). Very few specimens have been found with animal representations: pigeon, ibex (?) and an unidentified insect.

The only motif with a traceable development so far is the pomegranate design. It starts with quite a naturalistic representation and changes more and more to a final form which is almost unrecognizable.

Motifs can be classified into five major groups Fig. 31:[29]

- naturalistic tendrils with geometric lines
- needle patterns
- dots, eyes and trellis patterns
- stylized leaves, fruits and plants
- palmettes combined with double or triple cones

These cover about 95% or more of the motifs found, and each group is quite well defined.

The basic discovery in my typological studies of the painted ware was the observation made in 1969 that the decoration as a whole follows distinct geometrical rules dividing the surface into a defined number of zones.[30] The obvious method of painting the motifs at random over the surface has not been used by the Nabataeans.

These pattern arrangements can be divided into nine groups (Figs. 32, 33):

Linear patterns:

- dual or diagonal arrangement
- triple arrangement
- quadruple arrangement (extremely rare)

- radiate arrangement (5 - 8 fold)
- reticulated arrangement (network design)

Circular patterns:

- concentric arrangement
- vortex-like arrangement

Irregular patterns:

- asymmetrical arrangement
- combinated arrangement (*e.g.* crescent-like)

Most characteristic of all types are bowls with the triple arrangement; with a design of palmettes and

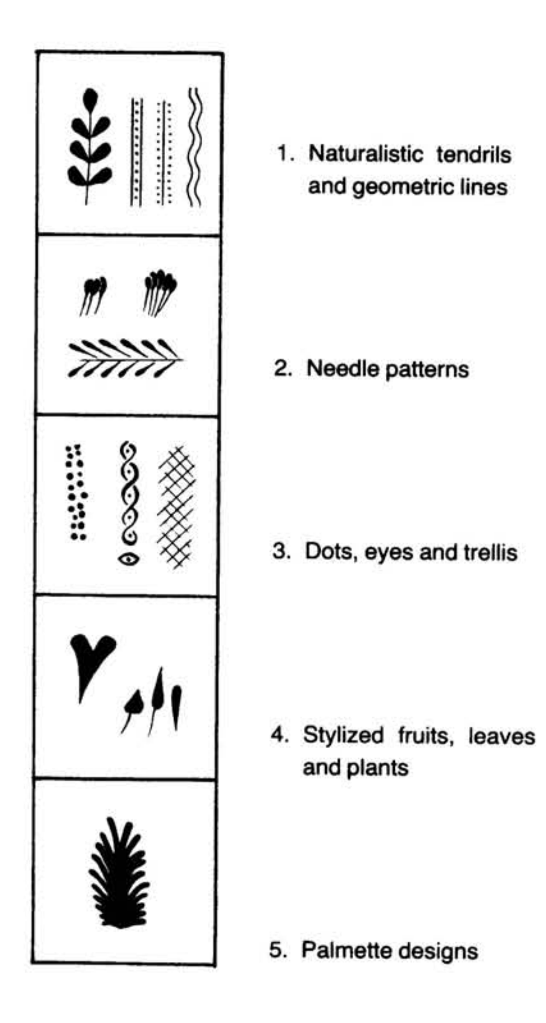


Fig. 31: The five motif groups.

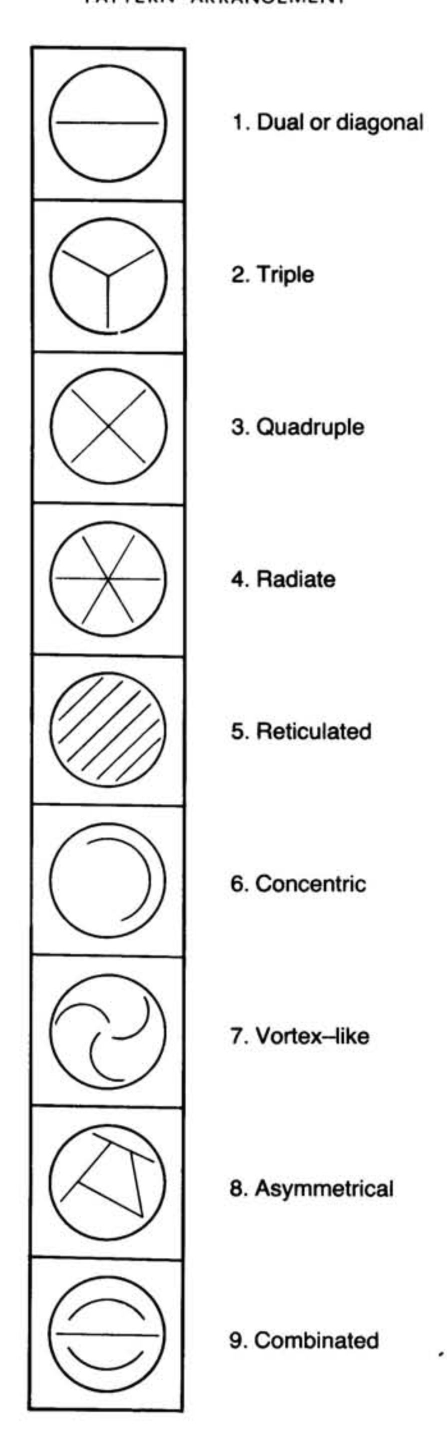


Fig. 32: The nine types of pattern arrangement.

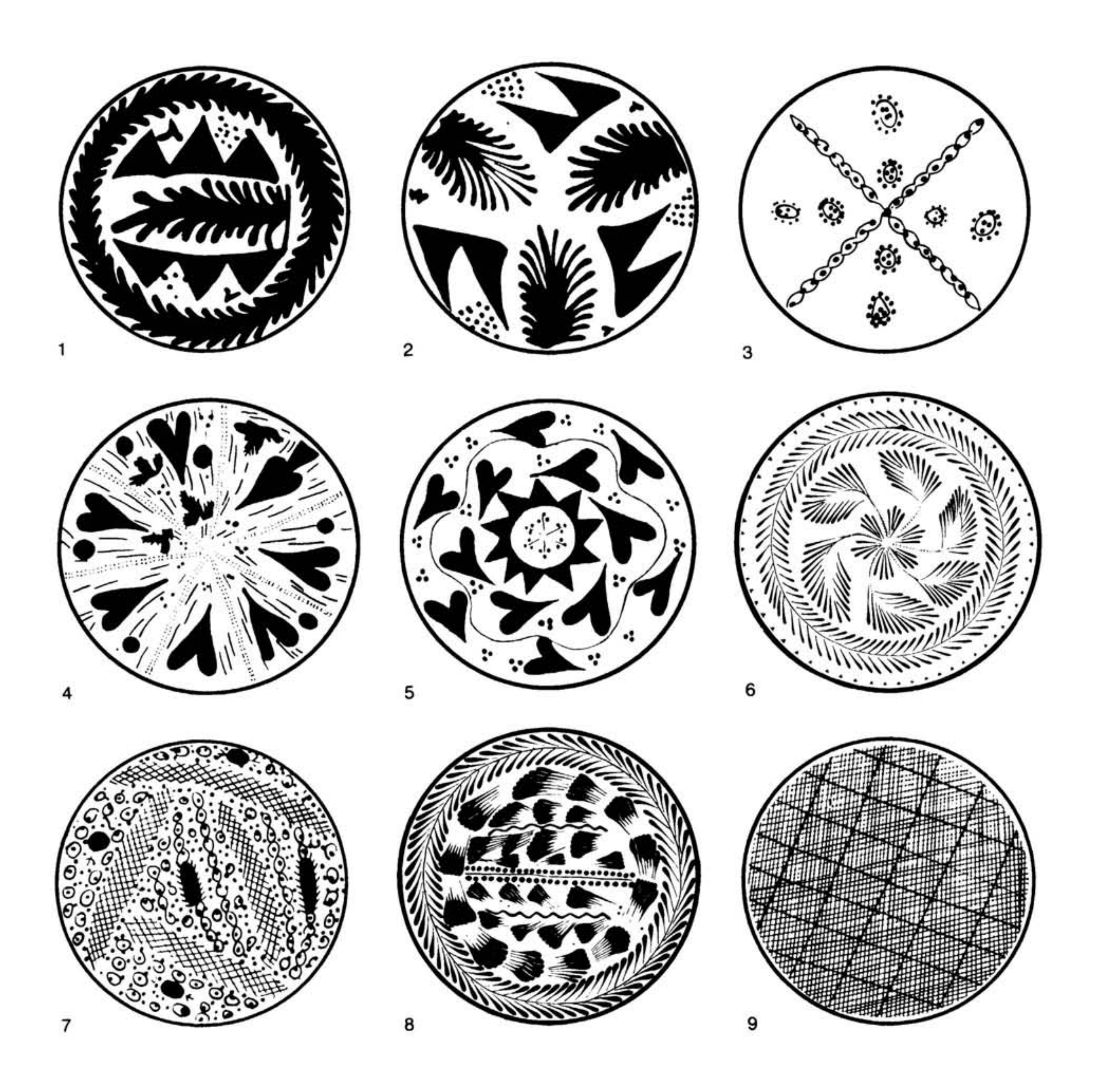


Fig. 33: The combination of motif group and pattern arrangement permits a complete classification of Nabataean painted bowls.

at one point, all broken into countless sherds but still coming from complete pieces in one location. Pottery deposited inside tombs would have remained intact and would have been subjected only to the action of time and age.

It seems that unpainted ware was more in use for domestic purposes. But the whole question of how Nabataeans utilized their pottery still requires research.

Excavations

Since the discovery of painted Nabataean pottery fifty years ago a fair number of archaeological excavations have been carried out on Nabataean sites. But our knowledge is still incomplete. Several excavators failed to publish their results on pottery altogether or their dating is extremely vague and hidden in the texts. As an example, J.T. Colin Baly in the *Excavations at Nessana*(31) just puts the Nabataean pottery down as 'pre-Byzantine'. He had realised that Nabataeans made more than one type of pottery but he could not bring them into a system.

The principal work still is that of George and Agnes Horsfield of 1941, whose concluding chapter, unfortunately, could not appear. The first twenty-five years of excavation (up to 1955) succeeded in establishing a very broad range only for the date of Nabataean pottery, namely that

- painted ware is a product of the 1st century B.C./A.D.
- unpainted ware lasted longer, and that its end is variously dated to the 2nd, 3rd or 4th century A.D.

Since 1955 systematic archaeological work was initiated but the final reports of the most important excavations are still not available to the scientific world.

The principal results obtained by about twenty-five seasons of excavation,(32) of both painted and unpainted Nabataean pottery, have been analyzed and are summarized below.

Chronology of Painted Ware

The table shows a concentration of dates from the 1st century B.C. to the 2nd century A.D., whereas the later phase looks unsettled. It is therefore best to make an analysis of the excavations in Petra (P.J. Parr) and in Oboda/Mampsis (A. Negev) in more detail. Both scholars have made their principal results available in the form of interim reports.

Petra

In 1962 Parr and Bennett(33) published their fundamental discovery that the colour variation of the painted ware has chronological significance and goes alongside with variations in its fabric. They distinguish three groups:

Early Group: appears during the first century B.C. The floral and leaf patterns are applied in a light red-brown paint to the pink surface of the rather creamy clay.

Middle Group: covers most of the first century A.D. and part of the second. Designs become less naturalistic and more stylized, the paint tending to be darker and the pottery itself thinner and somewhat metallic.

Excavation		Dating (Century)				
		1.B.C.	*1.A.D.*	*2.A.D.*	*3.A.D.*	*4.A.D.*
PETRA						
Horsfield, Conway	(1929-1936)	x	x	x	x	(x)
Albright, Cleveland	(1934)	(x)	x	x	x	
Murray	(1937)		x	x		
Kirkbride	(1955-1956)		x			
Parr, Bennett	(1958-1965)	x	x	x	x	?
Hammond	(1961-1962)		x	x		
Murshed Khadija	(1962-1978)		*pottery unpublished*			
Zayadine	(1973)	x	x	x		
KH. ADER						
Cleveland	(1933)		x	x	x	x
IRAM						
Savignac, Horsfield	(1934)		*pottery unpublished*			
Kirkbride	(1959)		*pottery unpublished*			
KH. TANNUR						
Glueck	(1937)	x	x	x		
AMMAN						
Harding	(1943)	x	x			
DIBON						
Winnett	(1950-1951)		*pottery undated*			
Reed	(1952)	x	x	x	x	x
Tushingham	(1952-1955)		x	x		
DHAT RAS						
Zayadine	(1968)		x			
SADAQAH						
Kurdi	(1971)		x			
SOBATA						
Colt, Crowfoot	(1935)		x	x		
NESSANA						
Colt, Baly	(1935-1937)		*pottery undated*			
OBODA						
Negev	(1959-1976)	x	x		x	
MAMPSIS						
Negev	(1965-1967)	x	x	x	x	

Fig. 34: The dating of Nabataean pottery from excavations (schematic outline).

Late Group: probably belongs to the third century A.D. Decoration is even more conventionalized, and the now almost black paint is applied to the vessels in a heavy-handed fashion.

In 1970 Parr(34) substantiated this further and demonstrated that the naturalistic leaves and the needle patterns belong to the Early Group (Pl. 47a). The palmettes and double-cones fall into the Middle Period, and the more crude palmette desgins in black paint are from the Late Group (Pl. 47b). But Parr emphasizes that 'the later history of the Nabataean painted pottery remains obscure'. In his most recent article,(35) he asserts 'that it was made as late as the 3rd or even the 4th century A.D. but this cannot yet be demonstrated.'

Excavations by F. Zayadine in Petra supplied additional proof for the chronology of the painted pottery in the 1st. century B.C. to the 2nd. century A.D.,(36) the finds of unpainted ware from the early Byzantine period were however less specific.

To sum up: P.J. Parr sees the painted Nabataean ware as a product from the 1st century B.C. to the 3rd/4th century A.D.

Oboda and Mampsis

The discovery of Nabataean pottery in this region was made at different periods and only permitted to build up a chronology gradually, step by step.

In 1959 the first Nabataean potter's workshop was discovered by A. Negev in Oboda. Its production period was dated from *ca.* 20 B.C. to 50/80 A.D.(37) Then a Nabataean cemetery was excavated at Mampsis with various types of pottery of which the latest painted ware extended up to ca. 150 A.D.(38) He reported the Nabataean painted ware as a whole from the 1st century B.C. to the middle of the 2nd century A.D. and narrowed the production period of the best classical ware down to the reign of Aretas IV.

For a number of years it looked as if there was a discrepancy of at least 150 years between these finds and those at Petra. Subsequent excavations in Mampsis(39) and new finds at Oboda in 1976 (still unpublished)(40) changed the picture. The combined evidence of almost 20 years of excavations at Oboda and Mampsis now presents, according to A. Negev, the following picture:

Phase I: Last quarter of the 1st century B.C. to about the middle of the 1st century A.D. (*i.e., ca.* 25 B.C. to about 50 A.D.); thus, in principle, the time of Aretas IV.

During this period the classical painted ware at Oboda and Mampsis predominantly shows needle patterns in the most delicate variations alongside with trellis and floral motifs.

Phase II: Last quarter of the 1st century (*i.e., ca.* 80 A.D.) to 150/200 A.D.

At Mampsis palmette designs occur, painted boldly and monotonously in dual or triple arrangement. Oboda yielded no finds of this period.

Phase III: 3rd century A.D.

At Mampsis the ware with bold palmette designs continued to be made. Recently, the same material was also found at Oboda.

In Mampsis it was concluded that the old Nabataean cemeteries had been given up at the end of the 3rd century A.D. when the Nabataeans were converted to Christianity. The cessation of their inherited traditions seems to provide us with the end of Nabataean cultural achievements (except writing) at the eve of the Byzantine era.

These results from Oboda and Mampsis can now be supplemented to the work at Petra. For convenience the results are put together in the following table.

PETRA (P.J. Parr)	**OBODA/MAMPSIS (A. Negev)**
Early Group: 1st century B.C.	*Phase I:* 25 B.C. to 50 A.D.
Middle Group: 1st/2nd century A.D.	*Phase II:* 80 A.D. to 150/200 A.D.
Late Group: 3rd/4th (?) century A.D.	*Phase III:* 3rd century A.D.

Fig. 35: Chronology of Nabataean painted pottery.

The comparison of both parts of the table shows that the difference in dating painted ware has shrunk to only about fifty years at either end. This excellent agreement between the results in the two main regions of former Nabataea may provide in furture a much firmer ground for the entire archaeology of this period and open up a new chapter in Nabataean research.

Ultimately one would hope that the chronology of painted ware could be subdivided into decades. But it is very doubtful whether this can be achieved by the present generation of archaeologists.

Unpainted Pottery

The group of unpainted pottery as a whole presents many problems because it received so little attention in the past. Its classification as well as its chronology are still uncertain and scattered in literature. It may therefore seen adequate to try and summarize present knowledge of it.

Fine Red Wares

The fine unpainted red ware (Pl. 48a, b) agrees in all technical and artistic features with the well-known classical painted ware. Although it was often considered 'Roman' there is no justified reason to doubt that it was contemporary with the painted group. In a Nabataean tomb at 'Ammān flasks (*unguentaria*) of the hard plain ware were found side by side with painted pottery.(41) Other excavations gave the same result. Also technical evidence (*e.g.* microscopic examination) reveals an identical structure for both groups.

The unpainted pottery can be subdivided into several groups according to the type of surface texture. It can be completely plain.(42) The simplest form of decoration is ribbing and giving it a wavy surface. Both techniques are done during the shaping of a vessel whereas other techniques, like coating or burnishing, are applied after the vessel has been made.

Ribbing(43) and waving(44) are found on unguentaria, jars, juglets and cooking pots. A certain type of vase is particularly noteable for the wavy surface.(45)

Coating is done by pouring a 'clay cream' onto the vessel to make it smooth. After firing the appearance is dull and mat. This technique is normally confined to jars where it covers the upper two thirds. Some-

times traces of the liquid coating running down the vessel have been observed. This clay layer is also found as an 'undercoat' on painted jars where it seems to have smoothed the surface prior to painting.

Another decoration technique is the coating with a yellowish slip which may cover the whole vessel (jars) or only the lip (bowls).

Burnishing is a sort of surface polishing which gives a glossy appearance, obviously intended to imitate a *Terra Sigillata* finish. It is relatively rare and seems confined to jars.

It would be interesting to evaluate these decoration techniques in more detail but this would lead too far here.

Within the plain ware bowls have a feature that is worth noting. Painted specimens as a rule rarely have a stand, whereas plain ones always do. A possible explanation for this is that the painted variety was in [illegible]

[illegible]

Coarse Red and Brownish Wares

[illegible]

Grey and Greenish Ware

The excavations at Oboda and Mampsis brought to light a whole group of pottery not previously known to be Nabataean. A. Negev describes them as grey, greenish buff or yellowish vessels, sometimes with grey grits.[53] Their shapes are similar to those of the coarse red/brown ware, but the type of clay is different.

The grey ware is frequent in the Negev,[54]quite rare in Petra[55] and only a few pieces have been found at Dibon.[56] The most frequent shape is a shallow bowl with a ring base. Another example of this ware is the neck of a jar with combed decoration from Petra (Fig. 36).

A. Negev dates this group from Phase I to Phase III, *i.e.* from *ca.* 80 A.D. to the 3rd century.

At Mampsis a Nabataean cemetery was found which had been in use from the 1st century B.C./A.D. to about the beginning of the 4th century A.D. It yielded several hundred pottery vessels of different types, amongst them a small group of bowls, cups, juglets and pots which A. Negev describes as 'Nabataean Green Ware'.[57] Jar fragments of this ware were also found in Petra by M.A. Murray, who describes them as 'pale green' (Fig. 36).[58] They are very similar to the Grey Ware but have a slight greenish tinge in their appearance (no coating). It is difficult to say at this stage whether these pieces form a separate group or

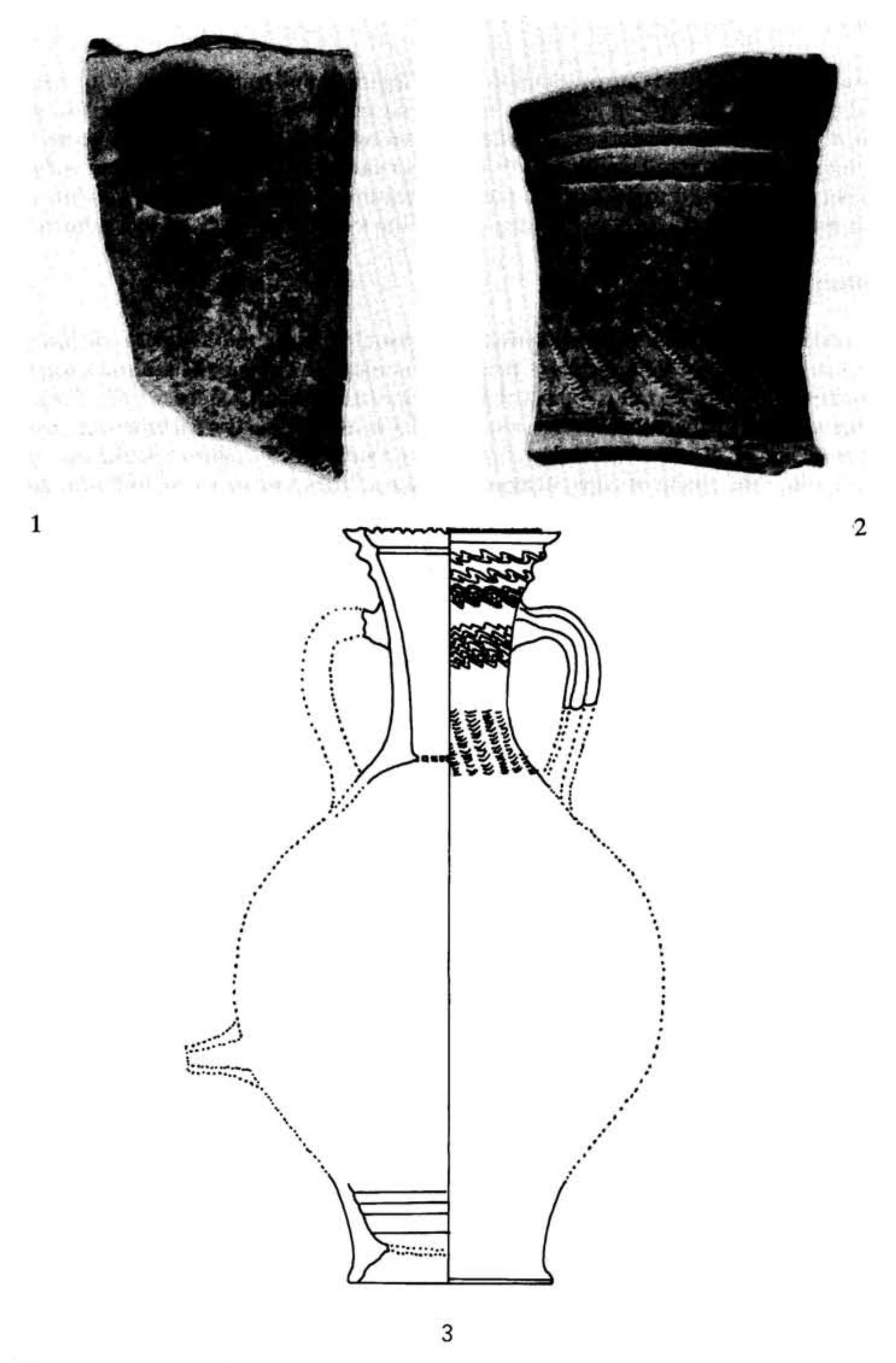


Fig. 36: Grey and greenish pottery with combed decoration: no. 1 grey ware from Petra, no. 2 greenish ware from Oboda, no. 3 pale green jar from Petra (1st./3rd. cent. A.D.).

Figurines

The Nabataeans sustained a large production of clay figurines and statuettes (Pl. 50b). Generally made from brick-red clay, some are also in grey clay which is an important linkage in these two groups of raw materials with which Nabataeans worked. The figurines show lively animals (camels, horses, asses, bulls, rabbits, etc.), human faces and full statuettes.[63] The latter categories seem to represent gods or goddesses and may have been used for offerings. By their technical features they seem to belong mainly to the 1st century A.D. This interesting group is now the subject of a first systematic study by K. Parlasca.[64]

Relief Pottery

In Petra occasionally fragments of small vessels with moulded designs on the outside have been found. They were not made like *Terra Sigillata* in one piece but moulded in two halves and stuck together. The relief decoration shows tongues, garlands, bands of dots or lines and miniature faces[65] (Pl. 51a). The faces, in particular, make a strong 'Nabataean' impression. The clay is usually the typical brick-red, mat and resembles the fabric of oil lamps. Not even homogeneous in design and texture, some look like the figurine type of pottery translated into the shape of cups, beakers or juglets. They are very rare in Petra, and only a few sherds have been found at Oboda.[66]

This ware was hardly recognised as a separate group and remained rather enigmatic until recently, but now it can be attested as Nabataean and may be dated around the 1st century A.D.[67]

Nabataean Sigillata

Nabataean Sigillata[68] is a quite specific group characterized by a chocolate brown colour and a mild gloss as in the example of a crater with knuckle-bone feet from Oboda[69] (Pl. 51b). This ware stands out as a group on its own, but again it is not homogeneous. Originally discovered at Oboda, a few specimens are also known from Petra[70] and some other ones are alleged to come from there. A. Negev sees three types in this ware of which at least the first was actually produced in the Oboda workshop which was in operation from ca. 20 B.C. to 50 A.D. The other two types are still open to research.

Uncertain Wares

We are now left with a problematical group of 'uncertain wares', which should also have their place somewhere in this half millenium from the 1st century B.C. to the 4th century A.D. Here we are confronted with a bundle of coarse and gritty brownish and greyish pots and other vessels of all sorts of shapes.[71] Their fragments are found on most Nabataean sites and it will take a substantial research effort to classify them properly. In this context it is to be regretted that the fundamental typological study already carried out by N. Khairy is not yet available to the scientific world.[72] In this work about 750 types of unpainted pottery have been isolated as being specific to Nabataean sites. When placed into a chronological system the present group of 'uncertain wares' could possibly be abandoned.

Conclusion

When summing up the above evidence it is possible, though on a tentative basis, to devise a typological and chronological framework for the various Nabataean wares. This table demonstrates the present state of knowledge. Some points may have to be revised as a result of future research.

Nabataean Pottery Wares		
Type of Ware		**Tentative Date**
Painted Pottery		
Early ware		1st. century B.C.
Middle (classical) ware		1st. century A.D.
Late coarse ware		2nd./3rd. century A.D.
Unpainted Pottery		
Fine red (classical) wares	plain	1st. century B.C./A.D.
Fine red (classical) wares	rouletted, impressed	1st. century A.D.
Coarse red or brownish wares; Green and Greenish wares		1st./3rd. century A.D.
Moulded wares	oil lamps, figurines	1st. century B.C./A.D.
Moulded wares	relief pottery	1st. century A.D.
Nabataean *Sigillata* wares		1st. century B.C./A.D.
Uncertain wares		1st/3rd and 4th(?) century A.D.

Fig. 37: Tentative typological and chronological framework of the various Nabataean wares.

Outlook

At the end it appears appropriate to make some suggestions for further research; namely:

- to establish a close dating system for the various types and styles of painted Nabataean pottery;
- to identify and date the specifically Nabataean types of the unpainted wares and to draw their borderline towards the general Roman and Byzantine pottery;
- to standardize the terminology for the different types of Nabataean ceramic wares;
- to publish all the material already available from excavations, surface surveys and other finds.

Once this is achieved, Nabataean archaeology would be placed on much firmer ground.

Notes

(1) A. Negev, "The Chronology of the Middle Nabatean Period", *Palestine Exploration Quarterly* 101 (1969), 5-14.

(2) A.E. Conway, "Exploring a City of Mystery", *Illustrated London News* (Feb. 1, 1930), 160, 161, 192; G. Horsfield, A.E. Conway, "Historical and Topographical Notes on Edom with an Account of the First Excavations at Petra", *Geographical Journal* 76 (Nov., 1930), 369-390; G. & A. Horsfield, "Sela-Petra The Rock of Edom and Nabatene, Part IV", *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine* IX, No. 2-4 (1941).

(3) N. Glueck, *Explorations in Eastern Palestine* (1934-1942); *Explorations in Western Palestine* (1953-1965). For a complete bibliography of the numerous aricles see J.A. Sanders (ed.), *Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century, Essays in Honor of Nelson Gleuck* (Garden City, 1970), 382-394. N. Glueck, *Deities and Dolphins* (New York, 1965), 101, 139, 167-176.

(4) M.A. Murray, *A Street in Petra* (London, 1940).

(5) G.L. Harding, "A Nabataean Tomb at Amman", *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine* XII (1946), 58-62.

(6) Ph. C. Hammond, "A Study of Nabataean Pottery", Dissertation Yale University 1956 (unpublished); University Microfilms, Ann Arbor, no. 67-9216; "Pattern Families in Nabataean Painted Ware", *American Journal of Archaeology* (1959), 371-382, "A Classification of Nabataean Fine Ware", *American Journal of Archaeology* (1962), 169-180, *The Excavation of the Main Theater at Petra* (London, 1965).

(7) P.J. Parr, "Excavations at Petra 1958-59", *Palestine Exploration Quarterly* (1960), 124-135; P.J. Parr and C.M. Bennett, "The Nabataeans in Petra", *Archaeology* 15 (1962), 233-243; P.J. Parr, "The Beginnings of Hellenisation at Petra", ...

(10) A.D. Tushingham, "The Excavations at Dibon (Dhiban) in Moab", *Annual of the American Schools of Oriental Research* 40 (1972).

(11) F. Zayadine, "Une tombe nabatéenne près de Dhat-Ras", *Syria* 47 (1970), 117-135; "Excavations at Petra 1973-1974", *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 19 (1974), 135-150

(29) "Die Bemalte nabatäische Keramik, Verbreitung, Typologie und Chronologie", in M. Lindner (ed.), *Petra und das Königreich der Nabatäer,* 2nd. edit. (München, 1974), 70-93.

(30) *Loc. cit.*

(31) H.D. Colt (ed.), *Excavations at Nessana* (London, 1962), 270.

(32) *Loc. cit.* and *cf.* nn. 1-12. The publications not yet cited are: R.L. Cleveland, "The Excavation of the Conway High Place (Petra) and Soundings at Khirbet Ader", *Annual of the American Schools of Oriental Research* 34/35, (New Haven, 1960); D. Kirbride "A Short Account of the Excavations at Petra in 1955-56", *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 4/5 (1960), 117-122; Murshed Khadija, Excavations undertaken under the supervision of M. Murshed A. Khadija during clearance works at Petra for the Department of Antiquities, 'Ammān. These excavations comprised the Temenos (1962/63), the area of the Urn Tomb (1978); Murshed Khadija, Excavations undertaken with the Naturhistorische Gesellschaft Nürnberg under the direction of M. Lindner in 1976: P. Savignac and G. Horsfield, "Le temple de Ramm", *Revue Biblique* 44 (1935), 245-278; D. Kirkbride, "Le temple nabatéen de Ramm, son évolution architecturale", *Revue Biblique* 67 (1960), 65-92; F.V. Winnett, "The Excavations at Dibon (Dhiban) in Moab 1950-51", *Annual of the American Schools of Oriental Research* 36/37 (1964); W.L. Reed, "The Excavations at Dibon (Dhiban) in Moab 1952", *Annual of the American Schools of Oriental Research* 36/37 (1964); H. Kurdi, "A New Nabataean Tomb at Sadagah", *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 17 (1972), 85-87; G.M. Crowfoot, "The Nabataean Ware of Sbaita", *Palestine Exploration Fund Quarterly Statement* (1936), 14-27.

(33) P.J. Parr and C.M. Bennett, "The Nabataeans in Petra", *Archaeology* 15 (1962), 233-243.

(34) "A Sequence of pottery from Petra", in J.A. Sanders (ed.), *Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century, Essays in Honor of Nelson Glueck* (Garden City, 1970), 348-381, pls. 42-45.

(35) P.J. Parr, "Pottery, People and Politics", R. Moorey and P. Parr (ed.), *Archaeology in the Levant, Essays for Kathleen Kenyon* (Warminster, 1978), 202-209.

(36) "Excavations at Petra 1973-1974" *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 19 (1974), 135-150.

(37) A. Negev, *The Nabatean Potter's Workship at Oboda* (Bonn, 1974).

(38) A. Negev and R. Sivan, "The Pottery of the Nabatean Necropolis at Mampsis", *Rei Cretariae Romanae Fautorum* (Acta 17/18, 10. Congr. Switzerland, 1977), 109-131.

(39) *Loc. cit.*

(40) Private communication received in September 1978.

(41) G.L. Harding, "A Nabataean Tomb at Amman", *Quartely of the Department of Antiquities in Palestine* XII (1946), 58-62.

(42) Horsfield nos. 170, 171.

(43) Horsfield nos. 140, 141, 173, 223.

(44) Horsfield nos. 154, 155.

(45) Horsfield no. 156.

(46) Horsfield nos. 181, 212-215.

(47) Horsfield no. 135.

(48) N.I. Khairy, Nabataean Impressed Ware (report in preparation).

(49) Horsfield nos. 25, 26, 122-124, 156, 200-205. Horsfield's dating as early as the 2nd century B.C. is obsolete.

(50) "Excavations at Petra 1973-1974" *Annual of the Department of Antiquities of Jordon* 19 (1974), 149-150, pls. 59-68, nos. 10, 16, 17, 22, 23, 45.

(51) A. Negev and R. Sivan, "The Pottery of the Nabatean Necropolis at Mampsis", *Rei Cretariae Romanae Fautorum* (Acta 17/18, 1977), 109-131, nos. 20, 36, 52, 54, 66, 67, 74, 77.

(52) *Op. cit.,* no. 20. This type is reported to be very common in the Oboda workshop.

(53) *Op. cit.,* many examples.

(54) *Op. cit.,* nos. 23, 25, 38, 49, 73, 79.

(55) Horsfield no. 222; D. Zayadine, "Excavations at Petra 1973-1974", *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 19 (1974), 149, pl. 59, no. 39.

(56) W.L. Reed, "The Excavations at Dibon (Dhiban) in Moab 1952", *Annual of the American Schools of Oriental Research* 36/37 (1974), no. 61.

(57) A. Negev, *op. cit.,* nos. 44, 45, 53, 54, 58, 59, 69.

(58) M.A. Murray, *A Street in Petra* (London, 1940), no. 63.

(59) Horsfield, nos. 42, 43, 162, 413-418.

(60) A. Negev, *The Nabatean Potter's Workshop at Oboda* (Bonn, 1974), 28-29, 44; H. Kurdi, "A New Nabataean Tomb at Sadagah", *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 17 (1972), 86-87, 164-165.

(61) Horsfield nos. 45-49, 420-437, A. Negev, *op. cit.,* 24-28, nos. 60-86.

(62) Horsfield no. 50, A. Negev, *op. cit.,* no. 82.

(63) Horsfield nos. 51-54, 164-166, 188-189, 242-244, 248-260, 439-448.

(64) Report in preparation.

(65) Horsfield nos. 219-220, K. Schmitt-Kort, *Die Nabatäer, Spuren einer arabischen Kultur der Antike, Deutsch-Jordan. Ges., Ausst. Katalog,* (Hannover, 1976), 56.

(66) R. Sivan, "Notes on Some Nabatean Pottery Vessels", *Isr. Expl. Journ.* 27 (1977), 138-144, no. 11, pl. 14.

(67) Report in preparation.

(68) A. Negev, "Nabatean Sigillata", *Revue Biblique* 79 (1972), 381-398.

(69) *Op. cit.,* no. 1. See also colour photograph in A. Negev, *Die Nabatäer, Antike Welt* (Sondernummer 1976), ill. 37.

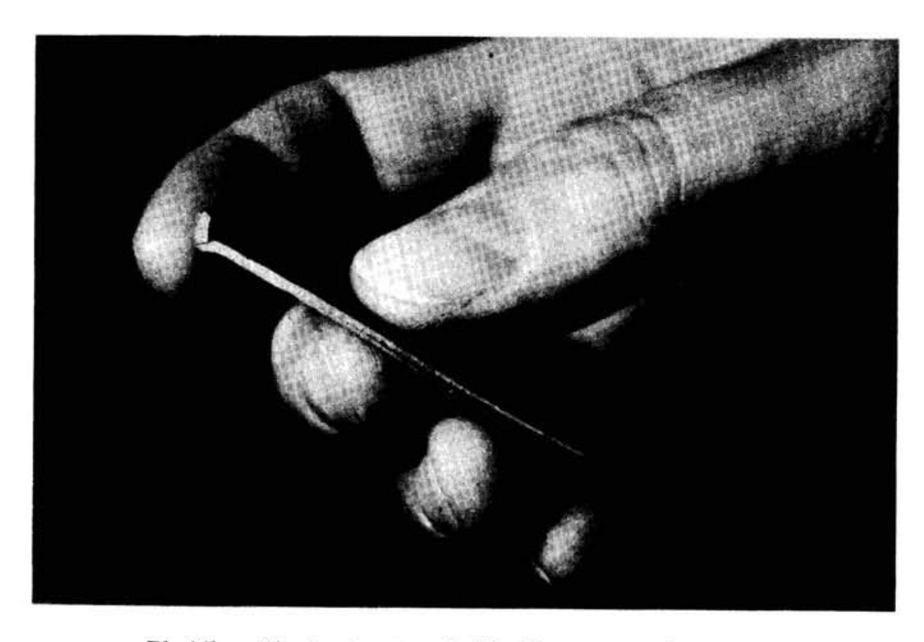
(70) K. Schmitt-Korte, *op. cit.,* ill. 33.

(71) For some examples of this group see Horsfield, nos. 33, 71, 90, 124, 128, 156, 222-227.

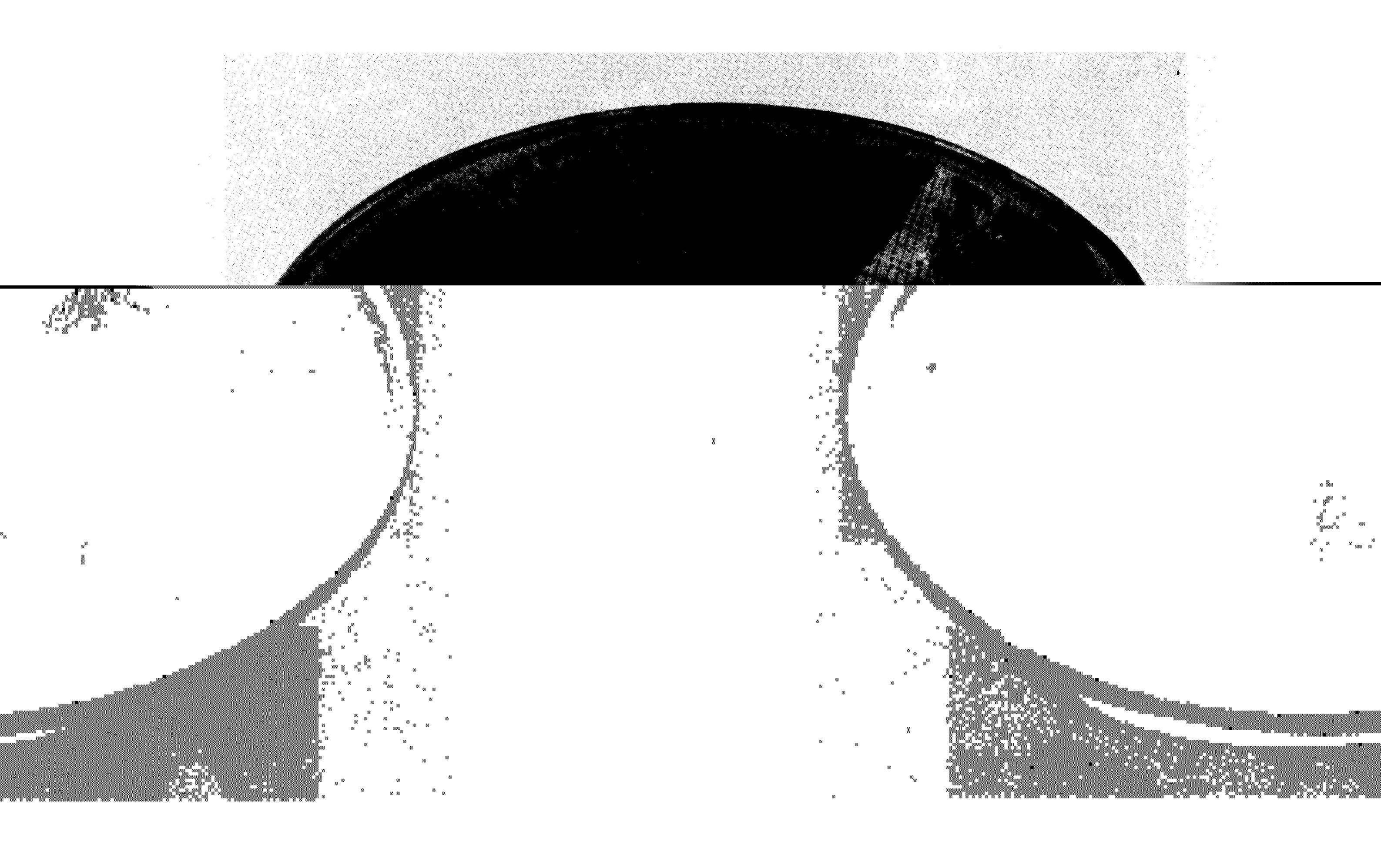
(72) N.I. Khairy, "A Typological Study of the Unpainted Pottery from the Petra Excavations" (Doctoral Thesis, University of London, 1975, unpublished).

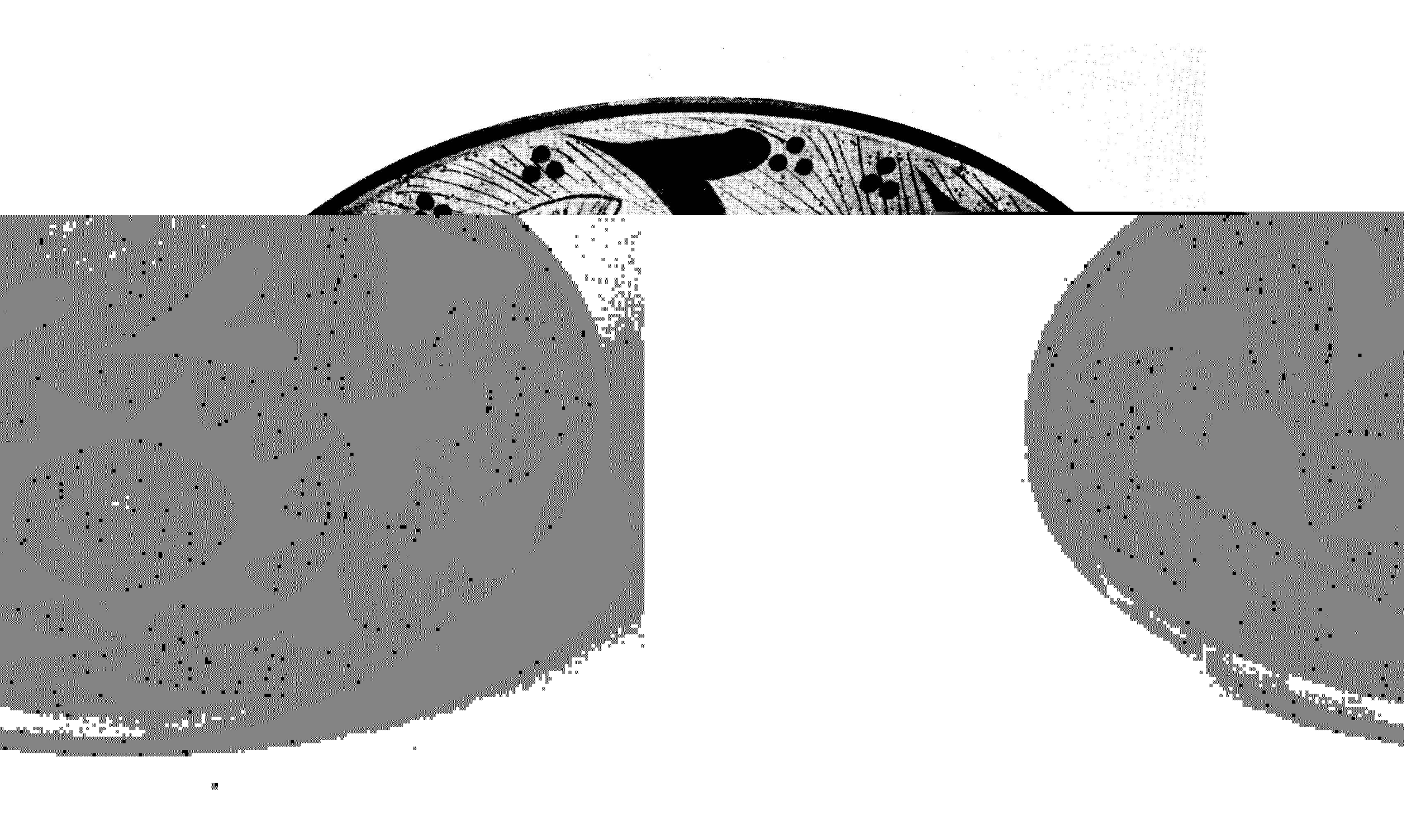


Pl. 44a: Examples of Nabataean painted pottery (1st. cent. B.C./A.D.).



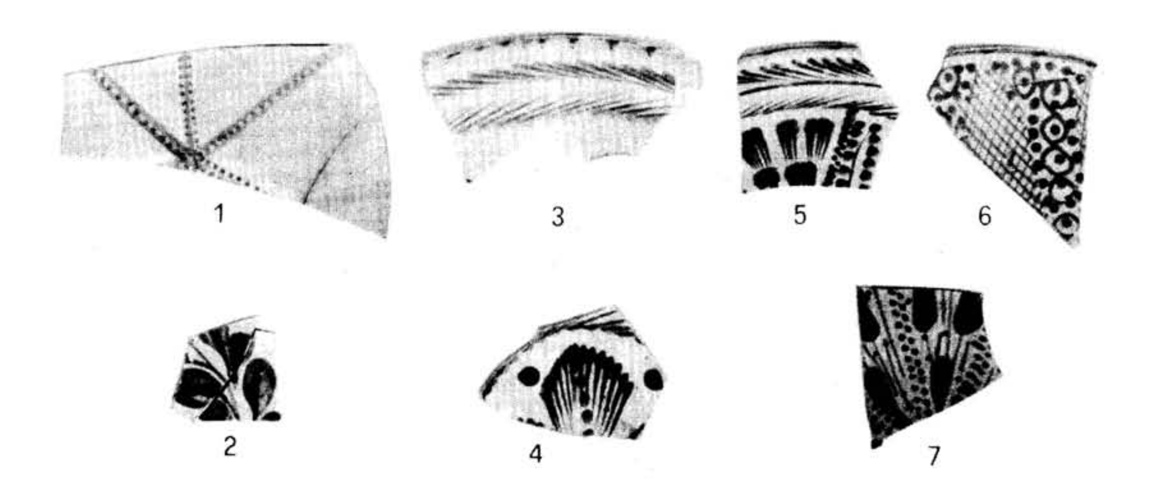
Pl. 44b: The best pottery is thin like a penny (1 - 2 mm).



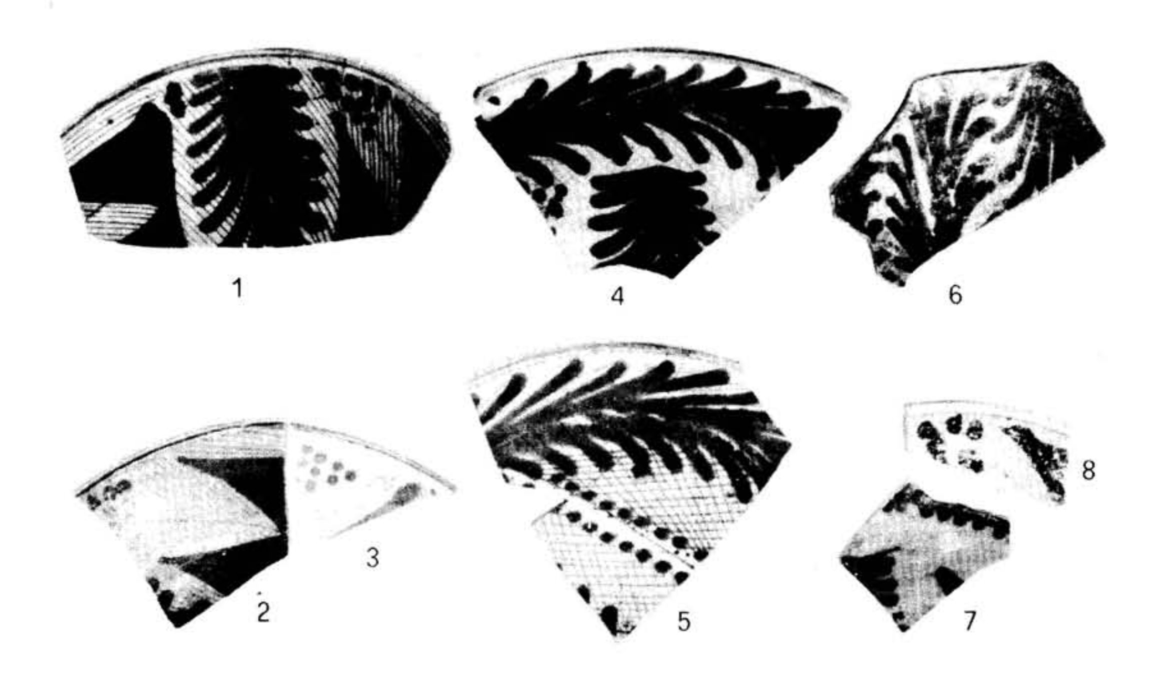


: ... interlaced with stalks and berries, floating around a star in
... brick-red clay, concentric pattern arrangement. Diameter 20 cm.
...hase of the classical period (1st. cent. A.D.).

Pl. 46a Stylized leaves of ivy or ...
the centre. Brownish paint on ...
over 90% original. A masterpi...



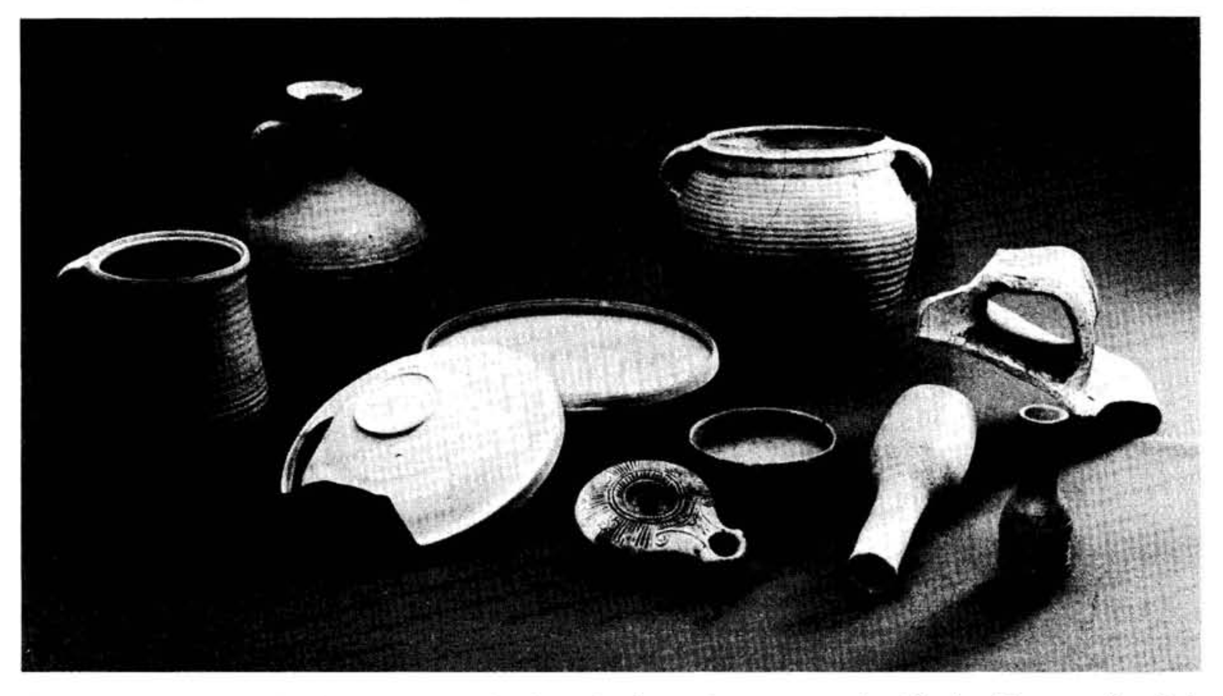
Pl. 47a: Nos. 1 - 5: early painted ware showing geometric lines or naturalistic leaves and tendrils, followed by designs of needle patterns (1st. cent. B.C.). Nos. 6 - 7: trellis design and stylized fruits of the classical period (1st. cent. A.D.).



Pl. 47b: Palmette designs of different phases. Nos. 1 - 3: classical fine ware in red-brown paint (1st. cent. A.D.) Nos. 4 - 5: later coarse ware in dark-brown (2nd. cent. A.D.), Nos. 6 - 8: crude painting in black (3rd. cent. A.D.?).



Pl. 48a: Unpainted pottery: fine red classical ware, plain (1, 3, 5, 6), ribbed (2), impressed (4) and rouletted (7). (1st. cent. B.C./A.D.).



Pl. 48b: Specimens of plain pottery ranging from the fine red to coarse red and brownish wares (1st./3rd. cent. A.D.). A precise dating of this group still presents problems.



Pl. 50a: Typical Nabataean oil lamps and a bottom with a Nabataean inscription of uncertain reading (1st. cent. B.C./A.D.).



Pl. 50b: Nabataean figurines showing a camel, votive statuettes and fragment of drinking horn (1st. cent. A.D.).



Pl. 51a: Nabataean relief pottery (1st. cent. A.D.).



Pl. 51b: Nabataean Sigillata, a crater of chocolate - brown colour found at Oboda (1st. cent. B.C./ A.D.).

List of Maps

List of Figures

Pages

List of Plates

Pages



LISTS OF PLATES, FIGURES AND MAPS

SHAHĪD, DR. IRFAN
School of Languages and Linguistics, Georgetown University, Washington D.C. 20057, U.S.A.

SPEECE, DR. MARK
Department of Oriental Studies, University of Arizona, Tucson, Arizona 85721, U.S.A.

STRIKA, DR. V.
Instituto Universitario Orientale, Scuola di Studi Islamici, Napoli, Italy.

ZAYĀDINE, DR. FAWZI
General Directory of Antiquities, P.O. Box 88, Amman, Jordan.

Names and Present Addresses of Participants with Papers in other than Arabic

BEESTON, PROF. A.F.L.
St. John's College, Oxford OX1 3JP, England.

BOWERSOCK, PROF. G.W.
Department of Classics, Harvard University, 319 Boylston Hall, Cambridge, Massachussetts 02138, U.S.A.

BRICE, DR. WILLIAM C.
School of Geography, University of Manchester, Manchester, M13 9PL, England.

DOSTAL, PROF. WALTER
Institut fuer Voelkerkunde, Der Universitaet Wien, A - 1010 Wien, Universitaetsstrasse 7, Wien, Austria.

JAMME, PROF. A.
The Catholic University of America, Washington, D.C. 20064, U.S.A.

KIRWAN, SIR L.P.
The British Institute in Eastern Africa at the Royal Geographical Society, 1 Kensington Gore, London S.W. 72 AR, England.

KUNITZSCH, PROF. DR. PAUL
Davidstr. 17, D-8000 München 81, West Germany.

MENDENHALL, PROF. GEORGE E.
Department of Near Eastern Studies, The University of Michigan, Ann Arbor, Michigan 48109, U.S.A.

MÜLLER, PROF. WALTER
Seminar fuer Semitistik, Am Krummbogen 28F, Block F, D-3550 Marburg A.D. Lahn, West Germany.

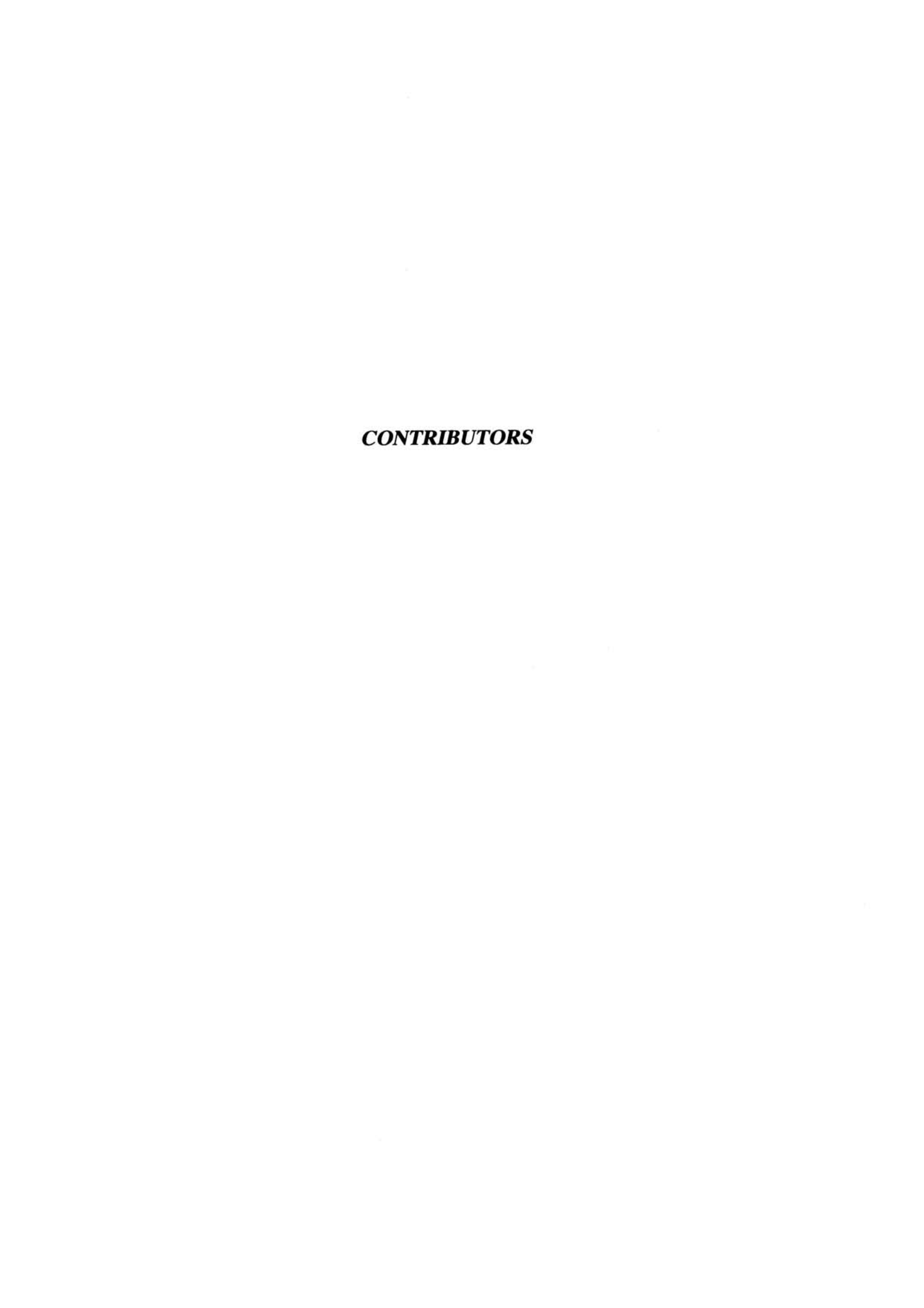
PARR, PROF. PETER
Institute of Archaeology, University of London, 31-34 Gordon Square, London WC1H OPY, England.

POTTS, DR. DANIEL
Department of Anthropology, Harvard University, Cambridge MA 02138, U.S.A.

ROBIN, DR. CHRISTIAN
26 Avenue Pasteur, 94250 Gentilly, France.

RYCKMANS, PROF. JACQUES
2 Biest, 3042 Lovenjoel, Belgium.

SCHMITT-KORTE, MR. K.
Am Forthaus 29, 6078 Gravenbruch, B-1 Frankfurt, West Germany.



CONTRIBUTORS

List of Non-Arabic Contributions

LIST OF NON-ARABIC CONTRIBUTIONS

Combined Lists of Contributions

* The asterisk on an author's name means that his paper is in Arabic, and his work should be looked for in the Arabic Section.



COMBINED LISTS OF CONTRIBUTIONS

major and subsidiary titles and numbers–where they occur–of subsidiary titles. In the non-Arabic section, we used bold face type on certain specific occasions, i.e. for the numbering of the *Sūras* and verses of the Holy *Qur'ān*, and archaeological inscriptions and their component elements.

III. Editing

The editing of the papers contained in this volume was undertaken by a committee of faculty members whose names have been mentioned elsewhere, headed by Prof. Dr. Abd al-Raḥmān al-Ṭayyib al-Anṣāry, Chairman of the Symposium and Chairman of the Department of Archaeology and Museology. Were it not for the generous help which Prof. al-Anṣāry has given in solving some of the difficult problems we have encountered, this volume probably would not have appeared at the appropriate time. He deserves our most sincere thanks and appreciation.

In addition, the Committee had recourse to several distinguished scholars who reviewed some of the papers in different stages of their preparation for publication and to whom we express our gratitude. We especially mention:

Prof. Dr. Ḥasan Ẓāẓā (Arabic Language and Semitic Studies).
Prof. Dr. Muṣṭfā Kamāl 'Abd al-'Alīm (Classical History and Civilization).
Prof. Dr. Aḥmad Ḥasan Ghazāl (Classical Archaeology and Civilization).
Dr. Sa'ad 'A. al-Rāshid (Islamic Archaeology).

The editors take this opportunity to express their gratitude to the College of Arts Research Centre and its Chairman, Dr. 'Izzat 'Abd al-Majīd Khaṭṭāb, for the financial assistance granted by them that made possible the preparation of this volume for printing. Our thanks are due to Aḥmad Abu'l Qāsim al-Ḥasan, Technical Assistant in the Department of Archaeology and Museology, for the help in reading the printer's proofs of the papers in the Arabic section, Zahid Akbar, secretary at the Symposium Secretariat, for the pains he has taken in preserving the various material connected with this volume and for typing portions of the English manuscript. Thanks are also due to Yūsuf Qīrāṭ, secretary of the Department of Archaeology and Museology, College of Arts, for typing parts of the Arabic Section of the manuscript. To Mūsa 'Abd Allāh Āl 'Ismā'īl, Director-General of the University Press, and those members of his staff involved in the printing of the book, we offer our special thanks. Finally, the editors express their gratitude to all those who may have assisted them in any way and whose names have been unintentionally overlooked through oversight.

God it is Who grants success, to Him be praise and thanks, and peace be upon His Prophet.

The Executive Editors
Rabī' al-Awwal 1404
December 1983

systems adopted by the various authors (involving techniques of composition, methods of citation of sources and ways of dividing the papers into sections) would only deter from the value of such an important historical work containing forty-five papers. This acheivement of conformity in such circumstances was not an easy task

3) In line with the preceding remarks, we have been careful to confine all citations of sources to the Notes; this has necessitated our transferal of citations inserted in the text of some contributions to the Notes. In some individual instances, we have had to renumber the Notes; thus their number was thereby augmented. There were a few papers in which all the citations were in the text. In those instances, we transferred them, in their entirety, to the Notes.

4) In many cases, the footnotes were located at the bottom of the page. So as to facilitate the task of printing, we have removed them, in each case, to the end of the paper concerned, and have numbered them sequentially.

5) All expressions directed to the audience attending the symposium were deleted.

B. Additions

1) The specialized editor of any one paper has been constrained to add observations which were deemed indispensable on certain occasions, whether to draw the author's attention to a point which it was not easy to pass by in silence or else to alert the reader who may not have a background on the subject and would otherwise not derive the fullest advantage from the contribution in question. Therefore, the editors have had to explain certain points and to add some information. We have made these additions as unobtrusive and restrained as possible, lest the writer feel that the editor has been granted the opportunity to comment on his contribution without a similar opportunity of reply or commentary being granted to him. Such additions have not been inserted in the text or the footnotes but have rather been placed at the bottom of the page and are denoted as follows: **Editor*. In the text, such notes are indicated with letters of the alphabet, accompanied by asterisks.

2) In some of the Arabic contributions, European proper names were written in Arabic letters, only; we have added such names in the original languages, in the proper places (in the text or editors' note, as suitable), for a reason which we believe the readers will not be unaware of.

II. Technical Considerations.

A. Numbering of Plates, Figures and Maps

We considered it to be both easier and more advantageous as well to number the plates, figures and maps independently and to number each group consecutively, without exception, in the Arabic and non-Arabic sections of the volume. The plates, figures and maps that appear in the Arabic section are denoted by having their numbers in Arabic, whereas those that appear in the non-Arabic section are designated by numbers in English. The numbering begins in the Arabic section and continues in the non-Arabic section. For example, the first plate in the English Section of the volume is Pl. 44 (in the contribution of K.H. Schmitt-Korte), following Pl. 43 (in the contribution of 'Abd al-Mun'im 'Abd al-Ḥalīm Sayyid), which is the last plate in the Arabic section. The figures and maps are dealt with in similar fashion.

B. Bold Type

Since italics are not easily available in Arabic printing, we have used bold face type instead in the Arabic section to refer to *Sūras* and verses of the Holy *Qur'ān*, titles of primary and secondary sources, numbers of manuscripts, archaological inscriptions and their component elements, as well as

The reader will also notice minor variations between the titles of some of the contributions in this volume and those printed in *Abstracts of the Papers,* the booklet which was published shortly before the convening of the Symposium. This is a result of the fact that the titles published in the booklet of abstracts were derived from information provided to us by the authors themselves along with the abstracts of their papers, which they sent to us some time before the arrival of the papers themselves. When the papers finally did arrive, it was observed that their titles in several instances varied from those provided with the abstracts. However, the booklet of abstracts was already in press and it was impossible to alter it in any way. The variations referred to are, in any case, insignificant and the titles as they appear in this volume are to be considered determinate.

In addition we would like to draw the reader's attention to the following editorial and technical considerations.

I. Editorial Considerations

There are two categories of editorial considerations, involving modifications and additions to the papers, in the following manner.

A. Modifications

1) It was deemed expedient to standardize the orthography of proper names and place-names in order to avoid a multiplicity of spellings or so as to avoid the use of obscure or unusual orthographies which might perhaps be a source of confusion as to their true referrent. In the non-Arabic section of this volume, we have employed the system of transcription of Arabic and Islamic words followed by the *Encyclopaedia of Islam,* except for minor changes which we have incorporated into that system which will be immediately apparent to the reader. We did not deviate from this principle except in a few cases, where such deviation was inevitable. One such case is where certain contributors preferred having their names transcribed in a particular way were such spellings retained. Another deviation involved the spelling of place-names used as references to inscriptions. The third case of departure from the system is particularly apparent in the paper written in French by Christian Robin, in which he adopts the French system of transcription of place-names. Because the paper is in French and not English, and lest such names, if transcribed according to the system adopted, be obscured to French and Francophone scholars, we have thought it best to retain the author's system as much as possible.

2) In order for the methodology of this volume to be consistent and homogeneous with that of Volume I, it was deemed necessary to standardize, in like manner, the citation of primary and secondary sources and to do away with any inconsistencies in the internal divisions of the papers. In so doing, we have followed the clearest and most widely-used manner of citation, in which the name of the author comes first and is followed by the title of the work in question, the year of its publication and the pages referred to. This system is modified as needed if the work cited is a paper published in a collection of papers or a journal. If a particular work is referred to more than once in the same contribution, we have decided to avoid repetition and possible ambiguity in the citation by making use of the expressions *op. cit., loc. cit., ibid.,* etc. The same consideration can be applied to the papers written in Arabic. In that case, we have employed the expressions الموضع نفسه، المرجع نفسه and المرجع السابق نفسه as is customary. Even though these matters may seem to be self-evident, we thought it best to mention them here for the sake of clarity. As a result of our desire to standardize, we have had to modify aspects of several of the contributions. We sincerely hope that those authors whose contributions have been affected in this way will forgive us for taking such liberty because it was a necessity imposed on us for the sake of the work itself. Furthermore, the presence of more than ten divergent

Contents

*For the Arabic Contributions see the Arabic Section.

Editorial Committee

Members of the Committee who read the papers in their respective fields of specialization and prepared them for publication.

1404 A.H./1984



STUDIES IN THE HISTORY OF ARABIA

Proceedings of the Second International Symposium on Studies in the History of Arabia, Jumādā I, 1399 A.H./April, 1979, sponsored jointly by the Department of History and Department of Archaeology and Museology, College of Arts, King Saud University (formerly Riyadh University), Riyadh, Saudi Arabia.

VOLUME II

Pre-Islamic Arabia

Executive Editors

Prof. Dr. Abdelgadir M. Abdalla

Prof. Dr. Sami Al-Sakkar

Dr. Richard Mortel

Supervision by:

Prof. Dr. Abd Al-Rahman T. al-Ansary.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين والصلاة والسلام على

أفضل المرسلين سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين

Pre-Islamic Arabia

Cover:
(1) Inscription in *Musnad* of ʻIjl b. Hafʻam.
(2) Bronze camel statuettes.
King Saud University Excavations at *Qarya* (al-Faw).

STUDIES IN THE HISTORY OF ARABIA

This is the title of a new series of Arabian studies, being the proceedings of the International Symposia on Studies in the History of Arabia now organized jointly by the Department of History and the Department of Archaeology and Museology, the College of Arts, King Saud University (formerly: Riyadh University), Riyadh, Saudi Arabia.

The First International Symposium on the Sources for the History of Arabia, whose proceedings form Volume I, was held under the auspices of the Department of History in April, 1977. The Second International Symposium, on Pre-Islamic Arabia, took place in April, 1979, and was the joint effort of both departments. Its proceedings constitute the present volume. Both departments recently organized the Third International Symposium on *Arabia in the Age of the Prophet and the Four Caliphs.* It was held in the week of 21-28 October, 1983, and its proceedings will appear as Volume III. The titles in the series are:

STUDIES IN THE HISTORY OF ARABIA

Vol. I: 2 Parts
SOURCES FOR THE HISTORY OF ARABIA
(Riyadh University Press, 1979)

Vol. II
PRE-ISLAMIC ARABIA
(King Saud University Press, 1984)

Vol. III
ARABIA IN THE AGE OF THE PROPHET AND THE FOUR CALIPHS
(King Saud University Press, in preparation)





Studies in the History of Arabia

Vol. II

Pre-Islamic Arabia